نقولا زيادة

أيّامي

سِيرة ذاتِيَّة

ولد الدكتور نقولا زيادة
في دمشق في ٢ كانون الاول،
ديسمبر ١٩٠٧ . درس في دار المعلمين
الابتدائية بالقدس وتابع تحصيله العالي
في جامعة لندن حيث
حصل على شهادة دكتوراه في التاريخ
الاسلامي (سنة ١٩٥٠).

عمل في حقل التعليم اولا في عكا،
فلسطين ثم حاضر في الكلية العربية والكلية
الرشيدية في القدس،
وكذلك حاضر في مركز دراسات الشرق
الاوسط بالقدس.

عمل بعدها في قسم اللغات الشرقية في
جامعة كمبردج (بريطانيا)
وعين سنة ١٩٤٩ مساعد مدير معارف برقة
في ليبيا.

والتحق في اواخر تلك السنة
بدائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في
بيروت حيث ظل يمارس عمله
حتى تقاعد عام ١٩٧٣ .
واليوم هو استاذ شرف في تلك الدائرة.

عمل استاذا زائرا في عدد من الجامعات
الكبيرة منها هارفرد
وعين شمس والجامعة الاردنية
والجامعة اللبنانية.

للدكتور زيادة مؤلفات عديدة
باللغتين العربية والانكليزية
عددها بالعربية ٣٢ مؤلفا
و ٧ بالانكليزية، كما ترجم الى العربية [illegible]
من الكتب القيمة ابرزها
«ازمة الانسان الحديث»، «تاريخ العرب»
و «تاريخ البشرية».

له مقالات عديدة بالعربية والانكليزية
دارت باكثرها حول تاريخ الشرق الاوسط
وافريقيا الشمالية.

أيّـامي

نقولا زيادة

أيّامي

سِيرة ذاتِيَّة

الجُزء الثّاني

هــزار

جميع الحقوق محفوظة

هزار بابلشنغ لمتد، لندن

١٩٩٢

ينشر هذا الكتاب بالاشتراك مع :

EDITION HAZAR, PARIS

هزار غرافكس، بيروت

وبالتعاون مع الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت

تنفيذ واخراج فوكس ليمتد

ISBN SET 1 874371 19 9
ISBN VOL.1 1 874371 20 2
ISBN VOL. 2 1 874371 21 0

فهرس الجزء الثاني

القسم الثالث

في أوروبا ١٩٣٥-١٩٣٩ (٢)
الفصل الرابع عشر ١١
الفصل الخامس عشر ٣١
الفصل السادس عشر ٤٢

القسم الرابع

ثماني سنوات في القدس
الفصل السابع عشر ٥٨
الفصل الثامن عشر ٧٣
الفصل التاسع عشر ٨٩
الفصل العشرون ١١١
الفصل الحادي والعشرون ١٣٢

القسم الخامس

من لندن إلى بنغازي
الفصل الثاني والعشرون ١٤٧
الفصل الثالث والعشرون ١٧١

القسم السادس

في بيروت
الفصل الرابع والعشرون ١٨٧
الفصل الخامس والعشرون ٢٠٣
الفصل السادس والعشرون ٢٢٠
الفصل السابع والعشرون ٢٣٥
الفصل الثامن والعشرون ٢٥١
الفصل التاسع والعشرون ٢٦٤

مناسبات ثلاث
الفصل الثلاثون ٢٧٤

القسم الثالث

في أوروبا ١٩٣٥-١٩٣٩ (٢)

الفصل الرابع عشر

ومن الأمور التي أفدتها كثيراً في هذه السنوات التي قضيتها، هي قضية علاقة اللغة بالفكر. صحيح، أنني قرأت كثيراً من الكتب الأجنبية في موضوع التاريخ وفي غيره، خاصة باللغة الانكليزية طبعاً، قبل ان انتقل من عكا الى لندن، لكن تكويني الفكري ظل في أساسه عربياً، ومعنى هذا أنه ظلّ في أساسه يرتبط ويتقيد باللغة العربية. ومن هنا كانت له حدود. لغة لا مثيل لها. لغة أبدعها الإبداع وأتقنها الإتقان. لغة ليس بين لغات الأرض مثلها. لغة فيها الاشتقاق وفيها كذا وفيها كذا وفيها كذا. صحيح، لكن هذه اللغة، التي كنت أنا استعملها للتعبير عما يجول في فكري هي، بحد ذاتها، فرضت عليها ظروفها وتاريخها ومستعملوها وحفظتها وسدنتها على أن تكون لغة فيها من التقييد أكثر مما يجب ان يكون في لغة حية وفي لغة عرفت من الحياة الفكرية شيئاً كثيراً من قبل.

أدركت من قراءتي مثلاً لكتاب «القواعد الانكليزية، ماضيها وحاضرها» لـ«مانسفيلد» English Grammar, Past & Present، أدركت التطور الذي أصاب اللغة الانكليزية، لا أقول في مدى ١٤٠٠ من السنوات، ولكن حتى من أيام شكسبير. أدركت أن هذا التطور كان كبيراً، وكان مهماً، ومن ثم أصبحت اللغة اداة تتطور مع الزمن ومع الفكر ومع العلم بحيث تصبح دائماً صالحة للنمو، من حيث انها أداة ووعاء. ولما تعلمت الالمانية وجدت شيئاً من ذلك هناك، وعندها عدت الى نفسي فوجدتني بحاجة الى أن أعيد النظر في ثقافتي العربية، لغة وفكراً. ومن ذلك الوقت وأنا أطالب معلمي اللغة العربية والكتاب باللغة العربية أن يجعلوا اللغة العربية لغة حية، والذي أقصده بذلك ليس اللجوء الى العامية، فهذا آخر ما يمكن أن أفكر به، ولكن جعل اللغة شيئاً حياً لا شيئاً يصلح للمتحف.

هذه الفكرة أفدتها أنا من هذا الاتصال المستمر لأربع سنوات مع الناس على أختلاف طبقاتهم، على اختلاف انواع تفكيرهم، من قراءاتي المختلفة؛ من حضوري للمسرح؛ من حضوري للاستعراضات الفنية، من حضور للحفلات الموسيقية، جميع هذه الأشياء أعطتني الفكرة الأساسية أن اللغة قيدناها فقيدتنا، أي اللغة العربية، واللغة هناك اطلقوا لها العنان فأطلقت لهم العنان فكرياً.

أحسب أن أكثر الطلاب الذين ذهبوا الى الغرب للدراسة في أي من الأوقات السابقة واللاحقة لا بد ان وقعوا فيما يمكن ان يسمى «شرك الغرام». أعرف أنا واحداً من أصدقائي الذي لم يصب بهذا المرض، لكنه كان من الاستثناء الذي يثبت القاعدة. لقد كان من الطبيعي أن يتأثر الشاب الشرقي، عربياً كان أو غير عربي، بالأجواء الجديدة التي وصل اليها. فهو آت، على العموم، من أجواء محروم فيها التحدث الى البنات والفتيات والنساء، بله الزيارة والمعاشرة، ثم يجد نفسه في هذا الجو المرح، الجوّ الذي يمكن ان يطلب فيه ما يشاء وقد يلبى طلبه وقد لا يلبى. ولكن ليس هناك من يحمل سكيناً ليقضي عليه اذا هو اساء الأدب كما كان يرى هو أو كما ترى الجماعة في بلاده.

ومن اليسير على أي من هؤلاء الناس أن يروي من القصص عن غراماته ومغامراته الكثير. وهناك مثل

عربي يقول: وقانا الله شرّ شابٍ تغرّب ورجل متقدم في السن مات مجايلوه. وانا الآن أمثل الاثنين، أمثل شاباً تغرب قبل خمسين سنة ونيف، ورجلاً متقدماً في السن انتقل عدد كبير من مجايليه الى رحمة ربهم، ومن ثم فمن اليسير عليّ أن أكذب لأن الذين عاشروني توفوا، فليس هناك من يكذبني، والذين زاروا البلاد الأوروبية معي تفرّق شملهم، ولكنني لا أريد أن الجأ الى القصص الكثيرة التي رواها هؤلاء الشباب للفتيات الأجنبيات ولا الى القصص الكثيرة التي اخترعها هؤلاء الشباب عن علاقاتهم بالفتيات. فالواقع ان الأمر لم يكن على النحو الذي صوّره وتصوره هؤلاء، فلم تكن كل فتاة في باريس أو لندن أو برلين أو ميونيخ أو برمينغهام أو ليون أو ديجون أو بيزانسون مستعدة لأن تذهب الى الفراش مع أي شاب طلب منها ذلك. ولكن كثيرين من الذين ذهبوا الى تلك البلاد من شبابنا الشرقي يصورون الوضع كما لو كان كذلك. أذكر أن شاباً، لا أريد أن أذكر اسمه، لأنني لما اجتمعت به في الثلاثينات كان يرافق واحداً من كبار رجال السياسة الذين ذهبوا الى لندن من أجل فلسطين. ذهبنا لزيارته وكان المقصود من هذه الزيارة أن نحاول الحصول على شيء من آراء ذلك الرجل السياسي الكبير باعتبار ان هذا الشاب كان سكرتيره الخاص (وهو ابن أخته في الوقت نفسه). ولما دخلنا الغرفة التي كان يقيم فيها في «الدورشستر» وكان يومها أفخم فنادق لندن، أنا وموسى الحسيني، بدأ يسألنا عن حياتنا وسألناه عن حياته. فقال لنا إنه في باريس لا يستطيع ان يتخلص من تعلق الفتيات به وانه لا يدعو فتاة الى محله وبيته الا وتكون قد خلعت الثياب قبل ان يغلي القهوة. وكان هو عندها يغلي لنا القهوة، فلما شربناها، نظرت الى موسى وقلت له: موسى، تذكرت أنا أنني على موعد، فاذا كنت تريد أنت أن تبقى فلك ذلك أما أنا فلا استطيع البقاء. فقام موسى معتذراً معي، لأننا لم نذهب لنسمع هذا الكلام، هذا اللغو الذي لا قيمة له.

كما أن كثيرين من هؤلاء سقطوا في مهاوٍ ومطبات ملعونة بسبب تسرعهم في محاولة اقتناص الفرصة كأن الأمر شيء لن يعود امامهم بتاتاً. من ذلك انّ أحد الشباب، وكان ذلك في الاربعينات لا في الثلاثينات، بعد ان وصل الى لندن بخمسة أيام كان قد تعرّف الى بائعة التذاكر في دار من دور السينما في لندن واتفق معها على أن تذهب معه الى غرفته، وحسب ان الأمر صيدٌ يسير. فلما وصل الى الغرفة، خلع سترته وعلقها على جدار الحائط ثم ذهب مستأذناً الى الحمام، فلما خرج لم يجد الفتاة، ولم يجد الفلوس التي كانت في سترته أيضاً. وجد الجزدان مفتوحاً وخالياً. ولعل هذه مصيبة بسيطة، ولكن هناك ممن ذهبوا الى بلاد الانكليز في أوائل الثلاثينات، أي قبل أيامي أنا، ممن وقعوا مع الخادمة التي كانت تعمل في البانسيون وتزوجها الرجل وعاد الى بلاده وأصبح استاذاً كبيراً في الفلسفة في بلده، ومع ذلك فقد ظلت هذه متعلقة به وظل هو أيضاً متعلقاً بها بحيث ان حياته، كما قال لي الذين يعرفون الأمور، كانت جحيماً في جحيم.

هذا لم يمنع أبداً أن يكون هناك من أحسن الاختيار وأُحسن فيه النظر فكان من ذلك زواج طيب دائم نافع مفيد له ولها. فأنا أعرف شخصياً من تزوج فرنسية ومن تزوّج انكليزية ومن تزوّج اميركية ومن تزوّج المانية واسكندنافية وايطالية، وقد نجح الزواج. وأنا أصبت بالحب الصحيح مرتين فقط وفي مدة سنوات أربع وفي قطرين مختلفين.

كانت الاصابة الأولى التي بدأت في ربيع عام ١٩٣٦ في ميونخ وكانت صاحبة السهم الذي انطلق فأصاب هي «غودرون». غودرون كانت فتاة في نحو التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها. كانت قد انهت دراستها الثانوية وبدأت ما يمكن أن يسمى دراسة الكلية لأنها لم تكن تنوي أن تذهب الى الجامعة وانما كانت تريد أن تذهب الى كلية من الكليات المهنية التي تخصّص طلابها وطالباتها بدراسة اللغات تمهيداً للعمل في الترجمة الآنية.

غودرون كانت فتاة شقراء، زرقاء العينين جميلة المنظر، ممشوقة القوام، متناسقة القدّ. كلّ ما فيها يدلّ على

صدق في عواطفها. وأنا لم اغرم بها منذ ان رايتها، اغرمت بها مع الوقت، فقد كنت أسكن غرفة في بيتها وكانت تعلمني الالمانية، ومع انها تعرف الانكليزية، فقد طلبت منها من أول الأمر ان يكون كل شيء: الشرح والمتن والأصل، باللغة الالمانية كي أعتادها. ومع مرور بضعة أيام، شعرت بميل قوي نحوها، لكنني لم أسمح لهذا الميل أن يتدخل في أمور الدراسة. ساعة التعليم كانت للتعليم. دعوتها أكثر من مرة الى حفلات في الخارج، راقصة أو موسيقية، وكانت تحب الموسيقى كثيراً، كما كانت أختاها أيضاً تحبان الموسيقى. وذهبت وإياها الى أماكن مختلفة قريبة من ميونيخ على البسكليت منفردين، كما ذهبت معها ومع أمها وأختها الأكبر منها «غيزلا». في الصيف عدت الى ميونيخ واستمر هذا الغرام بيننا وإن كنت يومها أصبحت طالباً في الجامعة (جامعة ميونخ) ولم أكن أتعلم على أيديها. ثم عدت في ربيع العام ١٩٣٧ وقضيت في البيت عندهم بضعة شهور، مقيماً هناك، ساكناً، ضيفاً أدفع أجرة الغرفة وثمن الأكل. لكن في هذه الفترة كنت أيضاً في الجامعة تلميذاً. والقضية أنني عرضت عليها أن تتزوجني، فسألت أمها، وتحدثنا نحن الثلاثة معاً، واتضح لنا أن الأمر قد يكون شاقاً الى درجة كبيرة.. فهي المانية وستظل المانية. وقد يكون من الصعب عليَّ أنا العربي أن أتاقلم بحيث أفهمها تماماً وأن نعيش عيشة صحيحة هنية.

انتهى الأمر عند هذا، وودعتها. ذهبت.. عدت في صيف ذلك العام الى لندن، فظللت أكاتبها بعض الوقت، ثم انقطعت الاتصالات بيننا لأن الأسرة انتقلت من المكان وضاع عليَّ العنوان، كما انني انتقلت انا الى مكان آخر، ولذلك انقطعت الصلة، مع انها تجدّدت فيما بعد حتى بعد ان تزوجت وعشت في بيروت.

هذا هو الغرام الأول في أوروبة، لم يكن الغرام الأول في حياتي، فقد ذكرت من قبل ما حدث لي مع بعض الفتيات وأنا في عكا أو حتى قبل عكا.

الثانية كانت «جوزفين». جوزفين تعرّفت اليها في المكتب أو المركز العربي في لندن عام ١٩٣٦. كانت موظفة في المكتب وهي تتقن عملها كموظفة، سكرتيرة قديرة. جوزفين كانت في الثالثة والعشرين من سنها. كانت نسبياً قصيرة مكتنزة. بالنسبة للانكليز كانت شيئاً غريباً لأن شعرها أسود، وعينيها كانتا بنيتين من النوع الغامق، وكان أجمل ما فيها، عندما ينظر اليها مباشرة هي ابتسامتها.

جوزفين، وقعت في غرامها حتى أشد من وقوعي في غرام غودرون. وجوزفين قبلت بعرضي بعد مدة لأن نتزوج. وفي الواقع، فقد خطبنا، ولكننا اكتشفنا بعد مدة شيئاً على درجة كبيرة من الأهمية، وهي أن أمها التي قبلت من حيث المبدأ، كانت تعارض من حيث كل شيء آخر بما فيه بعض المبدأ. كانت تعارض على أساس أن هناك ثقافتين مختلفتين وحضارتين مختلفتين ومجتمعين مختلفين، ولذلك لا بد من أن يكون ثمة شيء من الخلاف المستمر خصوصاً عندما تنتقل جوزفين من المعيشة في انكلترا الى المعيشة في فلسطين. المعيشة في فلسطين كما تصورتها هي مما قرأت، وكما تصورتها من بعض الأشخاص الذين نبشت عنهم وكتبت اليهم تسألهم عن الحياة في فلسطين لأنهم خبروا هذه الحياة موظفين أو مبشرين أو ما يشبه ذلك.

الفكرة التي كوّنتها لم تكن مما يطمئن لها قلبها، ولذلك، كان من الطبيعي أن يكون موقفها من الدفاع عن ابنتها أو احتضان ابنتها قوياً. وكان من الطبيعي أيضاً أن تعنى بهذا الأمرعناية خاصة. ولذلك فإنها ظلت على صداقتها لي وترحيبها بي كلما ذهبت، ظلت تبدي هذه المعارضة بشكل واضح لا بشكل غضب أو تزمت، ولكن حتى في الحديث بيني وبينها. وفي نهاية الأمر، وكان ذلك في مطلع ربيع سنة ١٩٣٩ وبعد ان غابت جوزفين في الصين نحو خمسة شهور تحدثنا هي وأنا حديثاً وافياً صادقاً صحيحاً. لا اريد أن أسميه صريحاً لأننا كنا دائماً نتحدث حديثاً صريحاً. اتفقنا على أن أمها ستظل بيننا وبشكلها غير الراضي عن هذا العمل، ومن الخير لنا نحن الاثنين أن ننفصل من ذلك الوقت بدل ان نتصل اتصالاً قد يكون موقتاً، وقد لا يؤدي الى النتيجة التي نريد.

وبذلك انتهينا الى اننا فسخنا الخطبة وسافرت جوزفين لزيارة أخ لها كان يقيم في كينيا يومها وكتبت لي بعد مدة تقول انها التقت هناك بشخص أعجبته وأعجبها وأنهما سيتزوجان قريباً. وكان كل ما هناك أنني تمنيت لها وله عن غير معرفة حياة هانئة. وانقطعت المراسلات بيننا بعد ذلك بسبب قيام الحرب العالمية الثانية في صيف ١٩٣٩.

لعل بعض من يقرأ هذه الكلمات كان ينتظر مني أن أمعن في وصف هذا الغرام أو هذا الحب وصفاً طويلاً عريضاً جميلاً أنيقاً باسلوب يتسق مع هذا الشعور.

لو كنت أقوم بكتابة عمل أدبي، وهذا ما لا استطيعه، لكنت وقفت عند هذين الحبين وكتبت عنهما رواية أو اثنتين، وشرّقت وغرّبت، وذهبت يميناً ويساراً مع كل هذه الأمور. لكن أنا لا أتحدث عن هذين الأمرين الا على أنهما حادثان مرّا بي. وأنا أكتب هذه المذكرات لأشير الى بعض المراحل في حياتي لا لأذكر جميع التفاصيل والا لاقتضى الأمر أن أقول إنني في اليوم الفلاني سمعت محاضرة من الدكتور «بينز» وفي اليوم التالي كان الاستاذ «ك» هو المحاضر، و«لوباتورل» درسنا في اليوم التالي لذلك، ولقلت أيضاً إننا تعشينا انا وموسى الحسيني وفرحات زيادة في اليوم الفلاني، وأن فرح رفيدي ونور الدين عبدالهادي سافرا لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في السيارة التي اشترياها مشتركين وفي الطريق تعطلت السيارة.

كان يجب ان أذكر كل هذه الأشياء. لكن هذه التفاصيل ليست هي المقصودة من هذا الذي أكتبه. المقصود المعالم. ولذلك ذكرت هذين المعلمين من حيث انهما كذلك لا أكثر ولا أقل.

انما أريد أن أقول شيئاً يتعلق بي، وأظن أن كثيرين من الذين كانوا في مثل ظروفي مروا به. لما وصلت الى انكلترا كنت أحسب انني اذا جلست الى فتاة مرة ومرتين وفي الثالثة قبّلتها أنني جئت بالعمل العظيم الى حد أنني تحدثت عن هذا مرة الى أسرة صديقة لنا، أمام الزوج والزوجة، فضحك الاثنان وقالا: هذه مغامرات شرقي في انكلترا لكنها بالنسبة لنا نحن هي لا تزيد عن كونها لعب أطفال. تعلمت الدرس وأصبحت في المستقبل لا أتحدث لا عن المغامرات الصحيحة ولا عن لعب الأطفال.

هناك أمور حرية بأن تذكر مرّت بي في كل من بريطانية والمانية. مثلاً، ذكرت أن الاستاذ «ماكس كاري» أخذني في صفه وأنا تلميذ وحيد ولم يلغ هذا المساق لأنه لم يكن عنده تلاميذ. مقابل هذا، أود أن أروي قصة أخرى حدثت لي في جامعة ميونيخ. لما ذهبت الى جامعة ميونيخ في ربيع سنة ١٩٢٧ تسجلت أصلاً عند الاستاذ «ولتر أوتو» المختص بتاريخ العصر الهلنستي والذي جئت من انكلترا الى ميونيخ لأحضر محاضراته. ثم وجدت ان الاستاذ فرانس دولغر كان يحاضر عن «غزوات الجرمان لأوروبة»، فحضرت عنده أيضاً (مساقا) ثم قرأت اعلاناً فحواه ان الاستاذ بريتسل سيعطي مساقاً عن الحروب الصليبية. وأنا كنت قد جمعت يومها ما لا يقل عن سبعين كتاباً، بين الكبير والصغير، عن الحروب الصليبية مكتوبة باللغة الالمانية ومنشورة في المانية أضفتها الى مكتبتي. فذهبت اليه لأحضر هذا المساق معه، ووجدت على الباب جماعة تنتظر دورها لتتحدث اليه وكان هناك على ما يبدو طالبة المانية دخلت قبل الكل لتسجل اسمها. على الباب وجدت كريم عزقول الأديب الكبير والدبلوماسي الذي أصبح فيما بعد سفيراً للبنان في عدد من الأقطار، ووجدت يوسف السمرا السوري الأصل ينتظر دوره، ووجدت شاباً نابلسياً اسمه حمدي ينتظر دوره أيضاً. وهؤلاء كانوا يتحدثون بالعربية، فانضممت اليهم وعرفتهم باسمي، فنظر اليّ كريم عزقول وقال: أنت نقولا زيادة الذي نشرت مقالات في المقتطف؟ قلت: نعم. فقال: تشرفنا، وتحدثنا. والواقع ان الصداقة بيني وبين كريم عزقول بدأت في ذلك الوقت واستمرت الى الآن وإن كنا قلما نتراسل، فهو يقيم في فرنسة وأنا أقيم في بيروت وبسبب تعذر المواصلات

وكثرة ما يحدث من انقطاع البريد، كانت المراسلات بيننا قليلة جداً.

المهم خرجت الفتاة الالمانية وعلى وجهها شيء من امارات الفشل والغضب مجتمعة وسارت دون أن تتوقف. على كل هي لم تكن تعرف الباقين. وعندها طلب مني أن أدخل أنا، فدخلت وسألت الاستاذ بريتسل عن المواعيد التي يختارها لموضوعه، فقال: أنا لا أعطي مساقاً يقل فيه عدد الطلاب عن عشرين، وقد اتساهل اذا كان العدد خمسة عشر، لكن كل الذين جاءت اسماؤهم هم خمسة أو ستة، وأنا لا استطيع أن أضيّع وقتي على خمسة أو ستة من الطلاب. وهكذا خسرنا نحن الذين جئنا نامل الخير عند هذا الرجل، وكان من كبار الثقاة في تاريخ الحروب الصليبية، بمجرد انه لم يرد أن يدرّس خمسة أو ستة من التلاميذ. وتذكرت أنا «ماكس كاري» وتمليذه وزميله سكالارد في جامعة لندن.

شيء آخر شعرت به واغتبطت بوجوده في المانية، كنت في ميونيخ وفي برلين وفي المحلات الأخرى أتخيّر من الحانات أو المطاعم أبسطها مظهراً واقلها فخفخة. كنت أبحث عن الجوهر لا عن المظهر. في هذه المطاعم، سواء كنت تجلس فيها لتتناول كأساً من البيرة أو لتأكل وقعة تامة، عندما يقترب المكان من الامتلاء عدداً، كان صاحب الحانة أو المطعم يمر على كل واحد من الزبائن ويحييه ويرحب به.

هذه أعجبتني كثيراً في المانية. صحيح انني وجدتها في برلين أيضاً، لكن على العموم كان سكان الشمال الالماني أقل إيناساً من حيث استقبال الناس من أهل الجنوب. أهل الجنوب كانوا أرحب وأوسع صدراً وكانت، على العموم، الابتسامة تغطي جزءاً كبيراً من وجه صاحب المحل عندما يدخل الواحد الى هذه الأماكن.

واريد أن أشير الى اثنين من اساتذة جامعة ميونخ. الواحد منهم كان اسمه الدكتور فلهلم، الذي كان يحاضر في موضوع واحد لا علاقة له بي. لكن الدكتور فلهلم كان يعرف جنوب المانية، بافاريا وما اليها معرفة دقيقة. ولذلك كان هو الذي يشرف عادة على الرحلات التي تنظم عبر الجامعة لزيارة الأماكن. والرجل كان متحمساً لبلده بحيث ان عدواه انتقلت اليّ وأثرّت فيّ الى درجة كبيرة، وليس معنى هذا أنني لم أكن من قبل متحمساً لبلدي، لكنني لعلي لم اكن اعرف كيف يجب أن أتحمّس. فلما التقيت هذا الرجل، أدركت أن الأمر الأساسي في التحمس للبلد، هو أن يعرف المرء بلده معرفة دقيقة، وأنا تذكرت في هذه المناسبات الأماكن التي مشيتها، في فلسطين ولبنان وسورية. لما تذكرت هذه الأمور أدركت فعلاً معنى العلاقة بين هذا التعرف وبين أن يعجب المرء ببلده وأن يحب بلده. وهذا الحب المبني على المعرفة أمتن بكثير من الحب المبني على مجرد الكلام، لأن الأول أعمق وأوثق وأدق، ومن ثم فهو ألصق بالنفس من الحب الذي كان يسمى حباً طائشاً.

فلهلم كان نازياً مخلصاً للنازية ولذلك كان المرء يشعر تماماً بأن وجهه يشرق عندما يأتي في الصباح لينقلنا أو ليرافقنا في رحلة، عندما يصل أول شيء يقول: «هايل هتلر» ويرفع يده اليمنى، ويرفع الموجودون أيديهم أيضاً رداً للتحية، وأنا كنت أرفع يدي معهم لأن الأمر يشمل الجميع. كان هناك شخص آخر تعرفت اليه في منطقة برلين وعلمني اللغة الالمانية. هذا كان أصغر من فلهلم في السن. كان مدرساً في مدرسة ثانوية. كنا نحن ننصرف للدراسة ساعتين. هذا الوقت للدراسة، أي حديث آخر يمكن ان يكون فيما بعد، وكنت أنا شديد الحرص على هذا الأمر، فأنا كنت أدفع له المبلغ لأتعلم وأنفق الوقت معه للتعلم. ومع ذلك فكنا نتحدث. في يوم من الأيام قال لي: غوبلز، وكان وزيراً للدعاية والاعلام في ذلك الوقت في المانية، مفكر كبير فيلسوف. غيرنغ رجل عسكري مخطط مهم، لكن هتلر، هتلر شيء آخر. هذا الذي يقوله يأتيه من السماء لا من الأرض. هذا نوع آخر من الشباب النازي، الشباب أكثر من فلهلم. لكن هناك الاستاذ «ولتر أوتو». أوتو الذي كان استاذاً للتاريخ اليوناني في جامعة ميونيخ، كان في ذلك الوقت في نحو الستين من عمره. كان يدخل الى قاعة الدرس، الى قاعة المحاضرات ويفعل كما يفعل كل استاذ عندما يدخل، يرفع يدهه بالتحية «هايل هتلر»، وكنا نجيبه.

وفي يوم من الأيام، ذهبت الى مكتبه واستأذنته في أن أتحدث اليه في قضية، فتلطف وقبل الحديث، وبعد بضع دقائق قال لي: الحديث هنا قد ينقطع اكثر من مرة إما بسبب التلفون أو بسبب دخول زائر أو بسبب مجيء الطلاب أو حتى عندما تأتي السكرتيرة لأوقع لها على رسالة. هل يمكنك ان تأتي الى بيتي؟ فاتفقنا على ذلك. وقد ذهبت الى بيته أربع أو خمس مرات فكان الشيء الذي نتناوله هو القهوة وقطعة من «الكوخن» أي الكعك كما يقول الالمان ونتحدث. وقد يمتد الحديث بنا ساعة أو اثنتين. ولم يكن الحديث دائماً عن التاريخ اليوناني، ولم يكن كله عن التاريخ اليوناني. لقد كان الكثير منه يتعلق بالمانية وأوضاع المانية. وقد عرفت من أوتو انه ليس نازياً وأن تصرفه في الجامعة تصرف من يريد أن يظل في مركزه. هو لا يمالىء من حيث العقيدة ولكنه يساير من حيث المظهر. ومسايرته هذه كان اساسها «هايل هتلر.. هايل هتلر» وينتهي الأمر. لكنه قال لي: إنني أنا في هذه السن لا أستطيع أن أخرج من العمل، وما الذي يستطيع ان يقوم به شخص اختصاصه تاريخ اليونان وفي سن الستين من عمره غير تعليم تاريخ اليونان في الجامعة. واذا أردت ان اظل هنا فيتوجب عليّ على الأقل أن أساير، وهذا ما أفعله أنا. لا أمالىء ولكنني أساير.

هذا شيء لم يكن أي من اساتذة جامعة لندن أو أي جامعة في بريطانية أو في فرنسة طبعاً يضطر الى القيام به للمحافظة على عمله في الجامعة. انا لا أنكر انه قد يكون هناك بعض الحالات حيث يتعرض الشخص لضغط سياسي يبدو في توقيفه عن الترقية أو ما شابه ذلك وخاصة في فرنسة لأن الجامعات في فرنسا كانت تابعة للحكومة، وجزءاً من النظام التربوي الرسمي.

لم تتبع الجامعات في بريطانية مثل هذه السبل. وهي ليست كذلك حتى الآن. حتى الجامعات التي أنشئت حديثاً، والتي تتناول القسم الأكبر من نفقاتها من الحكومة البريطانية، هي ليست تابعة للحكومة، لها الاستقلال التام في الداخل، ومن ثم فالاساتذة في الجامعات البريطانية لا يتعرضون لهذا النوع من الضغط أو غيره. وقلما يحدث ان يخسر استاذ في بريطانية منصبه بسبب آرائه السياسية. قد يكون هناك ضغط من الزملاء عليه. لكن هذا شيء يختلف عن الضغط السياسي العام.

هذه أمور تبدو بسيطة خاصة الآن حيث أصبح عدد الطلاب الذين درسوا في الغرب، في أوروبا وفي الولايات المتحدة وكندا من العرب، لا مئات فحسب، ولا آلافاً فحسب، ولكن عشرات الألوف. وكل منهم يتحدث عما مرّ به بحيث أصبح الحديث عن هذه الأشياء أمراً مكروراً. لكن أنا أؤرخ لهذه الفترة. أنا أريد أن أذكر الأشياء التي مرّت بي، التي عبرت بي والتي كان من نتيجتها أنني تثقفت أكثر من ذي قبل؛ وأزعم انني تثقفت اكثر مما تثقف كثيرون غيري لأنهم لم يراعوا هذه الأمور ولم يتنبهوا لها.

هناك من كان غنياً فأنفق عن سعة وعاش كأنه شبه أمير، وهناك من كان فقيراً فقتر عن فقر ولكنه تعلّم. أنا لم اكن من الاولين ولم اكن من الآخرين. فالذي كنت أحصل عليه من حيث البعثة كان كافياً لأن أتصرف تصرفاً لائقاً بي وان أحسن العمل، والمهم أنني في هذا المجال الذي سرت فيه بقطع النظر عن اي تجربة أو أي اختبار أو اي فشل او اي نجاح او اي لطمة او اي صدمة او اي شيء آخر، كنت دائماً مستعداً وحاضراً وجاهزاً لأن أتعلم وبذلك لما انتهى الأمر بي وعدت الى بلدي شعرت أن السنوات الأربع في الغربة، في بلاد الغرب، كانت ذات قيمة خاصة بالنسبة لي. وهل معنى هذا أنني خلال هذه السنوات الأربع التي قضيتها بعيداً عن بلدي دفعة واحدة، هل معنى هذا أنني نسيت ذلك البلد، أو أنني نسيت أهله؟ ولا اقصد بأهله إخوتي وأبناء عمي واصدقائي فقط، ولكن البلد بمجمله.

وأنا في الطريق من بورسعيد الى انكلترا في الباخرة التي قامت بنا من بورسعيد يوم الاثنين في الثلاثين من

شهر ايلول / سبتمبر ١٩٣٥، بعد ان اجتزنا مالطة فيما اعتقد، بلغنا خبر الاعتداء الايطالي على الحبشة. الاعتداء الايطالي الذي كان محاولة من ايطالية لاحتلال الحبشة أولاً وللانتقام من انكسارها في محاولتها الأولى لاحتلال الحبشة سنة ١٨٩٦. يومها تقدّمت ايطالية الى احتلال الحبشة ولم يكن استعدادها كافياً، وظنت ان الأمر يمكن ان ينتهي في أيام، ولكن صمود الأحباش، وصعوبة الطرق الجبلية هناك، وعدم استعداد الطليان أدى الى انتهاء الحرب في مدة قصيرة، وانكسر الايطاليون في معركة «عدوى». في عام ١٩٣٥ تقدم الايطاليون الى الحبشة وكانوا في وضع آخر. أولاً: الاستعداد العسكري اكبر، ثانياً: التنظيم الذي كان بدأه موسوليني في ايطالية كان قد بلغ الذروة، ثالثاً: الحبشة، كانت مفككة. صحيح انها كانت مستقلة، لكن الحبشة كانت مجموعة من القبائل تخضع للامبراطور «هيلا سلاسي». المهم ان الخبر وقع علينا كالصاعقة، على الأقل عليّ أنا لأنه اعتداء جديد من دولة أوروبية على قطر شرقي، وان كنا لا نعرف عن الحبشة الكثير يومها.

وبعد ذلك بمدة، انتصرت ايطالية على الحبشة واحتلتها.

أذكر انني يوماً من الأيام، كنت في مدينة «باث» في انكلترا، أظن في سنة ١٩٣٧، وكنت قد وصلت اليها على البسكليت من لندن الى «سمرست» ثم الى «باث» واسمها يعني «حمّام»؛ في المدينة مياه معدنية وبرك للسباحة. وذهبت لاستحمّ في واحدة من هذه البرك، فإذا بشاب وفتاة، يبدو من لونهما انهما من مناطق دافئة حارة، ومن شكل الشعر أنهما افريقيان. وقد سألت الشاب، ونحن نسبح أو بعد السباحة، فقال انه ابن الامبراطور هيلا سلاسي الذي كان لا يزال مقيماً في القدس يومها. فقد انكسر في المعركة فذهب الى فلسطين وأقام في القدس، وان الفتاة أخته. هذه الحادثة بشكل خاص ذكرتني اكثر بقضية فلسطين، نحن كنا بحاجة دائماً الى شيء يذكرنا بقضايا بلادنا. أولاً، الصحف البريطانية لم تكن تذكر الأخبار بكثرة. ثانياً، الصحف التي كانت تأتي من بلادنا كانت تصل متأخرة فتكون الأخبار فيها تماماً مثل الطبخة البايتة لبضعة أيام، ليست دائماً محمّضة ولكنها ليست لذيذة، لا توحي اليك بشيء، لأن الخبر حدث الاسبوع السابق.

المهم اننا كنا نحاول دائماً الاتصال بالاخبار. الأخبار كانت تأتيني أنا شخصياً عن طريق أصدقائي الذين كانوا يكتبون لي بتفصيل، وكان اكثرهم اهتماماً بهذا الأمر «أديب عتقي». كان يكتب لي على الأقل مرة كل اسبوع بشيء من التفاصيل، لكن، الشيء الذي لم يكن يصلني انا، كما كان يصل موسى الحسيني، هو ما كان يحدث في القدس لأن القدس هي العاصمة وفيها المركز الرئيسي للعمل السياسي. صحيح انه كان منذ سنة ١٩٣٣ قد انشئت في البلاد أحزاب سياسية كثيرة مرّ ذكرها من قبل، ولكن حتى هذه الأحزاب السياسية لم تكن تختلف كثيراً عن الفئتين أو الجماعتين الرئيسيتين في البلاد، انما الذي همّني وهمّ كل فلسطيني كان يقيم يومها في انكلترا، هو الإضراب الذي حدث في عام ١٩٣٦ والذي استمر ستة أشهر، ثم الذي تبعه، ما يمكن أن يسمى «بالثورة الفلسطينية الكبرى».

هذه الأمور هي التي كنا نحاول أن نتابع أخبارها بالوسائل القليلة التي كانت بين أيدينا. ومن هنا كان للمركز العربي الذي كان يرئسه الدكتور عزت طنوس في لندن أثر في نقل هذه الأخبار الينا.

كان استشهاد القسام (٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٥) خبراً عادياً في الصحف البريطانية. لكن الأمر كان، بالنسبة لفلسطين ولأهلها - الحاضرين والغائبين - على غاية الأهمية. فقد عرف يومها - وبعد ذلك بقليل - مدى اعتناق الشباب والعمال خاصة للفكرة الجديدة التي دعا اليها القسام وهي ان الانكليز هم الذين يجب ان يقاوموا. وقد الهبت حادثة استشهاد القسام وجماعته النفوس في البلاد، وحسبت الحكومة البريطانية انها قضت على الحركة، ولكن الواقع هو ان القساميين ظلوا في الميدان واتخذوا من جبال شمال البلاد (جبال الجليل)

معاقل لهم؛ ومنها كانوا يشنون الهجمات على قوات الجيش والشرطة، كما كانوا يهاجمون المستعمرات الصهيونية. وليس من المبالغة في شيء ان يقال انهم كانوا سادة الميدان القتالي الجهادي حتى ربيع سنة ١٩٣٦. عندها انضموا الى الثورة الفلسطينية (الكبرى) وكان جهادهم فيها عنيفاً بقدر ما كان منظماً، فقد اكتسبوا هذا من الشيخ عزالدين القسام. وثمة من يرى في حركة القسام، مع ان التنظيم نفسه كان صغيراً في العدد، «رمزاً وتمهيداً وقدوة» للحركة الثورية التي سادت فلسطين بعد عدة أشهر من استشهاد القسام، وهي ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩». (الموسوعة الفلسطينية القسم العام، مجلد أول، ص ٦٢٢).

وهذه الحركة القسامية، بسبب ما أحيطت به من السرية الدقيقة، لم يعرف عنها الكثير يومها. لكن الثورة الفلسطينية (الكبرى) ١٩٣٦ - ١٩٣٩ كانت أوسع مدى وأوضح عملاً، ومن ثم فقد عرفت خطوطها الرئيسية من أول الأمر. وكانت اخبارها تصلنا تباعاً في لندن، خاصة وان الصحف البريطانية، بعد ان طال أمدها، وتعرض الجنود البريطانيون للقتل وما الى ذلك، أخذت تعنى بها وتنشر التفاصيل الكثيرة عنها. لكن من الضروري ان يتذكر قارىء هذه الصفحات ان تلك السنوات لم تكن قد عرفت بعد هذه الشبكات الاذاعية الكثيرة المنتشرة في أوروبة (واميركا) والتي تذيع الاخبار وكأنها تعد النشرة الواحدة منها «كل خمس دقائق». (التلفاز لم يكن قد عرف معرفة كافية !). ولا الانترنت، ولا مواقع التواصل

قضيت عطلة عيد الفصح (١٩٣٦) في المانية، وعدت الى لندن في الاسبوع الأخير من شهر نيسان / ابريل. فاذا بي أعرف ان مؤتمراً انعقد في القدس في ٢٥ / ٤ / ١٩٣٦ نتيجة للاضراب العام الذي أعلن في البلاد قبل ذلك بأيام. والمهم ان المؤتمر قرر (يومها) توحيد العمل السياسي على يد اللجنة العربية العليا التي ضمت أعضاء من جميع الأحزاب الفلسطينية، وكان فيها ممثلون عن المستقلين.

خبر مطرب، بعد الذي كنا عرفناه من تنابذ رجال الأحزاب السياسية في فلسطين. ومعنى هذا ان الاضراب العام الذي دعى اليه أصبح في أيد منتظمة. وكان ان اعلنت اللجنة العربية العليا الثورة المسلحة في مطلع شهر ايار / مايو.

ووصلتنا الأخبار تباعاً. الحكومة البريطانية ترفض مطالب اهل فلسطين، وأهمها وقف الهجرة اليهودية. بل انها تمنح الوكالة اليهودية عدداً من شهادات الهجرة الجديدة. وأخذت الصحف تنشر الأخبار عن المعارك. صحيح انها لم تزودنا بالتفاصيل، لكنها كانت تدل على أن الأمر جدٌّ. وقابلت الحكومة البريطانية اعمال الثوار العنيفة والمنظمة باستقدام جنود وفرض قوانين عقوبات قاسية. ومن الأخبار التي حملتها الينا الصحف، وكانت مدعاة سرور لنا جميعاً، تلك التي قالت بأن متطوعين (ولكن بدعم ظُنَّ انه شبه رسمي) جاءوا من العراق وسورية ولبنان والأردن. وأثلج صدورنا انباء اللجان والجمعيات القومية العربية والاسلامية التي قامت خارج فلسطين لنصرة الثورة - بالمال والسلاح.

ثم توقفت الثورة وتوقف الاضراب. سمعت هذا بعيد عودتي من المانية حيث قضيت فصل الصيف أتم تعلمي للالمانية. بُهِتُ، وبهت غيري. لكن قيل لنا ان الملوك والرؤساء العرب (وكانوا أقل عدداً منهم اليوم !) قد تدخلوا إذ تعهدت لهم بريطانية ان تعمل على انصاف عرب فلسطين.

توقف الاضراب وتوقفت الثورة. وعادت الحياة الى ما كانت عليه. وظل التنظيم محتفظاً به. ولو اننا عرفنا ان بعض زعماء الثورة لجأوا الى البلدان العربية المجاورة، خشية الغدر بهم.

ودام الأمر على ذلك بالنسبة لأهل البلاد. أما ما ارتاته الحكومة البريطانية فقد كان ارسال لجنة تحقيق ملكية. كنا نتتبع اخبار هذه اللجنة من لندن في تنقلاتها من بريطانية الى فلسطين واستماعها للشهادات من العرب واليهود كأن بريطانية كانت بعد بحاجة الى مثل هذا العمل المسرحي. صدر قرار اللجنة الملكية (بعد درس

وعمل استمرا من اب / اغسطس ١٩٣٦ الى تموز / يوليو ١٩٣٧) ونشر في ٧/٧/١٩٣٧ وكان يقضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، على أن تظل منطقة القدس منطقة انتداب. واعلنت الحكومة البريطانية قبولها لهذا القرار.

كنت يومها في المانية، وبلغني خبر تجدد القتال في فلسطين، لكنني لم أعرف التفاصيل حتى البسيطة الا لما رجعت الى لندن. وهكذا عادت الثورة سيرتها الأولى، ومع انها كانت هذه المرة دون اضراب، فان معاركها كانت اعنف، وأكثر تنظيماً (لم يكن المقصود هنا التأريخ للثورة. يمكن الرجوع الى الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد ٤ ص ٦٢٢ – ٦٤١).

وأخيراً دعت الحكومة البريطانية العرب واليهود الى مفاوضات غير مباشرة في لندن، وذلك بعد ان تبين لها ان تقسيم فلسطين الى دولتين لا يمكن وضعه موضع التنفيذ. وارسلت الحكومة البريطانية دعوة الى حكومات المملكة المصرية والمملكة العربية السعودية والمملكة العراقية واليمن وشرق الأردن والجمهورية السورية والجمهورية اللبنانية. كما وجهت الدعوة الى اللجنة العربية العليا.

وصلت الوفود العربية الى لندن في الاسبوع الأول من شهر كانون الثاني / يناير ١٩٣٩، وذلك باستثناء وفدي لبنان وسورية اللذين حالت الحكومة الفرنسية دونهما والذهاب الى لندن.

هذه الفترة كانت فترة مثيرة لنا نحن الشباب الفلسطيني. وكان موسى عبدالله الحسيني وعيسى نخلة الأكثر انشغالاً. الذي أذكره ان موسى وأنا كوّنا فريق عمل خاص وزرنا سمو الامير فيصل آل سعود رئيس الوفد السعودي ونوري السعيد رئيس وزراء العراق وعلي ماهر (باشا) رئيس وزراء مصر وتوفيق ابو الهدى (باشا) رئيس وزراء الاردن وسمو سيف الاسلام رئيس الوفد اليمني. والذي أتذكره أن كل واحد من هؤلاء استقبلنا استقبالاً طيباً وأصغى لحديثنا عن قضية فلسطين؛ وكان بعضهم، ولا شك، بحاجة الى بعض ما كان عندنا من معلومات. وهذه المعلومات كانت نشرات المركز العربي الذي كان على رأسه الدكتور عزت طنوس. وقد كان له دور كبير في التوصل الى عقد المؤتمر.

نوري السعيد كان يعرف كل التفاصيل عن قضية فلسطين، فهو، كما هو معروف، واحد م الذين عملوا مع فيصل في سورية (١٩١٨-١٩٢٠) ثم في العراق (بعد ١٩٢١) وكان وثيق الصلة بكثير من الفلسطينيين، وخاصة بأولئك الذين ذهبوا للعمل في العراق في العشرينات والثلاثينات. ونوري السعيد لم يكن مفرطاً في الكلام، لكنه كان يسمع ويسمع ويطقطق بسبحته، ثم يطمئن ويتأمل، ثم يبتسم ابتسامة لا تدري اصفراء هي أم كلون وجهه الأسمر الملوح كأنه يقضي نصف نهاره في الشمس. ولعلّ الرجل كان يثق ببريطانية ثقة كبيرة ويأمل في انها قد تنصف العرب. والناس، ولا شك في بلادي لم يفرقوا أبداً بين رجل يأمل ان يصدقه الحلفاء (هنا الانكليز) الخبر، وبين آخر هو عميل. نوري السعيد كان سياسياً يرى في بريطانية صديقاً وحليفاً للعراق الذي كان بحاجة الى من يؤيده ويدعمه، ولكنه لم يكن عميلاً بمعنى انه يتخلى عن وطنه ووطنيته خدمة لبريطانية.

وفيما كان نوري السعيد صغير الجسم كان علي ماهر ممتلئه. وقد شعرت وأنا أتحدث اليه انني أمام رجل فكر لا رجل سياسة فحسب. فقد كان الرجل أحد أساطين القانون الدولي في أيامه، وكانت له دقة الاستاذ والقاضي. وقد لفتني في الرجل انه لم يكن يدرك تفاصيل القضية الفلسطينية، وهي القضية التي كان عليه ان يفك رموزها قبل ان يشترك في وضع حل لها. لكن علي ماهر، كما بدا لي يومها، كان على استعداد ان يتعلم. فقد كان في تقبله المنشورات القليلة التي حملناها اليه حماسة الراغب في العلم بالأمور. صحيح ان رئيس الوفد المصري كان الأمير عبد المنعم، لكن علي ماهر كان الرأس المفكر.

مما لا ريب فيه ان توفيق ابو الهدى كان أوعى الجميع للقضية. فشرقي الاردن، كما كانت البلاد تسمى يومها، كانت عملياً تحت الانتداب البريطاني، وكان المندوب السامي لفلسطين هو نفسه الذي يشرف على البلاد، وذلك عبر معتمد بريطاني. والأمير (الملك فيما بعد) عبدالله كان يعرف كل شاردة وواردة عن فلسطين وزعمائها، لما كان بينه وبينهم من صلات ودّ أو منافسة أو خصومة، وما كان يرافق بعض هذه من طموحات تتجه غرباً. واذا كان نوري السعيد سياسياً يخفي خلف ابتسامته ما يعتمل في نفسه، فان توفيق ابو الهدى لم يكن يبتسم في عالم السياسة. كان له وجه ثابت القسمات مهما كان الموضوع الذي يتحدث عنه.

وقد لفتني في الامير فيصل آل سعود يومها أمور كثيرة. كان أميراً في جميع تصرفاته؛ كان كبيراً في مواقفه؛ كان صريحاً في آرائه. ولم تأخذه أبهة الملك. كان له اطلاع حسن على القضية، ومعرفة بكثير من التفاصيل. وكان يعرف انه آت للمساومة السياسية بقدر ما كان مخضرمو السياسة يومها يدركون هذا الأمر.

اما الذي لم يكن يعرف عن قضية فلسطين إلا القليل، ولم يكن يهمه ان يتعلم عنها الا الاقل، فهو سيف الاسلام اليمني. فالرجل كان نتاج تربية الامام يحيى حميد الدين، فلم يكن يدري ولا يريد ان يدري. ان المعرفة تورث «وجع الرأس»، ولماذا يجلب الواحد وجع الرأس لنفسه؟

اقامت جمعية الطلاب العرب في بريطانية حفلة شاي متواضعة تكريماً للوفود. قبل الامير فيصل الدعوة واعتذر البعض، ولست أذكر تماماً من حضر لكن أظن ان سيف الاسلام لبى الدعوة أيضاً. واظن أنني كنت في تلك السنة رئيس الجمعية، فألقيت كلمة رحبت فيها بالضيوف، ورجوت للجميع التوفيق في معاونتنا.

اجتمع الوفد البريطاني، برئاسة مالكولم مكدونالد (Malcolm MacDonald)، بكل من الفريقين على حدة. وقد عقد أول اجتماع بين الوزير البريطاني والوفود العربية في ٩ شباط / فبراير ١٩٣٩، وعرضت المشكلات. اعلن وزير المستعمرات السياسة التي تنوي الحكومة البريطانية اتباعها في فلسطين من حيث اقامة حكومة ديموقراطية فلسطينية للجميع ومن الجميع، عرب ويهود، واشار الى أن موضوع البحث في المؤتمر هو المراحل التي يجب ان تجتاز قبل اقامة مثل هذه الحكومة.

ويتلخص رد الوفود العربية، الذي قدمه وفد فلسطين، في تبيان الحق الذي هو للعرب والذي انتزع منهم، فمنحت الأرض للغرباء. وقد استمر المؤتمر ستة اسابيع كان التفاوض فيها بين الوفود العربية والوفد البريطاني.

أما بالنسبة للوفد الصهيوني فقد اجتمع بنظيره البريطاني مرة واحدة في ١٩٣٩/٢/١٠. أدلى الوزير بالتصريح الذي يبين سياسة حكومته الجديدة. استاء الوفد الصهيوني من البيان، واعتبر ان الحكومة البريطانية تخلت عن انشاء دولة اسرائيل، وانهى الاجتماعات محتجاً.

خلال الاسابيع الستة التي عقدت فيها جلسات المؤتمر العربية - البريطانية وكان هناك اتفاق بين الفريقين على معظم الامور. وأخيراً أنهت الحكومة البريطانية جلسات المؤتمر على أن ترسم سياستها الجديدة في بيان يصدر عنها.

أصدرت الحكومة البريطانية (ايار / مايو ١٩٣٩) الكتاب الأبيض الذي يعين سياستها الجديدة مع تحديد للهجرة وبعض التحديد لبيع الأراضي. وفيه كلمات متنوعة حول أمور أخرى تركت معلقة.

في ذلك الوقت كان شبح الحرب يسيطر على أوروبة. كانت سنة ١٩٣٨ قد عادت يومها، لكن بشكل أعنف. وكان الجميع مقتنعين بأن الحرب واقعة لا محالة. والانطباع الذي كان عندي انا يومها هو أن الأمر لم يعد قضية السنة القادمة بل الشهر القادم. ولعل هذا كان الدافع الأساسي لي أن أعود الى فلسطين مجرد ان فرغت من

الامتحان وقبل اعلان النتائج.

كانت العلاقة بيني وبين جوزفين قد انتهت قبل ذلك بقليل. وفي شهر ايار / مايو ١٩٣٩ سافرت الى شرق افريقية للانضمام الى أخيها، وذهبت الى مرسيليا معها مودعاً. وقد تبادلنا بعد ذلك بعض الرسائل، حتى بعد عودتي الى فلسطين قبل بدء الحرب العالمية الثانية. ثم انقطعت أخبار الواحد منا عن الآخر.

في الفترة التي تلت صدور الكتاب الأبيض كنت منهمكاً في الاستعداد للامتحان النهائي. فكانت مشاركتي في الشؤون السياسية محدودة.

فماذا كان موقفنا نحن، بل ماذا كان موقفي أنا شخصياً من هذه الأمور التي كانت تجري في فلسطين والتي كنا نسمع أخبارها لماماً؟ إضراب طويل الأمد لبلد، وفي بلد فقير يتحمل ابناؤه العرب نتيجة التدهور الاقتصادي الذي نشأ عن هذا الاضراب الطويل، ويلي ذلك ثورة تقضّ مضاجع البريطانيين ذلك بانه اعتباراً من أيام عز الدين القسام أصبح فريق من الفلسطينيين، العامل في الحياة العامة، يرى أن الخصم الأول الذي يجب ان يحارب في فلسطين هم الانكليز. ومن هنا كانت الثورة ضد الحكومة والحكم ورجال الحكم. وقد بلغ عدد أفراد القوة البريطانية التي استقدمت الى فلسطين واستخدمت لوضع حدّ للثورة قرابة ٣٠,٠٠٠ جندي، ومع ذلك فانها لم تستطع أن توقف الناس عند حدهم.

ماذا كان موقفي أنا شخصياً من هذه الأمور؟ هناك أولاً أهلنا. وأهلنا ليس المقصود بها إخوتي وأبناء عمي وأخوالي. أهلنا كنت أفهم منها كل واحد يسكن هذا البلد، كل واحد يسكن فلسطين، وكل واحد يصيبه شر أحس أنا بأن الشر أصابني. هناك من يقتل، هناك من يفتقد، هناك الأمهات اللواتي يبكين الأبناء، والزوجات اللواتي يندبن الأزواج، والمحبات اللواتي يأسفن لفراق الأحبة، والأخوات اللواتي كن يحزنّ لأن الأخوة ذهبوا ضحية هذا الغدر البريطاني والحكم الغاشم الذي يريد ان يعطي فلسطين لليهود في نهاية الأمر.

هذا من حيث الناس، أما من حيث ما كان يصيب البلد، فقد شعرت وأنا في لندن، أظن أكثر مما شعرت وأنا في فلسطين قبلاً، أن البلد يؤكل قضمة قضمة ويعطى لليهود لقمة لقمة، وأننا سنصبح مشتتين.

قيل لنا إن هناك مساعدات من العرب، وقيل لنا إن هناك إخواناً أعزاء لنا ينصرون القضية الفلسطينية. أذكر أنني كنت أتحدث مع بعض الإخوان العرب الذين كانوا في لندن، وكان عددهم على العموم قليلاً، عن قضية فلسطين ومشاكل فلسطين، فوجدت ان هؤلاء العرب، ولعل الذين كانوا في بلادهم منهم لا يختلفون عنهم كثيراً، كانوا بحاجة الى أن يثقفوا في القضية الفلسطينية.

انا لا أتحدث الآن، وإن كنت سأتحدث فيما بعد...

.... هناك اذا أراد الواحد أن يكون مهتماً بذاته، المستقبل الذي ينتظرني أنا وينتظر اخواني وينتظر جميع أفراد الشعب الفلسطيني، هذه كلها مسائل كانت تمر بخاطري وجميعها كانت قضايا تشغل بالي وكلها كانت مشكلات تملأ نفسي. لم تكن تلهيني عن عملي، لكن عملي لم يكن يلهيني عن التفكير بها أيضاً. وقد كانت هذه المشكلة بالذات أحد العوامل الرئيسية التي وجّهتني توجيهاً خاصاً نحو الاستفادة من مقومات هذا الشعب، الشعب الانكليزي بشكل خاص.

وأنا في انكلترا كنت أقرأ عن أخبار الصهيونية وتحركاتها الكثير في الصحف البريطانية. وهناك صحف بريطانية انكليزية اللغة لكنها كانت يهودية بالمرة مثل «جويش كرونيكل» Jewish Chronicle.

كنت أنا في صميم المكان الذي كان يهيىء للقضاء على بلدي وشعبي. فما الذي كان بامكاني أن أفعله؟ هناك أمر يجب أن يذكر هو أنني أنا كنت موظفاً في حكومة فلسطين، والبعثة من ادارة المعارف. والعمل في سبيل قضية فلسطين عمل سياسي. لكن يبدو أن جو الحرية الذي كنت أعيشه حملني على التصرف بكثير من الحرية.

والأمور التي قمنا بها بقدر الامكان هي أولاً إنشاء جمعية الطلاب العرب في بريطانية. وكان أول رئيس لها الدكتور قاسم البزرقان العراقي. وكنت أنا رئيساً لها لسنة واحدة لأن الرئاسة كانت سنوية.

يجب أن نذكر هنا أن عدد الطلاب العرب في بريطانية كلها كان صغيراً. ومع ان الجمعية كانت للطلاب العرب في بريطانية، فلم يكن من اليسير على الجميع ان يلتقوا لحضور اجتماع عام. لكن كنا نحاول، خاصة وأن أكثر الطلاب كانوا في لندن واكسفورد وكمبردج. فكان من اليسير على أهل اكسفورد وكمبردج ان يوافونا أو من اليسير علينا نحن أن نذهب الى واحد من المكانين. الاجتماع الأول لانشاء هذه الجمعية عقد في منزل الدكتور يوسف هيكل الذي كان يعمل وقتها على اعداد رسالة عن القضية الفلسطينية باشراف هارولد لاسكي. وكان يقيم في «نوتينغ هِل غايت». هناك اجتمعنا للمرة الأولى. أما بعد فكانت الاجتماعات في منازلنا حيث كان أولئك الذين عندهم غرف واسعة أو أماكن متوسطة يمكن الوصول اليها. هذه الجمعية لم تعمل كثيراً. أولاً، في أكثر من مرة استأجرنا مكاناً في «هايد بارك» وتكلمنا عن قضية فلسطين. كل واحد منا يتكلم مرة أو مرتين. ثانياً، هذه الجمعية كانت تحاول كأفراد لا كجمعية ان تجيب على بعض المقالات التي كانت تنشر في الصحف البريطانية في «رسائل الى المحرر».

وأود أن أذكر بهذه المناسبة أن عدداً كبيراً من الرسائل التي أرسلت الى المحرر لم تنشر في الصحف البريطانية لأسباب كثيرة، منها أن تكون هناك سياسة للجريدة تؤيد اليهود والصهيونية، أو أن تكون سياسة الجريدة لا تعارض سياسة الحكومة، أو أن يكون موقف الجريدة مؤيداً لسياسة الحكومة. لكن لم نعدم صحفاً كانت تنشر هذه المقالات أو هذه الرسائل. ثالثاً، كنا ندعى لالقاء (سمّها محاضرات اذا شئت وأنا أفضل أن أسميها أحاديث) إما في مؤسسات أو أندية أو في مدارس. وأنا كنت أحب التحدث الى طلاب المدارس وطالباتها.

الأمر الرابع الذي قمنا به هو أن بعضاً منا، وخاصة موسى عبدالله الحسيني وعيسى نخلة وأنا، كنا نساعد في المركز العربي The Arab Centre الذي كان في لندن وكان رئيسه الدكتور عزت طنوس. إنشاء هذا المكتب جاء بعد انشاء الجمعية. والجمعية لم تزُل بفتح المكتب، ولكن أصبح لنا، نحن على الأقل الذين كنا نذهب الى المكتب ونساعد فيه، أصبح لنا هيئة تنظّم المحاضرات وتطلب منا أن نذهب الى أماكن مختلفة. والمركز هذا كانت تاتيه الأخبار عن قضايا فلسطين بسرعة أكثر مما كانت تصل في الأحوال العادية. ولذلك أصبحنا نطّلع على أخبار البلاد اطلاعاً أوثق.

المكتب بحد ذاته وبرئاسة الدكتور عزت طنوس، كان له صلة مع الدوائر الحكومية بطبيعة الحال وخاصة وزارة المستعمرات. وفي ذلك الوقت، كان الحديث عن الثورة وإلغاء وعد بلفور على اعتبار ان هذه الأشياء يمكن ان تؤدي الى سلام. ومع ان الحكومة البريطانية لم تفكر جدياً، وما كان لها ان تفكر في الغاء وعد بلفور، فقد وضعت مقترحات ورد ذكرها في الكتاب الأبيض الذي وضعه مالكولم ماكدونالد كوزير للمستعمرات وفيه التحديدات التي ورد تفصيلها في الكتاب الأبيض (١٩٣٩). لكن، كان علينا نحن أيضاً كطلاب عرب أن نتحدث بقدر الإمكان الى الانكليز عن قضايا أخرى تهمّ العالم العربي بقصد التثقيف لهذه الجماعات. فمن ذلك مثلاً انني أنا القيت مرة خطاباً في جمعية الشبان المسيحية في لندن عن الاسلام، أركانه ومعانيه، وحضره عدد كبير لأن الناس كانوا معتادين على حضور محاضرات جمعية الشبان المسيحية. غيري ألقى محاضرات عن أمور أخرى - العالم العربي ومسائل أخرى.

لكن، لم يكن هناك دعم حقيقي للقضية الفلسطينية من العالم العربي حتى نشعر نحن بهذا الدعم في لندن، في انكلترا، ونتأثر به. هذا لا يعني انه لم يكن هناك شعور عربي أو انه لم يكن هناك شعور بالقومية العربية، أنا لا أتحدث عن هذين الأمرين الآن. أنا أتحدث عن قضية فلسطين في ضمير العالم العربي في ذلك الوقت. القضية

لم تكن تشغل ضمير العالم العربي. القضية لم تصل بعد الى ذلك الحدّ.

ناحية من نواحي الاهتمام بفلسطين كانت إعمار المسجد الأقصى وقبة الصخرة بشكل خاص لأنهما بنايتان مهمتان مقدستان عربيتان، فيهما فن، خاصة قبة الصخرة، فيها فن ممتاز. وهما رمز للعرب والاسلام، أي للعروبة والاسلام في فلسطين. ولذلك عندما كان الزعماء المسؤولون يتوجهون الى المسلمين، في الهند مثلاً للحصول على تبرعات منهم لتعمير المسجد الأقصى أو قبة الصخرة، كان طريق الاقتراب منهم هو الاسلام. وهذا طبيعي لكن عندما كان هؤلاء يطلبون من العرب المساعدة، في الجزيرة واليمن وغيرهما من الأماكن، لم يكونوا يضعون قضية فلسطين كقضية عربية الى جانب هذا الطلب الاسلامي. ظل التقرب عن طريق الحرم الشريف تقرباً اسلامياً لا عربياً. وهذا كنا نشعر به حتى ونحن بعيدون في لندن. أذكر يوماً كان فيه محمد علي علوبة باشا في زيارة سياسية للندن، ودعوا هو وصحبه الى غداء، ودبّر لنا موسى عبدالله الحسيني دعوة لننضم اليهم ويكون لنا غداء فاخر في أحد مطاعم العاصمة الكبيرة.

كنت أجلس الى جانب محمد علي علوبة باشا، فقال لي تقريباً بالحرف الواحد بعد حديث واشارة الى قضية عروبة فلسطين وما شابه ذلك: نحن في مصر قضينا على الفرعونية وأعدنا مصر الى حظيرة الاسلام. والذي نأمله الآن أن نقضي على قضية العروبة والقومية العربية لنعيد كل هذا الشرق العربي - استعمل كلمة الشرق العربي - الى حظيرة الاسلام لأن هذا هو الحصن الوحيد.

قد يكون هذا الحصن الوحيد، ولكن هل من الضروري ان يقضى على العروبة وتُعاد المنطقة الى حظيرة الاسلام فقط؟ هذه الكلمات التي تفوّه بها شخص مثل محمد علي علوبة باشا حملتني على التفكير في قضية العروبة والقومية العربية وموقف هاتين الفكرتين من القضية الاسلامية العامة وقضية الاسلام من العروبة والقومية العربية. وكانت لي في هذا الموضوع آراء سأتحدث عنها في حينها.

هذه الآراء التي كانت تصلنا، كان تصلنا كأنها رسائل تلغرافية. لكن كان فيها الكثير من المعاني. أنا لا أقول أن محمد علي علوبة باشا كان يمثل التفكير المصري بكامله، ولكنه كان يمثل تياراً قوياً سيما وأنه كان يتحدث بعد مرور نحو ثماني سنوات أو تسع على قيام جماعة الإخوان المسلمين في مصر وقيام الحركات الاسلامية المختلفة.

هذا ذكّرني مثلاً بما قاله لي وأنا أعلم في عكا قبل ذلك الوقت بنحو أكثر من عشر سنوات أحد أصدقائي من كبار وجهاء المنطقة، منطقة عكا، قال لي يوماً من الأيام: فليعلّم المسيحيون في المدارس كل الموضوعات، لكن اتركوا لنا التاريخ. ولما سألته: لماذا؟ قال: لأنهم لا يعلمونه تعليماً صحيحاً. وقد علّمت أنا، وأنا مسيحي، تاريخ العرب والاسلام في عكا، وفي الكلية العربية في القدس، وفي الجامعة الاميركية في بيروت، واستطيع ان أقول، وأقول ذلك بكل اعتزاز، انني أوضحت تاريخ العرب والاسلام أفضل بكثير مما قام بتوضيحهما بعض المسلمين، لا لأنني أنا أحكم من غيري، ولكن لأنني أنا أفهم هذين الأمرين فهماً صحيحاً، بينما غيري قد يكون ملتزماً على الأقل بأحدهما.

خرجنا عن الموضوع بعض الشيء. ولنعد. لنعد الى أيام انكلترا والمانية في الفترة التي كنت فيها قبل الحرب العالمية الثانية وهي أربع سنوات.

ماذا كان موقف جماعات أخرى ودول ثانية من قضية فلسطين، أقصد في أوروبا؟

في المانيا جرت لي مناسبات كثيرة ظن فيها أنني يهودي. والمناسبة، والمناسبات كلها كانت عندما يعرف

شخص ما، عندما أسأله عن شيء ما أنني جئت من فلسطين.

كنت مرة على وشك أن أدخل مدينة فرانكفورت في المساء وأردت ان استعلم عن فندق أقضي فيه ليلة أو اثنتين. كان هناك شباب. أوقفت البسكليت وسألتهم عن فندق معتدل السعر. وسألني أحدهم من اين انا آت. قلت: من فلسطين. فقال لي: إذاً من هنا الطريق. وتنبهت أنا لماذا أشار من هناك. فقلت له: لكنني لست يهودياً، أنا مسيحي عربي. قال: إذاً هذا الطريق لا ينفعك لأنه يؤدي الى الحي الذي تكثر فيه الفنادق اليهودية. إذاً اذهب من هنا. وسمّى لي فندقاً، فعلاً لما ذهبت اليه وجدت ان الشاب نصحني.

هذه واحدة، الأخرى كانت لما قضيت بعض الصيف في ضيافة زوجة عمي وابنها. كنت أذهب الى مقهى على شاطىء نهر شبراي أتناول فنجاناً من القهوة وأقرأ. وفي يوم من الايام، جاء رجل (صاحب الحانة أو المقهى) وسألني على نحو ما كان يسأل دائماً أصحاب المقاهي الصغيرة في الريف خاصة الزبائن عن أماكن وجودهم، عن أماكن قدومهم، عن الأماكن التي عرفوها. سألني من أي بلد أنا. فقلت له: من فلسطين. شعرت كأنه كش وخاف، وقال: أرجوك أن لا تأتي مرة ثانية الى هذا المكان. فسألته وقد أدركت السبب: ولكن لماذا؟ قال لي: أنا لا يمكن ان أكون مرتاحاً عندما يجلس يهود في هذا المقهى لأن اصحاب الأمر لا يحبون ذلك. فقلت له: إنني لست يهودياً. أنا من فلسطين ولكنني عربي مسيحي. وطلبت منه أن يجلس الى جانبي لأحدثه قليلاً عن فلسطين وسكان فلسطين. فجلس، إذ لم يكن لديه عمل، وقضيت نحو ربع ساعة أشرح له بعض الأشياء عن فلسطين وأهلها، عن اليهود والمسيحيين والمسلمين. العرب، الاكثرية المسلمون الأكثرية الكبرى من الطوائف كطوائف. فلما انتهى هذا الأمر، قال: إذاً أهلاً بك وسهلاً. لكن لما قلت أنك من فلسطين ظننتك يهودياً.

المناسبة الثالثة التي أذكرها الآن لمجرد ذكر الأشياء، انني كنت في جبال «الهارتس» مع نورا وأردنا أن ندخل الى مطعم. والمطعم كان مكتوباً على بابه ـ ولم يكن المطعم الوحيد في المانية الذي كتب ذلك على بابه ـ كان مكتوباً على بابه «ممنوع دخول اليهود والكلاب». على كل دخلنا لأننا لسنا يهوديين ولسنا كلبين. ولما جلسنا في المقهى، جاء أحد الندل هناك، ولعله كان كبير الندل، وقال: ألم تقرأ ما على الباب؟ قلت: قرأنا ما على الباب، ولذلك دخلنا لأننا كما ترى لسنا كلبين والذي تريد ان تعرفه أيضاً هو أننا لسنا يهوديين. قال: إذاً أهلاً وسهلاً. وهذه عبارة ممنوع دخول اليهود والكلاب كانت موضوعة على عدد كبير من المقاهي في المانية.

فالناس كانوا يحسبون ان فلسطين يهودية ولذلك أوردت هذه القصص لأني أريد أن انتقل منها الى النقطة التالية: كان كثيراً ما يقال لي أو اسمع الناس يقولون وحتى في بعض الخطابات العامة: فلسطين يهودية، فليذهب اليهود الى فلسطين وليتركونا. أما أنه كان هناك اضطهاد ضد اليهود في المانية النازية، فشيء عرفته ولمسته هنا وهناك. صحيح. ولما اشتد الاضطهاد كما نعرف من قبل، كان نتيجة ذلك أن ازداد عدد المهاجرين الى فلسطين من يهود المانية زيادة كبيرة، وكان ذلك بين سنتي ١٩٣٣ و١٩٣٦. هل كان هناك سياسة معينة للحكومة الالمانية ـ يعني حكومة هتلر بعبارة أخرى؟

اليهود كانوا يعتبرون جسماً غريباً في المانية، إذن يجب التخلص منهم. ولا شك انه في أيام الحرب العالمية الثانية سجن واضطهد وقتل من اليهود عدد كبير. ولكن اسطورة الملايين الستة لا أصل لها البتة. قتل عدد كبير ولكن لا وصل الى ستة ملايين ولا حتى الى ثلاثة ملايين. العدد كان دون ذلك بكثير، لكن اليهود ووسائل الاعلام التي يمتلكون والأساليب التي يتبعون، مكنت لهم من ان يغرسوا في نفوس العالم، حتى في العالم العربي في بعض الأحيان، أن الذين احرقوا وقتلوا وصلبوا وعذبوا منهم في المانية كانوا ستة ملايين. لكن بالنسبة للسياسة الالمانية نحو فلسطين بالذات، فأنا لا أدعي أنني كنت أعرف أو كان لي اتصال بالهيئات الألمانية السياسية. تعرّفت الى بعض الاساتذة، وتعرّفت الى بعض المعلمين، وتعرفت الى بعض الجيران هنا وهناك،

ورافقت البعض منهم في الطريق مصادفة في ركب البسكلات، وجلست الى بعض الفلاحين لما قضيت الليل في مزارعهم وأنا في طريقي من مكان الى آخر. لكن الذي أعرفه من مصدر موثوق أنه لما وصل الحاج أمين الحسيني الى المانية في أيام الحرب العالمية الثانية وأجرى اتصالات مباشرة أو غير مباشرة مع أصحاب الشأن فيها كي تصدر الحكومة الالمانية بياناً تعلن فيه انها في حالة انتصارها في الحرب، تمنح فلسطين استقلالاً وتحاول الغاء وعد بلفور. ولكن رجال الحكم النازي في المانية لم يتقبلوا هذا الرأي ولم يفعلوا شيئاً في سبيل ذلك.

في فرنسة، النفوذ اليهودي قوي ومدو، بمعنى أنه له دوّي، له صراخ. النفوذ اليهودي في انكلترا كان قوياً، فقد كان في الوقت الذي كنت فيه أنا سبعة وعشرون عضواً من أعضاء البرلمان الانكليزي يهوداً، ولا شك ان عدداً كبيراً منهم، ان لم يكن كل واحد منهم، كان يؤيد وعد بلفور وسياسة الانتداب الرامية الى جعل فلسطين يهودية.

لكن الضجة في بريطانية كانت أقل لأن البريطانيين يتكلمون بهدوء أكثر لا لانهم أقل اهتماماً بقضية فلسطين والصهيونية.

الصوت الذي كان يسمع في فرنسة لم يكن صوتاً عادلاً. هناك استثناء هو حكومة ليون بلوم التي تولّت الوزارة في أواسط الثلاثينات لمدة قصيرة. لكن كل الاشياء التي اعتزمت حكومته القيام بها، ومنها مثلاً عقد معاهدة مع كل من سورية ولبنان لانهاء وضع الانتداب فيهما، وضعت على الرف فيما بعد لما انتهت الحكومة الى الاستقالة.

الواقع اننا نحن، وأنا أخص نفسي بذلك، كنا في حيرة من أمرنا في ما الذي يمكن ان نفعله من أجل فلسطين. العين بصيرة واليد قصيرة. وأحسب أنني فعلت ما استطعت اليه سبيلاً ولم يكن كثيراً. في الواقع كان قليلاً. لكن هذه كانت امكاناتي.

في انكلترا وفي السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية، كانت هناك فكرتان سائدتين بين أصحاب الرأي في المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية.

الأولى هي التحدث عن الشيوعية بشكل واضح مفصّل. ذلك بأن الثورة الشيوعية التي كانت قد بلغت من العمر ما يقرب من العشرين عاماً، اعتبرت أنها ناجحة جداً في روسيا. فقد نقلت الثورة، على ما كان يقوله دعاتها ومؤيدوها، روسيا القيصرية من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين، نظاماً وحكماً واقتصاداً واجتماعاً وحرية.

أذكر ان من الكتب التي راجت في أواسط الثلاثينات في انكلترا كان كتاب «جون غُنتر الذي سماه داخل أوروبا Inside Europe، والكتاب كان في مجمله دفاعاً عن روسيا الشيوعية الى حدّ أنه لم يمتنع عن تبرير وفاة ما يزيد عشرة ملايين من الروس بسبب السياسة الاقتصادية الاجتماعية التي اتبعها ستالين.

طلاب الجامعات كان فيهم عدد كبير من اليساريين قد يكونون شيوعيين مائة في المائة وقد يكونون شيوعيين عشرة في المائة، ولكنهم مع اليسار. ولعل السبب في ذلك هي الرغبة في التبديل، في التغيير. فان الكثير من الآراء السياسية، والنزوات السياسية، لا تزيد عن كونها تعبيراً عن الرغبة في التغيير.

لما قامت الحرب الأهلية في اسبانية وكانت بين فرانكو المحافظ جداً والشيوعيين الذين استولوا على الحكم قبل ذلك بمدة وأقصوا ألفونس الثالث عشر عن العرش الاسباني فخربوا البلاد. المهم ان اسبانية في هذه الحرب خدمت المانية وروسيا. فالمانية كانت تبعث بسلاحها الذي تصنعه الى فرانكو وجماعته، وروسيا كانت تبعث بسلاحها الى الشيوعيين. فكانت اسبانية حقل تجارب للأسلحة الحديثة يومها كما أصبحت فيما بعد أقطار

أخرى كثيرة حقول تجارب للاسلحة الروسية والاميركية، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية.

في هذا الوقت، واظن في سنة ١٩٣٦، في أواخر السنة بدأت تصدر في انكلترا كتب باسم سلسلة «بنغوين» Penguin. هذه السلسلة كانت فيها نزعة يسارية خفيفة، ولذلك راجت، وكان ثمن الكتاب في ذلك الوقت، ستة بنسات، ما يعادل نصف شلن. واذا زاد الحجم عن ذلك، فكان يصل شلناً أو شلنين. كتب من هذا النوع وحجمها معتدل بحيث يمكن ان توضع في الجيب، كانت تروج. شهدت أنا ولادة هذه السلسلة في انكلترا. وتبعتها فيما بعد سلسلة «بليكان» Pelican التي كانت من نوع آخر. وكل كتاب نشر في أول الأمر، كتب خصيصاً لهذه السلسلة. وقد كوفىء الشخص الذي بدأها فيما بعد بأن منح لقب «سير»، وقد قابلت أنا السير الن لاين Alen Lane قبل وفاته في بيروت في بيت السيد خليل صايغ، أحد صاحبي مكتبة لبنان، وتحدثنا كثيراً وقد سرّ أنه كان هناك شخص شهد ولادة هذه السلسلة من الكتب. لم تكن هذه السلسلة الوحيدة. هذه كانت يسارية معتدلة ثم تطورت ودخلت فيها اشياء أخرى ولم تكن بهذه الصفة السياسية. لكن كانت هناك كتب كثيرة شيوعية بالمرة. وكانت هناك جريدة اسمها «الديلي وركر» (العامل اليومي). هذه كانت يسارية شيوعية تماماً. وفي بلد كانت الحرية فيه قوية، كان من الممكن ان يتحدث الناس عن كل شيء يريدون. وكان من الذين سمعتهم يتحدثون عن الشيوعية هارولد لاسكي الذي كان استاذاً للعلوم السياسية في واحدة من كليات جامعة لندن.

حتى الصحف الوسط كانت تنشر مقالات وأخباراً عن الشيوعية وغيرها. بمناسبة الحرب الاسبانية الأهلية أود أن أذكر أن عدداً من طلاب كلية لندن الجامعية، أي كليتي، ترك الدراسة والتحق بصفوف الثوار الشيوعيين في اسبانية مقاتلاً ومجاهداً في سبيل الرأي الحر.

الفكرة الثانية التي كانت منتشرة في انكلترا في ذلك الوقت، وهذه كانت نتيجة للآلام التي تكبدتها البشرية، والانكليز منهم في الحرب العالمية الأولى، هي نظرية «محب السلم». وكان هناك من يقول: السلم مهما كان ثمنه مفيد ونافع، أو كما كان يقول البعض «نريد سلماً بأي ثمن كان». وكان من الذين يدافعون عن هذها لفكرة سياسي بريطاني اسمه «هندرسون». وهندرسون لم يكن الوحيد، ولكن الذي أذكره ان هذا الاسم كان الأشيع بين العاملين النشيطين. فما أحسب انه مرّ اسبوع واحد لم يذكر فيه اسم «هندرسون» على الأقل مرة واحدة في رسائل للصحف، في اجتماعات، في مقابلات، في محاضرات، في خطب. ولم يكن، كما قلت، هندرسون الوحيد. الصفة التي كانت تغلب على وزارة «بولدوين» المحافظة كانت فكرة السلام لا التسلح. ومن هنا، كان يعتبر تشرشل الذي كان يرى بأم عينه أو بقلبه أو ببصيرته الخطر الذي يمكن ان تتعرض له أوروبة بسبب تسلح المانية على يد هتلر، كان يعتبر في انكلترا من دعاة الحرب والقتال. لم يكن ينظر اليه حتى في أجواء حزب المحافظين على أنه من صميم الحزب، فهو كان على أطراف الحزب لأنه كان يدعو الى التسلح. لكن وزارة بولدوين لم تكن تعمل في سبيل التسلح، ولا حتى في التخطيط له.

صحيح ان وزارة «بولدوين» لم تقبل بمبدأ «السلم بأي ثمن كان» قبولاً مطلقاً لا اساساً ولا من حيث التفاصيل، ولكنها تصرفت وكأنها ترى أن هذا هو الحل الانسب؛ فلم تُعنَ بالتسليح أو التسلح، ولم تهتم بالتنظيم الحربي أو في تقوية الاسطول كما يجب. وبعد ان تخلى بولدوين عن رئاسة الوزارة وعن رئاسة حزب المحافظين، قام برحلة واسعة زار فيها كندا. وهناك القى خطاباً في إحدى المناسبات الكبيرة جرب فيه أن يدافع عن سياسته وسياسة حكومته في ذلك الوقت، فقال: نحن لم نتسلح. نحن لم نهتم بالتسلح كوزارة لأن الشعب البريطاني لم يكن مستعداً لقبو ل شيء من هذا النوع. وأذكر أن إحدى الصحف، صحف المحافظين حتى، انتقدت هذا الكلام وقالت ما معناه: هذا يدل على أن بولدوين لم يكن حرياً بقيادة انكلترا، فالقائد المهم العارف بالأمور لا

يسير وراء الشعب ولكنه يسير أمامه.

هذان الاتجاهان، انتشار الفكر الشيوعي والسعي وراء السلم كان لهما أثر كبير في بريطانية، بريطانية كانت لا تزال مستعمراتها وامبراطوريتها كما هي، ولندن كانت لا تزال يومها عاصمة امبراطورية، كما كان يقال، لا تغرب الشمس عن أملاكها. وكنا نحن الذين أقمنا في لندن في ذلك الوقت، ومن الأجانب خاصة، نشعر شعوراً عميقاً بأثر هذا الأمر في الشعب الانكليزي. فهناك نوع من الصلف لا يبدو نحونا فقط، بل كان يبدو في كل تصرف حتى فيما بين الانكليز أنفسهم. وكان هناك نوع من الكبرياء، وكان هناك نوع من فكرة الانتصار. ولم تكن فرنسة فيما أعتقد أقل غطرسة من انكلترا بالنسبة لهذه الأمور. فهي أيضاً كانت لها امبراطورية واسعة، في افريقية وفي الهند الصينية وفي أماكن أخرى قد تغيب الشمس عن بعض أملاكها ولكنها تشرق على كثير منها.

لكن، لعل فكرة الاشتراكية كانت على العموم أقوى في انكلترا منها في فرنسة فيما كان الاتجاه الشيوعي أقوى في فرنسة منه في انكلترا. وكان يمثل هذه الاشتراكية في انكلترا «الجمعية الفابية» التي كان من أعضائها مثلاً «سدني وب» وزوجته وهما من كبار (أعضاء) حزب العمال البريطاني ومن كبار المفكرين البريطانيين في تلك الفترة. ليس هنا مجال تعداد الاشخاص الذين كانوا يمثلون التفكير الفابي، أي الاشتراكي، في انكلترا، فأنا لا أريد أن أتحدث بالتفصيل عن هذه الأشياء، أنا أريد أن أرسم صورة للجو الذي كنا نعيشه في انكلترا في ذلك الوقت، وبالمقابلة الجو الذي عشته أنا في المانية في الوقت نفسه. لم يكن أحد يفكر بشيء اسمه «التقنين» في انكلترا. كل شيء موجود، كل شيء يمكن ان يبتاع، من المآكل، من الملابس، من الأشياء الآتية من الخارج أو من الداخل؛ كل ذلك في الوقت الذي كانت فيه المانية قد بدأت التقنين منذ سنة ١٩٣٥، وقد ذكرت أمثلة على ذلك من قبل.

واذا أردت ان أذكر بعضاً من الحوادث الهامة التي شهدتها في انكلترا في هذه الفترة، لعلني أتوقف قبل كل شيء عند تنازل الملك ادوارد الثامن عن العرش اكراماً لحبيبته «مسز سمبسون».

لما توفي الملك جورج الخامس، خلفه على العرش ولي عهده باسم «ادوارد الثامن». وطال الأمر بين توليه الحكم وبين تتويجه. بهذه المناسبة، حضرت أنا جنازة الملك جورج الخامس في لندن في أوائل عام ١٩٣٦.

أنا، كشخص عادي مقيم في لندن، لم أكن أعرف شيئاً عما يجري وراء الكواليس. والصحف البريطانية امتنعت اجمالاً عن الاشارة الى أي شيء يتعلق بحياة ادوارد الثامن الخاصة. لم يصدر اليها أمر بذلك، ولكنها هي التي فرضت هذا الأمر على نفسها حرصاً على سمعة الأسرة المالكة والملك بشكل خاص.

ولكن في شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٣٦، بدأ يظهر في بعض الصحف ما يشير الى أن هناك أموراً في حياة ادورد الثامن الخاصة قد تحول بينه وبين البقاء على العرش. في هذا الوقت، كما يبدو، كانت قضية الملك والمسز سمبسون قد أخذت تتفاعل على أعلى المستويات في بريطانية، المستويات السياسية، أي الوزارة، وفي بعض جوانب مجلس العموم ومجلس اللوردات.

ما هي القضية من أصلها؟ إدوارد الثامن كانت له حبيبة، هل من الممكن ان تسميها عشيقة أو شيئاً آخر؛ ليس هذا المهم، هي أميركية الأصل اسمها مسز سمبسون، وكانت مطلقة مرتين. واليس سمبسون، إذا تزوجها الملك تصبح ملكة انكلترا. وعلى هذا الأمر اعتراضان اساسيان، الأول انه مطلقة مرتين لا مرة واحدة، والثاني انها ليست بريطانية. وهنا كان الانقسام في الراي. فهناك من يرى ان الملك له الحق ان يتزوج أي امرأة من الشعب، ليس من الضروري ان تكون من أسرة مالكة؛ فهذا الأمر قد انتهى، وعدد كبير من الملوك في انكلترا واولياء العهد

أو الذين لهم الحق في العرش تزوجوا في واقع الأمر من سيدات من الطبقة العامة؛ صحيح من فئة خاصة لكن من العوام لا من الأسر المالكة بالضرورة.

هذا واحد، الفئة الأخرى كانت ترى أنه لا يجوز لملك انكلترا ان تكون الى جانبه ملكة مطلقة مرتين وأجنبية. ولست أدري تماماً الآن أي من الأمرين كان أقوى في نفوس المعارضين، كونها مطلقة مرتين أو كونها أجنبية، ولكنني أرجح ان الطلاق مرتين كان ذا أهمية كبرى، وأنا أتحدث عن أمور جرت في أواسط الثلاثينات.

هذا هو الأمر الذي كان يشغل الدوائر المهمة، من القصر الملكي الى الوزارة فالبرلمان. ولكن، كما ذكرت من قبل، كان هناك تحفظ بالنسبة للصحافة، لعل اشارة أو اثنتين مرتا في مناسبات مختلفة، وعلى اعتبار ان هذا الخبر منقول عن الصحف الأجنبية، لأن الصحف الأجنبية خاصة في الولايات المتحدة وفي فرنسة أخذت تتحدث عن الموضوع.

في اليوم الثاني من كانون الأول سنة ١٩٣٦، واليوم الثاني من كانون الأول هو عيد ميلادي، خرجت من البيت في ٧٨ فيفيان أفنيو في هندن متجهاً نحو المحطة لآخذ قطار الأنفاق الى كليتي، فوجدت أن الصحف في ذلك اليوم، جميعها تذكر أشياء عن الملك، الملك والسيدة، قصة غرام الملك، الملك له الحق ان يتزوج من يشاء. هذه عناوين الصحف. صحيح ان الجريدة التي جاءتني في البيت كان فيها اشارة الى ذلك، لكن هذه كانت جريدة محافظة، أما الجرائد الأخرى مثل «الديلي ميرور» والصحف التي تهتم بهذه الأمور، كان فيها صور عن زيارات الملك لها ووجوده معها في يخت لأصدقائه في البحر الأبيض المتوسط. القصة انفجرت كأنها عاصفة هبطت على لندن في الليل الماضي وظهرت آثارها في صحف ذلك الصباح. فابتعت مجموعة من هذه الصحف، وضعتها في شنتتي الصغيرة وذهبت الى الكلية. ولما رجعت في المساء الى البيت، بدأت أقرأها. وما أظن أنني قرأت صحفاً بريطانية بهذا العدد وبهذه الكمية مثل تلك التي قرأتها في الاسبوع او الايام العشرة بين الثاني والحادي عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٣٦.

في البيت عندنا، كما ذكرت من قبل، السيدة ويلمان محافظة، مستر ويلمان من الأحرار، وأنا حكم نصبت رغماً عن أنفي للفصل بين المتخاصمين. في تلك الأمسية كان الحديث الوحيد هو الملك والسيدة. مسز ويلمان كان رأيها لا يجوز أن تجلس على عرش بريطانية امرأة مطلقة مرتين وأجنبية، أو أجنبية ومطلقة مرتين، ليس المهم أيهما الأسبق، المهم انها كانت في نظر مسز ويلمان تجمع هاتين الخصلتين القبيحتين. ولمدة طويلة امتدت حوالي عشرة أيام كانت الدوائر الرسمية المعنية تهتم بالموضوع اهتماماً داخلياً. والصحافة تهتم بنشر الأخبار، ولكن الشيء الطريف في ذلك الوقت كان رسائل القراء الى المحرر، وهذه في انكلترا، في الصحف البريطانية، مسألة مهمة كثيراً، فكل صحيفة فيها مكان لمجموعة من الرسائل التي تأتي للمحرر فينشرها لأن فيها ملاحظات تتعلق بالأمور التي تجري، او المقالات التي تنشر، أو المقابلات التي يتحدث عنها. وفي اعتقادي ان الصحف يومها وسّعت المجال الذي كانت تعطيه من قبل لرسائل القراء، فقد قرأت عشرات من الرسائل التي تؤيد الملك في تصرفه الشخصي والتي تعارض ذلك. لم أقم باحصاء لهذه الرسائل، فأنا لست عالماً اجتماعياً، ولله الحمد، ولكن الانطباع الذي ظل في نفسي هو انه كان هناك قطاع كبير من الشعب البريطاني يؤيد الملك في غرامه وعشقه وحبه وضرورة زواجه من هذه الحبيبة.

بهذه المناسبة، كان ثمة شيء آخر ممكن وهو بدل ان تكون واليس سمبسون ملكة بريطانية، ان يكون الزواج هو من النوع الذي يعتبر نفعياً بمعنى أن يتزوج الملك منها، ولكن هذه الزوجة لن تكون ملكة، فهي لا تشارك الملك لا في الحفلات العامة ولا في الأمور العامة المتعلقة بالحكم بقدر ما يمكن للملكة ان تشارك.

لكن، ادوارد أصر على أن الأمر يجب الا يكون فيه مفاصلة أو مساومة، إما ملك وملكة، هي واليس

سمبسون، أو فلتتدبر بريطانية أمرها ولتهتم بالملك الذي تريده.

الوزارة التي كانت من وزارات المحافظين، كانت في مجموعها أو في معظم آرائها على الأقل، تؤيد موقف رئيسها بولدوين بأنه لا يجوز أن تكون واليس سمبسون ملكة في بريطانية، ولا حاجة الى الزواج الآخر.

الوحيد من كبار السياسيين في بريطانية يومها الذي كان يؤيد الملك هو ونستون تشرشل. ونستون تشرشل أيّده علانية وبقوة، لكن جماع ما اتفق عليه كان ان الملك أذاع في مساء الحادي عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٣٦ خطاباً على الشعب البريطاني من الـ B.B.C. (هيئة الاذاعة البريطانية) قال في مطلعه: وأخيراً استطيع ان اقول كلمة هي كلمتي الخاصة.» ولم يذكر شيئاً عن الخلاف. كل ما هناك أنه أعلن انه تنازل عن العرش لأن موقفه لم يقبل به المسؤولون. وفي تلك الليلة، أُطلق على ادوارد الثامن، بعد ان اعلن تنازله عن العرش، لقب دوق وندسور وخرج من بريطانية الى فرنسا، والذي اعتقده ان الرجل لم يعد الى بريطانية. المهم انتهى الأمر بأن تنازل ادوارد الثامن عن العرش واعتلى العرش أخوه جورج السادس، ولا تزال زوجة جورج السادس واسمها اليزابيث تسمى «الملكة الأم»، مع ان ابنتها اسمها أيضاً اليزابيث وهي ملكة انكلترا اليوم.

جرّبت في هذا لذي ذكرته، ان أُشير الى القضية من نواحيها المختلفة، لكن الشيء الذي لا أستطيع ان أنقله الآن للناس وللقراء هو الجو الذي عاشته بريطانية، وخاصة لندن عاصمة بريطانية، في تلك الأيام منذ أن أذيع النبأ الى أن تنازل الملك عن العرش.

الجو، لا أقول كان جواً محموماً، ولكنه كان جواً مليئاً بالنشاط، نشاط الناس، رأي الناس كما تبدّى في الرسائل التي أرسلت، نشاط الناس في بعض الخطابات التي كانت تلقى، اهتمام المفكرين، اهتمام السياسيين، اهتمام المحافظين واهتمام الشيوعيين مثلاً في الأمور هذه. أذكر أن مقالة واحدة قرأتها في ذلك الوقت في صحيفة شيوعية لم تكن «الدايلي وركر» (العامل اليومي) رأت أن هذا الوقت هو مناسب لإلغاء الملكية في بريطانية والتخلص منها بالمرة.

هذا الجو كان تجربة لي. في بريطانية يبحث المسؤولون ويبحث الناس، ويتحدث العامة والخاصة عن قضية من هذا النوع وليس هناك من يعترض على هذا الانفتاح أمام الناس. وفي بعض البلاد التي كانت فيها الى ذلك الوقت ملكية في أواسط أوروبة وفي بعض أقطار المشرق العربي، كانت مجرد الاشارة الى الذات الملكية قد تؤدي بالشخص الى السجن ان لم يكن الى ما هو أمر من السجن.

هذه أمثولة. هذا درس من الدروس التي تعلمتها في انكلترا، ولا تزال هذه الدروس عميقة الأثر في نفسي الى الآن، ولذلك فانه يحزّ في نفسي كلما فكرت أنني لا أجد في أي منطقة في بلادي، باستثناء منطقة واحدة، باستثناء بلد واحد، شيئاً يؤملني في ان انظر في المستقبل الى الحرية على أنها أساس الحياة. البلد الواحد الذي كان فيه شيء من هذا، ولو انه مع الفوضى، كان لبنان، ولم يتحمل العالم العربي وجود لبنان فساعد على القضاء عليه حتى لا يكون فيه حرية الكلام وحرية الرأي مصونة ومحترمة ومقبولة على الأقل.

الحرب العالمية الثانية التي انفجرت صيف ١٩٣٩، كانت لها مقدمات. ولست أعني هنا بالمقدمات ماذا حدث من اتفاقات سياسية وغيرها صحيحة ومختلفة بين الفرقاء المتخاصمين. أقصد بالمقدمات أنا النواحي غير السياسية المباشرة مما سبق الحرب. واذاً يمكن التحدث عن شبح الحرب. وشبح الحرب بدأ يبدو في أوروبة في عام ١٩٣٧. وقد شجع دول المحور، أي ايطالية والمانية، على الاندفاع في التسلح ومهاجمة الغرب الآخر، يعني بريطانية وفرنسة بشكل خاص، وهو أن احتلال ايطالية للحبشة سنة ١٩٣٦ لم يجد مقاومة من الغرب الآخر. هذا يؤيد ما أشرت اليه قبلاً من المراوغة في انتشار السلم بأي ثمن مهما كان. هذا الموقف السلبي لدولتي بريطانية وفرنسة شجع هتلر وموسوليني على السير قدماً في التسلح. وكان موسوليني قد أتم احتلال ليبيا

ولم يتحرك أحد للاحتجاج على ذلك، ولكن كيف يمكن ان يحتج احد سواء في فرنسة أو انكلترا؟ وفرنسة كانت تحتل تونس والجزائر والمغرب، وبريطانية كانت تحتل مصر، وكان لها انتداب فظيع الشكل في فلسطين وشبه قبيح في الأردن وفي العراق. وفرنسة كان لها انتداب لا يختلف عن الاستعمار كثيراً في سورية ولبنان. ومن هنا فقد بدا كأن هناك رغبة في التساهل مع الديكتاتورية لارضائها. لكن اذا كانت ايطالية قد ارضيت باحتلال الحبشة، فالمانية لم تنل بعد ما يرضيها. صحيح ان الجيوش الالمانية دخلت المنطقة المحرمة عليها باتفاقية لوكارنو وذلك عام ١٩٣٦، ولم يتحرك أحد لمنعها، لكن هذا شيء آخر؛ فهو أمر داخلي.

فرنسة كانت مطمئنة الى أن خط ماجينو سيوقف أي اعتداء عليها عند ذلك الخط! وسياسة خط ماجينو، كما سميت فيما بعد، كانت تقوم على أساس الاعتماد على هذا الخط للدفاع عن فرنسة دون ان تحتاج هي الى القتال خارج حدودها.

ما الذي كان يريده هتلر في أوروبة؟ كان يريد ان تستعيد جزءاً من المانية أعطي لبولونيا بعد الحرب العالمية الأولى. وكان هتلر قد بدأ يقضم أولاً سوداتن لاند، من تشيكوسلوفاكيا ثم النمسا وما الى ذلك.

وهذا الشبح، شبح الحرب أخذ يتقوّى بحيث ظهرت معالمه ظهوراً شبه واضح في سنة ١٩٣٨ الى حدّ ان الناس توقعوا أن تقع الحرب في تلك السنة.

في تلك السنة، قضيت الصيف في «بيزانسون» على ما سيمرّ بالقارىء.

الفصل الخامس عشر

كان اليوم الأول من نيسان عيد ميلاد ادولف هتلر، دكتاتور المانية للسنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية وللسنوات التي التهمتها تلك الحرب.

كنت في ربيع سنة ١٩٣٦ في المانية، وذهبت اليها بقصد تعلم اللغة الالمانية. وقد اختار هتلر يوم عيد ميلاده لاقامة أول عرض عسكري في المانية منذ أيام القيصر وليام، قبيل الحرب العالمية الأولى.

كان هتلر قد اخذ بتسليح المانية على طريقته. واذن فمن المنتظر ان يكون هذا العرض العسكري شيئاً خاصاً. لذلك حرصت على حضوره.

كنت أقيم مع عمي رشيد وزوجته وابنه هاينز، في بلدة قريبة من برلين اسمها فرستن فلده؛ تركت البيت مبكراً، وقطعت المسافة في قطار اوصلني الى شارع وارتنبرغ في نحو نصف ساعة.

كنا قد سمعنا من قبل عن برلين بعض الشيء، حتى في دار المعلمين في القدس. وكان الشارع الرئيسي في برلين، على ما قيل لنا، هو انتردن لندن. وقد زرت هذا الشارع الانيق - الأنيق في مقاهيه ومطاعمه وفي حوانيته وفي اشجار الزيزفون التي كان تحنو على جانبيه. كان شارعاً يبهر الكل بما فيه من جمال - ليلاً ونهاراً. وقد زرته مرتين أو ثلاثاً بعد ذلك في زياراتي لبرلين. ثم لم أزره الا في سنة ١٩٧١، وكان نصفه في برلين الغربية ونصفه الآخر في برلين الشرقية. ويقسمه جدار برلين. لم أكن اتصور يومها انني سأرى مثل جدار برلين في لبنان!

على كل شارع وارتنبرغ كان الأصلح لعرض عسكري. فهو عريض وطويل، ولم تكن الأبنية على جانبيه، على وجودها، مكتظة. وهذا للمحافظة الأمنية أيسر.

وقفت مع الواقفين في الشارع. وصلت حول الثامنة والنصف. واتخذت لي مكاناً يبعد بعض الشيء عن الرصيف. ذلك ان الجنود المكلفين بالحراسة أرشدونا الى النقاط التي يجب أن نقف عندها. كان الذين جاءوا لمشاهدة العرض كثيرين، كثيرين جداً. وقد ذكرت الصحف الألمانية، في اليوم التالي، ان العرض العسكري شاهده نحو مليون شخص! ولكن المهم هو ان الشارع طويل، فانتشر الناس ولم يزدحموا كثيراً. فضلاً عن ان الحراسة العسكرية لم تكن تسمح بتجمعات. كانت تطلب من الحضور الانتشار على طول الشارع، لأن هذا يمكنهم من المشاهدة والرؤية بطريقة أفضل. وأضيف أنا أن ذلك كان يجعل المراقبة والحراسة أدق وأمنع.

صف الجنود الحراس على جانبي الشارع، وعلى مسافات لا تعدو بضعة من الامتار بين الجندي والآخر. وكان الجنود قد وضعوا على طريقة لطيفة رأيتها لأول مرة في حياتي. واحد من الجنود كان يتجه نحو الشارع، والجندي الذي يتلوه كان يتجه نحو المتفرجين. ولذلك كانت المراقبة فيها من الحذر والوعي الشيء الكثير.

وانتظرنا - انتظرنا ساعة وبعض الساعة. ثم بدأت الحركة. سيارات المقدمة والريادة، سيارات التأكد من خلو الشارع من الأخطار. جميعها سيارات عسكرية، الات الرصد فيها مخفية، ولكن اسلحتها مهيئة للانطلاق. ذلك بان كل دكتاتور كان يعرف هو، ويعرف المرافقون له في العمل، ان حياة أي منهم معرضة للخطر. كما كانوا

يعرفون ان الفدائيين لا يتوقفون عن مقصدهم لمجرد ان سيارة مسلّحة مرت أمامهم!

ثم بدأت طلائع القوات المختلفة. مرت فرق مختلفة من الجيش، باسلحتها الكاملة من حيث البنادق المتعددة الأنواع، والمدافع المتنوعة الصنع. وكل جزء معدني فيها يلمع، وكل جندي ينقل الخطى على طريقة الأوزّة. وأحسب انني شعرت وكأن كل جندي يتحدى العالم بأسره في مشيته ورفع رأسه ونظرته الحادة.

والجيش تمثل بأكبر عدد من الأشخاص والمجموعات. فالواقع هو أن الجيش كان أفراده الأكبر عدداً بالنسبة للقوات العسكرية المختلفة. وقد رتب له ان تبدو قوته للمشاهدين، لان الجيش، ظل في نفوس الناس، انه هو آلة الحرب الرئيسية.

وجاءت البحرية الالمانية. كانت معاهدة فرساي (١٩١٩) قد حرمت على المانية، فيما حرمت من الناحية العسكرية، ان تبني سفناً حربية. وكان ان احتال المهندسون الالمان العسكريون على المعاهدة، فبنوا، مثلاً، «غواصة الجيب» وهي غواصة قوية لكنها لم تتعد الحدود والخطوط التي رسمتها المعاهدة.

ومع ان هتلر لم يتقيد بمعاهدة فرساي، بل ان قيام هتلر واستيلاءه على السلطة انما كان احتجاجاً على معاهدة فرساي وتحدياً لها، فان الوقت لم يكن قد اتسع لبناء اسطول قوي. على كل كان هناك فرق من البحارة ومعهم نماذج من المدافع التي تحملها البوارج وغيرها من السفن الحربية.

لكن هتلر كان مهتماً بالاسطول الجوي - بالطائرة. وكان يحسب انه يعتمد عليها في كسب الحرب. فدفع بمهندسي الطيران الى بذل الجهد الكبير للتفنن في صنع الطائرة العسكرية القوية. وكلنا يعرف ان هتلر، لما أمر بالهجوم على بريطانية اثناء الحرب العالمية الثانية، انما اعتمد على الغارات الجوية. صحيح ان محاولته لم تنجح كما ظن، لكن الطائرة العسكرية الالمانية كانت طائرة متقنة الصنع محكمة التخطيط.

لذلك لما مرت الوحدات الجوية، وكان الاعلان عنها قد سبقها وتحدث عن الطائرة، قابلها القوم بحماسة يصعب وصفها. وعندها سمعت ولدين المانيين، في سن العاشرة أو نحوها، يقول أحدهما «الان، ليأت الفرنسيون» ويقصد اننا نستطيع ان نتغلب عليهم. فرد عليه رفيقه «وليأت الانكليز أيضاً».

وتلا هذا الموكب العسكري، الذي استغرق مروره ساعتين وبعض الساعة، موكب الزعامة. جاءت سيارة الزعيم «الفُورَرْ»، وهي سيارة مرسيديس بنز سوداء كان يستعملها دوماً. كان عنده عدد منها في كل مدينة. وبهذه المناسبة فقد قضيت، قبل ذهابي الى برلين، ثلاثة اسابيع في ميونخ. وكان البيت الذي أقمت فيه على مقربة من منزل هتلر في ميدان برنس رغنتن. وقد رأيته مرتين أو ثلاثاً. ولما مرت سيارته امام المشاهدين (في برلين)، كان الترحيب به يشق عنان السماء. وكانت أول مرة أشاهد فيها موكباً من هذا النوع. فموكب جمال باشا في طولكرم، قبل ذلك بنحو عشرين سنة، كان لعب أطفال، بالنسبة الى ما شاهدته يومها.

وجاء خلف سيارة الزعيم السيارات التي كانت تقل بقية زعماء الرايخ يومها. وكان أضخمهم حجماً، وأكثرهم حملاً للأوسمة، المارشال غورنغ، قائد القوات المسلحة. ولفت نظري غوبلز، الذي كان يلبس بدلة مدنية. غوبلز كان معتدل القامة، وكان في رجله عرج. انما الذي حملني على «البحلقة» فيه هو ما كنت قد سمعته عنه من معلمي الالماني (اللغة الالمانية طبعاً) قبل أيام. فقد مدحه - مدح تفكيره، وعمق نظرته للأمور. لكنه في ساعة من ساعات التجلي قال لي: «صحيح ان غوبلز ذكي جداً، وصحيح ان فكره نير وآراءه ثاقبة - لكن كل ذلك شيء عادي بالنسبة لهتلر، فهذا كلامه يأتي من السماء».

وغوبلز كان وزير الاعلام، الذي كان يسمى يومها الدعاية. وكان هناك أدولف هسّ وغيره.

كل ذلك كان، بالنسبة لي، شيئاً جديداً. بل يمكنني القول، بعد هذه السنين الطويلة، انه ظل شيئاً فريداً. فأنا لم أشهد عرضاً عسكرياً مباشراً لا قبل ولا بعد.

لما عدت الى منزل عمي في ذلك اليوم، وجدت عندهم صديقاً لعمي. كانا يتحدثان عن شؤون مختلفة. ولما عرف الصديق أنني شاهدت العرض طلب مني وصفاً له. وكانت معرفتي باللغة الالمانية يومها في أولها، فجربت القول بقدر الامكان.

سر الرجل، ثم قال لي، وهو يهم بارتداء قبعته والاستئذان بمغادرة المنزل: «ان الالماني اذا لم يلبس الثوب العسكري يحس انه عريان».

في السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية نَظَّمتْ المانية شؤون السياح الى بلادها بطريقة تشجعهم على زيارة المانية. فقد أوْجَدَتْ شيئاً اسمه «الماركُ السياحي». كنت أنا اقيم يومها في لندن، طالب علم في جامعتها، كان سعر الجنيه الاسترليني في الأسواق المالية العادية حول اثني عشرة ماركاً المانياً. أما على أساس المارك السياحي كنّا نبتاع ما يعادل اثنين وعشرين ماركاً مقابل الجنيه الاسترليني. وطريقة التعامل مع هذا السعر الخاص هي ان تدفع أنت مبلغاً بالجنيهات الاسترلينية في لندن، وتحصل على رسالة تحويل عملة بالقيمة التي دفعتها. وعند الوصول الى المانية يمكنك ان تسحب من الماركات ما تحتاج اليه، طبعاً في حدود المبلغ المذكور في الرسالة. هذا كان يمكن ان يتم في أي محطة للسكة الحديدية أو أي مصرف. لم يكن هناك أية صعوبة.

وكان معنى هذا، أي السعر السياحي للمارك هو انني استطيع انا أن أقيم عند أسرة من الطبقة الوسطى العليا مقابل ١٢٠ ماركاً في الشهر، أي ما يزيد قليلاً عن الجنيهات الخمسة. وكان هذا المبلغ يشمل أجرة غرفة مع حمام وثمن ثلاث وجبات يومياً. يضاف الى هذا تناول القهوة أو الشاي بعد الظهر إذا كنت موجوداً في البيت.

كنت قد زرت المانية في ربيع سنة ١٩٣٦، لكنني أردت أن أقضي الصيف هناك لحضور دروس في اللغة الالمانية اثناء الدراسة الصيفية في جامعة برلين أو ميونخ. وكان قد اعلن عن موعد الالعاب الأولمبية التي ستقام في برلين في ذلك الصيف. فابتعت التذاكر للالعاب التي أردت مشاهدتها قبل الموعد بشهور من لندن. كان ثمنها في لندن أكبر منه في المانية، لكن شراء التذاكر مسبقاً مكنني من الاطمئنان الى حضور ما أريد.

حضور حفلة من هذا النوع، بالنسبة لي، قد تكون فرصة العمر. وقد كانت في الواقع. ذلك بان الحفلة التالية للاولمبياد كانت سنة ١٩٤٨ وكانت في لندن. كنت يومها في العاصمة البريطانية لكنني ابتعت التذاكر لزوجتي كي تشاهد بعض الحفلات، وبقيت أنا مع ابني رائد، وكان طفلاً، في البيت.

نعم كانت اولمبياد برلين بالنسبة لي فرصة العمر. أولاً لأن كل ما كنا نعرفه عن الأولمبياد قصتها وبعض الصور التي شاهدناها في الصحف، وخاصة مجلة «المضمار» المصرية التي كانت تصدر في العشرينات، وتعنى بالرياضة أصلاً. ثانياً لأن هتلر، الذي كان يريد ان يثبت للألمان قدرتهم على العمل ليعيد لهم ثقتهم بأنفسهم، لم يبخل في الانفاق على الأولمبياد. فقد بني «ستاد» خاص بها، يتسع لتسعين الف متفرّج، غير اللاعبين والحكام والمراقبين. هذا فضلاً عن الأبنية التي شيدت لاقامة المتبارين. وقد روعي في ذلك كله الاخراج الفني للمباني، بحيث لا يتعارض هذا مع العامل النفعي لها.

كان عندي تذكرتان أساسيتان - واحدة لحفلة الافتتاح والثانية لحفلة الختام. فضلاً عن ذلك كنت قد ابتعت ثماني بطاقات أخرى لنماذج مختلفة من العروض الرياضية.

كنت أعرف الكثير عن الدقة الالمانية حتى قبل زيارتي لألمانية. وزدت احتراماً لها بعد زيارتي لتلك البلاد. وقد كانت دقة تدعمها التنظيمات العسكرية المنتشرة في كل مكان في المانية، وتشرف على سيرها في المؤسسات المدنية فرق الشرطة الظاهرة والخفية. وهذه هي التي كانت تسمى الغستابو، والتي نسميها نحن المخابرات.

والدقة والتنظيم كانا مظهرين طبيعيين للعمل في المانية. وقد شاهدت من ذلك الكثير في العرض العسكري

الذي رويت حكايته قبل قليل. لكن عندما يكون لديك حفلة يحضرها، داخل الاستاد فقط، تسعون الف نسمة، يتفرجون على لاعبين وحكام ومراقبين يبلغون الآلاف؛ هذا فضلاً عن الآلاف التي كانت في الخارج لتشهد وصول المواكب الرسمية والخاصة، و«لتشم» رائحة الاولمبياد من الخارج - عندما تكون حفلة في هذا الحجم، ومع ذلك فهي تنظم بدقة متناهية، يكون معنى ذلك اجماع الكل على إنجاح العمل.

كانت حفلة الافتتاح مسائية. لا بد ان اشارة أطلقت وسمعها اللاعبون، ولكن لم اسمعها أنا، وأحسب أن بقية المشاهدين لم يسمعوها. المهم ان هذه القطع البشرية، التي تمثل كل قطعة منها بلداً بلاعبيه وحكامهم ومراقبيهم، وللجميع ثيابهم الخاصة بألوان معينة معروفة، ولكل قطعة علم البلد الذي تمثله. وكل هذا يسير مع موسيقى تكفي لتنقل عليها الاقدام دون ان تضايق الآذان. وكل قطعة تمر امام المنصة التي كان يقف عليها أدولف هتلر وحوله رجال الرايخ الثالث. وختام حفلة الافتتاح، التي دامت نحو الساعة، كان رفع العلم الأولمبي ذي الحلقات الخمس الملونة، إعلاناً ببدء العمل الرياضي. ومع رفع العلم انطلقت الصواريخ المضيئة الملونة في سماء برلين من حول الاستاد.

وكما اضيئت شعلة الألعاب الأولمبية التي حملت من اثينا، عند افتتاح الالعاب، فقد أطفئت الشعلة عند الانتهاء، على أن يحتفظ بالشعلة دائماً في اثينا. والمسافة بين اثينا وبرلين قصيرة إذا قوبلت بالمسافة التي قطعتها الشعلة من أثينا الى كندا سنة ١٩٨٨.

في حفلة الافتتاح عرض اللاعبون انفسهم، وفي حفلة الختام كان للفائزين في الالعاب دور خاص ومقام ممتاز. فهم الذين حملوا الى بلادهم شارات الظفر وإمارات الفوز.

وفيما بين الحفلتين مارس اللاعبون هواياتهم وعرضوا مهاراتهم وتباروا في سبيل اظهار قدراتهم. وقاس المحكمون الوقت، ودونوا ملاحظاتهم، وقيدوا الأرقام، وضبطوا الخطوات، وجمعوا ما عندهم وحزموا أمرهم وأصدروا الأحكام. فعلقت الأنواط الذهبية والفضية والبرونزية على صدور الفائزين، وأحيطت رقاب المبرزين بالقلائد المنتزعة من الذهب او الفضة أو البرونز. فعاد الفائزون الى بلادهم يستقبلون بالأهازيج، لأنهم رمز البلد الذي نشأوا في حماه.

أما المتفرجون فقد استمتعوا وصفقوا وعادوا يحملون في نفوسهم ذكرى سعيدة. وها أنا أذكر تلك الأيام بعد ثلاثة وخمسين من الأعوام، فتعاودني النشوة، ويغشاني السرور.

ولن أنسى حادثة جرت لي وأنا في برلين. وصل اليها الصديق العزيز، فرح رفيدي. كان يعرف عنواني فاتصل بي. وقال لي ونحن نتغدى انه يريد ان يبتاع بضع تذاكر لحضور الالعاب. فدللته على المكتب، وفي اليوم التالي أخبرني ان المكتب لا تذاكر فيه للبيع. وكل ما يفعله الموظفون هناك هو إرشاد الذين يحملون التذاكر الى بوابات الدخول، وهي كثيرة، وما الى ذلك. فقلت لفرح حظك جيد. لقد دعيت أنا الى عشاء في الغد، وسألبي الدعوة، ولذلك فانني أهديك التذكرة التي عندي لذلك المساء. ولما أخذها وجدها لحفلة مصارعة، ولم يكن فرح يحب المصارعة، ومع ذلك فقد أخذها، فان رؤية الاستاد ومن فيه يكفي. اعطيته اياها ولسان حالي يقول شحّاد ومتشرط.

كلمة قلاية تعني الغرفة الخاصة براهب يقيم في دير. لكنها، بالتجاوز، تستعمل للغرفة التي يقيم بها أي راع من رعاة الكنائس الأرثوذكسية ما دام راهباً، أي انه غير متزوج. كنت أعرف الكثير عن قلايات الرهبان اليونان الارثوذكس في ديرنا في القدس. ومن ثم فلم تكن القلاية، بالنسبة لي، مكاناً يحملني على الاحترام والخشوع. لكن الأمر تبدل في نفسي لما زرت قلاية مارتن لوثر في ارفورت في صيف سنة ١٩٣٦.

كنت قد قدمت من لندن الى كولون بالقطار. وصلت مساء وأويت الى فندق متوسط الحال، وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت، بعد ان استرشدت براي المسؤول عن الفندق، الى السوق لابتاع «بسيكليت». كنت قد اكتشفت في زيارة سابقة لالمانية أهمية هذه الاداة للتنقل والفرجة والتثقف؛ اذ انها كانت تتيح لي المجال لأرى الأماكن كما أريد فاتوقف حيث اشاء، وانام حيث أرغب، خاصة في الغرف الموجودة في المزارع. ومن هنا فقد ذهبت، في صبيحة اليوم التالي لوصولي لشراء بسكليت. في الدكان الأول الذي وصلت اليه وجدت البائع غير منهمك بعدد كبير من الزبائن. حييته وقلت له انني أريد بسكليت مستعملاً قوياً رخيصاً يصلح للمسافات البعيدة، حيث تكثر الجبال والمرتفعات.

جاء الرجل ببسكليت ووضعه أمامي وقال هذا يلبي طلبك. فهو مستعمل لكنه جيد، وهو رخيص، وفيه ضابط للسرعة، يقويها عند الصعود، ويضعفها عند الهبوط. وثمنه خمسة وثلاثون ماركاً. خذ جرّبه، اضاف الرجل، سر به ساعة في المدينة وأرباضها، ثم قرر.

فعلت ذلك ولما رجعت نقدته المبلغ. وكان الرجل قد تنبه، بطبيعة الحال، الى أنني أجنبي. وسألني عن بلدي، ولما عرف انني آت من فلسطين وانني أعرف القدس والناصرة، اهتم بي؛ ثم سألني فيما اذا كنت على استعداد لقبول دعوته للعشاء، وأضاف عشاء بسيط، فنحن عائلة عادية. سنأكل السلسيسو الالماني ونشرب معه كأساً من الجعة. قبلت الدعوة، والتفت الى رجل كان في الدكان وطلب منه ان ينضم الينا مع زوجته.

ذهبت في الوقت المعين، وكنت أعرف انه لا بد من هدية، ولو صغيرة، فحملت معي باقة صغيرة من الزهور. كنا خمسة، ودار الحديث حول القدس والمدن المقدسة. وقد اكتشفت اثناء الحديث ان الرجل كان جندياً في الجيش الالماني وخدم في فلسطين وجرح في اثناء الحملة العثمانية ـ الالمانية على السويس (في الحرب العالمية الأولى)، وعولج في مستشفى اوغستافكتوريا في القدس. وكأنه قصد ان يكافىء الذين عنوا به بدعوته اياي للعشاء.

قبل ان اغادر منزله قال: لي طلبة واحدة اليك، متى عدت الى القدس ان تبعث اليّ ببطاقة عليها صورة مكان أثري من تلك المدينة، وارجو ان يكون ختم البريد واضح التاريخ. فوعدته خيراً، لكنني أخبرته انني لن أعود قبل ثلاث سنوات، فقبل.

ولما عدت في سنة ١٩٣٩ ذهبت الى البريد وارسلت له البطاقة بعد ان تأكدت ان الختم والتاريخ واضحان.

اعتمدت على الدليل والبسكليت، بعد الاعتماد على الله، وبدأت سيري من كولون في اتجاه ليبتزيغ. وانا أتحدث عن المانية لما كانت دولة واحدة. ولم تلبث الطريق ان بدأت تصعد، وبعيد الظهر وصلت ارفورت المدينة الصغيرة الجميلة بناء وموقعاً وغابات. ولم أكن أبحث عن الجمال في ارفورت. هذه هي المدينة التي قضى فيها مارتن لوثر قسماً كبيراً من حياته. ولذلك ذهبت رأساً الى المكان الذي كان يؤوي هذا المصلح الكبير. وادخلت الى قلايته، الى غرفته، التي حوفظ عليها كما كانت في أيامه: السرير الحديدي البسيط وفراشه الذي لم يكن لا وثيراً ولا أنيقاً. لكنه كان يكفي الرجل؛ وهناك الطاولة الخشبية التي كان يكتب عليها، والكرسي الخشبي الى جانبها. لكن ماذا كتب لوثر على هذه الطاولة؟ البيانات التي هاجم فيها من اعتبرهم بعيدين عن المسيحية، والشروح التي وضعها لتوضيح اسرار الكنيسة. وقد يكون أهم من ذلك ترجمته الالمانية للكتاب المقدس. كان الى يومها يقرأ الناس الكتاب باللاتينية. لكن الترجمة الالمانية وضعت هذا الكتاب في أيدي آلاف من الناس لم يكونوا يحلمون بتعلم اللاتينية.

ولد لوثر سنة ١٤٨٣، وعاش أكبر جزء من حياته في القرن السادس عشر. وهو، وان لم يكن الأب الأول للاصلاح الديني، إذ سبقه آخرون، فهو المعلم الأصيل الأول بكتاباته وشروحاته وحملاته وترجمته للكتاب

المقدس.

وقفت في قلاية لوثر. شعرت، لانني أردت ان اشعر، كانني في حضرته. والأمر الذي دار في رأسي يومها هو ماذا كان معنى الاصلاح الديني بالنسبة لأهل القرن السادس عشر؟ وتذكرت ان أهل أوروبة مرت بهم، من القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر، اشياء عرفناها نحن في درسنا للتاريخ هي: النهضة الفنية والأدبية في ايطالية والاصلاح الديني في المانية والاهتمام بالعلوم في انكلترا وفرنسة والاكتشافات الجغرافية في اسبانية والبرتغال. فهل ثمة علاقة بين هذه جميعها؟

استعرضت هذه الأمور بسرعة وانا في حضرة لوثر الروحية. وأدركت، كما كنت قد فهمت من قبل، ان هذه الأمور جميعها هي تعبير مختلف الأشكال عن أمر واحد. أوروبة تململت من حياتها المقولبة، وثارت على ما كان يضغط عليها ويقيدها. وكانت ثورتها مختلفة المناحي متعددة المجالات، لكن الروح واحدة. روح التقدم والحرية. وانطلاقة اوروبة هذه كانت انطلاقة للعالم الغربي.

وتذكرت يومها استاذنا درويش المقدادي الذي كان يدرسنا التاريخ في دار المعلمين في سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٤، وكيف كان يثير في نفوسنا اموراً حرية بالتفكير تتعلق بالنهضة ونواحيها وانعكاساتها علينا، ولو بعد هذه القرون.

وتذكرت وانا في قلاية لوثر ما كان من أثر الحركة التي فجرها في أوروبة يومها. كانت حركة عظيمة، لم تسمح للأمور ان تعود بعدها الى ما كانت عليه. فمحازبوه ساروا في طريقهم الذي أصبح، بعد حين تشعَّب طرق، واتاح ذلك لفئات مختلفة ان تعيد النظر في اشياء كانت من قبل قد وصلت الباب المسدود. أو هكذا ظن. وأولئك الذين طرق لوثر بابهم المسدود وخلخل الكثير فيه، لم يكن باستطاعتهم الاحتفاظ بالسدود والقيود، فخرجوا يبحثون عن اراء جديدة وتفاسير مبتكرة لاقوالهم وأفعالهم. ومن ثم أدركت أهمية قلاية مارتن لوثر.

المانية الجنوبية هي اصلاً بافاريا، وعاصمتها ميونخ. وقد كانت ميونخ مقري اثناء اقامتي في المانية، فقد التحقت فيها بالجامعة في الفصل الثاني للسنة الدراسية ١٩٣٦-١٩٣٧، بعد ان كنت قد قضيت ربيع ١٩٣٦ وصيفها في ميونخ وبرلين.

كان البسكليت رفيقي في اقامتي في المانية. وقد كان هذا طبيعياً. لم تكن السيارات يومها شائعة، لانها كانت باهظة الثمن، ولم تكن وكالات السيارات قد توسعت في البيع بالتقسيط. ثم ان المانية كانت تعد العدة للحرب. فكان كل شيء مقنناً. فضلاً عن ذلك فالبسكليت أرخص ثمناً واستعمالاً. (وبهذه المناسبة فقد اشتريت بسكليتاً مستعملاً في انكلترا بمبلغ جنيهين ونصف الجنيه). وقد كان من الاقوال الشائعة في المانية ان الولد- أو البنت- يولد ويولد بسكليته معه. وكاراج المبنى الذي كان بيت السيدة شريفر يقوم فيه كان فيه بسكليتات. وحصة البيت الذي كنت فيه وسكانه ستة أشخاص (مع الخادمة) كانت تسعة بسكليتات.

واعتدت على ما درج عليه الالمان. البسكليت يستعمل للذهاب الى الجامعة، ولزيارة أطراف المدينة، وللاستمتاع بالحديقة الانكليزية في ميونخ، وسميت كذلك لانها نظمت على نسق الحدائق الانكليزية من حيث الحواجز الخضراء لأحواض الزهور، وتنويع الأشجار الصغيرة، والاهتمام بترك مكان للناس يجلسون فيه ويستمتعون بالحديقة.

ولكن المهم ان البسكليت هو رفيق الرحلة يوم الأحد. وكان يعلن في بيت شريفر عن رحلة الاحد قبل يومين أو ثلاثة. وكان من الطبيعي، أول الأمر، ان أرافق الأسرة، فانا لا أعرف المنطقة. وكان من أمتع الرحلات في ربيع ١٩٣٦، اي في أول زيارة لي الى المدينة، رحلة الى دير إندِكْس. المسافة نحو سبعين كيلومتراً. كانت احدى

سيدات المنزل تشرح الطريق ويركب الجمع البسكليت معاً. لكن قد يكون ثمة من يريد السرعة أو العكس. لذلك مكان الالتقاء هو الدير. كنت بادىء الأمر أصل متأخراً، لكن بعد ان مرنت على ركب هذه الآلة اللطيفة أصبحت أصل أولاً أحياناً.

ثم أخذت استقل قليلاً عن الأسرة. كان هذا خاصة في الصيف وفي الربيع التالي. لم يكن سبب الاستقلال رغبة في الابتعاد عن الجماعة. على العكس من ذلك فقد كانت للفتاة الأصغر - غودرون - مكانة خاصة في نفسي. لم اكن يومها أستطيع بعد ان أسمي الأمر حباً، ولكن كان هناك رغبة في التحدث اليها (الحب جاء فيما بعد). انما اصبحت انا أحب أن أقضي في رحلتي يومي السبت والأحد. هذا يكلف نفقات. لكن انا سائح، ومعي ما يمكنني من قضاء نهاية الاسبوع في الخارج.

وكانت واحدة من هذه الزيارات الى جزيرة اسمها جزيرة النساء. وهي جزيرة صغيرة في بافاريا تقع وسط بحيرة. وتقول القصة ان الأصل في هذه الجزيرة انها كانت مقراً للنساء ولا يجوز للرجال ان يدخلوها. ولكن لماذا لا يدخلها الرجال، ومن فرض ذلك. هنا تشعبت القصة علي، لأنني لما ذهبت لقضاء ليلة فيها، وكنت قد حجزت الغرفة مسبقاً، سمعت من القصص ما يدهش. سرت على بسكليتي الى القرية التي تقوم فيها الميناء التي تذهب منها المراكب الى الجزيرة. هناك تركت بسكليتي، وفي القارب سمعت أول قصة عن سبب منع الرجال - من زمان بعيد - من الوصول الى هذه الجزيرة. كانت لهذه الجزيرة أميرة. وأنت تعرف يا أخي انه يجب ان يكون في القصة القديمة ملك أو ملكة أو أمير أو أميرة. هذه الأميرة أحبت رجلاً من مستواها. والا فالحب لم يكن يومها يجوز الا في داخل طبقة واحدة من البشر. وفي الوقت نفسه كان هناك رجل من عامة الناس، يعيش على مقربة من الشاطىء، قد أحب الأميرة لما رآها للمرة الوحيدة في حياته. لكنه تحدث عن حبه. وبلغ الخبر النبيل فغضب على الأميرة لأنها - كما ظن - أحبت غيره في الوقت ذاته. لذلك غضب عليها، ولانه كان صاحب نفوذ أخرج جميع الرجال من الجزيرة الصغيرة، ومنع أي رجل من الدخول الى الجزيرة. وأصبح المنع عادة. وانتهى الأمر بان قام في الجزيرة دير كبير للراهبات، وأصبح دخول الرجال الى الجزيرة / الدير محرماً.

لكن الزمن تغير؛ وأهمل الدير؛ وقلت الراهبات. والنزل الذي ستنزل فيه يا صاحبي، قال محدثي، هو هذا الدير الذي حدثتك عنه.

ومع انني سمعت قصصاً مختلفة في تلك الليلة، احتفظت لنفسي بهذه لأنها قريبة من التصرف البشري، ولا أقول الانساني.

المهم انها كانت ليلة غاية في المتعة. فبعد عشاء بسيط مكون من شوربة العدس مع السجق الالماني والخبز الأسود المحمص؛ أخذ الموجودن وهم نحو ثلاثين شخصاً، يغنون ويرقصون. لكن هناك شرط أساسي لا يغنى هناك الا الاغاني المحلية ولا يرقص الا الرقص الشعبي المحلي. فجزيرة النساء تريد ان تحافظ على شيء خاص بها.

وكان من المنتظر ان يشترك الموجودون، مع من يمكن ان يأتي في الصباح، في قداس الأحد. فهذا كان أيضاً مظهراً اجتماعياً بالنسبة للمكان. وقد ازدحمت الكنيسة لأن كثيرين جاءوا من الخارج لقضاء يوم الأحد هناك.

وكانت الجامعة ترتب للطلاب، عبر المنظمات الطلابية فيها، وهي منظمات منبثقة عن الحزب النازي، رحلات بالباصات الى مناطق مختلفة. فالالماني، كما اكتشفت في الأشهر التسعة التي قضيتها في المانية متنقلاً فيها من الشمال الى الجنوب ومن الغرب الى أواسطها، يحب ان يعرف الزائر. خصوصاً الزائر الذي يقيم مدة - لا الأماكن النزهة في المدن فحسب، ولكن يريده ان يتعرف الى الريف. زيارة المدينة ممكنة في كل وقت. لكن زيارة القلاع

القديمة والكنائس الغوطية الجميلة الموجودة في أماكن نائية هذه أمور تنظم وبأسعار بسيطة ونفقات للاقامة ـ عند الحاجة ـ أبسط.

فقد رتبت لنا الجامعة رحلة للتدرب على التزلج في منطقة جميلة، هي غارمش بارتن كرشن، تقع الى الجنوب من ميونخ. وكان معنا مدرب. ولم يكن عددنا كبيراً نحو خمسة عشر فرداً من الجنسين. وخرجت لأجرب الأمر، فوقعت من الجولة الأولى. وهذا كان طبيعياً. لكن الذي لم يكن أمراً عادياً في نظر الجماعة هو أن لا أعود الى مثلها. وقضيت بقية الوقت أتفرج على الثلج والمتزلجين من خلف زجاج الفرندا، أو أخرج لأمشي قليلاً على الثلج. وكنت قد جربت التزلج على الخشب في لندن ووقعت وخشيت ان اكسر رجلي، فعدلت عن التجربة.

ومن الرحلات التي رتبتها لنا الجامعة بالاشتراك مع شركة سفريات كانت رحلة الى شمال ايطالية، الى بولزانو. هذه الرحلة نقلتنا من ميونخ عبر النمسا عن طريق انزبروك (Innsbruck)، احدى مدن الفن النمساوية. ومنها الى بولزانو. كانت الرحلة في شهر نيسان / ابريل، وكانت الطريق، عبر جبال الألب، مكسوة بالثلج. فوضعت السلاسل الضخمة على دواليب الباصات. ومع ذلك فقد اضطررنا الى التوقف نحو ساعتين عند ممر برنَّر، الذي يمر تحته نفق برنّر الذي يصل ايطالية بالنمسا. وكانت أوقات استمتعت فيها ـ في الأيام الأربعة ـ بعشرة جماعة من الألمان من غير محيط الطلبة.

ومن اسفاري على بسكليتي سفرة من برلين الى ميونخ عبر بيرويت. وبيرويت هذه موطن الموسيقى الالماني الكبير واغنر. وهو مؤلف السلسلة الموسيقية المشهورة، والتي تتألف من خمس أوبرات تمثل الاسطورة الالمانية المتعلقة بخلق الانسان وفجر البشرية، ولكنها تعبّر عن هذه الاسطورة موسيقى وغناء.

وقد احتطت للأمر فابتعت التذاكر اللازمة لثلاث ليال اعتزمت قضاءها هناك وانا بعد في برلين. لكن لما نزلت في الفندق، وكنت ألبس ثياباً صالحة للبسكليت وهي بنطلون أو شورت وقميص، لفت مديره نظري الى انه يترتب عليّ أن ألبس بدلة كاملة وربطة عنق، وإلا فانه لن يسمح لي بدخول دار الأوبرا. فأسرعت الى دكان وابتعت البدلة الكحلية وربطة العنق والقميص المناسب. وهكذا حضرت الحفلات.

موسم واغنر في بيرويت يقع في الصيف. وفيه تلبس المدينة حلة عجيبة. فكل شيء فيها واغنري ـ الزينة الخارجية والداخلية، المآكل والشراب والرقص في الصالات ـ كل شيء على ما عرف أيام واغنر. وقد تغص الفنادق والغرف التي تؤجر في البيوت، فيقيم الزوار في عدد من القرى الكبيرة المجاورة ويأتون لا لحضور الحفلات الرسمية فحسب، بل لتناول عشاء واغنري أعد كما كان يعد أيام هذا الموسيقي، بحيث ترافقه موسيقى من تأليف واغنر أيضاً، لكنها موسيقى خفيفة نسبياً.

لكن مالي انساق مع الحديث عن الناس دون ان أضيف كلمات عن الرجل نفسه. فقد ولد ولهلم ريتشارد واغنر سنة ١٨١٣ في بيرويت وتوفي سنة ١٨٨٣. وتعتمد شهرته الموسيقية في الدرجة الأولى على الأوبرات التي صنفها، ولو انه وضع اصنافاً أخرى من الموسيقى.

وأشهر أوبراته هي المجموعة / السلسلة المعروفة باسم نيبلونغزليد (Niebelungslied). وتعالج هذه الأساطير والتاريخ الاسطوري كما يرويه التوتون. والواقع ان المرء لن يحب هذه الأوبرات الا متى اعتاد عليها. وقد نجدها نحن، عندما نسمعها لأول مرة، وخاصة ان لم يكن لدينا ثقافة موسيقية، شيئاً مزعجاً. لكن بعد مدة يعود المستمع، الذي لديه استعداد لذلك، الى الاستمتاع بموسيقى واغنر.

ولست اكتم أحداً انني لما ذهبت الى اوروبة (لندن أصلاً) في خريف سنة ١٩٣٥، لم يكن عندي ما يمكن ان يسمى ثقافة موسيقية غربية. حتى ثقافتي الموسيقية العربية كانت ثقافة سماع للمغنين الذين كانوا معروفين يومها. وكنت أتلذذ بسماع العود، غير المصحوب بالغناء، بشكل خاص.

كنت أحضر، بين حين وآخر، حفلة موسيقية تلعب فيها قطع من الموسيقى الغربية، ولكن هذا الحضور لا يكسب المرء ثقافة موسيقية، على الأقل لم يكسبني انا.

ولما أقمت في لندن بعض الوقت أخذت بحضور حفلات موسيقية غربية بشكل يكاد يكون منتظماً. وبدأت أتحسس هذه الموسيقى. وفي يوم قررت ان اتعلم البيانو. وكان يقيم في مقابل الدار التي كنت أقيم فيها (٧٨ فيفيان افنيو، هندن سنترال 78 Vivian Ave. Hendon Central) معلم للبيانو. ذهبت اليه واتفقت معه على ما يعتبره الحد الأدنى للبدء وهو أربع وعشرون ساعة. وبدأت التعلم. ولكنني اكتشفت بعد نحو ثماني ساعات انني كي أتعلم البيانو تعلماً عادياً، لا اتقان اللعب عليه، يقتضي مني أن أتمرن ما يقارب الساعات الثلاث لكل ساعة تعلم (أو تعليم). ولما حسبت حسابي على أساس الوقت المطلوب وجدت انني أمام خيارين فقط: اما التاريخ القديم وشهادة جامعية من لندن أو البيانو. فاخترت الأول وتنازلت للرجل عما تبقى عنده من مبلغ دفعته له سلفاً.

لكن الثقافة الموسيقية السماعية، بالنسبة للموسيقى الغربية الكلاسيكية، نمت مع الوقت واصبحت فعلاً أتلذذ - ولا أزال - بسماعها. ومع ذلك فلما ذهبت الى بيروت، وجدتني امام عالم خاص هو عالم واغنر. ولما وصلت الى ميونخ على بسكليتي، سألتني السيدة شريفر كيف وجدت واغنر فذكرت لها موقفي. فقالت لي ان الأسرة تملك مجموعة كاملة من أوبرات واغنر وان كارل ونغلر، ابن عمهم، وهو مدرس للموسيقى في ميونخ، سيوضح لي الفكرة الواغنرية في هذه الموسيقى. وبعد ان سمعت الأوبرات أكثر من مرة اصبحت أتذوقها و«أستطعمها» - ولا أزال.

وكان ان قررت، وانا في ميونخ سنة ١٩٣٧، ان أقوم بزيارة طويلة على البسكليت. فخرجت من ميونخ الى شتوتغارت. قضيت نهاية الاسبوع هناك، ثم ذهبت الى فريبورغ (Freiburg). وبعد تنقل هنا وهناك خرجت قاصداً بلدة صغيرة اسمها «تيتي زي» عبر الغابة السوداء. واجتزت هذه المسافة دون ان أفعل ما يفعله الناس عادة، وهو ان يتخلوا عن ركب البسكليت عند ثلثي الطريق وعندها يركبون في الباص الذي ينقلهم الى تيتي زي. نعم ركبت البسكليت الطريق كله. ومن هناك اتممت السير في اليوم التالي الى مدينة كونستانس على بحيرة كونستانس. وفي هذه المدينة صنع منطاد زبلن المشهور. وكم سررت لما دخلت المصنع، وسرت مع فريق صغير من الزوار، داخل هيكل المنطاد الذي كان يصنع يومها، وارشدنا الى أجزائه المختلفة، التي لم تكن تتجاوزوقتها الهيكل الخارجي وبعض التقسيمات الداخلية.

وعدت الى ميونخ بعد غياب اسبوع كان من أمتع الأوقات التي قضيتها في جنوب المانية صحبة بسكليتي. فالمنطقة التي اجتزتها، خاصة عبر الغابة السوداء، هي منطقة حرجية جميلة. وبالنسبة لي، انا القادم من منطقة احراجها قليلة وغاباتها قصة من قصص التاريخ، كانت كل منطقة حرجية تكشف لي عن صور من صور الجمال العجيب. والغابة السوداء، حتى بالنسبة للالمان انفسهم، صورة خاصة من صور جمال الغابات. شجرها من السرو والصنوبر، وهي، عندما تقترب ساعات المساء تبدو فعلاً كأنها سوداء. وقد زرت هذه المنطقة لآخر مرة سنة ١٩٧١. كنت في ضيافة سبع جامعات واحدة منها فريبورغ. وكان المضيف الرسمي لنا (كان الصديق احسان عباس يومها هناك أيضاً) هو الاستاذ هانز رويمر. لكن رويمر كانت تربطني به صلة خاصة منذ ان كان مدير المعهد الالماني للدراسات الشرقية في بيروت. وكان ان أعد لنا رحلة بسيارته الى تيتي زي وبعد ان سرنا بعض الوقت التفت اليه وسألته فيما اذا كان الطريق الذي نسير فيه يختلف عن الطريق القديم فقال نعم هنا غُيِّر تغييراً كبيراً. ثم استفسر مني لماذا أسأل. فرويت له رحلتي عبر الغابة السوداء على البسكليت (سنة ١٩٣٧). فسر كثيراً الى أنه سيأخذني الى محل أعرف كيف كان. لكن كان تطور كثيراً منذ ان عرفته

واضاف ولعله كان أجمل. وفعلاً وجدت انه كان من قبل أجمل لأنه كان أبسط!

كنت قد قرات عن باريس كثيراً، وسمعت عنها اكثر. فانا، وابناء جيلي، الذين نشئنا على قراءة ما كتبه طه حسين وزكي مبارك ومحمود عزمي وتوفيق الحكيم، كانت لنا كلمة «باريس» جواز مرور الى الحياة الفكرية الممتازة والحياة الصاخبة جداً. لذلك لما وصلت باريس للمرة الأولى سنة ١٩٣٧ كنت كمن يحقق حلماً من أحلام الحياة.

كنت قد جئت باريس من ميونخ بالقطار. وكان رفيقي في السفر طالب مصري تعرفت اليه في ميونخ، وكان في مثل سني تقريباً. واتفقنا على ان يعنى هو بأمر مكان نقيم فيه، فله زميل هناك، وقد طلب اليه ان يحجز لنا غرفتين في فندق يقيم فيه. ولما توقف القطار في المحطة، أطل صاحبه محيياً مرحباً مطمئناً إيانا على أنه حجز لنا المكانين. إلا أنه قال فيما بعد ان المكانين في غرفة واحدة ولليلة واحدة فقط.

تركنا أغراضنا في الغرفة الواسعة ذات السريرين، وخرجنا نطلب عشاء. وقد كان الرجل الثالث عارفاً بباريس فأخذنا الى مطعم يجيد الطبخ دون ان يترك في جيبك ثقباً بسبب ارتفاع السعر.

وجلسنا في مقهى، ثم عدنا نحن الاثنين الى الفندق، واعتذر الثالث، بعد ان همس في اذن صديقه بضع كلمات. وكنا قد بدأنا نخلع ثيابنا استعداداً للنوم لما دخل الرجل الثالث ومعه الصيد. وكان الرأي ان يكون ثمة مشاركة. اعتذرت أنا وطلبت منه ان يعطيني غرفته لتلك الليلة، وبعد ذلك يشترك الصديقان. وهكذا كان.

في صباح اليوم التالي سألت المكتب في الفندق عن غرفة خاصة بي، وحصلت عليها دون صعوبة. فانتقلت اليها ولم أر الشابين الكريمين بعد ذلك.

وأنا خبير في التعرف على المدن وزيارتها. كنت قد أعددت لائحة بالأماكن التي أريد أن أرى. اللوفر، الشانزيليزيه، تور ايفل، فرساي، الانفاليد، الحي اللاتيني، ساكركير. ثم يمكن ان تضاف اشياء وأماكن أخرى الى اللائحة. وانا اعتمد كتاباً دليلاً للمدينة. فابتعت دليل بيدكر لباريس باللغة الانكليزية. ثم انا أحب المشي واذن فالخارطة أساس في تحركي.

وذهبت الى اللوفر. ومتحف اللوفر، وهو قصر يعود بناؤه الى القرن السادس عشر، هو مدينة صغيرة من حيث اتساعه وتنظيمه ومحتوياته. لذلك اقتصرت زيارتي الأولى على الجزء الخاص بالتاريخ القديم. وتوقفت كثيراً عند الاثار اليونانية، وخاصة التماثيل. أذكر أنني أحسست يومها ان تاريخ اليونان أصبح يتحرك امامي. وكيف لا يتحرك وانت تدخل قاعة فلا ترى فيها سوى تمثال فينوس فقط. التاريخ المصري القديم كنت قد شعرت به في المتحف المصري في القاهرة، وتاريخ أرض الرافدين كشف لي عن حقيقته في المتحف البريطاني في لندن. ومع ان هذا المتحف فيه فن يوناني أيضاً، فالترتيب والأناقة في اللوفر هما اللتان أحاطا تاريخ الفن اليوناني بهالة خاصة.

والشانزيليزيه هذا الشارع الذي يبدأ عند قوس النصر ويمتد الى ميدان الكونكورد. شارع عريض له أرصفة عريضة مزينة بالشجر المعتنى به. في الشارع مخازن وحوانيت ودكاكين من النوع الأنيق. لكن الشارع يمتاز بالمقاهي والمطاعم التي تفتح ابوابها ولا تقفلها. وقد اكتشفت فيه، في اليوم الأول، مقهى اسمه هنغاريا. واكتشفت ان الموسيقى والرقص هناك قوامهما الفن الغجري، أو ما نسميه نحو، في بعض جهات بلادنا، الفن النوري. لذلك أصبحت ارتب تنقلي خلال الاسبوعين اللذين قضيتهما في باريس بحيث استطيع ان انتهي الى هذا المقهى للراحة أو للشراب أو الطعام ايضاً.

وزرت الانفاليد، وهو الذي يحتوي مدافن عظماء فرنسة، وقد تذكرت يومها بيتاً من الشعر لشوقي قال:

عظيم الناس من يبكي العظاما ويندبهم ولو كانوا عظاما

يومها تذكرت زيارتي لقبر ابي العلاء المعري في معرة النعمان قبل ذلك بعشرة اعوام، وكدت أبكي يومها لاهمالنا لمثل هذا الشاعر الكبير.

كان تور ايفل أو برج ايفل حتى ذلك الوقت أعلى برج في القارة الأوروبية، وكان قد بني سنة ١٨٩٩. وزيارة تور ايفل كان لها معان متعددة. الأول انه معجزة هندسية فهو مبني كله من الحديد؛ والثاني انك، إذ تقف على قمته، تشرف على باريس فتراها منبسطة امامك كالكف؛ والثالث انك تتناول طعامك في مطعم يرتفع نحو ٣٠٠ متر عن الأرض التي تراها تحتك. وجميع هذه معان حرية بان تذكر حتى بعد مرور أكثر من نصف قرن عليها.

وساكركير، أو القلب الأقدس، حيٌ يقوم أصلاً حول كنيسة تحمل هذا الاسم. الا ان الكنيسة التي تتوسط التلة المرتفعة، والتي كانت ترضي المتعبدين، تركها الكثيرون وشأنها. فقامت على سفح التل، والى مسافة بعيدة، المطاعم والملاهي والمراقص والحانات والحوانيت. هذا الى ما قد يرافق المراقص والحانات وأماكن اللهو في باريس من أمور قد تخجل منها مدن كثيرة في العالم، لكن باريس تعودت على تقبلها وضمها والعناية بها قبل بقية مدن العالم الكبرى. وليس ما يمنع الفرنسي من زيارة الكنيسة قبل الملهى طلباً للتبرك، أو بعده طالباً للغفران.

وما دمنا نتحدث عن أماكن اللهو فلا بد لزائر باريس يومها من قضاء أمسية في «الفولي برجير»، هذا الملهى الذي بزّ، على الأقل من حيث الدعاية، ملاهي الدنيا بأجمعها. حتى لقد خيل لي ان من يزور باريس ولا يزور هذا الملهى تعتبر زيارته ناقصة. وهذا ما شعرت به يوم زرت هذا المقهى؛ ودفعت ثمن كاس من الشراب فيه ما كان يكفيني للعيش ثلاثة أيام. ولكن زيارة المقهى ضرورة، ولو انك قد تصوم ثلاثة أيام. لكنني لم أحتج للصوم.

وزرت فرساي. القصر الذي بناه لويس الرابع عشر بين سنتي ١٦٦١ و١٦٨٦، وانفق عليه الأموال الطائلة، لكنه كان ذروة ما يمكن ان يبنى في ذلك الوقت. وقصر بوتسدام، القائم على مقربة من برلين، والذي بناه ملوك المانية كان نسخة كربونية غير دقيقة لهذا القصر. وقد عقدت في قصر فرساي اجتماعات كثيرة، كان آخرها، (حتى يوم زيارتي لباريس لأول مرة سنة ١٩٣٧) مؤتمر الصلح الذي جاء في أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ ومن المعروف ان المعاهدة التي عقدت يومها، سميت معاهدة فرساي.

في تلك السنة عدت الى لندن بالقطار من محطة سان لازار. كان كل شيء هادئاً. في ايلول ١٩٣٨ عدت الى لندن من المحطة نفسها. كانت أوروبة قد عرفت تحركات هتلر، وكان حديث الحرب على كل شفة. لذلك لما وصلنا المحطة لنأخذ القطار الى لندن كانت أكياس الرمل تملأ ارجاءها تحسباً لاحتمال وقوع الحرب أية لحظة. لكن الحرب تأخرت سنة كاملة، فاشتعلت في صيف ١٩٣٩.

الفصل السادس عشر

كنت، في سنة ١٩٣٨، قد تمكنت من اللغة الانكليزية وتعلمت من الالمانية ما يسر لي أن أتابع مساقات في دراسة التاريخ في جامعة ميونخ على يد ولتر أوتو (Walter Otto) وفرانز دولغر (Franz Dolger). لذلك قررت ان أتعلم الفرنسية. كنت قد جربت ذلك مع مدرسة برلتز في لندن، لكن دروسي الكثيرة واضطراري الى تعلم اليونانية واللاتينية الكلاسيكيتين حال دون ذلك. قررت ان صيفية في فرنسة أنفع من جميع المحاولات، خاصة وان تعلمي الالمانية جاء عن هذه الطريقة أصلاً. لكن في المانية أخذت دروساً خصوصية ساعتين كل يوم لمدة سبعة أسابيع.

لما قررت تعلم الفرنسية في فرنسة، أخذت مناشير تتعلق بالجامعات التي تقدم مثل هذه المساقات. وكانت الجامعات كثيرة. فكل جامعة، من باريس وفي اتجاه الجهات الأربع طالعتني ببرامج لتعليم الفرنسية في الصيف.

اخترت بيزانسون. أولاً لأنها في الجنوب الشرقي من فرنسة وفي منطقة جميلة. ثانياً لان يوليوس قيصر كانت له معارك مع الغاليين هناك، وعصر يوليوس قيصر كان فترة للتخصص في دراستي. ثالثاً، وهو الأهم، خطر لي ان المكان بعيد، ولذلك فلن يكون فيه طلاب أجانب كثر.

ولما وصلت بيزانسون في مطلع تموز / يوليو سنة ١٩٣٨، وكان رفيقي في الطموح الى تعلم الفرنسية الصديق فرحات زيادة ابن رام الله البار. كان فرحات ايضاً طالباً في جامعة لندن، لكنه كان يدرس القانون، وفرحات، بعد عودته من لندن عمل في القضاء في فلسطين الى أن انتهى الانتداب، وبعد مدة رحل الى اميركا، واصبح أحد اساتذة القانون والشريعة في جامعة برنستون، ثم انتقل الى جامعة ولاية واشنطن، حيث انشأ قسم دراسات الشرق الأوسط.

المهم ان فرحات كان رفيقي، ولو انه وصل بعد بضعة أيام. والأهم من ذلك انني وجدت نحو اربعمئة وخمسين طالباً وطالبة فكروا كما فكرت. بيزانسون بعيدة، ولن يرغب فيها كثيرون. ومع ذلك سجلنا في الدروس الابتدائية جداً. ولكن لما بدأ التدريس وجدنا ان ما تسميه جامعة بيزانسون مبادىء الفرنسية هو مساق في مقدمة في الأدب الفرنسي. ولما ذهبت انا وراجعت حول القضية قيل لي هذا هو معنى المبادىء عندنا؛ فنحن لسنا مدرسة لنعلم مبادىء القراءة والكتابة.

اسقط في يدي وطبعاً في يد فرحات، وفي يد عدد كبير من الطلاب. لذلك فتشت عمن يعلمني دروساً خصوصية ابتدائية، فلم أجد. المعلمون في العطلة الصيفية خارج بزانسون؛ والمدرسون الجامعيون لا يتنازلون الى مثل هذا. واذن فعلى تعلم الفرنسية السلام. وكان هناك عدد كبير من الطلاب من اسكندنافيا اصابهم ما اصابنا. واذن فلنذهب الى المقاهي، ولنرتب رحلات محلية ولنأكل الطعام الفرنسي الشهي، كما يقولون. وأهم من ذلك فلنتحدث في السياسة. والسياسة عند فرحات وعندي كانت قضية فلسطين. وقد صرفنا وقتاً لا بأس به في سبيل ذلك. فرحات كان يتكلم بالانكليزية، وأنا كنت أتكلم عنها بالانكليزية وبالالمانية.

لكن سنة ١٩٣٨، بالنسبة لأوروبة، كانت تعني شيئاً آخر في السياسة. كانت أوروبة تغلي لأن الحرب كان متوقعاً لها أنها قد تبدأ في ذلك الصيف. ومن هنا كان الحديث عن هذه الأمور هو الحديث المألوف. ذهبت الى بيزانسون لأتعلم الفرنسية فتدربت على الالمانية. كثيرون من الطلاب الاسكندنافيين والسويسريين كانوا يجيدون الالمانية ويتناقشون بها سياسياً. وكنت انضم الى حلقاتهم. ولما عرف عني انني كنت قد قضيت تسعة أشهر في المانية، وانني كنت طالباً في جامعة ميونخ، وانني كنت اتنقل في البلاد مع بسكليتي أصبحت مطلوباً للتحدث عن المانية. فأنا - قيل، وكان صحيحاً - لقيت من السكان من لا يلقاه الرحالون والسواح الآخرون، اصحاب السيارات والمسافرون في القطارات.

أصبحت بيزانسون، وهي قريبة من المانية، تغلي في صيف ١٩٣٨. هناك، بين الطلاب الأجانب، من كان من مؤيدي هتلر. أذكر من بين هؤلاء طالبة من جنوب افريقية كانت تطلب العلم في لندن، كان دفاعها عن هتلر يتسم بالحماسة التي لا حدود لها. وكان هناك غيرها. لكن خصوم هتلر كانوا أكبر عدداً. كان المفروض ان يؤيد الفلسطينيون هتلر، لأنه ضد بريطانية. لكن انا شخصياً كان لي موقف آخر. وهو ان هتلر لن يكون أقل تأييداً لوعد بلفور وانشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين من بريطانية. هتلر كان يريد ان يتخلص من اليهود في بلاده، وضغطه عليهم في أوائل الثلاثينات، أدى الى ازدياد عددهم زيادة كبيرة في فلسطين. وقد يرى، فيما لو حارب وربح الحرب، ان الأفضل له ان يرسل جميع هؤلاء الى فلسطين ويخلص المانية منهم.

والذي أعرفه من موسى عبد الله الحسيني، لما التقينا في القدس بعد انفصالنا سنوات الحرب - هو في المانية وانا في القدس - ان هتلر رفض ان يتبنّى القضية الفلسطينية العربية لما عرض عليه الأمر اثناء الحرب على أيدي من كان يمكنه ان يفاوض الزعيم الكبير.

المهم هو ان بيزانسون كانت يومها تمثل أي مؤسسة أوروبية يمكن ان تقام لمناقشة السياسة العالمية في ضوء وجود هتلر وخصومه. وقد كانت فرصة لي أن أتعرف الى هؤلاء القوم واستمع الى مناقشاتهم. والذي أود أن أؤكده هو ان هؤلاء، فيما كانوا يمثلون من المجتمعات التي جاءوا منها، كانوا معنيين بجزء واحد من العالم هو أوروبة.

في بيزانسون عوملنا، بوصفنا من الطلاب الأجانب، معاملة طيبة جداً. أعطي كل واحد منا بطاقة تشير الى أنه طالب أجنبي. فكان الواحد منا يعطى أوتوماتيكياً خصماً معدله ١٥٪ عن كل شيء يبتاعه. وكنا عندما ندخل الكازينو ندفع فرنكين ثمن تذكرة الدخول بدل أربعة فرنكات يدفعها الافرنسي. وكنا نعفى من دفع الخدمة (السرفيس) في المطاعم والمقاهي. ونحن عدد كبير من الطلاب، لكن أصحاب هذه الأماكن كانوا يرون في اعفائنا من هذه الدفعات البسيطة ما يغرينا بزيارة محلات الأكل والمقاهي. وفعلاً هذا ما حدث.

فضلاً عن ذلك فقد كنا ندعى مرة في الاسبوع، وقد حدث هذا كل اسبوع، في يوم الأربعاء، الى حفلة تقام على شرفنا - رئيس بلدية المدينة، محافظ المنطقة، قائد الجيش في المنطقة، مدير بوليس بيزانسون، جامعة بيزانسون، عميد كلية الآداب، اتحاد الطلبة، نقابة المعلمين، الجمعية العلمية في المدينة. وقد انسيت مؤسسات أخرى دعتنا.

كانت هذه الحفلة تسمى دعوة خمرية شرفية ويقدم فيها نوع من النبيذ المعروف باسم نبيذ موسو.

وهو خمر موقعه بين النبيذ العادي والشمبانيا. (لعل بعض من يقرأ هذا يتذكر النبيذ الذي كان يصنع في فلسطين باسم كارمل هوك Carmel Hock، فهو مثله). ويقدم معها من المآكل الخفيفة ما يغنيك عن العشاء. وكانت الحفلة كثيراً ما تمتد من حول الخامسة الى العاشرة مساء. فليس هناك من يدعوك الى الخروج.

وقد كانت الحفلة التي اقامها قائد الجيش في منطقة بيزانسون يوم ١٤ تموز / يوليو، أي يوم العيد الوطني

الفرنسي، أفخم الحفلات وأكرمها. أليست هي ذكرى هدم الباستيل؟

بدأت الاحتفالات في المدينة في الصباح المبكر نسبياً بعرض عسكري فخم ضخم؛ جابت فيه فرق تمثل القوات المختلفة شوارع المدينة مع موسيقاها العسكرية الحماسية. وخرج الناس. شيباً وشباناً صبايا وولداناً رجالاً ونساء. يحيون الجنود المتبخترين بثيابهم الأنيقة وأسلحتهم اللامعة.

وحوالي الظهر، قبيل موعد الغداء، لعبت موسيقى الجيش في الحديقة العامة ما يقرب من الساعة ولم تكن موسيقى عسكرية، لكنها كانت موسيقى كلاسيكية فرنسية.

والحفلة التي أقيمت يومها لم تكن على شرفنا وحدنا مثل الحفلات الأخرى، كانت على شرف عدد لا يقل عن ثلاثة آلاف شخص. أقيمت في حدائق الثكنات العسكرية وكان المشروب والأكل كثيراً. وقد بدا لي كأن الذين يدعون لمثل هذا اليوم من أهل بيزانسون يعدون انفسهم لذلك قبل أيام. فيصومون عن الأكل والشراب. إذ أنني لاحظتهم يلتهمون ما يوضع على الموائد بسرعة. وشهية طبعاً. ويكادون لا يريحون الكؤوس من القرع والافراغ.

وأود ان أقول هنا انني، في كثير من هذه الحفلات، كنت أصاب بما يصاب به بعض المدعوين من أهل المدينة من حيث الاستمتاع بالشراب خاصة، وبالطعام الى درجة ثانية. الا يقول المثل عندنا: من عاشر القوم اربعين يوماً صار منهم! ونحن قضينا هناك خمسة وسبعين يوماً. لكن أنا صرت منهم مسبقاً. أي قبل الاربعين يوماً. على الحساب.

ومنطقة بيزانسون جميلة جمالاً عادياً، لكن فيها شيء خاص. ففي ظاهرها توجد قناة تصل نهر الراين بنهر الرون على مقربة من منبعيهما. ومن هنا فان القوارب النهرية التي تنقل المنتوجات الفرنسية مثل الحبوب والخمور والزبدة وما الى ذلك، يمكنها ان تنتقل في واقع الأمر من جنوب فرنسة الى شمالها. وانا لأنني طلعة (في سبيل المعرفة) فقد ركبت مرة في واحد من هذه القوارب من نهر الرون. القريب من بيزانسون. الى نهر الراين. لم يقبل أحد الذهاب معي، فالسفرة تحتاج الى نحو ثماني ساعات. وعدت في القطار.

وبعض هذه القوارب النهرية كبيرة. ومن هذه القوارب ما يوجد عليها مكان يصلح لاقامة ربان القارب وأسرته. وقد سررت لأول مرة رأيت أحد هذه القوارب وعليه الأسرة في مكان اقامتها وحولها حديقة صغيرة من أصص الزهور الجميلة. تذكرت يومها قول ايليا ابو ماضي: كن جميلاً ترى الوجود جميلاً.

وثمة أمر آخر عنيت به. زيارات للمنطقة. بعضها قمت به منفرداً على البسكليت. لكن أكثر الزيارات كانت جماعية. فقد تألفت جماعة بين ٨ و١٢ شخصاً، كنا كثيراً ما نقوم بالزيارات أو الحفلات المسائية مجتمعين: والرحلة كانت في الأساس الانتقال بالباص أو بالقطار الى مكان يبعد عن بيزانسون مسافة تضعنا في قلب منطقة جميلة. وبعد سير على الاقدام لساعتين (أو حتى أربع ساعات) نكون قد استحققنا جلسة وأكلة مناسبة وراحة قليلة نعود بعدها الى المدينة بالباص أو القطار. والذي أذكره ان هؤلاء الأصحاب لم يندموا مرة واحدة على الاشتراك في الرحلات التي كنت أنا الذي يقوم على تنظيمها.

وفي بيزانسون أكلت لحم الخيل. فقد كان في البانسيون الذي أقمنا فيه رجل هو المسيو جورج. كان مغرماً باكل لحم الخيل. وكان يتحدث عنه كما لو أنه متعة من متع الحياة التي لا تفوت. وأخيراً قبلت رأيه. وحتى دعوته. وأكلت لحم فرس أو حصان، لا أدري. ولم اتعشق ذلك النوع من اللحم. ولما دعوته. في البانسيون. لمثل دعوته، طلبت من طاهي الفندق ان لا يعطيني لحم خيل. فانا لم أعتد على ذلك، ولم يكن في نيتي أن أبدأ الاعتياد.

وانتهت عطلتنا في بيزانسون. وهذا هو الذي حدث حقاً أي أنها كانت عطلة. وقصدنا باريس، حيث قضينا

بضعة ايام، ثم اعتزمنا العودة الى لندن. وقد كان منظر محطة الشمال في باريس، وهي المحطة التي كنا نأخذ منها القطار في اتجاه انكلترا، شيئاً مرعباً لنا. كانت اكياس الرمل في كل مكان ـ حول مكتب قطع التذاكر، عند مكان بيع السندويتش، على جدار المقهى، على أبواب الحوانيت القليلة. والجنود منتشرون لا للتفتيش ولكن للمراقبة وكلهم مسلحون.

كان المنظر يومها غريباً عليّ؛ اما الآن، في صيف سنة ١٩٨٩، فانا اكتب هذا في بيروت، وقد مرت علينا أربع عشرة سنة ونحن نرى هذه الأوضاع يومياً تقريباً، وفي نحو نصف هذه السنوات كانت القنابل المختلفة الأنواع والاشكال والحجوم والقوة تتنقل بين أجزاء المدينة.

عندما أتذكر محطة الشمال (غار دونور) في باريس (سنة ١٩٣٨) احسبها لعب أطفال!

وهكذا فقد كان هذا الصيف الذي قضيناه هناك صيفاً حاراً من حيث الخوف والتفكير. الخوف من الحرب والتفكير في هذا الشبح الذي كان يسمى شبح الحرب. فالذي حدث أن ندوات عدة كانت تعقد على غير ترتيب سابق في المقاهي وفي ساحات الجامعة وفي المطاعم أحياناً وتبحث فيها شؤون الحرب ويتحدث عنها، فالذي يؤيد هتلر، كان يتكلم عن ذلك، والذي يقاوم موسوليني كان يبحث في ذلك. ولانني أنا كنت أتكلم الانكليزية والالمانية، كان بامكاني ان اشارك في الندوات التي يعقدها عدد كبير من الاسكندنافيين الذين لم يكونوا كلهم يعرفون اللغة الانكليزية.

صحيح ان الذين كانوا هناك كانوا طلاباً، ولكن كما ذكرت من قبل فان الطلاب كانوا، وخاصة عندما يكونون من المثقفين يثيرون قضايا قد يتجنبها حتى رجال السياسة عندنا.

نحن كنا في فرنسة، وفرنسة في ذلك الوقت كانت تغلب عليها نزعات يسارية قوية. لكن فرنسة بلد حر. ومن هنا فلم يكن ثمة ما يمنع عند الحاجة من أن يدافع أحد المتحمسين عن موسوليني أو هتلر؛ لم يلق تأييداً، ولكنه لم يقتل من أجل ذلك، لم يشتم علانية، لم يُهن إهانة كبيرة لأنه تفوّه بأمر يخالف الأكثرية أو الآخرين على الأقل في الرأي.

ندوات بيزانسون غير الرسمية وغير المركّبة وغير المعتنى بها كانت بالنسبة لي درساً كبيراً في حرية الرأي وفي التكلم عن الموضوعات المختلفة. والذي اغتنمته أنا في أحيان كثيرة كان أن أثير قضية فلسطين كواحدة من القضايا المتعلقة بشبح الحرب هذا. ولكن، أين كان موقعها بالنسبة لشبح الحرب عندما كان ينظر الآخرون اليها؟ عند أطراف الأصابع، على الكتف، قريباً من الرأس؟ ولكن هو كلام يقال في المناسبات المختلفة.

المهم اننا رأينا أمائر الحرب بأعيننا، وكانت هذه أول مرة أرى فيها هذا النوع من التحصن، فأنا لما تركت فلسطين لم يكن هناك مجال لهذا التحصن. لما عدت اليها في عام ١٩٣٩ وجدت شيئاً من ذلك، لكن تجربتي القوية بالنسبة لأكياس الرمل والأعمدة والأتربة والدشوم، كانت في لبنان بين سنوات ١٩٧٦ و١٩٨٩ وأخشى أن يكون الحبل على الجرار، فالأمر لم ينته بعد.

لما وصلنا الى لندن، لم نجد فيها شيئاً من الذي رأيناه في باريس، فلا أكياس رمل ولا غيرها. لكن الصحف البريطانية كانت فعلاً تتحدث عن الحرب كما لو انها واقعة أمس بدل الغد. وهنا اشتدّ النقد لحكومة المحافظين.

كنت أعرف، قبل وصولي الى لندن، انني كنت قد قررت أن «أكون» وان أكون شيئاً (مميزاً). يعود اتخاذي هذا القرار الى زمن مبكر في حياتي. كنت يومها طالباً في دار المعلمين (١٩٢١ ـ ١٩٢٤)، وكنت كثيراً ما أفكر بمستقبلي. أسمع عن الجامعات من اساتذتنا وقد كان كل واحد منهم، باستثناء جورج خميس وابراهيم قمر، خريجاً من جامعة ـ الاميركية في بيروت، أو دار الفنون (كلية الآداب والتربية في جامعة استانبول لاحقاً أو كلية

الطب في عاصمة الدولة، او جامعة كولومبيا او معهد ماساتشوتس التكنولوجي. واذن فالتفكير على أساس الالتحاق بجامعة لم يكن امراً بعيداً عني. هذا بقطع النظر عن الامكانات. وفي يوم كنت انا وعبد الحميد ياسين وطالب ثالث، لعله زكي الكرمي، نتناول الشاي بدعوة من مدير الدار في بيته، ودار الحديث حول المستقبل. وذكرت انا ناحية من طموحي، فكان موقف خليل طوطح مشجعاً. فكل ما حدث هو ان تشجيعه قوى عزمي في نفسي.

على ان الذي اذكره، يومها وبعد ذلك بسنوات، هو سبيلي كي اكون شيئاً؟ ما هو السبيل؟ عندي من الأصول اللازمة لذلك مقدار من الذكاء كبير. كنت أعرف هذا من نفسي وبسبب ما كنت أحققه في المدرسة. وقد اثبتُ مركزي حتى بين الطلاب المتقدمين، زمناً وسناً، في دار المعلمين. ثم اثبت وجودي لما ضربت ج ل «القتلة» فأصبحت اخيف بعض الشيء.

وخرجت الى العمل وقد اضفت الى ذكائي واثبات وجودي امرين مهمين - النظام الذي أصبح جزءاً أساسياً من تصرفي الخلقي، والدؤوب على العمل بحيث لم يكن العمل الكثير ينال جهداً مني. وانا كنت دوماً صادقاً مع نفسي ومن ثم صادقاً مع غيري الى حد ان الكذب كان ولا يزال يثير في نفسي القرف والاشمئزاز.

اذن عدتي الشخصية متينة. بقي عليَّ أن أتعرف الى الأسلوب. اثناء عملي في عكا اختزنت من المعرفة الشيء الكثير، لا في التاريخ وحسب ولكن في المجالات الأخرى التي اتيح لي الاطلاع عليها - في الأدب والاجتماع وبعض الفلسفة والاقتصاد. نعم كان الذي عرفته كثيراً، وكانت معرفتي فيها من العمق الكثير وفيها من سعة الأفق الكثير أيضاً. على أن الأمر المهم في هذا كله هو انني كنت اقرأ منفرداً وافكر في الأمور منفرداً واختزن المعرفة بعد مناقشة ذاتية لها. لم يكن في عكا - الا فيما ندر - من أبادله الفكر واناقش معه القضايا. انا لا أقول هذا غروراً ولا اعتزازاً. انا اقرر واقعاً؛ انا أصف حالة اجتزتها في تلك المدينة التي احتفظ لها في نفسي بأكبر الأثر بسبب ما قدمته لي مما حملني على العمل المستمر. فضلاً عن ذلك فان القضايا العامة التي كانت تعرض لنا محدودة في نوعها وعددها ومجالها.

والآن وجدتني في لندن. فماذا كان أثر ذلك فيَّ؟ كان الاثر - على مدى السنوات - كبيراً على ما حاولت ان اصف. الآفاق أرحب - طبيعة وفكراً ومجتمعاً؛ القضايا اكبر واكثر - نوعاً وكمية وشكلاً؛ الحلول المطروحة متنوعة - في الفكر والأدب والسياسة والمسرح؛ المحاورون متعددون - الاساتذة والتلاميذ وسكان البيت الذي تقيم فيه. وأهم من ذلك في رأيي، وحسب تجربتي وفائدتي الشخصية، هو أن الجو بكليته كان يسمح بكل ذلك. اقصد جو الحرية التي لا حد لها ما دمت لا تؤذي المواطن. والافاق تتسع باستمرار، ليس ثمة ما يعيقها عن ذلك.

وكان من الأمور التي قمت بها في هذه الفترة ان أخرج آرائي ومعرفتي الى الهواء الطلق الحر، لأسمح لها ان تتنفس أولاً، وان تعيد النظر في نفسها ثانياً، وان تتجدد وتتقوى بالاضافة والحذف ثالثاً. وعلى نحو ما نخرج ثيابنا كي تتشمس وتتهوى، فتحت خزانة افكاري واخرجت المحتويات وعرضتها في سوق التطور.

على أن الأمر اقتضى مني كثيراً من الجهد الفكري. إذ أن هذه الخزانة، تمثل ما جمعه العقل وما ورثه القلب وما اطبقت عليه النفس. وهذه أمور متشابكة متداخلة بحيث تبدو أنها شيء واحد، لكن لما جاء وقت اخضاعها للتيارات الجديدة، وللأفكار الجديدة، عندي على الاقل، بدا وكأنها عادت الى عناصرها المختلفة أصلاً، وكانت استجاباتها للتحدث الذي تعرضت له، متباينة.

ما هي هذه العناصر المختلفة؟ وجدتني، وأنا أنشر ما في خزانة فكري، امام ثلاثة انواع من العناصر التي تجزأت افكاري في مجموعها على أساسها. فهناك أولاً ما يصح ان يسمى «معرفة»؛ وهناك ما يمكن ان يعتبر «رأياً»؛ وثمة «العنصر الموروث» اجتماعياً من العادات والتقاليد التي دخلت في كياني مع الزمن دون استئذان،

لأنها تقليد الجماعة التي أنا منها!

وكان الأول من هذه أي المعرفة، الأيسر معالجة. فانت تعلمت يا نقولا شيئاً عن طريق القراءة؛ ولكنك الآن تعثر على ما يخالفه. وعندما تتعلم وسيلة البحث واسلوبه، وتتدرب على استعمال ذلك بعناية ودقة، يمكنك ان تصل الى نتيجة.

قد لا تصل الى نتيجة حاسمة أو رأي قاطع، ولكنك تستطيع ان تبلغ درجة الترجيح. فاذا كان ما وقعت عليه من قبل مثلاً ان وادي النيل كان أول منطقة عرفت الحضارة، ثم اطلعت على قول يرجح كفة أرض الرافدين، فانت أمامك البحوث والدراسات تعود اليها، وأمامك اساتذة يمكنك ان تستفتيهم. ولن تصل الى حل نهائي للقضية (وأنت لم تصل حتى يوم الناس هذا أي خريف ١٩٨٩) ولكنك أصبحت تملك من المعرفة ما يمكنك من مناقشة الأمر عند الحاجة، سواء أكانت هذه المناقشة فيما بينك وبين نفسك، أو كانت مع آخرين.

واذا كنت قد دربت على الاسلوب الصحيح، أصبح الأمر بالنسبة لي بسيطاً متى تمكنت من وضع يدي على المصادر والمراجع وما الى ذلك.

النوع الثاني هو الاراء والأفكار. الآراء والأفكار المتعلقة بالكون والجماعة والفرد والحكومة والحرية والتبعية. تعريض هذه الأفكار «للتهوية» كان أصعب بكثير. هذه الأفكار التي كونتها في نفسي من القراءة والتأمل والنظر، البعيد والقريب، وضعتها على محك الحياة الجديدة. والحياة الجديدة لم تكن تتيح لي القراءة في الكتب فحسب، على نحو ما الفت من قبل (خاصة في عكا)؛ انها كانت تفتح امامي النافذة تلو النافذة، والباب تلو الباب، والمجال تلو المجال، لأعيش هذه الأفكار وأحياها وأرى مدى تأثيرها على تطور الناس - أفراداً ومجتمعات ودولاً. وهذا أصبح الآن يتم لي لا بالنسبة الى لندن فحسب، ولا بالنسبة الى انكلترا فقط؛ رأيت ذلك في المانية وفرنسة أيضاً، مع التباين الذي وقعت عليه في البلدان المختلفة. فضلاً عن ذلك فقد اتسع الأفق الزمني امامي. والأفق الزمني المقصود به هنا هو سير الزمن تاريخياً. فعندما يتسع الأفق المكاني امامك، وانت طالب للتاريخ، تشعر بحتمية العودة الزمنية لترى كيف تفاعلت هذه الآراء والأفكار، نظرياً وعملياً، لعلك تخرج من ذلك بما يعينك على اعادة النظر فيما كونت من قبل.

هل الحرية الشخصية مناقضة لحرية المجتمع؟ كيف يمكن تحقيق الأمرين؟ هذه قضية عرضتها على نفسي في جوي الجديد. ان كل ما عرفته عنها من قبل جاء من طريق القراءة. فالشاب الذي عاش في فلسطين حتى بلغ السابعة والعشرين من عمره، لما كانت هذه البلاد تحت الانتداب البريطاني، لا يمكن ان يفكر بالحرية من الناحية العملية «لأنه حرمها كلية». وحتى اذا وصل الى بيروت أو دمشق، وجد ان الأمر ليس أفضل؛ ولم يكن اسوأ إذ ما هو الأسوأ؟

والذي استطاع ان يكون رأياً في ان الاستبداد الذي عرفه الشرق القديم كان ضاراً بالمجتمعات لأنه ترك كل شيء بيد اصحاب السلطان، كان ينظر حوله فيرى ان كل شيء هو بيد اصحاب السلطان وأولي الأمر. ما هو الفرق بين القدماء والمحدثين. القدماء لم يبرروا تصرفهم، اذ لم يحتاجوا الى ذلك. لقد حكموا نيابة عن السماء، وعندها ينتهي الأمر. اما المحدثون فكانوا يدعون انهم يدربون الشعوب على الحكم وانهم يحفظون النظام لمصلحة الجميع ويحققون العدالة للجميع. وهم لم يدربوا الشعوب ولم يحفظوا النظام للكل بل حققوا ظلماً لابناء البلاد.

وهل يحتاج مثل هذا الرأي الى «تهوية» واعادة نظر؟ لعله لم يعد النظر فيه مفيداً. ولكن عندما تعيش في لندن أو تزور باريس (المانية هنا لا تدخل في الحسبان) وتقرأ الصحف - بقطع النظر عن اتجاهاتها السياسية أو العقائدية - وبعض ما ينشر من الكتب، تجد ان مجال الظلم في بلدك واسع عميق. أما هناك فانك ترى وتسمع

وتقرأ وتناقش وتناقش في هذه الأمور القائمة على رقاع واسعة من الأرض.

ان تعريض الآراء التي كونتها من قبل كان مفيداً لي شخصياً. ومن حيث انه اعانني على توضيح ما أريد «ان أكون». في نفسي فقط كانت له آثار مهمة في مستقبل العمل الذي قمت به بعد ذلك - في التعليم والكتابة والخطابة والمؤتمرات والندوات.

هذه الأفكار، وهي التي سميتها النوع الثاني، كان تعريضها للمحك أصعب من تعريض شؤون المعرفة التقنية (المرتبطة بالاسلوب والتدريب). فضلاً عن ذلك فانك بالنسبة لشؤون المعرفة التقنية يمكنك ان تتابع التطور العلمي بالعودة الى المصادر والمراجع. لكن الأفكار والآراء لا تتعرض للتهوية مرة واحدة. فالمهم ان تعوّد نفسك على أن تكون آراؤك معرّضة للتطور. وإذا لم تفعل ذلك واكتفيت بأنك عرضتها للتهوية مرة واحدة، ثم اختزنتها كما هي واصبحت تخرجها حين الحاجة كي تقيس بها ما قد يمر بك، وجدت ان هذه الآراء تعفن مع الزمن. وعندها يصيبك ما يصيب الحضارات التي تعجز عن النمو فتتحجر وتصبح حجر عثرة في تطور الشعب الذي صنع تلك الحضارة (على نحو ما يرى طوينبي).

وهذا الأمر كنت قد عودت نفسي عليه، لذلك فقد كان ذا فائدة لي أولاً لما تعرضت آرائي للمحك وثانياً في السنوات التي مرت عليَّ بعد ذلك، إذ أنني لا أزال أستطيع أن أناقش الرأي من نواحيه المختلفة، وليس ما يمنعني من تبديله عند الحاجة، أي عند الاقتناع.

لكن يظل عندنا العنصر الثالث وهو «العنصر الموروث اجتماعياً». هناك اسلوب للتصرف واضح يتبع في المجتمع الذي نشأت فيه. هذا عُلِّمتُه تدريجاً وسرت عليه، ولأنه كان قانون الحياة المرعي فقد أراحني كثيراً. وهناك قواعد منتزعة من الحياة الدينية يحافظ عليها الناس في مجتمعي. ومع ان مجتمعي كان متعدد الأديان والمذاهب، فهناك قواعد كانت تجري على الجميع، وقواعد خاصة بمذهب معين. والجميع، الا من شذ عن ذلك، كانوا يعرفون هذه الأمور بتفاصيلها وكانوا يتقيدون بها.

هناك الصلات التي تربط الأفراد بالأسرة والأسرة بالعشيرة وما الى ذلك. وهذه أيضاً معروفة عند أولئك الذين اهتموا بالتعرف اليها اما عن طريق معايشتها أو عن طريق دراستها والسؤال عنها. وليس المجال هنا مجال تعداد هذه الأمور. فأكثر الناس في مجتمعاتنا لا يزالون يحافظون عليها.

هذه جميعها كانت تختلف عما ألفه القوم في لندن وفي باريس وفي برلين وغيرها من المدن الأوروبية التي عرفتها وعشت فيها وعاشرت أهلها وسايرتهم في عاداتهم. فأنا واحد، ولا يجوز لي ان أحمل الجميع على السير على طريقتي أنا، حتى ولو كنت اعتقد ان عاداتي وتصرفاتي هي الأصح والاسلم والأحكم. والا فانني سأتألم كما تألم صديق لي لانه لما سئل عن الدور الذي قدمه العرب المحدثون للموسيقى وقد جاء السؤال خلال حديث عادي فقال صديقي هناك الدور الذي قام به محمد عبد الوهاب. عندها سأل الأجنبي ومن هو عبد الوهاب، فانتفض صديقي وقال «ألم تسمع بعبد الوهاب؟ ألا تعرف من هو عبدالوهاب!» ولأنه غضب لم يستطع ان يعرف السائل بالشخص الذي اعتبره صديقي عبقري الغناء العربي الحديث. وليس المهم ان صديقي غضب يومها، ولكن ظل الى شهور عديدة كلما روى القصة انتفض غضباً، وختمها بقوله «تصور الجهل، ما بيعرفوش عبدالوهاب».

ولكن مع انني تركت الكثير من قواعد السلوك الاجتماعي الموروثة، وسرت بقدر الامكان سير القوم هناك؛ فقد كان من الطبيعي ان أفكر بهذه القواعد (الموروثة) والأسس التي تقوم عليها. لكن المشكلة كانت هنا هي على أي أساس أقيِّمُ ما عندي؟ الذي كسبته من حياتي مناسب لمجتمعي. فهل اقابله بالذي رأيته في المجتمع الجديد؟ هذه القضية شغلتني كثيراً، إذ أن الذي أخذت أنظر فيه لم يكن «قواعد السلوك» بالذات، بل الأسس التي تقوم

عليها، وأقابل هذه الأسس ببعض ما تقوم عليه قواعد السلوك في لندن مثلاً. ولم تكن غايتي «تبديل» ما عندي شخصياً، ولا الاستعاضة عن نوع بنوع آخر من أساليب التصرف الاجتماعي. لا، وإذا حدث شيء من هذا فقد جاء عفواً ونتيجة لشعور داخلي بانه الأنسب (وقد لا يكون الأفضل). ان الذي كان يحدوني الى مناقشة الأسس هو التأكد من ان ما يقوم عليه مجتمعي من أسس قد يكون مسؤولاً عن بعض التأخر، أو لعله يعين على التقدم. وهذه المقارنة كان الباعث عليها عنايتي بتطور جماعتي (الصغيرة والكبيرة) والافادة مما عند القوم. ولم يكن الذي دعوت الى تطويره لما عدت هو اقتباس ما عند هؤلاء القوم، ولكن الذي دعوت اليه هو التخفيف من القيود الاجتماعية الكثيرة والقوية التي تثقل كاهلنا وتعيقنا عن السير قدماً.

وفي هذا العمل وجدت ان الأمرين الثاني (الأفكار والآراء) والثالث (السلوك الاجتماعي وقواعده) يرتبطان معاً الى درجة كبيرة. وان تحرير الفرد العربي من كثير من القيود الاجتماعية كان مفيداً للمجتمع. (ولكن المجتمع العربي لا يزال يقيد افراده اكثر من اللازم، الا من عصم الله).

وهكذا فقد أفدت من اقامتي السنوات الأربع في بلاد الغرب الاوروبي كثيراً. كانت قدراتي الطبيعية التي أتمتع بها، ومناعتي الخلقية التي أخذت نفسي بها، دعماً اساسياً لي. كما كانت المرونة التي دربت نفسي عليها، عوناً كبيراً لي خلال ذلك الوقت (ولا تزال).

واذ فتحت خزانتي المعرفة والفكر اللتين كانتا قد تكونتا قبل وصولي لندن، وأخرجت كل ما فيهما وعرضته لتيارات الفكر، ونشرته للنقد الذاتي مستعيناً، كما ذكرت، بالناس والأحوال، شعرت بأنني قد أكّدت طموحي أي أن أكون شيئاً. فاتضح طريقي وبان سبيلي. قويت في الجدل حجتي، بسبب التدريب؛ وتمنطقت بالمنطق عملياً ولو لم أدرسه نظرياً وذلك بسبب المناقشة المستمرة؛ وعرفت أكثر من ذي قبل، أهمية الربط بين الفكر واللغة. فأصبحت اقتصد في الكلام - قولا وكتابة - بحيث ينقل الكلام المعنى أو الفكرة في ثوب مسبل لطيف، فتظهر فيه جميع تقاطيع الرأي وتعرجاته وامتلاآته، كما يظهر الثوب الأنيق التفصيل مباهج جمال المرأة. وقد كان هذا مما أعانني في مستقبل حياتي في الذي كتبته. ذلك انني اعتزمت يومها على أن لا أكتفي بالقيام بعملي كمعلم. شعرت بانه يتوجب علي أن أخاطب الجميع. وقد فعلت، ولا أزال.

فلما عدت الى فلسطين، بعد غياب أربع سنوات، كنت قد أصبحت «رجل فكر» لا مخزن معلومات فحسب. وكان لي زملاء مرت بهم تجارب مثل تجاربي، وزاملوني في الدراسة في انكلترا، ولكن لما عادوا الى فلسطين عادوا «صناديق» معلومات في الأدب أو التاريخ أو التربية أو القانون، أو حتى العلوم، لكنهم لم يعودوا رجال فكر.

وأود ان أذكر هنا فئة من الناس كانت قد برزت اثناء الحرب العالمية الأولى وفي فترة بين الحربين في لندن، وكان افرادها كتاباً وشعراء وفنيين واقتصاديين وفلاسفة هي جماعة بلومزبري (Bloomsbury). هذه الجماعة، التي قرأت بعض ما وضعه افرادها تحتاج الى تعريف خاص.

في السنة الدراسة ١٩٣٧-١٩٣٨ قطنت في بنسيون في ٤٧ تورنغتون سكوير (47 Torrington Square) على مقربة من كليتي. وفي احد الأيام لقيني الاستاذ بينز ودار بيننا حديث عادي، وسألني فيما اذا كنت مستريحاً في سكني. ولما ذكرت له اين اسكن قال «أصبحت يا رجل من جماعة بلومزبري! واضاف بهذه المناسبة قد تكون قرأت ما يقال عنهم من حيث التحلل من القيود الخلقية ومن حيث التصرف السيء. وقد يكون في بعض ما قيل شيء من الصحة. لكن انا أرى ان التهمة مبالغ فيها. على كل مالك انت وتصرفهم. اقرأ ما كتبه هؤلاء الناس. انهم مجموعة ممتازة من أهل الفكر والفن والأدب. سلاحهم القلم والفرشاة. اقرأ لهم».

رأي من هذا النوع يقدمه بينز لا يمكن ان يطرح جانباً. صحيح ان الجماعة، أو بعض افرادها، كانت لها رائحة كريهة. وعلى أنني عندما اسمع مثل هذا الكلام يترتب عليّ على الأقل ان اتعرف الى بعض ما كتبوا أو يكتبون. وكان بينز قد اشار الى كتاب اسمه كبار الفكتوريين بقلم ليتون ستراتشي (Eminent Victorians by Lytton Strachey). وهو يتناول تراجم اربعة من كبار البريطانيين الذين عاشوا في عصر الملكة فكتوريا (١٨٣٧-١٩٠١). لذلك اخذت الكتاب معي يومها الى البيت.

كتاب ليتون ستراتشي كان يحوي تراجم لشخصيات أربع من أهل العصر الفكتوري: الكاردينالماننغ (Manning) وفلورنس نايتنغيل (Florence Nightingale) والدكتور توماس ارنولد (Thomas Arnold) والجنرال غـــوردون (Gordon). قرأت الكتاب وأعجبت بالاسلوب واللغة والزوايا التي تناول الكاتب شخصياته منها. وتأملت في الاختيار. كاردينال من آباء الكنيسة الكبار بروتستنتي أصلاً ثم يعود الى حضن الكثلكة، ويصل الى هذه الرتبة في ما سماه الكنيسة الأم. وفتاة ترفض كل شيء في حياتها - الجاه والزواج - وتصر على أنها انما تريد ان تخدم البشرية ممرضة. ويذعن والداها لطلبها، ثم تأتي حرب القرم، وتنضم، مع فريق من الممرضات والمساعدين، الى القوى البريطانية المحاربة لتخدم الجنود المحتاجين. ولكنها تخرج في النهاية وقد نظمت، بسبب خبرتها ونشاطها، مهنة التمريض على أسس جيدة. وهناك ارنولد الذي يتولى ادارة مدرسة عامة في رغبي، كي ينقذها مما هي فيه من اضطراب، ويكتشف هو وغيره ان اكثر المدارس العامة يومها كانت بحاجة الى تنظيف وتطوير وتحسين. والمدرسة العامة في بريطانية كانت، في واقع الأمر، ولا تزال الى اليوم، المدرسة الخاصة التي تكلف كثيراً وتديرها هيئة تختص بها أو مجلس يدبر شؤونها. وأخيراً الجنرال غوردون.

ومع انني تأملت في ذلك، فانني لم أستطع ان أرى عندها سوى ان المؤلف اراد التنويع. لكن فيما بعد عرفت، من القراءة عن ليتون ستراتشي، ان الرجل كان يريد ان يرسم صوراً للفكتوريين كي يعبر الفترة وينقل الناس منها الى ما جاء بعدها.

الا ان قراءتي لهذا الكتاب اغراني بمحاولة التعرف الى شيء عن هؤلاء البلومزبريين. ذلك بان ذكرهم وأثرهم وكتبهم ومقالاتهم النقدية ورسومهم الفنية ونظرياتهم الاقتصادية والأدبية والفنية كانت موضع ذكر واهتمام. فمن كان هؤلاء؟

ان الذي استطعت ان اعرفه يومها يمكن ان يلخص في بضعة أمور هي: أولاً ان جماعة من الشباب الذين كانوا طلاباً في جامعة كمبردج بين سنتي ١٨٩٤ و١٩٠٢، قد تعارفوا وتآلفوا. كان عددهم سبعة، وقد انضم الى هؤلاء، بعد ان تركوا الجامعة - في دفعات متعاقبة - اختان. واقام الجميع أصلاً في حي بلومزبري (Blooms-bury) الذي يقع على مقربة من المتحف البريطاني. هؤلاء التسعة هم الأصل في الجماعة. لكن مع الوقت - والوقت الطويل - تجمع حولهم، لأسباب متنوعة وبأساليب متعددة، احد عشر شخصاً آخرون، فأصبح الجميع عشرين. لكن المهمين منهم ظلوا التسعة الأوائل. ويمكن ان ينظر الى التسعة الأوائل موزعين في هواياتهم على النحو التالي: روجر فراي (Roger Fry) وكلايف بل (Clive Bell) ودنكن غرانت (Duncan Grant) وديزموند مكارثي (Desmond MacCarthy) هم الفنانون ونقاد الفن وخاصة الرسم. وكان ليتون ستراتشي (Lytton Strachey) المؤرخ بين المجموعة، فيما نزع مينارد كينز (Maynard Keynes) الى الاقتصاد، وانصرفت فرجينيا وولف (Vir-ginia Wolf) وزوجها ليونارد (Leonard) الى الكتابة. فكانت هي موجهة الكتابة القصصية في الأدب الانكليزي الحديث. اما فانسّا بل (Vanessa Bell) زوجة كلايف وأخت فرجينيا، فكانت تحاول الفن والكتابة.

إلا أن كل واحد من هؤلاء الفنانين، فضلاً عن اهتمامه الأصلي بالفن، كان يمتشق قلمه للنقد أو للتوجيه.

بدأ هؤلاء الكتابة سنة ١٩٠١ (كان روجر الاول) لكنهم جميعاً كانوا نشيطين جداً بين ١٩٠٤ و١٩١٤. في هذه السنوات العشر جعل الجميع من انفسهم قوة متفرقة مترابطة. فقد كانوا يعملون متفرقين كل في حقله، لكن كان يربطهم، من حيث الشعور انهم كانوا يجتمعون ويتحدثون في أمور ذات معان عميقة بالنسبة للحياة. حول الحب والحياة والحقيقة وكان امتن رباط بينهم هو القوة العقلية والنفوذ الذهني للأمور، وتحملهم نقدهم الواحد للآخر. ولما عاش هؤلاء على مقربة واتصلوا ببعضهم البعض اتصالاً حميماً قامت بينهم غيرة أحياناً وعداوات أحياناً أخرى؛ وتنقل في الحب. واكثر الرجال فيهم كانوا لوطيين.

ومع انهم تفرقوا أيام الحرب (١٩١٤-١٩١٨)، كما كانوا قد انتشروا بعض الشيء قبلها، فانهم عادوا الى انحاء في حيهم القديم. وبدل ان تكون «الحيوانات الخطرة» كما كانوا يلقبون احياناً، في دار واحدة، اصبحوا، كما وصفتهم فرجينيا وولف سنة ١٩٢٠ بقولها بان بلومزبري تشبه بيتاً للأسود في حديقة الحيوان. وفيه «ينتقل الواحد من قفص الى قفص. جميع الحيوانات خطرة؛ وكل منها يشكّ في الآخر، وجميعها تملأ جنباتها الخيلاء والأسرار». وفيما كان الاصدقاء يبدون انهم يتراشقون بالازهار فيما بينهم، ولو انهم كانوا أحياناً يخدش واحدهم الآخر أو يعضه، فقد كان كل هذا من الأمور الخاصة بهم. هي ليست للناس.

ومع ذلك فان الناس - القراء ومشاهدي المعارض الفنية ورواد المسارح - كانوا ينظرون الى هؤلاء الأصدقاء على انهم حيوان واحد، بل أسد واحد، ذو قوة كبيرة. وكان هناك آخرون يرون في الجماعة فئة متكبرة متعجرفة (فكرياً طبعاً) لكنها، فضلاً عن ذلك، خطرة، دون ان يدلّوا الى مواطن الخطر عند افرادها.

ولم أعن يومها، ولم أعن فيما بعد، بقراءة كل ما أنتجه هؤلاء الناس، ولكنني حاولت ان أفهم دورهم من بعض ما كتبوه وما كتب عنهم يومها (أي بين ١٩٣٥ و١٩٣٩)، فتوصلت الى أنهم استطاعوا ان يهدموا بعض ما كان العصر الفكتوري (١٨٣٧- ١٩٠١) قد أقامه من معايير خلقية ومقاييس أدبية للحياة. انهم هاجموا ذلك على أساس ان ما بُني قبلاً انما كان أساسه الادعاء والرياء والنفاق. لذلك كان لا بد من تبديله. ولا شك ان الحرب العالمية الأولى ساعدتهم على ذلك، اذ انها أظهرت للملأ ان ما كان الجميع يدعونه من استمرار السلم وان الحرب لن تقع انهار كله في وقت قصير.

صحيح ان العصر الفكتوري كانت فيه بذور شك قوية هي نتيجة التطور الاقتصادي والفكري الذي عرفته بريطانية خلال القرن التاسع عشر. لكن هذا الشك كان يتعلق بالكون ونظامه ومؤسساته. اما جماعة بلومزبري فقد نقلت بذور الشك هذه من الكون الأكبر الى الكون الأصغر الى الانسان وحياته ومقاييسه وتصرفاته. ومن هنا كان لهم هذا التأثير الكبير في جيل ما بين الحربين.

ووقف اهتمامي بجماعة بلومزبري عند هذا الحد، الا فيما يتعلق بكتاب «مشاهير الفكتوريين». فهذا كتاب يقع في صميم الحقل الذي أعنى به.

وكنت قد وصلت، في دراستي للتاريخ في الكلية الى مرحلة ما يصح ان يسمى تفسير التاريخ أو فلسفة التاريخ. ولا شك انه كان من حسن حظي ان مثل هذا الأمر لم يقع لي في أول اهتمامي بالتاريخ. فالمألوف في الجامعات ان الطلاب يعطون مثل هذه المساقات في مرحلة الدراسة الأولى في التاريخ. وكثيراً ما يقع التلميذ تحت تأثير واحدة من النظريات المختلفة، وعندها يصبح مقيداً - ولو الى درجة محدودة - بتلك النظرية. ويكون في المستقبل مؤرخاً مرتبطاً (ولا أقول ملتزماً إذ أن هذا أمر آخر)، وعندها يصبح عمله مقصوراً على البحث عن «الحقائق» و«المعلومات» التي تؤيد ارتباطه، كما ان ارتباطه قد يحول دونه والبحث في المجال الواسع الا عما يؤيد نظرته. وعلى كل يكون مؤرخاً ضيق الأفق. وقد كان «الزي» في الثلاثينات والاربعينات ان يتجه الشباب نحو

النظريات المرتبطة بالاشتراكية والشيوعية.

أنا صحيح اخذت هذا المساق في المجال ذاته الذي أخذه سواي من الطلاب. لكن أنا كنت قد مر عليّ قرابة عشر سنوات وأنا اقرأ في التاريخ - في التاريخ القديم خاصة - وابحث واستقصي دون تقيد برأي أو نظرية. كنت قد قرأت الكثيرعن تفسير التاريخ أو فلسفته. لكنني تمكنت من اخضاع حتى هذا للمقارنة والمقابلة. ومن ثم فقد كنت متحرراً أو متحللاً.

كنت قد وقعت على أمور متنوعة تتعلق بالتاريخ خلال قراءاتي الكثيرة والطويلة. وتساءلت يومها، كما اتساءل حتى يوم الناس هذا، عن أمور كثيرة. ما هي غاية التاريخ؟ ما هي طبيعة التاريخ؟ ما هي الفلسفة التي توضح لنا التاريخ؟ هل التاريخ علم أو أدب؟ ولعل السؤال الأهم - هل يمكن ان يكتب التاريخ كتابة صحيحة؟

مرت بي اسماء كثيرة اثناء هذه القراءة، ثم مرت بي اسماء أخرى وأنا طالب في جامعة لندن (قبل الحرب العالمية الثانية). واختلطت الاسماء وآراء أصحاب هذه الأسماء، لكنها لم تكن مشوّشة في اختلاطها. كانت تنتظم مع الوقت شأنها شأن الكثير من الأشياء عندما يتقبلها عقل عُوِّد على النظرة الدقيقة المنتظمة. قد تزدحم الآراء وتزدحم الاسئلة حولها، لكنها لم تشوشني ولم تتشوش في ذهني.

قيل ان غاية التاريخ هي البحث عن الحقيقة. ولكن أليس هناك من نظم فكرية أخرى تبحث عن الحقيقة؟ وكيف يبحث التاريخ عن الحقيقة؟ فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٢) طرح الفكرة لأول مرة. وجاء السؤال نفسه عند كثير من الكتاب والمفكرين. وكانت ثمة اجابات منوعة. ولسنا نريد ان نبحث فيها لكن نود ان نشير الى رأي ج.ب. بيوري (١٨٦١ - ١٩٢٧) الذي قال ان التاريخ علم وان وسائل الكشف عن الحقائق العلمية واساليبه صالحة للاستعمال في ميادين التاريخ. وقد سُفِّه رأي بيوري هذا. لكن أي رأي في عالم الفكر لم يسفّه؟ وما الذي يفعله خصوم الفكر ان لم ينفقوا بعض وقتهم في تسفيه الآخرين وآرائهم؟ ولعله من المفيد ان نشير هنا الى رأي خينو بول (١٨٤٧ - ١٩٢٠) الذي قال بان «العلم هو حقائق تُعاد»، لذلك فان اساليبه ومناهجه تختلف عن الاساليب التي يجب ان تستعمل في دراسة التاريخ الذي هو «درس لحقائق تتجدد».

وما هي طبيعة التاريخ - بحثاً واسلوباً ومعرفة وعبرة (ان صحت هذه)؟ بيكون - الذي أراد أن يقيم للفكر نظاماً أساسه البحث الجاد الدقيق عن حقائق الكون كبيرها وصغيرها - كان يرى ان التاريخ هو عملية تطورية مستمرة. وجاء هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) بمقولة هي ان التاريخ هو مسيرة تقدمية تطورية. فهو دفع بما قاله بيكون خطوة الى الأمام اذ جعل التقدم جزءاً من حركة التاريخ. وتساءل آخرون عن طبيعة التاريخ من حيث علاقته بالانسان والمجتمع - هل تاريخ لواحد من الاثنين؟ وإذا كان الأمر كذلك فايهما يأتي أولاً؟ أو قبلاً؟ ومع ان مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) قال بان التاريخ هو دراسة لتطور الاثنين - أي الانسان في المجتمع - فان قوله لم يعتبر الرأي الفاصل. ولعله من الطبيعي ان نقول هنا انه لا يمكن الوصول الى «رأي قاطع أو فاصل» في أي من القضايا التي هي من هذا النوع.

كان من الطبيعي، بحكم البيئة التي قضيت فيها طفولتي وصباي الأول، وهي بيئة محافظة تترك لله كل شيء في حياة الانسان، حتى أدق التفاصيل؛ ولا تنفك تقول «ان شاء الله» لكل شيء - هذه البيئة، وما مر بي من قراءة مبكرة للكتب السماوية، جعلتني أفهم معنى التفسير الديني السماوي لسير التاريخ. أصبح الله موجودة في كل شيء. يد الله هي التي تسيرنا. ونحن - أفراداً وجماعات - نخضع في كل شيء لارادة الله التي لا حد لها. قيام الدول تمت بنعمة الله - حتى ان الملوك كانوا - في ممالك الأديان السماوية - يحكمون بنعمة الله. ويغضب الله على شعب فيعاقبه بالهلاك أو بتسليط خصم قوي عليه.

لكنني، بعد ان توغلت في قراءة فصول من التاريخ متنوعة، وبعد ان جربت ان افهم الارتباط بين سير

التاريخ وحركته وبين العوامل التي تعين السير أو تعيقه أو تضغط عليه، أدركت ان هناك مبالغة في أن نعزو كل شيء لله. ولكنني اعترف ان الانفلات من هذه النظرية، أو هذا التفسير، لم يكن يسيراً. واضيف ولم يكن تاماً بادىء الأمر. ان الذي أذكره هو انني سمحت لنفسي أن «أركن» هذا الرأي في زاوية كي أخرجه عند الحاجة. (وأحسب انه لا يزال مركوناً في تلك الزاوية، بسبب ضغط النظريات الأخرى والآراء المتتالية).

ووقعت، كما وقع غيري، على كتاب «الأبطال وعبادة البطولة» لتوماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) وقرأته أولاً مترجماً الى العربية. ثم قرأته بالانكليزية. وكان تأثير الكتاب عليّ كبيراً. ذلك بانه وضع باسلوب شائق انيق (وكانت ترجمته جيدة نسبياً) وصيغ بمنطق صاحبه الدقيق، وكتب بحماس المؤمن. كارليل كان يرى أن حركة التاريخ، أي تطور البشرية، هو من عمل الافراد الافذاذ الذين نسميهم ابطالاً. وهم كذلك لا من حيث القوة البدنية الشخصية، ولكن من حيث عمق النظرة ودقة الادراك والمقدرة الفائقة على التخطيط والتنظيم والقيادة. وقد تغنى كارليل بالابطال على اختلاف نماذجهم وطبائعهم، واظهر كيف قاد البطل القوم في معركة الحضارة منذ ان كان الهاً وثنياً يطل عليهم من عل، متدرجاً معه عبر اصناف البطولة وتطلعاتها وانجازاتها. ولست أشك في أن تحدث كارليل عن النبي (ص) من حيث انه بطل غيّر شؤون جماعته كان له اثر خاص في تقبلي للبعض من آرائه.

لكن لا بد ان يذكر الواحد منا ان البشرية ليست مجموعة من الثكنات يقودها ضابط كبير ويوجهها كما يشاء. ويبدو هذا واضحاً عندما يرى أحدنا في البطل اعمالاً هي، في نهاية المطاف، ترمي الى نفعه، وقد تؤذي الجماعة. وقد اتضح لي، بشكل خاص، عقم رأي كارليل، رغم ما فيه من جاذبية، لما انصرفت لدراسة يوليوس قيصر وأيامه كجزء من تخصصي في التاريخ الكلاسيكي في جامعة لندن (على يد ماكس كاري). وكذلك لما توفرت على الاسكندر وخلفائه على يد ولتر أوتو (في جامعة ميونخ). كان لكل دوره؛ وكان لكل أثره؛ وقد يختلف الدور والأثر بين بطل وبطل. لكن المهم ان البشر لا يُحركهم افراد مهما كان لهؤلاء من طبيعة البطولة الملهمة.

كان اول كتاب قرأته عن التاريخ القديم هو كتاب «الأزمنة القديمة» تأليف جيمز برستد الذي نشره حول منقلب القرن الحالي. قرأته بالانكليزية (وذلك قبل ان ينقله داود قربان الى اللغة العربية في ترجمته البارعة بسنوات عديدة). برستد كان قد قبل التفسير التطوري للتاريخ وهو الرأي الذي قال به كل من فرنسيس بيكون وهردر من قبل (وكان ثمة غيرهما). الا ان هذا التفسير للتاريخ تقوى وتأصل بعد ان نشر تشارلس داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) كتابه أصل الانواع في سنة ١٨٥٩ الذي أوضح فيه ان البشرية باجمعها هي تطور حيوي طويل الأمد. ومعنى هذا، بالنسبة للمؤرخين، أو لبعضهم على الأقل، ان تقدم الحضارة وتطورها يسير في خط واحد، بحيث تضيف كل جماعة وكل فترة حصتها الى ما تمّ على أيدي من سبق.

وكان كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٦٦) وفردريك إنغلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) قد نظرا الى التطور العالمي نظرة مادية وفسرا التاريخ كذلك. ومع ان النظرية المادية لتفسير التاريخ سبقت اراء داروين التطورية، فان هذه انتشرت مع تقدم العلم، لكن تلك كانت بحاجة الى ثورة تشرين الأول / اكتوبر ١٩١٧ (في روسيا) كي تجد من ينشرها بالقوة في الداخل ويعمل على نشرها في الخارج. وقد كانت هذه الافكار هي «الزي الفكري التاريخي» الذي كان يدل اعتناقه على التقدم عند الفرد في فترة ما بين الحربين. اما قبول أي نظرية أخرى كان دليلاً على تأخر معتنقها في ميدان الفكر الحر.

هذه بعض الآراء والنظريات والتفسيرات التي مررت بها ومرت بي ولكنني لم اقع تحت تأثير أي منها نهائياً. ولعل حاستي النقدية التي كانت تتطور يومها، قالت ان البشر وهم ما هم عليه وقد تطورت مجتمعاتهم على صور متباينة وفي أصقاع متباعدة وعلى أزمنة متفاوتة لا يمكن ان يحكم تقدمهم عامل واحد، كائناً ما كان

ذلك العامل.

وعلى كل حملت هذه معي، كما حملت معي معرفتي، الى انكلترا سنة ١٩٣٥، وفي نيتي ان أرى ما الذي يمكنني ان افعله بهذا الذي أعرف. هل ينفعني اساساً لما قد اتعلمه هناك؟ هل قد اضطر الى رميه باجمعه وابدأ من جديد؟ أم هل أتمكن من تقويم ما أعوج منه وتخليص عقلي من المادة التي سيتبين خطأها؟

وفي الفترة التي قضيتها في انكلترا (١٩٣٥-١٩٣٩) كان ثمة بريق يدور حول مؤرخ لفت اليه النظر اذ تقدم بما سماه «دراسة التاريخ»؛ هو ارنولد توينبي (١٨٨٩-١٩٧٣). توينبي اختار اهم واكبر الحضارات التي عرفها العالم. ومن درسه الدقيق لهذه الحضارات السبع والعشرين، خرج بما سماه نظرية التحدي والاستجابة. نشر توينبي المجلدات الثلاثة الأولى من كتابه الكبير سنة ١٩٣٤، وهذه تعرفت اليها بشيء من الدقة وأنا في لندن. وفي سنة ١٩٣٩ نشر المجلدات الثلاثة التالية وهذه حملتها معي (مع القسم الأقدم) الى فلسطين لما عدت في تلك السنة، ونعمت بقراءتها فيما تلا وصولي. اما ما تبقى - وهو الأجزاء الأربعة الأخيرة - فلم ينشر الا سنة ١٩٥٤.

نظرية توينبي كان فيها ألق كبير. فهي نتيجة دراسة جامعة مفصلة للحضارات باجمعها (كما تصورها المؤلف) وهي نتيجة تحليل دقيق - على ما رآه هو - لهذه الحضارات. وتتلخص نظرية الرجل في ان الانسان الأول تحدته عوامل الطبيعة، فاستجاب لها وتغلب عليها في أرض الرافدين ووادي النيل، فشق الأرض وزرعها وخلق حضارة. والحضارة، أي حضارة، تصل الى دور من أدوار الضعف؛ وعندها تُتحدى، فاما نجحت، ولو في شكل جديد، في الاستجابة لهذا التحدّي وتغلبت عليه، قامت بدور جديد وقد يختلف عن الدور السابق. اما اذا لم تستطع الاستجابة للتحدي فانها قد تموت حالاً أو قد تتحجر تمهيداً لموت عنصر الحياة فيها. (وكان مما كتبه توينبي فيما بعد كتاب جامع للتاريخ ترجمته انا باسم تاريخ البشرية ونشر في بيروت سنة ١٩٨١، وأعيد طبعه).

ليست هذه جميع النظريات أو الآراء أو الفلسفات التي تفتق عنها العقل البشري لتفسير التاريخ لا من حيث انه تدوين، بل من حيث انه تكوين.

ولكنني لا أنوي السير في هذه القضية لأبدي رأيي في تفسير التاريخ الآن. أنا الآن أدون ما مر بي يومها، اما الذي توصلت اليه من حيث الرأي والاسلوب والخطة والانتشار فامور لها موعدها في صفحات اخرى في المستقبل.

اكتشفت، وانا بعد اتتلمذ على نفسي في عكا، اهمية ثلاثة انواع من المعرفة بالنسبة لاي دارس التاريخ. الأول المعرفة الجغرافية والثاني المعرفة الاركيولوجية والثالث الاطلاع على الادب - بكل أنواعه من الاسطورة والقصة الى الشعر والخطب.

والمهم انني عرفت اهمية الجغرافية والاثار (الاركيولوجيا) عملياً لا نظرياً. لم أصرخ كما كان يصرخ معلمو التاريخ ان هذا يحتاج الى معرفة جغرافية، فيما كان أكثرهم لا يستطيع قراءة خارطة في اطلس (وانا أعرف عشرات ممن علموا التاريخ على مستوى المدرسة الابتدائية والثانوية ثم على مستوى الكلية والجامعة وهم لا يستعملون الاطلس ما فيه الكفاية).

لا. كنت أدرس الاطلس ورقة ورقة، وكنت أفلي الخرط في كتب التاريخ «تفلية» دقيقة. وأهم من ذلك كنت أزور الاماكن في فلسطين (وانا في عكا ثم لما درّست في القدس ١٩٣٩-١٩٤٧). وكنت أزور الاماكن التي تم فيها حفر اثري أو التي كان يقوم فيها يومها حفر، واتعرف الى ما فيها، واقرأ التقارير المختصرة عن أعمال الحفر. ولامثل على ذلك. لما أردت ان أدرس معركة مجدو (١٤٧٤ ق.م.) درساً عملياً، قرات ما كتب عنها، ثم

ذهبت الى المكان، وكانت بعثة المعهد الشرقي في شيكاغو تقوم باعمال التنقيب هناك، فقضيت يومين في الجوار وزرت المكان، واعارني الدكتور ستابلز تقرياً مقتضباً عن أعمالهم، وعندها سرت من مجدو الى السهل الساحلي الفلسطيني لاتأكد من الطريق الذي سار فيه تحوتميس الثالث وجنوده لما هاجموا القلعة الحصينة. (عندها نشرت مقالاً عن المعركة في المقتطف سنة ١٩٣٠).

والذي أود أن أكرره هنا هو انني، اثناء اقامتي في اوروبة، تعلمت تاريخاً وتدربت على البحث واقتبست اراء جديدة واترعت ثقافة متنوعة. ولعلي، بسبب تقدمي في السن بالنسبة للطلاب، كنت أقدر على الافادة من الجهد والوقت والمكان والناس.

أحسب انني شعرت لما كتبت أول مقالين لي (معركة مجدو واسطورة الخليقة البابلية) اللذين نشرا في المقتطف سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١، شعرت أنني سرت على طريق البحث العلمي. وأدركت، بين سنتي ١٩٣٥ و١٩٣٩، انه كان يلزمني الكثير من التدريب والدربة. وقد حصلت عليهما، لذلك عدت «مؤرخاً» على الطريق حقاً.

فرغنا من الامتحانات النهائية لجامعة لندن (كلية لندن / الجامعية) للحصول على درجة بكلوريوس في التاريخ (من درجة الشرف). ولم أنتظر ظهور النتائج. وذلك لسببين الأول انني كنت مطمئناً الى النجاح والثاني أنني، كما يقول التعبير العامي «برغتت» أي اشتقت الى العودة بعد غياب اربع سنوات الا شهرين ونصف الشهر. وحجزت على الباخرة ستراثنافار (Strathnavar) وهي من بواخر خط شبه الجزيرة والشرق البحري (Peninsular and Orient Line) الذي كان ينقل الركاب من بريطانية الى افريقية والشرق باجزائه الثلاثة (الأدنى والأوسط والأقصى) واستراليا. والبواخر التي كانت تذهب الى هذه المناطق كانت تمر بقناة السويس. وكان من الطبيعي ان انتقل انا ذهاباً واياباً على واحدة من هذه البواخر.

ففلسطين كانت واقعة تحت الانتداب البريطاني. وكان معي على الباخرة هيفاء بولس وبدر الفاهوم، وكلاهما، مثلي، كانا قد حصلا على بعثة دراسية الى لندن. نحن الثلاثة حجز لنا في درجة السواح (يعني ثانية أو ما يشبه ذلك). اما سعيد الدجاني، الذي كان يدرس في جامعة كمبردج على حسابه الخاص، فقد حجز لنفسه مكاناً في الدرجة الأولى.

غادرت الباخرة لندن في طريقها الى بورسعيد. ولست أذكر الآن فيما اذا وقفت في جبل طارق، فقد وقفت فيه مرات كثيرة في اسفاري، بحيث نسيت هذه السفرة. ولكن الذي لا يمكن نسيانه هو انها وصلت مرسيليا مساء يوم ١٣ تموز / يوليو، وعرفنا، من جدول أوقاتها، انها ستبحر من مرسيليا عند الفجر من صباح يوم ١٥/٧/١٩٣٩. واذن فنحن سنقضي يوم ١٤ تموز / يوليو، يوم الباستيل، في مرسيليا، وسأرى احتفال الفرنسيين به مرة ثانية في مدى سنة واحدة.

أظن ان الذين سافروا بحراً من ابناء الجيل الحاضر هم قلة. فالطائرة لم تترك مجالاً للتنقل البحري الا للقلة. والسفر البحري، وقد جربته كثيراً، فيه متعة كبيرة. فهو مريح، ووقته يمكن للمسافر ان يقضيه بطرق متنوعة. فهناك القراءة - والبواخر جميعها فيها مكتبات لاعارة الكتب للمسافرين. وهناك الحفلات الموسيقية، والحفلات الاجتماعية الراقصة. وهناك الالعاب المتنوعة مما تجده على ظهر المركب.

انما يشترط في مسافر البحر ان لا يكون «نقاقاً» متذمراً لا يعجبه العجب. إذ عندها سيتضايق من لون البحر والسماء الصافي، وسيتضايق من الطيور التي تمر فوق السفينة، وسيتضايق من رؤيته سفينة أخرى في البحر.

ولعلّ سبب التذمر عند البعض ممن سافروا أو قد يسافرون بحراً، هو انهم يشعرون بالانقطاع عن العالم.

هذا صحيح. ولكنني كنت احسّ دوماً ان هذا الانقطاع هو من دواعي سروري واستمتاعي بسفر البحر.

على كل جربنا ان نستمتع، اقصد جرب الباقون ذلك اما أنا فلم تفتني متعة على السفينة. وكان بين المسافرين في الدرجة الأولى محمد زهدي بك الذي عرفت فيما بعد، ونحن بعد على ظهر الباخرة، انه المدير العام لجمارك الوجه البحري (الشمالي) في مصر.

دعانا سعيد يوما الى الدرجة الأولى، وعرفنا على زهدي بك. ويبدو ان الرجل الدمث النبيل أراد ان نكرر الزيارة، لذلك تعددت المرات التي ذهبت فيها الى الدرجة الأولى، حتى احسست كأن صداقة قد توطدت بيننا.

وحدث ان اقيمت حفلة في الدرجة الأولى كان حضورها يقتضي لبس ثياب السهرة، وقال سعيد لو كان لديكم ثياب سهرة دعوناكم (يعني هو وزهدي بك). وعندها اخبرته انني أملك ثياب سهرة من النوعين المألوفين في بريطانية. ولم يتراجع سعيد، وحضرت الحفلة، وان كنت قد قضيت قسماً كبيراً منها أتحدث الى زهدي بك، باعتبار انه هو الداعي فعلاً، كما شعرت ساعتها وكما عرفت فيما بعد.

وألقت الباخرة مراسيها في مرسيليا. وهيأنا انفسنا لندور في شوارعها متفرجين على كيفية احتفال مدينة كبيرة بالعيد الوطني. فالذي شاهدته في بيزانسون في السنة السابقة كان احتفالاً رسمياً أولاً إذ قام به الجيش. وكان المقصود ان يستعرض الجيش عضلاته في مكان قريب من المانية. ثم كانت هناك حفلات مدينة متوسطة الحجم.

اما مرسيليا فهي ميناء كبير، وقد كان في الميناء عدد من السفن، والميناء، بطبيعة الحال فيه الكثيرون من الاجانب.

وصخبت المدينة. مع تقدم المساء نحو الليل لم يبق مقهى فيه مكان لشخص واحد يمكن ان يدخله خاصة اذا كان يبغي كرسياً؛ لم تبق ساحة لم تنتصب فيها حلقات الرقص. اما الموسيقى فكانت تصل الراقصين اما من فرقة صغيرة تتوسط الحلقة، أو من فرقة أكبر تعزف في مقهى، أو من أبواق الاذاعة. وحتى عندما تنعدم الموسيقى يقوم الراقصون انفسهم بالغناء والتصويت. ولم يكن الراقصات والراقصون الذين يتجمعون في حلقة من الحلقات بالضرورة قد جاءوا معاً، أو ان البعض منهم يعرف البعض الآخر؛ لا كانوا يلتقون، يلتئمون صفوفاً أو دوائر، يغنون ويرقصون، ثم تنتقل الفئة الواحدة غرباً، وتذهب الأخرى شرقاً، فيما يصل الى الساحة فئات من الشمال والجنوب تنضم الى الموجودين، ويبدأ الاحتفال من جديد. وهذا كان يحدث في كل ساحة. فقد تنقلت أنا، لما تعب الآخرون وجلسوا في مقهى، بين عدد لا يستهان به من الساحات.

ومثل هذا يقال عن أرصفة الشوارع. هذه كان التجمع فيها للغناء والموسيقى. فان الارصفة - على اتساعها - لا تصلح لحلقات الرقص.

والبارات وحوانيت بيع الشراب والساندويتش - وهو في فرنسة خبز كثير فيه جبن أو لحم قليل - مفتوحة وتعمل بكل نشاط.

لما عدت الى أصحابي وجلست معهم، نسترجع انفاسنا، قال لي بدر انظر توجد لائحة عليها أسعار المشروبات على أصنافها، لكن الوسكي غير مسعّر. وسألته فيما اذا كان الوسكي موجوداً في المقهى، فكان جوابه انه موجود، ولكنه مرتفع السعر جداً. هذا هو السبب. المشروبات الفرنسية يجب ان تسعر، اما الوسكي فيباع تحت الطاولة، كما يقول الانكليز. وكل ما يباع تحت الطاولة يرتفع سعره، بقدر ما ينخفض مكانه تحت الطاولة.

ومرسيليا التي صخبت ليلاً استقبالاً للرابع عشر من تموز / يوليو، يوم العيد الوطني، تلقت اليوم نفسه هادئة، محترمة الذكرى الكبيرة.

كان هناك عرض عسكري ضخم. لا أدري فيما اذا كان الخوف من الحرب (العالمية الثانية) أو توقعها كان السبب في ضخامة العرض، أو أن الجوار الفرنسي الالماني كان مسؤولاً عن ذلك. وقد ذكرني العرض الذي شهدته يومها في مرسيليا، بذلك العرض التي وقفت أراقبه ساعات طويلة في برلين في اليوم الأول من نيسان / ابريل ١٩٣٦. وهذه مشكلة العالم التي بدأت قبل الاف السنين ولا تزال مستقرة في نفوس الشعوب أو حكام الشعوب. وها أنا أكتب هذه الكلمات في حزيران / يونيو ١٩٨٩، واتطلع الى خارطة للعالم معلقة على الجدار وأحاول التعرف فيها على الأماكن التي لا تقوم فيها معارك في هذه الساعة. وبعد قليل قد اتنصت الى نشرة اخبار مفصلة من احدى الاذاعات المحلية فيكون اول ما يعطى سقطت القنابل على شاطيء جبيل وكسروان، وبالمناسبة على المتن وبعبدا؛ وتقول الاذاعة التالية ان القنابل سقطت على عين المريسة والحمام العسكري.

مسكينة هذه القنابل التي تسقط، كأن ليس ثمة من يطلقها.

نعود الى مرسيليا. وبعد الظهر بدا شيء خاص، أو هكذا قيل لي، وهو ان مرسيليا تحتفل بالأعياد الوطنية والمحلية، وهذا طبعاً أهمها وأكبرها، بالخروج جماعات صغيرة الى الضواحي فتقضي بعض الوقت في الغابات أو المقاهي الداخلية أو تلك التي تقع على الشواطيء.

ومع ان حلقات الرقص عادت الى بعض الساحات في المساء، فقد كانت أقل صخباً منها في المساء السابق. وتسكعنا الى ساعة متأخرة من الليل. وعدنا الى الباخرة ونحن جائعون. كنا نأمل ان نجد مكاناً للأكل على مقربة من الميناء. لكن كل ما كان جاهزاً ليؤمن لنا شيئاً كان البارات التي لم يكن فيها حتى الترمس!

وكان المألوف في الباخرة أن توضع كميات كبيرة من الساندويتش في المساء (حوالي الساعة الحادية عشرة). ولكن الصواني كانت فارغة عند الساعة الثانية (وزيادة) صباحاً.

اقترحت على سعيد ان نذهب الى الدرجة الأولى فقد نجد هناك شيئاً. الدرجة الأولى كان فيها المشرف على الصالة، ولم يتأخر عن دفع صحن كبير من الساندويتش الينا (مقابل كم قرش، علم الله من دفعها منا)، على أن لا نأكلها هناك، فنحن لسنا ركاب الدرجة الأولى. لكن صالتنا كانت مفتوحة ومنورة ونزل سعيد معنا الى «درجتنا» حيث استمتع بساندويتش مطعمه.

وأقلعت الباخرة مع الفجر. ووقفت في بورسعيد، حيث نزلنا برعاية محمد زهدي بك. رأينا حقائبنا وهي تخرج من السفينة، ثم طلب منا ان ننساها ونذهب الى تناول الغداء صحبة زهدي بك. وفي الواقع رأيناها لما وصلنا محطة القطار في بورسعيد، ثم لما بدلنا القطار في القنطرة. كل ذلك تم لنا بالواسطة لأن محمد زهدي بك أوصى بذلك من منزله في الاسكندرية (وكان قد غادر بورسعيد بالطائرة بعد ظهر اليوم نفسه) الى مدير محطة القنطرة.،

وفي غزة، وقد وصلناها حول الساعة السادسة صباحاً، كنا قد أحسسنا بالجوع. لا بل أحسست أنا بالجوع الشديد بالرغم من الغداء الكبير والعشاء المعتدل في اليوم السابق. ولم أجد في محطة غزة سوى ساندويتش فلافل (طعمية) ومعها بندورة. أنا أكلت وسررت. هيفاء اعتذرت. لكن لا أذكر ان سعيد وبدر امتنعا عن الأكل.

كانت هذه أول لقمة أكلتها في فلسطين بعد غياب أربع سنوات إلا القليل. وقد كانت لذيذة جداً مع الجوع الشديد.

في اللد افترقنا ولو موقتاً. سعيد ذهب الى يافا، وبدر وهيفاء استمرا في القطار الى حيفا، وأنا نزلت في اللد حيث كانت اختي ماري واخواي الفرد وجورج بانتظاري مع سيارة كبيرة لأضع فيها ١٢ قطعة عفش. ومنها الى القدس.

القسم الرابع

ثماني سنوات في القدس

الفصل السابع عشر

فلسطين التي عدت اليها في تموز / يوليو ١٩٣٩، كانت تختلف عن تلك التي غادرتها قبل أربع سنوات. لم يكن الاختلاف هو انني سأعيش في القدس الآن بدل عكا. هذا أمر كاد ان يكون، يومها، ثانوياً. لكن الفرق كان في الحراسة الشديدة على المؤسسات الحكومية، والاسلاك الشائكة التي كانت تحيط ببعض المناطق، خاصة تلك التي يسكنها البريطانيون، موظفين كانوا أم غير ذلك. وشعرت بهذا لما أدركت انني لن أتمكن من زيارة عكا، مثلا، الا باذن؛ والأذن نفسه كان يجب ان يكون له مبرر.

وسمعت القصص عن الطريقة التي عومل بها أهل القرى، وبعض أحياء المدن، بسبب ادخال مبدأ العقوبة المشتركة. يكفي ان يقوم رجل من قرية ما باتلاف اسلاك الهاتف مثلاً حتى تفرض غرامة أو عقوبة - اصلا اكبر بكثير من الجرم - على جميع سكان القرية. وقد يحجز عدد من الرجال، فضلاً عن فرض الغرامة المالية للتعويض عن التلف الحاصل. اما اذا قُتل احد أفراد الجيش أو الشرطة، فالعقاب، على اختلاف انواعه، أشد وأقسى. وقد سمعت أن الجنود كانوا يدخلون بيوت القرية مثلاً، فيفرغون المونة - من القمح والبرغل والعدس والحمص - على الأرض ويخلطون كل ذلك بحيث لا يمكن استعماله فيما بعد. وقد رأيت فيما بعد صوراً لهذا في كتاب خمسون سنة في فلسطين للآنسة فرنسيس نيوتن.

ان الخوف على فلسطين الذي خامرني وانا بعيد في لندن، اذ كنت اتصور البلاد تُقْضَم لقمة لقمة، تجسَّم أمامي بكل ما يحويه من أثم وشر. كانت الهجرة غير الشرعية معروفة الى درجة ما من قبل، لكنها اصبحت الآن أوسع نطاقا واكبر شراً على البلاد.

وفي ١٧ ايار/ مايو ١٩٣٩ نشرت الحكومة البريطانية «الكتاب الأبيض» عن قضية فلسطين. وأهم أحكامه هي: (١) ترمي الحكومة البريطانية الى تشكيل حكومة فلسطين خلال عشر سنوات. ومن ثم فهناك تفاصيل تتعلق بوضع دستور للبلاد بحيث تصبح دولة فلسطينية، فلا تتحول الى دولة عربية أو يهودية. (٢) في الكتاب الأبيض تحديد للهجرة بحيث يسمح لمدة خمس سنوات بهجرة ٧٥,٠٠٠ مهاجر (١٥,٠٠٠ سنوياً) ثم لا يسمح بالهجرة إلا إذا قبل بها العرب. (٣) حددت مناطق في فلسطين فيما يتعلق ببيع الأراضي. فكان هناك منطقة لا يجوز البيع فيها لغير العرب، ومنطقة تباع فيها الأراضي بشروط ومنطقة ثالثة تنتقل فيها الأراضي بيعاً بحرية.

ولكن هذا الكتاب بدأ لونه يبهت ومحتوياته تختفي من الدوائر الرسمية في لندن وفي القدس. انه لم يُلغَ رسمياً، ولكن سمح له ان ينسى فيموت.

كان الفلسطينيون قد انهكتهم الثورة، وجاءت الحرب (اعلنت بريطانية الحرب على المانية في ٣ أيلول / سبتمبر ١٩٣٩) الآن لتضيق عليهم الخناق. على سبيل المثال موسم البرتقال الذي قدر يومها بنحو اثني عشر مليون صندوق، والذي كانت له سوق في اوروبة يمكن ان تستهلك اكثره ظل في البلد، وأهم من ذلك انه ظل في البيارات (بساتين الاثمار الحمضية) اذ لم يكن ما يجمع من بيع الثمار يكفي لنفقات قطفها بله نقلها. والبرتقال أذا

وقع على الارض وظل هناك يؤذيها لأنه يطعمّها بكمية من الحموضة اكثر بكثير مما تحتاج اليه. انني اذكر انه في مواسم البرتقال كنا نمر بالبيارة في طريقنا من يافا الى القدس، فكان حراس البيارات يرجون الركاب ان يحملوا معهم ما يشاءون من البرتقال والحامض مجاناً. فقد كان الغرض ازالة الضرر عن الارض.

وعلى سبيل المقارنة كانت الهستدروت الصهيونية وغيرها من المؤسسات قد انشأت من قبل صناعة العصير والمربيات والمرملاد. ولذلك تقدم الجيش البريطاني في الشرق - في مصر وفلسطين والاردن - الى شراء منتوجات اليهود من هذه الاشياء. فكان ان خسر العرب وربح اليهود. كانت الخسارة كبيرة وكان الربح كبيراً كذلك.

كان عليّ، بعد وصولي الى القدس، ان أجمع الخيوط التي كانت تربط حياتي وحياة أخوتي من جديد. وكانت ثمة خيوط جديدة لا بد من لمها وضمها الى ما كان من قبل. كانت هذه الخيوط تشمل السكن وترتيب بيت من جديد؛ وكان يدخل فيها العمل الذي سأتولاه؛ وكان هناك الاصدقاء الذين كانوا يعملون في القدس؛ وكان من الضروري ان ازور الناصرة وعكا، ففي الاولى اقاربي وعلى راسهم جدي لامي الذي كان قارب المئة من سنه واصدقائي وفي الثانية اصدقاء خلطتهم بنفسي خلال عشر سنوات قضيتها فيها.

كان اخوتي (ماري والفرد وجورج) قد قرروا السكن في بيت جالا بدل القدس أثناء غيابي في لندن لان البيوت ارخص والنفقات عموماً أقل. الفرد كان يعمل في مصلحة البوليس والسجون، وجورج وجد عملاً كتابياً في ادارة المعارف العامة. وكان مرتبهما يكفي لعيش معقول. والانتقال من بيت جالا الى القدس كان امراً متيسراً. لكن لما بدأ الاضراب في أيار / مايو ١٩٣٦ اضطربت الامور معهما. فقد كان عليهما، كموظفين، ان يذهبا الى المكاتب؛ ولم يكن ثمة سيارات، لكنهما تدبرا الامر فقد مشيا اياماً كثيرة ذهاباً واياباً، وكانا - او احدهما على الأقل - يقضيان ليلة او ليلتين في الاسبوع في القدس، اما في فندق ماجستيك، او عند اصدقاء. فنحن ليس لنا في القدس أقارب. أقرباؤنا في القدس جاءونا عن طريق الزواج فمرغريت زوجي وملي (زوج اخي الفرد) مقدستيان.

الا انه لما اقترب موعد عودتي من بلاد الانكليز انتقل اخوتي الى القدس. استأجروا - مؤقتاً - بيتا في المصرارة، وهو الحي الذي يقع خارج باب العامود تقريباً، وكان من اوائل المناطق التي عمرها المقادسة لما بدأوا ينتشرون خارج أسوار المدينة في اعقاب الحرب العالمية الاولى.

ولما وصلت انا اتفقنا على وجوب استئجار بيت أنسب، وقد عثرنا على طلبتنا عند المرحوم يوسف نزال، في المصرارة ايضاً، وعلى مقربة من كنيسة القديس بولس وهي كنيسة الطائفة الانجيلية الاسقفية العربية في المدينة.

كان البيت في الطابق الثاني (اميركيا) والاول (اوروبياً) وكان موقعه جيداً، وله بلكون يشرف على جبل الزيتون الواقع شرقي المدينة المقدسة. وقد قضينا في هذا البيت سنوات طويلة. فلم اتركه انا الا لما تزوجت (١٩٤٤) وتركته اختي الى يافا لما تزوجت (١٩٤٧) وظل الفرد بعد زواجه (١٩٤٧) فيه مع جورج. لكن اقامتهم لم تطل بعد ذلك. فقد اضطروا الى ترك المدينة، مع بقية من اضطر الى الهجرة في سنة ١٩٤٨.

ولم يكن من الصعب علينا ان نضيف بعض الأثاث الجديد فكان كل ما عندنا مريحاً. على أنني أود أن أذكر قراء هذه الصفحات الى ان اشياء كثيرة هي الآن من الأمور العادية والمريحة لم نكن نعرفها يومها. لم يكن البراد قد وصل الى فلسطين (أول برادات وصلت، واظن انها كانت على الغاز أو الكاز، البلاد في سنة ١٩٤٥-١٩٤٦). لكن كان عندنا فرن يولع على الكاز. (وصلت الأفران الكهربائية في الوقت ذاته الذي عرفنا فيه البراد). ولم يكن عندنا، ولا عند غيرنا، غسالة كهربائية. لكن كان عندنا - كما كان عند أكثر الناس - راديو. والراديو كان يومها

يعمل على الكهرباء مباشرة ـ لم يكن الترانزستور قد اخترع بعد. ولعلّ التلفون كان أهم الآلات التي كانت عندنا في البيت.

لما عدت من بلاد الانكليز، وكنت قد اعتدت على استعمال التلفون، اسرعت بتقديم طلب للحصول على خط تلفوني؛ ألا ان اعلان الحرب في أيلول / سبتمبر ١٩٣٩ قضى على أملي، كما قال لي الصديق اسحق فانوس، أحد كبار موظفي دائرة البريد (والبرق والهاتف) لكن حظي كان جيداً. كانت هذه الادارة قد طلبت عدداً من الآت التلفون، ووصلت هذه بعيد اعلان الحرب، لانها كانت في الطريق. لذلك نلت خطاً، وكان رقمه ٣٥٧٢.

أما العمل فامره معروف. فقد زرت ادارة المعارف بعد وصولي ببضعة أيام، واخبرت المفتش الاداري المسؤول عن عودتي سالماً وناجحاً ايضاً. وقال لي أنني سأعلم في المدرسة الرشيدية (في القدس). ثم اخبرني انه سينبئ المستر جيروم فارل ـ مدير المعارف ـ انني عدت. وكان ان ابلغه ذلك فاستدعاني هذا الى مكتبه وسألني عن اساتذتي في كلية الجامعة بلندن. وتحدثنا حديثاً طويلاً، لكن ليس حول العمل.

المدرسة الرشيدية في القدس يعود انشاؤها الى أيام السلطان محمد (الخامس) رشاد، خليفة عبدالحميد (الثاني)، وقد كان اسمها المدرسة الرشادية. لكن بعيد الاحتلال غيّر اسمها فاصبح الرشيدية (نسبة الى هرون الرشيد). كان المبنى مرتباً منظماً ذا غرف واسعة. ومعرفتنا به تعود الى ايام كنت تلميذاً في دار المعلمين (١٩٢١ ـ ١٩٢٤). فقد كانت دار المعلمين تحتل ابنية مستأجرة. ولم يكن عندنا مختبر لا للفيزياء ولا للكيمياء. فكنا نذهب الى الرشيدية لاجراء الاختبارات. وما كان اقلها عدداً ونفعاً. فاستاذنا في هذين الموضوعين كان يومها طبيباً بيطرياً. (وقد قال لي يوماً انه لم يمسّ كتاباً في الفيزياء منذ سبع عشرة سنة، ومع ذلك فكان يعرف المادة، طبعاً التي كانت قديمة العهد).

وكان امامي وقت طويل قبل ان ابدأ العمل الذي كان موعده الخامس عشر من أيلول / سبتمبر. لكن أحد الاصدقاء القدامى من أيام عكا ـ احمد خليفة الذي كان يومها مساعداً المفتش معارف لواء الجليل، كان قد رقي الى منصب مفتش معارف لواء القدس ـ هذا الصديق ارتأى ان أعيَّنَ في ادارة المعارف المركزية حالا كي افيد من بضعة جنيهات لن تضر احداً. وسعى هو لذلك، فاذا بي أعمل في الادارة المركزية في غرفة واحدة مع السيد علاء الدين حلاوة. لست ادري ما هو المنصب الذي شغلته، ولكن المهم انني عملت وقبضت عن نحو سبعة اسابيع؛ ولم يكن في ذلك أي ضير، واحسب انني اشتغلت بالمبلغ الذي قبضته، بما في ذلك ترجمة رسالة وضعها المدير باللغة الانكليزية وطلب مني ترجمتها الى العربية. وكانت موجهة الى المدرسين لمناسبة اعلان الحرب وفيها تذكير لهم بواجباتهم!

ولما وصلنا الى اليوم الخامس عشر من أيلول / ذهبت الى المدرسة الرشيدية التي كانت امام باب الزاهرة (الساهرة). وهناك تعرفت الى المدير الاستاذ حسن عرفات والى الزملاء. وكنت اعرف منهم اثنين هما عبدالحافظ كمال، الذي كان قد حصل على البكالوريوس في الأدب العربي ودبلوم في التربية من جامعة لندن، وقد عاد قبلي بسنة أو اثنتين. اما الثاني فهو جميل سعيد الذي كانت تربطني به رابطة صداقة قديمة تعود الى قبل ذهابي الى لندن. ومع الوقت تعرفت الى باقين الزملاء.

وكان من حسن حظي ان وجدت مجموعة من الاصدقاء والاصحاب يعملون في القدس. فمن الاوائل عبدالحميد ياسين، صديق العمر من ايام دار المعلمين الى ان توفي سنة ١٩٧٥؛ وجميل سعيد الذي قد تزوج جوليا سلامة اثناء وجودي في انكلترا. وهو وجوليا كانا صديقين يعزان عليّ وعلى اختي ماري؛ ومنهم فرح رفيدي الذي كان طالباً للعلم في لندن ايام كنت هناك، وقد نشأت بيننا صداقة متينة (ولا تزال)؛ وثمة أديب

عتقي، صديق عكا العزيز، الذي كان قد انتقل الى القدس وانا غائب في انكلترا، حيث كان يعمل في التجارة (ثياب رجالية بدون بدلات). وكان بين الاصدقاء اسحق فانوس الذي نشأت الصداقة بيننا أيام كان هو أميناً عاماً للنادي الارثوذكسي في يافا، في الثلاثينات من القرن. وكان عيسى عطالله وزوجته ميليا (مطر) في بيت جالا.

وكان بين الاصحاب جلال زريق وموسى عبدالله ابو عيد (من بيت جالا) وعدد كبير ممن كانوا معي في دار المعلمين، فظلت لي بهم صلة وثيقة، ولعل في مقدمتهم رفعت الشهابي وطاهر الخطيب وعبدالمجيد الاشهب وفخري جوهرية.

وفي القدس اتيح المجال لتكوين صداقات متينة لعلّ اخبار بعضها ستحتل المكان اللائق بها في هذه المذكرات.

وقبل ان انتقل من ادارة المعارف الى المدرسة الرشيدية حصلت على اذن من الادارة، وآخر من رجال الأمن للذهاب الى الناصرة وعكا لمدة ثلاثة أيام.

وصلت الناصرة مساءاً وقضيت الليلة مع يوسف خليل (جدعون) واسرته. ويوسف خليل كان زميلاً لي في عكا وكانت زوجته روجينا من اعز صديقات أختي. فكانت ليلة ممتعة. في اليوم التالي ذهبت لزيارة جدي.

كنت عرفت انه قد غرِّر به وخسر املاكه في عملية غُشّ بها، لكن كان لا يزال لديه ما يكفيه من العيش المستور مع زوجه (الثانية). كان جدي قد اصيب بالماء الاسود في عينيه، ولذلك عجز عن التنقل، فتعقدت ركبتاه واصبح شبه مقعد.

لما وصلت بيته المتواضع الذي كان يسكنه كانت زوجه خارج البيت. فدخلت وناديت (على طريقة أهل الناصرة) سيدي. فجلس في سريره، ومد رجليه، وكاد ان يقف عليهما اذ سمع صوتي وقال «نقولا حبيبي». وبعد ان احتضنني وبكى وشهق قال : »الآن اطلق عبدك يا سيد، لان عيني قد أبصرتا خلاصك نوراً الاستعلان الامم». واضاف من عنده الآن استطيع ان اموت بعد ان رأيتك (هو لم يرني ولكنه لمسني!). ولان التنقل كان عسيراً، فانني لم أره بعد ذلك الا لما بلغني خبر وفاته وذهبت، مع ماري، لحضور القداس (الجناز) عن نفسه ١٩٤٣! وكان قد بلغ المئة والثلاث من السنين.

وهكذا امسكت، كما يقال، بطرف هذه الخيوط. وانا لما عدت الى فلسطين في سنة ١٩٣٩ كنت رجل فكر على نحو ما ذكرت. لذلك فانا لن اكتفي بان أعلم التاريخ والجغرافية كما يعلم غيري الانكليزية والرياضيات والفيزياء والكيمياء. عملي التعليمي سيكون جزءاً من عملي في بلدي. والشيء الوحيد الذي كنت قد قررت ان لا اعمل فيه كان مجال السياسة. والمجالات الأخرى كثيرة ومتنوعة ومجال خدمة ابناء بلادي كثيرة ومتعددة. كان أحد هذه المجالات القاء المحاضرات. كنت معروفاً كمحاضر حتى لما كنت في عكا. وكنت قد دربت نفسي على ان لا اكتب الخطاب الذي انوي القاءه (ألا اذا كان في مناسبة علمية). ودربت نفسي حتى على الاستغناء عن ورقة اضع عليها رؤوس الاقلام. كان كل شيء يتم في ذهني. لذلك لما كنت اقف خطيباً (وانا لا ازال حتى اليوم اخطب واقفاً) كنت اتطلع الى الحضور، وكان هذا يربطني بهم فكريا وعاطفياً.

كان في فلسطين عدد من الاندية الطائفية التسمية، وكانت جميعها تعنى بالقاء المحاضرات. في هذه الاندية الارثوذكسية في حيفا ويافا والقدس وجمعيات الشبان المسلمين في القدس وحيفا ويافا والجمعية المسيحية للشبان (في القدس). القيت، خلال السنوات الثمان التي قضيتها في فلسطين عشرات المحاضرات. وكان هناك المجلس الثقافي البريطاني الذي كان يدعوني ويدعو غيري الى القاء محاضرات في مراكزه - في غزة والخليل ونابلس والناصرة. وقد لبيت طلب اولياء امره تقريباً كل مرة كنت أدعى فيها لذلك. والى جانب هذه وتلك كانت هناك اندية أدبية وطنية بمعنى انها لم تتسم بالصفة الطائفية. كان في الناصرة وفي يافا وفي القدس اندية من هذا النوع، وهذه كان لي فيها نصيب. وفي احيان كثيرة كنا نتفق فيما بيننا (بضعة اصدقاء) فنضع نحن

برنامجاً لمحاضرات متصلة من حيث موضوعها ونعرضها على الجمعية المسيحية للشبان في القدس، وكان أحد أنشط الموظفين فيها شفيق منصور من الناصرة. من ذلك اننا اتفقنا ثلاثة منا على ان نلقي سلسلة من المحاضرات : القومية العربية اصولها ومنحاها (نقولا زياده) والقومية العربية في القرن العشرين أي الى أيام الحرب العالمية الثانية (سعدي بسيسو) والوحدة العربية (يوسف هيكل). القيت المحاضرات في الجمعية المسيحية للشبان في القدس، فكان لها صدى، لذلك دعانا النادي الارثوذكسي في يافا لالقائها، ففعلنا. ثم دعانا النادي الارثوذكسي في حيفا للقيام بالعمل ذاته ففعلنا. وكانت نتيجة ذلك ان كتبت انا هذا الذي ارتجلته ثلاث مرات في كتاب اسمه القومية والعروبة، نشر في القدس ١٩٤٥، وطبع في مطبعة اللواء التي كانت تطبع فيها جريدة اللواء لصاحبها اسحق عبدالسلام الحسيني.

ومع انه ذكر ان الناشر هو مكتبة الطاهر اخوان بيافا، فالواقع ان هذه المكتبة كانت موزعة فقط. اما الذي دفع النفقات فهو المرحوم اخي الفرد!). وقد نشرت دار العلم للملايين طبعة ثانية منه باسم العروبة في ميزان القومية منذ ١٩٥٠. ووضع يوسف هيكل كتابه نحو الوحدة العربية (ونشرته دار المعارف بمصر ١٩٤٦). اما سعدي بسيسو فقد تريث وكتب شيئاً مطولاً حول الموضوع.

ووضعت بالاتفاق مع زملاء واصدقاء برنامجاً لسلسلة محاضرات القيت في دار المعلمات بالقدس اشترك فيها نقولا زياده واحمد سعيدان وقدري طوقان واسحق موسى الحسيني. وكان هذا بحد ذاته انجازاً كبيراً وهو ان تلقى محاضرات عامة في دار المعلمات وان يكون المتحدثون من خارج نطاق الكلية نفسها.

واراد فريق منا ان يكون عملنا منتظماً. لذلك انشأنا في سنة ١٩٤٥ لجنة الثقافة العربية وكان اعضاؤها فئة قليلة هم : عبدالحميد ياسين ويوسف هيكل واسحق موسى الحسيني وقدري طوقان وعبد الرحمن بشناق ونقولا زيادة وكان امينها العام اسحق موسى الحسيني. لم يكن القصد احتكار أي شيء، ولو ان الكثيرين تحاملوا علينا. اردنا في الواقع ان يكون للثقافة العربية هيئة رسمية تعنى بها وكان لنا برامج واسعة وطموحات أوسع. لكن الذي فعلناه كان أمرين فقط الأول تنظيم سلسلة من المحاضرات القيناها نحن او ضيوف دعوا من مصر منهم الدكتور احمد زكي الذي عرف فيما بعد كمؤسس ورئيس لتحرير العربي. أما الأمر الآخر فهو اقامة أول معرض للكتاب العربي في فلسطين. كان ذلك في سنة ١٩٤٦ وقد اقيم في النادي الارثوذكسي في البقعة الفوقا. العمل اشتركنا فيه جميعنا، ولكن عبدالحميد ياسين بذل فيه من الوقت والجهد كثيراً، وكثيراً جداً. وقد طبعنا دليلاً للكتب التي طبعت في فلسطين والتي وضعها فلسطينيون ولو انها طبعت في الخارج (مثل فلسطين وتجديد حياتها) الى تلك السنة. كتب مقدمة الدليل اسحق موسى الحسيني بوصفه الأمين العام. وفي وقت لاحق، بعد سنوات، أعيد طبع الدليل في بيروت (أظن على يد اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين) واشير الى ان اللجنة هي التي أقامت هذا المعرض لكن بالاشتراك مع النادي العربي واضيفت اسماء جميع من مت بصلة الى ناد عربي اينما كان.

وكان لي حصة في اعداد أحاديث لاذاعة فلسطين في موضوعات متنوعة من مراجعات للكتب او من قضايا ثقافية. هذا الى سلسلتين خصصتهما بتاريخ فلسطين. وانشئت محطة اذاعة الشرق الادنى (١٩٤٢)، واقيمت المحطة في جنين، وولي شؤون الاحاديث الادبية فيها اسحق موسى الحسيني لفترة قصيرة، وطلب مني ان اعد حديثا كان عن «المخبأ من اسرار اوروبا» لاحمد فارس الشدياق (وقد تحدثت فيما بعد اما للاذاعة نفسها او لغيرها عن كتابه الآخر الواسطة في اخبار مالطة). وبعد مدة نقلت المحطة الى يافا، واصبحت في عداد المحدثين الدائمين فيها. فقد ظللت مدة أذيع حديثاً منها مرة كل اسبوعين، وبعض هذه الاحاديث هي التي كانت نواة كتاب لي هو صور من التاريخ العربي (نشرته دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٦، واعيد طبعه في بيروت باسم لمحات من التاريخ العربي ١٩٦٣).

كنت أذهب من القدس الي يافا مرة كل اسبوعين لاذاعة الحديث. يومها لم يكن تسجيل الاحاديث مسبقاً قد انتشر. وكنت اقضي ليلة في يافا ضيف الاذاعة، وفي اليوم التالي (يوم جمعة) كنت التقي محمد العدناني لشرب اركيلة معه في قهوة المدفع، ثم اتغدى، في الغالب، عند خليل القدادي احد زملائي في دار المعلمين وواحد من الاصدقاء الخلص، وذلك قبل عودتي الى القدس.

في أحدى الامسيات وكنت قد فرغت من اذاعة الحديث (في يافا) التفت الي محمد الغصين، وكان المسؤول عن الاحاديث يومها وقال انه بحاجة الى من يكتب له احاديث عن الكتب الحديثة. فعرضت خدماتي حلا للمشكلة. لكن لم يكن من المناسب ان اعطى أنا حديثاً اسبوعياً. فاقترحت عليه ان اكتب انا الحديث باسم «صديق الكتاب»، ويذيعه احد المذيعين فلا يعرف لا اسمي ولا صوتي. قبل ذلك وظللت مدة طويلة افعل ذلك. وقد انتقلت اذاعة الشرق الادنى فيما بعد الى القدس، وكان لي معها العلاقة نفسها. والتقيتها في بيروت بعد سنة ١٩٤٩، ولكن هذا حديث يخص فترة أخرى.

مع ان القسم الاكبر من الاحاديث التي اعددتها في هذه الفترة كانت تدور حول فصول من التاريخ، والتاريخ العربي خاصة، فقد كانت لها نكهة أدبية، كنت انا استمتع بها كتابة، وكان غيري يستمتع بها سماعاً وقراءة.

ولنعد الآن الى عملي الأصلي والأساسي. في السنة الاولى (١٩٣٩-١٩٤٠) علمت في المدرسة الرشيدية، التي كان الصف الرابع (النهائي) فيها هو نهاية الدراسة الثانوية بفلسطين، وكان خريجوه يتقدمون لامتحان المترك الفلسطيني. وقد كانت المدرسة الرشيدية حتى يومها هي المدرسة الوحيدة، من المدارس الرسمية التي تنتهي بالصف الرابع (وتبعتها بعد مدة قصيرة المدرسة العامرية بيافا). هذا مع العلم انه كانت هناك مدارس كثيرة، وطنية واجنبية، فيها دراسة ثانوية كاملة.

و لكن اعتباراً من السنة الدراسية التالية ١٩٤٠-١٩٤١ (وحتى السنة الدراسية ١٩٤٦-١٩٤٧) اصبح عملي في المعهدين المدرسة الرشيدية والكلية العربية.

والكلية العربية هي التي كانت من قبل دار المعلمين حيث تعلمت انا (١٩٢١-١٩٢٤) وكان مديرها يومئذ (الدكتور فيما بعد) خليل طوطح. ولما استقال هذا من ادارتها عهد بالادارة وكالة الى احمد سامح الخالدي، ثم ثُبّت في المركز وفي سنة ١٩٢٧ اصبح اسمها، على ما مر بنا، الكلية العربية. وكانت تقيم في بنايات مستأجرة على مقربة من باب الزاهرة (الساهرة). وقد انتقلت الى مبانيها الجديدة ١٩٣٤-١٩٣٥ على جبل المكبِّر (على مقربة من دار الحكومة أي مقر المندوب السامي لفلسطين).

لما التحقت بها مدرِّساً (ولو اننا كنا كلنا نعتبر اساتذة) كانت قد اصبحت تشمل، بعد الصف الرابع (النهائي)، سنتين يهيأ الطلاب خلالهما لشيئين: الاول مهني ويشمل دروساً في التربية وعلم النفس والتدريب التعليمي (في المدرسة العمرية)، والثاني علمي بمعنى ان الطلاب كانوا يعدون للتقدم لامتحان الشهادة المتوسطة الفلسطينية، وهي مرحلة على طريق البكالوريوس.

كانت الكلية العربية مما يطمح الطالب في مدرسة حكومية في الوصول اليها. وكان من حظ أول تلميذين في المدارس الحكومية في مراكز الاقضية (القائمقاميات) ان يدخلا الكلية العربية. فاذا جاءا من مدرسة تنتهي بالصف السابع الابتدائي (السنة السابعة) قبلا في الصف الاول (السنة الاولى) الثانوي، اما اذا جاء هذان من مدرسة فيها صفان ثانويان أي سنتان ثانويتان (مثل مدرسة عكا التي علمت فيها من ١٩٢٥ الى ١٩٣٥) أُدخِلا الصف الثالث (السنة الثالثة) الثانوي. ولان الكلية العربية بالذات كان التعليم يبدأ فيها بالصف الثانوي الثالث (السنة الثالثة)، كان المقبولون لصفوف أدنى يتعلمون في المدرسة الرشيدية، ولكنهم كانوا يقيمون في الكلية.

وكان النظام المتبع في المعهدين الحكوميين (الرشيدية والكلية العربية) ان الطلاب ينقسمون، بدءا من الصف

الثالث (السنة الثالثة) الى فرعين : أدبي وعلمي. وكان هذا يستمر الى ما بعد نهاية الدراسة الثانوية في الكلية العربية. فكان فيها فرع علمي وفرع أدبي. وميزة الفرع الادبي الاولى انه كانت تعلم فيه اللغة اللاتينية، اما عدا ذلك فاحسب انه كان يتفق مع المناهج الادبية الاخرى لمثل هذا المستوى، الا ان المواد كانت أقل عدداً من برامج مماثلة في المشرق العربي.

ولما اضيف الى المدرسة الرشيدية قسم بعد الثانوي اقتصر فيها على ان يكون علمياً فقط.

وقد تقرر فيما بعد ان لا يقتصر قبول الطلاب في القسم بعد الثانوي على خريجي الكلية العربية والرشيدية، بل ان يتاح المجال امام الطلبة النجباء من المدارس الخاصة او الاجنبية ان ينضموا الى الكلية العربية. وقد كان من اول الطلاب الذين قبلوا ميشيل مزاوي الذي جاءنا من مدرسة تراسانتا.

شمل عملي، أول الأمر، تدريس التاريخ القديم وتاريخ العرب وتاريخ أوروبة في العصور الوسطى وساعات معينة في الجغرافية (في الكلية العربية). وقد اعفيت من تدريس هذه المادة لما جاء نقولا قطان لتدريسها. فاصبحت ادور في فلك التاريخ. وسنة ١٩٤٣-١٩٤٤ الدراسية اضيفت الي مادة التاريخ الكلاسيكي للصفين الخامس والسادس (السنتين الخامسة والسادسة) للفرع الادبي في الكلية العربية، وقد كان يعني بها قبلي جورج حوراني الذي عين مدرساً في الكلية خريف ١٩٣٩ (وظل فيها الى سنة ١٩٤٨).

مجال العمل واسع؛ والمعرفة موجودة، وصاحبها على أتم الاستعداد لتنميتها؛ والنشاط متوفر، وصاحبه مستعد لتنظيمه؛ والحماس قوي، وصاحبه يمكنه ان يزيده عند الحاجة. وأهم من هذا كله، في نظري يومها وفي نظري اليوم، انني كنت ادرك ما الذي يجب ان يتعلمه هؤلاء الطلاب. لا من حيث ان التاريخ مادة للتعلم ولكن من حيث انه روح وفكر حيان. هذا اولاً. وثانياً كنت احس، نتيجة تجربتي من قبل في فلسطين، و تكويني في السنوات الأربع التي قضيتها في ديار الغرب، ان هؤلاء الشباب الذين سأتعامل معهم يجب ان اوصل لهم آراء وافكاراً جمعتها وهضمتها ونسّقتها مسبقاً كي يفيد منها الناس، لا كي تقلقلهم وتزعجهم وتقتلهم. والمهم الآن هو ايصالها لهم. وهذا الايصال لا يجوز ان يكون على حساب مواد الدراسة، على نحو ما كان يفعل احد زملائي في عكا. كان المفروض ان يعلم هذا الزميل الطلاب اللغة الانكليزية، لكنه لم يفعل من هذا الا القليل من ذلك. فقد كان يتحدث الى الطلاب عن شؤون السياسة. لذلك لم يتعلم التلاميذ من اللغة الانكليزية الا القليل جداً (وهذا بشهادة أخي الذي كان يومها أحد اولئك التلاميذ).

هذا العمل كان خيطاً مهما كان علي ان امسك به، وكان علي ان اضبطه. من حيث محتواه. فما هو هذا المحتوى؟

كان يترتب عليّ ان اعرف هؤلاء الشباب (والشابات طبعاً عندما يتاح لي) بنفوسهم وبكيانهم القومي، هذا الكيان الذي كنت أرى له بعدين : البعد العمودي. والبعد الأفقي؛ الأول ينظر فيه الى الجذور والزمن، والثاني منظوره المكان والجوار، بقطع النظر عن امتداد هذا الجوار. واذا كنا سنتولى البحث عن هذين البعدين فلا بد لنا من ان نهتدي الى نتاج التفاعل بينهما وهو، فيما أرى، الثقافة. ولست اذكر متى بدأت أرى في الثقافة شيئاً اكثر من مجرد المعرفة، لكن السنوات الأربع التي قضيتها في الغرب وضعتني على طريق ادركت منه ان الثقافة شيء يجمع الى المعرفة العلمية (في أي فرع من فروعها) تذوق الفن، على تنوع اصنافه من أضخم الابنية الى اصغر الايقونات، والاستمتاع بالأدب والموسيقى، والتلذذ بالفولكلور والمسرح. وأذن فمن المناسب ان يعرف هؤلاءالشباب عناصر ثقافتهم النابعة من جذورهم وزمنهم ومكانهم وجوارهم.

ومن حسن الحظ ان تدريس التاريخ بحد ذاته كان سبيلاً طبيعياً لتفهم مثل هذه القضايا مفردة ومجملة. تدريسي للتاريخ القديم كان يتيح لي توضيح قضية الجذور والزمن : من أين جئنا، نحن ابناء القرن العشرين

وسكان هذه الرقعة الواسعة. وانتشار هذه الاقوام التي توالت على بلادنا يوضح الصورة التاريخية. والتعرف على البلاد والجيران ينبهنا الى الصلات والروابط بينهم وبيننا.

أردت ان يتعلم الطلاب التاريخ وآذانهم الى ما في باطن الارض، وعيونهم ترنو الى سطح الارض. كنت ادربهم على ذلك بالرحلات التي كنت ارافقهم فيها مشياً على الاقدام في جهات القدس منحدرين الى دير مارسابا جنوباً في شرق وعين فاره شمالاً في شرق؛ مصعدين نحو جبل الزيتون شرقاً ورام الله وما اليها شمالاً؛ ومجدين السير نحو بيت لحم جنوباً وعين كارم غرباً. وكنا احياناً نركب الباص فنصل الى اريحا والبحر الميت ونهر الاردن او نابلس او يافا او الخليل. وكنت، خاصة لما كنت استاذاً مقيماً في الكلية العربية، اطلب من الطلاب الآتين من اماكن بعيدة نسبياً ان يحدثوا اخوانهم عنها وان يتبادلوا معهم الحديث، لان هذا النوع من الحديث يقرب الشباب واحدهم من الآخر.

وكان من اليسير ربط التاريخ القديم بتاريخ العرب لتوضيح الصلة الاصيلة بين اولئك الذين انشأوا الحضارة في أرض الرافدين والذين نموّها في بلاد الشام والذين عمروا مدنها في جنوب الجزيرة العربية وشمالها، والذين نظموا الشعر اساطير وقصصاً وحكماً وملاحم في جبال بلاد الشام وسهول الرافدين وبطاح مكة ونجد وما اليهما؛ هذه الصلة هي وحدة الاصل عند هذه المجموعة البشرية الكبيرة ومن ثم فان العمل التاريخي الحضاري، وان تعددت مظاهره لغات ولهجات وافكاراً وصوراً، فهو في جوهره واحد. ويتضح هذا عندما نكتبه بحروفنا، فنجد مدى الترابط العضوي لغوياً ومن ثم فكرياً.

انا نشأت، على نحو ما تحدثت عن ذلك قبلاً، على فتات افكار كانت تسمى قومية عربية. هذه جمعتها من افواه معلمي في دار المعلمين (١٩٢١ - ١٩٢٤) أولاً، ولما بدأت عملي في الحياة، وانا بعد لم يطر شارباي، كانت المحاولة العملية الاولى، في بناء شيء اسمه دولة عربية، قد فشلت، واحسب ان شعور الاحباط الذي ملأ نفوسنا كان قوياً بحيث انه هدّ منا الحيل.

واظن ان القارئ أدرك انني اشير الى مغامرة، نبيلة في اساسها واهدافها، قام بها الحسين بن علي، شريف مكة، سنة ١٩١٦ معتمداً على وعود الحلفاء. لكن هؤلاء نكثوا بوعودهم فلم تقم مملكة العرب المستقلة، وحتى الدولة العربية في (جزء من) بلاد الشام لم يتح لها الاستمرار وكان الشيء الوحيد الذي ظل عربياً وكان مرتبطاً بالمغامرة هو عرش العراق. (اما امارة نجد ثم سلطنتها فيما بعد، فهذه كانت قائمة ولم يكن لها علاقة في الاصل بوعود الحلفاء).

ولم يكن امامنا - وانا اتحدث عن نفسي وعن اولئك الذين كانوا في مثل وضعي - من يرشدنا سواء السبيل، او حتى يدلنا على طريق نسير فيه نحو هدف. وقد كان عزاؤنا الوحيد قراءة القصائد الوطنية والقومية، لشعراء تلك الفترة مثل معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وخيرالدين الزركلي وجميل مردم بك وسواهم وهذه على ما فيها من علو الهمة ورفع المعنويات، لم تعطنا مادة للفكر او اسلوباً للعمل.

والحياة السياسية التي عاصرتها في بلدي بين سنتي ١٩٢٤ و١٩٣٥ (المدة التي كنت فيها شاباً وقبل ان اذهب الى انكلترا) كانت فارغة من المحتوى. كان تصريح بلفور هو دستور السياسة البريطانية في فلسطين. والعاملون في السياسة عندنا كانوا اكثر اهتماماً بالنيل من خصومهم ومنافسيهم من اهل البلد منهم بدرس قضية فلسطين وبرمجة العمل لها. «نحن وطنيون والفريق الآخر خائن» هذا كان يقوله الجميع. ومع ان المنافسة/ الخصومة كانت تتمحور حول المجلسيين (أي جماعة الحاج محمد امين الحسيني) والمعارضين (أي جماعة راغب بك النشاشيبي) فقد اهتم عدد من الزعماء في انشاء احزاب سياسية (مر خبرها قبلا)، لكن هذه

الاحزاب لم تكن تختلف عن الفئتين المذكورتين الا في ان كلا منها كان بيده «علم وخبر» من الحكومة تسجيلاً له في دوائرها.

قرأت اموراً عن القومية في كتب اجنبية، على نحو ما ذكرت قبلاً. لكن اقامتي في ديار الغرب أربع سنوات، اتاحت لي فرصة القيام بامرين مهمين: الأول انني عايشت، على درجات متفاوتة حقاً (ولكن كان ذلك كافيا لشاب ناضج مثلي) القومية البريطانية والالمانية والفرنسية. عايشتها بتصرفها الهادئ في الاولى، والصاخب الى حد انه بدا عدائياً في الثانية، وذي الصوت المرتفع في الثالثة. ومن هذه المعايشة ادركت العناصر التي يمكن ان تكون اساساً للقومية؛ من حيث انها سلوك شخصي وجماعي.

اما الامر الثاني فهو انني قرأت كثيراً عن القومية: تاريخاً وتطوراً وكياناً وحكومة وامة. وقد عنيت حتى بالقراءة عن القوميات في الاتحاد السوفيتي. وكنت حريصاً، وانا اعايش من جهة ثم وانا اقرأ من جهة أخرى، على ان أمد بصري وبصيرتي، الى بلادي وجماعتي، وأن اتفحص، في اعماق شعوري، اين نقف نحن - العرب - من شؤون القومية.

فلما عدت الى فلسطين كان عندي شيء استطيع أن انقله الى الشباب حول القومية. وقد تبلور هذا، بعد ان تحدثت عنه للطلاب، وحاضرت فيه، بكتابي الذي اشرت اليه قبل قليل القومية والعروبة، (القدس، مطبعة اللواء، ١٩٤٥) وهو كتاب في ١٠٤ صفحات من القطع الصغير، لكنه يوضح دوري في توضيح معنى القومية لطلابي وغيرهم.

وأنا أسمح لنفسي ان انقل هنا القسم الاخير من الكتاب بدلا من الحديث عن تلك العقيدة التي حملتها والآراء التي بثثتها بين الطلاب (ص ٨٠ - ١٠٤).

هذه العوامل التي عرضنا لها (الوحدة الجغرافية ووحدة المصالح الاقتصادية وصفاء العنصر والدين) يمكن اعتبارها كلها او بعضها متفرقة او مجتمعة، مؤثرة في تكوين الشعور القومي. وقد يختلف أثرها باختلاف العصور التي تمر بالشعب الواحد. لكنها ليست على ما نرى، العامل الرئيسي. وهنا يبدو لنا ان نسأل انفسنا ما هو العامل الرئيسي في تكوين هذا الشعور العميق الذي يتجلى في تصرف الافراد الذين تتكون منهم الامة والذي يميزهم فيشعرون بكيانهم ووجودهم وحياتهم الخاصة أي يدركون انهم «أمة» وان لهم - «قومية».

نعتقد ان التاريخ واللغة هما العاملان الرئيسيان. ولم نغفل عن الدين ؟

التاريخ بكل ما فيه - بحوادثه ورجاله وابطاله، بانتصار الشعب وانكساره، بافراح القوم واتراحهم، بسراء الجماعة وضرائها، بالخير الذي نعمت به والشر الذي عمها. هذا التاريخ وما فيه من ذكريات وما يخلفه من تقاليد وما يملأه من مآثر البطولة أو الدفاع المشترك ضد العدو، وما يرويه من قصص وأساطير وما يثيره في نفوس الناس من عواطف - هذا التاريخ هو الذي يحيي نفوس أفراد الأمة ويبعث فيهم الروح القوي الوثاب ويدفعهم الى الأمام. أسماء أبطالهم ومواطن معاركهم وأماكن كفاحهم المشترك هي التي توثق بينهم وتجعلهم يشعرون هذا الشعور بالوحدة والالفة. يمرون بمدنهم وقراهم فتوحي لهم بذكرى السنين وتنبعث من كل جزء من بلادهم أصوات الماضي تذكرهم بما قاموا به وما استمتعوا به وما ألموا من أجله.

على أن حوادث التاريخ الوطني تتغربل، قصداً او بغير قصد، بحيث يعرف الناس مواطن القوة في ماضيهم وينسون مواطن الضعف. ومثال ذلك أن كل انكليزي يعرف ان انكلترا غلبت فرنسا في أيام لويس الرابع عشر ولكن التقليد القومي يحذف من التاريخ الانكليزي حقيقة أخرى وهي أن الملك شارل الثاني أقام عند ملك فرنسا أسيراً. ومع أن وليم الثالث (ملك انكلترا) حارب من اجل هولندا اكثر مما قاتل في سبيل انكلترا فان هذا الامر لا يقال للانكليز في مدارسهم ولا في الأحاديث العامة. لأن الاشارة الى شارل ووليم بهذا الشكل يضعف من

منزلتهما كبطلين من أبطال التاريخ الانكليزي القومي.

ما الذي يجعل السربيين أمة ويحملهم على المطالبة بالاعتراف بكيانهم؟ انها ذكرى ابطالهم مثل دوشان الذي يقدسه كل سربي، وانها ذكرى معركة كوسوفا (١٣٨٩) التي انكسروا فيها والتي صرفوا بعدها أربعة قرون وهم مستعبدون ولكنهم ظلوا يحاولون ان يزيلوا أثرها عنهم حتى أتيح لهم ذلك في مطلع القرن الحالي.

وما الذي جعل من الهولنديين أمة؟ انهم من حيث جنسهم ومن حيث دينهم بل ومن حيث لغتهم قريبون جداً من الالمان، ولكن هذا الجهاد الطويل الذي بذلوه في سبيل التخلص من النير الاسباني (في القرن السادس عشر) والذي اشترك فيه القوم جميعهم هو الذي يبعث في نفوسهم الحياة القومية والروح الوطنية فحمل العالم على الاعتراف بهم أنهم أهل للسيادة القومية في بلدهم. هذا الجهاد وما فيه من اختبارات وتضحيات وفشل ونجاح هو سر هذا الارتباط فيما بينهم.

التاريخ المليء بذكرى الماضي المجيد وهو مبعث الأمل وهو سر اللهيب الذي يشتعل من أثره كل فرد حماسة وطنية قومية فلا يتقاعس عن القيام بواجبه متى دعا الداعي.

واللغة هي العامل الرئيسي الآخر. اللغة التي يتكلمها الشعب ويقرأها أفراده ويكتب بها مفكروه وينظم بها شعراؤه هي سبيل نقل اثر التاريخ واختباراته الى القوم - صغيرهم وكبيرهم فتاهم وفتاتهم. فتصير هذه الاثار جزءاً من حياة القوم الفكرية والروحية وعاداتهم الوطنية والخلقية وتصبح قوة تنجدهم عند الدعوة وثروة تغنيهم عند الحاجة وحيوية تنبثق من قلوبهم ونفوسهم فتضمهم الى بعضهم وتربطهم معاً.

واللغة انما تحتل هذه المنزلة من النفوس وتلعب هذا الدور لا على أنها الفاظ فحسب ولكن على أنها آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير ووسائل تعبير ولون من الوان الشعور وفلسفة في الحياة. هذه اللغة هي جماع هذه كلها. وبقدر ما يتمكن الافراد من لغتهم تنمو فتمتلئ بعد فراغ وتشبع بعد جوع وتغنى بعد فقر.

وبعد فما هي الأمة؟ وما هي القومية؟ القومية في جوهرها وأصلها شعور. والأمة هي نتيجة هذا الشعور. هي نتيجة شعور الافراد واعتقادهم بوجودها. ولن يكون لهذا الشعور وجود إلا متى توفرت الصفات المشتركة التي تبدأ بسكناهم بقعة من بقاع الارض يستمتعون بخيرها على نظام مشترك، ويرافق ذلك فلسفة في الحياة عامة أساسها التاريخ والتقاليد والاختبارات والافكار واللغة والآداب المنتزعة من صميم حياتهم الماضية والحاضرة التي تحدد لهم أهدافهم المستقبلية وتقيم لهم خطتهم في الحياة.

هذه الامة هي التي أرادها مزيني بقوله انها وحدة صالحة لتكون أساساً للتقدم البشري لانها قادرة على خلق جزء من حضارة العالم: فان هذه الحضارة تتكون من مجموعة ما تنتجه الامم في ادوار التاريخ المختلفة.

والعرب أمة أنتجتها ثلاثة عوامل هي العنصر والرقعة والتاريخ. هل الرقعة ضرورية لوجود الأمة

سكن العرب، بادئ ذي بدء، الجزيرة العربية في حدودها المعروفة الواضحة. فملأوا جبالها وأوديتها وسهولها وصحاريها وتأثروا بطبيعتها. فتفرقوا تفرقها وتنابذوا تنابذها واختصموا خصومتها وكرموا بقدر ما بخلت عليهم. عمروها حيث استطاعوا الى ذلك سبيلاً. فكانت لهم في اليمن والحجاز مدن، وكانت لهم في نجد وغيرها قرى، واكتفوا بالاقامة المؤقتة حول الماء والكلأ في بقاع أخرى منها. وكانت لهم آدابهم وتقاليدهم وكانت لهم منازلهم ومراتعهم وكانت لهم مذاهبهم ولغتهم.

وفي الازمنة القديمة أخذت جماعات منهم تنتشر في الربوع المصاقبة للجزيرة. فكان منهم اللخميون في ديار العراق وكان منهم الانباط والغساسنة في مشارف الشام وكان منهم الحرانيون في حران وكان منهم أهل تدمر فيما بين العراق والشام. وفي هذه المدن المنتشرة آثارها والقائمة أنقاضها، داخل الجزيرة وخارجها، قامت دولهم وترعرعت مدنيتهم ونمت تجارتهم وزراعتهم وصناعتهم. أخذوا في هذه المدن وأعطوا فكانوا حلقة

اتصال بين الارومة الاصلية وبين العالم الخارجي وكانت لهم مع جيرانهم الاقوياء من أهل فارس وبزنطية أيام، قرعت فيها السيوف وتكسرت فيها النصال على النصال، وانخذلوا حينا وانتصروا أحياناً.

وهذا الانتشار للعرب في هذه الديار كان مستمراً ومتتابعاً. ولذلك نجد الناس فيها ينطقون بلسان عربي مبين ويتناشدون الشعر العربي البليغ قبل الاسلام بقرون.

فلما ظهر الاسلام بين العرب، وتأثروا بهديه، وخرجوا من الجزيرة ينشرونه للناس انضم عرب الحيرة النصارى الى عرب الجزيرة المسلمين وحارب الجميع جنبا الى جنب ضد الفرس. وحدث مثل هذا في مشارف الشام فاشترك الغساسنة مع اخوانهم ضد البزنطين. وحمل العرب على مناوئيهم فلم يمر قرن واحد من الزمن بعد وفاة النبي حتى كانت خيولهم قد وصلت نهر السند وأواسط آسيا شرقا، وجبال البرانيز غربا. وهذا الفتح العسكري رافقه انسياح العرب في البلاد المفتوحة فاستقروا فيها جماعات وقبائل. على أننا يجب ان نذكر بهذه المناسبة أمرين : الاول هو أن الجماعات العربية كانت أكثر عدداً واكبر نفراً في العراق وسورية ومصر منها في الاقطار الاخرى التي كانت أبعد عن الجزيرة نفسها . والثاني هو أن هذا الانسياح لم يقتصر على فترة الفتح التي يمكن ان يقال عنها انها انتهت في أول القرن الثاني للهجرة (القرن الثامن للميلاد)، بل استمرت هجرات الجماعات العربية شأنها في ذلك شأن الهجرات قبل الاسلام لكنها في هذه الفترة كانت أبعد مدى بحكم سيطرة العرب على بقاع أوسع. وبالاضافة الى هذا الرحيل المستمر فان الرواية التاريخية قد حفظت لنا آثار رحلات وهجرات جاءت بعد الفتح وكانت على شكل قوي ونطاق واسع. منها موجتان تستحقان الذكر، الاولى موجة في القرن الخامس للهجرة (القرن الحادي عشر للميلاد) اتجهت نحو بلاد المغرب وتظهر آثارها في «تغريبة بني هلال» وأخرى موجة في العصر الصلاحي لعلها استقرت في سوريا بشكل خاص.

فالهجرات هذه وما كان للعرب من سلطان سياسي يسر للعنصر العربي ان ينتشر ويتسع نطاق تأثيره. ولسنا نقول بانه قضى على كل عنصر كان هناك، ولكن الحقيقة الثابتة هي أنه تمثل جميع الشعوب الاخرى وطبعها بطابعه.

لكن السلطان السياسي العربي انحسر عن طرفي العالم الاسلامي آنئذ في الشرق والغرب. فايران وما الى الشرق منها وإسبانيا خرجت واستعادت حريتها السياسية. فاما الطرف الشرقي فاحتفظ من آثار الفتوح العربية بالاسلام واما الطرف الغربي فقد كان خروجه، فيما بعد، تاما. وظلت البلاد الوسطى وقد استقر فيها ثلاثة اشياء ثابتة الأثر : العنصر الذي غلب على سكانها، والاسلام الذي انتشر فيما بينهم، واللغة العربية التي هزمت اللغات الاخرى. والحدود التي انتهت اليها سيادة العرب العنصرية واللغوية هي جبال فارس شرقا وجبال أرمينيا وطوروس شمالاً وجبال أطلس غربا. ويخيل الينا أن السبب الرئيسي في وقوف انتشار اللغة العربية عند جبال فارس شرقاً هو طبيعة هذه الجبال فهي النهاية الغربية لنجد واسع - هو نجد إيران - والبداية الشرقية لسهل منخفض عنها - هو سهل العراق. فلم يكن من السهل ان ترحل جماعات كبيرة من سهل العراق الخصب الدافئ الى نجود إيران القاحلة الباردة. ففضل العرب الاستقرار في البلد الخصيب ونحن نعرف أن عدد العرب الذين كانوا يقطنون خراسان وغيرها في أيام الامويين مثلاً، وهي أزهى أيام العرب، كان ضئيلاً بحيث انهم لم يستطيعوا الوقوف امام حملة الفرس العنيفة ضدهم. اما جبال طوروس فقد وقفت من الاصل سداً في وجه العرب، فلم يتجاوزها كثيراً. ولعل العامل المناخي - برد الجبال القارس - حال دونهم والمثابرة على حربها مثل مثابرتهم على حرب البقاع الاخرى. فوقف فتحهم العسكري والعنصري واللغوي عندها. وحتى الفتح الديني - اي انتشار الاسلام - لم يتم في بلاد الاناضول على أيدي العرب وانما عمل على نشره الاتراك - السلاجقة منهم والعثمانيون.

والذي يمكننا ان نخلص اليه من هذا العرض الموجز هو أن العالم العربي الحالي، من جبال فارس الي جبال أطلس سكانه من الناحية العنصرية. عرب. عرب بمعنى أن العنصر العربي الاصلي استطاع، بوساطة الاختلاط والتزاوج والجوار، ان يتغلب على الشعوب التي كانت هناك ويعربها. فهم عرب على أساس الاصل والفرع. عرب ومعربون.

على أن هذا التغليب والتعريب لم يكن، كما قلنا في مفتتح هذا الفصل، نتيجة انتشار العنصر العربي فحسب، ولكن عاملين آخرين اشتركا في تكوينه هما الرقعة والتاريخ.

والرقعة التي يقطنها العرب اليوم يمكن ان تقسم الى قسمين رئيسين : الشرقي ويبدأ من جبال فارس وينتهي في صحراء مصر الغربية، والغربي ويبدأ من طرابلس وينتهي في مراكش. وصحراء ليبيا تكون، على هذا، الفاصل بين الجزء الشرقي والغربي.

ونحن إذا اخذنا الجزء الشرقي وجدنا التشابه بين اجزائه كبيراً جداً وحدوده الطبيعية واضحة كل الوضوح. فسهل العراق وسهول سورية وسهل وادي النيل ترجع الى عوامل طبيعية وادوار جيولوجية متقاربة في تكوينها. ونجد بلاد العرب ترتكز عليه بادية الشام وجبال سورية بقدر ما يعتمد عرب سورية على الجزيرة العربية في حياتهم القومية والروحية. وفي شمال هذا الجزء وشرقه نجد ان الحدود الطبيعية يرجع وجودها الى عوامل جيولوجية واحدة، فهي جبال طي او التواد حديثة العهد.

أما في الجزء الغربي فيتفق توزيع سلاسل الجبال في المنطقة الممتدة من تونس الى مراكش من حيث اتجاهها وحصرها الاودية بينها ونوع تربتها.

ونرى من هنا أن بلاد العالم العربي وحدة جغرافية واضحة الحدود. الجبال والبحر المتوسط والصحراء الكبرى الافريقية والبحر العربي وخليج فارس. بينة المعالم متفقة في مناخها، فهو إقليم البحر الابيض المتوسط باستثناء المناطق التي تميل الى التطرف في إحدى النواحي مثل صحراء العرب او مرتفعات لبنان وأطلس.

وهذه الرقعة لها ميزات اقتصادية هامة فهي غنية، وثروتها منوعة. ففيها من المعادن في جبال اطلس الحديد والنحاس وفيها البترول في دول الخليج وفيها الأملاح المنتشرة في البحر الميت وغيره. وغلاتها النباتية تشمل الحبوب الرئيسية والقطن والزيوت والفواكه وكل هذه على اختلاف أنواعها. وفيها مصادر للقوة المائية كبيرة. وهي فضلاً عن ذلك ذات أهمية خاصة من حيث أنها مركز رئيسي لطرق المواصلات العالمية البرية والبحرية والجوية. وهذه السكك الحديدية والطرق المعبدة تخترقها، خاصة في جزئها الشرقي، وقناة السويس تصل العالم الاوروبي بالعالم الشرقي وهي في قلبها. وهذه المطارات منتشرة في انحائها.

والذي ينقص هذه الرقعة العربية هو ان ينظم توزيع ثروتها بحيث تأخذ البلاد ما تحتاجه ثم يصدر الباقي مجموعة كاملة الى البلاد التي تستطيع ان تستورد منها ما يلزمنا من آلات وغيرها. وعندئذ تظهر الفائدة التي تجنى من عمل من هذا النوع،

ولننتقل الساعة الى بحث أثر التاريخ في خلق القومية العربية. وهذه البلاد التي يقطنها الشعب العربي لها تاريخ متغلغل في القدم. ففيها خطا الانسان الخطوات الاولى في سبيل المدنية، فا هتدى الى استعمال المعادن في صنع أدواته وآلاته، وفيها اخترع حروف الهجاء فكتب آراءه وأفكاره، وفيها بنى أول بيت وشاد أول معبد وأقام أول قصر، وفيها تفنن في نقوشه ورسومه ونحته لاول مرة، وفيها فتح أول مدرسة ونظم أول قصيدة وأنشأ أول كتاب، وفيها نظم أول حكومة. وهذه الدول التي قامت في وادي النيل وأرض الرافدين وفي سهول سورية ومرتفعاتها حاولت كل منها بدورها ان يكون لها سلطان على جاراتها فكان من جراء ذلك ان قامت الامبراطورية المصرية التي وصلت جيوشها الى الفرات وقامت بعدها إمبراطورية الحثيين التي امتد نفوذها الى أواسط

سورية وقامت إمبراطورية الاشوريين التي بلغت حدودها مصر ومثلها كانت دولة الكلدانيين. فلما دخلت فارس القديمة حلبة الفتوح امتد سلطانها من حوض السند شرقاً الى صعيد مصر غرباً. وفي كل حالة كان الفتح فتحاً عسكرياً سياسياً وكانت الدولة تعتمد في دوامه واستقراره على حامياتها وولاتها والجيوش المرتزقة التي كانت تقوم بعمل الشرطة دون ان يكون لها أثر في حياة الشعب الاجتماعية والروحية والفكرية.

ثم جاءت هذه البلاد قوتان من الخارج الاولى اليونان والثانية الرومان. أما الاولى فقد جاءت مع الاسكندر وقد شمل سلطان اليونان مصر وسورية والعراق، من البلاد التي يعنينا أمرها الان. وكان الاسكندر ومثله كبار رجاله وخلفاؤه يحملون الحضارة اليونانية الى بلدان الشرق، وكانوا يؤمنون بصلاحها للعالم أجمع. وقد رأوا، وفي مقدمتهم الاسكندر نفسه، أن خير سبيل لنشر مدنية اليونان هو بناء مدن تقيم فيها جماعات يونانية فتكون هذه بمثابة مراكز ينتشر منها نور العلم والعرفان بين سكان هذه البلاد. وتأثر سكان المدن الكبيرة من أهل البلاد الاصليين بالحضارة اليونانية وأقبلوا عليها فكان من ذلك ان انتشرت بينهم العادات اليونانية واللغة اليونانية وصارت هذه لغة الحكام والتجار والادباء والشعراء والعلماء ومن حاول ان يتقرب منهم على نحو ما كنت ترى في أنطاكية وسلوقية والاسكندرية وصيدا وغيرها. لكنك متى خرجت من المدينة وتجاوزت ضواحيها وأراضيها لقيت الناس يتكلمون بلغاتهم المحلية ولهجاتهم الخاصة. فالقروي خارج أنطاكية كان يرطن بالآرامية والزراع والراعي خارج صيدا كان يتكلم الفينيقية، ومن ثم أصبحت هذه المدن الهلينية (اليونانية) جزراً في بحر من حضارة البلاد الاصلية. والى هذا يرجع السبب في أننا لا نجد شعوراً قومياً في سورية أو العراق، او حتى في مصر، في العصر الهليني.

ولما جاء الرومان واحتلوا هذه البلاد جاؤها بلغة جديدة هي اللغة اللاتينية التي لم تلبث ان أصبحت لغة الحكم وأداته بينما ظلت اليونانية لغة الفكر وسبيله. ولم ينشأ في أيام الرومان ولا في أيام حلفائهم البزنطيين شعور قومي لا في مصر ولا في سورية ذلك أن وسيلة التفاهم بين جميع السكان لم تكن واحدة فظلت آراؤهم وعاداتهم وتقاليدهم وامانيهم متباينة.

وفي السنة ١٥ للهجرة (٦٣٦ للميلاد) انتصر العرب على البزنطيين في اليرموك وعلى الفرس الساسانيين في القادسية وبعد بضع سنوات كانت خيولهم قد وصلت هضبة إيران شرقاً وصحراء ليبيا غرباً.

امتدت الفتوح العربية الاسلامية قرنا وبعض القرن بعد وفاة النبي وكانت متعددة النواحي منوعة النتائج. فقد كانت فتحاً عسكرياً امتد الى الهند والصين شرقاً وبحر الظلمات غرباً. وكانت فتحاً عنصرياً بمعنى أن الجنس العربي تغلب على الاجناس الاخرى وتمثلها في بعض الاقطار دون الاخرى، وكلما قرب القطر من بلاد العرب نفسها كان استيطان العرب فيه اكثر وتأثره بالعنصر العربي اكبر. وكانت فتحاً لغوياً: فقد انتشرت اللغة العربية في الاقطار المفتوحة انتشاراً سريعاً. واذا كان ثمة من يجب ان يذكر بالخير في هذه المناسبة فالفضل يعود الى عبدالملك بن مروان والمأمون. فالأول عرب الادارة فجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية والثاني نقل العلوم الى العربية فعرب الحركة الفكرية والعقلية. على أنه يجب ان نذكر فتحا رابعاً تم في هذه الفترة هو الفتح الديني. فقد انتشر الاسلام في الاقطار المفتوحة لاسباب كثيرة لا يتسع المجال لبحثها الآن.

هذه الامور هي التي عينت اتجاه الامم والشعوب التي خضعت للعرب. فتلك التي خضعت لسلطان العرب السياسي وحده حاولت الثورة او الخروج فلما واتتها الظروف استردت حياتها الاولى. وبعض هذه الشعوب استقلت سياسيا لكنها احتفظت من الفتوح العربية بالفتح الديني، اذ كان الاسلام قد تغلغل فيها. أما البلاد التي اصبحت عربية دما ولغة وفكراً وعقلا فهي التي تحدها جبال فارس شرقاً وجبال طوروس شمالاً ثم تمتد غرباً فتشمل مصر وشمال افريقيا كله. وهذه الحدود اللغوية تتفق مع حدود طبيعية كان اجتيازها صعبا على عدد

كبير من العرب، فلم يقطنوا وراءها جماعات كبيرة، ولذلك اقتصر تأثيرهم فيها على الدين او السياسة.

ولسنا في هذه العجالة بمعرض درس التاريخ العربي القومي درساً مفصلاً أو حتى موجزاً، ولكن الذي يعنينا أمره هو ان نقف لحظات معدودة عند تاريخ هذه البلاد العربية محاولين ان نتبين الخطوط الرئيسية في تطورها القومي. احتل العرب هذه الاقطار واستقروا فيها وانتشر فيها الاسلام وأقبل الناس عليه فاعتنقوه فكان لهم منه هدى ديني وكان لهم منه قوة روحية، وكان لهم منه أن أثار فيهم ما كان قد كمن من نشاطهم فاصبحوا، تحت تأثيره، قوة عاملة نشيطة في تركيز أصول الحضارة اليونانية والفارسية والهندية التي وصلت اليهم، ثم كان لهم بعد ذلك حضارة عربية اسلامية. وترتب على انتشار الاسلام في العراق وسورية ومصر وشمال افريقيا ان انتشرت اللغة العربية، لغة القرآن الكريم والحديث الشريف بين اهل هذه البلاد. وكان انتشار اللغة العربية شاملا للسكان جميعهم في المدينة والقرية والريف فتكلم بها الشاعر واستعملها القصاص ونودي بها الى الصلاة وأقيمت بها شعائر العبادة ورتل بها القرآن. فوجدت سبيلها الى نفوس الناس وقلوبهم وعقولهم. حتى أن من بقي على دينه من أهل البلاد لم يجد بداً من ان يتكلم اللغة العربية ويقرأها ويكتب بها. ومع أن انتشارها لم يعم البلاد في وقت واحد فانها لم تلبث ان اصبحت لغة المجتمع بكامله في حكومته وادارته وقضائه ومدرسته وعلمه وأدبه.

وتاريخ هذه البلاد منذ ان احتلها العرب تاريخ ضخم فيه الخير والشر، وفيه الحسن والقبيح، وفيه الصحف البيض والصحف السود، شأن كل تاريخ لكل أمة بلغت من طول المدة وسعة الرقعة ما بلغه العرب وبلاد العرب.

وقد يكون هناك تاريخ للنصرانية على أنها دين وفلسفة وفكرة، وقد يكون هناك تاريخ الاسلام على أنه دين وفلسفة وفكرة، ولكن ليس ثمة تاريخ للنصارى وآخر للمسلمين في هذه البلاد. فما كانت الحوادث التي تقع في العراق او سورية او مصر تفرق بين مسلم ونصراني، سواء في ذلك ما ينفع منها وما يضر. ولا كانت الخيرات تتخطى جماعة الى الاخرى ولا كانت المصائب تقع لفريق دون آخر. فهذه سورية تتعرض في العصور الوسطى لهجومين عنيفين الواحد من الغرب على أيدي الصليبيين والآخر من الشرق على أيدي التتار - فما وقع شر الخطر الغربي الا على كل البلاد وأهلها وما تأثر بالخطر الشرقي الا جميع السكان على اختلاف نحلهم ومذاهبهم. فالمدن التي دمرتها الحروب كان سكانها من أهل البلاد على اختلاف عقائدهم. والجماجم التي بنى منها المغول الاهرام المختلفة في بغداد وتكريت وحلب كانت جماجم من وقع السيف على رؤوسهم دون ان يفرق السيف بين مذاهبهم والضرائب التي فرضها الفاتحون او ابتزها الغاصبون دفعها أهل البلاد جميعهم دون ان يفرق الفاتح او الغاصب بين اتباع دين وآخر. ومهرة الصناع والمهندسين وأهل الفن والعلم الذين حملهم تيمورلنك من دمشق حول السنة ١٤٠٠ للميلاد جمعهم من سكان المدينة دون ان يخص فئة منهم بنسبة معينة. والقحط والجوع اللذان كانا يصيبان هذه البلاد، ولا يزالان، لا يسيئان الى طبقة من الناس دون اخرى.

ومن هنا نرى أن هذا التاريخ الذي تعرض له سكان العالم العربي كان تاريخاً مشتركاً. اما انه كانت فيه أغلاط او أخطاء فذلك أمر طبيعي كما قلنا قبلاً.

وهذا التاريخ المشترك هو الذي خلف لنا نحن العرب ذكريات قومية واختبارات وطنية وأدباً قومياً وقصصاً شعبياً وشعراً حماسياً كتب كله بلغة عربية واحدة، وقرئ كله على انه نتاج أمة واحدة، وتمركز كله حول أبطال هذه الامة، ودار كله حول جبال البلاد ووهادها وسهولها وهضابها وقفارها وأنهارها وشواطئها. فليست ثمة بقعة يستطيع الواحد منا ان يمر بها الا وأعادت الى نفسه ذكرى معركة نصرنا فيها او خذلنا، او ذكرى بطل ضحى بنفسه في سبيلنا، او ذكرى عالم قضى عمره في تثقيفنا، او ذكرى أديب أفنى أيامه ولياليه في سبيلنا، او ذكرى مدينة او قرية او قلعة مات ابناؤها كي نحيا وقضوا كي نعيش. وليس من شيء في هذه البلاد الا وقد

روته دماء زكية وعطرته أنفاس طاهرة من اولئك الاجداد البررة الذين خلفوا لنا بلادا وتاريخا ووطنا وقومية. وهذا التاريخ المشترك هو الذي وحد تقاليدنا وعاداتنا فقربنا من بعضنا البعض. وهو الذي نرجع اليه لنستمد منه اختباراتنا ومثلنا العليا والمقاييس التي نحكم بها على الخير والشر والحسن والقبح والفضيلة والرذيلة. وهو الذي أورثنا هذا التضامن في الشعور والتكاثف في العاطفة والتآزر عند الشدائد والتآخي عند المصائب.

وهو، قبل كل شيء وبعد كل شيء، الذي ترك لنا لغتنا العربية فوحد تفكيرنا وعقليتنا وآراءنا. واللغة في معناها الواسع ليست مجرد الفاظ وعبارات تنتظمها كتاباتنا. ولكن اللغة عادات وتقاليد وآداب وتفكير وتشريع ومعاملة. فاللغة هي الحضارة والثقافة ووحدة اللغة هي وحدة الفكر. وهذا الذي يكون الأمة في حياتها العقلية والعاطفية.

فتاريخنا هو الذي خلقنا وهو الذي عين حياتنا وهو الذي حدد رسالتنا. ولا سبيل لنا الى فهم حياتنا فهماً صحيحاً، وتأدية رسالتنا على الوجه الامثل، الا متى عرف كل فرد منا تاريخه القومي وعاد الى أبطاله ورجاله ليستوحيهم ويستلهمهم، والا متى عاد الى تراب بلاده يتشممه ليحس فيه روحه ونفسه وحياته، والا متى عاد الى أدبه يسترشد به.

نحو المستقبل :

نحن أمة. نحن أمة لانا وحدة روحية : لنا بلاد نقطنها وتاريخ نرجع اليه ولغة حية نتكلمها وأدب نستعذ به وذكريات نتغنى بها وآمال مشتركة نصبو الى تحقيقها ومثل عليا متفقة نسعى اليها وقوة نبذلها في سبيل آمالنا ومثلنا وإرادة تحملنا على السير في سبيل الوصول الى ما نؤمل.

علينا ان نعتني بتاريخنا. وفهم هذا التاريخ يتطلب من كل واحد منا ان يفهم الاسلام فهما صحيحا، لان الاسلام كان الدافع الاول والباعث الرئيسي الى توحيد العرب واخراجهم من جزيرتهم وانتشارهم في فضاء الله الواسع ليؤودوا رسالتهم نحو العالم كله. علينا ان نتقن لغتنا : واتقان هذه اللغة يقضي بان يقبل كل واحد منا على القرآن الكريم فيفهمه فهما صحيحا. اما المسلم فله على ذلك أجره عند ربه واما الباقون فلهم على ذلك أجرهم عند نفوسهم وعند ابنائهم الذين يربونهم عندئذ تربية عربية خالصة.

الفصل الثامن عشر

أما فيما يتعلق بعملي التعليمي، فقد استعملت للتاريخ القديم كتاب برستد (الازمنة القديمة) الذي كان داود قربان (من الجامعة الاميركية في بيروت) قد نقله الى العربية في ترجمة ممتازة من حيث الدقة وشيقة من حيث الاسلوب. لكن الشيء الذي كان لا بد من القيام به، هو وضع كتاب يؤرخ للعصور القديمة على أساس ما عرف خلال نصف القرن منذ ان وضع برستد كتابه. ومن ثم فقد عملت انا على ملء هذا الفراغ. وكتبت الجزء الاول من العالم القديم. كان مخطوطاً. وكان طبع أي كتاب يقتضي الحصول على أذن من ادارة المعارف للحصول على الورق اللازم. الحرب كانت قد استفحل شرها، والورق قليل في البلاد. وكان لا بد من ان تمر مخطوطة الكتاب على عدد من العاملين في ادارة المعارف. ومنهم من لا يحب ان ينشر كتاب من هذا النوع والمستوى لنقولا زياده لانهم لم يستطيعوا ان يضعوا كتاباً في درجته مع انهم قد مرت بهم سنوات وهم يقومون بتدريس هذه المادة. وإذن فلا بد من القيام «بلفّة» حول هؤلاء القوم.

كانت من عادة المستر جيروم فارل، نائب مدير المعارف يومها، أن يأتي الى الكلية العربية في الوقت الذي كان الأساتذة يتناولون الشاي أو القهوة حول الساعة العاشرة. ولم يكن فارل بحاجة الى اعلان مجيئه. كان أحياناً يدخل علينا حتى ونحن جلوس، فيجلس في المكان الفارغ .

جاءنا يوماً واتخذ له مقعداً الى جانبي وفارل يعرف اهتمامي بالتاريخ حتى قبل أن أذهب الى انكلترا. اغتنمت الفرصة وتحدثنا وكان الحديث على النحو التالي.

نقولا: ألا تعتقد، يا مستر فارل، انه آن الاوان لاستبدال كتاب برستد بكتاب حديث العهد؟

فارل: صحيح، ولكن هل عندك اقتراح لكتاب آخر؟

نقولا: نعم.

فارل: وأي كتاب.

نقولا: كتابي أنا الذي انتهيت من وضع الجزء الأول منه ويغطي الشرق القديم وعالم اليونان.

فارل: وهل يمكن أن تكون صوره مثل صور كتاب برستد؟

نقولا: لا. فكتاب برستد نشرته شركة جن الأميركية، ولعله بيع منه مئات الألوف من النسخ. لكن كتابي فيه صور وخرط كافية.

وتلا ذلك صمت. وقبل أن يغادرنا الرجل قال لي «ابعث بالمخطوطة الي رأساً، وسأرى ماذا يمكن أن نفعل»!

شكرته وأرسلت المخطوطة له. الرجل لم يكن يقرأ العربية، لكنه كلف اثنين (كما عرفت فيما بعد) من كبار المفتشين أن يترجم كل فصلاً من الكتاب اختاره هو بنفسه. وبعد أقل من شهر استدعاني جبرائيل كاتول (مساعد مدير المعارف لشوون الادارة) الى مكتبه، وقال لي: «مبروك، المستر فارل يرى ان كتابك يمكن أن يكون بديلاً لكتاب برستد» ثم سألني عمن يمكن أن ينشره حتى يصدر له الأذن بشراء الورق. قلت المكتبة العصرية بيافا. وقبل أن يمر أسبوعان كان حنا صليب قد تلقى الأذن بشراء الورق اللازم لطبع الجزء الأول من كتاب

العالم القديم تأليف نقولا زياده. وقد تم الطبع في يافا سنة ١٩٤٥ (واعيد طبع الجزء الأول سنة ١٩٤٧)

وكان من الطبيعي أن يتبع هذا الجزء جزء ثانٍ يتناول ما تبقى مما اعتبرته أنا نهاية العالم القديم. ذلك بأن دراساتي للتاريخ الكلاسيكي لم تحملني على التوقف عند سنة ٤٧٦ م أي السنة التي سقطت فيها روما رسمياً.

كنت قد حاورت نفسي حول هذا الموضوع، وتوصلت الى أن التغيير الذي بدل الخارطة التاريخية للمنطقة تغييراً كبيراً، كان الفتح العربي تحت راية الاسلام. واذن فما يمكن أن يسمى الأزمنة القديمة ينتهي في أوائل القرن السابع. ولذلك فقد كان العنوان التفسيري لهذا الجزء هو تاريخ العالم الروماني والشرق المعاصر له الى الفتح العربي.

وقد طبع هذا الجزء مرة واحدة في سنة ١٩٤٦ ونشرته، مثل الجزء الأول، المكتبة العصرية في يافا.

أهديت الجزء الأول من العالم القديم «الى طلابي جميعهم، الذين تعلمت منهم بقدر ما علمتهم». وهذا كان موقفي دوماً نحو طلابي. فالذي أعرفه من نفسي هو انني لم أتعال عليهم؛ أخذت بيدهم الواحد بعد الآخر، وافدت من ملاحظاتهم ونقدهم، الواحد بعد الآخر. لكن موقفي من زملائي كان أحياناً يختلف. وساشير الى بعض من هذه المواقف عندما يبدو ذلك نافعاً للقارىء. أما الجزء الثاني من الكتاب فقد أهديته لابني رائد. كان رائداً طفلاً في شهوره الأولى (مولود في أول ايار / مايو ١٩٤٦) لما دفعت بالمخطوطة الى دار الطبع.

وانصرفت الى تاريخ العصور الوسطى في أوروبا. فوضعت فيه كتابا مدرسياً بعنوان عالم العصور الوسطى في أوروبا، الذي نشرته المكتبة العصرية في يافا لكنه طبع في القدس (١٩٤٧). هذا الكتاب أهدي «الى الذين وجدوا صعوبة في تعلم تاريخ العصور الوسطى وتعليمه».

العالم القديم وعالم العصور الوسطى وجها أصلاً لمصلحة طلاب المدارس الثانوية الذين سيتقدمون لامتحان المترك (الاجتياز الى التعليم العالي كما كان يسمى رسمياً في فلسطين) وهو نهاية الدراسة الثانوية. لكنني كنت أفكر أيضاً بالمعلمين الذين كانوا يقومون بتدريس هذه المادة في المدارس الابتدائية. وقد كان الكتابان يمثلان ما وصل اليه البحث التاريخي في الفترات المعالجة يومئذ.

ووضعت مخططاً لشيء سميته «المختار من التاريخ العربي» ونشر منه جزء أول باسم «وثبة العرب»، وكانت المكتبة العصرية بيافا هي التي قامت بنشره (١٩٤٥)، ولو انه طبع في القدس. ولعلّ خير ما أفعله هو أن أنقل المقدمة القصيرة التي صدرت بها الكتاب، لأنها توضح المناهج والغاية والهدف. قلت، موجهاً كلامي الى القارىء الكريم: «هذا الكتاب شيء جديد في التاريخ العربي. فتاريخ العرب فيه مكتوب بلغة المؤرخين أنفسهم، ليس لي فيه الا الجمع والترتيب والتنسيق. ولذلك فان القارىء يجد فيه لغة ابن خلدون والطبري وابن الاثير والازرقي وابن هشام والمقريزي والنويري وابن عبد الحكم وتغري بردي وغيرهم. نقلت كلماتهم من مظانها الأصلية، واخترت من الروايات أقربها الى الصحة وأبقاها أثراً في نفس القارىء. وأضفت اليها شروحاً وايضاحات وخرطاً بحيث يسهل على القارىء تتبع الحوادث، وتحري الوقائع.

«ومؤرخو العرب كتبوا تاريخ قومهم بدمهم وقلوبهم. ولكن عوامل كثيرة حجبته عنا. فجئت أنا أحييه للقراء. وقد كتب هؤلاء الناس تاريخهم على انه حياة أمة قوية نشيطة، فجئت أنا أبين نواحي القوة والنشاط فيه.

«فالى الذين صنعوا التاريخ العربي

«والى الذين كتبوا التاريخ العربي

«والى الذين يقرأون التاريخ العربي

«الى العرب في كل مكان وزمان

أهدي هذا الكتاب».

ومع ان الكتاب لم ينشر منه سوى هذا الجزء الأول، فإن مخططه الذي يعود الى سنة ١٩٤٥ لا يزال عندي. فالملف كان من الأشياء القليلة التي حملتها معي الى لندن من القدس (سنة ١٩٤٧) ولذلك سلم من النهب اليهودي، مع ملفين آخرين وبعض الكتب التي كنت احتاجها في أعدادي لرسالة الدكتوراة.

والجزء (الأول) هذا تناولت فيه العرب قبل الاسلام، وحياة الرسول، وأوضحت فيه الأسلام في آيات من القرآن الكريم ومجموعة من الاحاديث الشريفة وأضفت تراجم مختصرة لكبار الصحابة الذين اختطوا للدولة الجديدة منهاجها أيام الخلفاء الراشدين، ثم نقلت أخبار الفتوح والتنظيم والادارة في عهدها الأول.

وقد نُبّه القارىء الى أن هذا الكتاب كان يهدف الى معالجة التاريخ العربي قومياً، على نحو ما اتضح موقفي من التاريخ واللغة من حيث انهما قوام القومية ومن ثم العروبة.

كانت الرحلة تستهويني دوماً، قرآءة وفعلاً وبعد عودتي من ديار الغرب، وقيامي بأعمال التعليم والبحث، عنيت بالرحالين الرواد الذين زاروا الشرق العربي، وجمعت بعض المادة عنهم ولكن لم انصرف لوضعها كتاباً.

و كل ما فعلته هو انني كتبت فصولاً عن هؤلاء الرحالين نشرت في المقتطف؛ وكان لنا في القدس اجتماعات علمية تعقد مرة في الشهر في منازل الزملاء أو الأصدقاء، وكان من الملازمين لهذه الاجتماعات جورج حوراني وأولغا وهبه ويوسف هيكل وعبد الحميد ياسين وعبد الرحمن بشناق. كنا نجتمع وكان واحد منا يتحدث عن موضوع استهواه حديثاً هو علمي في مادته، ولكنه الى العرض والمناقشة أقرب. ولعلّ خير ما يمكن أن يقال عن اجتماعاتنا هذه غير الرسمية (اذا قوبلت باجتماعات لجنة الثقافة العربية) ان المتحدث كان يدرس موضوعه دراسة علمية دقيقة، لكنه كان يلقيه بحيث يفيد منه الجميع. ونحن كنا ننتمي الى اتجاهات متعددة - فمنا مؤرخ الفلسفة والمعني بالتربية وعلم النفس والحريص على التطور الأدبي والممارس لبعض نشاطاته والذي عشق علم السياسة وكان يريد تطبيقه على قضية فلسطين. في واحد من هذه الاجتماعات تحدثت عن زوار فلسطين في القرن الثاني عشر. وفي يوم كان فؤاد صروف، رئيس تحرير المقتطف، في زيارة للقدس سنة ١٩٤٢، ودار بيننا حديث حول الكتابة والتأليف، وذكرت له انه لديّ مادة (تحتاج الى عمل) يمكن ان ينتج عنها كتاب في الرحلات. فطلب مني ان أقوم بوضع الكتاب، وهو مستعد أن ينشره ويقدمه هدية لقراء المقتطف لسنة ١٩٤٣، وهكذا كان. فوضعت «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى»، ونشر في القاهرة سنة ١٩٤٣. (وقد نشرته دار لبنان للطباعة والنشر طبعة ثانية منقحة ومزيد فيها سنة ١٩٨٦ في بيروت).

أشرت من قبل الى الأحاديث التي هيأتها لمحطة اذاعة الشرق الأدنى (في فلسطين). هذه هي التي تخيرت منها ما كان، في رأيي، انفعها للقراء، ودفعت بالمخطوطة الى دار المعارف في مصر فنشرتها بعنوان «صور من التاريخ العربي» (١٩٤٦). وقد قلت فيها، مخاطباً القارىء الكريم: «في التاريخ العربي قاعات قلّ داخلوها، وسبل قلّ طارقوها، وزوايا قلّ والجوها. وفي هذه القاعات والسبل الزوايا خير كثير لو أنصفها الناس. وهذه الصور التي أقدمها لك هي ثمرة جهد بذل في سبيل التعرف الى تلك النواحي المهجورة من تاريخنا. ولقد لقيت في جمعها متعة ولذة، رأيت أن لا أحرمك منهما. وآمل أن أوفق الى آثارة رغبتك في الكشف عن صور مماثلة لها، وما أكثرها».

كان من زملائي في عكا علي شعت. كان علي من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت، وكان قد اتجه نحو دراسة الكيمياء. ولما جاء الى مدرسة عكا الثانوية اعطى دروس الكيمياء والفيزياء وبعض دروس اللغة الانكليزية. نشأت بيني وبين علي شعت صداقة لعل أساسها انه مثقف على طريقة تختلف عن الباقين. ومع انه كان يبدي أحياناً تكبراً باعتبار انه يحمل شهادة جامعية؛ ولم يكن يحمل مثل هذه الشهادة غيره، سوى مدير المدرسة (انيس صيداوي) الذي هو مثله من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت. لكن مع ذلك كنا صديقين.

وانتقل علي من عكا قبل أن أذهب انا الى لندن. ولما عدت كان قد أصبح مديراً للمدرسة العامرية بيافا. وعادت صداقتنا الى ما كانت عليه ولو اننا لم نكن في مدينة واحدة. فقد كنت أنا أقيم في القدس. وفي يوم اتفقنا أنا وهو وحنا صليب، صاحب المكتبة العصرية بيافا (وهي التي نشرت كتبي يومها) أن نصدر سلسلة من الكتب، استوحينا فكرتها وشكلها من «اقرأ» (دار المعارف بمصر). سميناها سلسلة الثقافة العامة. وقد أصدرنا منها الكتب التالية في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧: من أخلاق العلماء (علي شعت) وشخصيات عربية (نقولا زيادة) واخي ابراهيم (فدوى طوقان) ورحلات في بلاد الشام (احمد سامح الخالدي) وأقاصيص (عبد الحميد ياسين). وقد خططنا لكتب أخرى لما بدأت الأمور تهتز في فلسطين، وغادرت أنا البلاد الى لندن للعمل للدكتوراة (خريف ١٩٤٧)، فتوقف العمل.

وقد كان موقف الناس من هذه السلسلة فيه الكثير من التناقض. فالكثيرون سروا بمثل هذه السلسلة لانها ستتناول موضوعات قد لا تهتم بها اقرأ. فضلاً عن ذلك فقد كان ثمة شعور في فلسطين بانه يترتب على المثقفين في البلاد أن يظهروا الوجه الثقافي لفلسطين. لكن اثنين اذكرهما حاولا النيل من السلسلة وكتابها (لم يكن من المعروف علنا اننا، أنا وعلي، محررا السلسلة. ذلك اننا كنا موظفين في ادارة المعارف، ولذلك فانه لا يجوز لنا القيام بمثل هذا العمل). والاثنان اللذان سلقانا بالسنة حداد هما عبد الرحمن الكيالي ومحمد هادي الحاج مير. كتب الثاني نقداً طويلاً في جريدة اللواء لكتابي شخصيات عربية. وكان تجريحاً لا نقداً. ومع ان الكاتب كان زميلي فانني لم أشر الى ما كتبه أبداً. أما عبد الرحمن الكيالي فقد أراد أن يكون كاتباً ساخراً، فلم ينجح. ولم يدر في خلده ان الكتابة الساخرة أو السخرية المكتوبة أمر صعب، لا يقدر عليه الا مهرة الكتاب. حاول أن يسخر أولاً من اسم السلسلة. فقال، فيما اذكر، انها سميت سلسلة وهي لا تعدو كونها كتباً مستقلة متفرقة لا يربط بينها رابط؛ وسماها أصحابها ـ وهو يعرف اننا، انا وعلي شعت، المشرفان عليها ـ الثقافة وما صدر منها لا يحوي سوى معلومات عادية ليس فيها من الثقافة شيء؛ ودعيت العامة ولكن يبدو انها ارسطقراتية لا يفهم مادة الكتب فيها الا فئة قليلة من الناس.

ان مثل هذا الكلام لم يفت في عضدنا، لكن الذي حدث هو ان فلسطين بدأت تتزعزع أمورها، ولم يلبث ان صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيمها الى دولتين (٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧).

تحدثت عن أمور مختلفة قمت بها خلال هذه السنوات الثمان التي قضيتها في القدس (١٩٣٩ـ١٩٤٧). وسأحاول الآن رسم الأطارين العام والخاص اللذين تم عملي داخلهما.

الاطار العام يشمل فترة الحرب العالمية الثانية قبل كل شيء. وانا لا أريد أن أؤرخ لهذه الفترة. أنا سأذكر ملاحظات عامة. (وقد كتب الكثير عن تاريخ هذه الفترة. وانا احيل القارىء على ما كتبه أحمد طربين في القسم الثاني من الموسوعة الفلسطينية جزء ٢ من ٧٦٨ ـ ٩٩١) فما هو الوضع الذي كنا نعيشه في فلسطين؟

حكومة فلسطين ادارت البلاد ادارة مباشرة، كما لو لم يكن هناك كتاب ابيض أو كتاب من أي لون سوى الأسود. والأحكام كانت شديدة بالنسبة للعرب؛ ولم تكن كذلك بالنسبة لليهود.

واليهود كانوا يتبعون نهجاً معيناً نشيطاً بالنسبة لهم ولهدفهم العام وهو أن تصبح فلسطين دولة يهودية. وكان همهم، بالنسبة للادارة الفلسطينية، هو الغاء الكتاب الأبيض. وليس المهم أن تصدر الحكومة البريطانية قراراً بذلك. كان تصرف اليهود هو الذي يلغي هذا الكتاب عملياً. فقد سعوا الى انشاء فيلق يهودي يحارب الى جانب الحلفاء. صحيح انهم لم يحصلوا على ذلك الا قبل نهاية الحرب ببضعة شهور. لكن كل ما يترتب على الحصول على مثل هذا الامتياز كان معداً من قبل. وقد اهتموا بالتطوع في الجيش البريطاني بحيث انه كان لهم

فيه نحو ٢٧,٠٠٠ جندي. هؤلاء كانوا عدتهم لما دارت رحى القتال في فلسطين بين العرب واليهود. واهتم اليهود بالحصول على الأسلحة حتى من الجيش البريطاني، ولو سرقة عن يد فئة قليلة من الجنود البريطانيين. ثم ان اليهود سرقوا أسلحة من مخازن السلاح البريطانية في طبرق ونقلوها الى فلسطين. ولا شك في أن من الاجتماعات التي نظمت لدعم المطاليب اليهودية مؤتمر بلتمور الصهيوني الذي عقد في ايار / مايو ١٩٤٢ والذي قرر المطالبة بخلق دولة يهودية في فلسطين باكملها.

وكان مما أعان اليهود في تحقيق الكثير من مطالبهم أن تولى تشرشل رئاسة الوزارة البريطانية سنة ١٩٤٠، والرجل مؤيد قوي للسياسة والمطالب الصهيونية؛ بدأ ذلك لما تولى وزارة المستعمرات وأصدر قراره (١٩٢٢) الذي أنكر فيه أن تكون فلسطين ضمن المنطقة التي استثنيت في اتفاق سايكس - بيكو، والذي قرر ان الهجرة اليهودية الى فلسطين تتوقف على مقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين. ومن يفسر هذه المقدرة سوى الصهيونيين ومؤيديهم!

وزاد في نفوذ اليهود ان تولى ترومان رئاسة الولايات المتحدة لما توفي روزفلت في ربيع ١٩٤٥. فترومان تاثر بالنفوذ اليهودي لذلك طالب حكومة بريطانية، اكثر من مرة، بان تمنح حكومة فلسطين حالاً مئة الف شهادة هجرة لليهود.

أما العرب في فلسطين فقد كانت جهودهم مبعثرة ووقائية، وكانوا يكتفون بالمطالبات. وكنا نحن، الشباب، نحرق الارم بسبب الوضع الذي وصلنا اليه. نزاع بين الأحزاب وزعمائها على أمور تافهة احياناً. وقد تدخلت هيئات عربية خارجية ولم تنجح الهيئة العربية العليا التي عادت الى نشاطها سنة ١٩٤٣ في اي من مساعيها بسبب خلافات زعماء الأحزاب لرأب الصدع، لكن هذا التدخل كان فاتراً لأن العرب كانوا، اجمالاً، في موقع مهادنة مع بريطانيا أيام الحرب. وحدث أن تدخل وفد من جامعة الدول العربية بعد تأسيسها لمصالحة الاحزاب في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٥، واعادة اللجنة العربية العليا (جديدة)، لكن الحزازات كانت مستحكمة. يضاف الى ذلك أن زعماء الحركة الوطنية الفلسطينية كانوا خارج البلاد، أما هاربين أو منفيين. والهيئة العربية العليا التي انشئت في اجتماع بلودان في صيف سنة ١٩٤٦، جاءت متأخرة زمنياً.

والقت الحكومة البريطانية بالكرة الفلسطينية في حضن الولايات المتحدة طالبة منها أن تتعاون معها لحل القضية. والفت لذلك اللجنة الانكلواميركية للتحقيق في قضية فلسطين (١٩٤٥) وقامت بعملها في اوائل سنة ١٩٤٦. والتقرير الذي وضعته هذه اللجنة أوصى بأن يتساوى العرب (وهم الأكثرية المطلقة) باليهود وهم أقلية قادمة من الخارج في الدولة الفلسطينية. وأوصى التقرير بدخول مئة الف مهاجر فوراً (١٩٤٦) والسماح باستمرار الهجرة بقطع النظر عن موافقة العرب (وهذا عكس ما قال به الكتاب الأبيض ١٩٣٩). وأوصت اللجنة بأن تلغى جميع القيود المفروضة على انتقال الاراضي.

والواقع فان تقرير اللجنة الغى الكتاب الأبيض دفعة واحدة.

ونحن، الذين كنا نقيم في فلسطين ونرى ما يجري حولنا من يقظة يهودية وتنظيم ودفع للقضية وتأزيم للاوضاع وحتى الارهاب الفظيع، ونرى في الجهة الأخرى الفتور والتردد والتنابذ بين الذين يقودون القضية، كنا نحب لو ان الزعامات نشطت او ابتعدت عن الميدان. ولما اظهر بعض الشباب المتفهمين للامور رأيا في أن يكون هناك مجلس يمثل الشعب (بطريقة ما) فيبيدي الراي للزعامة، دون أن يزاحمها أو ينتزع القيادة منها، أغضب هذا الأمر الزعامة، فأخذت في تصفية القائلين. فآثر الباقون العافية.

لذلك كنا عندما نسمع خبراً اتيا من أي بقعة من العالم ومن بقاعه العربية خاصة، نحاول أن نستبشر خيراً. وهذا ما حدث لما اجتمع الملوك والرؤساء العرب في انشاص بمصر ٢٨ - ٢٩ ايار / مايو ١٩٤٦. وأصدر المؤتمر

قراراً بأن فلسطين عربية، وهي القلب في دنيا العرب ويجب أن تتخذ جميع الوسائل للدفاع عن هذا الكيان الذي هو جزء لا يتجزأ من الكيان العربي.

والقرارات كانت دوماً تنص على أن كيان فلسطين «جزء لا يتجزأ» - لكن الأحداث كانت تقرر (عمليا) انه كان يتمزق!

وكان آخر ما مر بي، قبل مغادرتي فلسطين الى لندن في ايلول/ سبتمبر ١٩٤٧، احالة قضية فلسطين الى الأمم المتحدة وتشكيل لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين، ومجيء هذه اللجنة الى فلسطين للتحقيق. وقد جاءت اللجنة الى القدس، واذكر انه زارنا في الكلية العربية عدد من اعضائها بينهم رالف بانش (من الأمم المتحدة) وكروسمان البريطاني وانتظام الايراني. وقد تحدث هؤلاء الينا حديثاً بعيداً عن السياسة كما قالوا وادعوا، لكنه كان في صميم القضية الفلسطينية. ومع ان اللجنة قدمت تقريرها في آخر شهر آب / اغسطس (١٩٤٧) فان مناقشته والحديث عنه احتاجا الى وقت طويل، وتُرِكَ الأمر الى موعد انعقاد الجمعية العمومية للامم المتحدة في خريف تلك السنة.

غادرت فلسطين الى لندن والقرار لم يتخذ. وقد اتخذ قرار الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧. كنت يومها في ضيافة المستر بومان، مدير المعارف السابق في فلسطين في بيته الريفي في سري. كل ما استطعت أن أفعله لما سمعت الخبر هو أن أغص باللقمة. وعدت الى لندن قبل الوقت المضروب لي.

هذا هو الجو، باختصار، الذي قضينا فيه ثماني سنوات. وفي هذا الاطار العام كنا نعمل ونعيش. وباعتباري موظفاً في حكومة فلسطين كانت المراقبة علي شديدة - لا علي وحدي ولكن على جميع الموظفين. ولكن لأنني لم اكن ميالاً الى العمل السياسي - في فلسطين خاصة - فانني لم أجد صعوبة في عملي التعليمي والثقافي. ولذلك أعتقد انني قمت بواجبي على خير وجه.

ولكن ما هو الاطار الخاص الذي كنت اتنقل فيه؟ أود، قبل كل شيء، أن أقدم أصدقائي الذين كانت حياتي مرتبطة بحياتهم ارتباطاً وثيقاً.

كان أولهم، والترتيب هنا لا يعني شيئاً خاصاً ابداً، عبد الحميد ياسين، صديقي من أيام دار المعلمين - كنا في صف واحد (سنة واحدة) وتخرجنا معاً. كنت - يوم التخرج - أنا الأول وكان عبد الحميد الثاني. وليس هذا الأمر مهماً. المهم اننا لما بدأنا عملنا عين عبد الحميد في البيرة (قرب رام الله). لكنه التحق بمدرسة الفرندز في رام الله، التي أصبح مديرها الدكتور خليل طوطح (وكان قد حصل على الدكتوراة بعد أن استقال من ادارة المعلمين وذهب الى الولايت المتحدة لاتمام دراسته).

وكتب خليل طوطح رسالة في فضل العرب على التربية. وقد طبعت في الولايات المتحدة ثم ترجمت الى العربية ونشرت في القدس (١٩٣٥).

وذهب عبد الحميد ياسين الى الجامعة الأميركية في القاهرة حيث درس الأدب الأنكليزي. ولما عاد - وكنت أنا أعلم في عكا - عين مدرساً في مدرسة حيفا. وكان يومها فرح رفيدي يعمل في حيفا. لكن عبد الحميد ترك حيفا، وعمل مدرساً في مدرسة الفرندز بعض الوقت ثم عين في قسم الترجمة المركزي في القدس. وقد كان أحد الذين اشتركوا في ترجمة تقرير اللجنة الانكلواميركية عن فلسطين. وفي القدس كنا نجتمع كثيراً.

وكان لنا صديق هو جميل سعيد، أحد مدرسي اللغة الانكليزية في المدرسة الرشيدية. كانت معرفتي بجميل تعود الى أيام عكا. وقد تعرفت الى خطيبته - جوليا سلامة، وكان ان زارانا في عكا. واثناء غيابي في انكلترا تزوج الصديقان، لذلك سررت لما عدت الى القدس ووجدتهما فيها. جوليا كانت من قبل مدرسة في دار المعلمات،

وكانت من أول من تقدم الى امتحان الدراسة المتوسطة. وفضلاً عن ذلك فانها حصلت على بعثة الى بريطانيا حيث قضت سنة في فيرزدون ترانِنغ كولج.

كانت جوليا الثانية التي ذهبت الى تلك المؤسسة. وكانت الأولى فهيمة نصر. ثم ذهبت اولغا وهبة (خريجة الجامعة الاميريكية في بيروت) وقد كانت أيام وجودي في القدس نائبة مديرة دار المعلمات. (وبعد اولغا ارسلت سائدة جار الله وهيفا بولس، ولست أدري فيما اذا ارسلت ادارة المعارف احداً فيما بعد).

كان جميل يسكن على مقربة منا في المصرارة. لكن عبد الحميد كان يسكن في البقعة التحتا.

في بيت جميل سعيد تعرف عبد الحميد الى منيرة ماجد، مدرسة اللغة العربية في دار المعلمات. ومنيرة سيدة مصرية، كانت آية في الرقة. ولست أكتم القراء انني أغرمت بها (صامتا)؛ لكن عبد الحميد لم يكن صامتاً في اهتمامه بها. واخيرا تزوجا. وكانا زوجين سعيدين.

واديب عتقي، الصديق العكاوي، وجدته يعمل في التجارة في القدس، في دكان في شارع ماملا. واسم هذا الشارع مشتق أصلاً من مقبرة كانت على مقربة من نهايته الغربية اسمها «مأمن الله» فحرفها الاستعمال الى ماملاً. ولكن بعد بعض الوقت انتقل اديب الى شارع يافا وكان له حانوت يبيع فيه القمصان (من صنع معمل كان شريكاً فيه).

وبعد مدة تزوج أديب عتقي الدكتورة سلوى خوري، ابنة استاذنا (في دارالمعلمين) حبيب خوري. وهي أول فلسطينية تحصل على دكتوراه في الطب من الجامعة الأميركية في بيروت.

وكان يقيم في القدس يوسف هيكل مع زوجته الفرنسية دينيز، وهو من أوائل الذين حصلوا على الدكتوراة (في العلوم السياسية) من الشباب الفلسطيني.

وكان يقطن القدس أحمد طوقان، الرجل الذي كفلني عن معرفة بسيطة سنة ١٩٣٥. وزوجته كانت ابنة نظيف الخالدي الذي كان أحد كبار المهندسين الذين عملوا في سكة حديد الحجاز. واسم نظيف (بك) الخالدي لا يزال الى الآن معروفاً في عمان، اذ ان هناك جبلاً يسمى جبل النظيف. وأساس التسمية هو أن نظيف بك كان يستأجر بواسطة السماسرة، عمالاً للشغل في سكة الحديد. وكان هؤلاء يقيمون في مخيم على جبل جنوب مدينة عمان الصغيرة يومها (في مطلع القرن العشرين) لذلك سمي «جبل نظيف بك»، ثم جبل نظيف، ثم جبل النظيف، ولا يزال معروفاً بهذا الاسم.

وأحمد طوقان هو أخو ابرهيم وفدوى الشاعرين المعروفين. كان أحمد قد تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت وعمل سنة أو أكثر قليلاً في مدرسة النجاح بنابلس، ثم انتدب في بعثة الى جامعة اوكسفورد ليدرس الرياضيات، فلما عاد عمل في تدريس الرياضيات في الكلية العربية، ثم انتدب لادارة معارف شرقي الاردن، ولما عاد الى فلسطين أصبح كبير المفتشين المركزيين. وكان أحمد طيب الشمائل طلق المحيا تعلو وجهه، في غالب الأحيان، ابتسامة تفصح عن نفس نقية، خالية من الشوائب.

كان أحمد محباً للقراءة، ذواقة للأدب بمختلف صوره وأشكال تعبيره؛ ومع انه لم يكتب الا قليلا (كان يقول يكفيه كتابة التقارير) فقد كانت له نظرة في أساليب الكتابة عميقة.

كنت أكثر ما أزور أحمد في مكتبه، فقد كانت مكاتب ادارة المعارف في شارع الملكة ماري عند التقائه بشارع ماملا، ومن ثم فقد كان مكتبه محجة لي اذ كنت امر من هناك كثيراً. وبعد نكبة فلسطين بسنوات انضم الى وكالة الغوث للاجئين الفلسطينين (الأنروا) التي كانت بيروت مركزها الرئيسي، فتولى منصباً كبيراً في قسمها التربوي. وكنت أنا قد انضممت الى الهيئة التعليمية في الجامعة الأميركية فكنا نجتمع ونتحدث كثيراً ونقلب الأمور ظهراً على بطن وبالعكس؛ ثم استقر في عمان، وتولى منصب وزير التربية والتعليم وكانت له علي يد

بيضاء أخرى سأتحدث عنها في حينها.

وما دمنا قد ذكرنا مدرسة النجاح، فلنتحدث بعض الشيء عن هذه المؤسسة. انشئت هذه المدرسة الوطنية، بمعنى انها لم تكن تتلقى أي مساعدات من الحكومة، سنة ١٩١٨، وتدرجت من روضة الأطفال عبر الصفوف الابتدائية السبعة الى الصفوف الثانوية الأربعة. وقد كانت واحدة من خير المدارس في فلسطين. وقد عمل في مدرسة النجاح محمد عزة دروزة وأحمد طوقان وأخوه ابرهيم الشاعر وقدري طوقان وحسن عرفات وأكرم زعيتر وذكي النقاش وعمر فروخ وجودت حيدر (وهؤلاء الثلاثة جاءوها من لبنان للتعليم فيها) وهؤلاء عرفتهم شخصياً فيما بعد. وقد كان للطلاب العرب من خارج فلسطين حظ التعلم في مدرسة (منذ ١٩٤١ كلية) النجاح. فقد لقيت أنا في طنجة شاباً من أسرة بنونه كان ممن تعلموا في النجاح. (والنجاح اليوم جامعة).

أتيح لي أن أتعرف (عن طريق صديقي عبد الحميد ياسين) بالشاعر ابرهيم (طوقان)، الذي كان قد تولى مراقبة القسم العربي في الاذاعة الفلسطينية منذ انشائها (سنة ١٩٣٦). ولما استقر بي المقام في القدس (١٩٣٩) كان من الطبيعي أن أتعرف الى هذا الشاعر العبقري الفذ. وصادف أن كان بيتي على مقربة من دار الاذاعة، فكنت كثيراً ما أمر به صباح أيام الجمعة، فنحتسي معاً فنجاناً من القهوة ونتحدث في شؤون الأدب.

أنا كنت أعرف شعر ابرهيم من قبل، لما كنت أعلم في عكا. وكان له في نفسي منزلة كبيرة بسبب ما كان لشعره من دقة في المعنى ورقة في المبنى وسمو في الخيال. وكان شعره الوطني يحملك الى آفاق بعيدة وأنت ترافقه في حديثه عن الفدائي أو، في قصيدته الثلاثاء الحمراء، وهي من قمم شعره ان لم تكن القمة الأعلى. هذه هي القصيدة التي نظمها لمناسبة اعدام فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير يوم الثلاثاء في ١٧ / ٦ / ١٩٣٠ (في عكا).

فلما التقيته كان له في نفسي مركز كبير. وكأننا كنا نتحدث معاً عن بعد، فاستمر بيننا الحديث..

في صيف سنة ١٩٤٠ طلب مني المرحوم عجاج نويهض أن أساعده في العمل الذي تولاه يومها. فقد وقع الاختيار على أوِن تويدي، وهو صحفي بريطاني، أن يتولى ادارة مكتب الأخبار الذي نظم يومها كجزء من مقتضيات الحرب والدعاية للحلفاء. وكان لتويدي مساعدان: الواحد عربي هو عجاج نويهض، والثاني يهودي، وكان كل مسؤولا عن القسم الخاص به من العمل. طلب عجاج نويهض مني، وذلك عن طريق المرحوم أحمد خليفة، أن أساعده في عمله؛ وكان، كما قال لي، قد قبل صديقي عبد الحميد ياسين أيضاً العمل معه.

كان عبد الحميد يومها يعمل في قلم الترجمة بالسكرتارية العامة؛ فأعير للعمل في مكتب الاخبار. أما أنا فقد كنت في العطلة الصيفية، وكل ما هناك أن مدير المعارف كان قد وافق مسبقاً على عملي في مكتب الأخبار.

عهد عجاج نويهض الى عبد الحميد بالاشراف على ترجمة الأخبار (وكان له معاون ثان) واذاعتها بعض الاحيان، وكلفني أنا بالاهتمام بالأحاديث الأدبية. اذ أصبح الترتيب أن تبعث الاذاعة الى مكتبنا بالأحاديث التي تصلها. فإذا أقرها هذا المكتب أُعيدت اليها لتذاع، (والا فالى سلة المهملات). كان عملي لطيفاً ومسلياً؛ وكثيراً ما كنت أمر بمكتب ابرهيم طوقان، في طريقي الى مكتب الأخبار، فكنا نتبادل الرأي في الأحاديث الجيدة والسخيفة على السواء، كما كنا نتحدث جدياً في بعض البرامج للاذاعة. (وكنت قد بدأت أكتب للأذاعة الفلسطينية.) لكن العمل في مكتب الأخبار لم يدم طويلاً. يبدو انه لم يكن من اليسير على عبد الحميد أو عليّ أن نتفق مع عجاج نويهض، لذلك فقد تركنا نحن الاثنين خلال أسبوع واحد (سبقني عبد الحميد).

ظللت أنا على علاقتي بابرهيم طوقان. لكنني كنت الاحظ عليه أن الألم أصبح يعصره عصراً: ألم جسماني سببه مرض أصابه في معدته وهو بعد شاب وكان يعاوده بين الفينة والفينة؛ وألم نفسي سببه ما كان يعانيه من

ضغط عليه في عمله، وما كان يحس به من تآمر عليه. وقد بلغ ألمه الغاية لما أقيل من عمله في أواخر سنة ١٩٤٠.
وقد سمعت ابرهيم يردد صدر البيت المشهور

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

فقد كنا، أحمد أخوه وعبد الحميد وأنا مثلاً، نعرف تماماً لماذا كان ابرهيم يردد هذا الشطر من بيت الشعر. فقد كان الضر يأتيه من ذوي القربى أكثر مما كان يأتيه من المدير المستعمر الغاضب.

وقد توفي ابرهيم في ٢ / ٥ / ١٩٤١ ودفن في نابلس. وأذكر اننا ذهبنا جميعنا الى نابلس لنودع ابرهيم الصديق الوفي والشاعر الكبير.

ولم يتح لي، خلال هذه السنوات الثماني التي قضيتها في القدس، ان التقى فدوى سوى مرة واحدة. قصدت نابلس لأتحدث اليها وأرجوها أن تكتب كتاباً بعنوان أخي ابرهيم كي ينشر في سلسلة الثقافة العامة التي أصدرناها (علي شعث وأنا) عبر المكتبة العصرية بيافا. وقد فعلت وكانت أول دراسة جيدة نشرت عن ابرهيم بعد وفاته ببضع سنين.

وكان محمود (سليمان) العابدي يعلم في بيت لحم، وقد نقل اليها قبل بعض الوقت. ومحمود، الذي زاملته في دار المعلمين لما دخلتها في الصف التحضيري (١٩٢٢) لأنه، وغيره، جاءوا من مدرسة قرية، وجدت فيه، وهو في صفد وأنا في عكا، ثم بعد عودتي الى القدس، الصديق الوفي. وقد ظل كذلك حتى وفاته في عمان. وكان محمود العابدي آية في النشاط والرغبة في السير الى الأمام. والكتب التي وضعها محمود - وتتجاوز العشرين عدا - تظهر مدى اهتمامه واتساع آفاقه وتمكنه من التنظيم والعمل الجدي المستمر. كنا نتزاور كثيراً، وكنا نلتقي في القدس في مقهى ماملا؛ مقهى محمد العدنافي حيث كنا نلتقي صباح الجمعة للاستمتاع بنرجيلة ممتازة يعدها لنا النادل الخاص بالنراجيل هناك. كان ذلك قبل أن ينقل محمد العدناني، بناء على رغبته، الى المدرسة العامرية في يافا، فأصبحنا نستمتع بالنرجيلة في مقهى المدفع في وسط البلد؛ وفي صباح الجمعة أيضاً.

ان قارىء هذه الصفحات لا بد وأن يتذكر موسى عبد الله الحسيني الذي كان يطلب العلم في لندن أيام كنت تلميذاً في جامعة لندن. ترسخت بيننا صداقة في غاية المتانة والود. كنا نعمل معاً في سبيل القضية الفلسطينية - لا يتوجب عليّ أن أقول انني كنت أساعد موسى في ذلك أحياناً. فموسى كان يحب السياسة ويريد أن يتخذها مهنة حياته. وموسى ابن أخت المفتي، لذلك كانت له صلات خاصة هنا وهناك.

عدت الى فلسطين لكن موسى (مثل فرحات زياده) بقي في انكلترا، لأنهما لم ينهيا دراستهما؛ فرحات ذهب الى الولايات المتحدة قبل أن يعود الى فلسطين ويتولى منصباً قضائياً فيها. موسى ذهب الى المانيا أثناء الحرب (وقبل أن تندلع نيرانها بقليل) وهناك حصل على شيئين: دكتوراه في التاريخ الاسلامي وزوجة المانية. وقد جاءت الأولى معه الى فلسطين، أما الثانية فقد لحقته بعد حين.

كان من الطبيعي أن تتجدد الصلة بيننا؛ فالرابطة بيننا كانت أقوى من مجرد العمل في سبيل القضية الفلسطينية لما كنا في لندن. وقد عرفت من موسى أشياء عن أيامه في المانيا، اذ كان هناك المفتي وبعض مناصريه، الذين فروا من العراق بعد أحداث ١٩٤١، ولجوئهم الى ايران أولاً.

ولعل أهم خبر نقله الي موسى عن المحادثات الالمانية العربية الفلسطينية التي تمت في أيام الحرب ما يمكن تلخيصه بالعبارة التالية: طلبت الزعامة الفلسطينية من القيادة الالمانية التصريح بأن المانيا، عند انتصارها في الحرب، ستوقف العمل بسياسة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين (وكان هذا الذي يدور على ألسنة العرب حتى يومها) ومنها وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين الأمر الذي يستتبع الغاء تصريح بلفور. وفي مقابل ذلك يقدم العرب (الذين يمون عليهم زعماء فلسطين والذين كانوا متفاهمين معهم) كل مساعدة ممكنة لالمانيا. ولكن

جواب القيادة الالمانية كان رفضاً قاطعاً للطلب العربي.

ولم يكن من الممكن اذاعة مثل هذا الخبر يومها، ولست أدري اذا كان هذا الخبر تسرّب الى كثيرين.

كنت أنا قد رتبت أمر بعثتي الى انكلترا (لسنة ١٩٤٧) ولذلك فقد الححت على موسى أن يتقدم بطلب للعمل مدرساً في الرشيدية. لكن موسى كان متردداً. وأخيراً قال لي في أحد الأيام انا ذاهب الى مصر يا نقولا لأقابل الحاج أمين وسأتحدث معه صراحة فيما يتعلق بالعمل السياسي في فلسطين. ذهب الى مصر لمقابلة الحاج أمين الذي كان قد لجأ يومها (أو كما قيل سمح له أن يلجأ اليها).

غاب موسى أسبوعاً وعاد (أظن أن هذا كان في آذار / مارس او نيسان / ابريل ١٩٤٧) وجاءني وبعد سؤال الخاطر قال لي: هل تظن أن العمل في الرشيدية بعد ممكن؟ وجربنا وعيِّن موسى حتى قبل سفري.

ولكن ما الذي أحدث هذا التبدل في تصرف موسى. لم يخف صديقي عني ما جرى مع المفتي. لعل الصديق كان يريد أن يتنفس أو ينفس عن كربه. وهذا الحديث لم أروه يومها إلا لمرغريت زوجتي. وهذه هي المرة الأولى التي أرويه فيها تدويناً.

شرح موسى للمفتي الوضع في فلسطين كما يراه شاب متعلم مثقف عرف الشيء الكثير عن العمل السياسي والتنظيم الحزبي في الغرب. وبعد شرح امتد ساعات خلص الى القول بأن الوضع في فلسطين يقتضي عملاً مشتركاً يتخلص من عفنات الزعامة وحساسيات التزعم.

وهذا العمل المشترك يجب أن يكون أساسه تنظيم هرمي بحيث يُوَزَّعُ العمل توزيعاً منتظماً. ولعل أول ما يجب أن يعمل أن يكون الى جانب الزعامة (وقد أكد موسى للحاج أمين أن زعامته تكاد أن تكون موضع اجماع في البلد) مجلس يجمع فئة من المتعلمين المثقفين يبدي رأياً، وينظم السير والعمل.

قال موسى انه اكد للحاج أمين أن هذا ليس رأيه شخصياً، ولكنه رأي عدد كبير من المهتمين بالعمل السياسي الجاد، البعيدين عن المناكفات الحزبية والعداوات الشخصية، وخاصة اذا كانت مرتبطة بمصلحة خاصة. وحسب انه، بعد مثل هذا الحديث الطويل الواضح من شخص لا يمكن أن يشك بولائه لخاله، سيعود الى فلسطين ومعه تخويل بأن يبدأ العمل في هذا السبيل. ولكنه فوجىء بجواب مقتضب: «موسى إما أن تسير معنا على طريقتنا، أو ضُبّ نفسك من الطريق (أي انزو)».

وعاد موسى ليطلب العمل في الرشيدية!

بعد عودتي من لندن والى بيروت هذه المرة، جاء موسى بيروت واجتمعنا. لكن ما جرى يومها موضعه في مناسبة قادمة.

أثناء وجودي في انكلترا قبل الحرب تعرفت الى شابين أخوين هما مفيد عبد الهادي ونور الدين عبد الهادي. مفيد كان قد تخرج من الجامعة الأميركية طبيباً، وقد جاء لندن للتخصص، ونور الدين جاء رأساً من الدراسة الثانوية ليدرس العلوم السياسية. كنت التقي بهما بين الحين والحين، وكنت الى مفيد أقرب، لكن مفيد لم تطل اقامته في لندن فقد عاد ليمارس الطب في القدس. ولما عدت أنا الى القدس تعرفت الى الأخ الثالث منعم. فكان لي من الأخدان.

وهؤلاء الأخوة الثلاثة هم أبناء أمين بك عبد الهادي، وهي واحدة من الأسر التي كان لها شأن كبير في تاريخ فلسطين خلال القرنين الماضيين. وأمين عبد الهادي كان قائمقام الناصرة أيام سنوات الحكم العثماني المتأخرة.

حدثني جدي لأمي (عبد الله شرش) أن الدكتور فارتن المبشر السويسري الذي قضى سنوات طويلة من حياته يعمل في الناصرة أوقعه عامل كان يشتغل عنده في البيت في مشكلة. العامل كان بستانياً، ولما بلغ من الكبر سناً أقعدته عن العمل، كافأه الدكتور فارتن بما يستحقه. لكن الرجل لم يرضه ذلك فأشاع في البلدة أن هذا

المبشر شتم النبي (ص) وتأكد من أن تصل الإشاعة الى سعادة القائمقام. ولم يكن أمام أمين بك إلا أن يقوم بعمل، والا سلقه الرجل بألسنة حداد واتهمه بأنه ضالع مع هذا الغريب أو بأنه يتستر عليه. فدعا القائمقام الى ديوانه الدكتور فارتن والرجل، وكان قد جمع هناك فئة من وجهاء المسلمين في الناصرة. وسأل الرجل فيما اذا كان يعرف لغة الدكتور فارتن فأجاب بالنفي؛ وسأله فيما اذا كان الدكتو فارتن شتم النبي الكريم باللغة العربية فأجاب نفياً. عندها طلب منه أن يوضح له وللحاضرين كيف عرف أن الدكتور فارتن تصرف بهذا الشكل المشين؟ فقال: «اتجه الدكتور فارتن بوجهه نحو القبلة وتمتم!» فضج المجلس بالضحك، وانتهت القضية.

لما تعرفت على أمين بك عبد الهادي في القدس، وكان يومها عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى، سألته يوماً عن هذه الحادثة. فكان أول ما قاله ومن أخبرك خبرها؟ قلت جدي عبد الله شرش، فتذكره، وأكد لي صحة الرواية.

كان الزملاء في الرشيدية نيفاً وعشرين. وأنا بعد هذه السنوات الطويلة اذكرهم واحداً واحداً؛ وقد اتصلت بأكثرهم بعد مغادرتي ومغادرة بعضهم فلسطين. كان بين هؤلاء أربعة من متخرجي الجامعات البريطانية وواحد متخرج من جامعة المانية. ولست أذيع سراً اذا قلت اننا كنا - نحن المتخرجين من الجامعات الأوروبية - «نشوف حالنا شوية عليهم». لكن شوفة الحال هذه كانت تختلف فيما بيننا. انني أقرر واقعاً اذا قلت انني أذا كنت الأقل بين الخمسة من حيث الاهتمام بهذا الأمر.

لست أدري لماذا لما وصلت الى التفكير بزملائي في الرشيدية تذكرتهم جماعات، صغيرة طبعاً، مرتبطة بالموضوع الذي كان يدرسونه. كان ثمة خمسة يدرسون اللغة العربية، وآدابها طبعا، وهم عبد الحافظ كمال ومحمد العدناني وعلي حسن القلقيلي وفايز الغول وعبد القادر محمد (وليس في وضع الأسماء بهذا الترتيب أي معنى خاص أو عام). كان عبد الحافظ كمال قد تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت، حيث درس الأدب العربي، ثم أرسل بعثة الى جامعة لندن فحصل منها على درجة بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها. كان عبد الحافظ مكشر الوجه بطبيعته، ولست أذكر انه ضحك ضحكة من القلب خلال السنوات الثماني التي زاملته فيها. وكان منطوياً على نفسه، كما لو أن هموم الدنيا كلها قد القيت على كتفيه. وكان فعلاً شايف حاله، خاصة على زملائه مدرسي العربية وآدابها. فالعدناني خريج الجامعة الأميركية فقط، والقلقيلي والغول يحملان شهادة من كلية دار العلوم (ولم تكن قد ألحقت بجامعة القاهرة يومها). فأين ذانك المعهدان من جامعة لندن. ولست أذكر أن عبد الحافظ اشترك في يوم من الأيام في المناقشات التي كانت تدور بيننا. وذلك بأن جميع المدرسين كان لهم قاعة واحدة يشغلها أولئك الذين لم تكن لهم حصص للتدريس. وحتى لو اجتمعنا جميعاً فقد كان فيها متسع. وفيها، بهذه المناسبة، كنا نعقد الاجتماعات عند اللزوم. فمدير المدرسة، حسن عرفات، لم يكن يحب الاجتماعات كثيراً، وكان يفضل المشاورة مع الزملاء حول القضايا المعينة. وقد يكتفي بذلك، لكن عندما يقتضي الأمر عقد اجتماع، فقد كان يتحمله وأمره لله.

كان عبد الحافظ وجهاً لوحده، وفضلاً عن أن هذه كانت طبيعته، فقد كان يضيف قناعاً آخر لوجهه هو قناع التكبر، خاصة على زملاء الموضوع؛ ومع هذا كان هناك تصرف التكبر، لكن لشخص لا يليق به التكبر ولا يصلح لمثل هذا التصرف. فتصرف من هذا النوع له أسسه وقواعده وأساليبه. أما الشخص الذي لا يظهر منه الا انه دون المقدرة على تصرف المتكبرين، فانه يخسر وجهه الخارجي ووجهه الداخلي.

والذي أذكره أن عبد الحافظ كمال لم يكتب شيئاً خلال هذه المدة. كل ما هناك انه كان يحسب انه يحمل بكالوريوس من الجامعة الاميركية، وقد أضاف اليها بكالوريوس من جامعة لندن، ودبلوم تربية من جامعة

لندن، وإذن فمجموع السنوات التي قضاها في لندن تساوي دراسة دكتوراه. لم يقل هذا أمامي ابداً، لكن كنت أشعر دائماً انه، وهو يحمل ثلاث شهادات، يجب أن يعامل فوق ما نعامل، وسنلتقي مع عبد الحافظ كمال فيما بعد.

محمد العدناني كان اسمه قبلا محمد خورشيد، وهذا هو اسمه في سجلات الجامعة الأميركية. لكن العدناني كان مؤمناً بالعروبة وكان يتغنى بها في نثره وشعره؛.

وكان العدناني شاعراً رومنسياً. وقد مرت به علل وأمراض طرحته الفراش مدة طويلة واضطر الجراح الى اللجوء الى المبضع اكثر من مرة، ولعلَّ أدق وصف لما أصابه أن يقال أن الرجل عاد من الموت غير مرة. وقد ضمن أحساسه وآلامه وتجاربه الكثير مما كتبه شعراً ونثراً.

نعم كان اسمه محمد خورشيد، لكن العروبة كانت تقضي نسباً يعود به الى العرب الأصليين. قحطانيين أو عدنانيين وقد اختار اللقب الثاني لأن أمة عربية النجار وتعود بأصلها الى بني عدنان.

كان العدناني ربعة في القوام، مع امتلاء، وكان أبيض الوجه أشقر الشعر قبل أن ينتزع الصلع والشيب الشعر واللون. وكان حاد الطبع سَمَّاويُّه؛ فاذا غضب كانت غضبته مضرية، وكانت عيناه الزقاوان تقدحان ما يشبه الشرر. لكن الرجل لم يتخذ من الغضب عادة، مع أن زملاء الرشيدية واجتماعهم في قاعة واحدة كانوا ولا شك قادرين، أفراداً وجماعات، على أن يُطلّعوا دين الواحد.

لكن العدناني كان، من جهة أخرى، زهراوي الطبع، يحب النكتة ويحب روايتها. وكان كثير القراءة. وقد زرته مرة في بيته، وأظن أن هذا كان بعد انتقاله الى يافا، فقال لي انه قرر أن يتجه الى كتابة الأقصوصة (هكذا كنا نسمي القصة القصيرة يومها). وانه في سبيل ذلك ابتاع مجموعة من مختار الأقاصيص الانكليزية وأخرى من مختار الأقاصيص الأميركية. وانه سيقرأ من هذه القصص ليتمرن على الكتابة. وأحسب إنه اختار طريقاً مغلوطاً لذلك. والمهم اننا افترقنا بعد ذلك بمدة قصيرة. فرقتنا نكبة فلسطين. ذهبت أنا الى لندن ولما عدت استاذاً مساعداً في الجامعة الأميركية في بيروت، بدأت بتقصي أخبار الزملاء. وعرفت أن العدناني (وغيره على ما سأذكر) ذهب الى تجهيز (ثانوية) حلب. ولما ذهبت الى حلب بعد ذلك بمدة بدعوة من سامي الكيالي لألقي محاضرة في مكتبة المدينة، زرت العدناني. ولا أزال أذكر الى اليوم كيف احتضنني وشد علي وسالت دموعه.

وجاء العدناني بعد حلب الى صيدا في لبنان حيث استقر. وقد كانت لنا لقاءات محدودة العدد، لكنها عميقة المعنى بسبب نبل هذا الرجل ووفائه. وأثناء وجوده في لبنان عكف على نشر ما لم يكن قد نشر من شعره. ولست أعرف أن أحداً تقدم لدراسة شعر هذا الرجل. ولعلَّ السبب الأساسي في ذلك هو غلبة الشعر الحديث على ذوق الناس، فأصبح الشعر العمودي (التقليدي) شيئاً ممجوجاً. أعاد الله للشعر العمودي بعض ما كان له، ولعلَّ هذا يأتي عندما ينفق الشعرآء المحدثون كل ما عندهم من الحبر، ويتلفون كل ما يمكن من الورق، فيعود نفر منهم الى صوابه.

فايز الغول كان من سلوان، فهو أقرب الجميع الى عبد الحافظ كمال المقدسي الأصل؛ لكن هذا على عادة الكثيرين من أهل المدن الذين كانوا يعتبرون أهل القرى أو حتى الضواحي فلاحين، وكانوا يرونهم دونهم منزلة. ومن هنا فقد كان بين عبد الحافظ كمال وفايز الغول، عداء صامت، فالأول لم يكن يعتبر الثاني حرياً بالتعامل معه فهو فلاح؛ فضلاً عن ذلك فهو متخرج من دار العلوم لا من جامعة لندن. هذا العداء المبني على الدرجة الاجتماعية المتصورة والقائمة في مخيلة عبد الحافظ، كان صامتاً بطبيعة الحال. ولكن فايز الغول لم يكن يقيم لمثل هذه الأمور أي وزن، ولا حتى من وزن الريشة. فالرجل كان، الى علمه الغزير الذي لا يمثل بما حصل عليه في دار العلوم فحسب، على خلق عظيم، اذ إنه ربيب بيت عريق في المنزلة الإجتماعية. وكان فايز يعنى بجمع

القصص الشعبية التراثية، وقد تم له فيما بعد، أن ينشر مجموعات منها بعنوان من «سوالف السلف». وقد استمتعت ببعضها لما وصلتني هدية منه أو من السوق. وقد وفق فايز في اختيار الموضوعات وأجاد في بيانه وأسلوبه.

بعد نكبة فلسطين بسنوات انضم فايز الغول الى الملحقين الثقافيين في السفارات الآردنية وقد زرته في بيته لما كان ملحقاً ثقافياً في السفارة الاردنية بأنقرة، وكان لنا حديث طويل - ذكرى وتحسر وتألم وأمل.

لكن فايز انتزعه الموت وهو في عمله في أنقرة، وقد أسفت عليه أسفي على أخ وصديق. مات فايز الغول وله في ذمتي مئة ليرة تركية استدنتها منه في زيارتي له في أنقرة!

وعلي حسن القلقيلي كان طويل القامة ومشيته فيها «نتعة» الكبرياء. القلقيلي كان أيضاً من دار العلوم، لكن الرجل لم يكن همه العلم ولا أظن انه كان حريصاً حتى على التعليم. كانت له تطلعات خارج الرشيدية وخارج التعليم. وأظن ان الذي حال دونه ودون الحصول على منصب اداري هو جهله للغة الانكليزية. وقد اشتدت نقمته على الادارة العامة لما نقل بدر الفاهوم من التعليم في الرشيدية ليكون قائمقام في عكا. كنت أحس أن القلقيلي بعيد عنا جميعاً، ولو انه كان لطيفاً في بعده. ولم يكتب القلقيلي شيئاً مهما وهو معنا، ولكن بعد النكبة بمدة ظهر اسمه على كتاب لتعليم اللغة العربية لتلاميذ المدارس الابتدائية. ظهر اسمه مع مجموعة كبيرة (لعل الجميع كانوا ستة، وقد أكون مخطئاً قليلاً). والكتاب الذي نسبه هؤلاء المؤلفون لأنفسهم كان نهباً للكتاب الذي وضعه خليل السكاكيني واسمه «الجديد».

وضع السكاكيني هذا الكتاب بعد أن اشتغل بالتعليم مدة. ولأن أول كلمتين في الكتاب كانت «راس روس»، أصبح اسم الكتاب عند التلاميذ والمعلمين والآباء والامهات «راس روس». وُضِعَ الجزء الأول من «الجديد» بين أيدي الطلاب، وكان نجاحه كبيراً. وانتقل الطلاب الى الجزء الثاني فتحمله الطامعون في وضع كتب للقراءة، ولماوضع الثالث بدأت الحرب ضده. وظهرت يومها سلسلة القراءة الفريدة لشريف النشاشيبي. لكن هذا الكتاب لم ينل رضى الذين طلب اليهم ابداء الرأي فيه. وعلى كل نجح السكاكيني أخيراً في وضع الجزء الرابع من «الجديد»، وكان لكل من هذا الأجزاء كتاب للمعلم. وهنا أُعطيت الإشارة الحمراء. فوقف السكاكيني. وبعد مدة جاءت النكبة. واستمر الكتاب مقبولاً بعض الوقت وتبنته مدارس الأنروا (وكالة الغوث للاجئين الفلسطينيين) لانه كتاب اثبت نفعه وفائدته. لكن الذي حدث انه في غمرة ما مر بالبلاد، وما جرى في الاردن بعد ذلك، جاء هذا النفر واخذ كتاب السكاكيني وأعاد كتابته مسيئاً الى الفكرة ولعل المؤلفين الجدد وضعوا دار بدل راس (فهي تجمع على نفس الصوت - دار دور).

وكانت آخر مرة قابلت فيها الزميل القديم في عمان لما كان وكيلاً لوزارة المواصلات أو الأشغال. وأنا واثق أن التعليم لم يخسر كثيراً لما تركه بدر الفاهوم وعلي القلقيلي.

كان هناك أربعة يقومون بتدريس اللغة الانكليزية في المدرسة الرشيدية كان أقدمهم ممدوح الخالدي (أبو صبري) ثم انضم اليه جميل سعيد. وجاء موسى خوري يحمل شهادة من جامعة لندن (ولو انه درس في اكسترا لما كانت هذه كلية جامعية تقوم بتدريس المواد لكن الامتحان يتم في جامعة لندن والشهادة لندنية). وبعد بعض الوقت انضم الى هؤلاء جبرا ابرهيم جبرا، الذي كان قد تخرج من جامعة كمبردج. كان ممدوح وجميل من متخرجي الجامعة الأميركية في بيروت. وممدوح كان معلماً ماهراً، لكن الأثنين، وقد كانا يدرسان حتى السنة الثانوية الرابعة، أخذ منهما دروس هذه السنة لما جاء موسى خوري، ونزعت منهما حتى دروس السنة الثالثة لما وصل جبرا ابرهيم جبرا.

كان من الطبيعي أن يتألم ممدوح وجميل من الوضع الجديد، وكان تذمر جميل يومياً. جميل كان صديقي،

وكنا متجاورين، وكثيراً ما كنت أرافقه الى بيته لزيارة جوليا المعلمة الزوجة الأم المثالية. ومن ثم كنت اسمع منه تذمره مدة أطول وبتفصيل أكبر. وجميل كان يتذمر من كل شيء.

على كل كان ممدوح وجميل متفقين على أن «تشليحهما» تعليم الصفين الأخيرين لم يكن تصرفاً صحيحاً. وحجة كون موسى وجبرا متخرجين من جامعتين بريطانتين لا تقلي عجة. وانتقل الأمر عند ممدوح من لوم ادارة الرشيدية أو إدارة المعارف الى لوم موسى أولاً ثم جبرا لما جاء، لانهما قبلا، ولم ينصفا زميلين. ولذلك صار ممدوح يحاول الخروج من الرشيدية الى منصب اداري في المعارف أو غيرها. لكن ممدوح ظل في التعليم، ولم يحصل على عمل اداري (في التعليم) الا لما نقل (أو انتقل) الى غزة، فعمل مع الانروا (وكالة غوث الاجئين) قبل سنة ١٩٦٧.

أما جميل، وهو متذمر، أو نقّاق، حتى عندما يكون متفائلاً، فكان يلوم الجميع مدير المعارف ومدير الكلية العربية ومدير الرشيدية ونصف الدنيا. ولم يكن تذمره مقتصراً على قضية تعليم الانكليزية وتشليحه صفاً من الصفوف، بل كان يتناول كل شيء. وحتى عندما يكون عند جوليا صديقتاها منيرة ماجد وماري شهلا، وهما زميلتان لجوليا لما كانت تدرس في دار المعلمات، فان جميل لم يكن يسكت.

ولكن الذي كان يبدو غريباً بالنسبة لي هو أن يكون موقف موسى موقف رد على جميل وممدوح. لم يكن رداً مباشراً، بل كان نيلا منهما. انهما لا يعرفان من الانكليزية ما يكفي، وليس بينهما من درس تشوسر الشاعر الانكليزي من أهل القرون الوسطى. وكان النقد والنقد المضاد يصل الى الآذان. وكثيراً ما كانت تقوم الدنيا ولا تقعد بين موسى وبين الآخرين.

موقف جبرا كان يختلف. جبرا كانت له اهتمامات كثيرة خارج نطاق التعليم. جبرا فنان، لذلك كان له اداتان للفن ـ القلم والريشة. والواقع أن الفترة القصيرة التي زاملت فيها جبرا في الرشيدية لم تكن كافية للتعرف اليه جيداً. ذلك بأنني تدريجياً أصبحت ساعاتي في الرشيدية قليلة، فيما ازدادت ساعات عملي في الكلية العربية. ولم تنشأ بيننا زيارات بيتية. ذلك بأن جبرا لم يكد يبدأ في ترتيب بيته حتى حلت النكبة وفرقت كثيراً. وأخيراً استقر جبرا في بغداد، فدرس في الجامعة، وعمل مع شركة نفط العراق. وفي بغداد نضج جبرا أديباً وشاعراً بالعربية والانكليزية وفناناً.

كان جبرا يزور بيروت، وكان دوماً يخصني بزيارة في بيتي. وكانت زوجتي مرغريت ترحب به وبزوجته العراقية. وكنا ننعم في هذه اللقاءات. وكان جبرا يؤكد على أن أقضي على الأقل أمسية عنده اذا يممت شطر بغداد، وقد زرتها مرات. لكن زياراتي للمدينة قلت في السنوات الأخيرة، وزيارته لبيروت انقطعت. وأظن اننا لم نر واحدنا الآخر سوى مرة واحدة اذ دعيت الى المِربَد سنة ١٩٨٨. لكنني أتابع نشاطاً جبرا باهتمام.

جبرا لم يشغل نفسه بالتذمر والنق، أو على الأصح لم يتسع وقته لذلك. فكان أن أنتج وأنتج كثيراً. وممدوح أصبح مع الوقت وجيهاً ولكنه ظل موظفاً. وجميل على ذكائه ورغبته في أن يكون شيئاً، نما في حدود معينة.

لكن جميل جاء وسكن بيروت، وكان بيننا كأسرة وبين أسرته صلات طيبة. فأنا كنت قد اعتدت على سماع التذمر والنق دون أن أوليهما أية أهمية. المهم عندي عملي. وقد أعود الى جميل لكن أود أن أدون الآن شيئاً قاله جميل لي في مجال النقد «يا نقولا أنت عقل فقط. أنت لا قلب لك ولا شعور. كل شيء تزنه وزناً دقيقاً وتقيس أبعاده قبل ابداء الرأي أو السير في المشروع».

كلمات جميل عني نصف صحيحة. فأنا انظر الى اكثر الأمور نظرة عقلية، وأخضع أموراً كثيرة لعقلي، خاصة في المشاريع. لكنني صاحب قلب وعندي شعور. وعندي من جميع هذه الشيء الكثير. لكنني، مع الزمن،

تعلمت أن لا يكون كل ما أفكر به أو أشعر له على راس لساني.

كان هناك فئة ثالثة من زملائنا في الرشيدية هي فئة مدرسي الرياضيات والعلوم. حسن عرفات، مدير المدرسة، متخرج من الجامعة الأميركية في بيروت. كان يساهم في تعليم الرياضيات أيضاً. حسن عرفات كان يرى انه مظلوم في معاشه بالنسبة لمنصبه. كان مدير الكلية العربية (وهي دار المعلمين سابقاً) هو أحمد سامح الخالدي. وكان أكثر الناس يعتقدون أن الرشيدية تابعة له ادارياً، مع أن الواقع كان هذا غير هذا. كان المعهدان مستقلين واحدهما عن الآخر. الكلية العربية كانت تتبع مدير المعارف العام. والمدرسة (الكية فيمابعد) الرشيدية كانت قبلاً جزءاً من نظام التعليم للواء القدس. لكن لما كان من المزمع انها ستصبح كلية وانه سيُضاف اليها صفان بعد المترك، فقد أصبحت تتبع هي الأخرى مدير المعارف العام رأساً.

واذا كانت الرشيدية ثانوية وشوي، وكلية وفيها قسم داخلي، فلماذا يكون مرتب مديرها دون مرتب مدير الكلية العربية بدرجات؟ ولماذا لا يعطى مديرها سكرتيراً يهتم بالقيود ويطبع الرسائل؟ ولماذا يضطر حسن عرفات أن يعفي الياس نسطاس من عدد من الدروس حتى يقوم بأعمال السكرتارية، وهذا الاعفاء كان غير قانوني؟ لذلك لم يكن قلب حسن عرفات في المدرسة / الكلية الرشيدية، بل كان ينتظر ساعة الانصراف كي نضم الى شلة اصدقائه.

ومن هنا سعى حسن عرفات كي يعين له مساعدا، فاختار احمد سعيدان لذلك. وأحمد سعيدان كان قد تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت، لكنه كان طموحاً أخذ يعد نفسه للتقدم لامتحان بكالوريوس (في الرياضيات) لجامعة لندن كطالب خارجي. وقد تم له ذلك.

أحمد سعيدان كان ذكياً ومنظماً وامينا في عمله، لكن مشكلته كانت انه خجول. وقد نجح أحمد سعيدان بعد نكبة فلسطين، وأثناء عمله في السودان، في العمل على رسالة للدكتوراه ونالها، ولذلك التحق بالجامعة الأردنية.

وقد لقيته هناك لما درّست أنا في تلك الجامعة (١٩٧٦-١٩٧٨). وكان لا يزال كما هو. وفياً لأصدقائه جدياً في عمله، لكن خجله وحياءه كانا يقفان في سبيله. وأحمد عمل في سبيل العلم الرياضي فكتب في تاريخ الرياضيات عند العرب ونقل عدداً من الكتب العلمية عن الانكليزية. وشغل منصب عميد كلية العلوم بالجامعة الأردنية. (توفي سنة ١٩٩١ في عمان).

وكان تعليم الفيزياء من نصيب محفوظ عجلوني، وكان بدر الفاهوم يساعده أثناء عمله في الرشيدية. محفوظ عجلوني كان قد تخرج من الجامعة الأميركية سنة ١٩٢٦ أو ١٩٢٧. ولست أظن أن محفوظ قرأ كتباً بعد ذلك، الا أن يكون الكتاب المدرسي لموضوعه. محفوظ عجلوني كان من اتباع الفرندز (الكويكرز عند الانكليز) وكان من أعضاء المشيخة. لذلك كان عنده ما يشغله في رام الله. ونحن عندما كنا نريد أن نقابل محفوظ كأصدقاء كان يتوجب علينا أن نذهب الى بيته في رام الله. وكثيراً ما كنا نفعل. أنا شخصياً كنت أعرف محفوظ عجلوني من قبل. كان مراقباً علينا في امتحان الدخول لدار المعلمين سنة ١٩٢١؛ وكان قد انهى دراسته تلك السنة. وخليل طوطح ومحفوظ عجلوني من بلدة واحدة، ولانه يعرفه أوكل اليه أمر مراقبة الامتحان. ثم انني قضيت اسبوعين ضيفاً على مدرسة الفرندز سنة ١٩٢٧، وكنت أقابل محفوظ في البلدة. لذلك لما اجتمعنا في الرشيدية كان اجتماع أصحاب، ثم تطورت الصحبة الى صداقة.

وكان في الرشيدية، لما وصلت اليها مدرساً، وصفي حجاب الذي كان يدرس الكيمياء، وكان حديث عهد بالتخرج من الجامعة الأميركية في بيروت. لكن هواية وصفي الفكرية / العقلية كانت الفلسفة. كان، فيما أعتقد، قد تأثر بشارل مالك الذي كان يدرس الفلسفة في الجامعة الأميركية؛ وكان يقضي الكثير من وقته في قراءة كتب الفلسفة.

وأخذ يتردد على الجامعة العبرية في القدس. ولذلك لما حصل على بعثة للدراسة في انكلترا أصرّ على ان تكون لدراسة الفلسفة. وذهب الى جامعة كمبردج (١٩٤٦) وقضى هناك ثلاث سنوات يقرأ الفلسفة على يد فتكنشتاين. ولكنه في نهاية السنوات الثلاث ترك كمبردج دون أن يحصل على شهادة في الفلسفة. الا انه خرج، وهذا رأيي، وقد أصبح شبه فيلسوف.

الواقع انني وجدت في وصفي صديق الفكر بين زملاء الرشيدية. ولانه كان يعيش في القسم الداخلي من المدرسة كنت أقضي أوقاتاً طيبة معه. ما أظن اننا كنا نتحدث عن الفلسفة أو الكيمياء أو التاريخ، بل كنا نتحدث عن الناس والمجتمع والكون: من أكثر من ناحية واحدة.

لما عاد وصفي من كمبردج سنة ١٩٤٨، كانت فلسطين قد قسمت ودولة اسرائيل قد قامت وكان علينا جميعاً أن نبحث عن عمل، وقد وجد وصفي عملاً في التعليم في تجهيز (ثانوية حلب)، حيث كان زميله السابق في الرشيدية محمد الدناني وصديقنا أحمد خليفة قد سبقاه الى التدريس هناك. أما اسحق موسى الحسيني فقد اتخذ من حلب موطناً، الا انه لم يدرس في التجهيز.

في حلب تعرف وصفي الى عبلة الناشف، خريجة جامعة لندن ومدرسة التاريخ في دار المعلمات في القدس، وتزوجا. ولما زرت حلب كانا هناك فنعمت بقضاء أمسية في بيتهما، كما نعمت بأمسية في بيت محمد العدناني، الذي كان يشعر بشيء من الكبر لأنه كان يسكن بيتاً يقع في شارع أحمد شوقي (طبعاً الشاعر).

وقد التقينا - أنا ووصفي - في بيروت، في الجامعة الأميركية، بعد أن ذهب الى الولايات المتحدة وحصل على الدكتوراه في الرياضيات وجاء الجامعة استاذاً لهذه المادة. لكن قصة الجامعة الأميركية وربع القرن من العمل فيها، ستأتي في مكانها.

الفصل التاسع عشر

كان جو الكلية العربية يختلف عن جو الرشيدية. فهناك أولاً المبنى الجديد الذي خطّط وأقيم ليكون مدرسة بكل ما في الكلمة من معنى. وهذا المبنى كان يقوم على جبل المكبر، جنوبي القدس، وعلى مقربة من دار الحكومة أي مكتب المندوب السامي ومسكنه. كانت الكلية العربية تقوم على منقلب هضبة صغيرة تبدأ في طريق بيت لحم وتنتهي في جبل المكبر الذي يشرف على وادي القدس الجنوبي الشرقي. وقد اقتطعت مساحة كبيرة للكلية، بحيث يمكن أن توسع الأبنية لتنمو وتصبح كلية جامعية (وهذا هو ما بدأ العمل به في صيف ١٩٤٧)؛ بحيث تكون لها ملاعبها الواسعة؛ وترك حولها مساحة كي تغرس فيها الأشجار. وقد أصبحت، في منتصف الأربعينات، تحيط بها حديقة جميلة جداً. ولن انسى يوماً كنت واقفاً أتأمل المنظر، والفصل ربيع، لما ظهر مدير الكلية، أحمد سامح الخالدي، وكان ينتظر سيارة تحمله الى المدينة، فالتفت الي وقال نقولا هذه لوحة (وقد استعمل كلمة تابلو الفرنسية). واتفقنا على ذلك، وسار هو الى موعده وظللت أنا أتأمل المنظر الجميل. ولا تزال الصورة، أو اللوحة، مرسومة في خاطري، الى اليوم.

ثانياً كان عدد الطلاب في الكلية أقل بكثير من الرشيدية؛ إن العدد لم يتجاوز التسعين طالباً، وكانوا جميعاً طلاباً داخليين. ومن هؤلاء طلاب الصفين الأول والثاني الثانويين الذين كانوا، في الواقع، يواظبون على الدروس في الرشيدية. لذلك فنحن لم نكن مسؤولين، من حيث التعليم إلا عن طلاب الصفين الثالث والرابع الثانويين والصفين الخامس والسادس (أي ما بعد الثانوي).

وهذا العدد القليل نسبياً، الذي لعله لم يتجاوز السبعين تلميذاً، كان مقسوماً، من الصف الثالث الثانوي، الى قسمين علمي وأدبي، ومن هنا فإن عدد الطلاب الذين كان الواحد منا يعلمهم في وقت ما كان صغيراً. وهذا كان نافعاً للطلاب ولنا عندما كان يتاح للطلاب مجال المناقشة؛ أما عندما يبدأ المدرس بصفّ كلمات نابية يصف بها طلابه (مثل حمار وجحش وو) يصبح الدرس ممجوجاً، ويكون موقف الطلاب، بالنسبة للمدرس، موقفاً سلبياً. فلا المدرس يفيد ولا الطلاب يفيدون.

ولأن الطلاب داخليون فقد كان لديهم وقت أطول للدرس والقراءة والحديث فيما بينهم وفيما بينهم وبين الأساتذة عندما يتاح لهم ذلك ولم يكن يتاح كثيراً.

وأود أن أشير، ثالثاً، الى أن عدد الأساتذة في الكلية العربية كان أصغر من عدد زملائهم الرشيدية. فقد كنا عشرة، سوى المدير. وهذا كان يجعل الازدحام في قاعة الأساتذة أقل. وقد يعني هذا أن الاحتكاك كان نادراً؛ الا عندما يقصد الواحد ذلك عن سبق عمد واصرار. وقد حدث غير مرة.

كان أقدم المدرسين في الكلية العربية جورج خميس. كان هذا يدرّس في دار المعلمين لما كنت طالباً فيها (١٩٢١-١٩٢٤) وكان قد انضم الى هيئتها التعليمية قبل ذلك. جورج خميس ينطبق عليه القول بأنه عصامي، من حيث تثقيفه لنفسه واتقانه للدرس الذي كان يعلمه. كان يهتم بالرياضة البدنية في أيامنا، وقد عني بها. كما كان الجميع يومها يعنون. بالتمارين السويدية. درسها وقرأ عنها ودربنا عليها. وقد تعلمت أنا منه الدرس لما

كنت في عكا وكنت أعنى بالرياضة البدنية. فقد تعلمت كيف يقيم الأولاد هرماً رياضياً، وأقمنا، في حفلة الألعاب العامة السنوية في حيفا (١٩٣٢) من الأهرام ما أثار الإعجاب.

وعلمنا جورج خميس أصول الصحة ومبادىء التشريح. فكان، كما ذكرت قبلاً، يذهب الى الإطباء ويسألهم ثم يأتي ويعلمنا الدرس.

جورج خميس كان قد أنهى الصف العلمي الأول (الفرشمن) في الكلية السورية الانجيلية (كما كانت الجامعة الأميركية لا تزال تسمى يومها). هذا كل تحصيله العلمي النظامي.

لما انضممت الى الكلية العربية مدرساً سنة ١٩٤٠، وجدت أن جورج خميس كان قد عهد اليه بتدريس الرواية الشكسبيرية التي كانت مقررة لامتحان المترك سنة بعد سنة. وقد سمعت من مدرسين انكليز كانوا يعلمون الرواية نفسها في مدارس أخرى في القدس أن جورج خميس كان يعرف التفاصيل الدقيقة اللغوية والتاريخية والأسطورية والأدبية لكل من الروايات التي علمها.

كنت أعرف أن جورج خميس قد عهد اليه بذلك، لكن زمالتي له لسنوات مكنتني من التأكد من رأيي فيه إنه رجل كل الرجل؛ وإنه رجل عمل. الى هذا كله كان جورج خميس هو الذي يعد نتائج الامتحانات للطلاب، ويضعها أمام الهيئة التعليمية عندما يعقد الاجتماع لدرسها واتخاذ القرارات المناسبة.

وكان جورج خميس يتمتع بروح رياضية وحب للفكاهة. وقد أُتيح لي أن أعرف جورج خميس خارج الكلية في هذه السنوات أو بعضها على الأقل. كنت أغشى مجالس خليل السكاكيني في داره في القطمون. كانت تربطني بالرجل صداقة بدأت يوم كان مفتشاً للغة العربية في ادارة معارف فلسطين، وكنت أنا أعلِّم في عكا. كان يزورنا، وكنا نستمتع بوجوده، مفتشاً ومحدثاً وصديقاً وضيفاً على مدير المدرسة حيث كان يصر على تناول الفول والحمص والسلطة في قهوة البحر؛ وكان لا بد من النرجيلة بعد ذلك.

حول صحن الفول والحمص والنرجيلة كانت تدور أحاديث من كل نوع وفي كل مجال - في الأدب والشعر والسياسة والكتّاب الكبار من الأجانب.

فلما سكنت القدس، كنت أغشى مجالسه، وكان جورج خميس يغشاها ايضاً. وكانت هذه الجلسات مدرسة لمن يريد أن يتعلم، ومسلاة لمن يريد ذلك فقط.

وكان المدرس الثاني في القدملية (تصريف تركي الأصل لكنه كان شائعاً في أيام صباي) في الكلية العربية هو سليم كاتول. كان سليم كاتول قد انضم الى دار المعلمين سنة ١٩٢٢-١٩٢٣، لكنه لم يتم السنة الدراسية هناك. فقد أُغري على أن يشترك في مؤامرة دبرها يومها مع فريد نبهان ونور الدين العباسي كانت تقضي بقلع خليل طوطح من ادارة دار المعلمين، واحلال فريد نبهان مكانه، على أن يتولى نور الدين العباسي وسليم كاتول منصبي نائبين للمدير. وقد اكتشفت الخيوط والخطوط؛ لذلك لما عدنا من عطلة الربيع (أي عيد الفصح) سنة ١٩٢٣، لم نجد هؤلاء الثلاثة في الدار. فريد نبهان أرسل الى الناصرة ليكون مساعداً لمفتش المعارف حتى نهاية اتفاقية العمل معه؛ ونور الدين العباسي أرسل مساعداً لمفتش المعارف في نابلس (على ما أظن)؛ وعهد الى سليم كاتول بتدريس الفيزياء وما اليها في المدرسة العامرية بيافا، وهو الموضوع الذي كان يدرسه في دار المعلمين قبلاً.

في سنة ١٩٢٥ اعتزل خليل طوطح العمل في ادارة دار المعلمين، وعين أحمد سامح الخالدي مديراً بالوكالة (ثم اصالة بعد مدة قصيرة)، فكان من أول الأمور التي عملها وكانت ولا شك غلطة غير مقصودة، هو استرجاع سليم كاتول الى دار المعلمين / الكلية العربية. كان على أحمد سامح الخالدي أن يتدبر الأمر، لما تولى العمل في أول السنة الدراسية ١٩٢٦، وكان اسم سليم كاتول على لسانه، فقد كان مفتشاً للمعارف في لواء يافا، لما كلف

هذا بالعمل في يافا. سليم كاتول علم الفيزياء للطلاب الى سنة ١٩٤٨ (سنة النكبة)، ولا شك انهم تعلموا منه الأس التي كان يعرفها جيداً، لكن سليم كاتول لم يكن باستطاعته أن يغرس في نفوس الطلاب المعاني التي يجب أن تنتقل اليهم عن طريق العلم. فالعلم، فضلاً عن انه حقائق تحفظ، هو روح وتقليد وفكرة، وهذه تغرس مع تعلم التفاصيل، ويتعهدها المدرس أو الأستاذ تعهداً ينمّيها بحيث تصبح مع الوقت جزءاً من شخصية التلميذ/ الشاب. عند سليم كاتول كان المهم أن يعرف الطالب ويتعلم ويكون مستعداً لاجتياز الامتحان. وقد نجح طلاب الكلية العربية في امتحاناتهم.

ولهذه المناسبة أود أن أروي ما حدث مرة بيني وبين جورج خميس، واظن أن ذلك كان سنة ١٩٤٥؛ فقد لقيته أمام مكتبة فلسطين العلمية بالقدس وكان عائداً من مركز التعليم العالي ومعه نتيجة المترك لتلك السنة. فقابلني مسروراً والبشر يطفح من وجهه، وقال: «نقولا ـ النجاح مئة في المئة!» لست أحسب أن جورج خميس كان ينتظر مني أن أرقص في شارع يافا، لكنه فوجىء بالجواب، الذي رافقته لهجة الجد الصارم، وهو: «شيء طبيعي. وحياتك يا معلمي هؤلاء الطلاب كان يمكن أن ينجحوا بدون أي تعليم». وكانت نظرة عتب مرفقة بقوله: «أنت تقول هذا»؟.

قلت: نعم. إن الكلية العربية يأتيها أحسن طالبين من كل مدرسة؛ والطالب يعرف أن نجاحه يفتح أمامه أكثر من باب: فهو يمكن أن يختار لبعثة رسمية أو خاصة (كانت ثمة مؤسسات خاصة تبعث بطلاب للدراسة على نفقتها كي يعود هؤلاء ويعملوا لحسابها)؛ وهو يقنع ذويه، إن كانوا أغنياء، أن يبعثوا به للدراسة في بيروت، اذ إن اجتياز هذا الإمتحان يوفر له الدخول الى الصف الثاني (السوفومور) في الجامة الأميركية في بيروت مثلاً. اضف الى هذا أن الطلاب يعيشون في مكان مريح نظيف يحمل على الدرس. فما هو فضلنا الخاص كمدرسين في الكلية العربية؟ أؤكد لك يا معلمي أن طلابنا كانوا يجيدون في الامتحان أكثر لو أنهم اعفوا من بعض المدرسين، وسمح لهم أن يدرسوا منفردين».

جورج خميس لم يغفر لي هذا يومها، ولا غفره خلال السنتين التاليتين. وانفصلنا في خريف ١٩٤٧؛ ذهبت أنا الى لندن، وتفرق الباقون ايدي سبا. لكن في سنة من سنوات الخمسينات كنت في رام الله مع بعثة من الجامعة الأميركية في بيروت، وعرفت أن جورج خميس يقيم هناك فذهبت لزيارته. وعدنا بالأحاديث الى دار المعلمين والكلية العربية (كان يومها يعمل في تنظيم مكتبة دار المعلمات في المنطقة تطوعاً). ووردت، بطبيعة الحال، اشارات الى بعض المتخرجين منها. وتذكر جورج خميس ما قلته قبل سنوات. فذكرني بذلك، وقال: بعض ما قلته صحيح، لكنك جرت في حكمك». ابتسمت وقلت له وأنت عرفت يومها من قصدت، ولكن الزمالة محرجة.

وكان الدكتور محمد هادي حاج مير من قدماء مدرسي الكلية العربية. كان قد درس في المانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وعاد بلقب دكتور الذي كان حريصاً على استعماله لنفسه وعلى استعمال الناس له. لكن يبدو أن إدارة المعارف لم تقتنع بصحة اللقب لذلك فإن الرسائل الرسمية التي كانت ترد اليه كانت توجّه باسم السيد. وقد سألته مرة عن موضوع رسالة الدكتوراه فقال انه نسيه وأضاف: «نقولا أفندي بعد كل هذه السنوات طبيعي الواحد ينسى». ووافقت على الفكرة تأدباً.

كان الحاج مير يقول لطلابه التاريخ علم. والذي اتفق عليه الكثيرون منهم ومن زملائه هو أن الرجل لم يفقه معنى العلم ولا ادرك كنه التاريخ؛ ظل يتحدث عن قشور ولم يتوصل الى جوهر. وضع معادلات لطلابه كانت عنده من أدلة النبوغ، أما هم فلا يزالون الى الآن، وقد مرت عقود على الأيام التي علمهم فيها، يتندّرون بهذه المعادلات. وهذه واحدة من هذه المعادلات

علي (عائشة + طلحة + الزبير) = معركة الجمل. لم يكن غريباً أن لا يحب طلاب الكلية العربية والرشيدية التاريخ في السنوات التي كان فيها الحاج مير الناطق الوحيد باسم هذا الموضوع!

وكان الحاج مير، ولم يكن الوحيد بهذه المناسبة، يحتفظ في قلبه بقدر من الغيرة والحسد. وكان من الطبيعي أن تظهر آثار هذا نحو شخص يعمل في المجال ذاته الذي كان هو يحسب نفسه سيده. صمت لما وضعت كتابي «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى»، ولم يقل شيئاً لما ظهر الجزء الأول من كتابي «العالم القديم» (لعله لم يكن ينتظر أن أتم الجزء الثاني ولكنني فعلت). ولكن لما وضعت كتيباً في صفحات لم تبلغ المئة باسم «شخصيات عربية» (من سلسلة الثقافة العامة) تناوله بالنقد والتجريح. والمهم انه لم يظهر الأخطاء، كما ادعى، ولكنه قال وما دخل فيليب (الامبراطور الروماني العربي النجار) كي يكتب عنه مع شخصيات عربية مثل معاوية؟ وتساءل أين هي أرمينية الصغرى ونحن لم نسمع الا بوجود أرمينية واحدة؟ كتب النقد على دفعتين ونشره في جريدة اللواء لصاحبها صديقي اسحق عبد السلام الحسيني. نشر المقالان، أو جزءا المقال على الأصح في يومي جمعة متتاليين وقرأتهما أنا. ومر يوم السبت الأول ولم أشر الى القسم الأول، وجاء يوم السبت الثاني وصمت. وكان هو ينتظر مني فيما يبدو، أن أفتح معه معركة، على الأقل في قاعة الأساتذة. لكنني صمت أيضاً. فاقترب مني وسألني فيما اذا كنت أقرأ جريدة اللواء، (وهو يعرف لا انني أقرأها فحسب، بل انني اكتب فيها، بل وقد طبع لي في مطبعتها كتابي القومية والعروبة). فلما اجبته بالإيجاب سألني عن الذي كتبه عني فأجبت: «انني أقرأ النقد الذي يوجه لما أكتب، فأفيد من النقد البناء، أما القول الهباء فلا آبه به». ومن المؤكد أنه تمنى لو أنه لم يفتح معي الموضوع. لكنه، في سبيل أن يوفر ماء وجهه، قال: «أنا والله قصدت ارشادك فأنت بعد في أول عمرك»! فشكرته، وتركته يحرق الأرَم. إلا إنه عاد بعد مدة فقال لي: «ولكن من أين لك كل هذا الوقت لكي تعمل كل هذا»؟. فكان جوابي البسيط: «الوقت متيسر للجميع، والمهم أن يكون عند الواحد منا بضاعة ومقدرة على تنظيم وقته. هذا سر المهنة عندي».

لم تطل زمالتنا بعد ذلك. فقد ذهب الى بلاد الانكليز في بعثة دراسية (١٩٤٦-١٩٤٧)؛ ولما عاد كنت أنا على وشك ترك فلسطين الى لندن للعمل في رسالة الدكتوراه. وقد لقيته بعد ذلك مرتين. الواحدة في بيروت وقد كان عائداً من بغداد بعد أن استغني عنه. سعى الي وسررت بذلك، وقضينا سهرة ممتعة جمعت فيها في بيتي المتواضع بعضاً من تلاميذه الموجودين في بيروت. وقد طلب مني تيسير العمل له في الجامعة الأميركية فعرفته، في اليوم التالي، الى رئيس دائرة التاريخ، ولكن لم يوفق. وقال لي إنه أعد كتاباً مطولاً. في تاريخ بريطانيا الحديث، ورغب في نشره في بيروت. وعرفته بدار نشر كبيرة في المدينة، لكن أصحابها لم يجدوا الكتاب حريا بالنشر.

أما المرة الثانية فقد قابلته في القاهرة، وكان نزيلها. وتحدثنا عن أشياء كثيرة، ولما عرف انني ذاهب الى الخرطوم رجاني أن أذكر احسان عباس، وكان يومها استاذاً في جامعتها، بقضيته. ولما وصلت العاصمة السودانية عرفت من احسان ان الحاج مير كان قد قدم طلباً للعمل في تلك الجامعة، وأهاب باحسان (وهو من طلبته) أن يوصي به. عندها «تملّص» احسان من «الشغلة» كلها، وقال لرئيس قسم التاريخ هناك: «نقولا زياده زميل للحاج مير ويعرفه جيداً، وهو مؤرخ ومن ثم يمكنه أن يعطيك رأيه فيه»! وكانت هذه توريطة من الصديق العزيز احسان. لكن الحاج مير كان قد أصرّ في الأوراق التي تقدم بها الى الجامعة انه متخصص بالتاريخ الأورروبي الحديث، والبريطاني على التعيين، وكانت الدائرة بحاجة الى من يدرّس تاريخ العرب والتاريخ البيزنطي.

اذا كان جورج خميس وسليم كاتول والحاج مير من قدامى مدرسي دار المعلمين، فإن الدكتور اسحق موسى

الحسيني انضم اليها بعد أن أصبح اسمها الرسمي الكلية العربية، ولكن قبل أن تنقل الى المبنى الجديد. كانت لا تزال في الأبنية القديمة المستأجرة في باب الساهرة (الزاهرة)، وانتقل معها الى جبل المكبر.

اسحق موسى الحسيني كان قد تخرج من الجامعة الاميركية في القاهرة ثم من جامعة القاهرة. وحصل على بعثة من ادارة المعارف للدراسة في جامعة لندن، والتحق بمعهد العلوم الشرقية (قبل أن يسمى معهد العلوم الشرقية والأفريقية). والأساتذة الذين كانوا في المعهد يومها (وكان في فنزبري سركس) هم الذين لقيتهم أنا لما طلب مني أن أحضر دروس العربية في المعهد نفسه (سنة ١٩٣٥-١٩٣٦). كان السر دنسون روس مدير المعهد، وكان هاملتون غب استاذ اللغة العربية، وكان تريتون يليه في الدرجة. وقضى اسحق السنة الأولى في دراسات تمكنه من معادلة الليسانس (البكالوريوس) القاهرية مع البكالوريوس اللندنية، وهذا أمر خضع له طلاب الدراسات الانسانية لما ذهبوا الى جامعة لندن. ثم انصرف الى وضع رسالة الدكتوراه وكانت عن ابن قتيبة.

لما عاد اسحق موسى الحسيني الى القدس، وعهد اليه بتدريس اللغة العربية في الكلية العربية، نقلل استاذنا (سابقا) حبيب الخوري الى ادارة المعارف ليعمل مفتشاً للغة العربية، وقد كان يومها على أبواب الإحالة الى المعاش.

تعرفت الى اسحق لما بدأت العمل في الكلية العربية (١٩٤٠-١٩٤١). ونمت بيننا صداقة، تمت لما تزوج هو وأنا (وفي وقتين متقاربين) من صديقتين كانتا زميلتين في المدرسة المأمونية للبنات في القدس (كانت زوجته علوية الحسيني). لكن اسحق الحسيني لم يكن رجل مجتمع على نحو ما كان عبد الحميد ياسين وأنا مثلاً. فضلاً عن ذلك فاسحق مقدسي، وله ارتباطاته العائلية المحلية، الأمر الذي لم يكن ينطبق على عدد من زملاء الرشيدية والكلية العربية. ومن ثم فإنه مع قيام هذه الصداقة بيننا، كان التزاور قليلاً. لكن هذه الصداقة نمت لما التحقت أنا بالجامعة الأميركية في بيروت (١٩٤٩) ووجدت أن اسحق كان قد سبقني بنحو ثلاثة شهور (بدأ العمل من أول عطلة الصيف). ظل اسحق معنا الى سنة ١٩٥٦ لما تركنا الى الجامعة الأميركية في القاهرة.

في بيروت تزاورنا كثيراً، وتحدثنا عن برامج ومشاريع.

كان في اسحق انطواء على نفسه، وكان لذلك يشعر، في بيروت، بغربة. دخل في روعه إنه غير مرغوب فيه. ولم أكن أنا أشعر بذلك بالنسبة اليه. ولكنه انفجر مرة وفي حفل عام، وكانت كلماته واضحة تماماً. لست أدري ما الذي حمله على ذلك. كان منا عدد لا يستهان به يدرس في الجامعة الأميركية؛ صحيح أن اسحق لم يكن الوحيد الذي استبد به هذا الشعور - الشعور بالغربة وعدم الرغبة في وجوده، لكن للآخرين بعض العذر. أما اسحق فأظن أن السبب أصلاً يعود الى إنه منطو على نفسه، ومن ثم أخذت الأمور تكبر في نظره. وكان أن ترك بيروت الى القاهرة. ومع ذلك فبعد نحو ثلاث سنوات كنت في زيارته في القاهرة، وكانت الأسرة خارج البيت فقال لي: «أود أن أسر اليك يا أبا رائد انني ندمت على تركي بيروت. أنا مسرور من اقامتي في القاهرة، لكنني أدركت الآن انني بتركي بيروت تخليت عن شيء كثير». ولم يزد، ولم يفصح، لكن في لهجته كان كل الافصاح اللازم. لست أدري تماماً ما الذي لقيه اسحق في القاهرة حتى قال ما قاله. فمن الناحية العلمية كان استاذاً في الجامعة الأميركية في القاهرة، وتولى لبعض الوقت قسم شؤون فلسطين في معهد الدراسات والبحوث العالية؛ وضُمَّ الى مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر. ومع ذلك فقد ساوره الندم على الانتقال الى القاهرة.

هل كانت القاهرة بصخبها اكبر بكثير من أن يتحملها اسحق؟ هل أحس بالغربة في القاهرة، كما حدث له في بيروت. لكن هنا (في بيروت) كان من يبثه همومه، ولو على اقتضاب، أما هناك فلم يكن حوله من يجاريه أو يواسيه ولو بالنظرة؟ ولعل انطواءه على نفسه زاد في القاهرة. لذلك كان اسحق سعيداً لما اتيح له أن يعود الى

القدس (حيث أقام الى حين وفاته سنة ١٩٩١). وفي القدس، على ما علمت منه لما التقيته مرتين أو ثلاثا، يعمل في سبيل جمع التراث المقدسي. في السنوات الأخيرة وجد اسحق موسى الحسيني نفسه.

أثناء زمالتنا في الكلية العربية كتب اسحق موسى الحسيني كتابه مذكرات دجاجة، وقد نشر في سلسلة اقرأ (دار المعارف بمصر). وقد أثار الكتاب يومها جدلاً كثيراً. فقد رأى فيه غير واحد من النقاد الحقيقيين والمزيفين تثبيطاً للهمم في الوقت الذي كان الكل يدعو - بالكلام الكثير والفعل القليل - الى شحذ الهمم وتنشيط المقاومة للهجمة اليهودية على البلاد. اذكر أن أحد الذين كانوا يدعون أنهم من أهل الفكر والأدب، قال لي في يافا: «هذا شخص لا يجوز أن يكون استاذاً، نحن لا نحتاج الى جماعة تثبط العزائم بدل شدها» وقد بلغ الأمر بالبعض، من الحساد والخصوم، أن اتهموه حتى بالخيانة الوطنية. ولأن اسحق موسى هو حسيني، فهو، في نظر هؤلاء، من جماعة المجلسيين (محازبي الحاج أمين الحسيني)، ومن ثم فقد جاء الاتهام، في أحيان كثيرة، من الفريق المعارض (محازبي راغب بك النشاشيبي وجماعته). لكنني أنا أعرف تماماً ان اسحق لم يكن قط عاملاً في السياسة، ولو عن بعد!

كان اسحق عضواً في لجنة الثقافة العربية. التي أنشأناها في القدس. واسحق، عندما يقبل عملاً فإنه يُقبل عليه بكليته. وقد عمل كثيراً في سبيل انجاح معرض الكتاب العربي الذي أقامته هذه اللجنة في قاعة النادي الارثوذكسي بالقدس سنة ١٩٤٦ (وكان العضو الآخر الذي بذل الكثير من الجهد لهذا المعرض هو عبد الحميد ياسين على نحو ما ذكرت قبلاً).

أما الطراء على الكلية العربية فهم أربعة: عبد الرحمن بشناق (ولو أنه تليمذ سابق فيها) وجميل (محمود) علي وجورج حوراني وجورج حنانيا. وعبد الرحمن وجميل وصلا الكلية العربية أما في وقت واحد أو في وقتين متقاربين جداً.

عبد الرحمن بشناق درس الانكليزية في الجامعة الأميركية في بيروت ثم منح بعثة لمتابعة تخصصه في جامعة كمبردج. وقد أفاد من اقامته هناك، فضلاً عن تضلعه في الأدب الانكليزي، اجتماعياً ورياضياً. كان واحدا من فريق المجذفين لكليته. والذين يعرفون معنى هذا، يدركون المنزلة الخاصة التي تكون للطالب في محيطه بدءاً من الكلية الى الجامعة، واذا وصل لأن يكون عضواً في فريق الجامعة، الذي يتسابق سنوياً مع جامعة اكسفورد، انتشر ذكره في البلاد.

في جامعتي اكسفورد وكمبردج،وهما أقدم جامعتين في بريطانيا، تقاليد نشأت مع الأيام. بعضها بال، والبعض جيد، لكن النوعين يحافظ عليهما. وقد لاحظت، مع الزمن، ان قلة من شبابنا (والأمر كان مقتصراً على الشباب حتى انشئت كليات للبنات في كل منهما) هم الذين يفيدون من هذه الروح المتأصلة في المعاهد هناك. حتى جامعة لندن، وتقاليدها أقل، كان تأثيرها في شبابنا ضئيلاً.

أنا لا أدعو الى ترك ما عندنا واقتباس ما هناك. وأنا لم أترك تقاليد بلادي، لكنني اقتبست من القوم بضعة أمور أشعر بأنها جعلتني مهذب الحواشي (هذه عبارة اخترعها أو نشرها على الأقل محمد توفيق حسين، الاستاذ في قسم التاريخ في كلية آداب جامعة بغداد، لما كان عضواً في الهيئة التعليمية في دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت). وتهذيب الحواشي أو تهذبُها يجعل الشخص - سيدة كان أم رجلاً - موضع اصغاء واهتمام واحترام. وهذا مهم في علاقات الأفراد بعضهم بالبعض الآخر.

عبد الرحمن كان مثقفاً فضلاً عن معرفته الخاصة بالأدب الانكليزي. لكن عبد الرحمن كان محايداً في كل قضية. لا أذكر انه أبدى رأيه الصريح والواضح حول أي مشكلة عُرِضتْ أو بُحِثَتْ. وكان تصرفه هذا يحملني

مرات على التفكير في سببه أو أسبابه. هل كان عبد الرحمن جباناً؟ ولماذا يكون وهو يتمتع بمركز مرموق. هل التمتع بالمركز المرموق هو الذي قد يجعل من المرء جباناً؟ هل يمكن أن يكون سبب هذا التصرف ايثاره السلامة؛ وايثار السلامة مبدأ مهم في الحياة وله اتباع كثيرون. هل يا ترى كان عبد الرحمن متردداً لا يستطيع أن يقطع برأي. فكان يخفي هذا بتجنب الافصاح عن وجهة نظره؟

كان من الطبيعي أن نتحدث فيما بيننا عن الاصدقاء الغائبين محاولين سبر اغوار شخصياتهم. ولعل هذا التصرف عند البعض يعود الى الأوضاع التي كنا نعيشها في فلسطين. الأيام أيام الحرب العالمية الثانية التي بدأت في ايلول/ سبتمبر ١٩٣٩، والتي دامت ودامت. والأخبار تشير الى تقدم الماني. (رومل في الصحراء الأفريقية يكتسح فصائل الحلفاء، والجيوش الالمانية تتجه نحوجنوب شرق أوروبا. والحلف الالماني السوفياتي إنهار، وهتلر يبعث بجيوشه الى قلب الإتحاد السوفياتي. وهناك سرور يخالج قلوب الكثيرين في مصر وبلاد الشام والعراق بسبب نجاح المانيا. واذن فالناس يجب أن يلجموا ألسنتهم كي لا يتلفظوا بما هو محظور: الحذر أمر ضروري. واذن فمن المناسب أن يستوثق الواحد من الناس الذين يعاشرهم ويعمل معهم.

لم يكن عبد الرحمن من «شلتنا» التي تضم عبد الحميد ياسين وتضمني وقدري طوقان ويوسف هيكل مثلاً. ولكنه كان زميلاً لي وللآخرين، وكان مثل عبد الحميد وأحمد ويوسف نلتقيه في مناسبات مختلفة. وأقول، وقد مر على تلك الأيام عقود من السنين، أن اشدنا صراحة كان عبد الحميد، ولذلك كنت كثيراً ما أخشى عليه. وأظن انني كنت آتي بعده مباشرة. وكان اسحق موسى الحسيني وعبد الرحمن بشناق الأكثر تكتماً في الرأي. أنا لا أذكر هذا لألوم أحداً، ولكن هي ذكريات تطفو على السطح وأنا أتذكر تلك الأيام، فأودعها الورق لا لأهميتها ولكن لأنها تصور أو تؤرخ لفترة من فترات الحياة الفلسطينية أصلاً والعربية عامة.

كان أحمد سامح الخالدي، مدير الكلية العربية؛ وخاصة بعد أن أضيف الى عمله منصب المستشار الفني لمدير المعارف، يحب أن يكلف أحد الزملاء ليكون مساعداً له، يعنى ببعض القضايا. وكان من حق اسحق موسى الحسيني، بوصفه الأقدم في العمل في الكلية، أن يعين في هذا المنصب. لست أدري فيما اذا كان اسحق يقبل العمل فيما لو فوتح. وأغلب الظن عندي إنه لا يقبل. وعلى كل اغتنم أحمد سامح الخالدي انتداب اسحق موسى الحسيني ليساعد في التفتيش على اللغة العربية، ومعنى هذا ان عمله في الكلية العربية أصبح جزئياً، ولو انه ظل الجزء الأكبر من واجباته، وكلف عبد الرحمن بشناق ليقوم بالمهمة. ولم يعلن عنها. أما أنا فقد عرفت الأمر في وقت مبكر. فقد طلب مني عبد الرحمن يوماً أن أعطيه بضع دقائق للتحدث عن مشروع، ولما هممت بدخول قاعة المدرسين لذلك، استأذن في أن نجتمع في مكان بعيد عن الضجة (ولم يكن هناك ضجة لأن القاعة كانت فارغة من السكان). رافقته فأدخلني الى مكتب. ولم أسأل ولم يقل شيئاً. ثم حدثني عن قضية طلابية كان لي فيها دور لم يعجب الادارة على ما أذكر. عندها تنبهت الى انني في مكتب، وان الحديث فيه شيء من الفوقية الادارية، ولما سألته أخبرني انه يتحدث بوصفه مساعداً لمدير الكلية العربية.

لكن عبد الرحمن يظل الرجل المؤدب المهذب. وقد لقيته فيما بعد في هيئة الاذاعة البريطانية بلندن، وفي عمان لما عاد اليها ليعمل في البنك العربي. ولم تشب صداقتنا شائبة الا مرة واحدة. فقد اتهمني أحدهم أمامه (وفي الاذاعة البريطانية) انني تنقصت مقدرته واستكثرت عليه أن يعمل في قسم الأحاديث في الاذاعة. كنت أنا قد تركت لندن، وتقلدت منصب مساعد لمدير المعارف في برقة (ليبيا)، فكتب الي يلومني ويعتب علي، ولكنه كان عتباً شديداً أو لوماً فيه بعض العنف. وقد قال انه يعتب ويلوم لأنه لم ينتظر هذا من صديق.

اجبته أولاً نافياً أن اكون قد ذكرت شيئاً من هذا النوع لأي من العاملين في الاذاعة أو زوارها. وذكرت عبد الرحمن بأنني لو كان عندي مثل هذا الرأي لكنت تحدثت اليه رأساً، فهو يعرف صراحتي وطريقتي في التعبير.

وكان جواب عبد الرحمن أن أنسى كل شيء. وكم من مرة اجتمعنا بعدها، في مناسبات مختلفة، ولم يشر أي منا الى الحادثة. فقد تأكد عبد الرحمن ان الحديث الذي وصله كان مختلقاً، اختلقه الذي رواه، ولم يتعده.

جميل علي صفدي الأصل. كان من الطلاب اللامعين جداً في مدرسة المستر سمبل. المستر سمبل كان مديراً لمدرسة بريطانية الأصل انشأتها، في مدينة صفد في شمال فلسطين، جمعية التبشير بين اليهود وهي متفرعة من جمعية الاليانس الفرنسية المنشأ اليهودية المنزع العالمية المجال. وقد كانت في صفد جالية يهودية كبيرة نسبياً، لذلك اختيرت المدينة لتكون نقطة انطلاق لتبشير اليهود. لكن المدرسة قبلت تلامذة من مسلمي المدينة (وهم الأكثرية) ومسيحييها. أظن أن المدرسة انشئت قبل سنة ١٩٠٠، لما اتسع نطاق المدارس التبشيرية في فلسطين. لست أدري متى تولى المستر (أو الأصح القس) سمبل ادارة المدرسة، لكنه ظل في عمله مدة طويلة بحيث غلب اسمه على اسم المدرسة. وهذه كانت ظاهرة شائعة في عدد كبير من المدارس والمستشفيات التي انشئت في فلسطين (ولبنان وسورية) يومها. فالكلية الانكليزية (للبنات) في القدس كان اسمها مدرسة مس وربورتن ومدرسة صهيون باسم مدرسة المطران (غوبات) وميتم الفرندز في رأس المتن بلبنان باسم مدرسة اوليفر ودار الأيتام السورية باسم مدرسة شنلّر. وعرف المستشفى الانكليزي في دمشق باسم الطبيب الذي تولى شؤونه مدة طويلة الدكتور مَكّنو (وهو أصلاً ماك إنّو) ومثل ذلك المستشفى الانكليزي في الناصرة الذي عرف باسم مستشفى الدكتور باثغيت.

كانت مدرسة سمبل تعنى بالرياضيات لأن مديرها سمبل كان مغرماً بالموضوع وماهراً في تعليمه، كما كانت تعنى باللغة الانكليزية. وكان جميل (محمود) علي من نجباء المدرسة، وبرز بالرياضيات. وقد تقدمنا أنا وجميل علي لامتحان المترك معاً عن غير معرفة (١٩٢٧)؛ لكننا التقينا بعد ذلك في دورات لمعلمي اللغة الانكليزية، وكنت أحسب واحداً منهم بالنسبة لعملي في عكا. وكان حظ جميل أكبر من حظي من حيث الحصول على بعثة للدراسة في انكلترا (١٩٣٣-١٩٣٧)، وقد التحق بكلية اكسترا الجامعية، وهي الكلية نفسها التي درس فيها موسى خوري وفتحي قدورة.

كان من الطبيعي أن ينصرف جميل الى الدراسة العلمية / الرياضية، فنال رتبة بكالوريوس في العلوم وعاد ليدرس في الكلية العربية.

لكن جميل علي كان مثقفاً، كثير القراءة، وكان يحفظ الكثير من الشعر الانكليزي. لكن قراءاته كانت محدودة من حيث المادة والموضوع. وثقافة جميل علي كانت له. هذه ظاهرة كانت غريبة في بلدي في السنوات التي أتحدث عنها. لعلّ السبب يعود الى أن الحديث كان في غالب الأحيان يتناول السياسة، نقداً أو ذماً أو نَقّاً. والتحدث في الشؤون السياسية في بلد مستعمر في أيام الحرب والجو يعبق، بالنسبة للفلسطينين خاصة، برائحة انتصار الماني. التحدث في السياسة لم يكن يسلم من الزلل أو الخطأ أو الانزلاق. ولم يكن أحد يريد ذلك. ولذلك فإن الذين استطاعوا أن ينظروا الى القضايا الثقافية من منطلق واسع، وعبر أبعاد تتجاوز الأحاديث العادية، ومن خلال النظرة القومية العربية كان بإمكانهم أن يعطوا الكثير. نعم كثيرون آثروا العافية؛ وكثيرون أيضاً اتخذوا من ايثار العافية ذريعة لتغطية ضحالة ثقافتهم. واختلط الحابل بالنابل.

كنت أشعر بهذا الوضع، وكنت أتحدث الى عبد الحميد في هذه الأمور. وكثيراً ما كان أديب عتقي يشترك معنا. أديب لم يتح له دراسة بعد الثانوية، لكن الرجل صقلته الأسفار والهجرة المبكرة الى البرازيل واطلاعه على الكثير من الأدب الأسباني. اعتاد أديب القراءة وكان مغرماً بقراءة تراجم الرجال وكتب المقالات والقصص الكلاسيكية. من هنا كنا كثيراً ما نتحدث حول هذه الأمور، وكانت اجتماعاتنا بسيطة، تتم في بيت واحد منا وكان جل ما هناك كاس أو كاسان أو حتى الشاي أو القهوة في بعض الأحيان.

جميل كانت ثقافته لنفسه. وأظن أن جميل كان، في أعماق نفسه، يحتقر طلابه وكثيرين غيرهم.

في الفترة القصيرة التي عملت فيها في ادارة المعارف المركزية بالقدس قبل أن التحق بالمدرسة الرشيدية (صيف ١٩٣٩)، لم يكن لي منصب معين. اعطيت طاولة وكرسياً مع حيدر حلاوة الذي كان يسمى مفتش معارف (أي رتبة)، لست أدري فيما اذا كانت التسمية صحيحة. وكانت ترسل الي ملفات (اضبارات) فيها أمور مختلفة أما لتنفيذها أو لابداء الرأي فيها. فمن الأولى انه طلب مني أن اكتب رسالة بالعربية الى موظف كان يشغل منصباً لا بأس به في ادارة المعارف، تنهي اليه أن حكومة فلسطين قررت انهاء خدمته بسبب تدخله في الشؤون السياسية الممنوعة على الموظفين. ولما كتبت الرسالة بالعربية، والحق ان الرسالة كانت مكتوبة «مسودة» بالانكليزية، وكان عملي أن أصوغها بالعربية، أضفت كلمة جهاراً بعد الاشتغال بالسياسة. ولكن لما رأيت الرسالة مطبوعة (على الآلة الكاتبة) وموقعة بتوقيع نائب مدير المعارف، وجدت أن كلمة جهاراً قد حذفت منها. أما من حذفها؟ لا شك في أن ذلك لم يفعله نائب المدير، فهو لم يكن يعرف العربية.

ومن الأمور التي كلفت بتنفيذها ترجمة المنشور الذي كتبه المستر فارل (مدير المعارف) لمناسبة اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية، والذي طلب فيه من جميع العاملين في ادارة المعارف أن يتوفروا على القيام بواجباتهم ومساعدة الحكومة في مجهودها الحربي.

ليس في مثل هذا العمل ما يستحق أن يشار اليه مرة ثانية هنا، الا ان المهم الذي عرفته فيما بعد هو ان المستر فارل قال لمن كان مسؤولاً: «أعط هذه الرسالة الى كل من عبد الرحمن بشناق ونقولا زياده لنرى أيهما أقدر على الترجمة». يوم عرفت هذا أدركت لماذا كان ثمة فرق بين الترجمة التي أعددتها والرسالة التي وصلت الى العاملين في المعارف. لقد كانت مزيجاً من الترجمتين!

لكن فضلاً عن هذين النوعين من العمل - التنفيذي والاستشاري كانت تصل الى يدي ملفات أقرأ فيها - لأنها توضع أمامي - أموراً لا أستطيع أن أقوم بأي شيء نحو ما فيها. أحسب انه من الأشياء الروتينية في المكاتب أن توضع الملفات أمام الموظفين - ولو أحياناً - للاطلاع. ولم يكن هناك ما يدل على انني أنا أكثر من موظف في الادارة. قضية العمل الموقت - قبل بدء السنة الدراسية - لم يكن يعرفها الا قلة.

على كل وضع ملف على مكتبي. وفتحته فإذا به ملف جورج حوراني. المعلومات الشخصية عن جورج حوراني كانت انه درس الكلاسيكيات في اكسفورد ثم ذهب الى جامعة برنستون حيث حصل على الدكتوراه فيما يمكن أن يسمى التاريخ الكلاسيكي / العربي. جورج حوراني مولود في مانشستر من ابوين لبنانيين. (والده فضلو حوراني تاجر كبير في تلك المدينة وأصله من جديدة مرجعيون). تقدم بطلبه الى وزارة المستعمرات (في لندن) آملاً في أن يجد عملاً في فلسطين في الدرجة الأولى.

وزارة المستعمرات (يومها) أحالت الطلب الى حكومة فلسطين ومعه رسالة. هذه رسالة فيها ما يلفت.

هذا الطلب قدم في سنة ١٩٣٩ (لا أذكر التاريخ تماماً) وهي سنة الكتاب الأبيض الذي كانت فيه أمور كثيرة لمصلحة الفلسطينيين في مقابل جميع الفوائد التي جناها اليهود الى تلك السنة. من هذه الأمور اشراك عدد أكبر من الشباب العرب في مسؤوليات تهيئهم لأن يشتركوا اشتراكاً فعلياً في السير بالبلاد نحو الاستقلال.

والذي لفتني في رسالة وزارة المستعمرات هو أن جورج حوراني شاب عربي الأصل، يجيد اللغة العربية بطبيعة الحال، وهو في الوقت نفسه بريطاني الجنسية. لذلك فقد يمكن الاستفادة منه في واحد من هذه المناصب المسؤولة، اذ ليس بالامكان الحصول على كثيرين من هذا النوع.

وأحالت السكرتارية العامة في حكومة فلسطين، وهي كانت بمثابة رئاسة الحكومة في الدول العربية

المجاورة، الى مدير المعارف. وكانت رسالة السكرتارية توصي بالاستفادة منه في أحد المناصب الادارية.

ولم يلبث أن وصل جورج حوراني الى ادارة المعارف، وأخذ يعمل كما كنت أعمل أنا. أنا لم اكن قد اطلعت على الملف بعد. ولكن حديثي مع جورج أقنعني أن الرجل يريد عملاً اكاديمياً. ولست أدري لماذا جيء بالرجل الى الادارة. هل كان فارل، وهو المهتم بإدخال تعليم اللغة اللاتينية في الكلية العربية، يريد أن يكون جورج قريباً اليه ليسبر غوره الاكاديمي؟ وفارل كان يمكنه أن يخطط لمثل هذا. أم هل إن المدير كان فعلاً يحب أن يفيد من جورج في الادارة؟ مهما كان الدافع فإن جورج ذهب الى الكلية العربية في أواسط شهر ايلول / سبتمبر ١٩٣٩ (في الوقت ذاته الذي ذهبت أنا فيه الى الرشيدية).

كان جورج حوراني رجلاً خجولاً جداً. كان عقله أكثر نشاطاً مما يبدو عليه. وكان تفكيره عميقاً ومنظماً. جورج كان معنياً، في الدرجة الأولى، بالدراسات الفلسفية. ولا شك أن تمكنه اصلا من الفلسفة اليونانية كان معيناً له لما انصرف الى الفلسفة العربية الاسلامية.

كان جورج ما يمكن أن يسمى شخصية مملة أو شخصية تدعو الى السأم. على الأقل هذا كان ما أطلقه عليه عبد الحميد ياسين. وليس غريباً أن تصدر مثل هذه التسمية عن عبد الحميد، الذي كان نموذجاً حياً للشخص المحدث المحبب الى النفوس الطيب السيرة والسريرة. وجورج حوراني كان طيب السيرة والسريرة، وكان مثالاً للوفاء والاخلاص. لكن الجماعة، اذ يلتئم شملها، كانت بحاجة الى أكثر من الوفاء والاخلاص، كانت بحاجة الى الحركة. وقد تزوج جورج فيما بعد من لِلّو حبيب الحسناء المصرية، فعوضت عن تصرف جورج الهادىء المحبب أحياناً - بحركتها ونشاطها الدائمين.

انضممت أنا الى هيئة التدريس في الكلية العربية في ايلول / سبتمبر ١٩٤٠. واعطيت أول الأمر التاريخ القديم والجغرافية، ثم ابدلت الجغرافية (التي نقلت الى نقولا قطان) بتاريخ العرب وأوروبا في العصور الوسطى. وهذه كانت جميعها للصفين الثانويين الثالث والرابع. وعهد اليّ فيما بعد بتدريس تاريخ اليونان وتاريخ الرومان للصفين الخامس والسادس. وعندها أصبح عملي في الكلية العربية أكبر بكثير من عملي في الكلية الرشيدية.

وانضم الينا في الكلية العربية جزئياً فتحي قدورة، يساعد في تدريس الفيزياء، وجورج حنانيا الذي عهد اليه بدرس الكيمياء في القسم العلمي في الصفين الثالث والرابع الثانويين. جورج كان طموحاً، وكان يأمل في أن يحصل على بعثة من ادارة معارف فلسطين للتخصص في الكيمياء على مستوى الدراسات العليا. ولما حصل على ذلك وذهب الى انكلترا والتحق بجامعة لفبرة، لم تقبل الجامعة درجة الماجستير التي يحملها من الجامعة الأميركية في بيروت أساساً للتخصص، فاضطر الى البدء من الصفر. فحصل على بكالوريوس في الكيمياء أولاً، ثم تابع دراسته فنال الدكتوراه في الكيمياء من جامعة كمبردج.

والذي أود أن أذكره هنا هو أن السبب في اضطراره الى البدء من أول السلم هو انه أراد أن يبدّل خط اختصاصه، فقيل له من أول الخط! وهكذا كان.

كان جورج حوراني وجميل علي يقيمان في الكلية العربية. وفجاة قرر جورج أن يتزوج وفي منتصف السنة. كان هذا مربكاً لمدير الكلية العربية من حيث إنه كان قد خطط لأثنين من المدرسين أن يقيما في الكلية، وهذا تقليد فيها. هنا تقدمت أنا وعرضت أن أقيم في الكلية. أنا كنت أقيم مع أختي وأخوي في المصرارة، في بيت نزال المرتب. ولم يكن الانتقال من الكلية الى البلد صعباً عندما أريد ذلك. لكنني رغبت في العيش المستقل لا عن أسرتي ولكن عن الواجبات الاجتماعية التي كان يتطلبها الجوار. زيارة هنا وزيارة هناك. والجيران يعتبون اذا أنا لم أرافق أخوتي بين الفينة والفينة على الأقل. وكان الجيران لطفاء طيبين، لكن المشكلة عندي أن الحديث هو نفسه؛

وفي سبيل تنويع التصرف في الزيارة كان هناك لعب الورق (الشدة). لكن أنا تركت هذا نهائياً منذ أيام عكا. كنت احتال على ذلك بأن أذهب الى الزيارة مع أخوتي وأحمل معي أوراق الامتحانات لتصحيحها. فيلعب الكل الا أنا. لكن هذا كان ممكناً مع أسرة واحدة. أما مع الباقين، ومنهم زميل لي في الرشيدية وأمه وأخوه وأخته. هل يصدق الناس اذا قلت أن هذا الزميل، زائراً كان أو مُزَاراً، يقضي نصف الوقت يتذمر وخاصة عن العمل في الرشيدية؟

انتقلت الى الكلية، وبذلك كنت أقرب الى الطلاب. كنا نلتقي قبيل تناول العشاء، فنتحدث جالسين على حجارة الحديقة أو متمشين في أرض الكلية. وكان أيسر علي عندها أن أرتب الرحلات الأسبوعية أو الشبيهة بالأسبوعية مع الطلاب. وقد نقوم بنزهة الى عرب التعامرة الذين كانوا جيراناً لنا في الجهة الجنوبية. وقد كانت السنتان، أو نحو ذلك، اللتان قضيتهما في الكلية فترة سعيدة جداً في حياتي.

كان ثمة شخصيتان في الكلية على جانب عظيم من الأهمية. فخري الخطيب وهنري كنوزفتش. كان فخري ممن درس في دار المعلمين معي (١٩٢١ - ١٩٢٤). فخري لم يحصل على الشهادة لكنه كان الأول في امتحان التعليم العملي. اشتغل في التعليم لأن ادارة المعارف كانت بحاجة الى معلمين، وعلى كل فإن فخري مثل حكمت هاشم ورفعت الشهابي قضى ثلاث سنوات في دار المعلمين؛ فهم ولا شك أفضل من كثير من الذين علموني في جنين مثلاً.

كانت البحرين أول بلد طلب مدرسين من فلسطين، على سبيل الاستعارة؛ وكان فخري الخطيب من أول، إن لم يكن أول، من قبل الذهاب. وقضى هناك سنوات لا أدري عددها. ولما عدت من لندن (١٩٣٩) وجدته في الكلية العربية يعمل ضابطاً لها. أنا شخصياً لم أكن أحب هذه الكلمة بالنسبة لمعهد علمي - مدرسة كان أو أكبر. ولكن هذا المنصب وهذه التسمية انه أصبح ضابطاً، وان عليه أن يضبط الامن في كل مكان في الكلية. كان فخري بطبيعة الحال يقيم في الكلية ، ولكن غرفته كانت مكتباً ومكاناً لضبط محاضر تبين سوء تصرف الطلاب وتسجل عليهم تصرفهم كي توقع بهم العقوبة.

لكن فخري كانت له مهمة أخرى. كان المشرف على الرياضة البدنية، وخاصة كرة القدم. وقد كان يقوم بذلك خير قيام - نظرياً. لا أذكر انني رأيت فخري يوماً في ثياب الرياضة. ومع ذلك فقد كان عندنا فرقة كرة قدم جيدة، بحكم الاستمرار، وكان طلابنا يتفوقون في الألعاب والتمارين الأخرى، وذلك بقوة العادة المتأصلة في المعهد من أيام العشرينات.

لكن فخري أساء استعمال الامتيازات التي كانت ممنوحة للأساتذة، وطلعت الرائحة في سنة ١٩٤٧، لذلك لما عاد الطلاب في خريف ١٩٤٧ لم يجدوا فخري؛ ولم يعين ضابط آخر مكانه.

من حسن الحظ أن مدير الكلية أخذ برأيي (وربما برأي غيري) فاستغنى عن الاثنين: الضابط والمنصب أو الوظيفة. كنت أنا قد غادرت القدس الى لندن (في الرحلة الطويلة الثانية) ولكن لما بلغني الخبر سررت به.

هنري كنوزفتش كان أصله من أواسط أوروبا. كان جده من كبار التجار المقيمين في فلسطين، وكان وكيلاً للقنصل البريطاني في وقت من الأوقات، ومن هنا كان هنري يحمل جواز سفر بريطاني. لكن هنري بالذات كان تَفَلَسْطَنَ بالمرة.

كان هنري يدير كل شيء يتعلق بالكلية العربية خارج النطاق الأكاديمي: من المطبخ الى أكبر عامل في المعهد. وكان هو المسؤول عن الغذاء لنا جميعاً، والكساء للغرف والسرر وما الى ذلك. وقد كان الرجل يفهم معنى المسؤولية ويدرك واجباته ويقوم بها خير قيام. فقد كانت مباني الكلية وأثاثها وحديقتها تلمع نظافة وتطالعك بالترتيب المدهش. وكان هنري كريماً اذا زرناه في مقره: فقد كان لهنري غرفتان متسعتان؛ وكانت احداهما

مكتباً.

ومع ان هنري كان يعمل ساعات طويلة، وكان كثير التنقل بين الكلية والمدينة، فقد كان، الا فيما ندر، يلقاك هاشاً باشاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله.

لست أبالغ اذا قلت أن هنري كان أحد أعمدة الكلية العربية المتينة.

في الرشيدية كان حسن عرفات، مدير المدرسة، واحداً بين الزملاء. لست أحسب، مثلاً، أن مرتبة كان أكبر بكثير (هذا اذا كان أكبر) من مرتب محفوظ عجلوني أوعبد الحافظ كمال أو مرتبي. ولم يكن المدير، مدير أي مدرسة، يتلقى، يومها، علاوة خاصة بالادارة. وأهم من هذا كله أن حسن عرفات لم يكن ينظر الى منصبه نظرة خاصة. فضلاً عن أن طريقته في التحدث الى الزملاء، حتى في الأمور الرسمية، كان فيها شيء كثير من امارات الصداقة والود؛ الا من عصم الله ولم يستحق مثل هذه المعاملة.

كان الوضع في الكلية العربية مختلفاً. فقد جاء أحمد سامح الخالدي مديراً لها (وكالة أولاً واصالة فيما بعد) من مركز مفتش معارف، وهو منصب أعلى، رتبة وراتباً، من مدير الرشيدية. وأحمد سامح الخالدي كان لمع اسمه كاختصاصي في شؤون التربية والتعليم. فقد وضع كتباً في أنظمة التعليم وادارة الصفوف وكتب مقالات حول موضوعات تربوية مختلفة. ثم أن الرجل قام بترجمة كتاب علم النفس تأليف وردزورث، وقد اتم ذلك سنة ١٩٢٧ أو ١٩٢٨، ولم تكن ترجمة مثل هذا الكتاب يومها امراً يسيراً. صحيح أن محمود الكرمي عمل فيه قلمه من الناحية اللغوية، لكن هذا لم يعد تركيز الثوب على الجسم، انما تفصيل الثوب وخياطته كان من عمل المترجم.

فضلاً عن ذلك فقد كان أحمد سامح الخالدي ذا شخصية ارستقراطية، وقد نمّى هو هذا الشعور مع الوقت وحمل الكثيرين على القبول به، ولو انهم كانوا يزورون بذلك في داخل نفوسهم (انا أعرف على الأقل ثلاثة أشخاص كان هذا موقفهم من أحمد سامح الخالدي).

يجب أن نذكر أيضاً انه لما اقيمت مباني الكلية العربية بني على مقربة من المبنى الرئيسي منزل لمدير الكلية. كان في الواقع منزلاً لائقاً بالمنصب، ولكنه بصاحب المنصب أليق: بناء وحديقة واثاثاً.

وهناك مكتب لمدير الكلية العربية وسكرتير (ثم اصبحا اثنين). جميع هذه الأمور كانت تجعل من المنصب شيئاً خاصاً؛ لكن المهم أن أحمد سامح الخالدي كان يشغل هذا المنصب.

من هذا كله يبدو كأن الفرق بين المدير والأساتذة كان كبيراً. وهو كبير في واقع الحال. ولكن ماذا كان موقف الرجل من الزملاء؟

لم يكن أحمد سامح بعيداً عن الزملاء؛ ولكن بعض الزملاء كانوا يبتعدون عنه. فهناك أولاً أولئك الذين كانوا يعتبرون أن علاقتهم به لا يجوز أن تتجاوز الساعات التي فرض عليهم أن يعلموها في الكلية. وما داموا يقومون بذلك، فاذن لا حاجة بهم الى الالتقاء به أو زيارته في مكتبه. وثمة ثانياً أولئك الذين كانوا يحسبون أن الفكر انتهى اليهم وعندهم، ويكفي أن يحلوا معادلة رياضية أو يقرأوا شعر توماس هاردي حتى يتيهوا على الدنيا، بدءاً بالزملاء والمدير والعالم كله الا مسز فلكس. ومن هي مسز فلكس؟ لست أدري، وارجح ان سرها - على تفاهته - قد انتهى قبل سنوات من انتقال أصحاب السر الى دنيا الخلود؟

وثالثاً نقع على فئة من الزملاء الذين كانوا يتقربون من المدير لوجه المنفعة والمصلحة. فقد سمعت، وأنا في عكا، رجلاً يقول أن خالد بن الوليد لم يعقب، ولذلك فلاحق لهذه الأسرة (الخالدية) بالانتساب اليه. ولكن الرجل نفسه، أعلن في القدس، بسبب ارتباط مصلحي، انه من الثابت أن الأسرة الخالدية متحدرة من نسب خالد بن الوليد. وأحمد سامح الخالدي كان يعرف هؤلاء. كانت له ابتسامة صفراء أعرفها جيداً، وكان له انتفاخ اوداج

أعرفه جيداً؛ وقد ظهرت على وجهه ابتسامته الباهتة لسماع شهادة صحة النسب.

وقد كان أحد الزملاء يحمل على الطريقة الاستبدادية التي كان أحمد سامح يدير بها الكلية، ولكن اذا عقد اجتماع وعرضت قضية كان هذا الزميل أول الموافقين عليها في الاجتماع، وأول اللاعبن للفكرة عند ارفضاضه. وقد لفت نظره مرة الى هذا التصرف، فكان جوابه ومن يستطيع أن يناقش المدير.

لست أدري لماذا كنت أنا أناقش المدير في الاجتماع أحياناً قليلة، وفي مكتبه وبيته مرات أكثر، وخاصة بعد أن سكنت في الكلية. أظن أن أحمد سامح الخالدي قد كوّن لي في نفسه ركناً صغيراً خاصاً يعود الى الأيام السابقة أيام كنت في عكا. كنت أزوره في القدس في الصيف (أو حتى في رام الله اذا كان مصطافاً هناك). وكنا نتحدث في أمور مختلفة. ولست أنسى السرور الذي خالجه لما أعطاني بعض ملازم كتاب علم النفس (وكان يومها في رام الله) لأطلع عليها. كان الرجل مسروراً بعمله (وله الحق كما أشرت). تناولت منه الملازم وأستأذنته في أن اقلب بعض الصفحات لأرى إن كانت تتضح لي في نصها العربي. سر بذلك، وسر أكثر لما هنأته بعد أن قرأت بعضها. يومها قال لي: «نقولا أنت أول واحد قرأ بضع صفحات من الملازم عندما قدمتها له».

لعل هذه العلاقة التي لم تكن رئاسية، ولم أكن أحلم بأن علاقة رئاسية، ستتم بيننا يوماً ما، جعلت الاتصال بيننا والمناقشة ممكنة. وكثيراً ما كنت أتقدم اليه باقتراح يتعلق بالكلية، فنتناقش حوله، فاذا اقتنع به كان ينفذه.

وهناك حادثتان لا ارتباط بينهما، لكن كلا منهما تدل، فيما أعتقد، على نوع من الثقة.

أعلن في يوم من الأيام أن الاستاذ انيس (الخوري) المقدسي، استاذ الادب العربي في الجامعة الأميركية في بيروت، سيلقي محاضرة في الجمعية المسيحية للشبان (في القدس). هذه فرصة العمر لطلابنا - خاصة طلاب الصفوف العليا - لكي يسمعوا هذا الرجل. ذهبت الى أحمد سامح الخالدي واقترحت عليه أن يُسْمَحَ لطلاب الصفوف العليا بالذهاب لحضور المحاضرة. كان الاقتراح غريباً بمعنى انه لم يطرح مثله على بساط البحث، على كثرة ما كانت تعطى من محاضرات قيمة في هذه المؤسسة. الصعوبات أولاً المسافة بعيدة - كيف يتنقل الطلاب؛ ثانياً موعد المحاضرة يتعارض مع موعد العشاء؛ ثالثاً من يضمن النظام بجميع نواحيه. الحلول: الطلاب يمشون ذهاباً ويعودون بالباص جزئياً، أو اذا كان هناك من يحب يمكن العودة بالتكسي مشاركة؛ موعد العشاء يقدم بحيث يمكن للطلاب أن يكسبوا العشاء والمحاضرة؛ أنا سأذهب مع الجماعة مشياً وهذا مما يساعد على النظام. وأضفت نجعل القضية اختيارية، فليذهب من يشاء فقط.

لو أن جورج حوراني كان من طبيعته أن يراهن لكان أقدم على مراهنتي بأن المدير لن يسمح. لكنه لم يراهن بطبيعته، ولكنه نصحني بأن لا استنزل غضب المدير علي. لكن لما رآني أخرج من مكتب المدير وضحكتي تكاد تزن رطلاً، أدرك خطأه. وكان أن ذهب نحو ثلاثين من الطلاب للمحاضرة. وبعد المحاضرة وقف الاستاذ المقدسي وتحدث الى هؤلاء الذين مشوا نحو نصف ساعة ليسمعوه.

وأصبح الأمر قاعدة، اذا كنت أنا مستعداً للمرافقة.

الأمر الثاني كان قضية تأديبية. عندما كان يقترب موعد امتحان المترك، كان الطلاب ينكبون على الدرس بصبر وجد وحماسة بشكل غريب. وكان من ذلك أن يصحو البعض منهم في الساعة الثالثة صباحاً مثلاً للدرس. كانوا ينزلون الى غرفة من غرف الدراسة ويقومون بعملهم. في صباح أحد الأيام، وفي حوالي الساعة الثالثة، وكنت قد عملت تلك الليلة الى ساعة مبكرة من الصباح، رأيت، من شباك غرفتي، نوراً في احدى غرف الدرس. نزلت لأطفىء النور اعتقاداً مني انه نسي. فوجدت في الغرفة خمسة طلاب يدرسون. مثل هذا الأمر كان ممنوعاً، حفاظاً على صحة تلاميذنا. وكان المدير يتشدد في العقوبة. وحين دخلت الغرفة حييتهم فردوا التحية وجمعوا كتبهم وانسلوا. وعدت أنا الى غرفتي. في الساعة السادسة صباحاً طرق الباب عندي فأفقت وفتحته،

فإذا بالطلاب الخمسة يرجونني أن لا أخبر المدير بالقضية. كان جوابي انه لا بد من ابلاغ الخبر الى المدير، لكنني سأشفع لكم عنده على أن لا تعودوا اليها.

وهكذا كان. ذهبت الى مكتبه، رويت له الحادثة، وقلت له انني لن أعطيه الأسماء الآن، وانني وعدتهم بالشفاعة لهم، على أن لا يعودوا الى مثلها والا عوقبوا عقاباً مزدوجاً. نظر الي أحمد سامح الخالدي نظرة شعرت يومها أن فيها شيئاً من التقدير لتصرفي. وقال: «نقولا لك ما تريد».

لما وصل فخري الخطيب ظهراً من المدرسة العمرية، حيث كان له عمل تعليمي، عرف من المدير ما حدث فجاءني، وأمام بعض الطلاب، وطلب مني الأسماء الخمسة. رفضت وقلت له بأدب: «انا لم أعط الأسماء الى المدير فكيف أعطيكها»؟. أصر ورفع صوته، فتركته يرغي ويزبد وذهبت لشأني. وكرر الطلب على مائدة الغداء، فطلبت منه أن يقفل الحديث حول الموضوع. وعندها صب جام غضبه علينا فقال: «انت والمدير تخربان النظام في الكلية، فكيف أستطيع انا أن أحافظ عليه».

وعلى نحو ما كان هناك مجال للاتفاق، كان ثمة مناسبات كنت اختلف فيها مع المدير. لكن خلافي لم يتخذ، فيما أذكر، شكل صراخ أو تذمر أو نق أو غيبة. وهنا كنت اختلف عن بعض الزملاء الذين كانوا يصرخون ويحتجون في الخارج، فاذا التأم الجمع وانعقد المجلس رسمياً فلا صراخ ولا احتجاج، ولولا الحياء لكان ثمة تقبيل، حتى لا نقول تقبيل الأيدي.

لست أدري انني كنت، في الكلية العربية أو في الرشيدية، بطلاً؛ لكنني لم أدّعِ البطولة، ولم أتطاول على الشجاعة، ثم أتراجع اذا احمرت العيون أو انتفخت الأوداج أو رقص الشنب، أو تم كل هذا معاً. وهذه جميعها كانت تبدو على أحمد سامح الخالدي اذا سمع ما لم يعجبه، أو غضب.

أحمد سامح الخالدي كان طموحاً. وكان يرى أن ادارة الكلية العربية لا تكفي نشاطه ومقدراته وطموحه. واحسب أن نجاح أخيه الدكتور حسني الخالدي في تولي رئاسة بلدية القدس، وهو أرفع منصب مدني انتخابي عرفته فلسطين، زاد في رغبته في أن يحصل على شيء أكثر. وما هو الشيء الأكثر؟ ليس المهم الدرجة فقط، ولكن من المهم أن يكون أحمد سامح الخالدي المربي المؤلف المعروف أمام الجمهور، لا قابعاً في مكتب يدير منه الكلية العربية (ولكنها كانت في نهاية المطاف مدرسة! ولم تكن بلدية أو ما يشبه ذلك). من هنا طالب أحمد سامح الخالدي بحقه في الادارة المركزية وحصل على ما يريد فعين مستشاراً فنياً لمدير المعارف (اظن ان اسم المنصب جاء من مصر. فقد عين طه حسين قبل ذلك ببعض الوقت، مستشاراً فنياً لوزير المعارف). والرتبة كانت مساعد مدير المعارف. عندها تمت التشكيلية الادارية في الطبقة العليا في المعارف: مدير المعارف (بريطاني)؛ نائبه (بريطاني)؛ خمسة مساعدين: منهم اثنان من العرب: أحمد سامح الخالدي (الشؤون الفنية) جبرائيل كاتول (للادارة والمالية) واثنان بريطانيان هما مس دانسر (لتعليم البنات) ومستر ستورات (للتعليم الفني والمهني) ومستر بنتوينش (يهودي لشؤون التعليم في المدارس اليهودية).

لكن أحمد سامح الخالدي لم يتخل عن ادارة الكلية العربية. ظل يقضي الوقت المبكر من الصباح في مكتبه بالكلية؛ ثم يذهب الى مكتبه في الادارة العامة لتصريف الشؤون هناك.

عني أحمد سامح الخالدي بتاريخ التربية والتعليم عند العرب، وخاصة المؤسسات التربوية. والذي أعرفه منه هو أن الرجل جمع مادة ضخمة، وأن هذه المادة كانت مرتبة الى حد بعيد. عرفت هذه الأمور من أحمد سامح الخالدي نفسه اذ كانت لنا حول هذا الموضوع جلسات وجولات. ولكن الزمن لم يسمح له بوضعها في شكلها النهائي الصالح للنشر (توفي أحمد سامح الخالدي في سن الخامسة والخمسين من عمره). وكم تمنيت على ابنه

وليد أن يقوم بنشرها أو يعهد الى من يمكنه أن يقوم بذلك.

وكان لأحمد سامح الخالدي نشاط خارج هذه الدوائر الثلاث: ادارة الكلية العربية، والعمل الفني في الادارة، والكتابة والتأليف. فهو مؤسس جمعية نشر التعليم العالي بين المسلمين في فلسطين (وذلك قبل توليه ادارة دار المعلمين / الكلية العربية) ثم عني بالايتام فانشأ، مع فريق من محبي الخير، لجنة اليتيم العربي وتولى رئاستها، وسعى حتى أمن لها لها رقعة أرض أقيم عليها مبنى وأُسْكِنَ فيها بعض الايتام. وذلك في دير عمرو على مقربة من عين كارم، غربي القدس.

قد يبدو أن انشغال أحمد سامح الخالدي في الادارة المركزية للمعارف أبعده عن شؤون الكلية. وهذا لم يحدث. ذلك بأنه كان كثيراً ما يوجد في مكتبه بعد الظهر اذا كان ثمة ما يقتضي ذلك. والذي أراه أن وجوده على مقربة من الرأس كان في مصلحة المعهد الذي كان يرئسه؛ ذلك بان اتخاذ القرار بأن ترقى الكلية الى درجة كلية جامعية على نحو ما كانت عليه الكلية في الخرطوم وفي أماكن أخرى. هذا القرار كان انجازه مرتبطاً الى درجة ما بهذا الوجود المباشر عند رأس النبع.

لكن المصادفة قضت بأن يجيء امعان فخري الخطيب في اساءة التصرف الشخصي في هذه الفترة، وتوضع المسؤولية على عاتق المدير، وقد وضعها الذين كانوا يدعون حب المدير ويتغنون بمآثره.

وكائنة ما كانت الأسباب فقد كان بين المدير والزملاء فجوة؛ لم تكن جفوة، لكنها كانت مسافة. وبقطع النظر عن أي شيء كنت أحس أن الزملاء لم يكن قلبهم في الكلية العربية كما كنت آمل. في السنة التي كنت أعلم في الرشيدية فقط، أدركت سبب القوة الطاردة عن المركز التي كانت تسود تصرف الهيئة التعليمية؛ فقد كان التنوع بين الزملاء كبيراً والتباين بينهم أكبر، فكانت المدرسة «دكان» العمل، يتم الواحد منهم دوره فيه وتنتهي العلاقة عند هذه النقطة. وتذكرت السنوات العشر التي قضيتها في عكا، وتذكرت اننا، في غالبيتنا، ان لم نكن جميعاً، كنا نعتبر أن مبنى المدرسة الثانوية وسكانه من التلاميذ هم جزء منا. وقد ظل موقفي أنا من الرشيدية، وهكذا كان موقفي من الكية العربية. ومثل هذا الوضع كان مريحاً لي نفسياً، ومفيداً للطلاب؛ فأنت عندما تمتن الصلة بين نفسك وبين مكان عملك، مهما كان هذا المكان، تشعر بأنك مستقر في مكان. والاستقرار هو الذي يعينك في عملك ويبين لك صلتك بالعمل ويوضح لك أموراً كثيرة تكون، بدون هذه الصلة، مترجرجة مضطربة وقد تكون حتى ضبابية؛ وهذا كله يؤثر فيك نفسياً ومن ثم في عملك على تنوعه.

البيت هو منطلق الحياة في أطرها المتنوعة؛ والبيت يمكن أن يكون اطاراً لبعض أنواع من العمل تقوم بها، وهي ليست منفصلة أبداً عن الجو الذي تعيش فيه؛ لكن مكان العمل ان لم تجعل له في قلبك زاوية، ولو صغيرة، شعرتَ، أو على الأقل كنت أنا أرى ذلك، بفراغ ليس له ما يبرره. وهذا الفراغ هو الذي يؤثر في علاقتك بعملك وبالناس الذين تعمل معهم. وأنت عندما تشتغل بالتعليم فإن **الناس** الذين تعمل معهم هم جزء أساسي من أدوات العمل. ولا يجوز، بحال من الأحوال، أن تخلفهم وراء ظهرك معنوياً كل مرة تغادر فيها المعهد الذي تعمل فيه. لست أقصد بذلك أن تحمل جميع هموم العمل الى البيت لتفرغها أمام زوجك مثلاً، كما كان يفعل جميل سعيد، وبذلك تنغص الحياة في المنزل. لا الذي أريده هو أن تظل زاوية، ولو صغيرة جداً، خاصة بالناس الذين تعمل معهم وبينهم، فلا تجدهم غرباء كل صباح تتجه فيه اليهم.

لست أدري لماذا كنت أحس كان عدداً لا يستهان به من الزملاء، في الكية العربية وفي الرشيدية، كانوا ينظرون الى وجوه التلاميذ باستغراب صباح كل يوم كأنها وجوه جديدة. وحتى الابتسامات التي كانت تبدو على الوجوه، وكانت عند البعض نادرة، كانت تظهر على خجل واستحياء أو حتى على بخل وكأنها جاءت بعد

استجداء.

لا أشك في أن الكثيرين من الزملاء كانوا يعتبرون عملهم في التعليم شيئاً أُرغموا عليه. ولم يكن ثمة ارغام الا في حالة أولئك الذين حصلوا على بعثات من ادارة المعارف. وحتى هذا كان ينتهي بمجرد أن يتم المدرس المدة المنصوص عليها في العقد. وكان البعض يرى أن التعليم عمل صعب وان مكافأته أقل بكثير مما يستحق. وكان غيرهم ينفسون على آخرين يعملون في الادارة ـ في الوظيفة الحكومية ـ مراكزهم الاجتماعية (ان وجدت). ومن هنا كان كثيرون فعلاً يعدون أياماً ويقبضون راتباً.

كنت أنا اختلف عن كثيرين من الزملاء. أنا كنت اتجه نحو المدرسة في عكا والرشيدية والكلية العربية في القدس بكثير من الحماسة والنشاط، وانظر بشيء من السرور الذي يملأ قلبي عندما أقابل أول تلميذ. لا أنكر أن مهنة التعليم شاقة ومتعبة لكن الذي لا أقبله انها تضحية. كل عمل يكون شاقاً ومتعباً وتضحية اذا لم يكن صاحبه يحبه. لقد راقبت في حياتي كثيرين مما يقومون بأعمال فعلاً شاقة، بل وخطرة، مثل أعمال البناء وعقد السقوف (من زمان) ولكنني كنت أشعر بكثير من الغبطة وأنا أشاهد الحاج حسن (في طولكرم) ينظر الى الجدار الذي أتم بناءه حجراً حجراً (قبل أيام صب الباطون) ويداعبه كأنه ينظر الى كائن حي ويداعبه. وكان سليم شرش (دنّون) ابن عم امي يعمل في تقصيب الحجارة وصقلها. وقد زرته أكثر من مرة في المقلع (مقلع الحجارة) حيث كان يعمل بالمطرقة والشاطوف. لم يكن العمل هيناً؛ ولكن سليم كان، عندما ينتهي من تقصيب حجر ينظر اليه نظرته الى كائن حيٍّ نما على يديه.

وأنا، بعد أن عملت في التعليم على مستوياته المختلفة. من تعليم ابتدائي في القرية (ترشيحا) حتى التعليم الجامعي في كثير من الجامعات وعلى مدى ست وستين سنة (حتى اليوم ١٩٩٠) أراني أذكر كل درجة وكل خطوة وكل سنة بكثير من الغبطة والحماسة. وأحسب أن هذا هو السبب الذي يحمل طلابي على السؤال عني وتفصي أخباري وأخذي بما يشبه الضم مع التقبيل عندما يلقونني. أنا لست وحيداً في هذا، ولكنني واحد من الذين أحبوا ـ وهم بعد يحبون ـ التعليم.

أنا محب الرحلة والتنقل. وكان من الطبيعي أن لا أتخلف عن زيارة ما كان يسمى يومها «إمارة شرقي الإردن». وقد اتيح لي ذلك في سنتين متواليتين، فكانت سنة ١٩٤٢ حصة جنوب المنطقة، وزرت في السنة التالية الجزء الشمالي من البلاد. وقد دونت شيئاً عن الرحلتين في سنة ١٩٤٥، وها أنا اثبت ذلك هنا.

وقد تمت الزيارة الأولى برعاية الصديق ناصر الدين الأسد الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة الأردنية والوزير فيما بعد، الذي كان يومها طالباً في الكلية العربية؛ وكانت ضيافتنا في الكرك عند آل المجالي. وكان عبد السلام المجالي (الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة الأردنية والوزير فيما بعد) يومها طالب طب في الجامعة السورية بدمشق، وهو وناصر الدين صديقان واضفت أنا الى قائمة الصداقة.

أما الزيارة الثانية فقد كانت برفقة أديب عتقي وأديب خوري (المهندس الصحفي). وكانت في سيارته الصغيرة المسماة زنوبيا الثانية.

في ديار الانباط (١٩٤٢)

تحرك بنا القطار من محطة عمان واتجه نحو الجنوب. وكان الركب مختلطاً، ففيهم التجار الذين يحملون ما جمعوا من حوانيت دمشق وعمان لينقلوه الى من يحتاجه من أهل الكرك ومعان. وفيهم بدو عائدون الى

مضاربهم بعد أن قضوا لبانتهم من مباهج عاصمة الامارة وغيرها. وفيهم جنود راجعون الى العقبة. وفيهم قلة من طلاب اللذة خارج المدينة حيث تكثر الآثار القديمة. وسار القطار يطوي البيد طياً رفيقاً، اذ لم يكن باستطاعته أن ينهبها نهباً. وبدت على التجار الذين يجتازون هذا الطريق مرات في العام الواحد امارات الملل، أما أنا فكنت اتطلع الى كل جزء من الارض أحاول التعرف إليه شبراً شبراً. هذا وأنا أعرف أنني لن أجد فيها تنوعاً. فنحن نسير على سيف البادية وليس هناك من مظاهر الحياة إلا هذه الخيام التي تبدو للعيان بين حين وآخر وإلاّ هذه الأرض القفراء، فقد كان الوقت أواخر الصيف ولا سبيل لحياة نباتية تطالعنا في تلك الجهات. ولكن من اعتاد أن يحب بلاده وإن جارت عليه، وأن يحب أهله وإن ضنوا عليه، رأى بلاده عزيزة ورأى أهله كراماً. وهذا الركب لا تكاد تمر عليه ساعة وبعض الساعة حتى تربطهم اللغة بعضهم ببعض فيتحدثون حديث إخوان وخلان، ويتشاكون شكوى أصدقاء أعزاء ويروي الواحد قصته فيضحكون حيناً ويألمون حيناً، حتى أن الدخيل بينهم يحسب أنهم أفراد أسرة واحدة فرقت بينهم الأيام ثم جمعتهم، فاذا المياه تعود الى مجاريها. وكان أبو شام التاجر الدمشقي المقيم بالكرك، سلوة الركاب فيما قص عليهم من طرف اختباراته في الاتجار والسفر، حتى أنه لما تركهم في القطراني أسفوا لذلك، وودوا لو أنه يقصد معان ليتم سرورهم به.

ويمر القطار بهذه المحطات القائمة في طريقه. وأكثرها يتكون من بيت لناظر المحطة ومكتب له. وفي بعضها بنايتان أو أكثر لخزن غلات المنطقة المتجمعة فيها تمهيداً لشحنها. هذه زيزياء وبركتها التي بنيت لجمع الماء. فاكثر هذه الأماكن خال من الينابيع. وسكان المحطات أنفسهم يحمل إليهم القطار الماء من عمان فيودعونه في صهاريج بنيت لذلك ويستعملونه بقصد إلى أن يحين الموعد التالي لمجيء القطار فياتي لهم بكمية جديدة من الماء.

ويحدثك أحد الركاب إذ تطل على زيزياء فيقول إلى يمينك، إلى الغرب تقع مادباً وإلى يسارك، إلى الشرق، يقع قصر المشتى. وأتذكر أنا زيارة سابقة لهذين المكانين، فتعود إلى نفسي ذكرى هذه القطع الجميلة من الفسيفساء التي هي من مفاخر الفن السوري قبيل الفتح العربي لهذه البلاد. أذكر كيف دخلنا بيتاً أو أكثر في مادباً فكان أهله يرفعون الحصير الذي يكسو الأرض فتظهر تحته هذه القطع الفنية، بعضها يمثل أبراج الشمس الاثني عشر وبعضها يظهر الفصول والبعض الآخر فيه زهور وطيور واضحة التفاصيل ظاهرة الأجزاء. وأتذكر زيارة لقصر المشتى. وهو قصر يعود إلى أوائل عصر الامويين وهو واحد من هذه القصور الصحراوية التي بناها الخلفاء ليخلصوا من ضوضاء دمشق، ويستمتعوا بهواء الصحراء النقي. وأنك لتدخل ما تبقى من المشتى، فتقف فيه حائراً دهشاً: لأن القوم صنعوا شيئاً لم يعرفه الشرق منذ أيامهم. وكانت هذه الأماكن تحوى من لوازم الرفاهية ومقتضيات العيش الهنيء ما لم يكن الحصول عليه سهلاً في المدينة، بله قصراً في الصحراء.

تذكرت هذا، وتذكرت غيره، وأنا أقلب ناظري في هذه الأماكن. ألم يحمل مد سكة الحديد هنا بعض البدو على تغيير طراز معيشتهم والانتقال إلى حياة مستقرة حضرية؟ وانتقل تفكيري إلى عبد الحميد، عبد الحميد الثاني سلطان تركيا. صاحب فكرة هذا الخط لقد أعيت السلطان هذه الثورات التي كانت كثيرة الحدوث في بلاد العرب، من الحجاز الى اليمن. وعقد النية على التخفيف من حدّتها إن لم يكن على القضاء عليها. فرأى أن يصل اليمن، بسوريا بخط حديدي يمكنه من السيطرة على الطريق وإرسال الجيوش متى احتاج الى ذلك. لكن نفقات مثل هذا الأمر كبيرة. وخزانة السلطان لا تتحملها، وإذن فلتتعاون قريحة السلطان الوقادة، وذكاء وزيره الأول شوكت باشا على إيجاد حل لهذه المشكلة. وتوصل الرجلان إلى فكرة لم يلبثا أن أبرزاها إلى حيز العمل.

إن هذا الخط سيجعل أداء فريضة الحاج أسهل على المسلمين متناولاً، وسيجعلهم هذا الخط بمن يقوم على حراسته من الجند، في مأمن من اعتداء القبائل على قوافل التجار، وسيقصر المدة اللازمة للقيام بالحج. وإذن فليشترك المسلمون في بناء الخط. ودعا عبد الحميد العالم الإسلامي إلى ذلك، فلبيت الدعوة وتدفقت التبرعات،

ودفع موظفو الدولة العثمانية كلهم مرتباتهم لشهر واحد لمساعدة المشروع، وأمر الجيش بالعمل فيه. فكان في ذلك كله ما افسح للفكرة المجال فصارت عملاً. ودفعت العمل همة عبد الحميد التي لم تكن تعرف الملل أو التعب فسار سيراً سريعاً، ولم يلبث أن وصل أول قطار إلى المدينة سنة ١٩٠٨ آتياً من دمشق. وبذلك تم الجزء الأول من خطة السلطان الجريء. ووقف عند هذا الحد لأن السلطان انتهى امره. ولأن خلفاءه في السلطة شغلتهم عن تتميم الخط شواغل أخرى.

والوقت الذي كان علينا أن نقضيه في القطار طويل نهار كامل من عمان إلى معان. والحديث، مهما حلا وعذب، قد يمله الناس إذا طال، ولكن المسافر الحريص يصطحب رفقاء لا يملهم ولا يملونه. وكنت قد حملت معي كتاباً أو اكثر فعكفت على القراءة بعض الوقت. لكن هذه القراءة كانت تقطعها علي رغبتي في أن أراقب الأرض. وكان صاحبي يصرخ آنا بعد آخر لافتاً نظري إلى قطيع صغير من الغزلان ينفر إذ يسمع صفير القطار أو دويه فيذكرك ببيت شوقي:

تلفتت ظبية الوادي فقلت لها ... لا اللحظ فاتك من ليلى ولا الجيد

وساءلت نفسي. اكانت هذه البلاد دائماً قاحلة على هذا النحو؟ لكن الجواب جاءني من مصادر مختلفة بأن ذلك لم يكن. فقد كانت ثمة بقاع تكسوها الغابات، لكن عدا عليها الزمن فاجتثت ولم يغرس مكانها غيرها. واشار صاحبي إلى قرب وادي الحسا وقال: إن المنطقة الواقعة إلى الغرب كانت مكسوة بالأشجار في أوائل القرن الحالي حتى أن الحكومة التركية رأت أنها تستحق أن يمد فرع من سكة الحديد إليها لتنظيم شحن الأخشاب منها، فقلت في نفسي أما الخط فمدّ، وأما التنظيم فلم يكن، لذلك اقتطعت الأخشاب وماتت الأشجار. فإنني لما مررت بتلك البقعة بعد أيام رأيت فيها بضع شجرات حيث كانت غابات واسعة قبلا.

وكنت وانا في هذه الطريق اذكر الغساسنة. لقد عمر هؤلاء مشارف الشام وكانت لهم فيها دولة وكانوا عرباً خلصاً من الذين جذبتهم المدنية اليها فاحبوها واعجبتهم الحضارة فاستمرأوها لكنهم، مع ذلك، لم يتركوا فضائل العروبة وإباءها وشممها، وإليهم يرجع الفضل في اتمام تعريب شرقي سوريا قبل الفتح الإسلامي.

وهمت الشمس بالغروب، فأخذ الأفق الغربي يكتسي بأثواب مختلفة الوشي متباينة الألوان تتعاقب عليه دقيقة اثر الأخرى. وفي كل حالة كان يبعث في نفسي موجة من الإعجاب لا تكاد تهدأ حتى تعقبها أخرى، وبينا نحن في هذا الطرب النفسي وقف القطار وصاح صاحبي «هذه معان» فنزلنا.

واستضافنا في المدينة صديق لصاحبي رافقنا كل الطريق واقسم إلاّ نزلنا عنده. وكان أوّل ما قدّم من الطعام تمر مقلو بالسمن. فقد كنا في رمضان، وسنة الافطار أن يبدأ بالتمر. واتباع السنة عند أهل معان ميسور. وقضينا أمسية وليلة في ضيافة عربية بعيدة عن الكلفة. وكانت أولى عدد من الضيافات استمتعنا بها في تلك الربوع.

واعتزمنا أمرنا على أن نزور البتراء، والبتراء غاية الزائر في جنوب شرقي سوريا. وسرنا عصر يوم قاظ وسطه وطاب مساؤه، وصلنا مقر بوليس وادي موسى قبيل المغرب. ووقفت على المكان الذي تتوسطه البتراء، دون أن ترى. وكانت الألوان التي تنعكس من الجبال الرملية، إذ تلقي عليها الشمس أشعتها الباهتة المريضة، لا تعدّ ولا تحصى. فهي ورد أصناف، ودماء مهراقة كأنها نزفت ممن صرعه بالكثيب البهر. وهي الى ذلك كله قوة في رقة، وصلابة في لين. تدعوك إليها دون أن تتزلّف، وتفتح لك قلبها دون أن تتبذل، وتحملك على تقبيلها دون أن ترمي بنفسها بين يديك.

كانت الشمس لم تظهر بعد على الأفق الشرقي لما وجدتني أسير وصاحبي في طريقنا الى البتراء وكان السير الضيق منفذنا الوحيد إلى خزنة فرعون. فوقفنا أمامها وقد تدلت من فوقنا بوادر أشعة الشمس فجعلت

هذه الواجهة المنحوتة في الصخر الوردي المصفر آية من آيات الفن التي تتحد الطبيعة ويد الإنسان على إخراجها في تلك البقعة. وما أكثر الأماكن التي يتمثل فيها هذا التعاون بين القوتين. فإنك واجد في كل ناحية من نواحي البترء عشرات من هذه الآيات.

ولست أريد أن أزعجك أيها القارىء الكريم فأنقل إليك هذه الصور مشوهة. فالحق أن كل ما كنت قد قرأته عن البتراء تضاءل شأنه لما وصلت إلى هناك ورأيت هذا الشيء الغريب. ووجه الغرابة في الأمر ليس نحت بضعة بيوت أو معابد في الصخر الأصمّ، ولكن وجه الغرابة هو أن يفرض الأنباط على الناس أن يأتوا لمدينتهم مرتين. المرة الأولى يوم جاءوها للاتجار، وقد كان الأنباط العرب سادة التجار في جنوب سوريا. والمرة الثانية بعد ذلك بنحو عشرين قرناً إذ فرضوا عليهم أن يزوروها ليستمتعوا بها آية فنية. ولن يمكنك، يا أخي، أن تلم بهذين الأمرين إلا اذا زرت البتراء، فاذهب.

وما قولك بشعب يحتل هذه الأصقاع في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد كانت فيها حضارة تقوم حول الكرك وعمان، وكانت فيها صناعة تتمركز في وادي العربة والعقبة، فيتخير هذه البقعة الصخرية الجافة ليحفر فيها عاصمته ويجعلها مركزاً للاتجار ثم هو يحمل القوافل على أن تتجه اليها ويحمل التجار على الاجتماع فلا تلبث أن تصبح السوق الرئيسية لمتاجر بلاد العرب ومصر وسوريا الداخلية والساحلية. ولا تلبث أن تمتد أبنية العاصمة ومحفوراتها وتنتشر على الآكام التي تحيط بوادي البتراء الرئيسي، فتبدو البقعة الجافة وقد أينعت لأن أهلها أرادوا لها ذلك، وتظهر المدينة الصخرية وقد اكتست بالورد والخز والديباج لأن سكانها أرادوا لها ذلك.

ويسيطر الأنباط أو تسيطر البتراء على طرق التجارة كلها، وتنشر، مع تجارتها، حضارتها، فنرى الأسلحة تصنع في الشمال على شكل نبطي، ونرى المعادن تستخرج على نحو ما يريد الأنباط، ونرى آلهتهم تعبد على نحو ما يعبدونها.

ونقضي يوماً في البتراء. ويشتد الحر، فنقيل عند نبع ماء يكاد ينبثق من الصخر، لكن بعض الأتربة التي تتحرر من ربقة الصخور تتجمع حولها شجيرات الدفلة، وهذه تحمل زهوراً جميلة، فتقع العين على شيء يتم جمال هذه الصخور الملونة.

وعدنا من زيارة اليوم، وكانت السيارة تنتظرنا، فقطعنا فيها قرابة أربعين من الكيلومترات لنطل على الشوبك. وهي قلعة حصينة في جنوبي البلاد، بناها الصليبيون لما استولوا على تلك الجهة، فلما أخرجوا استولى عليها الأيوبيون واستمرت بعدهم لأهل البلاد. وقد تخلى عنها الفارس للفلاح والراعي، لكن الفلاح والراعي متى خطر لهما أن يثوروا اتخذا من جدرانها وحصونها الكاملية ترساً يختبئون خلفه، ويرمون الجند المهاجم بالسلاح والحجارة. فقلعتهم تقوم على قمة رابية تحيط بها ثلاثة أودية تتحد على درء الخطر عنها، ولا يمكن الاقتراب منها إلا فوق جسر واحد إلى شمالها الغربي.

وعدنا من الشوبك إلى معان، وأدركنا المغرب في الطريق. وأوقفت السيارة لإصلاح عطب طرأ عليها، فاغتنم ركابها تلك الفرصة، وأوقعوا ببعض التين الذي كان عطا الله يحمله هدية الى أهله. ولكن من حق الصائم أن يفضل على صاحب الهدية. وأتم عطا الله كرمه بأن أقسم إلا تناول الجميع عنده طعام الإفطار تلك الليلة. وكان له ذلك.

وفي صباح اليوم التالي أقلنا القطار من معان إلى القطراني، فقد كانت الكرك وجهتنا هذه المرة، وكنت احسب أنني رأيت كل شيء في الطريق، فلا يكون ثمة من جديد. لكنني أخطأت الحساب. فما كدنا نقضي ساعة في الطريق حتى دعاني صاحبي إليه، وأشار الى شيء بعيد في الأفق. أنه السراب. نعم هذا الذي يحسبه الظمآن ماء. فيتجه نحوه، ويشدد العزم، ولكنه في واقع الأمر يسعى خلف انعكاس أشعة الشمس على حرات الأرض.

نعم لقد كانت الأرض هناك بركانية، وهذا شعاع الشمس ينعكس عليها، فيخيل اليك انك ترى الماء، والماء عنك بعيد.

راقبت السراب هذا، وجلست بعدها في القطار أحدث نفسي واستمتع بتدخين غليوني، وطال بي التحدث الى نفسي، وخرجت منه وأنا أردد: - الأنباط، الغساسنة، الفتح العربي، اليرموك. نعم لقد كانت كل كلمة من هذه تمثل خطوة من تلك الخطوات المباركة التي انتهت بصيرورة هذه البلاد عربية. ولئن كانت البتراء وبصرى محطات للاتجار، ولئن كان المشتى قصراً للنزهة، فقد كانت كل هذه محطات انتشرت منها اللغة العربية ومراكز انتشر منها العنصر العربي، واتحدت معها الحيرة وتدمر والبصرة والكوفة وواسط ودمشق والرملة وحلب وكل مدينة أخرى. وجماع هذا الجهد الذي شمل هذه الرقعة الواسعة، وامتد كل هذاالزمن هو أن أصبحت هذه البلاد عربية، وبت أشعر انني في وطني حيث نزلت وأنَّى ارتحلت.

الى جرش (١٩٤٣)

ألقى الرفاق نظرة أخيرة على المدرج الروماني الجميل الذي تزدان به عمان، واتخذوا مقاعدهم في السيارة الصغيرة التي كانت ترابط عند أقدام التمثال المحطم الرأس، وقال قائلهم «إلى جرش». وسارت السيارة الصغيرة تطوي الجزء من الطريق بعد الآخر، والأصحاب الثلاثة صامتون إلا من ملاحظة عن مكان أو غير ذلك فلما اطمأنوا الى أن الطريق خير مما وصف الواصفون ودون ما هول الناس انطلقت ألسنتهم من عقالها وتحدثوا بجمال هذا الوادي الذي بدأوا يقبلون عليه - وادي الزرقاء. ونشر أحدهم بين يديه كتباً وتناول الثاني خارطة أخذ يتقرى فيها أسماء الأماكن التي كانوا يجتازون، بينما شغل الثالث نفسه بقيادة السيارة.

وتحدثوا ملياً وذكروا فيما ذكروه أن ذلك الجزء من سوريا المعروف اليوم باسم شرقي الأردن، كان في القرن السابق للمسيح عرضة لنهب الناهب وسلب السالب. فقد كانت قبائل البدو تشن عليه الغارة تلو الغارة، وتحمل ما حوته مدنه من كنوز إلى منازلها المتنقلة، وكانت دولة الأنباط في البتراء تقود عليه الحملة إثر الحملة فتحتله أو بعض أجزائه، فاذا انسحبت منه عادت قبائل البدو الى أعمالها في أنحائه. وبذلك تخربت تلك المدن التي كان اليونان قد أنشأوها وتعهدوها في ربوعه والتي كانت مشرقة المباني، جميلة الهياكل، فأصبحت وكأنها أطلال تنعي بناتها.

وأشار الرفاق في حديثهم إلى أن هذه الحال دامت حتى جاء الرومان سوريا، واحتلوها، وامتد سلطانهم إلى سيف البادية، فأعادوا الى شرقي الأردن طمأنينتها، وأمنها، فعادت المدن إلى الازدهار؛ وذكر أحدهم أن السر في أن الغالب على بناء هذه المدن نزعة الفن الرومانية، مع أنها أنشئت لأول مرة في عهد اليونان، يرجع إلى هذا الدور الذي مرت به البلاد قبل احتلال الرومان لها.

عنى الرومان بتنظيم الادارة في سوريا وبحماية البلاد من هجمات البادية؛ وفي سبيل الوصول الى هذين الغرضين أنشأ الرومان عدداً من القلاع والحصون تمتد من جنوب عمان الى درعا فالفرات؛ وأعادوا الى كثير من المدن المهملة قيمتها وعمروا مبانيها، فتقاطر الناس إليها واتخذوها مقراً لهم من جديد، فكانت زيزياء وعمان (فيلادلفيا) وجرش وفحل وبيسان ودرعا مما عمروه. وأدرك الرومان أن الجيش في سوريا عدتهم في المحافظة على البلاد، وأن سرعة انتقاله عامل مهم في ذلك، فبنوا الطرق التي كانت تصل بين هذه المدن، وبينها وبين مدن الساحل السوري. فكانت عكا (بطلمايوس) وبيروت وما بينهما تتصل مع بيسان وفحل وجدارا وجرش ودمشق اتصالاً مباشراً على طرق مبنية من قطع كبيرة من الحجر كالتي كان يستعملها الناس في بعض مدن

سوريا إلى عهد قريب لتبليط عرصات الدور الكبيرة. وكان ثمة طريق يمتد من دمشق إلى فحل أو درعا، ثم يمر بجرش فعمان جنوباً. ولما احتل تراجان في أوائل القرن الثاني للميلاد، البتراء، وضمها الى الامبراطورية أتم الطريق بحيث أصبحت تصلها، وبذلك ارتبطت كل أجزآء البلاد بشبكة من الطرق يسرت نقل الجنود من مكان إلى آخر.

لكن الطريق متى أنشئت لا يقتصر استعمالها على الجيوش، سيما إذا كانت تجتاز بلاداً جعلتها الطبيعة طريقاً للتجارة. فان موقع شرق الاردن بين الحجاز جنوباً وبقية سوريا غرباً وشمالاً، والعراق شرقاً، جعلها بحكم الطبيعة من أقدم الأزمنة طريقاً للقوافل التي كانت تحمل متاجر اليمن والحجاز ونجد إلى تيماء والبتراء وغزة ودمشق. فلما انتشر الأمن والنظام على أيدي الرومان لمدى ثلاثة قرون، عاد إلى المدن نشاطها التجاري وأصبحت أسواقاً لكل أنواع المتاجر ومركزاً لكل القوافل. فازدهرت حياتها الاقتصادية، ونمت ثروتها، وزاد سكانها، وعادت إليها المباني المشرقة، والهياكل الجميلة، ونشطت مجالسها المحلية لتجميلها، وعنى حكامها بتحسينها، فبقيت لنا من جراء هذه العناية وذلك النشاط، هذه الآثار الخالدة التي يشاهدها المرء في كل ناحية من نواحي البلاد.

فأنت واجد في كل مدينة من مدنها الكبيرة مدرجاً يتسع لأربعة آلآف أو أكثر من المتفرجين، كانوا يجتمعون فيه ليشاهدوا تمثيل الروايات التي كتبها أبناء البلاد أو نقلوها عن اليونان، وأنت ملاق في كل مدينة ساحة ندوة كان الرومان يسمونها «الفورم» حيث كان يلبي أحرار المدينة دعوة رئيسها لاجتماع عام يقرر فيه من الأمور هامها، وأنت عاثر في كل منها على بقايا دار المشيخة حيث كان يجتمع مجلس المدينة لإدارتها.

ولما كانت هذه المدن أو أكثرها قد وجدت في زمن اليونان فقد تأثرت بالنزعة الهندسية التي عرفت بها المدن اليونانية الهلينية. ذلك أن شوارعها كانت تتقاطع على زوايا قوائم، وتسير على خطوط مستقيمة. وكانت المياه العذبة الصالحة للشرب تنقل اليها من مسافات بعيدة. فقد نقلت مياه الشرب إلى درعا من مسافة خمسة عشرة كيلومترا، كما عنى المهندسون بالمجاري للتخفيف عن المدينة.

وقد رافق هذا الاطمئنان والاثراء نهضة فنية قوامها أهل البلاد أنفسهم فبدت آثارها في تزيين أرض البيوت والهياكل بالفسيفساء الجميلة التي تحوي أشكالاً ورسوماً بديعة. ولما كانت النصرانية قد أخذت تنتشر في تلك البلاد في هذه الأثناء، اهتم الناس ببناء الكنائس، ورصعت أرضها بالفسيفساء التي شملت صور القدسين ومناظر من الكتاب المقدس وخارطة لفلسطين وبيت المقدس وفيها كنيسة القيامة، يمكن مشاهدتها الى الآن في مادبا وغيرها من مدن شرق الأردن.

وكان الرفاق قد شاهدوا الكثير من هذه الآثار التي تحدثوا عنها في مادبا وعمان، وزاد شوقهم الآن الى جرش. ولم يقطع حديثهم إلا إشرافهم على وادي الزرقاء العميق. فأخذ سائق السيارة ينحدر في الطريق المؤدي الى الجسر بحذر، حتى وصله. وهناك وقفوا وتأملوا المنظر الجميل، ورأوا الوادي الذي يفصل البلقاء عن عجلون والذي يصب ماؤه في الأردن أخيراً.

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب لما بدأت السيارة تصعد في الجهة الأخرى من الوادي إلى سفوح جبال عجلون المكسوة بغابات الصنوبر والبلوط والسرو، فكان هذا يزيد شعورهم بالغبطة والسرور. وغربت الشمس وهم في الطريق فازداد تأثرهم بمداعبة هواء الصيف للأشجار وبأصوات العصافير وهي تأوي الى الأغصان، وخرير مياه الينابيع التي كانت تباغتهم على جنبات الطريق.

وفجأة رأوا باباً كبيراً كل ما بقي منه ركاه وتاجه، فعرفوا أنهم وصلوا إلى جرش. فمروا به محيين إلى البلدة الحديثة الصغيرة. ونعموا ليلة في جرش بضيافة أخ كريم، أهل بهم ورحب، وفتح لهم بيته وصدره، فاستمتعوا

بكرمه وحديثه، ورافقهم في الصباح لزيارة جرش القديمة.

دخلوا من الباب، واتجهوا فتسلقوا المسرح المدرج، وأشرفوا منه على الآثار التي كشفت أيدي المنقبين والباحثين القناع الترابي عن اكثرها. فانبسطت أمامهم ساحة الندوة البيضاوية الشكل والتي لا تزال أرضها المبلطة كما كانت عليه قبل ألف وستمائة من السنين، وحول هذه الندوة تقوم الآن نحو سبعين من الأعمدة الكورنثية الجميلة، غير الذي تهدم بفعل الزلازل على توالي القرون.

وإذ نزل القوم إلى الساحة، واجتازوها انتقلوا الى الشارع الرئيسي الذي كان يخترق المدينة من جنوبها الى شمالها، وهو مكون من طريق للمركبات عرضه نحو ستة أمتار في الوسط، يحيط به رصيفان مرتفعان للمارة. وعلى جانبي هذا الشارع، كانت تقوم الحوانيت والمتاجر الكبيرة. فضلاً عن ساحة الندوة التي كانت سوقاً للتجارة.

ويمر السائر في هذا الشارع بحوض منحوت من الصخر الأحمر الجميل، تعلوه مصاب للماء، أغلب الظن أن آلهة الشعراء كانت تسبح فيه إذا ما جن الليل، وهجع الناس إلا أهل الأحلام.

ورأى الرفاق بقايا هيكل أرطميس وهذا الهيكل كان فيه مئتان وستون من الأعمدة الكورنثية، لا يزال قائماً منها ثلاثة عشر، وقد كانت الشمس تعبد في هذا الهيكل، كما كانت تعبد في طرابلس وبعلبك وغيرهما. ذلك أن الوثنية في القرن الثالث الميلادي كانت قد نظمت شؤونها على أيدي كهنتها الذين تأثروا بعلم الفلك والتنجيم البابليين، ودخلتها أساطير النجوم، فاتجهت نحو اعتبار الشمس قلب الكون النابض، ومصدر النور الخالق للعالم، وبذلك عبد أهل سوريا الشمس على أنها أكبر الآلهة. ومن هذه البلاد أخذت عبادة الشمس تنتشر في العالم الروماني، بتأثير هؤلاء الكهنة الذين اهتموا بتفسيرها وشرحها للناس. حتى أن الامبراطور أورليان رفع «الشمس التي لا تغلب» الى مقام أسمى إله في الامبراطورية.

وزار القوم ما تبقى من الكنائس التي تحوي صوراً من الفسيفساء تمثل استشهاد بعض القديسين في أيام الاضطهاد الديني القديم.

وبينما هم يهمون بالخروج من المدينة من الجهة الشمالية لفت أحدهم نظرهم إلى الحمام والى عين الماء الصافية التي تنبع بقربه، وتنساب إلى وادي جرش المكسوة جنباته بالغياض الوارفة الظلال.

وركب الرفاق السيارة، فانطلقت بهم تقطع ما تبقى من جبال عجلون، تنحدر تدريجاً الى أربد، وأنهم يتحدثون ثانية عما رأوا في جرش، بعد أن تحدثوا في اليوم السابق عما سيرون، واذا بخط أسود يظهر فجأة على الأفق البعيد فيتساءلون ماذا عساه أن يكون؟

إنه خط يفصل جبال عجلون الكلسية عن هضاب حوران والجولان البركانية. أنه وادي اليرموك. ولكنهم إذ وصلوا أربد انحرفوا غرباً في وادي العرب، ولم يلتقوا باليرموك إلا حيث يصب في الأردن وقد مروا على مقربة من فحل وبيسان. وهكذا قضوا يومين في الطريق إلى جرش ومنها.

الفصل العشرون

بعد عودتي من لندن بقليل تعرفت الى نجلا. واحسب ان نجلا لم تحدثها نفسها بقضية الزواج مني؛ على الأقل لم يكن هناك أية اشارة. هي صحبة نعمنا كلانا بها بعض الوقت.

كانت نجلا سمراء اللون نحاسية البشرة. كان وجهها فيه بعض جمال، وكان فمها كبيراً، لذلك كان يستطيع احتواء القبلة احتواء تاماً، وكانت هي تجيد أخذها وتجيد اعطاءها أو على الأصح، تسمح باغتصابها منها، وتضحك بعد ذلك ضحكة سرور ومتعة. لكن جسمها كان منتظم الصنع، طويلاً في غير زيادة؛ وكان لها نهدان يصمدان للهجمات، وردف فيه ما يكفي للقبض عليه.

كنا نستمتع بصحبتنا. سواء كان ذلك في مقهى حيث نحتسي القهوة ونسخر من أنفسنا ومن الناس، أو كنا متمددين الواحد الى جانب الآخر، ويد كلٍّ تغشى من جسم الثاني ما تحب، أو يختطف الواحد منا قبلة من الآخر على حين غرة، والآخر يدعي انه أخذ على حين غفلة.

،كنا نبلغ الغاية من المتعة عندما نتداخل أجزاء في أجزاء. وكانت نجلا تتقن اللعبة، وكنت أنا ألبي النداء أو الدعاء. فأنا في عز شبابي وهي في أيام نضجها.

لكن الذي أنا واثق منه هو اننا لم نعشق واحدنا الآخر. أنا جربت العشق من قبل مرة واحدة مع نورا في المانيا. لقد كان كل شيء يتم معها عشقاً في عشق: قبلتها ومضاجعتها كنت أحس بهما في كل جزء من جسمي، وكنت أغلي كالمرجل. أما نجلا فلم أشعر معها بذلك. كان ميلاً عميقاً؛ كنت انتظر لقاءها، وأحس بدفء قبلتها، وبنار جسمها، لكن لم احترق بذلك.

ودامت عشرتنا سنة تقريباً؛ وانتهت كما ابتدأت ولم أشعر بفقدها!

كنا نحن الأصدقاء الأربعة - فرح رفيدي وعبد الحميد ياسين واديب عتقي وأنا - في سن الزواج (حتى كان البعض يحسب اننا قد تأخرنا). ولكن اثنين منا سعيا للحصول على زوجة. فرح رفيدي وعبد الحميد ياسين. عبد الحميد كنت أنا رفيقه في واحدة من المحاولتين اللتين لم تنجحا. ولست أحسب انه كان ثمة حب. هو تعارف أدى الى شيء من التآلف مع محاولة لتوسيع نطاق هذا لينتهي بالزواج. لكن الأمر انتهى الى لا شيء.

ومحاولة فرح رفيدي كان لها تأثير علي. تعرف فرح الى و. ط. وبالمصادفة ولقيت قبولا في نفسه. فرح قصير القامة، خجول، اسمر لكن سمرته جميلة؛ الى هذا كان فرح قليل الحديث بطيء التكلم. فرح كان يحب أن يكتشف «و.» كانت أطول من فرح، وكانت بيضاء البشرة بضة الجسم. فيها ميل الى الأنس؛ ولو انها لم تكن لعوباً بالمعنى المتعارف عليه. كانت مستعدة لأن تُحَبَّ، وأنا واثق من انها لو أحبت لأسعدت. لكن «و.». لم تكن مستعدة أن تبذل الجهد لاكتشاف الرجل كي تحبه. كانت تريد رجلاً يمكن أن يتفاهم معها بنكتة أو كلمة من أول الأمر، وعندئذٍ قد تسير الطريق - بعضه أو كله.

ولأن فرح رفيدي خجول أراد أن يكون في رفقة آخرين عندما يزور «و.» أي، بعبارة أخرى، كان يريد أن يؤخذ الأمر وكأنه جاء مصادفة. وكانت تربط جميل سعيد بواحد من اخوة «و.» صداقة، لذلك تبرع جميل

وزوجته جوليا للقيام بدور الدرع الواقي، واتعد زيارة أهلها، وقال لهم انه سيحضر معه صديقين للتعرف عليهم. وتمت الزيارة.

ولم تفت الأهل الأم والأخوين والأخت المعنى المستتر وجوباً خلف الزيارة وأصحابها. وبعد ذلك زارهم فرح والتقى «و.» وزرتهم أنا وتصادقت مع الأخ الأصغر. وفي أحد الأيام جاء فرح رفيدي لزيارتي أو لزيارة جميل سعيد وهو غاضب حانق لأنه أهين. والاهانة كانت انه لما فاتح «و.» في قضية الزواج اخذت الأمر بشيء من الاستهانة وقالت له انه عليها أن تستشير أهلها.

كان رأينا ـ جميل وجوليا وأنا ـ أن يعتبر القضية منتهية. لكنه لم يقبل وأصر على محادثتها، وطلب الجواب حالاً. وكان الجواب أن زار أخوها جميل سعيد وطلب منه أن يحمل فرح رفيدي على الكف عن التحرش باخته والا عرف شغله معه! وكنت أنا حاضراً هذه الزيارة. ولما سألته أنا هل من سبب يمنع مثل هذا الزواج من جهته، قال ببساطة «بعد ناقص، فلاح، وقزم». لم ننقل نحن الى فرح قول الأخ أو تهديده، ولكن فرح بعد حديث ثانٍ مع «و.»، اقتنع بعقم المحاولة.

وفي جلسة خاصة في بيت جميل (لم يحضرها فرح) قالت جوليا: ما هو فرح ورط حاله، مين بروح يزور صبايا وبياخذ نقولا معه؟ أنت ولا شك يا نقولا عطلت على فرح.

وكانت هذه نظرة سيدة تفهم الامور، وتدرك ملابساتها؛ وقد صدق حدسها، فقد عرفت من تصرف «و.» فيما بعد أنها كانت تميل الي. لكن الذي حدث نتيجة مغامرة فرح هو ان أ... اخت «و.» الكبرى هي التي علقت بها، وقد تصادقنا بعض الوقت، ونعمت معها بجلسات عديدة. وقد كانت أ... على العكس من اختها ـ كانت أطول، وأقل امتلاء وسمراء. لكن عينيها كان الدمع يضحك فيهما. لست أدري تماماً متى بدأ غرامها بي فأنا لم ابذل جهداً لمعرفة ذلك ولا سمحت للظروف أن تفصح عنه؛ ولكنني أعرف ان موقفي كان موقف استلطاف وصحبة.

وانتهت علاقتي بالأخت وشبكت مع أخرى أ... هذه كانت جارتنا. وكانت جميلة. وكانت تحبني ولا شك. كان اخوتي يزورون أهلها ويلعبون الشدة (الورق) وأنا لا أحب هذا اللعب، فقلما كنت أذهب معهم، الى أن عتبت علي يوماً، وبلغ بها العتب ان قالت العب الورق مرة من شان خاطري؛ بعدها كنت أذهب معهم وأحمل كتاباً ـ هم يلعبون وأنا أقرأ. كانت كثيراً ما تنغلب حتى تنسحب من اللعب لتتفرغ لي شوية شوية. تصاحبنا، وخرجنا للنزهة، ولكنني انسحبت من حياتها. وكان ان انتقلت للسكنى في الكلية العربية، فأصبح الامر أيسر. أ.. الأولى لم تتزوج وأ... الثانية لم تتزوج. وقد توفيت الاولى بمرض الصدر. أما الثانية فقتلت برصاص اليهود لما بدأت عصاباتهم بالهجوم على القدس سنة ١٩٤٨.

واتجه فرح اتجاهاً آخر. وخطب ثم تزوج سلمى (داوود) بلاط من رام الله (فرح من البيرة جارة رام الله ملاصقة)، التي كانت تعلم في مدرسة الفرندز للبنات. وقد حضرت زواجهما وكان ذلك أول زواج لواحد من الأصدقاء (١٩٤٢).

وكانت لنا تجربة لطيفة فيما يتعلق بهدية العرس. كانت الحرب قد مر عليها نحو ثلاث سنوات، وكانت أسعار الحاجيات في ارتفاع. ومعنى هذا ان المبلغ الذي قد يخصصه واحدنا لهدية العرس لصديق لن يكفي الا لشيء صغير. لذلك اقترحت أنا على جميل سعيد وعبد الحميد واديب عتقي ومنعم عبد الهادي ان نشترك نحن الخمسة، ونبتاع هدية «محرْزة». وتردد البعض أولاً ثم اتفقوا، وكلفت أنا أن أسأل فرح عما يحب. لكنني سألت سلمى مباشرة بحضور فرَح. فطلبت طقم طعام كامل للأكل والشاي. ولم تقبل أن تذهب معي لاختياره. قالت أنا أقبل بما تختار. وذهبت الى دكان لبيع هذه الحاجات كان في سويقة علون، نزلة باب الخليل الى الداخل. وانتقيت طقماً كامل العدة والعدد من صنع تشيكوسلوفاكيا، عليه زهور جميلة بالوان لطيفة. وقد أعجب سلمى الى حد

انها قبلتني. واشتركنا الخمسة في الثمن. كان هذا في سنة ١٩٤٣. وفي أوائل السبعينات كنت في زيارة فرح رفيدي، وكانت الأسرة قد استقرت في بيروت، فاذا بفنجاني شاي وصحنيهما تظهران على الطاولة. هما كل ما تبقى من الطقم، الذي انتقل مع بيت رفيدي من رام الله الى حيفا الى عمان الى بنغازي الى بيروت. ولست أدري فيما اذا كان الفنجانان لا يزالان مع بيت رفيدي في العاصمة الأميركية، فقد سهي عن بالي السؤال عنهما لما زرت الصديقين القديمين - فرح وسلمى - في صيف ١٩٨٩.

وكان الثاني الذي تزوج عبد الحميد ياسين. تعرف عبد الحميد الى منيرة ماجد في بيت جميل سعيد. فجوليا ومنيرة وماري شهلا كن زميلات في التدريس بدار المعلمات في القدس. لما تزوجت جوليا استقالت من عملها الرسمي لأن ادارة المعارف لم تكن يومها تسمح للمتزوجات أن يزاولن التعليم. وظلت الصديقات صديقات، وظلت الزيارات زيارات. وكنا نلتقي كثيراً في بيت جميل، وكنا ندعى أيضاً لقضاء يوم عند أهل ماري شهلا برام الله. هذا كله أتاح لعبد الحميد مجال التعرف التام على منيرة المصرية الاسكندرانية الجميلة في اعتدال اللطيفة في كل مجال والانيسة المعشر والطيبة المخبر. لم يكن ثمة حاجة لأن يقول عبد الحميد انه أغرم بمنيرة. فقد كان كل منا يشعر بذلك. ولم يشر عبد الحميد الى انه سيطلب يد منيرة، وان كنا كلنا نكاد نسمع الكلمة تخرج من فم عبد الحميد مليئة بالقوة والعزم اللذين عرف بهما. ولكن انتهى الأمر بأن كُتِبَ كتابهما، في شهر آب / اغسطس سنة ١٩٤٣ في الاسكندرية؛ وكنت أنا يومها في ضيافة منعم عبد الهادي في مصر الجديدة (تموز - آب / يوليو - اغسطس)، وانضم الينا عبد الحميد، وأنبأنا بما تم. فسررنا واحتفلنا ليلتها في مقهى بلميرا.

ولما عدت الى القدس، كانت الشلة قد عرفت بالخبر. لا خبر عبد الحميد ولكن خبري أنا.

كنت قد انتقلت الى الكلية العربية لأقيم فيها؛ كان ذلك في ربيع سنة ١٩٤٢ فيما أذكر. وكنت بطبيعة الحال أزور أخوتي وأصدقائي. في يوم من أيام ربيع ١٩٤٣، كنت في زيارة أختي فقالت لي أن أبقى لأن صويحباتها قادمات لزيارتها وأكل التبولة. وكنت أعرف هذه المجموعة من الصويحبات فاعتذرت. وكنت على وشك مغادرة البيت لما دخلت الصويحبات، وقد جئن مبكرات. وقررت عندها أن أبقى بعض الوقت تأدباً. لكن لما دخلت الصديقات رأيت بينهن فتاة جديدة، جميلة، مشرقة الوجه. قالت جوهرة قمر (كبرى بنات ابراهيم قمر استاذنا في الرياضيات في دار المعلمين) لأختي انها قابلت مرغريت في الطريق واصطحبتها معها بعد الحاح، على اعتبار ان بيت ماري وبيت جوهرة بيت واحد. وتقدمت مرغريت وكأنها خجلت من وجود رجل، لأن دعوات التبولة (فقط) كانت للبنات (فقط)؛ أما التبولة التي ترافق كأس العرق فهي شيء آخر وشأنها شأن آخر أيضاً.

انجذبت الى مرغريت. وتحدثت اليها وعرفت انها تعمل في التعليم مثل جوهرة، وان أخاها جوزف يعمل في كلية تراسانكا، وهو مسؤول عن النشاط الرياضي هناك. وباختصار فقد بقيت حتى انتهت الحفلة، وخرجت الفتيات. وعندها قالت لي اختي ماري، بطريقة فيها مزيج من السرور والشماتة: «كنت مشغولاً؛ لكن لما شفت الصبية الحلوة بقيت».

هذه كانت بداءة تعرفي على مرغريت شهوان، فأنا مدين بذلك للتبولة.

كانت مرغريت فتاة كاملة النضج: في الخامسة والعشرين من سنيها الحلوة، شعرها كستنائي، جبهتها عريضة، وجهها ينضج بالانوثة ويشع الجمال منه. عيناها براقتان ولهما لون اخاذ، لا هو بالاخضر ولا هو بالأزرق، انما هو الى اللازوردي أقرب. انفها دقيق كأنه صنع فنان يوناني نحته لالهة لا لبشر، فمها أنيق. وخطوط الوجه جميعها، التي تنتهي عند طرف الذقن، تكون اطاراً لوجه جمع أسرار الجمال الخفية التي تشع من كل جزء منه. كما انه يدل على شخصية قوية.

كانت مرغريت طويلة بين الفتيات، وكانت تبدو حتى أطول مما كانت عليه لأن جسمها كان نحيفاً وفي غاية التناسق والاتساق، فلم تكن فيه نتوءات نافرة ولا تجمعات لحم نابية؛ وكانت يداها نحيفتين وكانتا تنتهيان بأصابع طويلة دقيقة الصنع. كانت خفرة حية، رقيقة الحاشية دقيقة الاحساس. وكل تصرف مرغريت كان يومها، وظل الى آخر يوم في حياتها، طبيعياً - لا تمثيل فيه ولا اخفاء.

علقت مرغريت، وأخذت ادبر الطرق والمناسبات للقائها. فلما شعرت انها وثقت بي تركنا الآخرين جانباً وسرنا معاً، وأخذنا نخطط للمستقبل. وتعرفت على مرغريت العاقلة التي تتحس الأمور قبل وقوعها وكانها تدرك ذلك بحس داخلي. وكم كان لمرغريت علي من الفضل بسبب صواب رأيها.

وقد بدا غريباً لبعض أصدقائي أن أقع في الحب بهذا الشكل وعلى هذا الأسلوب. ولكن مرغريت كانت تستحق أن أقع في حبها.

هذا هو الخبر الذي قال أديب عنه انه ملأ البلد. وخطبنا في أيلول ١٩٤٣. وكنا قد بدأنا نخطط لمستقبل. وأول المشكلات كان ايجاد بيت للسكن. فأما أن نجد مسكناً لنا، أو أن يجد أخوتي مسكناً لهم. وقد اتفقنا من أول الأمر على الخطة الأولى. وكانت الايجارات قد ارتفعت، وتمنع أصحاب الملك عن التأجير، لأن القانون الذي وُضِعَ، بسبب الحرب، كان يحمي المستأجر.

ثم خطرت لي فكرة، وافقت عليها مرغريت. وتحدثت بشأنها الى أحمد سامح الخالدي.

لم يكن المبنى الذي تشغله الكلية العربية يكفي لاقامة جميع الطلاب، لذلك كانت الادارة قد استأجرت منزلا يملكه السيد النابلسي، يقع على طريق بيت لحم وعلى مقربة من تفرع طريق الكلية العربية عن طريق بيت لحم. كان يقيم فيه ثمانية وعشرون طالباً، وكان يستعمل للنوم فقط.

وكان السيد وليد عرفات، الذي كان يعلم في المدرسة العمرية (والرشيدية)، يقيم مع الطلاب ليشرف عليهم، وكان يشغل غرفتين واحدة للنوم والأخرى للعمل.

اقترحت على مدير الكلية العربية أن يحل السيد وليد عرفات مكاني في الكلية العربية، وان نعطى نحن الغرفتين مع الحمام والمطبخ اللذين لم يكونا لازمين للطلاب؛ على ان نستعمل المدخل / الليوان وهو متسع. والفصل بيننا وبين الطلاب ليس صعباً. وقبل وليد؛ واستلمنا المكان وجئنا بالعمال لدهنه وطرشه وتنظيفه. وهكذا أعد.

وتكللنا في ١٨ نيسان ١٩٤٤.

بدت مرغريت يومها في غاية الجمال الطبيعي، بثوبها الأنيق، وقد أحاط بها أبوها حنا وأمها ليزا واخوتها - أوجين وجوزف واميل - وزوجة الأخ الأكبر سيدة.

قبل بضع سنوات من وقت زواجنا وقع ايليا فانوس، أخو صديقي العزيز اسحق، في مأزق. هو ارثوذكسي، وأحب فتاة لاتينية. ولما جاء وقت العرس أصر أهلها على أن يكون العرس في كنيسة لاتينية، وأصر هو وأهله على ارثوذكسية الاكليل. ولم يتزحزح أي فريق عن موقفه. لقيت ايليا وكان على غاية الانزعاج. يحب الفتاة وتحبه. لكن الأهل والتقاليد وقفت في الطريق. اقترحت على ايليا أن يكون الاكليل عند الروم الكاثوليك، فهم أكثر تقبلاً لأفكار التوافق من اللاتين. وهكذا كان، وتزوجا.

مرغريت كانت مارونية، أبوها حنا سمعان شهوان من غوسطا في كسروان (لبنان). كان قد ذهب وهو صبي ليتعلم اللاهوت في المدرسة الصلاحية في القدس تمهيداً لدخول الرهبنة. لكنه لم ينتظم في السلك الرهبني ولم يعد الى غوسطا. وحصل على منحة مدرسية ليدرس الصيدلة في تورينو بايطاليا. لكن جسمه لم يتحمل برد المدينة أكثر من سنتين. فعاد الى القدس نصف صيدلي. وقد اشترك مع رجل اسمه رودلف اكلر، ابوه

نمساوي كان طبيباً في الجيش العثماني، وامه من بيت البيطار من اللاذقية. تعرف الطبيب عليها في بلدها وتزوجها. وقد كانت نتيجة الشراكة في الصيدلة ان تزوج حنا اخت رودلف، ليزا وانفصمت عرى الشراكة بانتهاء الدولة العثمانية، وكان الابوان قد انجبا ثلاثة أولاد (أوجين وجوزف واميل) وبنتا واحدة هي مرغريت (مولودة في القدس ٢٦ نيسان ١٩١٦).

كانت مرغريت قد تعلمت في مدرسة راهبات مار يوسف أولاً ثم التحقت بمدرسة شميت الالمانية الكاثولكية (اللاتينية) وكانت قد انهت دراستها الثانوية فيها (١٩٣٥) ثم قضت سنة في قسم التربية والتعليم، وقد بدأت عملها في التعليم في مدرسة المأمونية (الحكومية) للبنات سنة ١٩٣٦.

فالفتاة كانت مارونية مطعمة لاتينية. هي لم يكن لديها مانع من أن يكون الاكليل عند الروم الارثوذكس، ولكن أنا لم أسمح لمشكلة أن تنشأ حول الموضوع لأنني كنت أعرف أن أهلها سيعارضون. لذلك لجأت الى الحل الذي اقترحته على ايليا فانوس. فلما بدأ الحديث يدور حول موعد الاكليل، اقترحت ١٨ نيسان (١٩٤٤) وقلت: سنتكل على يد الاب جبرائيل ابي سعدى، النائب البطريركي للروم الكاثوليك في القدس، وسيكون الاكليل في كنيسة تراسانتا (حيث كان يعمل أخوها جوزف). «فاذا كان هذا مقبولاً لديك يا مرغريت ايتها الحبيبة، فلنتخذ الترتيبات اللازمة». وافقت واتخذت الترتيبات.

لم تكن مرغريت تحب «الهيصة» في أمور مثل هذه. كانت تفضل «الجمعات» الصغيرة حيث يمكن للناس أن يتحدثوا معاً. لذلك اقترحت هي أن يكون العرس بسيطاً: العدد محدود، وبدون استقبال بعد العرس، ويوزع الملبس والناس خارجون من الكنيسة. اتفقنا؛ لكنني كنت قد بَيَّتُ أمراً.

كلية تراسانتا كانت وريثة لمدرسة كاثوليكية ايطالية فتحت في القدس في أوائل العشرينات وكان اسمها «اوبرا كاردينال فراري». وقد كان من التلاميذ الذين غشوها من عكا فايز كنفاني (والد غسان كنفاني) ومحمد رفيق اللبابيدي، والاثنان كانا من أعز أصدقائي في عكا. لكن المدرسة، التي كانت تحتل مبنى خاصاً بالاوقاف الكاثوليكية على مقربة من الباب الجديد بالقدس (خارج السور مباشرة)، لم تنجح واقفلت أبوابها لتقوم مقامها كلية تراسانتا التي عهد بادارتها الى رهبنة الفرنسيسكان الكاثوليكية الاميركية. وأقيم لها بناء خاص جيد جميل في شارع الملك جورج. (في هذا المبنى تقدمت الى امتحان المترك الفلسطيني في تموز / يوليو ١٩٢٧).

كانت الكنيسة في الطابق الأرضي. جاء المدعوون، وجاء الأب أبو سعدى، ودخلنا نحن مصحوبين بالأقارب الخلص، وأجري الطقس الكنسي، وتقبلنا التبريك المباشر من الأبوين والأخوة.

حسبت مرغريت اننا سنقف على باب الكنيسة نتقبل التبريك العام ويوزع الملبس. لكنها فوجئت بانني قلت لها اننا سنقف عند مدخل الكلية لأنه أوسع. وسرنا ولكننا لم نقف. بناء على تعليمات سابقة أسرعت الفتيات الصغيرات وحملن أطراف ثوب العروس، وصعدنا الدرج الى الدور الأول.

كان رئيس الكلية قد أعد في الكلية قاعة للاستقبال، وكان قد زينها بالمقاعد المطعمة بالصدف من شغل دمشق؛ وكنت قد اتفقت معه، وكان يعزني لأنني كثيراً ما ساعدت المدرسين في الكلية، على أن تقلب القاعة الى غرفة استقبال لنحو ستين شخصاً. وقد تم ذلك. دخلنا القاعة ودخل الضيوف.

هناك كانت المفاجأة لمرغريت. كنا اتفقنا على أن لا يكون هناك كعكة العرس. فوجدت مرغريت على الطاولة المجللة بشرشف غباني دمشقي، كعكة كبيرة.

كنت قد أوصيت على الكعكة - حتى بمعزل عن أخوتي كي لا يتسرب الخبر - في فرن حداد في البقعة التحتا (الكولونية الالمانية). وفرن حداد هو فرن الماني، لكن أيام الحرب احتجز الالمان الذين كانوا في فلسطين، (وحتى الدكتور توفيق كنعان احتجز لأن زوجته كانت المانية)، وظل السيد جبرا حداد يشرف على الفرن. اما الذي

أشرف على صنع الكعكة فقد كان حنا اسحق، الذي تزوج أخي الفرد ابنته ملي فيما بعد (١٩٤٧).

وكانت المفاجأة الثالثة اننا ضيفنا شمبانيا، لكنها من صنع فلسطين، وهي تشبه ما يعرف في فرنسا باسم «فان موسو». وكان الذي أشرف على هذه الناحية هنري كنيزوفتش المسؤول عن كل شيءداخلي (غير اكاديمي) في الكلية العربية.

وأخيراً وزعت على الحضور علب مصنوعة من خشب الزيتون، منقوش عليها من الخارج صورة لقبة الصخرة أو كنيسة القيامة. هذه كانت من عمل الزميل الصديق جمال بدران أحد الفنانين النابهين يومها (وفيما بعد) والذي يعود اليه فضل كبير في نشر الثقافة الفنية في فلسطين، لما ولي تدريس المادة ثم التفتيش عليها في مدارس حكومة فلسطين.

وهكذا فوجئت مرغريت بعرس جميل هادىء على ذوقها، مع ما زاد فيه من تلاعب من جهتي.

بدت مرغريت في ذلك اليوم على أجمل ما يمكن أن تبدو فتاة. لم يكن الجمال نتيجة اتساق في الخطوط تلتقي لتكون آية من آياته. ولم يكن الجمال ناشئاً عن عينيها البراقتين اللتين تنكسر جفونهما خفرا لتزدادا قدرة على أطلاق السهام المحيية. ولم يكن جمالها بسبب هذا القوام المشوق الذي لم يحتج الى مشد تحت ثوب العرس. كل هذا كان هناك، وكل هذا كان يؤدي قسطه للجمال. لكن جمال مرغريت يومها كان نابعاً من موجات متلاحقة تخرج من أعماقها فتلهب خديها، وتلهبني معهما.

وقد رأيت مثل هذا الجمال مرة واحدة في حياتي بعد ذلك اليوم. يوم زفت ريما الى ابني رائد في ٢٦ كانون الثاني / يناير ١٩٧٥؛ ريما ذكرتني بمرغريت يوم عرسها.

كان العرس في الصباح في الساعة الحادية عشرة، ولما انتهى الأمر، ركبنا في سيارة وذهبنا الى حيفا لنقضي بضعة أيام في جبل الكرمل.

كان حنادلي، الصديق العزيز الكريم، قد حجز لنا غرفة في فندق جيد، واختار غرفة تطل على البحر من سفح الكرمل. لما دخلنا الغرفة وجدنا باقة جميلة من الورد. ومما أعجبني قول حنا لما التقينا فيما بعد، «قد ما احترق قلبي لأنه ولا واحد فكر في أن يضع ولو زهرة في الغرفة يوم زفافي حملت هذه الباقة بنفسي خشية أن ينسى أحد القيام بذلك».

كان اكليلنا في عطلة عيد الفصح، التي تمتد نحو عشرة أيام، لذلك لم تطل اقامتنا في حيفا، وعدنا عن طريق يافا، وقضينا ليلة في فندق بركات، وتغدينا عند خليل المقادي وعدنا بعدها الى القدس.

ودخلنا بيتنا.

كنا قد أعددنا بيتاً مريحاً. كان عندنا غرفة للنوم اشترينا لها طقماً جاهزاً بخمسة واربعين جنيهاً فلسطينياً (استرلينياً) ودفعنا ثمن الفراش والمخدات وشراشف السرير نحو خمسة عشر جنيهاً. وأهدتنا أختي أثاث غرفة طعام جاهزة، طاولة تُوَسَّعُ، مع ستة كراسي وخزانة الصحون وما الى ذلك، وكلفتها خمسة وثلاثين جنيهاً. أما غرفة الصالون فقد صنعت خصيصاً لنا. كلفتنا المواد الأولية لها نحو خمسين جنيهاً، أما الصنع فكان هدية من اميل أخي مرغريت الصانع الماهر في شوون الاثاث، وقد صنعت في المشغل الذي كان يملكه هو وأخوه أوجين.

كان المدخل / الليوان متسعاً؛ لذلك اتخذنا جزءاً منه لغرفة الطعام، والجزء الآخر أصبح مكتباً لي. وكان المكتب وخزانة الكتب التي وضعت في الصالون هدية من أخي الفرد وقد دفع ثمنها نحواً من خمسين جنيهاً.

يومها لم يكن يدخل في حساب التأثيث لا غسالة ولا جلاية ولا حتى براداً. هذه لم تكن بعد قد وصلت فلسطين، لكن كان عندنا فرن في المطبخ يعمل على الكاز.

كنت قد أقنعت زملائي في الرشيدية أن نقدم هدية عرس مشاركة بيننا لما تزوج ممدوح الخالدي، كما أقنعت الزملاء في الكلية العربية أن يفعلوا الشيء نفسه لما تزوج اسحق موسى الحسيني، لذلك لما تزوجنا قدم لنا الزملاء في المعهدين هدية مشتركة كانت مبلغاً من النقود صرفناه في صنع البرادي. لذلك أصبح عندنا بيت.

هذا هو البيت الذي دخلناه مساء الأحد في ٢٢ نيسان / ابريل سنة ١٩٤٤.

خلال الفترة التي تعرفت فيها على مرغريت ثم مطاردتي اياها حتى تمكنت من اقتناص هذه الجوهرة، ثم فترة التحاب والحب والحديث الى حين الزواج، اجتمعنا كثيراً وحدنا ومع آخرين، وتحدثنا كثيراً في كل شيء حول الدين والسياسة والتاريخ والناس، استَغَبْنا واستُغبِنا؛ قضينا ساعات في المقاهي وفي النزهات؛ خرجنا الى الاماكن المجاورة للقدس مشياً على الاقدام، فقد كانت مرغريت تحب المشي، ورقصنا وشربنا - هي شربت قليلاً وأنا شربت كثيراً.

وفي أحاديثنا اتفقنا واختلفنا وتزاعلنا ووصل الأمر بها ان همت بالتخلي عني، لكنني لم أكن أسمح بذلك، فاسترضيتها؛ وزعلت أنا منها ولكنها سامحتني.

لعلي لا أبالغ اذا قلت اننا كشفنا واحدنا للآخر عن دخيلتنا، بالقدر الذي كان بالامكان أن يتذكر الواحد ماضيه، أو يسمح لنفسه بتذكره. وقد تحدثت لمرغريت كثيراً عن طموحي. فأنا أحب التعليم، ولكنني كنت آمل دوماً أن يتاح لي أن أتابع دراستي الجامعية العليا.

كنت قد وضعت كتابي رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، وقد فوجئت مرغريت لما وصلتني النسخ، وهي ثلاثمئة عداً، ان حملتُ اليها نسخة فوجدتْ انني قد أهديت الكتاب لها. وكنت قد بدأت أفكر بوضع كتاب العالم القديم. ولقيت من مرغريت كل تشجيع. ولم يكن التشجيع كلاماً فقط؛ كثيراً ما كان بشكل قبلة حارة تطبعها على جبيني أو خدي أو فمي. وفي كل حالة كانت عيناها تلمعان، اذ انها كانت تحس كأن الطموح الذي أحمله واغذيه هو طموحها أيضاً وانه يتوجب عليها أن تنميه وتمنحه الزخم والقوة.

لكن المهم جاء دوره بعد الزواج. عندما ينتهي الأمر بالزوجين الى النوم معاً في فراش واحد، وعندما يصبحان فعلاً جسداً واحداً، يبدأ دور جديد من التعرف والتعارف. ولست أحسب اننا كنا الوحيدين في هذا الأمر. بل أحسب ان الذين يدعون انهم لم يحتاجوا الى هذا التعرف الجديد كانوا يكذبون على الآخرين ان لم يكذبوا حتى على نفوسهم.

هنا أولاً عرفت العشق الحقيقي الصحيح. هنا شعرت وظللت أشعر بذلك حتى بعد مرور ثلاثين سنة من حياتنا الزوجية، كل مرة اقترب من مرغريت في الفراش أحسّ أن أتوناً يشتعل في داخلي. لكن اقتضى الامر بنا بعض الوقت حتى أصبح هذا الأتون يتفق مع الأتون الآخر.

اننا اكتشفنا في الايام الاولى اننا نختلف طبيعة واحدنا عن الآخر من الناحية الجنسية. كانت مرغريت من النوع المسمى بارداً، فيما كنت أنا حاراً اذا صح التعبير. وقد احتجنا الى بضعة شهور حتى ألف الخدن منا خدنه في الفراش. الدربة والمعالجة القائمة على تناغم في السلوك انتهتا بنا الى أن أصبحنا نستمتع بعمل الحب استمتاعاً قوياً عنيفاً يملأ قلبينا ونفسينا؛ ومن ثم كان ذلك دافعاً لنا على التعاون الكلي في مجالات الحياة المتنوعة. التعاون والتفاهم حول هذه القضية كان سبيل العلاج الذي اتبعناه. طريقة كانت بسيطة: هي التخفيف من حدة أحد الموتورين وتقوية الموتور الآخر. وما كان من الممكن أن يؤدي الى حياة تعسة (وقد ادى عند غيرنا الى ذلك) أصبح، في نهاية المطاف الذي لم تطل مدته، نعمة وأساسا لحياة سعيدة.

في السنة الدراسية ١٩٤٥-١٩٤٦ بدأ عملي في مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية في القدس -ME)

(MECAS) وهي مختصر (Middlle East Centre For Arabic Studies) في القدس. وهو معهد فتحته الحكومة البريطانية (وزارة الخارجية بالتعاون مع وزارة الحربية كما كانت وزارة الدفاع تسمى يومها) لتعليم الضباط والموظفين البريطانيين الشباب اللغة العربية أصلاً مع العناية بالتاريخ العربي والمجتمع العربي. وقد عين الكولونيل برترام توماس (Bertram Thomas) الذي كان أول بريطاني (بل أول رجل معروف خبره) اجتاز الربع الخالي أيام كان ضابطاً في الجيش البريطاني في الخليج. كان توماس يعرف الكثير عن العرب، لذلك اختير مديراً للمعهد؛ وعين ضابط بريطاني آخر برتبة رائد (ماجور) مديراً للدروس. وهذا كان مستشرقاً شاباً، درس العربية والفارسية في جامعة كامبردج. وقد طلب مني، عن طريق مدير المعارف (فارل) وبتوصية منه أن ألقي سلسلة محاضرات عن تاريخ العرب على طلاب هذا المركز. وعينت لي محاضرتان في الأسبوع. يومي الثلاثاء والخميس.

كان توماس يحب الكأس، وكان يحب الحديث عن العرب كان يريد أن يشير الى أمجاده في اجتياز الربع الخالي. كانت محاضرتي تنتهي في الخامسة والنصف وكان كثيراً ما ينتظرني خارج القاعة، ويدعوني لتناول كاس من الشري معه. هذه عادة انكليزية وهي أن الشراب للتسلية الذي يقدم في مثل هذه الساعة هو الشري. وقد ينضم الينا مساعده أحياناً.

لما انتقلت من بيتنا في المصرارة (قرب كنيسة القديس بولس) لم اتمكن من نقل التلفون لأن جميع الخطوط المارة في طريق بيت لحم حيث كان يقوم بيتنا الجديد كانت محجوزة لمصلحة معسكر بريطاني كان في مقابل بيتنا اسمه معسكر اللبني. وفي أحد الأيام دعاني توماس على عادته لتناول الشري معه واعتذر لي لأن الطلاب اضطروا (في يوم المحاضرة السابقة) للانتقال الى خارج القدس، ولم تستطع الادارة أن تبلغني ذلك. فأنا لم أكن موجوداً في الكلية العربية ولا في المدرسة الرشيدية. ولما اتصلت السكرتيرة بالتلفون المقيد على اسمي قيل لها انني لا أسكن هناك. لذلك كان أن ذهبت الى المركز ولم أجد أحداً.

ولمعت في ذهني فكرة قلت للرجل: «كولونيل توماس التلفون المذكور هو لي اذ كان بيتي هناك قبل أن أتزوج. ولما انتقلت الى بيتي الجديد قيل لي ان جميع الخطوط الهاتفية محجوزة للمعسكر. هل من الممكن أن توصي مدير البريد العام بنقل التلفون الى بيتي الجديد، لأن هذا يساعدني في عملي معكم».

استدعى الكولونيل توماس مساعده، الذي جاء والقى التحية العسكرية، فقد كان الاثنان في الثياب الرسمية. فقال له توماس أن يتصل بمدير البريد العام ويطلب منه أن يتفضل بنقل تلفوني الى بيتي الجديد. فامتثل للأمر؛ وعندئذ دعاه توماس للانضمام الينا، وكان في ذلك فرصة لاخذ المعلومات اللازمة لنقل التلفون. بعد ثلاثة أيام كان التلفون قد نقل الى بيتي الجديد - على طريق بيت لحم وفي منطقة معسكر اللنبي.

كان الرجل المساعد للكولونيل توماس هو اوبري (أبا فيما بعد) ايبان، الذي أصبح وزير خارجية (اسرائيل) فيما بعد!

ولم أعرف الا بعد حادثة التلفون بوقت طويل ان الماجور ايبان كان يهودياً. وبعدها عرفت، لما سرح من الجيش وسكن على مقربة من الكلية العربية، انه كان من رجال الوكالة اليهودية!

كان المركز المذكور قد اتخذ الهوسبيس النمساوي مقراً له. وهذا المبنى انشأته الحكومة النمساوية كي يقيم فيه اكابر حجاجها عند زيارتهم للبلاد المقدسة. وهو بناء فخم جميل حجارته من محاجر بيت لحم.

في العام الدراسي التالي جاء جورج كِرك (George Kirk) الى المركز مدرساً مقيماً ليحاضر في تاريخ الشرق الاوسط. عمل هناك سنتين وقد نشر محاضراته بالانكليزية في كتابه سماه تاريخ الشرق الأوسط الحديث (لندن).

وقد كانت لي لقاءات مع جورج كرك لا في القدس فحسب ولكن في بيروت بعد التحاقي بالجامعة الأميركية سنة ١٩٤٩، ثم مجيئه هو استاذاً في الجامعة نفسها في أوائل الخمسينات.

أحاطتني مرغريت بعنايتها واهتمامها وساعدتني في كثير مما اعددته من المؤلفات مثل رسم الخرائط ووضع الفهارس. ولكن أهم من ذلك ملأت نفسي وحياتي حباً؛ حب كان هو العشق بعينه. نعم اننا تقاسمنا ـ ولا أقول تبادلنا ـ العشق وتراشقنا بورروده وأشواكه وسهامه، وأصاب في كل منا مقتلاً. لكن هذا العشق لم يكن قاتلاً، انه كان لنا الحياة بعينها.

وكان أول ثمرة لعشقنا العنيف ابننا رائد الذي ولد في اليوم الأول من شهر ايار (مايو) ١٩٤٦، أي بعد زواجنا بسنتين ونحو اسبوعين.

وقد كان هذا الترتيب مقصوداً، ولذلك استطعنا أن نقوم بثلاث رحلات كانت فيها لنا نحن الاثنين، كما كانت فيها جدة بالنسبة لمرغريت.

كانت رحلتنا الأولى صيف ١٩٤٤. زرنا فيها دمشق وبعلبك وبيروت. كان السفر يومها براً. ذهبنا من القدس الى دمشق بالقطار عبر حيفا وسمخ ودرعا. مرغريت اعجبتها الفكرة لما اقترحتها؛ هي كانت تعرف الجزء الممتد الى سمخ، جنوبي بحيرة طبرية. لكن الجزء الباقي كان جميلاً جداً، وكانت فيه انجازات هندسية مهمة اذا تذكرنا انه بني سنة ١٩٠٦. وكان ثمة أمرخاص بي. كان أبي قد عمل في بناء هذه السكة الحديدية (١٩٠٥-١٩٠٦) وفي الجزء الممتد من سمخ الى درعا، وذلك قبل أن يُنقل الى دمشق مساعد مهندس في المركز الرئيسي. كان قد عرف بأمر نقله لما تزوج أمي ليا (ايلين) عبد الله أسعد شرش ريحاني في الناصرة في ٧ شباط ١٩٠٧. ولم أتأخر أنا في المجيء الى الدنيا، اذ ولدت في ٢ كانون الأول ١٩٠٧!

وفي دمشق نزلنا في فندق دماسكوس بلاس. لما نزلنا من القطار ذهبنا رأساً الى أورنيت بلاس، وهو مقابل محطة القنوات. لكن لم نجد محلاً، وأُرشدنا الى الفندق الآخر، الذي يقع في سوق ساروجا. وقد احتفل بنا وأعطينا غرفة مريحة جميلة.

لم أكن أدري يوم نزلنا في هذا الفندق انني سالتقي في مدينة كمبردج (مساتشوستس) الأميركية في سنة ١٩٥٧ السيد رفله الدمشقي الأصل الذي سيقص علي قصة تتعلق بأبي ودمسكوس بلاس.

كنت أُعرف أثناء اقامتنا في دمشق انه فتح مصنع للزجاج فيها (وكان هذا سنة ١٩١٠ أو ١٩١١)، وكنت أعرف أن العمال فيه كانوا من الالمان. وقد أخذني أبي مرة مع أمي لزيارة المصنع وأذكر أيضاً انه جاء معنا من دمشق الى الناصرة اركيلة صغيرة زرقاء كحلية معرّقة من صنع هذا المصنع.

لم يكن في هذا جديد عليّ سوى ان اجتماعي برفلة ذكرني به. لكن الذي أخبرني به هذا الرجل الدمشقي، هو أن خاله كان قد تعهد أن يسكن العمال الالمان، وكانوا كثيرين، وأن يؤمن طعامهم وحاجياتهم المعاشية والشرائية. وقد أسكنهم في دمسكوس بلاس بالذات. ولم يكن خال رفلة يعرف الألمانية، لكنه كان صديقاً لأبي، فطلب من والدي أن يساعده لأنه كان يجيد الالمانية فكان أبي يذهب ثلاث مرات في الأسبوع الى المكان، حيث يجد الأوراق التي أعدها النزلاء موضحين فيها حاجاتهم ورغباتهم فيما يتعلق بالأكل أو في ترتيب النزهات في ضواحي دمشق (مثل دمر والربوة والهامة والمزة) أو غير ذلك. فيترجمها أبي لرفلة ويجيب هذا عن الأشياء المطلوبة فيكتبها أبي بالالمانية ويتركها للنزلاء.

لم يكن الخبر بحد ذاته هو الذي أثار في الذكريات، ولكن الأمر الأهم هو أن رفله كان أول شخص ذكر لي أبي كما عرفه في دمشق (لا في الناصرة) بعد ما يزيد عن ثلاثين سنة؛ اذ كان آخر من فعل ذلك هو عودة الحلاق من الناصرة، وكان ذلك في سنة ١٩٢٥ اذ قال لي في أحد الأيام، وقد كانت دكانه (مكتبه ومكتبة ومكان تحرير

مجلته للصغار) منتدى لنا: «يا نقولا أنا حملتك على يدي في بيتكم في دمشق، وقد كان أبوك صديقاً عزيزاً علي».

وها أنا الآن في كمبردج الاميركية، في النصف الأول من شهر كانون الثاني / يناير ١٩٥٧، حيث التقي من يحدثني عن أبي. وكان الأخير.

ولما كنا في دمشق ذهبت يوماً الى الميدان التحتاني، وزرت الدار التي كان يسكنها أسعد صيقلي، اشبيني الدمشقي، الذي قضيت في بيته، مع ابنه فريد، أياماً لطيفة، لما كنا نسكن في القدم، وكانت المدرسة بعيدة. واهتديت من ساكن الدار الجديد، وهو طبيب أسنان، الى حيث أعثر على ابن أسعد، وعثرت عليه. وذهبنا أنا ومرغريت بصحبته الى بيتهم وفاجأنا أمه بهذه الزيارة. ولم تعرفني «ثلجة» زوجة أسعد وأم فريد وجورج. ولم يكن ذلك غريباً. ولكن لما ذكرت من أنا لم تشبع من ضمي وتقبيلي، أنا ومرغريت. كانت تفعل ذلك بالدور حتى نسيت أن تدعونا الى الجلوس. وحتى بعد الجلوس كانت تعيد الكرة. لقد أعادت اليها زياراتي أيام عزها فقد كان زوجها، أسعد صيقلي، من كبار تجار دمشق ومن أعيان الطائفة الأرثوذكسية، كما كنت أنا من جيل ابنها فريد الذي مات غرقاً في واحد من أنهار ضواحي دمشق.

واعجبت مرغريت بمغاني الأنس والجمال والتاريخ في دمشق. الجامع الأموي وفيه قبر صلاح الدين، ودار العظم، وخان أسعد باشا، ودمر وتصفيف الفواكه في منطقة المرجة (ساحة الشهداء) وخاصة ليلاً، وجهة الصالحية وجبل قاسيون ومنظر دمشق منه، (وكان يختلف كثيراً عما يرى المرء الآن من المكان نفسه).

وقد أعجبت مرغريت، وهي مقدسية أصيلة بأسواق دمشق القديمة من سوق العطارين الى سوق القباقيب الى سوق ساروجا وأخيراً سوق الحميدية، كما كان قديماً وقبل أن يمسخ سوقاً عادية.

وانتقلنا بالقطار من دمشق الى بعلبك. فقد كان السبيل الوحيد الذي يمكن أن ينقلنا رأساً بدون الحاجة الى انتظار في الطريق. أما استئجار سيارة تنقلنا رأساً من دمشق الى بعلبك، فقد كان فوق امكاناتنا. (كانت أجرة السيارة، فيما أذكر، سبعة أضعاف ثمن تذكرة القطار لنا نحن الأثنين).

ووصلنا بعلبك مسآء ونزلنا في فندق بلميرا. ولم ندر يومها اننا سننزل في هذا الفندق مرات ومرات عندما كنا نذهب لحضور مهرجانات بعلبك من بيروت.

كانت مرغريت تعرف آثار القدس القائمة والنائمة (أي المتهدمة)، وكنت قد رافقتها الى أماكن مختلفة في فلسطين. لكن بعلبك كانت شيئاً جديداً عليها. وكنت أنا أعرف المكان من زيارة لي سنة ١٩٢٥، وكنت قد قرأت الكثير عنه بعد ذلك؛ ومن ثم فقد كنت دليلاً نافعاً، وان كنت أكثر من التفاصيل أحياناً، فتطلب مني مرغويت أن أكف وأن ننصرف الى التأمل في الآثار وما حولها من بساتين الجوز الجميلة. وقد زرنا هيكلي جوبيتر وباخوس مرتين، لأن مرغريت خاصة ارادت أن تنطبع صورة المكان في نفسها لا في ذاكرتها فقط.

أردنا أن نذهب بالسيارة من بعلبك الى بيروت، فلم نجد سيارة، وقد أخبرنا صاحب الفندق (بلميرا) أن السيارات استؤجرت لأغراض عسكرية، فنحن بعد في أيام الحرب، والسيارات، وهي قليلة نسبياً في لبنان، كانت تلزم للجهود الحربي. فابتعنا تذكرتين في الباص الذي قضى في الطريق نحو أربع ساعات (بعد ساعتين انتظار - فقد طلب منا أن نكون في المحطة الساعة التاسعة، ولكن، حسب الأصول، لم يبدأ الباص السير الا في الحادية عشرة). وعلى كل وصلنا بيروت، ونزلنا في فندق أميركا، الذي كان يقوم على مقربة من شارع شهاب، وقريباً من كاتدرائية مار جرجس المارونية في وسط بيروت. لكن لما ذهبنا لزيارة عمة مرغريت أصرت على أن نقضي أيامنا عندها. فهي كانت تنتظرنا وقد أعدت لنا غرفة مريحة في بيتها الواسع، الواقع في شارع كليمنصو في راس بيروت. فنقلنا أغراضنا وذهبنا الى بيتها. وقد عتبت علينا فيما بعد لأننا لم نأكل عندها دوماً. وكنا نذهب

الى المطاعم. ونحن جئنا لنراها ونزورها ونأكل فيها وكانت يومها أماكن اللهو والطرب والسرور في منطقة الزيتونة.

في سنة ١٩٤٥ قمنا بزيارة لمصر. قضينا هناك عطلة عيد الفصح بكاملها، وكانت اسبوعين. زرنا الأماكن المألوفة - الأهرام والمتحف المصري ودار الآثار الاسلامية والمتحف القبطي، وحدائق القاهرة الهامة، وخاصة الأورمان والأندلس وحديقة الحيوان، وهي من أغنى الحدائق التي عرفتها. وسهرنا في أماكن اللهو، وذهبنا الى القناطر الخيرية والمعادي.

ولعلّ الشيء الذي استمتعت به مرغريت هو يوم شم النسيم. شم النسيم، كما يعرف الكثيرون من قراء هذه الصفحات، يقع في اليوم التالي لأحد الفصح عند الأقباط (الحساب اليولياني). وفي مصر يعتبر شم النسيم عيداً مصرياً وطنياً، لا يفكر أحد أنه مرتبط بأحد الفصح. والأصل في شم النسيم ان يخرج الناس الى الحدائق والمحال العامة والعزب، عند الذين يملكونها، ويأكلون الفسيخ والبيض المسلوق والبصل، هذا الأصل اما اذا اراد الناس في بيوتهم أن يضيفوا شيئاً آخر فذلك شأنهم. يوم شم النسيم تفوح في أرجاء القاهرة رائحة البيض والفسيخ والبصل، ويترك الناس حدائق القاهرة الجميلة النظيفة وسخة قذرة فيها قشر البيض والبصل. وتقوم بلدية القاهرة بالتنظيف في اليوم التالي. هذا لا يقتصر على القاهرة. هذا شيء يحدث في مصر كلها من البحر شمالاً الى أقصى الصعيد جنوباً.

لم نخرج الى الحدائق نأكل الفسيخ والبيض والبصل، لكن في ساعة معقولة من بعد الظهر، وقد وقع شم النسيم في أواخر نيسان / ابريل من تلك السنة، خرجنا وأخذنا حنطوراً - كانت الحناطير متوفرة بعد - وطفنا في المناطق التي احتفل الناس فيها بشم النسيم. سرت مرغريت ان رأت هذا، لكنها لم تعجبها الروائح والأوساخ، وكانت قد شاهدت الحدائق من قبل نظيفة مرتبة.

ركبنا القطار من محطة القاهرة عائدين الى القدس في الساعة العاشرة من مساء ٥ ايار / مايو. وفي الطريق سمعنا أن المانيا سلمت للحفاء في الحرب. وان يوم نصر أوروبا هو في اليوم التالي (٦ ايار / مايو ١٩٤٥). وهكذا تركنا القدس والبلد في حرب، لأن بريطانيا كانت تقاتل المانيا، وعدنا وقد وضعت الحرب أوزارها.

في اواخر صيف ١٩٤٥ قمنا بزيارة للناصرة.

كان من الطبيعي أن آخذ مرغريت لتتعرف على أقاربي وأصدقائي في الناصرة. نزلنا في البيت الذي كان يسكنه نعمة ايوب. نعمة ايوب هو ابن عفيفة زيادة ابنة عم والدي اللّزم (أي من الدرجة الأولى). وكان لها أخت وحيدة هي لطيفة. تزوجت مرتين لكنها لم تنجب. ونعمة كان الابن الوحيد لعفيفة وايوب القَنَيْش. ايوب القنيش هو اصلاً من أسرة زيادة، لكن كان أبوه اشقر اللون، فكان اذا قوي نور الشمس يُقَنِش اي انه يكاد يطبق عينيه بسبب الشمس. لذلك أصبح اسمه القنيش، وسمي ابنه ايوب القنيش. وكان اسم نعمه هو صغير نعمه النقيش بطبيعة الحال. لكنه لما كبر قليلاً اكتفى باسم نعمه ايوب.

ونعمه كان قد تخرج من الكلية العربية قبل سنوات، وكان يعمل في تعليم الرياضيات في مدرسة الناصرة الثانوية. كانت امه عفيفة قد توفيت، فكان يعيش وحده، مع ان خالته لطيفة كانت تقيم في الناصرة. الزيارات كانت متواصلة، والعناية مستمرة، لكن الاستقلال كان واقعياً ونافعاً.

في الناصرة كنيستان يجب أن تزارا. الواحدة كنيسة البشارة للروم الارثوذكس، في حارة الروم. وهي في عرف التقليد التاريخي تقوم حيث بشر الملاك السيدة العذراء بأنها ستكون أماً بالروح القدس للمسيح. وهذه الكنيسة أساسها، على ما يروي العارفون، يعود الى أيام الدولة البيزنطية، وهناك رواية مرجرجة مؤداها ان

الملكة هيلانة، أم الامبراطور قسطنطين هي التي بنتها.

والكنيسة الثانية هي كنيسة البشارة التابعة لطائفة اللاتين، وهي في حارة اللاتين. هذه كانت قد اصلحت واعيدت زخرفتها بالفسيفساء في أوائل العشرينات من القرن الحالي؛ فكانت أفخم شكلاً. وهي تقوم فوق اثار كنيسة تعود الى أيام الصليبيين. وهذه، بحسب دعوى أصحابها، هي التي تقوم فوق الكنيسة الأصلية البيزنطية. وأحسب انه سيظل هناك كنيستان للبشارة في الناصرة، ما دام هناك طائفتان وكل منهما تدعي انها هي على حق.

وذهبنا خارج الناصرة لزيارة جبل الطور (جبل طابور) الذي يرتفع من مرج ابن عامر، في الجزء الشمالي منه، ويبلغ القمة على نحو ٤٠٠ متر من السهل. وهو مخروط واضح الهيئة والشكل. وتقوم على قمته كنيستان وديران - واحد من كل منهما لكل من الطائفتين - الروم الأرثوذكس واللاتين.

وعلى قمة هذا الجبل يحتفل بعيد التجلي، الذي يقع في السادس من شهر آب/ اغسطس. ولأن البطريركية الأرثوذكسية المقدسية (الأوروشليمية رسمياً) تتبع التقويم اليولياني، فان العيد يقع في ١٩ آب على الحساب الغريغوري). ومن ثم فان الجبل يشهدا احتفالين لهذا العيد. وقد كان أهل الناصرة وبعض أهل القرى المجاورة يذهبون الى الجبل لقضاء بضعة أيام قبل العيد وبعده، ويقيمون اما في غرف تستأجر في الدير أو في خيام تنصب في ساحات الدير الواسعة. وهذا كان ينطبق على طائفة الروم الأرثوذكس اكثر منه على العيد الآخر المبكر. وقد حضرت أنا هذا العيد مرتين من قبل.

لكن لما ذهبنا مع مرغريت كان وقت العيد وحفلاته قد مرّ، فكانت زيارة للكنيستين. وكانت كنيسة اللاتين، مثل أختها كنيسة الناصرة، قد زخرفت بالفيسفساء الجميلة.

ومن غريب المصادفات انني كنت مرة مع نفر من الأصحاب في مشرب للبيرا في ميونخ (سنة ١٩٣٧)، وكنا نتحدث بالعربية، فاقترب مني رجل الماني وقال انه لا يقدر على التكلم بالعربية، ولكنه عندما يسمعها يعرفها. ولما سألته وأين اعتاد على ذلك. قال انه كان المهندس الذي خطط الفسيفساء لكنيستي الناصرة وجبل الطور وأشرف على تنفيذها، وقضى في الناصرة والجبل ثلاث سنوات كان يعتبرها من أجمل سني حياته. وقد اغتبط كثيراً لما عرف انني أنا ناصري، وتحدث معنا قليلاً، ثم اعتذر وذهب الى صحبه. ولما انتهينا من الشرب واردنا أن ندفع قيل لنا اننا ضيوف على الرجل الذي تحدث الينا.

وقمنا أنا ومرغريت بزيارة لصديقنا من أيام التلمذة في دارالمعلمين حنا ابرهيم (ابو حنا) من الرينة. حنا كان ولداً وحيداً بين سبع اخوات. وقد توفي والده وهو صغير. ولما كنا طلبة كان حنا يقول انه عندما يتزوج سيشترط على زوجته أن تنجب له من الأبناء اثني عشر. ولما زرناه في بيته كان قد أصبح عنده ستة، والسابع على الطريق. وقد انجب الزوجان فعلاً سبعة صبيان وخمس بنات.

أما في الناصرة فقد احتفل بنا كثيراً. فقد أقام لنا ابن عمي نجيب (يعقوب سكران زيادة) عشاء بلدياً فخماً في السطيحة الواسعة أمام بيته. وقد حضره أولاً هو وزوجته بنت عفيفة السلمان وأولاده وبناته (والعدد ٩) وأخوه فرح وزوجته ثروة وأولاده وبناته (والعدد ١٠)، والأخوة غير المتزوجين وريمة الأخت الوحيدة التي تزوجت أسعد حداد (من طائفة اللاتين)، (ابنتها عفاف تزوجت فيما بعد نعيم بن فرح سكران زياده)، وقد زرتهم في وندزور بكندا وكان نعيم قد اصيب بالفالج ودخل غيبوبة، ومات بعدها بمدة قصيرة (١٩٨٩).

وقد أقام ابن عمي فرح عشاء مثل أخيه. ثم كانت خطبة واحد من أولاد يعقوب (سكران زياده). وكان هناك احتفالات دامت ثلاث ليال مع غناء ورقص وأكل وشرب. (لكن هذه الخطبة فسخت فيما بعد). وأقام لنا سليم (دنون) شرش ابن عم أمي عشاء كان فيه عدد كبير من أهل الوالدة، ولم يكونوا هناك جميعهم، لانهم كثار.

فالذي أذكره انني حضرت عرساً لواحد منهم (في ايلول سنة ١٩٣٥) وكان الحضور من الأسرة (شرش) يزيد عن الأربعين. (والعدد زاد بطبيعة الحال بين ١٩٣٥ و١٩٤٥). وزرنا بعضهم أيضاً. وقد سرت مرغريت بذلك كله، كما سرت بزيارة عائلة يوسف خليل (جدعون) زميلي في مدرسة عكا الثانوية وصديقي العزيز. كان قد نقل الى الناصرة مديراً للمدرسة الابتدائية. وكان يعيش هناك مع زوجته روجينا وأولاده جميل وسلوى وسميرة.

عدنا الى القدس. وبعد أيام قالت لي مرغريت انها تنتظر مولوداً.

يعرف القراء ان تصريح بلفور أصدرته وزارة الخارجية البريطانية في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩١٧. وقد درجت فلسطين، منذ مطلع العشرينات، على الاضراب في هذا اليوم احتجاجاً على الحكومة البريطانية لاصدارها هذا الوعد بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر (١٩٤٥) أضربنا، على ما اعتدنا أن نضرب. كان موسى العلمي الذي اعتبر في ربيع تلك السنة (مندوبا) مراقبا عن فلسطين في جامعة الدول العربية، قد عهد اليه بانشاء المكاتب العربية والإشراف عليها. وقد بعث الي برسالة مع صديق انه يود مقابلتي. ولم يشر الصديق الى موضوع المقابلة، ولم استطع أن أفسر هذه الدعوة؛ لكنني قبلت الأمر وذهبت اليه في مكتبه في منزله في حي المصرارة.

كان موسى العلمي رجلاً مهذباً صريحاً لا يدور (وهذا ما جعل مركزه السياسي مضطرباً أمام سياسي اللف الدوران والتزعم والافادة). فبعد التعارف العادي. قال لي ان المكاتب العربية المزمع فتحها بحاجة الى الشباب أمثالي. وانه عرف من كثيرين انني استطيع أن أتولى رئاسة واحد من هذه المكاتب. وعرض علي، بدون تطويل، مكتب نيويورك.

ولم يكثر موسى العلمي من الحديث حول خدمة الوطن وما الى ذلك، مما كان يردده كل من يريد أن يستخدمك حتى لمصلحته. وموسى العلمي لم يكن يريد أن يفيد مني لمصلحة خاصة شخصية.

وطلبت منه أن يعطيني بعض الوقت للتفكير في الموضوع. وكل ما طلبه مني أن لا يطول هذا الوقت. لكنني أكدت لموسى العلمي انني لست من اولئك الذين يترددون أكثر من اللازم، وانني سأعلمه، خلال أيام قليلة عن موقفي.

كان هناك أمور كثيرة يجب أن ينظر فيها قبل اتخاذ القرار. أولاً كان هناك مرغريت، وهي حامل وهذه قضية مهمة لأمرأة في حملها الأول، خاصة وان الانتقال الى مكان لا نعرف عنه الا اسمه. لندن كانت، على الأقل، مكاناً أعرفه. وهذا كان الأمر الثاني. وهناك الأمر الثالث وهو هل اتخلى عن عملي في التعليم (ومعه التأليف) وأنا بالاثنين مُغْرَم، وأبدأ عملاً في السياسة؟ كنت قد كونت فكرة عن العمل السياسي في العالم العربي غير مشجعة أبداً. هذا من حيث طبيعته. ثم من حيث الاستمرار فيه. ما الذي يمنع المتحمسين لانشاء المكاتب العربية للدفاع عن قضية فلسطين اليوم أن يبدلوا رأيهم أو أن يبدِّل هؤلاء بغيرهم فيرون رأياً آخر. عندها يقفل المكتب العربي (وهذا ما حدث فعلاً بعد نحو سنتين)، وأصبح أنا فرخ سياسي عاطل عن العمل، وعندها قد اضطر الى الالتحاق بواحد من المعسكرين الفلسطينيين كي أعيش، وقد أُرْغَمُ على أن أتصرف عل يغير ما أحب، أو أن أعيش دون ما أرغب.

هذه أمور كان يجب أن تبحث، وأن تبحث في العمق. ولعلني كنت أقبل مثل هذا العرض، وأقدم على المجازفة لو لم أكن قد تزوجت.

تحدثت أول ما اتحدثت مع مرغريت. في الواقع لم أتحدث في قضية القبول أو الرفض الا معها. وكان

خلاصة رأيها ما يلي: «نقولا اذا كنت تحب مثل هذه المجازفة فانا معك. لا أود أن تقول يوماً انك احببت القيام بعمل وكنت أنا السبب المانع من تحقيق أملك».

هذا القول الصريح الصحيح سمح لي بالتفكير الحر في الموضوع. والتفكير الحر في أبعاده المختلفة. وبعد أن قلبت الأمر على وجوهه، ذهبت الى موسى العلمي واعتذرت له لانني، فيما اعتقد، قد اخترت عملي ومهنتي أي التعليم والكتابة، واضفت أرى انني لم اخلق للعمل السياسي أو لم أهيأ أو أدرب له.

وبعد مدة عرض علي عمل في الاذاعة. كان عزمي النشاشيبي قد عين مساعداً عربياً لمدير الاذاعة الذي كان يومها أدون صموئيل الأبن الاكبر للسير هربرت (فيما بعد اللورد) صمويل أو ل مندوب سام لفلسطين. ومع ان ادون، مثل أبيه، كان يهودياً (وصهيونياً) فقد حُسِبَ، اذ عين مديراً للاذاعة، انه بريطاني. وكان له مساعد يهودي، ومساعد عربي. كان عزمي بحاجة، كما قال لي، الى من يعنى بالبرامج وخاصة الثقافية والفنية (غير الموسيقى)، لانه هو معني بالادارة والعلاقات العامة. وعرض علي، بالنيابة عن المدير العام المنصب. وكان معنى ذلك ترقية درجة في العمل (أي ما يعادل نحو عشرة جنيهات في المرتب الشهري)

ولكن بعد أن تحدثت مع مرغريت حول هذا ارتأت أن لا ننظر الى الجنيهات العشرة، لانها تغري؛ ولننظر الى أمور أخرى أهمها أي أرفع مستوى الاستاذ في الكلية العربية أو مساعد (مساعد) لمدير الإذاعة؟ ثم اضافت متسائلة أي العملين أحب اليك يا نقولا.

وقد كان جبرائيل كاتول قد أصبح في الوقت الذي أتحدث عنه مساعداً (بعد النائب) لمدير المعارف. وقد ظلت لي به صلة (ازدادت هذه لما تزاملنا في الجامعة الاميركية منذ سنة ١٩٤٩). في عملي في عكا كنت ادارياً تابعاً له. لكن الكلية العربية كانت تابعة لمدير المعارف رأساً. ومن ثم فقد كانت استشارتي بعيدة عن الرئيس والمرؤوس. كان الحديث طويلاً؛ وبعد تمعن في الامر قال لي الجنيهات العشرة مهمة يا نقولا، لكن قد لا يقل عنها أهمية استقلالك في العمل في الكلية العربية والكلية الرشيدية. وانا أرى ان حريتك هنا أهم من المبلغ غير الزهيد؛ وهناك ستكون موظفاً (ولوكبيراً) واضاف: «وانا لا أشعر بالحرية التي تتمتع انت بها في التعليم».

واعتذرت لعزمي النشاشيبي وقال: «بدنا نقوي السقافة ولكن رجال السقافة لا يعينوننا ولا يساعدوننا». وكان يتعمد لفظ الثقافة بالسين!

على كل فالمهم الآن ان مرغريت تنتظر مولوداً. وعندها بدأت سلسلة من الاهتمامات والتحضيرات والترتيبات وأهمها، من وجهة النظر الشخصية، هي أن لا يصيب مرغريت مكروه. وكان من رأينا أن نتبع نصيحة الطبيب، لا رأي كل من أصبحت أماً، بقطع النظر عن طول الخبرة. وكان طبيبها الدكتور يوسف حجار، اللبناني (من سوق الغرب) والذي كان كبير أطباء مستشفى الحكومة في القدس. بهذه المناسبة لما انشئت الادارة الحكومية في فلسطين، وكان ثمة حاجة الى عدد من أصحاب المهن المتقدمة، جاء فلسطين عدد من الاطباء اللبنانيين وعملوا في الادارة هناك. وقد جاء وقت (في أواخر الثلاثينات) كان اثنان وعشرون طبيباً لبنانياً يعملون في ادارة الصحة العامة (هذا الى بعض من الأطباء الذين فتحوا عيادات خاصة في فلسطين، وكان عميدهم الدكتور توفيق باز حداد من عبيه).

وكان الأمر الآخر اختيار الاسم - صبياً كان أم بنتاً. وقد تحدثنا حول الموضوع كثيراً، اذ كان جزءاً من لعبة الحياة الزوجية. واخيراً اتفقنا على واحد من اسمين (للصبي) وهما رائد أو باسم أما في حالة كان المولود المنتظر بنتاً فقد وضعنا لائحة فيها بضعة أسماء، كل واحد منها كان جميلاً، وقلنا عند مجيء البنت نلجأ الى القرعة.

ومع الوقت كان لا بد من اعداد تخت له، ولم يكن هذا صعباً فمرغريت كانت ذات ذوق رفيع وحس فني

دقيق، وقد كانت فنانة ترسم بالألوان المائية. أما الثياب. وقد بدأت الاشارات الى الهدايا من اخوي وأختي واخوة مرغريت. فقد قررنا أن تترك الى «أن يأتي الصبي ونصلي على النبي».

ومن حسن الحظ أن حمل مرغريت كان عادياً جداً. فلا آلام غير عادية، ولا لجوء الى الفراش ساعات أو اياماً، ولا اضطراب في المعدة. ولما جاءت أيامها لتلد، أدخلت الى المستشفى الحكومي. ولأنه لم يكن ثمة غرفة خاصة (وكانت درجتي في الوظيفة تعطينا هذا الحق بالنسبة للمستشفى) فقد قضت الليلة الأولى، وهي الليلة التي وضعت «رائد» فيها، في قاعة فيها ثمانية سرر. وكان سريرها تماماً تحت اللوحة التي تشير الى ما تبرع به أهل فلسطين هدية زواج للأميرة ماري (ابنة الملك جورج الخامس ١٩١٠-١٩٣٦) لما عقد قرانها على الفيكونت لاسال سنة ١٩٢٢. كنت يومها تلميذاً في دار المعلمين، وكلفنا بالتبرع، فدفع كل منا شلناً واحداً (خمسة قروش مصرية يومها). والمبلغ الذي جمع في فلسطين تبرعت به العروس الملكية لمستشفى القدس الحكومي، فبنيت به هذه القاعة. ووضعت اللوحة هناك. وهكذا فقد قبضت ثمن الشلن بعد ٤٤ سنة.

رن جرس التلفون في البيت الساعة الواحدة من صباح أول أيار/مايو (١٩٤٦) وبشرتني الممرضة بأن صبياً ولد قبل ربع ساعة، وان الولد وأمه بخير. وأضافت، قبل أن يحدث سوء التفاهم، ان الزيارة في الصباح، وسيسمح لي، بصورة استثنائية، أن أقوم بالزيارة بدءاً من الساعة السادسة صباحاً.

وكنت على باب القاعة في الساعة السادسة، وقلت لمرغريت، وأنا أقبلها، مبروك يا أم؟ فأجابت رائد. وهكذا كان. والذي نعرفه هو اننا أول من استعمل اسم رائد، ولذلك فكل رائد (خارج الجيوش) هو أصغر من ابننا سناً. (بهذه المناسبة كان رائد رقم ٢ هو ابن الدكتور محمود السمرة، رئيس الجامعة الاردنية اليوم، والرقم ٣ هو ابن الدكتور عبد الكريم غرايبه، عميد كلية الآداب في الجامعة الاردنية الى سنة ١٩٨٩. والأول كان من تلاميذي في الكلية العربية، ولا يزال صديقي؛ أما الثاني فكنت واياه زميلين في الدراسات العليا بجامعة لندن ١٩٤٧-١٩٤٩، وتوثقت بيننا صداقة لا تزال وثيقة العرى).

واخضع رائد لنظام شديد منذ الليلة الثانية لقدومه الى البيت. بكى وبكى مساء، فلم يُلْتَفَتْ اليه (وان كان القلب يتقطع نياطه لبكائه). ولما رأى ان لا فائدة من الزعرنة أخلد الى النظام. وكان من نظامه، لما كان عمره نحو عشرة أشهر أن يبكي كل يوم ساعة على الأقل (بين الخامسة والسابعة). وكان هذا يضايق مرغريت. لذلك اتفقنا على أن تجرب مرغريت القيام بزيارة لصويحباتها في هذه الفترة، وأبقى أنا في البيت اتمتع بصياحه وصراخه وبكائه وهو في تخته. أظن انه ظل على ذلك نحو شهرين أو أكثر قليلاً. ثم غير اسلوب احتجاجه.

اننا انتظرنا قدوم المولود بفارغ الصبر. فالمولود هو ثمرة للحب الذي يغمر الشخصين ويملأ قلبيهما. ولم يكن مجيء رائد، بطبيعة الحال، أمراً بسيطاً. لم تكن القضية اننا كنا اثنين فأصبحنا ثلاثة. هذا المخلوق الجديد، الذي يتمتع بكل حركات الحياة، صغير ضعيف. ومع ذلك فهو قوي في نفسه. ولعل قوته كانت مستمدة من هذا الضعف الظاهر فيه. انه يتطلب أموراً متنوعة. ونحن لا نعرف ما الذي يطلبه، لذلك كنا في حيرة من أمرنا. وكان علينا أن نحزر ونستجيب. ومن هنا فقد كان هو المتسلط القوي. ونحن كنا، من البدء نريد أن نَعدَّه للحياة بكل معانيها. ولكن كيف نعده؟ مرغريت كانت معلمة، وأنا كنت معلماً ومدرساً. لكن هل كان هذا يكفي؟ لا. وهناك أمر آخر فلا مرغريت ولا أنا مرّ علينا في بيتنا صغار نشأوا بين أرجلنا ثم تسلقوا حتى أصبحوا طولنا. لذلك كان علينا أن نبدأ من نقطة الصفر.

كان كتاب الدكتور سبوك حديث الظهور. ولعلَّ أول نسخة بيعت في القدس كانت النسخة التي اشتريناها نحن. هنا آخر كتاب طرّز للعناية بالأطفال، غذاء وكساء ورياضة وعلاجاً أولياً. ولم يكن، فيما أذكر هناك، أطباء عرب للأطفال. (كان آخرهم، الذي أذكر عيادته في باب العامود، الدكتور عزت طنوس، لكن هذا الطبيب البارع

انصرف الى السياسة، وترك الطب). لكن كان هناك طبيب نحترمه ونحبه هو الدكتور توفيق باز حداد. كنا، عند الحاجة، نلجأ اليه، لكن عيادة الدكتور حداد كانت بعيدة عن بيتنا. لذلك اتخذنا من طبيب يهودي، كان اخصائياً بشؤون الاطفال، طبيباً آخر كان عند الحاجة يلبي دعوتنا فيأتي الى البيت. وبهذه المناسبة كنت كثيراً ما «أتخوّش» من هؤلاء الأطباء اليهود الذين كانوا يسمون أنفسهم اخصائيين. هل كانوا فعلاً كذلك؟ أم انهم مجرد أن يهاجروا الى فلسطين يصبح لهم الحق في وضع آرمة على العيادة «اختصاصي ...»؟ (وكان الدكتور ديفي يأخذ أجرته جنيها فلسطينيا لكل زيارة للبيت).

وكان هناك أم مرغريت، التي كانت تحمل السبعين ونيفاً على أكتافها وتأتي لزيارة حفيدها. كانت تقدم النصائح، لكن هي نفسها كان عهدها بتربية الصغار قد مرت عليه أيام وأيام.

ومع هذا كله كان يظل هناك شيء خاص لا يرى ولا يدرك ولا يحس، ولكن الواحد يشعر بوجوده. هذا الشيء الخاص كان مزيجاً من الخوف على الطفل أن يصيبه مكروه، والخوف علينا أن نقصر نحوه، والشفقة عليه لضعفه، والشفقة علينا. واحدنا على الآخر. لسبب قوته؛ قوة الحياة التي تنمو وتسير قدماً يوماً بعد يوم.

أنا أكتب هذه الصفحات وأنا في لندن (ايلول / سبتمبر ١٩٩٠) وقد جئت لزيارة ابني رائد وباسم واسرتيهما: أسرة رائد مكونة من زوجته ريما وابنتيهما. كندة وغيدا وأسرة باسم مؤلفة من زوجته كارن وأولادهما (على الترتيب) مريانا ومروان ونِدا ونائلة. أشرت الى هذا لأنني أود أن أتحدث عن الأخيرة. هذه بلغت من العمر سنة وشهراً. فهي تمشي وتصوت وتبكي وتضرب وتبتسم وتهرب وتهاجم مثل جميع الأطفال. لما تركت الأسرتين في الخريف الماضي كانت لا تزال في دور الطفولة الأولى (دون الشهرين). لما جئت السنة كنت أنتظر أن أرى طفلة تتحرك. كنت جالساً في الصالون، ولم ألبث أن سمعت صوتاً وأدركت أن حركة خاصة تحدث ضجيجاً ناعماً. دخلت نائلة فكان ذلك كدخول عصفور يزقزق ويصفق بجناحيه. حياة في حياة. انها قوة الحياة التي تنمو وتسير قدماً وتفاجئنا كل يوم بجديد.

رائد، لما كان في سنها كان حوله أمه وأنا وجدته لأمه وعمته ماري وعماه الفرد وجورج وأخواله أوجين وجوزيف وإميل. لكن اللذين كانا حوله دوماً أمه وأنا. فلم يكن حوله طفل يداعبه. نائلة الآن تتمتع، فضلاً عن وجود الأب والأم، بوجود أختين وأخ. ومع أن أختها ندى أكبر منها بنحو ست سنوات، فهي بعد طفلة. ولا شك ان طفولة نائلة هي أخصب وانشط وأصح من طفولة رائد لسبب وجود هؤلاء الأخوة حولها.

والأطفال اليوم، حتى قبل أن ينهوا العام الأول من حياتهم، يمكن أن يُسلوا بأمور كثيرة: أنواع الألعاب صور التلفزيون، الأغاني المسجلة. لكن طفولة رائد في السنة الأولى ١٩٤٦-١٩٤٧ لم يكن فيها الا القليل من هذا. ولكن عناية مرغريت، واهتمامها بالقراءة عن الأطفال، عوضت على رائد أموراً لا أقول أفتقدها (لأنه لم يعرفها)، ولكنها لم تكن قد وصلت الينا.

وعلى كل فقد أصبح لنا في البيت عمل يدور حول شيء حيّ ومنّا. كان العمل أحياناً شاقاً، ولكنه كان في غاية المتعة. يكفي أن يبتسم رائد، ولو ابتسامة عادية مثل جميع الأطفال، كي تسري في عروقنا دفقة دم جديدة تمنحنا زخماً جديداً في الحياة.

كان واحداً من المشاريع التي راودت مخيلة بعضنا في السنوات ١٩٢٥-١٩٤٧ مشروع انشاء جامعة عربية في فلسطين، تكون القدس مركزها. في ذلك الوقت كان عدد المتخرجين من الجامعات في فروع المعرفة المتنوعة قد ازداد. وكانت الحاجة الى جامعة عربية قد أصبحت موضع اهتمام الكثيرين حتى من غير المعنيين بالدرس والبحث والعلم مباشرة. كانت الفكرة لها أساسان الأول هو انشاء معهد للدراسات العليا يهتم بالطلاب

الفلسطينيين في بلدهم (وقد يؤمه طلاب عرب من الذين يهمهم بشكل خاص، أن يتعرفوا الى فلسطين جسماً وكياناً وروحاً وتاريخاً وتراثاً). والأساس الثاني هو أن تكون الجامعة تعبيراً عن شخصية فلسطين العربية ورمزاً للوجود الفلسطيني. كان المهتمون بهذا يوسف هيكل وعبد الرحمن بشناق واسحق موسى الحسيني وموسى عبد الله الحسيني وجورج حوراني وعبد الحميد ياسين وقدري طوقان ونقولا زياده. وقد ضممنا الينا جاردن، ممثل المجلس البريطاني في القدس. وذلك رغبة في إقامة صلة مع الأساتذة البريطانيين عند الحاجة.

لم نكن نعقد اجتماعات منتظمة. كانت جلساتنا قد تقتصر على عدد ضئيل وقد تشمل الجميع. اذا كان المقصود التحدث عن الأمر، والبحث في النواحي المختلفة. فإذا تجمع لفئة منا ما يقتضي الاجتماع فعلنا ذلك لإتخاذ قرار. والواقع فإن القرارات التي اتخذت كانت قليلة. ولكن أهمها كان قبول قطعة أرض لإقامة المباني تبرع بها موسى عبد الله الحسيني. وأود أن أشير هنا أن الحماسة للمشروع كانت على درجات متفاوتة عند من ذكرت. ولعلّ ضخامة المشروع حملت البعض على التراخي، لكن هذا النفر ظل محافظاً على علاقته بالمشروع وأصحابه، ولو من برا لبرا.

على أن الشيء الذي قررته حكومة فلسطين، بناء على الحاح من ادارة المعارف هو توسيع الكلية العربية عمودياً وافقياً. والمشروع كانت قد مرت عليه سنوات وهو في أدراج حكومة فلسطين. كان يخرج من الدرج في مكتب السكرتارية أو مكتب المندوب السامي عندما ترسل إدارة المعارف رسالة تذكيرية به. لكن عبارة «يحفظ» كانت تغلب على المذكَّرة والمذكِّر.

وأخيراً صدر قرار حكومة فلسطين بالقيام بالمشروع. وكانت الفكرة أن تصبح الكلية العربية كلية جامعية أي أن تصبح معهداً للدراسة العليا الى مستوى البكالوريوس. فضلاً عن ذلك يضاف اليها أقسام تخصصية تامة فيكون هناك أقسام لفروع العلوم البحتة والتطبيقية (يومها كلمة تكنولوجيا لم يكن استعمالها قد شاع بعد) والدراسات الادبية والأجتماعية.

والكلية الجامعية في معجم المعاهد العلمية البريطانية هي معهد للتدريس (والبحث العلمي) لكنه لم يكن يمنح شهادات باسمه. والسبب هو أن إنشاء مثل هذا المعهد والتدريس فيه يحتاجان الى بعض الوقت كي يستقر مستواه فيقوم بمنح الشهادة باسمه. هذه تجربة بريطانية. فقد كان في انكلترا بالذات (سنة ١٩٣٩) نحو عشرة من هذه المعاهد (وقد أصبحت جميعها جامعات فيما بعد) من أكبرها اكستر وردنغ ولفبره. ثم انشىء عدد كبير منها في المستعمرات البريطانية المختلفة. ولعلّ أهمها يومها في العالم العربي هي كلية الخرطوم الجامعية. وهذه جميعها، حيثما وجدت، كانت تقوم بالتدريس أما الامتحانات فكانت تنظمها جامعة لندن.

وقد كانت هذه الخطوة هي التي قررت حكومة فلسطين السير فيها. وفي ربيع سنة ١٩٤٧ بدأت أعمال الحفر في أراضي الكلية العربية لإقامة المباني الجديدة لكلية القدس الجامعية. لكن في ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧ قررت الجمعية العمومية للأمم المتحدة تقسيم فلسطين. فتوقفت الأمور بسبب الحرب التي لفت فلسطين كلها بفظائعها.

وقد بدأت في خريف ١٩٤٧ أسعى للحصول على اجازة سنوية (مع الراتب) من حكومة فلسطين كي أذهب الى لندن للعمل في الدكتوراه. وتم لي ذلك فأعطيت سنة ١٩٤٧-١٩٤٨ الدراسية، كما حصلت على بعثة من المجلس الثقافي البريطاني. فكان ذلك أمراً جيداً جداً.

وتركت القدس في أوائل ايلول/ سبتمبر ١٩٤٧ بالقطار الى بور سعيد ومنها بحراً الى لندن وكانت رحلتنا هذه على الاسكانيا.

وكان الترتيب أن تتبعني مرغريت مع رائد في نيسان / ابريل ١٩٤٨. لكن حدث ما غيّر الوضع. فوصلت مرغريت لندن قبيل عيد ميلاد ١٩٤٧؛ ولم نعد الى فلسطين. عدنا الى بيروت!

خرجت فلسطين من الحرب العلمية الثانية (١٩٤٥) وقد كانت ثلاثة أمور تتحكم في حياتها السياسية. أولها الموقف الصهيوني المتشدد في سبيل انشاء دولة يهودية في فلسطين، على أساس القرار الذي اتخذ في اجتماع بِلْتْمور (١٩٤٢) وكانت الولايات المتحدة بقيادة ترومان، قد ألقت بثقلها الى جانب الصهيونية. وثانيها الموقف البريطاني الذي تمثل بتعب بريطانية من قضية عقدتها بوعودها المتناقضة وترددها المتواصل. وثالثها كان الموقف العربي، داخلاً وخارجاً.

وقد تحدثنا عن الدور الذي مثلته بريطانية، من حيث الطلب من الولايات المتحدة أن تساهم معها في إيجاد حل للمشكلة، وتعيين اللجنة البريطانية الأميركية التي جاءت فلسطين سنة ١٩٤٦، ثم رمي الكرة الفلسطينية في أحضان الأمم المتحدة وتعيين لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين، والتي جاءت البلاد سنة ١٩٤٧، وسمعت ووعت ثم رأت أن تقسم البلاد، وهو الاقتراح الذي تقدمت به الى الأمم المتحدة واتخذت هذه به قراراً في ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧، على ما مرّ بنا.

وقد بدأت المنظمات الصهيونية مثل شترن والأرغون القيام بأعمال تخريب في فلسطين حتى قبل نهاية الحرب العالمية. وأنا لا أنوي التحدث بالتفصيل عن هذه الأعمال، بل أود أن أشير الى بعضها. فمنها ما كان موجهاً ضد الانكليز مباشرة مثل نسف نادي الضباط الانكليز في القدس، وتعليق جنديين بريطانيين من الاقدام بعد قتلهما؛ ومنها ما كان موجهاً ضد الادارة ولعل أفظع هذه كان نسف فندق الملك داوود بالقدس. وقد كانت الادارة الفسطينية قد اتخذت من هذا الفندق الفخم مكاتب للحكومة المركزية. وفي يوم السبت في ٢٢ تموز / يوليو ١٩٤٦ نسف نصف الفندق بإدخال براميل معبأة بالديناميت وكأنها براميل الحليب التي يدخلها العمال يومياً الى الفندق. وكانت هذه مؤقتة فانفجرت بعيد الظهر؛ وقد سمع صوت الانفجار في أنحاء بعيدة، وملأ الغبار الجو، بحيث رأيناه نحن من بيتنا، وهو على بعد غير قليل من المكان. وقد بلغ عدد الضحايا نحواً من ٩٧ أكثرهم. من العرب والانكليز، وقلة من اليهود. فالتفجير تم في يوم سبت، واليهود كانوا يمتنعون عن العمل يوم السبت غالباً.

وقد كان، بهذه المناسبة، لهذا الانفجار أثر في أسرتنا الصغيرة. فقد كانت أوجيني مركريان تعمل في السكرتارية العامة، ومكتبها في الفندق. فلما سمعت مرغريت الصوت وعرفت المكان صاحت، وقد شحب وجهها، راحت أوجيني، فقد كانت أعز صديقاتها عليها.

لم يكن رائد قد بلغ الشهور الثلاثة من عمره، وكانت أمه ترضعه. وفي مساء ذلك اليوم جاء لزيارتنا أديب عتقي وزوجته سلوى وعبد الحميد ياسين وزوجته منيرة؛ فقد بلغهم حزن مرغريت وأساها، وأرجح أن ذلك جاء عن طريق أخي الفرد، فجاءوا في محاولة لتخفيف وقع المصيبة في نفسها. وقد نصحت سلوى (الطبيبة) مرغريت بأن لا ترضع رائداً تلك الليلة واليوم التالي.

عرفت القدس أسبوعاً من الحزن والأسى عصيباً. وقد شاركت بقية مدن فلسطين العاصمة مأساتها، وكان هذا طبيعياً؛ فضلاً عن ذلك فقد كان بين القتلى بعض موظفين من خارج المدينة المقدسة. وكان الواحد منا، ممن له بين الجماعة أصدقاء أو معارف، يتنقل من مكان عبادة الى مكان عبادة آخر ليلحق بالصلاة على الموتى. وقد حضرت أنا خمس مناسبات. لكن هناك من كان نصيبه أكبر من ذلك.

الى هذا النشاط التخريبي، الممثل في الذي ذكرت، كان نشاط اليهود يبدو في تشجيع الهجرة غير الشرعية. الواقع أن هجرة اليهود الى فلسطين بأجمعها هجرة غير شرعية. لكن الذي كانت حكومة فلسطين تشير اليه بانه

غير شرعي هو ما يهرَّب وهو خارج شهادات الهجرة التي كانت «حكومة الانتداب» تمنحها للوكالة اليهودية.

وأين كان العرب يومها؟ القيادة السياسية، على ما ذكرت، كانت منقسمة على نفسها. صحيح أن الحاج أمين الحسيني كان قد لجأ الى القاهرة، وأخذ يدير شؤون فلسطين السياسية من هناك. لكن المهم هو أن ندرك معنى شؤون فلسطين السياسية، كما كان هؤلاء الزعماء ينظرون اليها. القصد الأول من العمل السياسي كان الاحتفاظ بمركز الزعامة، بقطع النظر عن الوسائل التي يلجأ اليها في سبيل ذلك. يجب أن لا تبقى معارضة للقول الفصل الذي هو قول من يكون في الزعامة، ويستطيع أن يحتفظ بها. الوصول اليها تم عن طريق المجلس الإسلامي (الشرعي) الأعلى. هذا المجلس يسر للمشرفين عليه التصرف بالأوقاف الإسلامية. وقد كانت هذه موردا كبيراً للمال، ومن ثم للعمل السياسي.

وكان للمجلس الإسلامي الأعلى الإشراف على اختيار القضاة الشرعيين للوظائف المختلفة (ولو ان مرتبات هؤلاء كانت تدفع من خزينة الحكومة). على أنه كان هناك وظائف مرتبطة، بطبيعة الحال، بالمجلس وبالاوقاف. والتعيين فيها كان يمكن أن يفاد منه، عند مقتضى الحال، بتقوية الوجود والحضور وتمتين الصلة بين الزعامة والموظفين، الذين يكونون، بدورهم، أبواقاً تعمل في سبيل الزعامة.

أنا لم أعمل في المجال السياسي مباشرة، لا لما كنت في عكا (١٩٣٥-١٩٣٥) ولا لما كنت في القدس (١٩٣٩-١٩٤٧)، لكن كان لنا أصدقاء يعملون في ذلك. وكانت أخبار الذين عملوا في السياسة ولم يكونوا الى جانب الزعامة «القوية» لا يأمنون دوماً عواقب ما جنت أيديهم.

كان حزب الوفد المصري قد لجأ، منذ تأسيسه تقريباً، الى وصف مخالفيه بالخيانة، على اعتبار انه هو وحده الحريص على مصلحة البلد. وشاعت طريقة الوفد في فلسطين وسورية ولبنان والعراق، وذلك بسبب نفوذ الصحافة المصرية. لم يتسع صدر الوفد، ومن احتذى حذو الوفد، لقيام رأي يخالف رأيه؛ ولم يكن من حق الآخرين أن يكون لهم تنظيم؛ واذا كان هناك رأي مخالف أو تنظيم منافس فالاثنان يوصفان بالخيانة لا أكثر ولا أقل. وقد رافق هذا الموقف في فلسطين موقف آخر-هو التصفية. بحيث اضطر كثيرون الى ترك فلسطين خشية أن يصيبهم ضرّ في نفوسهم.

والأحزاب السياسية التي أشرت الى قيامها بدءاً من الثلاثينات، ماذا كان موقفها؟ يتوجب علينا أن ننظر بشيء من العناية الى هذه الأحزاب-لا تقصياً-ولكن إجمالاً. هذه الأحزاب كانت، في غالب الأحيان، تتألف من فئات صغيرة، تدور في فلك زعيم، أراد أن يحتفظ لنفسه بموقع في الميدان. كان هناك حزبان على درجة أكبر من حيث العدد: الأول الحزب العربي الذي كان جمال الحسيني صاحب الصوت الأول فيه؛ وهذا الحزب كان في واقع الأمر الواجهة التنظيمية السياسية لمنصبي الافتاء ورئاسة المجلس الإسلامي اللذين كان يشغلهما الحاج أمين الحسيني (ولو انه عزل رسمياً فيما بعد عن المنصب الثاني). أما الحزب الآخر فهو حزب الدفاع الوطني الذي كان رئيسه راغب بك النشاشيبي. وقد أنشأ راغب بك هذا الحزب سنة ١٩٣٥ بعد فشله في انتخابات بلدية القدس سنة ١٩٣٤. وقد فشل في تلك الانتخابات بسبب تأليب القوى الأخرى عليه، فانتخب الدكتور حسين فخري الخالدي، بتأييد من جماعة الحاج أمين.

أما الأحزاب الأخرى فهي لا تختلف عن الأحزاب السياسية التي قامت في سورية ولبنان في الفترة نفسها. لقد كانت جميعها تدور حول زعيم واحد يؤيده أهل المنطقة أصلاً، ويعمل للوصول الى الحكم ولواي حكم، وعندها يستفيد مؤيدوه. فاذا فشل فشلوا معه-وقد يظفرون أيضاً بسببه.

على أن هذه الأحزاب ما الذي كانت تفعله؟ كانت، والصغرى منها خاصة، تظهر عند قيام مشكلة فتجتمع لجنتها السياسية (أو التنفيذية أو مجلسها الأعلى) فتحتج وتبعث ببرقيات الاحتجاج الى المندوب السامي ووزير

المستعمرات وتستنجد بالحكام العرب. وكانت هذه الأحزاب تبدي نشاطها عندما يحين الوقت لإحياء اللجنة العربية العليا، فيكون رئيس كل حزب عضواً فيها. وقد يشتد نشاطها عندما تأتي مناسبة لإرسال وفد الى لندن؛ فهناك التمثيل ـ بجميع أنواعه وأصنافه وفنونه.

ومن المصائب التي نزلت بالقضية الفلسطينية يومها تعريبها. تعريب القضية التي كانت فكرتها الأصلية مقاومة الهجرة اليهودية وانشاء الوطن القومي لليهود في البلاد (تصريح بلفور) ما كانت تستفيد كثيراً (ولا قليلا!) من مؤآزرة مصر، وهي المشغولة بجِهادها ضد بريطانيا؛ ولا من تأييد لبنان وسورية وهما مشغولتان بمحاولة التخلص من فرنسا؛ ولا من التطلع نحو العراق ومشكلاته مع بريطانيا كثيرة وكبيرة. والدولتان الوحيدتان اللتان كانت مستقلتين يومها هما المملكة العربية السعودية واليمن.

وعلى كل فالدول العربية يومها كانت ضعيفة وفقيرة (ثروة البترول جاءت في أعقاب الحرب العالمية الثانية ونشطت في الخمسينات من القرن الحالي).

لذلك فإن الذي كنا نحصل عليه من التأييد العربي لم يكن يعدو برقيات تجار بالشكوى معنا، ومظاهرات تأييد واضرابات تشجيع. وكان زعماء الأحزاب يتبارون في نشر البرقيات التي تأتي من الدول والمنظمات العربية؛ وكان المشتغلون بالسياسة ورجال الصحافة يشيدون بهذا التأييد الذي لا ينفع. ولكننا نحن ـ الشعب ـ لم نكن ندرك يومها اننا لن نفيد من هذا قط، الا من أوتي شيئاً من الحكمة. ولكن هذه «الحكمة» لم يكن يجوز لها أن تتكلم في مجلس العارفين بالسياسة والمشتغلين بها.

ودخلت جامعة الدول العربية الميدان.

وقِع الاتفاق النهائي على تأسيس جامعة الدول العربية في الثاني والعشرين من شهر آذار/ مارس ١٩٤٥؛ وكانت الدول المؤسسة هي مصر والمملكة العربية السعودية واليمن والأردن وسورية ولبنان والعراق. وقد خصت فلسطين بمندوب يحضر الاجتماعات، لكن البلد لم يعترف به لا مؤسساً ولا عضواً قانونياً. فكانت فلسطين، من الأصل، في نظر الدول العربية عضواً قاصراً. وقد عملت الجامعة على احياء اللجنة العربية العليا (١٩٤٥) ولكن المحاولة تعثرت بسبب ما كان بين زعماء الأحزاب من خلافات. وكانت المحاولة الثانية انشاء الهيئة العربية العليا الذي تم الاتفاق عليه في بلودان (١٩٤٦)؛ وقد استمرت الهيئة تقوم في عملها سنوات طويلة.

الا أن جامعة الدول العربية لم تكن أصلاً قوية في حضورها العالمي. أشرنا من قبل الى مؤتمر انشاص الذي عقد في مصر (٢٨ـ٢٩ ايار/ مايو ١٩٤٦)، ولعله من المناسب أن نورد هنا القرار الهام الذي أصدره عن القضية الفلسطينية. صحيح أن مؤتمر انشاص لم يكن انعقاداً لمجلس الجامعة بالذات، لكن رؤساء الدول الذين حضروه كانوا هم رؤساء دول الجامعة العربية. أما القرار فهذا نصه: «ان فلسطين قطر عربي وهو القلب في المجموعة العربية. وان مصيره يرتبط بمصير دول الجامعة كافة، وان ما يصيب عرب فلسطين يصيب شعوب الجامعة العربية. وان الأخذ بتوصيات لجنة التحقيق (الانكلو ـ أميركية) تعتبره دول الجامعة عملاً عدائياً موجهاً ضدها. وانه يقتضي أن تُتَّخذ كل الوسائل الممكنة للدفاع عن كيان فلسطين الذي هو جزء لا يتجزأ من كيان البلاد العربية الأخرى».

أذكر اليوم (١٩٩٠) خيبة الأمل التي أصابتنا بسبب صدور هذا القرار. صحيح أن مؤتمر انشاص ترك الإجراءات الواجب اتخاذها لمجلس الجامعة، وصحيح أن مجلس الجامعة اجتمع في بلودان بعد انشاص بفترة وجيزة، وصحيح أن المجلس اتخذ في اجتماعه قرارات، أعلن بعضها يومها واعتبر الباقي سرّياً. ونحن لسنا معنيين هنا بالتاريخ لهذه الفترة، انما ما يهمنا أن نضع أمام قارئي هذه الصفحات صورة للموقف العربي

الداخلي والخارجي بالنسبة لفلسطين. والموقف الداخلي كان موقف صراعات ومنافسات وحزازات أشرنا الى بعضها قبلاً. وقد كانت الصحافة تشغلها البيانات المتنوعة التي تصدر عن الاحزاب، وكان الكثير منها، وخاصة الصادرة من جانب الحزب العربي، يخوِّن رؤساء الأحزاب الأخرى لأنهم كانوا يختلفون معه في الرأي. ومن هنا فقد ضاع الكثير من الجهد في أمور لا تنفع قطعاً، بل هي في الواقع تضر وتؤذي.

أما الموقف العربي الخارجي فقد كان يعتمد ـ لانه لم يجد الشجاعة الكافية لغير ذلك ـ على أن بريطانيا والولايات المتحدة «دولتان صديقتان» للعرب، وانه من غير المحتمل أن تعمد هاتان الدولتان الى القيام بأي عمل من الممكن أن يؤدي الى خسارة صداقة العرب؟

ومن هنا فإن القرارات التي اتخذها مجلس جامعة الدول العربية في بلودان ـ العلني منها والسرّي ـ لم يكن لها أثر.

لما غادرت فلسطين في ايلول/ سبتمبر ١٩٤٧ الى لندن كنت أحاول أن أبعد عن تصوري انني قد لا أعود الى فلسطين. لكن لما لحقت بي مرغريت (مع رائد) في شهر كانون الأول/ديسمبر من تلك السنة، كانت مقتنعة بأنها لن تعود الى فلسطين. كانت الجولة العملية بين العرب واليهود قد بدأت خلال هذه الفترة القصيرة.

الفصل الحادي والعشرون

خلال السنوات الثماني التي قضيتها في القدس (١٩٣٩-١٩٤٧) قمت بأعمال كثيرة، كان البناء هو الغالب على طبيعتها، والسير قدماً هو الصفة البارزة لاساليبها. وقد اشرت الى هذه في حينها.

الا ان الذي أريد أن أعرض له الآن يتعلق بالبلد وأهله على نحو عام. وقد يكون من الصعب أن أضع لهذا الذي أنوي الحديث عنه «عنواناً»، لذلك فإنني لن أحاول ذلك، ولاترك للحديث أن «يعنون نفسه بنفسه»

فلسطين بكاملها قطر صغير لا تعدو مساحته ٢٧,٠٠٠ كيلو متر مربع. وسكانه، في أواسط الثلاثينات، كانوا عرباً هم الأصل ينمو عددهم نمواً طبيعياً، ويهودا وكان عددهم يزداد بالهجرة ازدياداً غير طبيعي.

والفلسطينيون كانوا يتجمعون في ثلاث مدن رئيسية هي القدس ويافا وحيفا؛ وفي بلدات هي، من الشمال الى الجنوب، صفد وطبرية والناصرة وعكا وجنين ونابلس وطولكرم ورام الله والبيرة وبيت لحم وبيت جالا والخليل وغزة والمجدل وبئر السبع وخان يونس؛ واما ما تبقى من السكان فقد كانوا يقيمون في قرى، تكبر او تصغر تبعاً لموارد الرزق.

كان الفلاحون يقعون تحت نفوذ المرابين والحكومة. فالمرابون قلما تقاضوا من الفلاح أقل من ٣٦٪ سنوياً؛ وفضلاً عن ذلك فان الفلاح الذي كان يستدين على الموسم كان عندما يبتاع حاجاته من التاجر المحلي الذي لا يألو هذا جهداً في الحصول على الربح الوفير منه، ومن هنا، فان اكثر الفلاحين، كانوا دوما مدينين، سواء في ذلك ملاكو الارض منهم او الذين يستغلون الارض محاصةً.

أما ظلم الحكومة - حكومة الانتداب - فقد كان له سبب خاص. كانت السياسة تقضي بأن يشعر مالك الأرض انه عاجز عن الوفاء بديونه، للمرابي وللدولة، فيضطر الى بيع ارضه. ومن الطبيعي ان يتجه الفلاح الذي يفقد أرضه او العمل في أرض الشريك الغني، ان يتجه نحو المدينة آملاً في الحصول على لقمة العيش. وكانت القدس ويافا وحيفا مقصد هؤلاء الناس. ولأن شركة نفط العراق مدت الانابيب لنقل حصة بريطانية من النفط من كركوك الى حيفا، ولان حكومة فلسطين بنت ميناء حيفا، فان مجال العمل كان كبيراً في حيفا في أواخر العشرينات واوائل الثلاثينات. لذلك كانت حيفا تضج بالعمال الذين هم اصلاً من القرويين الذين حرموا مورد رزقهم الطبيعي - الفلاحة. وقد ذكر ان نحو ثلاثين ألف عامل لبناني كانوا يعملون في حيفا الى جانب الفلسطينيين الذين لجأوا اليها.

واذا نحن أخذنا المجتمع الفلسطيني، وأنا أقصد هنا العنصر العربي منه، لانه هو الأصل، وجدنا انه يمكن أن ينظر اليه على انه فئتان: أهل الريف وأهل المدن والبلدات. والفرق بين الريفي الأصلي والمدني الأصلي كان كبيراً، وان كان الكثيرون لم ينتبهوا لذلك، اذ كانوا يحسبون ان الزي - البدلة في مقابل القنباز - هو الفارق الأساسي. كان هناك ما هو أعمق من ذلك لا في اللباس وطريقة الأكل فقط، ولكن في النظرة الى الامور. وعلى ان نتذكر ان سكان المدن لم يكونوا كلهم في مستوى واحد.

كنت كثير الاتصال بالقرى وبأهلها، ويمكنني القول انني كثيراً ما كنت ارتاح في القرية مع اهلها اكثر مما

ارتاح في المدينة مع أناس جدد علي. فالاولون فيهم بساطة وراحة واحترام للزائر، أكثر من أهل المدينة الذين يعتبرون أنفسهم البورجوازية. وأنا واثق في الواقع من أمرين الأول انهم لم يكونوا يعرفون معنى البورجوازية والثاني انهم لم يكونوا بورجوازية قط.

من المشكلات الكثيرة التي واجهها كتابنا ومؤلفونا ومعلمونا في مطلع القرن العشرين، وخاصة في أعقاب الحرب الأولى، انهم وقعوا على ألفاظ لها في المجتمع الأوروبي مدلولاتها، ولها مبررات أو أسباب لنشوئها. ومنها المجتمع البورجوازي الذي نشأ في اوروبة نتيجة التطور الصناعي والتقدم التجاري وقيام الرأسمالية. ولم تكن البورجوازية سبّة، فهي طور من أطوار النمو الاقتصادي الاجتماعي في الغرب. لكن الماركسية وأبواقها حملت على البورجوازية واعتبرتها أصل جميع الشرور والمصائب.

وهنا وقع كتابنا في مشكلة ذات شقين. فالذين لم تغوهم الماركسية وظلوا على الشاطىء الايمن للحياة، ومع ذلك لم يدركوا أبعاد البورجوازية، ظنوا أن سكان المدن ـ صغرت أم كبرت ـ يمثلون هذه الطبقة، ولذلك استعملوا الكلمة استعمالاً غير صحيح. اما الذين انتقلوا الى الشاطىء الأيسر، فانهم حمّلوا هذه البورجوازية (الخيالية) مسؤولية كل الشرور والآثام. وقد فتشت عن بورجوازية في بلادنا قبل الحرب العالمية الثانية حتى وأثناءها فلم أجدها. صحيح انني عثرت على فئة من الأغنياء، لكنهم كانوا من حيث العدد قلة، ومن حيث الطبقية غير مصنفين، ومن حيث «الفكر» معدوميه.

الفلسطينيون كانوا، في القرية والمدينة على السواء، يؤثرون الانتساب الأُسريّ أو العشائري. كان جدي لأمي، وقد تجاوز التسعين من سنه (عاش ١٠٣ من السنوات) وقد ولد في الناصرة، لا يفتأ يشير الى انه من الرياحين من الحصن في الأردن. ولم يكن جدي الوحيد، ولا أهل الناصرة الوحيدين. أهل دير غسانة، الى الشمال من رام الله، كانوا يفخرون بانهم غساسنة. وأهل رام الله كانوا يتحدثون عن الحمولات (الحامولات) الأربع التي هاجرت من الشوبك في جنوب الأردن، واستقرت في منطقة رام الله. وقد حملت هذه معها خصوماتها المحلية ونزواتها.

وقد كانت الصفة الغالبة على الفلسطينين انهم محافظون ـ بقطع النظر عن مواطنهم. وقد تكون نظرتهم الى المحافظة معنى وشكلاً مختلفة بين فئة وأخرى، ولكن هناك أمور كانوا يتفقون بشأنها. فالجميع كانوا يقيمون وزناً كبيراً لمعنى الأسرة الصغيرة والكبيرة، مع معرفة الحدود الدقيقة بين الدائرتين. وكانوا، في المدينة وفي القرية، يفرّقون بين المجموعات السكانية. فهناك حدود للمصاهرة والزواج مثلا لا يمكن تجاوزها، لا يميناً ولا شمالاً ولو لفوق أو لتحت. وقد توجد مثل هذه الحدود بين سكان المدينة وسكان القرية حتى ولوكانت الثروة موفورة عند الفريق الثاني. ومن الأمثال التي كانت تستعمل للتشنيع على أهل نابلس انهم كانوا يقولون «لو أن اصبعي فلاحة قطعتها». لكن ذلك لم يمنع نابلسيات من الزواج من فلاحين أو حتى من بدو لما تساوت اعتبارات المقام والثراء. واعرف ان سيدة من نابلس تزوجت من شاب بدوي من منطقة بئر السبع وكان من الشروط التي وضعها أهل العروس ان يبني الزوج بيتاً للعروس لأنها لا تستطيع أن تسكن «بيت الشعر».

صحيح أن هذه أمور قليلة ان لم تكن نادرة حقاً، لكن وجودها له دلالته. على ان أثر البداوة في حياة فلسطين كان أكبر مما يبدو للعين المجردة.

فالبلد كان جزؤه الجنوبي سهوباً وأرضاً شبه صحراوية، وكانت صحراء سينا تصاقب فلسطين الى الجنوب، وبادية الأردن لم تكن بعيدة عن فلسطين. وهذا البلد، مثل سورية والعراق ولبنان والأردن، كان البدو يرحلون اليه باستمرار، لا في موجات تاريخية فحسب، بل عشائر وقبائل وأسراً، ومن ثم، فان العصبية القبلية كانت حاضرة في حياة الناس. وكان حضورها أكبر مما يحسب الكثيرون.

ولعل الفئات التي لم يكن للبداوة وعصبيتها وجود أو حضور فيما بينها هي تلك التي هبطت البلاد من الغرب خاصة. فقد كان موانىء فلسطين والأماكن المقدسة فيها تجذب اليها الكثيرين للعمل والإتجار والمجاورة والتعلم. ومن ثم فقد كانت أسر تنتقل بكاملها الى عكا وغزة والناصرة والقدس وبيت لحم ويافا. هذه الاسر كانت تأتي من مجتمعات واجواء بعيدة عن هذا النوع من العصبية.

والحديث عن العصبية ينقلنا الى التحدث عن التعصب. والامران، كما يعرف الجميع، مختلفان. لكن الذي أود قوله ان الفلسطينيين لم يكن في مجتمعاتهم الدينية تنافر أو تنابذ، أي تعصب ديني. واذا وجد فلعله ان يقتصر على فئات أو اسر ربيت في أحضان مدارس أجنبية كان المشرفون عليها ضيقي النظرة. وقد عرفت عدداً من هؤلاء، لكنه كان قليلاً، ولا أقول نادراً.

ومن مظاهر الحياة الفلسطينية المهمة هو قلة المدارس الخاصة نسبياً. كان هناك مدارس تخص المجموعات الاجنبية، وهي تبشيرية أصلاً؛ وكان هناك عدد من المدارس الخاصة الوطنية التي أنشأها أفراد أو مؤسسات. أما الأصل في التعليم فقد كان التعليم الرسمي الحكومي. ومن هنا فقد كان الطلاب يجتمعون بقطع النظر عن أديانهم، في مبنى واحد وفي صف واحد وفي ملعب واحد.

على أن الفلسطينيين الذين كانوا قد عرفوا التعليم في وقت مبكر في مدارس أنشأتها مؤسسات أجنبية ـ بريطانية وفرنسية وايطالية والمانية وروسية ـ انصرفوا الى مزيد منه بدءاً من العشرينات. وقد كان عدد الطلاب الفسطينيين في الجامعة الأميركية في بيروت في الثلاثينات يصل الى الثلاثمئة طالب وطالبة. هذا الى عدد اصغر كان يتابع الدراسة الجامعية في الخارج، في القاهرة وفي انكلترا وفرنسا، وقد كان ثمة طلاب في الولايات المتحدة وفي المانيا. أما في فلسطين نفسها فمدرسة الحقوق الرسمية كانت المعهد الوحيد للدراسات العليا للعرب.

ومن هنا فقد أخذت البلاد تعرف نواة لأهل الفكر والعلم والمعرفة وهم الذين تخرجوا من المعاهد الحديثة. الى هذا كان هناك عدد من الذين التحقوا بالأزهر (قبل أن يصبح جامعة في الثلاثينات) واستمروا على ذلك فيما بعد.

هذا كله كان يشير، بطبيعة الحال، الى أن تغييراً كان لا بد أن يصيب البلاد. نعم كنا نرقب هذا التطور خلال ربع قرن من الزمان. فما الذي تمّ؟

لست أعتقد أن مجتمعنا مرّت به ثورة اجتماعية أدت إلى قلب موازينه وحياته بأكملها. والواقع أن الدعوة الى الثورة الاجتماعية التي دعا اليها امثال قاسم امين عند منقلب القرن لم تجد لها من الانصار والمؤيدين ما يحملها على الاستمرار في الاندفاع. وليس من شك في ان الحرب العالمية الاولى وما حملته من ويلات للمشرق العربي شغلت الناس عن مثل هذا الامر. ولما وضعت الحرب اوزارها شغل الناس بالتخلص من آثارها: المعاشية والسياسية. فالثورة كانت دوماً سياسية المظهر والمخبر ـ من ثورة مصر سنة ١٩١٩ الى ثورة العراق سنة ١٩٢٠ الى ثورة سورية سنة ١٩٢٥ الى المظاهرات والثورات الفلسطينية المتعددة. فالقضية الاجتماعية ـ وفي مقدمتها قضية المرأة ـ أصبحت جزءا من القضية الكبرى: القضية السياسية. ومن هنا لم يكن لأي من الأحزاب السياسية التي ظهرت في العشرينات والثلاثينات، الكبيرة منها والصغيرة وحتى دون الصغيرة برنامج اجتماعي اقتصادي سياسي بالمعنى الصحيح للسياسة. كانت جميعها تعبر عن نفسها بالخطاب البياني، وهو الأمر الذي برّز العرب في صياغته. وكان لا بد من الانتظار بعض الوقت كي يصل الى فلسطين شيء من تعاليم الحزب القومي السوري الاجتماعي وحزب البعث العربي، وهما الحزبان اللذان اختطانهجا كانت له فلسفة اصيلة. وكانت في اساسها نابعة من ماضي البلاد وتاريخها وتكونها الفكري.

اما لحزب الشيوعي فقد كان وجوده مشكلة. فهو حزب له مركز «دولي» بعيد يسيّره، وخصوصاً ان الصهيونيين كانوا متغلغلين فيه. ولذلك فقد كان اتباع هذا الحزب، من العرب واليهود، يعملون في مجال واحد.

على كل لم تقم في فلسطين ثورة اجتماعية، بل لعله لم تغرس حتى شتلة او تبذر بذرة لمثل ذلك ولا حدث مثل هذا عند الجيران كي نتأثر نحن بذلك.

ولنعد الى أهل الفكر. أنا لا أحب كلمة النخبة وارى ان أهل الفكر أوسع مدى وأقل عنهجية واعتداداً من النخبة. هؤلاء القوم - سواء أكانوا خريجي جامعات ام من الذين اتموا الدراسة الثانوية ثم استمروا في تثقيف انفسهم - من اين كانوا يستقون معرفتهم؟ وما الذي كان يساعدهم على تكوين شخصياتهم فكرياً، بحيث تتبلور آراؤهم على نحو خاص؟

يتضح لمن قرأ الصفحات السابقة من هذا الكلام اننا كنا، في فلسطين، نعتمد على ما يأتينا من مصر من صحف ودوريات وكتب. اعتمدنا عليها في كتبنا المدرسية منذ البداية، واعتمدنا عليها في تتبع الأخبار العالمية في صحفها وزودتنا بالمجلات الشهرية المهمة والنافعة بدءاً بالمقتطف والهلال ثم غيرها مما صدر تباعاً. وبعثت الينا بمجلاتها الاسبوعية الخفيفة منها كالفكاهة والاثنين والجدية مثل الرسالة والثقافة والسياسة الأسبوعية او البلاغ الأسبوعي. واخرجت مطابعها ونشرت دور النشر فيها الكتب المؤلفة والكتب المترجمة عن الانكليزية والفرنسية وحتى الالمانية.

وكانت مصر في العشرينات والثلاثينات والاربعينات تنعم بوجود جماعة من أهل القلم هم من خير ما جاد به الزمن على العرب في العصور الحديثة. وهؤلاء هم الذين قرأنا لهم. قرأت أنا لهم قبل ذهابي الى انكلترا للدراسة، وقرأت لهم بعد عودتي الى فلسطين (١٩٣٩-١٩٤٧)

ولأسارع الى القول انه فيما كان السياسيون يعنون بالخطاب البياني، كان بين هؤلاء الكُتّاب فئة نفذت الى اعماق الفكر ونبشت عن جذوره وأعطتنا زاداً قوياً نافعاً.

والسؤال هو - ما هو المدى الذي طالته هذه الأشياء وما هوالعمق الذي بلغته؟ اذ لا يكفي أن يحمل البريد او القطار صحفاً وكتباً، بل المهم أن تُقرأ، وأن تُفهَم وأن تَحْفِرَ في العقول المجرى الذي يسمح للكتاب الجديد أن يسير فيه.

وقبل الاجابة عن هذا السؤال يترتب عليَّ أن القي نظرة على أهل الفكر (وقد أصر البعض منهم على استعمال النخبة) وهم الذين كان خليل السكاكيني يسميهم الجامعيين، وكم صرخ أين هم الجامعيون في فلسطين؟ هذه هي فئة من أهل فلسطين وأكثرهم من الرجال، اهتموا بالموضوعات التالية (ولست أقدم احصاء هنا) الطب والقانون والهندسة وادارة الأعمال والعلوم والآداب. فما الذي آل اليه أمرهم؟

كثيرون من رجال القانون تولوا وظائف قضائية في حكومة فلسطين، والباقون عملوا في حقولهم. فئة من الاطباء عملوا في ادارة الصحة في البلاد، والذين لم يتوظفوا مارسوا الطب في عياداتهم. وقد كان الذين درسوا الهندسة قلة بالنسبة للآخرين، وقد تلقتهم ادارة الأشغال بسرور. والذين انصرفوا الى ادارة الأعمال عين بعضهم في أقسام المحاسبة في الحكومة، ووجد آخرون أعمالاً لهم في المصارف الأجنبية أولاً ثم في البنك العربي لما انشىء سنة ١٩٣١.

وكان من الطبيعي أن يكون أكثر خريجي الجامعات هم الذين درسوا العلوم المتنوعة والآداب. هؤلاء هم الذين امتصتهم مهنة التدريس في المدارس الخاصة والرسمية. والباقون وجدوا عملاً في الصحافة.

كان معظم الجامعيين، ومن صف صفهم، ولف لفهم يعملون في اطار الوظيفة. والوظيفة، بحد ذاتها قيد الا لمن عصم الله. انها تؤمن، ولو حدا أدنى، من المورد الثابت وتعد، في المستقبل، بتقاعد. ثم هي، اذا كانت في مثل

القضاء أو الادارة تكسب صاحبها مكانة ما كان يحلم بها لولاها. فما لم يكن الشخص أقوى من هذه القيود غير المنظورة جميعها، فانه يؤثر العافية ويكتفي بعمله ورؤية الأصحاب ولعب دق طاولة زهر أو ورق (الكوتشينة). وقد تغريه هذه الأخيرة بالقمار. وعندما يتحمس مثل هذا المرء للقراءة فقد يفطن الى الجريدة اليومية المحلية (فلسطين او الجامعة العربية أو الجامعة الأسلامية، فالامر متوقف، احياناً، على الزعيم الذي يميل اليه) وقد يقرأ الأثنين أو الفكاهة.

لست اتجنى على هؤلاء الناس فقد عاشرت وزاملت وعرفت وتابعت أخبار عشرات من رجال القضاء والاداريين والمدرسين، ورأيتهم ينحدرون على سلم المعرفة لأنهم لم يزيدوا معرفتهم جملة واحدة منذ أن تركوا الجامعة. وعرفت محامين لم يتعرفوا الى مجلة قانونية لا عربية ولا أجنبية، بعد تخرجهم، الا الجريدة الرسمية لحكومة فلسطين. واتصلت بأطباء لم يعنوا بمجلة طبية واحدة؛ بل عرفت منهم من لم يكن قد سمع باسم مجلة اللانست (الانكليزية) الطبية. (لعله سمع بالأسم اثناء تلقيه دروس الطب ثم نسيه فيما نسي).

لا. لم يسلك الجميع هذا السبيل. كان هناك قلة هي التي عصم الله. هذه هي التي كانت تقرأ وتفكر. وهي التي كتبت مقالات ووضعت كتباً (عدا الكتب المدرسية) وحاضرت وناقشت وتناقشت.

وكان بين أهل الفكر فئة قليلة كان يمكن أن يكون لها أثر لولا أن أفرادها انصرفوا الى تعزيز مواقفهم سياسياً أو حكومياً أو شعبياً للظهور لا للعمل. ومن ثم فقد كان أثرهم ضئيلاً بالنسبة لما كان يرجى منهم.

ومن المهم أن نذكر أن أبناء جيلي، اولئك الذين ولدوا في مطلع القرن الحالي أو قبل نهاية القرن الماضي، والذين عرفوا الحرب العالمية الأولى والتحقوا بالجامعة - أية جامعة في أعقابها - لم يتح لهم المجال للقيادة أو ادارة المشاريع بالمعنى الواسع الحر. لا قيادة شؤون البلاد وتزعم سياستها واحزابها ورسم الخطط والسبل للسير بها فتحت أمامهم ولا تولي المناصب الادارية التي يمكن أن يؤثر في التخطيط والتنمية. فالشؤون السياسية، على ضيق مجالها، احتكرها أصحابها؛ والأمور الادارية كان التقرير بشأنها بيد الموظفين البريطانيين - ومنهم كثيرون كانوا يهوداً. والموظف الادراي العربي كان منفذاً فقط. انني أعرف كثيرين يتحدثون - أو كانوا يتحدثون - عن الدور الذي قاموا به في حكومة فلسطين في ادارة البلاد. لكنني أعرف أيضاً ان هذا الدور خلقه اولئك الناس كي يكبروا في عيون انفسهم ثم في عيون المواطنين. ان الموظف الاداري، والعربي خاصة، في حكومة فلسطين كان اداة للتنفيذ. والذين رفضوا ذلك وحادوا عن السبيل السوي وجدوا انفسهم مركونين في زوايا المكاتب الواسعة بحيث يصبحون نسياً منسياً، مع انهم كانوا يحصلون على الترقية السنوية ثم على الترقية في المرتبة. اما اذا كانت حركاتهم لا تتفق مع وجهة النظر الرسمية فكانوا يكلّفون ان يتركوا العمل أو كانوا يفصلون من وظائفهم في الدولة.

فضلاً عن ذلك فان البلاد لم تعرف مؤسسات سياسية او ادارية كانت تستدعي الاهتمام لدخول الانتخابات مثلا. ان المؤسسة الوحيدة التي عرفتها البلاد هي المجلس البلدي او المجلس المحلي. والانتخابات لهذه المجالس، باستثناء مجالس بلديات القدس ويافا وحيفا، كانت ملهاة لا عملاً سياسياً أساسياً.

كنت أنا ممن عصم الله؛ فلم تغرني الوظيفة التعليمية بالتوقف عند العمل الاوتوماتيكي والمعاش الذي يزيد سنوياً. كنت قد أخذت نفسي ببيت شعر اذكر انه للامام الشافعي، وقد يكون لغيره، كان له علي اثر كبير وهو

اذا مر بي يوم ولم استفد علما ... ولم اصطنع يداً فما ذاك من عمري.

وبعد فما هي القضايا والمشكلات التي عالجناها في تلك السنوات؟

كان يحز في نفوسنا وضع المرأة في البلاد. كانت موجودة لكنها لم يسمح لها بأن تكون حاضرة. سمح

للكثيرات بالذهاب الى المدرسة، ولكن مع شيء من التردد. وكان التعليم الجامعي بالنسبة للفتاة شيئاً يزوّر به الناس. فمكان البنت هو البيت. الى هذا كان الحجاب هو الغالب في حياة المدن. واذا استثنيا القدس الى درجة ما، وجدنا ان الحجاب هو الغالب على نساء المدينة. ومن هنا فقد كانت دور السينما في البلدان (الصغيرة) تخصص أوقاتاً تعرض فيها الأفلام للسيدات فقط. ولم تحضر السيدات المحاضرات العامة الا فيما ندر، ولم تكن هذه الندرة في الاماكن الصغيرة (كانت في القدس مثلاً). وقد لقيت بنات توفيق (بك) حقي في عكا الكثير من سلاطة اللسان لما خرجن سافرات في عكا في أواخر العشرينات. كما أصاب الرشاش بنات عارف بك الصوفي.

ومع ذلك فلست أذكر ان قضية المرأة اثيرت بشكل جدي في فلسطين. كانت قد عادت الى الظهور في مصر في تلك الأثناء. وكانت قد ظهرت على صفحات الصحف في بيروت. ونشرت نظيرة زين الدين كتابها المرأة والشيوخ، وثار حوله جدل، ودارت مناقشات، ولعل بعض حملة الأقلام في فلسطين غط قلمه بالحبر ودوّن شيئاً، لكن الأمر لم يبلغ حد قضية جدية.

على ان المسألة اخذت تحل نفسها عملياً أثناء الحرب العالمية الثانية. وكانت الانطلاقة مقدسية. لكنها لم يتح لها أن تتم مسيرتها. فقد جاءت سنة ١٩٤٨ فقلبت جميع الموازين والتطورات المنتظرة في فلسطين.

وقد ظن البعض انه من الممكن أن نتطور ونسير قدماً فكرياً واقتصادياً واجتماعياً دون الاهتمام بقضية المرأة. وتمثل هذا بالبعض من اصدقائنا ممن درس في جامعة وشغل منصباً قضائياً كبيراً، ولكنه لما تزوّج، احتجبت زوجته عنا. وكانت حجته دوماً انها تعبة أو مشغولة أو مريضة. لكن الواقع انها كانت محجّبة وقد تبدل هذا معه لما ترك فلسطين سنة ١٩٤٨ وعمل في الخليج العربي، وزرته هناك مع صديق مقدسي آخر (من شلتنا) واذا بزوجته ليست تعبة ولا مشغولة ولا مريضة. ولما أشرت الى ذلك ونحن منفردان قال: الدنيا تغيرت.

وقد كان ثمة فرق في النظرة الى التطور. كان هناك «ثوار» في نظرتهم الى هذه القضية؛ كانوا يريدون قلب الأوضاع. وكانوا يدعون الى ذلك. ومنهم خليل السكاكيني؛ لكن الدعوة الى الثورة لم تلق تأييداً الا في المجال السياسي، وفي أواخر الثلاثينات، وعندها كانت ثورة بالحديد والنار. اما مجالات الحياة الأخرى فلم تحظ بدعوة الى الثورة عليها.

وأنا عندما أعود بالذاكرة الى تلك الأيام، وأستعيد ما كانت تنشره الصحف حول قضايا المجتمع، اتذكر، فيما أتذكر، قوة الدعوة الى الحفاظ على ما عندنا من مقومات وروابط. واحسب أن هناك أمرين كانا يجعلان الحديث عن المجتمع حديثاً محافظاً وهما الربط بين الحفاظ على البلد والمحافظة على القديم. وهو ربط عكسي؛ فقد كان الأوْلى بنا أن ندعو الى تطوير حياتنا كي تتسق مع جهادنا، وعندها نسير الى الأمام في خطين متوازيين متزنين. لكننا كنا نسير في خطين متوازيين متعاكسين. أما السبب الآخر في تعثر تفكيرنا في شؤون التطور، فهو المحافظة على المجتمع من الناحية العقائدية. وقد كان لقيام جماعة الأخوان المسلمين في مصر (١٩٢٨) أثر في فلسطين أكبر مما يظن. والمهم ان هذه الدعوة جاءت والبلاد كانت متأثرة في هذه الناحية بالتقليد العلمي الديني، الأزهري والشبيه به، الذي كان معروفاً في فلسطين. ولم توضح آثار هذين الأمرين في حياة الناس لأن الكتابة عنه كانت قليلة؛ والآن بعد مرور هذه الفترة الطويلة قد يكون من العبث البحث عما دُوِّن وعمن دَوَّنَ. ولعل الدعوة الى المحافظة على المقدسات في فلسطين كجزء من المحافظة على البلاد قوت هذا الشعور أيضاً.

ولذلك فقد كان التبدل في المجتمع الفلسطيني حتى الحرب العالمية الثانية تبدلاً يسيراً، وقد تناول الكثير من المظاهر ـ في الثياب والأزياء وقص الشعر وفي الاعتياد على أنواع جديدة من الشراب جاءتنا مع «الفاتحين» مثل الوسكي، أما العرق والنبيذ فهما اصيلان في البلاد، والبيرا وصلت مع الجماعات الأجنبية التي جاءت البلاد في القرن التاسع عشر.

لكن الفكرة التي كانت تجد مجالاً عندنا، كما كانت تجد المجال نفسه فيما تبقى من بلاد الشام وفي العراق، هي القومية العربية والوحدة العربية.

وكان لنا موقفان من القومية العربية والوحدة العربية، وكان يتهم كل منهما الآخر. فنحن كنا نؤمن بالقومية العربية ونطالب بالوحدة العربية ونرقص طرباً عندما نقرأ دعوة الى الامرين في أي بلد أو حتى في صحيفة. وكنا - وهو الموقف الثاني - نألم ألماً عميقاً اذا قرأنا أو سمعنا ان احداً - كائناً من كان - ينكر علينا ايماننا ومطالبتنا بالقومية والوحدة. ويكون الألم أعمق وأشد ايذاء اذا كان هو المُنكرُ عربياً بالذات.

ولكن ماذا كانت رؤيتنا للقومية العربية؟ فالايمان يملأ القلب، ويملأ النفس، ولكن ما الذي كنا نعنيه من معنى القومية؟

أنا أتحدث عن جيلي. وأنا أؤمن بالقومية العربية. والذي كنت احسه يومها، الى أن أتيح لي أن أتعرف الى الناحية القومية الحقة من حياة الشعوب في أوروبا، وهو ان القومية كانت موجات تهب مع كل قصيدة فيها تمجيد للعرب، ودعوة الى الاقتداء بالعرب الشم المعاطس. كانت القومية شيئاً من العطر يحمله النسيم اليك من حديقة غناء، فاذا توقف مرور النسيم بك استمر بك الاستمتاع بآثار العطر. ثم يتوقف هذا الى أن تهب موجة جديدة تحمل اليك لهيب قصيدة قومية أو نفحة عطر قومي.

ولم يكتب عن القومية شيء يبين ماهيتها وطبيعتها وعناصرها. والذي كتب هو من نوع انظروا كيف توحدت المانيا وايطاليا في القرن التاسع عشر. ولكن كيف تم توحيد المانيا وايطاليا؟ وهل كانت ثمة فلسفة معينة هي التي دفعت بالبلدين نحو التوحد؟ لست اذكر انني قرأت شيئاً حول هذا، وقد كونت رأيي لنفسي، ثم تحدثت عنه وحاضرت حوله ووضعته في كتاب صغير نشر في القدس سنة ١٩٤٥. وأنا أزعم انه من أول ما كتب في توضيح معنى القومية والقومية العربية والعروبة.

ولست أحسب انني كنت وحيداً في هذا. فكلنا كنا ننهل من معين واحد. وهذا المعين الذي تحدث عن الوطن والوطنية والقومية والعروبة حديثاً كثيراً وكان حديثه سطحياً. ومن هنا كان خطابه بيانياً، وكان يعوزه الفكر أولاً والعمق ثانياً.

والحياة الأدبية في فلسطين في تلك السنين كانت تتحسس طريقها بعد. وكان الأديب الفلسطيني يمسك بالقلم وهو طري عوده بعد. ذلك انه الى ان جاءت بريطانيا دولة منتدبة على فلسطين، أي أيام الدولة العثمانية، كان المقدسي او اليافي أو العكي أو الناصري يعتبر نفسه فرداً من المجتمع الشامي (وعضواً في الدولة العثمانية). فاذا كتب روحي الخالدي (المقدسي) لم يكن يفكر بنفسه فلسطينياً اذ لم يكن ذلك وارداً.

بعد قيام الانتداب في دول المشرق العربي أصبح الناس يفكرون فلسطينياً ولبنانياً وسورياً وعراقياً. وعندها ادرنا عيوننا فيما حولنا نبحث عن ادب محلي. ونحن على اننا عرب يطربنا الشعر. بحثنا عنه أولاً خاصة وأن الوقت - العشرينات والثلاثينات - كان زمن ازدهار شعري في مصر - أيام شوقي وحافظ ومطران - وفي سورية - الزركلي ومردم - وفي لبنان - الياس أبو شبكة. لكننا وجدنا، ان الشعر الذي كان من المنتظر أن يعبر عن عواطفنا السياسية وشعورنا القومي، كان الأقل بروزاً في حياتنا الأدبية. كان ابراهيم طوقان أحد أسياده، خاصة بعد ١٩٣٠، وكان يقوم الى جانبه عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) ومحمود عبد الرحيم، وكان يسبقهم جميعاً، سناً وانتاجاً، اسكندر الخوري البيتجالي. لكن هذا لم يترك شعره في نفسي أثراً. وقد حاول أن يتناول قضايا اجتماعية، لكن لا الشعر طاوعه ولا الموضوعات الاجتماعية عنت له. فكان ديوانه نامّةً فاترة أو أنّةً عابرة. لكنه عوض عن ذلك، بالنسبة لي، بروايته «الحياة بعد الموت».

والشباب الثلاثة كان عندهم ما يقدمونه؛ لكن ابرهيم قضى شاباً، ومحمود عبد الرحيم استشهد شاباً، وابو سلمى برزت شاعريته بعد النكبة.

أما الذي كان فيه للقلم الفلسطيني مجال متميز، فهو القصة والرواية، كان من أول ما قرأنا ما كتبه خليل بيدس معاداً نشره، فالرجل توقف عن الترجمة والتأليف في هذا المجال، فيما أذكر، وأنا بعد تلميذ في دار المعلمين (١٩٢٤). وكان بيدس من أوائل الذين وضعوا بين ايدي قرائه أدباً مترجماً عن الروسية؛ وقد كان لنجاتي صدقي دور كبير في هذا المجال فيما بعد. نعم كان للقصة والرواية حصة أكبر من حصة الشعر، على انني لا أريد أن أكتب هنا بحثاً عن كتاب القصة والرواية: مثل محمود سيف الدين الايراني وعارف العزوني الى جانب من ذكرت. فأنا أدون ذكرياتي. ولست أدري فيما اذا كنت أدوّن الآن ما شعرت به يومها أم الذي أقوله هو نتيجة تمعنٍ لاحق بالقضية. الانطباع الذي احمله في ذاكرتي هو ان القصاص والروائيين (الا فيما ترجموا دون ان يمسخوه) كانوا واعظين اجتماعيين اخلاقيين، وكانت معالجتهم لهذه القضايا تتميز بكثير من السطحية. واحسب ان مثل هذا الأمر كان طبيعياً. ان الادب الفلسطيني ـ شعراً ونثراً ـ عبّر عن شيء من التوتر قبل النكبة، لكنه، بعد النكبة، تفجّر عنفاً واستبطن الينابيع عمقاً واتقنت الاقلام ـ بعضها على الأقل ـ التعبير أسلوباً. لكنني الآن أتحدث عن هذا الذي قرأته، وكثيراً ما قرأته للتسلية، قبل أن نقتلع ويلقى بنا في جهات الأرض الأربع.

كان من الطبيعي آن نوجه وجوهنا نحو قبلات أخرى للحصول على الزاد القوي الصالح الذي يثير الفكر وينعش العقل. كان بعضه، كما أشرت قبلاً، يأتينا من مصر. الا انني، بسبب ما تم لي من اتصال بالغرب (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) ظللت استقي الكثير من هناك. ولم أندم!

وما كونته من أراء وأفكار زودت به مجتمعي الصغير ـ تلاميذي ـ ومجتمعي الأكبر ـ قرائي على نحو ما ذكرت قبلاً. وأنا اذ أعيد النظر في الكتب التي وضعتها خلال هذه الفترة (وقد كتبت هذه بين سنتي ١٩٤٣ و ١٩٤٧) أجد فيها بعضا من هذه الأراء. ولعله من حقي على نفسي أن أوجز بعض هذه الآراء هنا، هذا مع العلم انني اوردت من قبل بضعة من الاراء في أماكنها المناسبة.

في يوم الجمعة ٢٠ ايلول / سبتمبر ١٩٤٦ اقيمت في النادي الكاثوليكي (نادي مار فرنسيس) في البقعة الفوقا في القدس حفلة تكريم للأب انستاس ماري الكرملي. وقد طلب مني الاستاذ روكس بن زائد الغزيزي كتوم (سكرتير) لجنة الاحتفال أن أقول كلمة. ففعلت، وكان فيما قلت: «ان اللغة العربية تبعت دولة السياسة (في أيام العثمانيين فضعفت) لا لأن اللغة ضعيفة، ولكن لأن أهلها خذلوها، ولا لأنها فقيرة، ولكن لأن أهلها تخلوا عنها، ولا لانها لا خير فيها، ولكن لأن أهلها فقدوا الخير الذي كان فيهم». ثم اضفت «واراد الله بالعربية خيراً فقيض لها هذا الغواص ـ الاب انستاس ماري الكرملي ـ فغاص وأحسن الجمع وأحسن الاخراج. لقد كان العمل في سبيل العربية يقتضي عناء وصبراً وجلداً؛ وكان العمل في سبيل العربية يقتضي قوة ايمان وصدق وعقيدة. لقد كان العمل معجزة، وكانت المعجزة الكرملي. وانما أراد الله أن يؤمن الناس بقوة العربية وقدرتها، فقيض لها هذه المعجزة، هذه الأعجوبة». (سدنة التراب القومي القدس، ١٩٤٦ ص ١١٧).

وفي الصفحات ٢٦٩ ـ ٢٧٢ من كتابي عالم العصور الوسطى في اوروبا (القدس ١٩٤٧) عبرت عن رأي توصلت اليه يومها، بعد ان فكرت بهذه العصور التاريخية مدة، خلاصته: ان النهضة الاوروبية لا يمكن ان تفهم مجزأةً. فهي وحدة عناصرها الفن في ايطاليا (ثم الأدب واللغة الحية) والعلم في فرنسا (والادب أيضاً) والفكر السياسي والعلمي في انكلترا والاستكشافات الجغرافية في اسبانيا والبرتغال. وقلت في ذلك: «كانت اوروبا في أواخر القرن الخامس عشر على مفترق الطرق... وجدير بالذكر ان السمة العامة للحياة الاوروبية في ذلك العصر، وخاصة من حيث الناحية الفكرية والاجتماعية، كانت حالة التوثب. فقد تفتحت امام الاوروبيين آفاق

جديدةً بسبب تعرفهم الى الفكر العربي والفكر اليوناني، وتحرر مفكروهم من ربقة الكنيسة واللغة اللاتينية. واقتضى هذا التحرر محاولة جديدة للتعرف على النفس الاوروبية من جديد، ثم للتعبير عنها بأساليب تتفق وميولها وحالاتها».

لم أكن الوحيد الذي وعى هموم جماعته الصغيرة في فلسطين والكبيرة في دنيا العرب. وكان أشد ما يؤلمني أن أرى التهاون في شؤون الجماعة واضحاً صريحاً، والتكالب على المكاسب والمناصب قوياً فاضحاً؛ فاعتصمت بالعمل جهدي والسير في طريقي مع الفئة القليلة التي كنت اتفاهم معها. فعملنا جهدنا ـ كلٌّ في مجاله، تعليماً وكتابة وحديثاً؛ على اننا كنا نتعاون، على نحو ما مربك!

وفي البيت أصبح رائد شغلنا الشاغل وسلوانا التي لا يُعلى عليها. وقد ارتأينا من اول الأمر ان يكون الدور الاول بالنسبة لرائد هولمرغريت. ان اكون مساعداً أو مستشاراً عند الحاجة. وقد كان لهذه الخطة اثر جيد في تنظيم شوؤن البيت.

في اليوم الثالث من شهر ايلول / سبتمبر ١٩٤٧ ركبت القطار من القدس الى اللد فالقنطرة فبور سعيد. وفي اليوم التالي صعدنا الى الباخرة اسكانيا التي كانت آتية من كنتون، ووجهتنا بلاد الانكليز، لكن الى لفربول.

ثمة أسئلة تلاحق الواحد منا حياته، هي أسئلة يرمي المرء من اثارتها القاء شيء من الضوء على نواح من حياته وحياة أصدقائه. لعل الواحد منا يريد أن يتفحص ماضيه، أو لعله يحاول الكشف عن الطريق الذي قطعه خلال هذه السنين التي قضاها والمحطات التي توقف عندها. واذا انا اطلت الحديث حول هذه الأسئلة قد يصيبها واحد من أمرين: اما ان تفقد سبب اثارتها فيبهت لونها وتخف نبرتها؛ واما ان تحملني على أن ألخص التساؤلات جميعها في سؤال واحد هو: ماذا كانت فلسفة الحياة عند هذه الجماعة، وهل استمرت على خط واحد أم تبدّلت مع المكان والزمان؟

وأنا أخشى الأمرين. لا أريد لأسئلتي أن تضيع في التكرار فتفقد حرارتها، ولا أريد لها أن تصطنع أساليب الفلاسفة فتقل قيمتها أيضاً. ذلك بأن الكثيرين من أرباب القلم لا يكادون يقبضون على هذه الاداة الصغيرة ويخطون بضع مقالات ينشرها لهم أصحاب الصحف اما تشجيعاً أو لأنها تعطى لهم مجاناً، حتى يُنصِّبَ الواحد منهم نفسه على منصة الحياة الكبرى ويتحدث عن فلسفته.

لكن نحن كنا فئة مفكرة. ولذا من حقي أن أثير سؤالا بسيطاً حول نظرتنا الى الحياة يومها، اذ لعل في ذلك ما يبين الأسس التي كانت ترتكز عليها حياة الناس، الكبار والصغار، المتعلمين وغيرهم، وأهل القلم وجماعة المحراث، والنخبة والبقية الباقية من أهل بلدي.

يخيل اليَّ ان نظرتنا الى الحياة، من حيث اننا شعب هو جزء من الامة العربية التي تصورناها يومها (في الربع الثاني من القرن العشرين)، لم تنبع من مذاهب فلسفية معينة. فنحن، لو نظرنا حولنا يومها لم نكن نعثر على فئة ولو قليلة، كانت قد قلبت الأراء الفلسفية التراثية والمستوردة، واستخرجت منها قواعد أساسية يمكن أن ترتكز اليها، أو عليها، حياة الناس. الواقع انني عندما أقلب صفحات تلك السنين لا أجد احداً ينطبق عليه هذا القول. كان هناك جماعة صغيرة ممن عهد اليها بتدريس تاريخ الفلسفة. وقد بلغ الغرور بها ان يُشير الواحد منهم الى نفسه انه «فيلسوف». ولا يزال هذا يغلب على الكثيرين ممن يدرّسون الفلسفة. وقد فاتهم ان قراءة افلاطون ومن سبقه ومن لحقه، والتحدث عنهم وعن كتاباتهم لا يجعل المرء فيلسوفاً. وكم أضحك عندما أسمع زميلا لي، هو أستاذ لتاريخ الفلسفة، يتحدث عن نفسه فيقول: «انني كفيلسوف». أنا لا أنكر عليه معرفته بتاريخ الفلسفة وحذقه كتابات الفلاسفة ومقدرته على شرح آرائهم. لكنني لا استسيغ اشارته الى نفسه بقوله

«فيلسوف».

أنا لا أنكر انه من الممكن لشخص أن تكون له فلسفته في الحياة دون أن يعرف شيئاً عن هؤلاء الذين قلبوا الأمور على وجوهها عبر التاريخ ثم وضعوا نُظماً فلسفية هي قواعد وأسس للفكر. هذا ممكن. لكن مثل هذا الشخص، الذي يعرف قيمة الحياة والذي يريد أن يعبر عن ارائه، لا يدعي الفلسفة، بل غالباً ما يقول «أرى» أو «أفكر»، وقد يكتفي بـ «أظن وأخمن».

والسؤال الذي يجب أن يُطرح هو هل كان ثمة نظرة للحياة خاصة لهذا الشعب الفلسطيني - الذي هو جزء من الامة العربية؟

يخيل الي أن الجواب، اذا اردنا الدقة فيه، يكاد يكون نفياً. لعله كانت هناك أجوبة متنوعة تكاد تبلغ في عددها عدد الأفراد انفسهم. لكن الفكر الجماعي، وهو الذي أقصده، والذي يكوّن وجهة النظر الصالحة للقيادة، أو على الأقل للتوضيح والشرح والتفسير، هذا كان بعيداً عنا.

فنحن - كشعب - كنا، ولا يزال الكثيرون منا على ذلك الى الآن، نتلمس المقاييس التي نحكم فيها على الأعمال او التي يجب أن نقيس الأعمال بها، في القواعد الدينية، فالواحد منا اما مؤمن اوملحد، في اطار الدين الذي تقبله الجماعة التي هو عضو فيها، لا بالنسبة الى أديان أخرى. فالمؤمن يعرف طريقه المعبد والذي تحدد اتجاهه وسيره التعاليم الدينية. ولان اكثر الناس مؤمنون - اي انهم ليسوا ملحدين - فان جماع فلسفتهم تقوم على ما يطلبه الدين من المؤمن وما يمنعه عنه.

وقد كان أكثر السكان في فلسطين مسلمين، وكانت الأقلية مسيحية. وكان كل فريق يستوحي فلسفة وجوده - من الولادة حتى الموت - من عقيدته، ويخضع في تصرفه لما ينص عليه في اداب السلوك الدينية، ويتعبد في مسجده أو كنيسته، على ما فرض عليه.

لكن العيش المشترك بين الجماعتين قرونا طويلة، والأصول القبلية المشتركة في كثير من الاحيان، ووحدة الارث الثقافي ورابطته الأساسية - اللغة العربية - هذا كله اورث الجميع قواعد اجتماعية واحدة، هي التي كانت تعين اسس السلوك وأساليبه. ففي الافراح، كانت الزفات تتخذ شكلاً واحداً عند الجميع؛ واذا كان ثمة فرق فان ذلك يعود الى ما تتمتع به الاسرة من ثروة تمكنها من الانفاق عن سعة، أما الناس العاديون فمقدرتهم محدودة. وتتضح وحدة العادات الاجتماعية في الأتراح كما تتضح في الأفراح، وبشكل خاص في الريف.

ولعل المدينةَ، وخاصة التي كان قد استوطن فيها اعداد كبيرة من الاجانب، شهدت تعديلاً في الامور عند الذين احتكوا بهؤلاء وتأثروا بهم. وقد كان هؤلاء قلة.

وما دام الدين يحدد النظرة، والعادات تقنن السلوك، والاثنان يضعان للناس المقاييس التي تقاس بها تصرفات الافراد والجماعات، فمن الطبيعي ان تغلب الستاتيكية على المجتمع.

ولكن ماذا كان موقف المفكرين من هذه القضايا. الناحية الوحيدة التي كانت تبدو فيها ديناميكية - اي حركة - هي الحياة السياسية. ولكن السياسة في ذلك الوقت في فلسطين كانت بدائية تعطفية تعتمد الخطاب البياني وتعقد الاجتماعات وتلقي الخطابات وتقرر الاضرابات والمظاهرات وتبعث ببرقيات الاحتجاج وتستجدي التأييد من الحكومات العربية الشقيقة وتؤكد ثقتها بالدول الصديقة.

ليس من شك في انه من اليسير على المرء ان ينتقد بعد نصف قرن ما مرت به جماعة كانت تتلمس طريقها في العمل السياسي الذي ألقي على عاتقها دفعة واحدة. ولكن الذي يحز في النفس، حتى بعد نصف قرن، هو ان القيادة السياسية لم تحاول الافادة من اخطائها ومن اراء الآخرين. اذ انه لا شك في ان فلسطين كان فيها من المعرفة والرأي وعمق الفكر وبعد النظر ما يفيد القيادة أو يُغنيها. لكن ذلك لم يحدث، على ما ذكرنا، فظلت القيادة

تعتمد الرأي الفطير والنظرة النفقية، وقد كان من الطبيعي انه حتى الحياة السياسية التي كانت تبدو ديناميكية. اي متحركة. كانت «تعد الوقت» في المكان نفسه، على نحو ما يفعل الجنود عندما يأمرهم الضابط: «مكانك عُد». ولذلك فان ديناميكية الحياة السياسية في فلسطين كانت في الظاهر فقط. اللهم انني استثني الخصومات السياسية التي كانت على أشد ما يمكن من الحركة، وكانت حركة قليلة البركة.

وقعت في يدي وثيقة تعود الى أواسط الثلاثينات لها دلالة كبيرة على ما ذهبت اليه.

كانت الفكرة القومية العربية في الجامعة الاميركية في بيروت تتمحور حول «جمعية العروة الوثقى» بدءاً من أواخر العشرينات لكنها قويت في الثلاثينات (ولها تاريخ فيما بعد سنعود اليه). العروة الوثقى نشرت في أواسط الثلاثينات مجموعة من الاجوبة التي تفضل عدد من أهل السياسة والفكر بكتابتها استجابة لاسئلة وجهتها لهم «فئة من خيرة شبيبتنا».. رأت خير ما تقوم به في سبيل توجيه الشبيبة الى الغايات المثلى ان تستنير بآراء قادة الفكر والعمل في البلاد العربية. فرغبت اليهم في ان يحددوا اهدافهم في جهادهم ويعرضوا الوسائل التي ينتهجونها، وان يرسموا للشباب العرب عقيدة واسعة النطاق تبعث ما في نفوسهم من أمل ورجاء وقوة وذكاء وايمان واخلاص وتصهرهم في وحدة وثابة تسعى نحو هدف يرفع شأنها ويخلد مجد بلادها.

وأضافت العروة الوثقى تقول: «ولما كانت جمعية العروة الوثقى بجامعة بيروت الاميركية تؤمن ايماناً راسخاً بالقوة الكامنة في الشبيبة العربية، وتشجع كل ما يرمي الى ايقاظ تلك القوة وانعاشها، رأت - تماماً للخدمة القومية التي تتوخاها - ان تنشر هذه الصفحات تحت رعايتها، آملة ان تكون للشبيبة العربية خير مساعد على تحديد اهدافها وتوضيح عقائدها».

ومع ان هذه المقدمة لا تشير الى أن الجماعة التي وجهت الرسالة هي العروة الوثقى، فإنني أكاد أجزم انها هي التي فعلت ذلك. فالمقدمة للنشرة والتمهيد للاجابات فيهما الروح نفسه والحماسة ذاتها والاشارة في الحالتين الى «شبيبة البلاد».

ويبدو ان الرسائل وجهت الى الاشخاص المختلفين في تواريخ مختلفة، ولكن الوارد منها يعود الى فصل الربيع سنة ١٩٣٥. ففي جواب البطريركية المارونية اشارة الى أن الرسالة التي تحتوي الاسئلة كانت مؤرخة في ٢٨ شباط / فبراير؛ ويذكر عبد الله الحمدان السلمان، وزير المالية ووكيل الدفاع للملكة العربية السعودية ان الرسالة التي تسلمها كان تاريخها ٢ نيسان ابريل ١٩٣٦ (المرجح ان هذا الرقم فيه غلطة)؛ اما فخري البارودي فينبئنا انه تسلم رسالة تاريخها ١٠ نيسان / ابريل ١٩٣٥. ومع ان مؤتمر شباب العرب لم يشر في رسالته الى تاريخ كتاب الأسئلة الموجه اليه، فان جوابه ارسل بعد انعقاد مؤتمر الشباب العرب في حيفا بتاريخ ١٠ ايار / مايو ١٩٣٥.

ولم يشر اي من الأشخاص الآخرين الى تاريخ الرسالة التي تسلمها ولم تنشر العروة الوثقى أي تاريخ لرسائل الاجوبة التي تلقتها (كل ما ذكرته هي انها أوردت الردود مرتبة على حسب تاريخ تسملها في بيروت).

اما الاشخاص الذين استجوبوا - اذا جاز التعبير - فهم، فضلا عمن ذكر؛ ياسين الهاشمي رئيس مجلس وزراء المملكة العراقية والدكتور عبد الرحمن شهبندر (وصف بانه زعيم الثورة السورية العربية) وابراهيم هنانو الثائر السوري الكبير ومؤتمر شباب العرب (كان امينه العام يعقوب الغصين) وجميل صدقي الزهاوي، احد كبار شعراء العراق، ومحمد فخري البارودي الذي وصف بانه زعيم الشبيبة العربية وعبد الله الحمدان السلمان، والمقام البطريركي الماروني ونقولا حداد (كاتب اجتماعي) وميخائيل نعيمة ورامز سركيس، صاحب جريدة لسان الحال وجبور (اسم مستعار لاحد أركان النهضة الاجتماعية العربية) وقسطنطين زريق استاذ

التاريخ العربي في الجامعة الاميركية في بيروت ووداد المقدسي رئيسة مدرسة البنات الاهلية في بيروت وحنا خباز الذي وصف بانه كاتب ومهذب.

وقد نقلنا هنا الاسماء جميعها لندل على ان هذا الاستفتاء المحدود كان منوعاً في اسلوبه وصيده.

لا أنوي أن أنقل هنا ثلاثين صفحة هي كل الأجوبة. ولكنني أود أن أقول انني قرأت هذه الأجوبة مرتين ولم أجد فيها برنامجاً يصح أن يتبعه الشباب القومي في توجهاته. لنترك جانباً نقولا حداد وميخائيل نعيمة وحنا خباز لأن أجوبتهم كانت، بحكم نزعاتهم وتفكيرهم، تدور في اطار فكري عام لعله كان يحتوي من الميول الفلسفية قدراً لا يسمح للناحية القومية والعروبة أن تجد لنفسها فيه مكاناً. فجاءت الأجوبة بعيدة عن مطلب العروة الوثقى.

أما الأجوبة الباقية فهي من النوع البياني الذي مر عليّ ما لا يقل عن سبعين سنة وأنا أسمعه وأقرأه، بحيث أصبح يدخل في الأذن الواحدة ويخرج من الثانية. واليكم رؤوس أقلام (أي عناوين) احد الأجوبة: السياسة وسيلة للاستقلال والشباب حصن الوطن وواجبات الشباب: نصرة الحق والتمرد على الظلم والمفاخرة بالعروبة والوطنية الصادقة. وأخيراً أيها الشباب اعملوا وتعلموا واحرصوا على كسب العلم وكسب المال وتجنبوا الاسراف.

وجاء في ميثاق مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني:

١ ـ ان البلاد العربية وحدة تامة الأجزاء وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا نقره ولن نعترف به.

٢ ـ توجيه الجهود في كل قطر من الأقطار العربية الى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمي الى الاقتصار على العمل للسياسة المحلية الاقليمية.

٣ ـ لما كان الاستعمار بجميع أشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الامة العربية وغايتها العظمى فان الامة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها.

٤ ـ «أراضي فلسطين برمتها اراض عربية مقدسة وكل من سعى أو سمح أو ساعد ببيع كلّ أو جزء من هذه الأراضي يعد مقترفا خيانة عظمى».

أخي القارىء: من المنتظر أن يقرأ كل مسيحي قانون الإيمان على الأقل الآحاد والأعياد. لكن هل جعلت هذه القراءة وحدها أي انسان مسيحياً حقّاً؟

والبيانات السياسية التي كانت تنشر بين الحين والآخر هي من نوع قانون الايمان. فبين الأجوبة واحد شغل خمس صفحات من الكراسة التي اتحدث عنها. وكي أوضح لك، يا قارئي، طبيعة هذه الصفحات انقل الفقرتين الاولين فقط..

«تحية وسلام وبعد أخذت كتابكم في ١٠ نيسان / ابريل ١٩٣٥ وجوابي عليه هو: ان هدفي وهدف اخواني استقلال البلاد وجعل الأمة في مصاف الأمم الراقية التي لها حق الحياة تحت الشمس.

«وارجو أن نتوصل الى هدفنا باتحاد أبناء البلاد وتآزرهم وخصوصاً الشبان المثقفون الاخصائيون (كذا) لا ن عليهم العمل بتنظيم جميع نواحي الحياة في هذه البلاد على الطرق الحديثة كما تفعل الامم الغربية. ولا يظنن ظان ان التفسخ الظاهر في حياتنا الاجتماعية سيقضي علينا، بل بالعكس اني أرى، وكلي أمل، ان هذه البلاد ستصل الى غايتها آجلاً أو عاجلاً بعد أن بدأ شعبنا يحس بالآلام والمصائب التي تُصَبّ عليه. وكل عمل أساسه الفكر، وبما اننا بدأنا نفكر وعرفنا كيف نتحد هان علينا الأمر ووصلنا الى غايتنا بإذن الله».

أما ما حسبه صاحب الجواب منهجاً للعمل فهو مجموعة من الأراء والآمال ينقصها المنطق والبرنامج. وصاحب هذا الجواب كان يوماً من أحد العاملين في الحقل السياسي الوطني. ويختم جوابه بقوله: «ثالث عشر:

ـ هذا ما عن لي أن أكتبه الآن واني أرى به الكفاية. ولا يفوتنكم اننا أمة في بدء حياتها تحتاج الى كل شيء، ونهضتنا تحتاج الى العلم الصحيح والاخلاص والاتحاد والثبات. والسلام عليكم».

هذا هو الخطاب السياسي الزعامي الموجه الى الشباب ـ نحتاج الى كل شيء؟ ما هو هذا الشيء؟ وكيف يُمكن ايجاده وتنميته وتقويته «هذا الكل شيء»؟

كان عمل أهل الفكر محدوداً وأثرهم نسبياً قليلاً. لقد اتُهمنا أحياناً بالترفع، وأُشيرَ إلينا على اننا نعتزل المجتمع. ولكن هذا لم يكن صحيحاً. فكل واحدٍ منا كان في الصميم من الحياة والمجتمع. لكننا كنا ـ في حقيقة الأمر ـ نفكر لأنفسنا لا ترفعاً ولا تجنباً ولكن في سبيل الوصول الى اراء جامعة.

ولأخصص الآن فاتحدث عن نفسي. هل كنت صاحب رأي خاص في الحياة؟ هل تمحور تفكيري حول قضايا معينة جربت أن أغوص فيها أو أجيب عنها؟

أحسب انه كانت هناك أمور شغلتني ـ ولعلها لم تشغلني وحدي، لكنني أود الآن أن أتحدث عن نفسي. كانت واحدة من القضايا التي عنيت بها التاريخ من حيث هو قصة امة خاصة أو قصة البشرية جمعاء. وهل المدنية التي عرفتها البشرية هي جماع اللبنات التي صنعتها الشعوب والأمم عبر العصور؟ وهل كان هذا التطور الحضاري يسير في خط واحد فتكون كل فترة وريثة لفترة سبقتها ثم تضيف هي لبنتها؟ وهل أصل هذه المدينة واحد بحيث انها نشأت في مكان واحد ثم تشعبت وتفرعت وانتشرت؟ وما هو أثر الرقعة الطبيعية في تكييف التطور الحضاري أو إيقافه؟

وعندما انتقل من هذه الدائرة الواسعة في الاهتمام بالتاريخ الى الدائرة الأضيق ـ تاريخ العرب ـ كنت أتساءل فيما اذا كانت الأمور التي أثرتها فوق يمكن أن تنجر على تاريخ العرب، أم انه تاريخ فريد!

رأيت، فيما كتب حتى ذلك الوقت ان الذين كتبوا في تاريخ العرب، من أمثال محمد الخضري ورفيق العظم، نظروا اليه نظرة فيها كثير من التقديس. وقد كان هذا طبيعياً بالنسبة الى ذلك الجيل. فتاريخ العرب مرتبط بالاسلام، واذن فالنظرة الى ذلك التاريخ يجب أن تجلل بالاحترام والإكرام. ولأن الخلفاء كانوا يمثلون الاسلام، فهم موضع التجلة. ومن حيث ان المهم في معرفة تاريخ العرب هو ان يُعرِّف القارىء بانتصار الاسلام، فقد عني المؤلفون بما يصح ان يسمى التاريخ السياسي والعسكري. ولأن الكتاب هؤلاء لم يكونوا مدربين على هذا النوع من الكتابة ولا هم ممن حذق الجغرافية أو حتى فن وصف المعركة، كان عملهم لا يعدو أن يتناولوا كتاب الطبري فينزعون منه أسانيده وعنعناته ويلخصّون رواياته. وكان الله يحب المحسنين.

وجاء بعد ذلك جيل ـ كان أعضاؤه نفراً ضئيلاً ـ كانوا متشبعين بالقومية العربية، ومنهم درويش المقدادي الذي وضع تاريخ الامة العربية (١٩٣٢)، فترك قداسة هذا التاريخ جانباً وتجنب التفصيل السياسي ونظر الى تطور هذه الامة مجملاً، فكان كتابه دعاية علمية للقومية العربية، لكنه لم يرضِ الا القلة.

ووُضِعَت كتب في التاريخ العام. لكنها كانت في الغالب ترجمات محرفة غير معترف لأصحابها بالفضل على نحوِ ما كان يفعل بعض كتاب القصة القصيرة من المصريين الذين كانوا يأخذون قصة قصيرة انكليزية تجري حوادثها في منطقة الستراند بلندن فيترجمونها الى العربية ويجعلون حوادثها تجري في ميدان عابدين وتصبح الاسماء عبد الله وفتحي وحسنية بدل جورج وكلارك ودوروثي، وينسبونها لأنفسهم.

وعلى كل فهذه المسألة ـ مسألة التاريخ وكتابته ـ فيها من الحرفة ـ وما يتبعها من تدريب ودقة وبحث ووزن وتجرد ـ ما يجعلها قضية حياة بالنسبة لي. فلنتركها لأننا سنعود اليها مرات ومرات.

الشيء الذي كان يثور في نفسي كثيراً، والذي كنت أوليه الكثير من التفكير، هو هذا الجمود الفكري الذي كنا نرزح فيه، وهذا الانغلاق الذي كان يستحوذ علينا بل والرجعية في شؤون كثيرة. كان الجو الفكري في فلسطين

يتأثر بالجو الفكري في مصر، ولكن تأثره كان فيه عرج. هذه السنوات - الربع الثاني من القرن العشرين - كانت سنوات خير وبركة في مصر. كانت الأقلام تصر صريراً نافعاً، والافكار تغلي، والانفتاح كبيراً. كتب تترجم وكتب تؤلف وادب ينشر. ومع ان الفلسطيني كان يقرأ، فان القلة كانت تقرأ الجد والكثرة تقرأ الهزل. ولما هجمت السينما الناطقة تحول الكثيرون الى دور السينما بدل الاستمتاع بالقراءة، أو الاستماع الى الراديو الذي كان فيه احاديث جيدة.

كان الجو العام فيه كسل عقلي - وهذا كان يتبعه جمود فكري. حلقات الحديث كانت عادية جداً في الموضوعات التي تطرقها. والزملاء في مدرسة عكا الثانوية وفي الكلية العربية والرشيدية كان أكثرهم لا يقرأ سوى ما قد يفيد في التعليم (ولم تكن هذه القاعدة)، فالغالبية لم تكن تقرأ. لذلك عندما كان يتاح لنا الوقت للحديث كان من الصعب علي مرات أن أتحدث مع زملائي. وكنت كثيراً ما أتذرع بكتاب اقلب صفحاته كي لا أطيل الحديث مع الزملاء - لا أقول جميعهم ولكن أكثرهم.

ومما لاحظناه كثيراً هو ان قيام الأخوان المسلمين في مصر (١٩٢٨) كان له رد فعل قوي في فلسطين. وقد يكون سبب ذلك الربط بين قيام الحركة وبين المواقف السياسية؛ لكن الذي حدث فيما أعتقد هو أن الذين اهتموا بهذا الموضوع في فلسطين انصرفوا الى الناحية الضيقة فيه.

في سنة ١٩٤٦ أقامت لجنة الثقافة العربية في فلسطين (أعضاؤها اسحق الحسيني وسعدي بسيسو وعبد الحميد ياسين وعبد الرحمن بشناق وقدري طوقان ونقولا زياده ويوسف هيكل فقط) معرضا للكتاب العربي في نادي الاتحاد الارثوذكسي في القدس من ١١ - ٢٠ تشرين الاول / اكتوبر. ونشرت بهذه المناسبة لائحة تكاد تكون كاملة بما وضعه الفلسطينيون الى ذلك التاريخ، باللغة العربية واللغات الانكليزية والالمانية والفرنسية، وقد حرصت اللجنة، كل الحرص، على أن تحصل على أكبر عدد من الكتب. اذكر هذا اليوم لأن قراءة عناوين الكتب، على كثرتها من حيث الكم، تؤيد ما ذهبت اليه من ان أكثر النتاج كان يخيم عليه الجمود. (بهذه المناسبة كان أقدم كتاب طبع في فلسطين بحسب ما استطعنا الحصول عليه هو الجزءان الأول والثاني من كتاب احتقار أباطيل العالم تأليف ديركس - ستاله - ولم يذكر اسم مترجمه - وكان ذلك في القدس سنة ١٨٦٠)

هذا الوضع كان يؤلمني. وقد عملت الكثير، وعمل غيري أيضاً، في سبيل اثارة الناس كي يفتحوا لهم منافذ على العالم الغربي، وكانت ردة الفعل ضعيفة. وعندما يقابل الواحد منا الانفتاح الواسع والانتاج الادبي الفكري الكثير والجدي والعميق الذي حققه الفلسطينيون بعد نكبة ١٩٤٨ وفي الشتات، يستغرب هذا الجمود الذي كان يستحوذ عليهم قبلها، وهم في بيتهم!

لعل أحد الأسباب التي كانت تعوق الناس عن مثل هذا التطور، لا في فلسطين وحدها بل في مناطق أخرى من العالم العربي، كان موقف الدول الغربية من الوطن العربي اجمالاً - الموقف الاستعماري الاستغلالي. ولعل الخوف من الحضارة والمدنية التي كان الغرب يمثلها جمّد الناس وحملهم على الاعتكاف داخل نفوسهم. ولا شك ان المواقف المتوترة لفئات من رجال القلم والنفوذ والسيطرة غير السياسية كان يحمل الكثيرين على التعوذ بالله مما كانت تحمله المدنية الغربية في طياتها من مادية مكروهة مرذولة؛ وهي، أي هذه المدنية، لا بد وأن تقضي على روحية الشرق وطيبة سريرته واخلاقه المثالية. والناس أعداء لما جهلوا.

أما انا فقد كنت ثائراً في تفكيري وآرائي، وكنت أجاهر بذلك. لكنني تجنبت ما يمكن ان يسمى ثورة سياسية. وعلى كل فقد كنت غائباً عن البلاد أثناء الثورة الكبرى ١٩٣٦ وما بعدها، ولكنني لا أستطيع أن أتصور نفسي قائماً على قيادة فريق من المقاتلة لو كنت في فلسطين.

أما ثورتي الفكرية التي كان أساسها ان يستعمل «الفرد عقله ويحكم قواعد المنطق في قبول الأفكار أو

رفضها، لم يكن لها استجابة. ولست أحسب ان الآخرين الذين كانوا يؤمنون بالامر ايماني، وينشرون آراءهم كما كنت أفعل، كان حظهم من النجاح أكبر. وقد رأيت أحياناً ان الصمت خير من الصراخ في خواء.

وأود أن أسجل هنا قضية مهمة تتعلق بالعربي - العربي عبر التاريخ، الذي هو أساس العربي اليوم وأسّه: يخيل الي ان العربي مزدوج الشخصية - لا أعني انه مصاب بالفصام. هذا مرض عصبي عضال. اما ازدواج الشخصية فهو ظاهرة تبرز في حياة العرب العقلية والنفسية الخاصة والعامة - وان كانت تقوى حيناً وتضعف حيناً. العربي في تاريخه الفكري كان دوماً محيّراً وحائراً. ثمة ما يجذبه نحو الايمان القوي والتسليم للارادة الالهية تسليماً مطلقاً، وهناك ما يشير الى أن هذا العقل لم يوجد ليعطّل. ولذلك يتوجب استعماله والسماح له بأن يسرح حراً. وهنا تأتي الازدواجية؛ فهي تدور حول الحرية وانعدامها. والعقل لا ينمو والفكر لا يزدهر والمؤسسات لا تنشأ ولا تنمو الا في جو من الحرية. واتساءل، وانا حريص على التعرف على ذلك، متى عرف العقل العربي الحرية التي عرفها العقل اليوناني والعقل الغربي منذ عصر النهضة الاوروبية؟

عندما أهتدي الى فترة سمح للعقل العربي ان يفك عنه الأغلال أجد أن السبب لم يكن الحرية تماماً ولا اطلاق الفكر من عقله، وانما كان المقصود منها دفع فئات من الناس لتقاوم فئات أخرى أو لتفسر ظاهرة خاصة. ولعل ما عرفه العالم العربي من مجال للحرية الفكرية ايام المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ / ٨١٣-٨٣٣ م) هو خير مثل على ذلك.

هذه الازدواجية يسّرت لبعض رجال الفكر أن يحتفظوا لأنفسهم بحرية فردية في التفكير والسلوك، مع انهم كانوا ينكرونها على الناس. وكانت النتيجة ما نحن فيه.

ولأضف الى هذا كله امراً آخر. نحن عندنا لغة جميلة نسبياً، وفيها القدرة على التفجر الداخلي ما يعينها على التطور. لكن هذه اللغة أصبحت هي أحد المعوقات في سبيل تقدمنا. فقد جاء عليها وقت كنا نحن فيه متخلفين مع من تخلف من شعوب العالم. لكن شعوباً في هذا العالم انتفضت ونفضت عنها غبار التخلف وبنت لنفسها حضارة ذات قيمة. أما نحن فلم نجار الزمن؛ ولست ألوم أحداً، ولكنني أقرر واقعاً. وعندها أصبح هم حملة الأقلام أن يسكبوا هذه اللغة بأشكال متنوعة وأساليب متعددة، أو أن يزخرفوها بكل أصناف المحسنات. ومن ثم قويت صناعة اللغة عندنا وقيدتنا، وضعفت صناعة الفكر. ونحن قوم نحب البيان، فكان هذا الظرف عوناً للبيان الانشائي على أن يسيطر على حياتنا العقلية والنفسية والروحية.

وقد عُصِمَ أفراد من هذا القيد فكان لهم دوي في عالم الفكر والأدب ونتاج في مجال العلم. وكان من الممكن رعاية هذا العدد الذي كان يتزايد بعد الحرب العالمية الثانية. لكن جميع الأسباب الفعالة، وفي عدد كبير من البلاد العربية، حملته على الهجرة. وأصبحنا نتغنى بعلمائنا وأطبائنا ومهندسينا الكبار والنابغين وهم يقيمون في دار الهجرة، ونحن قد لا نجد العدد الكافي من مثل هؤلاء ليقوموا بالتعليم في جامعاتنا. هؤلاء الناس افتقدوا الحرية أولاً والتشجيع ثانياً هنا فحصلوا عليهما في الخارج.

(هذه الملاحظة كتبت في أواخر عام ١٩٩٠)

القسم الخامس

من لندن إلى بنغازي

الفصل الثاني والعشرون

في ايلول ١٩٤٧، أخذنا القطار من القدس فوصلنا محطة اللد وغيّرنا. وانتقلنا الى قطار القنطرة. وقد اتضح لي بعد ان استقر بنا المقام في القطار انه كان هناك ما يزيد عن اربعين شخصاً كانوا يقصدون بلاد الانكليز في مهمات علمية مختلفة. فمن الجهة الواحدة إنّ حكومة فلسطين لم تبعث طلابا خلال سنوات الحرب، فكان هناك نحو عشرة طلاب هم اصحاب بعثات رسمية لدراسة الطب والرياضيات والادب الانكليزي والطب البيطري وطب الاسنان. ذلك بان ادارة الصحة العامة كانت لها بعثة علمية الى جانب بعثة ادارة المعارف. وكان هناك مجموعة من مدرسي ومدرسات اللغة الانكليزية رتب لها ان تقضي في ذلك الصيف ثلاثة اسابيع لحضور دورة تعنى باساليب تعليم اللغة. الى جانب هؤلاء الرسميين كان هناك ما لا يقل عن عشرة متجهين الى انكلترا للدراسة على حسابهم الخاص. وكان ثمة نفر من الذين كانوا يتمتعون بوضع خاص. فميشيل حداد وكاظم الداغستاني (الاردنيان) كانا مندوبين من قبل الحكومة للاطلاع على الشؤون الزراعية هناك لانهما كانا من خبراء هذه الوزارة في عمان. وكان محمد أديب العامري منتدباً من الاذاعة الفلسطينية لزيارة هيئة الاذاعة البريطانية للافادة من خبرة موظفيها. وكنت انا ذاهباً الى جامعة لندن للعمل للدكتوراه.

كان من الذين اعرفهم، فضلاً عن هؤلاء، ابرهيم مطر ومحمد الشوا وسيمون سكسك وممدوح الخالدي ونديم خوري واسعد نصر ووديعة حداد. ولم نكد نصل الباخرة حتى وجدنا ان عدد المتكلمين بالعربية على ظهرها قد تجاوز الستين. كان هناك فلسطينيون قد سبقونا ليمروا بالقاهرة. وقد انضم الى الباخرة شباب كانوا يقصدون انكلترا لمتابعة دراساتهم العليا، مثلي، فكان هناك نوري (العراقي) ومكي شبيكة (السوداني) بين هؤلاء، هذا فضلاً عن مصريين كثر.

هذه الرحلة كانت تختلف، بالنسبة لي، عن رحلتي سنة ١٩٣٥. هذه المرة كان كل شيء قد نظم ورتب قبل وقت، فيما كانت الرحلة الاولى تكاد تكون مرتجلة. لكن في رحلتي هذه تركت خلفي مرغريت ورائد؛ والبلد لم يكن في حال يحسد عليه. لذلك كنت مشغول البال باستمرار.

سفر البحر شيء ممتع جداً؛ وانا أحبه لانه يعطيني الوقت والمجال للراحة والصحبة والتأمل. فضلاً عن ذلك فهو، مثل السفر بالقطار، ينقلك على مهل، وسفر البحر ابطأ. والانتقال على مهل من مكان الى آخر يتيح للجسم ان يتأقلم تدريجاً على الاقل مع الوقت. الطائرة تحملك، ولا تكاد تركز نفسك حتى تبدأ تفكر بالوصول. في البحر امامك وقت طويل لتخطط للوصول.

والسفن الكبيرة، واحسب انه من المناسب ذكر ذلك، لان الناس لا يعرفون سفر البحر اليوم، تحتوي عادة على قاعات وسطوح. تجلس في الاولى، وتتريض على الثانية. ويغلب على كل باخرة ان يكون فيها حوض للسباحة، فضلاً عن المكتبة وما الى ذلك.

لكن البعض لا يحب السفر بالسفن لانه يصاب بدوار البحر (أي يدوخ). الا ان الطب اكتشف مؤخراً علاجاً لذلك. والبعض الآخر يشعر كا نه مسجون في السفينة. ومن المألوف ان تعقد صداقات، ولو مؤقتة، على ظهر

المركب. وتكمن الصعوبة في السفن التي تكون قد قطعت مسافة طويلة، فيكون الركاب قد تجمعوا والفوا حلقاتهم. فالذي ينضم الى السفينة في الجزء الاخير من الرحلة الطويلة يجد نفسه غريباً. هذا ما حدث لي سنة ١٩٣٥. الباخرة كانت قادمة من استراليا. فلما ركبتها انا في بورسعيد كانت الجماعات قد تكونت قبل مدة طويلة، فوجدت نفسي غريباً. لكن انا لا اهتم بهذه الامور. انا استطيع ان اكون مع الكون كله، ولو كنت وحيداً.

في سفرة ١٩٤٧ كان الامر يختلف. فعدد الركاب الجدد كان كبيراً. ونحن كلنا من بني يعرب. وبعد الليلتين الاولى والثانية خطر لي ان نفيد من وجودنا. فاتفقنا على ان يحدثنا احد الموجودين في كل مساء بعد العشاء عن بلده. وهكذا رتبنا الأمر: مكي شبيكة (السودان في قرن) محمد أديب العامري (فلسطين وقضيتها) نوري (العراق - لمحة عامة) ميشيل حداد (التحريج في الادرن) زميل مصري (النيل والري بالنسبة لمصر) انا (سورية الكبرى). ورتبت وديعة حداد فرقة للدبكة مع الاغاني الشعبية. ولعب سيمون سكسك على الكمنجة ليلة، وهكذا كنا نقضي امستين في الاحاديث ثم نقضيها امسية للتسلية. وبذلك كانت سفرتنا نافعة ونشيطة.

توقفت السفينة اسكانيا في جبل طارق لكن لم ينزل الركاب الى البر. واخيراً وصلنا لفربول. وانتقلنا الى لندن بالقطار. ووصلنا في ساعة متأخرة من الليل نسبياً. وكان اول ما وقع عليه نظري من تبدل في شؤون الحياة في تلك البلاد هو وجود نساء عتالات (شيالات) على المحطة. امرأة مليئة الجسم قوية على ما يبدو كانت تحمل الشنطة الكبيرة وترفعها بشيء كثير من اليسر. والأمر الآخر هو ان اكثر المواد الغذائية تباع بالكوبونات لانها مقننة. هذا بدا واضحاً لما وصلنا المكان الذي أعد لاقامتنا - ولم نكن جميعنا في مكان واحد. اعطينا على السفينة شيئاً من الطعام هو العشاء، الذي اكلناه في القطار. لكن السفرة الطويلة والسهر كانا بحاجة لأن يكافأ بلقمة. الا ان اللقمة غير متيسرة لاننا لا نحمل الكوبونات اللازمة. كان من الممكن الافادة من المطاعم، اذ ان الاكل فيها كان جائزاً بدون الكوبون، لكن المطاعم كانت قد اقفلت. واخيراً نجح مدير المنزل الذي عين لنا للاقامة فيه في ان قدم لنا فنجانا من الشاي مع شيء من البسكويت، هو كل ما امكنه الحصول عليه.

كان عندنا - نحن الذين كنا قد حصلنا على بعثة من المجلس الثقافي البريطاني (أنا كان لدي بعثتان الواحدة من ادارة معارف فلسطين والثانية من المجلس المذكور) - أسبوع للتوجيه. لم اكن انا احتاج التوجيه (بعد اربع سنوات في انكلترا من قبل) ولكنني آثرت حضور الاجتماعات، على انني كنت استأذن احياناً فيؤذن لي، وعندها آخذ نفسي بالتجول في انحاء لندن التي اعرفها. وقد اكتشفت ان الثياب مقننة ايضاً، اي ليس الأكل فحسب. وكان ثمة فرق بين التقنينين. ففي امور الأكل كان كل كوبون لشيء معين من الخبز والزبدة والبيض واللحوم والموز والجبن والحليب والسكر، ولا يمكن استبدال الواحد بالآخر. اما فيما يتعلق بالثياب فانت تحمل عدداً معيناً من الكوبونات هو حصتك للسنة. الا انك لست مقيداً في استعمال هذه الوريقات. المهم ان تنظم انت حاجتك بحيث لا تنفقها كلها في شراء نوع معين وتحرم نفسك، فيما بعد، من شيء تحتاجه. ولعلّ تقنين اللحم كان من اطرف انواع التقنين. جميع المواد الغذائية كانت مقننة بالوزن للفرد الواحد. اما اللحم فكان اساس تقنينه النقود. كان يستطيع الفرد الواحد ان يحصل على لحم بقيمة خمسة شلنات في الاسبوع. فعندما يذهب الى اللحام (الجزار) ليبتاع حاجته يمكنه ان يختار اما قطعة بفتك صغيرة لانها مرتفعة السعر او ان يختار قطعة لحم بالعظم تكون اكبر لانها أرخص سعراً. وهذا كان يتيح لربة البيت صاحبة الاسرة الكبيرة ان تنوع مشتراها من اللحم، كي تنوع طريقة الطبخ.

وكان علي ان اجد مكاناً لاقامتي. اتصلت بالمسز ويلمان - السيدة التي أقمت مع اسرتها سنتين تقريباً من قبل - وقد سرت ودعتني لتناول الشاي. كانت هي وزوجها في البيت. وتحدثنا عن اشياء كثيرة في لندن وفي القدس.

واخيراً سألتها فيما اذا كانت تقبل ان اسكن عندهما. يبدو انه في ايام الحرب اجرت الاسرة غرفة (فالبيت واسع) وقد كان الساكن الانكليزي مزعجاً لدرجة ان السيدة قررت ان لا تعود الى مثلها لكنها اضافت: «نحن نعرفك ونعرف ما تحب وما لا تحب من اكل وغيره، لذلك فاننا نرحب بك». وكم سعدت بهذا القول.

ورتبت أمري فحصلت على دفتر الكوبونات للأكل وسلمتها اياه؛ فكانت تبتاع هي حصتي لانني كنت اتناول طعام الفطور والعشاء عند الاسرة. وكان السيدة حريصة على ان لا أُغْبَنَ بالنسبة لحقي في اللحم والبيض والزبدة مثلاً. فاذا ابتاعت لحمة مرتفعة الثمن نال كل منا حصته الصغيرة، والا كان لنا شيء من اللحم والعظم والمرق. وكانت حصة الفرد بيضة واحدة في الاسبوع (كانت حصة الاطفال خمس بيضات في الاسبوع وكان المتقدمون في السن ينالون بيضتين اثنتين في الاسبوع). لكن يوماجاء انكلترا شيء اسمه البيض البودرة. وهو البيض المجفف (على نحو ما يجفف الحليب). هذا لم يكن مقتنا وكان جيداً للعجة مثلاً. والواقع ان المرء يعتاد عليه. وانا عندي استعداد، من ايام صغري، على الاعتياد على انواع مختلفة من المآكل، وهذا امر كان مريحاً لي في جميع ادوار حياتي.

اما في مطعم الجامعة، حيث كنا نتناول طعام الغداء، مهما كان نوعه،فلم نكن نحتاج الى كوبون، فضلاً عن ان الطعام كان هناك مدعوماً لذلك كان رخيصاً وجيداً.

اربعة امور كانت تشغلني في الشهور الثلاثة الاولى بعد وصولي لندن: اولها ماذا كان يحدث في فلسطين. كان من الواضح ان اللجنة (لجنة الامم المتحدة) الخاصة بفلسطين كانت تتجه نحو تقسيم فلسطين. كان الصهيونيون قد بدأوا اعمالهم الارهابية ضد العرب والحكومة معاً. والآن بدأت الاحوال تتأزّم من جديد بين العرب والصهيونيين. لكن ما الذي كان يحدث فعلاً، والى اي حد كان هناك خطر (شخصي على مرغريت ورائد، أولا ثم على بقية الأهل ثانياً واخيراً، وليس آخراً، على البلد كله). رسائل مرغريت لم تكن مخيفة لكنها لم تكن مطمئنة. رسائل أخويّ كانت ضبابية، لا لانهما ارادا ان يموها عليّ، ولكن لأن الرؤية كانت، عند الاكثرية، ضبابية ومضطربة ومشوهة. وكان أديب عتقي متحمساً، وظل على ذلك حتى بعد ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨ بمدة. كان بيتنا في القدس قريباً من المكتب العربي، الذي كان يتولى ادارته درويش المقدادي. درويش صديق (استاذ لي اصلاً) مخلص. نصح مرغريت بان لا تخشى باساً، وعليها ان تختزن بعض المواد الغذائية، لذلك لما تركت البيت كان فيه مونة مليحة.

والأمر الثاني الذي شغلني كان رسالتي للدكتوراه. كان الموضوع الذي اخترته عن ادارة بلاد الشام في العصر المملوكي الأول. كانت الرسالة قد قبلت موضوعاً قبل وصولي لندن. ولما وصلت كتبت الى الاستاذ غب، وكان يومها قد اصبح استاذ العربية في اكسفورد، وذهبت لمقابلته لاستشارته. (وكان قد دعاني للغداء لما كتبت له اطلب الموعد). بعد ان اصغى لي نحو نصف ساعة وانا اشرح الموضوع وما قرأت حوله (وكنت قد قرأت كثيراً في القدس) قال: «قد لا تجد مادة كافية، لكن لا بأس ان تجرب». لا ازال اذكر الى اليوم انني لم أسر بالطعام، على جودته لان غب اخافني وازعجني.

لكن الالعن من ذلك هو ان المسؤول عن التاريخ الاسلامي في معهد العلوم الشرقية والافريقية، برنارد لويس، بدل ان يضمني الى طلابه، عهد بي الى س. د. رايس (اصلاً سولومون رايخ من النمسا). وادركت من لقائه لاول مرتين ان الرجل ليس معنياً لا بي ولا بغيري من الطلاب. (والواقع انه خلال السنتين اللتين كان المفروض ان يشرف على عملي لم التق به سوى اربع مرات، ولم يقرأ حرفاً واحداً من رسالتي).

هذا كان مدعاة لانزعاجي. لكن ما العمل، هذا ما حدث.

والأمر الثالث الذي شغلني هو ماذا يمكنني، مع آخرين من الطلاب الفلسطينيين، ان نفعل في الظروف

القائمة يومها؟ عقد اجتماعات، ارسال برقيات تشجيع واحتجاج؟ انهالت بيانات الدول العربية التي تبين اعداد الجيوش التي يمكن ان ترسل للدفاع عن فلسطين عندما تدعو الحاجة. حسبنا الارقام مرة ومرة ومرة جمعنا ـ طرحنا ـ حذفنا خشية المبالغة او السهو او الخطأ، ومع ذلك فقد بقي عندنا بين مئتي الف وربع مليون جندي يمكن ان يلقى بهم الى ساحة الوغى (أليس هذا هو التعبير القديم؟). لم يكن بيننا ـ مجموعة الطلاب الذين كنا في لندن، وكان يفد اليها طلاب من جهات اخرى ـ من يعرف حاجة المئتي الف جندي من السلاح والعدة والمؤن كي يوضح لنا الأمر. الواقع اننا كنا نشك في العدد اصلاً، اما التفاصيل فأمر آخر.

لكن حتى بالنسبة للدول العربية هل من الممكن ان يتفق زعماء العرب على العمل المشترك؟ تذكرت يومها كاريكاتوراً في مجلة مصرية نشر يوم اجتمع الرؤساء في انشاص (١٩٤٦) وكان الكاريكاتور يبدو فيه ممثل الملك عبدالعزيز آل سعود والملك عبدالله في ضم وعناق قويين، لكن واحداً منهما (لا اذكر ايا منهما) كان يحمل خنجراً ينوي ان يغرزه في ظهر صاحبه. لست ادري لماذا تذكرت تلك الصورة يومها، وكنت قد أويت الى غرفتي، فبكيت على فلسطين.

ومع ذلك فقد كنا نركض من اجتماع الى اجتماع، وكان من النشيطين جداً في هذه الاجتماعات سالم خميس ووصفي حجاب. اذكر اننا ارسلنا برقيتين (لا شك اننا ارسلنا اكثر من ذلك) الواحدة الى محمد علي جناح رئيس الباكستان (الدولة التي كانت قد ولدت حديثاً) والثانية الى قسطنطين زريق في الجامعة الاميركية في بيروت. كان قد عاد من مهمته الخاصة سفيراً لسورية في وشنطون، وتولى نيابة رئاسة الجامعة الاميركية، وقصدنا من ارسال البرقية له ان يكون سبيل اسماع صوتنا لمن يمكن ان يصله.

في خضم هذه الاشياء المهمة والكبيرة ـ من اسرتي الصغيرة الى وطني الى رسالتي ـ كنت بين الحين والآخر يخطر ببالي ان اعرف ماذا حدث لجوزفين. ومع ذلك فلم اسأل امها او أخاها تلفونيا. كنت، وانا اسير في شوارع لندن، ابدو وكأنني ابحث عن وجه آمل ان القاه مصادفة. لم يكن الأمر شغلاً جدياً، لكنه ظل موجوداً بعض الوقت.

ولما وصلت مرغريت مع رائد في ٢٢ كانون الاول / ديسمبر سنة ١٩٤٧ الى لندن تقلص عدد الامور التي شغلتني وازعجتني الى اثنين ـ فلسطين ورسالة الدكتوراه. مرغريت قالت بعد وصولها الى لندن بيوم او اثنين : «لما تركت القدس تأكدت انني لن اعود اليها».

أخذت انتبه الى الفرق بين لندن التي عرفتها قبل الحرب ولندن سنة ١٩٤٧. لم يكن مألوفاً قبل الحرب ان تجلس فتاتان منفردتين في حانة. كان لا بد ان يكون معهما رجل على الأقل. بعد الحرب اصبح من المألوف ان تدخل حانة فتجد اكثر من طاولة تحتلها فتاتان منفردتين. ان الفتيات اللواتي انخرطن في الجيش البريطاني وانتقلن الى ميادين القتال، واشتركن في المعارك، مهما كانت المشاركة بسيطة او خفيفة، لم يجدن غضاضة قط في الجلوس في الحانة وحدهن ـ فرادى او ثنى.

وتنبهت الى ازدياد عدد السيارات على الطرق، كما لاحظت ان نوع السائقين (للسيارات الخاصة طبعاً) اختلفت عنه قبل الحرب. ان الحرب اتاحت للكثيرين ـ في البلاد او في ميادين القتال ـ المجال للحصول على مال اوفر وتصميده، فلما وضعت الحرب اوزارها صار بامكان هؤلاء ان يبتاعوا سيارات. ولعلَّ اصحاب بيع السيارات اصبحوا اكثر تساهلاً مع الزبائن من حيث المدة التي يُسَدَّدُ فيها ثمن السيارة.

واذا تذكرنا ان سنة ١٩٤٧ كانت سنة استقلال الهند وباكستان وان عدداً كبيراً من الجند والموظفين في هاتين الدولتين عادوا الى بلادهم بعد ان فُقِدَت الحاجة اليهم. هذا اضافة الى عدد المجندين الذين سُرِّحوا بعد

انتهاء القتال. هذه الاعداد الكبيرة أدت الى أزمة سكن كبيرة في البلاد؛ وكانت الازمة في لندن اكبر لان المدينة / العاصمة / المركز التجاري والمالي كانت تجذب الكثيرين اليها.

ومثل أزمة البيوت والسكن كان هناك أزمة في الجامعات. فعدد كبير من الجنود أصبح من حقه ان يتابع - أو حتى أن يبدأ دراسته الجامعية التي تأخرت بسبب الحرب، وكانت الحكومة تدفع لهؤلاء الشباب والشابات علاوات تمكنهم من الدراسة الجامعية.

ولما قبل هؤلاء في كليات اكسفورد وكمبردج، وسكنوا مع عائلاتهم في شقق خارج نطاق ما تسمح به الجامعة، تبدلت بعض قوانين الاقامة الجامعية.

كانت هاتان الجامعتان، وغيرهما من الجامعات القديمة، تفرض على الطلاب المقيمين في الكليات ان يكونوا في حرم الكلية في الساعة العاشرة مساء. (كانت كلية ترينتي في كمبردج يسمح لطلابها البقاء في الخارج الى منتصف الليل. ويعود سبب هذا الاستثناء الى ان هذه الكلية انتسب اليها، قبل عقود من السنين، افراد من البيت المالك. واريد لهؤلاء ان يكون لهم وضع خاص، فسمحت الجامعة لجميع طلاب تلك الكلية ان يكون لهم هذا الوضع الخاص).

وحتى الطلاب الذين لم يقيموا في الكلية كانوا يقيمون في بيوت - عند أسر - توافق الجامعة عليها، وكان يطلب من أهل البيت ان يراعوا القواعد التي تتطلبها الجامعة من نزلاء الكلية.

مثل هذه القيود لم تفرض على الطلاب المتزوجين الذين كانوا يقيمون مع أسرهم.

وكانت مدينة كمبردج يومها مدينة جامعية تماماً. فقد علمت فيها سنة ١٩٤٨-١٩٤٩ في قسم اللغة العربةي مع الاستاذ ارثر ج. أربري. وسكنا أنا وزوجتي في الشقة العليا من بيت تملكه الآنسة ليتلتشيلد، وكان المنزل في ٢٨ شارع اندروز قريباً من مصانع شركة باي للراديو (ثم التلفزيون).

كان عدد طلاب جامعة كمبردج يزيد قليلاً عن سبعة الاف طالب. وكان اكثرهم يقضون عطلهم في بلدانهم. وعطلة عيد الميلاد في جامعة كمبردج كانت ستة اسابيع ومثلها عطلة عيد الفصح. لذلك كانت المدينة تبدو وكأنها خالية من السكان اثناء العطل. وكان أكثر ما يلفت النظر قلة البسكليتات في الشوارع. فالبسكليت كان وسيلة التنقل الرئيسية بالنسبة للطلاب. ولان الطلاب كان يترتب عليهم ان يلبسوا الثوب (الروب) الجامعي (الغاون) اثناء المحاضرات، فكانوا يبدون، وهم ينتقلون من مكان الى مكان، شكلاً لطيفاً وطواقيهم على الرؤوس واروابهم يلفحها الهواء الى جانبهم. هذا منظر كنا نفتقده اثناء العطل الجامعية.

بعد وصولنا الى لندن دخلت الخلافات في فلسطين دائرة العنف. واصبحت، كما ذكرت اخشى على مرغريت ورائد (والآخرين طبعاً). لذلك عملت على ان يأتيا الى لندن. وقد سجلت مرغريت طالبة في كلية فنية كي تحصل على تأشيرة دخول الى بريطانية. لكن كان هناك امر أخطر، وهو ان التأشيرة لا يمكن ان تعطى لزوجة الا اذا كان السكن مضموناً. وقد فتشت في منطقة هندن، حيث كنت أقيم، فلم احصل علي شيء. واخيراً سألت مضيفي فيما اذا كان من الممكن ان نعطى غرفة ثانية في البيت ونقيم معهما. وقد كان المضيفان كريمين فقبلا ان يجربا اقامة أسرة معها طفل في البيت لمدة شهر. فاما ان نبقى في البيت او ان ندبر أمرنا. وارسلت الكتاب الذي سلمني اياه صاحب المنزل موجهاً الى ادارة المهاجرة في فلسطين. وهكذا بالتسجيل وبالرسالة وبمساعدة من لطفي عطالله ولطفي سنونو حصلت مرغريت ورائد على التأشيرة. ووصلا الى لندن على الباخرة كنتون التي كانت آتية من مدينة كنتون في الصين والتي استقلاها من بورسعيد.

كان وصولهما في ٢٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧. وكنت قد اطمأننت الى انهما اصبحا في عرض البحر لما تلقيت برقية من الفرد في القدس تنبئني بذلك. وقد وصلتني يوم ٨ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٧، بعد ايام

مزعجة ومرهقة لي.

لما اطمأننت الى سلامتهما احتفلت بعيد ميلادي (الثاني من كانون الاول / ديسمبر) احتفالاً خاصاً، متأخراً. ابتعت نصف زجاجة نبيذ وشربتها، وحدي في الغرفة وكان احتفالاً سعيداً ومنعشاً جداً.

بعد بضعة ايام، وفيما كانت مرغريت لا تزال في عرض البحر، تلقيت منها رسالة كانت قد كتبتها من القدس غداة اعلان تقسيم فلسطين. وقد وصفت الوضع بقوها: «الشوارع كانت مليانة باليهود الذين كانوا يركبون السيارات ومعهم الاعلام. كانوا يغنون ويصيحون وينشدون الاناشيد. كانت النساء تقف على اجنحة السيارات، وكن يلوحن بالايدي. عربات الاطفال كانت مشكولة بالاعلام الصهيونية. والشبابيك والابواب كانت مزينة بالاعلام، وكذلك السيارات مزينة بالزهور. شيء تقشعر منه الابدان...

«رجعت برائد الى البيت، لانني لم اقدر على تحمل منظر اليهود في حالتهم هذه. فنزلت دموعي».

من الناحية العلمية بالنسبة لرسالة الدكتوراه لم افد شيئاً جديداً. فقد كتبتها كلها دون أي ارشاد عملي او حتى نظري من المشرف (اسمياً). ولكن تدريبي في دراساتي السابقة (قبل الحرب) على أيدي اساتذتي في التاريخ الكلاسيكي كان خير عون لي. فضلاً عن ذلك فقد كنت قد وضعت عدداً من الكتب اثناء اقامتي في القدس (١٩٣٩-١٩٤٧). الا ان العمل كان بحاجة الى تهذيب وترتيب. لذلك كانت النتيجة انني لما تقدمت للامتحان، وكانت اللجنة مكونة من برنارد لويس وغب وجين هسي (استاذة التاريخ البيزنطي في جامعة لندن، وخليفة نورمن بينز في منصبه)، لم تُقْبَلْ رسالتي من حيث الشكل. فقد تكلم غب عن اللجنة فقال: «كانت المادة والطريقة مقبولتين لكن الصيغة تحتاج الى اعادة نظر». وكان معنى هذا، بحسب نظام جامعة لندن، انني منحت مهلة ثمانية عشر شهراً كي اقدم الرسالة منقحة الصيغة، والا فانه يتوجب علي ان ابدأ من جديد أي بموضوع جديد.

وقد فعلت الأول، وبعثت الرسالة الى جامعة لندن، بعد ان أتممتها خلال السنة الأولى من عملي في الجامعة الاميركية في بيروت (١٩٤٩-١٩٥٠). ولان اللجنة كانت قد قبلت المادة والطريقة، فانها لم تطلب مني ان اتقدم امامها للامتحان ثانية. بل اكتفت بان قرات الرسالة. ومنحتني درجة الدكتوراه وقد وصلني الخبر شخصياً من برنارد لويس صباح يوم ٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٠ وهو اليوم الذي ولد فيه باسم، ابننا الثاني.

ولعلّه من المناسب الاشارة الى ان جامعة لندن، مثل اكثر الجامعات الكبيرة في بريطانية، لا درجات متفاوتة عندها للدكتوراه (في جامعة لندن يُوجد تصنيف لدرجة البكلوريوس)

خرجت الدول الأوروبية من الحرب العالمية الثانية تعبة منهكة فقيرة. والفرق بين الدولة الواحدة والأخرى كان فرق الدرجة في الفقر والارهاق. فالمانية التي غلبت وبريطانية المنتصرة لم تختلفا الواحدة عن الأخرى كثيراً.

وانقسمت اوروبة بعد انتهاء الحرب الى معسكرين واضحي النظام والفلسفة والاتجاه. فالدول الشرقية اصبحت جزءاً من الفلك السوفياتي. والمهم ان الاتحاد السوفياتي والدول التي وقعت تحت نفوذه أصبح مصدر خطر كبير لاوروبة الغربية. فهذه - بريطانية وفرنسة وايطالية وحتى المانية الغربية - فضلاً عن الدول الأخرى في المنطقة كانت، من الناحية السياسية دولا ديمقراطية. وكان من الطبيعي ان تكون لهذه الدول حرية التصرف في شؤونها، لكن دول شرق اوروبة دخلت القفص الحديدي - خلف الستار الحديدي. ودخلت اوروبة مجال الحرب الباردة.

وتقدمت الولايات المتحدة سنة ١٩٤٧ بمشروع (جورج) مارشال، وزير خارجية الولايات المتحدة (١٩٤٧-١٩٤٩)، الذي كانت آثاره كبيرة في انعاش اوروبة الغربية المنهوكة اقتصادياً. وفي سنة ١٩٤٩ (نيسان / ابريل) انشئت منظمة حلف الاطلسي الشمالي (ناتو)، وضمت دول غرب اوروبة والولايات المتحدة وكندا.

والأساس في هذه المنظمة دفاعي، أي أن هذه الدول وحدت جهودها للدفاع المشترك في حالة الاعتداء على أي منها، اذ يعتبر ذلك اعتداءً عليها جميعها. وقد لاحظت خلال اقامتي الثانية في انكلترا ان مشروع مارشال انعش السوق بالمعنى الواسع، وانشاء المنظمة اعاد الى النفوس في بريطانية شيئاً من الاطمئنان. ذلك بان الاتحاد السوفييتي كان قوياً ومنتصراً وشرساً ومخيفاً وكان ستالين لا يزال سيد الموقف. ولم يكن باستطاعة اوروبة الغربية الوقوف امامه منفردة. لكن دخول الولايات المتحدة منظمة الحلف كان الدرع الواقي لاوروبة.

في ربيع سنة ١٩٤٨ منعت روسيا وصول أي نوع من المواد الغذائية الى برلين الغربية، التي كانت تقع في المانية الشرقية، عبر الطرق البرية. فكان ان قامت الولايات المتحدة بارسال مئات ومئات من الطائرات المحمّلة بكل ما يحتاجه السكان، فلم يفتقد سكان برلين الغربية شيئاً قط. هذا الوضع عايشت الانكليز همومهم نحوه. روسيا تضغط عن طريق التجويع، والولايات المتحدة تنجد عن طريق الجو. كانت اخبار هذا العمل الجبار (الذي استمر خلال ١٩٤٨-١٩٤٩) تشغل الصحف ومحطات الاذاعة والتلفزيون. وكان الناس يراقبون العمل وايديهم على قلوبهم، خشية ان تفشل التجربة. واحسب ان نجاح الاميركيين في هذه العملية كان له أثر كبير في اقناع المترددين من الاوروبيين بالفائدة التي تعود عليهم من انشاء منظمة حلف الاطلسي الشمالي (ناتو).

واقتضى الوضع الذي نشأ في أعقاب الحرب العالمية (الثانية) ان يُحتَفَظَ بقواعد عسكرية (جوية وبرية وبحرية) في اوروبة؛ وكان لبريطانية من ذلك نصيب. والذي اذكره ان عدداً لا يستهان به من الانكليز كان لا يطيق هذه القواعد / المعسكرات، لان الاميركان فيها كانت مرتباتهم كبيرة، فضلاً عن المواد الغذائية والاستهلاكية التي كانت توفرها لهم دولتهم الغنية. مثل هذا الامر كان يثير شيئاً من الحسد عند الذين كانوا يعرفون امور هذه القواعد من الداخل. فضلاً عن ذلك فقد قلق كثير من الناس على الشباب الانكليزي الذي اصبح يتعرض لاغراءات كثيرة، قد لا يمكنه ان يقاومها طويلاً. وكان القلق على الفتيات اكبر. كانت هناك زيجات - لكن الامر الآخر، المعاشرة العادية والانجاب غير الشرعي كانا امرين مجلبين لكثير من التذمر والقلق.

أعرف ان هناك من يزورّ عندما يقرأ هذا، ويقول ومتى كان الاوروبي او الاميركي (او اي غربي) يقيم وزنا لامور الآداب والاخلاق. انه ابن حضارة مادية القت قضايا السلوك الشريف وراء ظهرها. ولكن الذي اتيح له ان يتعرف الى الاوروبيين الذين لا يتصدرون اماكن الصيد، والذين مع ايمانهم بعلمانية الدولة والفصل بين هذه وبين الدين، لم يبيعوا عقيدتهم في سوق الشياطين ويتخلوا عن قواعد السلوك التي تأتيهم من ايمانهم. هؤلاء - وهم اكثر الى درجة اكبر مما يظن الشرقيون (حتى الذين خبروا الحياة الاوروبية في مباذلها) - هم الذين اقلقهم هذا الوضع، وكانوا يأملون ان لا يطول.

على ان وجود القواعد العسكرية كانت له ملابسات سياسية هامة. كان يُنظر اليها على انها افتئات على السيادة القومية، لانها لم تكن تخضع لانظمة البلاد، بل كانت قواعد اجنبية قلباً وقالباً.

وكان ثمة ما يشغل بال رجال الحكم والمتطلعين الى الوصول الى الحكم، أي المعارضة، من تطورات في الامبراطورية البريطانية. كانت الهند قد قدمت خدمات لبريطانية اثناء الحرب العالمية الثانية (خدمات الحرب العالمية الأولى نسيت بعيد الحرب) لذلك وعدت بريطانية الهند بمنحها استقلالها. لكن الحركة الوطنية الهندية تشعبت، حتى قبل الحرب، بسبب رغبة الزعماء المسلمين في ان يكون للمسلمين جزء خاص بهم. لذلك لما جاء وقت منح الاستقلال (١٩٤٧) قامت دولتان: الهند وباكستان؛ وهذه كانت مكونة من قسمين الغربي والشرقي، اللذين كان يفصل بينهما جزء من الهند، بحيث ان المسافة بين القسمين كانت نحو ١٨٠٠ كلم. (والقسم الشرقي هو الذي غضب وانفصل واستقل واصبح بَنْغلادِش - سنة ١٩٧١).

واستقلال الهند من الناحية الواحدة، وقيام الأمم المتحدة بمحاولات جادة، ولو ان بعضها جاء مبكراً،

ندوة الاسلام في العالم الحديث كراتشي (كانون الثاني / يناير ـ شباط / فبراير ١٩٥٩)
يظهر في الصورة أقصى اليمين سيد علي أشرف، سكرتير المؤتمر ثم غرونباوم، ؟، ؟، زيادة، لورا فكليري.

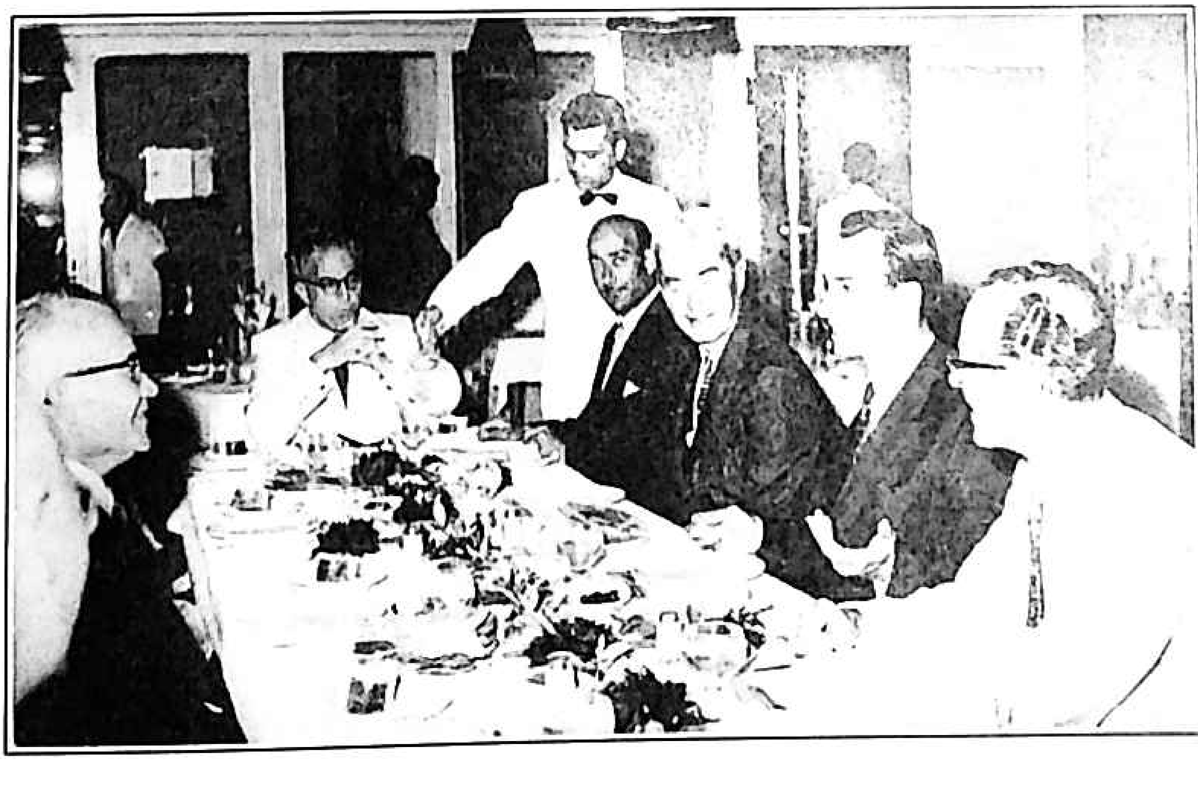

في نادي متخرجي الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٦١ غداء في صحبة آغاخان الرابع (سمو الأمير كريم) للبحث في انشاء كرسي آغاخان في الجامعة
من اليمين: فريد حنانيا، الأغاخان، براون، عارف تامر، زيادة، رئيس الجامعة (بول ليونارد)
الامير كريم كان من تلاميذي في جامعة هارفارد.

فؤاد صروف (نائب رئيس الجامعة الاميركية في بيروت) وقرينته يستقبلان مرغريت ونقولا
فندق بريستول (بيروت) ١٥/١٢/٦٤ (مشروع قاموس فرنكلين)

مرغريت تفتتح مؤتمر خريجات كلية بيروت للبنات
(اليوم كلية بيروت الجامعية) ٢ حزيران / يونيو ١٩٦٢

الأسرة في رومة
١٩٦٣

معالي الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وزير التربية الأردني يتلقى من زيادة تقريراً وضعته لجنة من أساتذة الجامعة الاميركية عن دور المعلمين في الأردن. من اليمين. كاجولس، فريد فليحان، (مدير التسجيل في الجامعة)، كورف، زيادة، معالي الوزير سعيد الدرة، غريفيث (من السفارة الاميركية في عمان)، جان مرهج، حسني فريز (عمان ١٩٦٥).

عشاء في فندق غراند بالاس في طرابلس - ليبيا دعوة رسمية من وزير الاعلام والثقافة حزيران / يونيو ١٩٦٨ (الى يمين مرغريت رائدة جار الله الحسيني)

في مؤتمر ليبيا عبر التاريخ الجامعة الليبية (فرع بنغازي) ١٩٦٨

يلقي خطاباً في نادي الروتاري في المنامة البحرين ١٩٧٠

في طائرة من طائرات ايرماروك بين طنجة ولندن تشرين الأول / اكتوبر ١٩٧٠

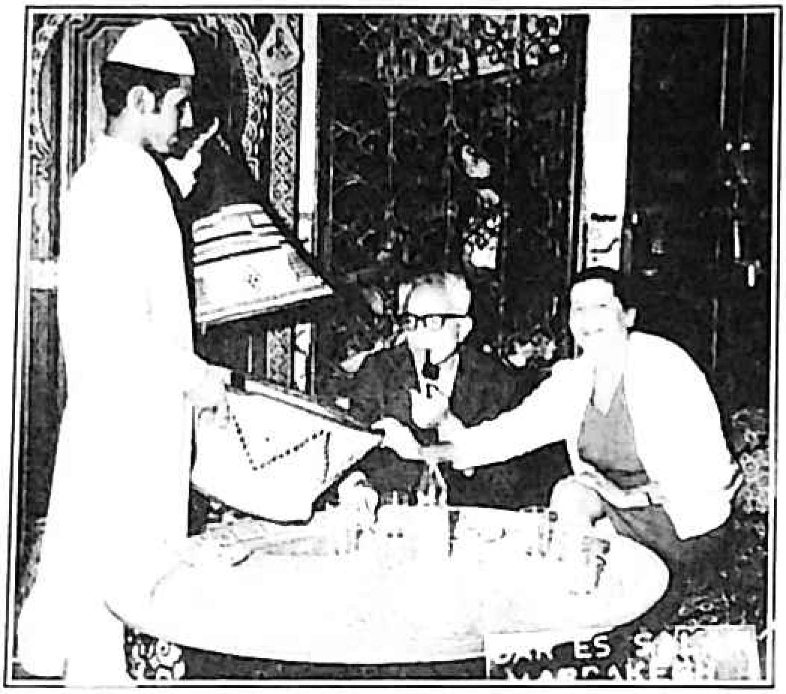

في مطعم دار السلام في مراكش (المغرب) تشرين الأول / اكتوبر ١٩٧٠

مرغريت في فاس (المغرب) تشرين الأول / اكتوبر ١٩٧٠

في سويسرا
٢٠ حزيران / يونيو ١٩٧١

في فرانكفورت (المانيا)
ايار / مايو ١٩٧١

لمناسبة التقاعد من الجامعة الاميركية
(٦ تموز / بوليو ١٩٧٣)
ادمون رزق وزير التربية
يعلق الوسام لزيادة.
مرغريت الى اليمين وقرينة الوزير
الى اليسار

١٩٧٢ بيروت

فندق الكارلتون بيروت ٦ تموز /
يوليو ١٩٧٣ نقولا زيادة يلقي خطاباً
بعد تقليده الوسام لمناسبة
تقاعده عن العمل في
الجامعة الاميركية في بيروت
من اليمين: غوردون، صمويل
كركوود (رئيس الجامعة)، قرينة
الرئيس، مرغريت، ادمون رزق
(وزير التربية الوطنية) قرينته،
زين نور الدين زين
(الزميل المتقاعد ايضاً)، ماري زين.

المؤتمر التاريخي الأول (١٩٧٤) في
كلية الآداب بالجامعة اللبنانية
من اليمين. استاذ من جامعة مدريد،
جورج جدعون، زيادة، عباس
ابو صالح، عبدالمجيد النعنعي.

قبيل القاء محاضرة في جامعة حلب
في ربيع ١٩٧٥
الى يمين زيادة رئيس جامعة حلب
أحمد يوسف حسن والى يساره
عائشة الدباغ وبكري امين

بغداد ١٩٧٥

في باكو
نيسان / ابريل
١٩٧٥

امام بسطة
فواكه في
بخارى
نيسان / ابريل
١٩٧٥

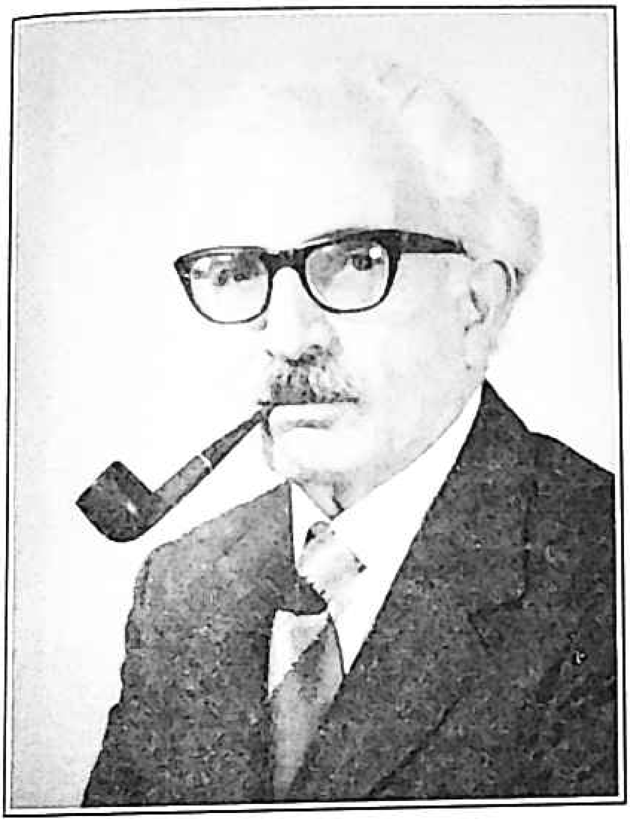

عمان ١٩٧٧

في مناقشة مع سمو الامير الحسن بن طلال في ذكرى عيد الاستقلال المغربي ١٩٧٨

ندوة في القانون الدولي بيروت. فندق الرفييرا ١٩٧٨ الرئيس. الفرد نقاش

بيروت ١٩٨١

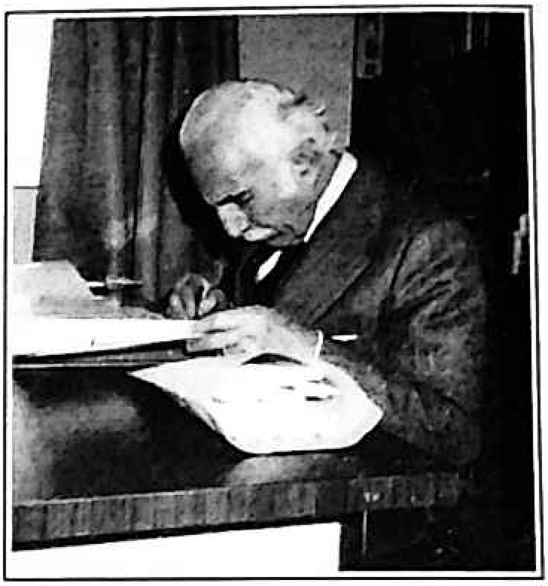

في مكتب الموسوعة الفلسطينية بيروت ١٩٨٥

مع مريانا ومروان (ابني باسم الاولين) كنيسة سيدة النياح يوم أحد الشعانين ١٩٨٣

ندوة حول الشريعة في برنستون ربيع ١٩٨٥

عرس منى ابنة أخي الفرد
من اليسار الصف الأول الفرد
قرينته ملى نقولا
الصف الثاني الاشبين نك. العريس
اد (بلانش) العروس منى
الاشبينة هدى زكا

زيادة يقرأ الإنجيل بالعربية في كنيسة قبرصية ١٩٨٥

مع صاحب السمو الملكي الامير الحسن بن طلال ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية ندوة حول تاريخ الشام / عمان ۱۹۹۰ (الجامعة الاردنية / عمان)

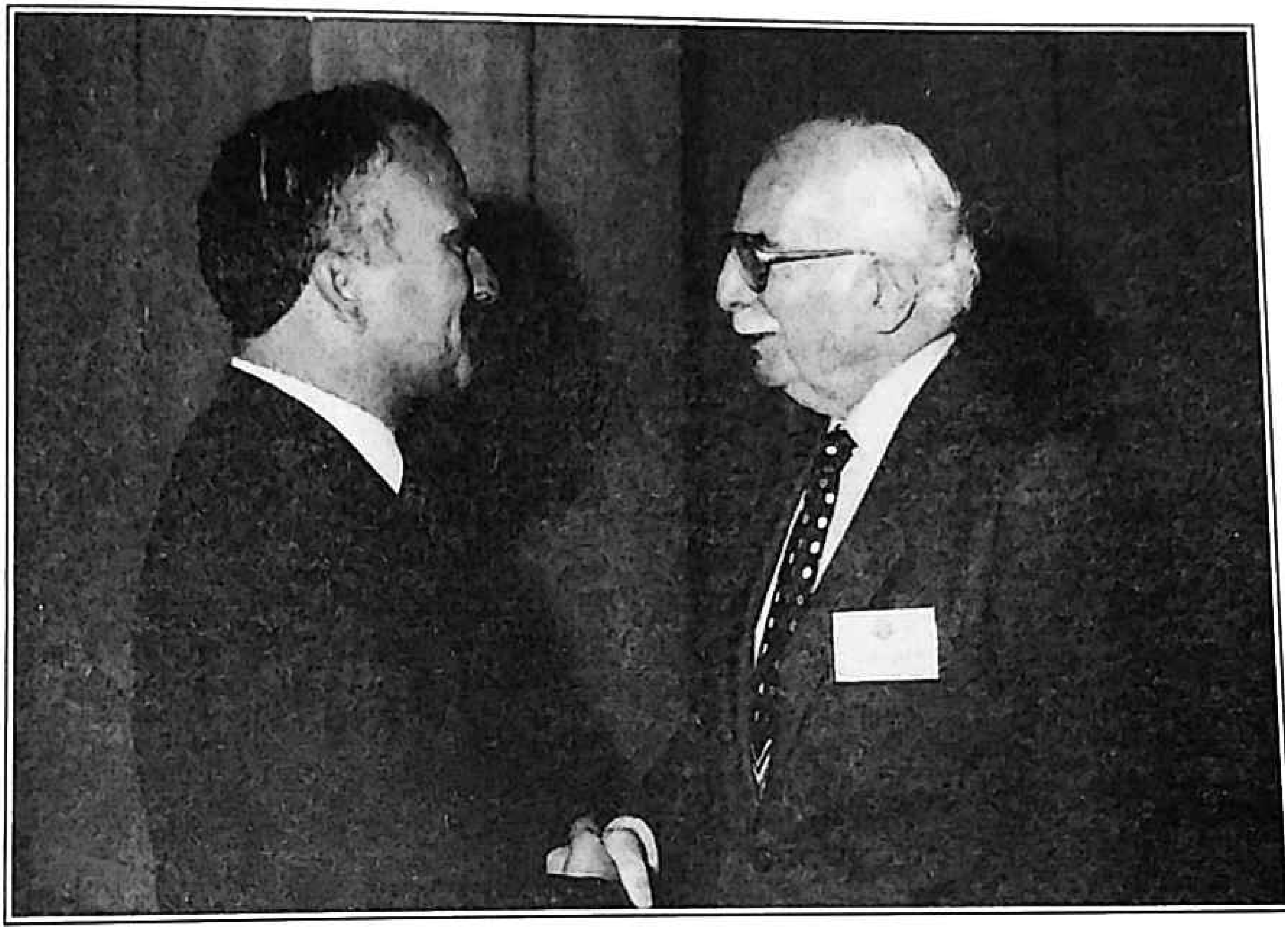

من اليمين نديم شحادة، فدى نصرالله، نقولا زيادة، ناديا الشاذلي، رغيد الصلح
سنت اندروز. اسكتلاندا تموز / يوليو ۱۹۹۲

من اليسار . مرغريت . عبدالرحمن عدره (سفير لبنان في الجزائر) وفخري صاغية (مستشار السفارة) عند قبر النصرانية (غربي مدينة الجزائر) (١٩٧٠).

في عربة خارج أسوار مراكش (١٩٧٠)

من اليسار : أحمد يوسف حسن (رئيس جامعة حلب)، سيد حسين جعفري (الجامعة الاميركية في بيروت)، حكيم محمد سعيد رئيس مؤسسة همررد الوطنية في الباكستان، ؟، نقولا، ليا رستم شحادة (الجامعة الاميركية في بيروت)، أحمد سعيدان (الجامعة الاردنية) جان (الجامعة اللبنانية). عشاء (بمناسبة المؤتمر التاريخي الاول ١٩٧٥ لكلية آداب الجامعة اللبنانية) في فندق السان جورج.

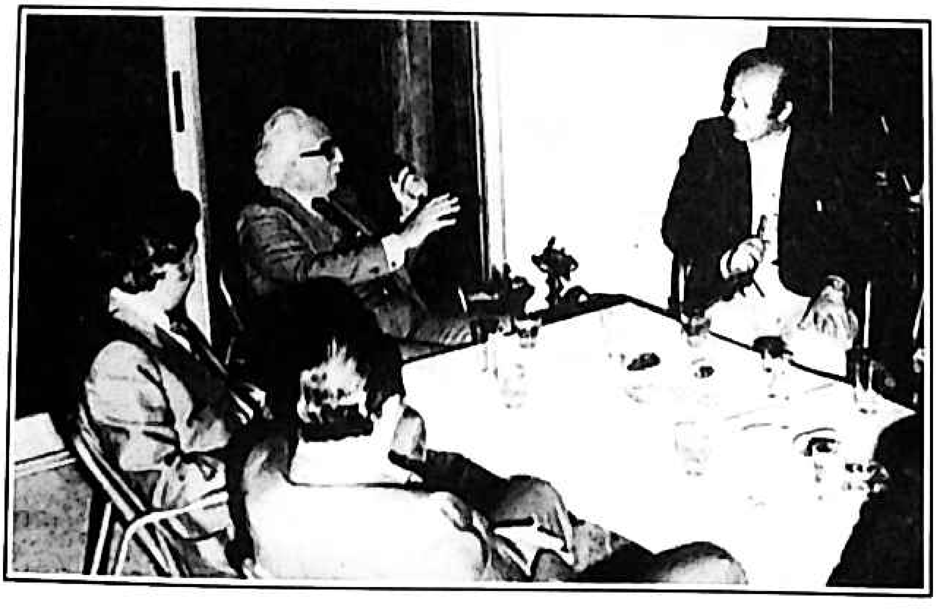

من اليمين : برهان قصاب مدير السياحة (سورية)، نقولا، غسان ريحاني (ابن خال المؤلف وتاجر آثار في عمان) وغالب أبو جابر مدير السياحة في الأردن في نقاش حول تشجيع السياحة في الأردن وسورية. النادي الارثوذكسي في عمان (١٩٧٦).

لتصفية الاستعمار، في الناحية الاخرى، اثار قضية بقيمة الممتلكات (المستعمرات) الاوروبية في انحاء العالم. والقضية لم تقتصر على منح الاستقلال، الامر الذي تم بكثير من الانتظام بالنسبة للمستعمرات البريطانية، بل كان هناك دول تقاوم محاولة الاستقلال، لذلك كانت حروب التحرير ضرورية لحصول البلاد على استقلالها. ومثلنا على ذلك موقف فرنسة في شمال افريقية. فقد كانت تصر على ان شؤون بلاد المغرب العربي التي كانت تحت نفوذها هي شؤون داخلية لا يجوز حتى للأمم المتحدة ان تتدخل فيها. ومع ان المغرب وتونس لقيا شيئاً من العنت قبل ان تسلم فرنسة باستقلالهما، فان الجزائر التهمتها ثورة لا تزال تعاني من آثارها حتى اليوم، والتي استمرت ثماني سنوات (١٩٥٤ - ١٩٦٢) قبل ان تؤمن فرنسة بانها يجب ان تتخطى القرن التاسع عشر الى اواسط العشرين، وتقبل باستقلال الجزائر.

صحيح ان كثيراً من الاستقلالات تم بعد مغادرتي انكلترا (١٩٤٩)، لكن الاحاديث والبحوث والمناقشات كانت جميعها قد بدأت من قبل، وكانت قد اتخذت اطرها واسبابها وسبلها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد كانت قراءة الصحف البريطانية حول هذه الموضوعات مصدر تثقيف سياسي فكري لي. وكم رسمت لنفسي صورة لما كان يحدث في فلسطين، وكم كنت اضع هذه الصورة في مقابل الصور الأخرى. فارى شعبا يذبح في فلسطين، ولا تزال الزعامات الداخلية تختلف حول عضوية الهيئة العربية العليا بله رئاستها، والزعامات العربية تزود شعب فلسطين بالبيان تلو البيان وبالتصريح بعد التصريح، وكانت جميعها جوفاء ان لم نقل بلهاء. وكانت مرغريت، بحكم انها لم يكن لها عمل منتظم يلهيها او يشغل بعض وقتها، اكثر انغماساً في التفكير في موضوع فلسطين، واكثر تشاؤما بطبيعة الحال. وكان من الطبيعي ان نشغل اولاً باهلنا الاقربين ثم بالاصدقاء الادنين. ولكن الم يكن هؤلاء جزءاً من كل يشقى ويتعذب ويطرد من بيته ومأواه؟

وصلت مرغريت يصحبها رائد في ٢٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٤٩ الى لندن. وكنت قد قبلت، دون استشارتها دعوة لقضاء عيد الميلاد عند اصدقائي فرانك وماري اوستن وابنتهما الصغيرة (والوحيدة) مرغريت. كان الشتاء قد استقر في انكلترا فصلاً، وكان شتاء بارداً. ولم تكن تنتظر ان تذهب الى اسرة غريبة لقضاء عيد الميلاد. لكن لما وصلنا بكردج ودخلنا البيت، شعرت مرغريت حالا بانها بين اصدقاء. فالنار الكبيرة، والبيت الدافئ، والغرفة المرتبة التي هيأتها ماري لنا، والوجوه التي تكسوها الابتسامة، وسعال ماري من كثرة التدخين، والشاي ومعها ما يعد لعيد الميلاد من حلوى خاصة (وقد وصلنا قبيل موعد تناول الشاي) واحتفاء مرغريت الصغيرة برائد الطفل. كل هذا ادخل الى قلب مرغريت الكثير من السرور، بحيث انها قالت لي انني احسنت صنعاً بقبول الدعوة. وكانت أسرة لزلي لونغ، اصدقاء اوستن المفضلين في القرية، قد أعدت لنا في اليوم التالي غداء (قبل ليلة الميلاد) لطيفاً وكان لزلي وزوجته مثال الطيبة والرقة، فكان لهذا كله أثر منعش في نفس مرغريت التي كانت تشعر انها تركت فلسطين هاربة، وكانت متأكدة انها لن تعود اليها.

لكن الذي اقضى مضجعنا مرض رائد. فقد اصابه سعال شديد، لذلك اتفقنا على ان نختصر الفترة ونعود الى لندن بعد الميلاد ولكن قبل نهاية العام. وهكذا كان، وفي لندن، في ٧٨ فيفيان افنيو، حيث كنا نقيم، استدعت صاحبة المنزل طبيبة هي الدكتورة ماسترمان. ولم تستطع ان تعلل سبب السعال، ولكن الذي لفت نظرنا، نحن الاثنين مرغريت وانا، ان الطبيبة لم تصف نوعاً من انواعه السلفا، وكانت كلها حديثة، كما كانت الشيء الذي يتحدث عنه الناس. ألم تستعمل السلفا لعلاج تشرشل لما اصيب باحتقان بالرئة قبل ذلك؛ الم تستعمل لعلاج وديع (بيتر) كاتول، ابن معلمنا وزميلنا سليم كاتول، لما اصيب بالنومينية قبل مغادرتنا فلسطين. ولما سألت زوجتي الطبيبة عن سبب امتناعها عن استعمال السلفا ومشتقاتها كان جوابها غريبا علينا. قالت «نحن جمعية

من الاطباء نسمى هوموباثيتك (Homoeopathetic)، ونحن لا نؤمن بالعلاج الكيمياوي الاصل او التركيب. العلاج الذي نستعمله مستخرج من النباتات، من اعشاب وغيرها. وكما تريان فان كل طبيب منا يحمل في شنتته مئة انبوبة (أو يزيد). وهذه هي التي نعطيها للمرضى». ثم اعطتنا عدداً من الحبوب وقالت ان هذا يوضع في كوب من الماء ويسقى منه رائد تدريجاً جرعات صغيرة. والمهم ان تنخفض حرارته. واضافت: «وسأتي في الصباح لزيارته». كانت الدكتورة ماسترمان قد لبت نداءنا حول الثانية والنصف صباحاً. وجاءت حول الثامنة والنصف وسُرَّت بالنتيجة لان الحرارة انخفضت. وسألتها مرغريت عن استعمال السلفا فقالت انها، مثل بقية اعضاء الجمعية، لا تؤمن بها، لكن اذا كان ثمة اصرار من جهتنا لاستعمال السلفا فانها مستعدة لاعطائنا الوصفة اللازمة لشراء العلاج. لكن هي ليست مستعدة لتحمل مسؤولية ما قد يحدث.

وقد قبلنا رأيها. وبعد علاج استمر بضعة ايام، دون ان يزول السعال، جاءت هي واحدى زميلاتها، وقامت هذه - وهي اكثر خبرة - بفحص رائد فثبت انه مصاب بالسعال الديكي.

كانت مرغريت قد نصح لها في القدس ان تبتاع تذكرة سفر درجة اولى على الباخرة كنتون، لأن ذلك اريح، ولانه توجد غرفة خاصة للعناية بالصغار على الباخرة. فعلت ذلك. وكانت نتيجة وجود الغرفة الخاصة واجتماع رائد باطفال كان بينهم من هو مصاب بالسعال الديكي (الشهقة) ان اصابته العدوى. وبعد ان عرف مرضه كان العلاج بسيطاً لكنه قاس. كان يجب ان يظل في البيت كي يحتفظ جسمه بدفئه الطبيعي، وكان يجب ان يغذى. الاول كان بسيطاً، اما الثاني فكان مشكلة لان رائد كان صعباً من هذه الناحية. وعلى كل فقد حجز في البيت نحو ثلاثة اشهر، واظن انه خرج في صحبتنا لاول مرة، وبعد الاذن من طبيبته، في الاسبوع الرابع من شهر آذار / مارس ١٩٤٨ في يوم ربيع دافئ واخذناه - وكانت كذلك الزيارة الاولى لامه - الى كيو غاردنز، حديقة النباتات والاشجار المحلية والغريبة في لندن، وهي على ما أعرف من افضل حدائق النباتات في العالم.

وقد أردت لمرغريت، وارادت هي طبعاً، ان ترى شيئاً من المدينة والبلاد. لذلك كانت تنضم الى الرحلات التي ينظمها المجلس الثقافي البريطاني للزوار - خاصة المتصلين بالثقافة بشكل ما - لزيارة معالم لندن والجوار. وقد افادت مرغريت من هذه الرحلات كثيراً، لانها كانت تقرأ عن الرحلة قبل القيام بها. ومرغريت كانت تحب القراءة الجدّية.

كنت قد كتبت كثيراً اصف لمرغريت ما يمكن ان تلقى في لندن من طقس غريب وايام لا تظهر فيها الشمس. لكن مرغريت لم تستوعب الذي قلته، او لعلي لم احسن التفصيل في الوصف. لذلك كان شر ما ضايقها، وقد وصلت لندن في عز الشتاء: الظلام الذي كان يسود المدينة بدءاً من حول الثالثة مساءً. ايام الشتاء اصلا قصيرة، وانعدام الشمس يقصر ساعات النور الطبيعي. لذلك كانت تذهب احياناً للتبضع والتجول في المدينة ولزيارة بعض معالمها الهامة، لكنها كانت تعود متضايقة. الا ان الامر تبدل بدءاً من شهر نيسان / ابريل. فالربيع له ايامه الخارقة الجمال في انكلترا.

كان السيد ويلمان وزوجته قد ارتاحا الى مرغريت ورائد. لذلك اقمنا عندهما بدل الشهر سنة كاملة. وكان الرجل يعنى بحديقته الخلفية لزراعة الخضار، مثله مثل غيره من البريطانيين الذين تعلموا ذلك اثناء الحرب. فقد اصبحت الخضار عزيزة في الاسواق لان وسائل النقل الخارجي وجهت نحو المجهود الحربي، لذلك أخذ الناس يهتمون بهذه الحديقة الخلفية، واصبح يشار اليها بانها «حديقة المطبخ». وقد اعجب الامر كثيرين فاحتفظوا بدرس الحرب الى أيام ما بعدها. واصبح، في نظر من يعرف الريف قبلاً، هذا المنظر الجديد مدعاة للسرور. فالارض، على صغرها، التي كانت مهملة اصبحت الآن تزينها شجيرات الفاصوليا وجباب البطاطا الخضراء وما الى ذلك من خضار.

ولان رائد كان صغيراً لا يذهب الى المدرسة فقد قامت بينه وبين المستر ويلمان صلة متينة، اذ كان الرجل يصطحب رائد الى الحديقة حيث كان هذا يساعد ذاك في اعماله.

وكانت اخبار فلسطين تطغى على كل شيء. الاخبار المفصلة لم تكن تنشر بشكل كاف، لكن رسائل الأهل والاصدقاء كانت تصلنا بانتظام. وكانت بريطانية قد اعلنت في خريف ١٩٤٧ بعد صدور قرار التقسيم (في ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧) بأنها ستتخلى عن انتدابها على فلسطين اعتباراً من ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨، وتترك للأمم المتحدة قضية اقامة الدولتين العربية واليهودية / الصهيونية.

وهنا كانت القرارات السرية والعنيفة للدول العربية وجوهرها منع قيام الدولة اليهودية، لأن الهيئة العربية العليا وجامعة الدول العربية قررتا رفض قرار التقسيم. ولكن كيف تحول الدول العربية دون تنفيذ ذلك القرار؟

السبيل الوحيد هو المقاومة العسكرية. والدول العربية - الأعضاء في جامعة الدول العربية يومها - اعلنت ذلك، وكان عندها، بحسب البيانات الخطابية، من القوات ما يكفي لذلك. ولكن متى يبدأ العمل للحيلولة دون قيام الدولة اليهودية - أي التقسيم اصلاً.

اذا تقدمت الجيوش العربية قبل ١٥ أيار / مايو فمعنى هذا انها تعلن الحرب على بريطانية. واذن لا بد من الانتظار حتى انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، أي الى ما بعد ١٥ أيار / مايو.

واعدت الجيوش على الحدود، واتفق على ان يكون الملك عبدالله القائد العام، لكن بدون سلطات. وكان المفروض ان يقوم تعاون تام بين الجيوش العربية، ولكن ذلك لم يحدث. وانا لا انوي التحدث عن الحرب الاولى (١٥/٥/٤٨ - ١١/٦/٤٨) والهدنة الاولى (١١/٦/٤٨ - ٩/٧/٤٨) وتجدد القتال ٩/٧/٤٨. انا اود ان اذكر هنا قصصا شاعت ولعلها كانت اكثر من قصص في الواقع. منها (أولاً) ان الجيش السوري لم يلق بقوته في الهجوم على فلسطين لان سورية كانت تخشى ان يهاجم الجيش العراقي سورية ويحتلها تمهيداً لانشاء دولة الهلال الخصيب التي كان نوري السعيد قد دعا اليها. (ثانياً) ان الجيش المصري الذي اتجه عبر سيناء الى فلسطين كان يعلن عن احتلاله لبلدان عربية مثل بير السبع وبيت لحم (وان كان اسمها يذكر بالانكليزية أي بيرشيبا وبيت لهم). (ثالثاً) أنَّه كان هناك سبع واربعون مستعمرة يهودية في النقب لكن الجيش المصري لم يطلق ولا قنبلة على أي منها. (رابعاً) كانت التعلميات لدى الجيش المصري ان يسرع الى القدس ليحتلها قبل الجيش الاردني. لكن الجيش المصري صدرت اليه التعليمات ان يتوقف عن السير عند وصوله بيت لحم. (خامسا) ان الجيش العراقي الذي وصل اواسط فلسطين وكان يستطيع ان يصل الى الساحل وبذلك يشطر المقاومة اليهودية / الصهيونية شطرين توقف. ولما سئل القائد لماذا لم يستمر في سيره نحو البحر. قال: «ماكو اوامر» - وماكو باللهجة العراقية معناها «لا يوجد»، أي انه لم يكن لديه اوامر تمكنه من السير غرباً. (سادساً) ان الجيش الاردني، الذي كانت قيادته بيد غلوب باشا الانكليزي، توقف في القدس عند المستشفى الايطالي والشيخ جراح، أي عند ما اصبح يسمى في الثمانينات الخط الاحمر الذي لا يُتَجاوَز. لكن سنة ١٩٤٨ لم تكن عبارة الخطوط الحمر قد استعملت. (سابعاً) قيل، والعهدة على الراوي، ان السلاح والذخيرة اللتين كانتا في ايدي الجنود المصريين كانت فاسدة. وقيل، والعهدة على الراوي ايضاً، انه كان ثمة خلاف بين اصحاب الروايات في سبب فساد الاسلحة. فالبعض كان يعزو ذلك الى نية سيئة مبيّتة، فيما كان البعض الآخر يرى ان السماسرة غشّوا في البيع، ولست اذكر الآن فيما اذا كان هناك اشياء اخرى رُوِيَت ونُسِيَت.

وكانت الرسائل التي تأتي من فلسطين مطمئنة اكثر من اللازم. والذي اود قوله الان اننا نحن، الذين كنا بعيدين، كنا نخشى العقبى السيئة.

كان اخواي، الفرد وجورج، في فلسطين الى حزيران / يونيو ١٩٤٨. كانت رسائلهما تحدثنا عن اقتراب النتيجة الحاسمة في مصلحة العرب. واذكر رسالة وردتني من أديب عتقي يقول فيها ما معناه انني اجلس الآن وانا اشرب كأس رجال المقاومة الذين يُنْزِلون بصبية اليهود انواع القتل، وانا واثق انهم سينتصرون عليهم في النهاية.

ولكن ماذا كان يجري في الواقع؟

ان بعض الدول العربية كانت حديثة عهد بالاستقلال والاتصالات الدولية؛ ان العسكريين من العرب لم يشركوا في التخطيط الاستراتيجي ولا التكتيكي، وهذا طبيعي لانه لم يكن هناك مجال لتخطيط من أي نوع؛ فالقيادات العربية - على اختلاف درجاتها وانواعها ونظمها - لم تدرك الموقف على حقيقته - لا بالنسبة للدول ذات العلاقة ولا بالنسبة للقوة (الاسرائيلية) والتنظيم اليهودي / الصهيوني الذي كان يعمل منذ العقد الثامن من القرن التاسع عشر.

وبسبب ما كان عند اليهود الصهيونيين من تخطيط وتنظيم واستعداد افادوا من الهدنة الاولى (٤٨/٦/١١ - ٤٨/٧/٩)، ومدتها اربعة اسابيع، في الحصول على اسلحة وعدة وذخيرة من مصادر عالمية مختلفة. ولذلك لما عادت الحرب جذعة (٤٨/٧/٩) كانوا اقوى عدة وعدداً واكثر تنظيماً داخلياً اداريا وسياسياً. فيما كان العرب يأملون بالمساعدة من الولايات المتحدة وبريطانية (ولعلهم كانوا يأملون بذلك من غيرهما) وهما الدولتان اللتان خططتا لقيام وطن قومي لليهود في فلسطين اولاً، وهو الذي كان المخطط الاساسي للدولة الصهيونية، بدءا من جزء من فلسطين، وينتهي الامر بالدولة الصهيونية في فلسطين كلها.

وقبل الخامس عشر من أيار / مايو ١٩٤٨ كانت الحكومة البريطانية قد تخلت عن اماكن متعددة من فلسطين، وهذه احتلتها القوات الصهيونية، وفي الرابع عشر من الشهر اعلن قيام دولة اسرائيل. ودارت رحى حرب غير متوازية القوة والعدة والتنظيم. وهنا بدأنا نحارب الجزع والخوف على من كان لنا في الوطن. اختي ماري وزوجها اميل سعد كانا يقيمان في يافا، الفرد وزوجته ملي اسحق كانا يسكنان في القدس في بيتنا القديم في المصرارة وكان جورج، الاخ الاصغر، يقيم معهما. والدا مرغريت (حنا سمعان شهوان وليزا اكلر) كانا قد تركا منزلهما في الشيخ جراح حتى قبل مغادرة مرغريت القدس الى لندن، واستقرا في منزلنا على طريق بيت لحم. وكان جوزيف واميل يقضيان بعض الوقت مع الوالدين؛ لكنهما كانا يزوران بيت الاخ الاكبر اوجين ووجته سيدة كليس اللذين انتقلا مع ابنهما جوني وابنتهما جانيت الى داخل المدينة عند اقارب الزوجة.

هذه هي الصورة التي كنا نعرفها، والتي كانت تصل خطوطها الينا في رسائل مقتضبة. لكن بعد ١٥ أيار / مايو لم تصلنا رسائل، ولم نلتق احداً في لندن يمكن ان نعرف منه شيأ. اين هم؟ هل هم احياء؟ هل اصابتهم، او بعضهم، واحدة او اكثر من هذه القنابل التي كانت تتساقط على الاحياء العربية؟ عرفنا، من الصحف، ان اليهود هاجموا احياء يافا القريبة من تل ابيب، فهل كان من نصيب ماري واميل ان تصيبهما او ان تصيب احدهما، شظية او رصاصة. ماذا اصاب أم مرغريت العجوز، وقد هجم اليهود على البقعة الفوقا حيث كان بيتنا؟

كنت قد تلقيت رسالة رسمية من حكومة فلسطين مؤداها انه لمناسبة انهاء الانتداب، فقد صرفت الحكومة جميع الموظفين اعتباراً من ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨. وقد حسب لكل موظف حقه من مكافأة انتهاء الخدمة او معاشه التقاعدي، بحسب المدة التي قضاها في العمل في حكومة فلسطين. وقد نالني انا تقاعد، ومعه مكافأة. لكن لم اتلق المكافأة الا بعد نحو عشرة اشهر. فقد نقلت أوراق حكومة فلسطين الى قبرص، ووضعت الاوراق المتعلقة بي في غير الصندوق المخصص لها. وقد كان لسامي رزيق، واحد من اوائل تلاميذي في مدرسة عكا

الثانوية واعز اصدقائي واصدقاء اخي الفرد، الفضل في نبشها، فوصلتني المكافأة، وكانت نحو خمسمئة جنيه استرليني، في شهر آذار / مارس ١٩٤٩. فكانت يومها معينا لي واي معين، وانا مع مرغريت ورائد في لندن.

ولعل قضية التقاعد والمكافآت تحتاج الى توضيح. فكثيرون، حتى من موظفي حكومة فلسطين السابقة، الاحياء منهم والذين انتقلوا الى رحمة العزيز القدير، يعتقدون ان الحكومة البريطانية تدفع لنا المكافآت والمعاشات من خزينتها. الواقع ان هذا خطأ.

لما قررت الحكومة البريطانية ان تنهي الانتداب على فلسطين، واعلنت ذلك، اخرجت فلسطين من منطقة النقد الاسترليني. كان ذلك في خريف ١٩٤٧. كان لفلسطين يومها احتياطي محفوظ في المصارف في بريطانية يبلغ اثنين وتسعين مليون جنيه فلسطيني (أي اثنين وتسعين مليون جنيه استرليني). هذا المبلغ احتجزته بريطانية كي تقوم بما يترتب عليها من واجبات مالية كانت مسؤولية حكومة فلسطين. مثل الديون والمكافآت ومعاشات التقاعد. من هذا المبلغ كنا، ولا يزال الاحياء منا، نقبض ما يترتب لنا.

والذي حدث هو ان حكومة (اسرائيل) اتفقت مع الحكومة البريطانية على التكفل بدفع ما يترتب عليها للموظفين السابقين من اليهود، لقاء مبلغ دفع لها نقداً. اما الباقون فقد كانوا، ولا يزالون، يقبضون مرتباتهم في البلد الذي يقيمون فيه.

بالنسبة لي اصبحت منذ منتصف ايار / مايو بدون عمل. وقد كتبت الى صديق لي في صيف سنة ١٩٤٨ وصفت نفسي بقولي: «انا اليوم لا دولة لي ولا بيت لي ولا عمل لي». كانت الرسالة بالانكليزية فقلت له: I am now stateless, homeless and jobless. ولم يكن هذا بالامر الهين. صحيح انه كان لا يزال امامي ثلاثة شهور احصل خلالها على بقية ما لي من بعثة المجلس الثقافي البريطاني. ولكن ماذا بعد ذلك؟

في شهر حزيران / يونيو عرفنا عن اماكن وجود بعض اقاربنا. والدا مرغريت وجوزيف واميل في لبنان... بين بيروت وغوسطا. جاء الخبر من جوزيف في رسالة مكونة من نحو عشرة سطور فقط. المهم انهم احياء. وبعد مدة وصلتنا رسالة من الفرد انه هو وزوجته انتقلا الى السلط في الاردن (ولم يكن الفرد يعرف يومها انه ينتقل الى مكان قريب من الموطن الأصلي لآل زيادة الذين هجروه الى الناصرة قبل ما يقرب من أربعة قرون). وعرفنا ان زوجته تنتظر مولوداً. اخبرنا ان اختي ماري وزوجها قد ذهبا (من يافا) الى دمشق على الغالب. وان ماري ايضاً تنتظر مولوداً. لكنه لم يعد يسمع عنهما شيئاً.

اقاربي الاصليون زيادة (من جهة الأب) وشرش (من جهة الام) ظلوا في الناصرة. ذلك بان جيش الانقاذ كان، اثناء الحرب العربية - الاسرائيلية الاولى، هو المسؤول عن الجليل. فلما حشر واضطر الى الخروج متجها نحو الشمال كان ما سمي جيش الدفاع الاسرائيلي قد طوق الجليل، فانحشر أهل الناصر وبقية مدن الجليل وقراه في فلسطين. وظلت الناصرة، ولا تزال، فيها اكبر تجمع عربي في الدولة الصهيونية. (أهل عكا وحيفا هُجّروا في وقت مبكر، مثل أهل يافا.

اذكر انني كتبت رسالة الى الفرد سكران (زيادة) احد انباء عمومتي الى الناصرة واخرى الى أخي في القدس، فعادتا الي في لندن لانني عنونتهما فلسطين. لذلك لا اخبار من هناك.

اعود الى مشكلتي. من الضروري الحصول على عمل، والافضل ان يكون في انكلترا لبعض الوقت، كي اتم العمل في رسالتي (للدكتو راة). لكن ليس ذلك ضرورة.

كنت قد عرفت ان بعض الاصدقاء من العاملين في حقل التاريخ قد التحق بالجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم) او بوزارة التربية السورية. فكتبت الى اثنين مستنجداً مستفسراً. لم اتلق جوابا. بعد سنوات، لما سكنت

في بيروت، عرفت ان احدهما كان قد ترك الجامعة، لذلك لم يتلق رسالتي قط. اما الآخر فقد قال لي: «ما انا بعرف انه مافش شغل. شو بدك اياني اكتب لك؟».

والتقيت في تلك الاثناء متى عقراوي، وكان قد اصبح اول رئيس لجامعة بغداد التي انشئت رسمياً سنة ١٩٤٨، مع ان عدداً من كلياتها ـ الطب والقانون ودار المعلمين العليا وكلية الملكة عالية ـ كان موجوداً من قبل. كنت قد تعرفت الى متى عقراوي لما زارنا في الكلية العربية (١٩٤٧)، وكان عضوا في بعثة تشمله ومستر توماس والسيد عبدالمجيد، كلفتها الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية دراسة قضايا التربية ومشكلاتها في الدول العربية ووضع تقرير في ذلك. لما التقيت متى عقراوي في لندن تحدثت واياه عن احتمال العمل في جامعة بغداد. كان بيننا حديث طويل خلاصته ان كلية الاداب لا تحتاج الى مؤرخين مختصين بالتاريخ العربي. ان حاجتها الماسة هي اساتذة للتاريخ القديم، وهذا يعني دراسة اللغات السامية القديمة. وقال لي في نهاية الحديث انه قد يتمكن حتى من الحصول لي على بعثة من جامعة بغداد كي اقضي بعض الوقت في انكلترا لدرس بعض من هذه اللغات ووضع رسالة في تاريخ الشرق القديم.

كان العرض مغرياً، لكنه كان صعب التحقيق. فهناك اسرة، ولو انها صغيرة، يجب ان يدبر أمرها. على كل شكرته، وقابلته ثانية، بناء علي اقتراحه، واعتذرت له.

وكان ان زرت كمبردج. فقد كان هناك من اصدقائنا ـ وصفي حجاب في كلية ترنتي واسعد نصر في سدني سسكس وسمير الشهابي في ترنتي هول وسيمون سكسك في امانول.

زرت، اثناء وجودي هناك ارثر ج. اربري الذي كان استاذ العربية في الجامعة (بعد ان تولى استاذية العربية في لندن، واستاذية الفارسية في كمبردج). زرته وتحدثت اليه حول موضوع رسالتي. كان هذا في خريف ١٩٤٧، قبل ان تصل مرغريت الى لندن. ولما جاءت مرغريت الي انكلترا ذهبنا معاً الى كمبردج للزيارة. (هذه المرة طبخت مرغريت ملوخية وأرزا في شقة وصفي حجاب، وقد حضر العشاء أربعة عشر شخصاً، بينهم الكاتبة المشهورة الآن ايريس مردوخ).

في هذه الزيارة زرت اربري. كانت قضية الحصول على عمل قد ملكت علي تفكيري. وقبل ان اشير الى هذه القضية بالذات سألني اربري فيما اذا كنت احب ان اساعده في تدريس العربية في الجا معة. وبعد ان تحدثت مع مرغريت قبلت ذلك، لان هذا يساعدني، على ما ذكرت، في انهاء عملي في رسالتي.

لذلك شعرت بعد تلك الزيارة بشيء من الراحة. كان احد النشاطات التي قمنا بها في ربيع سنة ١٩٤٨ عقد مؤتمر لرابطة الطلاب العرب في بريطانية. عقد المؤتمر في لفربول في دربي هول بين ١١ و١٥ نيسان / ابريل (١٩٤٨). اشترك في المؤتمر ستون طالباً عربيا كان بينهم اثنتا عشر طالبة، وكان الجميع اعضاء في الرابطة.

كان رئيس الرابطة يومها وصفي حجاب وكان سالم خميس امين سرها، فيما ترأس اللجنة الفرعية لقضية فلسطين سعيد النجار.

افتتح المؤتمر في الساعة الرابعة والنصف من يوم الأحد ١١ نيسان / ابريل فوقف الاعضاء دقيقتين حداداً على اولئك العرب الذي سقطوا في فلسطين. ثم تكلم الرئيس عن غايات المؤتمر وتلاه ادورد عطية، امين سر المكتب العربي في لندن فالقى خطبة الافتتاح. ومما جاء فيها قوله: «ان هذا المؤتمر يفتتح اليوم والهم المخيم عليه هو النضال العربي لتحرير فلسطين. ان الآلاف من مواطنينا يحاربون ويسقطون في ميادين القتال دفاعاً عن الحق وعن ابسط الحقوق الانسانية ـ حق شعب في بلاده».

وتقدم بعد ذلك كل من امين السر (سالم خميس) فقدم تقريره، ثم بول خلاط الذي احاط الحاضرين علماً باحوال الرابطة المالية.

وكانت الكلمة لرئيس لجنة فلسطين، سعيد النجار، الذي اعلن ان اللجنة قد جمعت ١٢٠٠ (الفا ومئتي) جنيه استرليني، وأضاف ان طلاب جامعة لفربول جمعوا مئتي استرليني. هذا المبلغ خصص لشراء عربتي اسعاف ومعدات طبية وجراحية، وسيرسل هذا كله الى فلسطين كي يستعمله المجاهدون. وقد اقترحت اللجنة الفرعية (لفلسطين) على الفتيات ان يتدربن على التمريض والاسعاف.

اما بقية البرنامج فكان على النحو التالي :

الأثنين ١٢ نيسان / ابريل :

٩,٣٠ صباحاً ـ محمد رضوان وموضوع حديثه قضايا التربية العربية (رئيس الجلسة : سعيد النجار)

١١,٠٠ صباحاً ـ نقاش بقيادة الدكتور طاهر الخميري حول : قضايا الشمال الافريقي (رئيس الجلسة : خليل معلوف)

٤,٠٠ (بعد الظهر) : حفل شاي بدعوة من المجلس (الثقافي) البريطاني.

الثلاثاء ١٣ نيسا ن / ابريل :

٩,٣٠ صبا حاً زيارة للاماكن المهمة (دخل في الزيارة تفقد مصنع صنلايت للصابون)

٢,٣٠ بعد الظهر ـ (السيدة) لويزا فليحان دافين، ومو ضوع حديثها النساء العربيات (رئيس الجلسة : سالم خميس)

٧,٠٠ مساءً حضور رواية تمثيلية

الاربعاء ١٤ نيسا ن / ابريل :

٩٣٠ صباحاً نقولا زيادة ـ وموضوع حديثه اساليب الحكم العربية وأنظمته (رئيس الجلسة : وصفي حجاب)

١١,٠٠ صباحاً نقاش تولاه سعيد النجار ومكرم حنوش ومحمد مهدي حول: جامعة الدول العربية والسياسة الدولية (رئيس الجلسة : انيس القاسم)

٢,٣٠ بعد الظهر : الاجتماع السنوي للرابطة والقرارات وانتخاب اللجنة الجديدة.

٦,٣٠ مساءً : عشاء ختامي

٨,٠٠ مساءً لقاء اجتماعي.

الخميس ١٥ نيسان / ابريل :

غادر المندوبون دربي هول قبل ساعة الزوال.

السيد ادورد عطية والدكتور طاهر الخميري، كانا من العاملين في المكتب العربي في لندن، وكان عنوانه 92 Eaton Place. وكان المسوول عنه هو موسى العلمي، مدير المكاتب العربية التي انشأت في سنة ١٩٤٦ـ١٩٤٧ للدفاع عن قضية فلسطين. وكان من العاملين فيه وصفي التل وانور النشاشيبي ويوسف زعبلاوي.

ولست احتفظ عندي باسماء جميع الطلاب الذين حضروا المؤتمر ولكن استطيع ان اضيف، الى الاسماء التي وردت في برنامج المؤتمر، ميّ حداد ومرغريت زيادة. وقد حضر الافتتاح ابننا رائد، بصحبة امه وابيه، ونشرت جريدة إيفننغ اكسبرس (Evening Express) التي تصدر في لفربول الخبر في عددها الصادر بتاريخ ١٤ نيسان / ابريل وارفقته بصورة لاربع سيدات، الواحدة هي مرغريت (ام رائد) والثلاث كن، حسب رواية الجريدة، يبدين اعجابهن برائد زياده «ابن احد الطلاب».

بعد ان اطمأننت الى انني سأحصل على عمل، ولو لسنة واحدة، يكفيني مع زوجتي وابني، بدأنا، فضلاً عن الاهتمام برسالة الدكتوراة وقضية فلسطين، بالعناية بوجودنا في لندن. وكان يهمني، بشكل خاص، ان تفيد

مرغريت من ذلك. وهنا، ومع فصل الربيع واقتراب موعد الصيف، اعتادت مرغريت تدريجاً على التجول في المدينة الكبيرة وزيارة معالمها وحضور التمثيليات والاوبرات. وزاد في تمكيننا من الاستفادة هو اطمئناننا على اهلنا - على الاقل من حيث اماكن وجودهم.

كنت اقلب، قبل ايام، مجموعة من الرسائل تعود الى تلك الايام. وهذه الرسائل تشمل ماكتبته انا من لندن الى مرغريت من اوائل ايلول / سبتمبر ١٩٤٧ الى أواخر كانون الاول / ديسمبر من السنة ذاتها، كما تشمل جميع الرسائل التي كتبتها مرغريت لي من القدس للفترة ذاتها. وبدءاً من سنة ١٩٤٨ كانت الرسائل التي تخرج لندن - اما من مرغريت او مني - ترسل الى الأهل والاصدقاء في القدس لكن بعد نيسان / ابريل، وخاصة بعد ايار / مايو من السنة ذاتها وزعت هذه الرسائل على القدس (جورج أخي واوجين اخي مرغريت) والسلط (الصلت) واريحا (أخي الفرد وزوجته) وبيروت وغوسطا (والدي مرغريت واخويها) ودمشق (اختي ماري وزوجها) واماكن اخرى الى بعض الاصدقاء خاصة اديب عتقي وحنا صلبب. وفي المجموعة وجدت الرسائل التي تصلنا من هؤلاء الاشخاص.

في الرسائل الاهلية تطمين عن صحة الجميع وشكوى من وقوف الحال. وقد كان لدينا وفر معقول سببه انني كنت في السنة الاولى من وجودي في لندن (١٩٤٧-١٩٤٨)، ولم تكن هذه قد انتهت، قد حصلت على بعثتين او على الاصح اجازة دراسية بمرتب كامل (من ادارة المعارف) وبعثة من المجلس الثقافي البريطاني. ومن هنا لم استغرب ان اجد بين هذه الرسائل واحدة من جوزيف يقول انه تسلم مبلغ العشرين جنيها واعطاه لوالدته، واخرى فيها شكر من جوزيف لانه تلقى منا مبلغاً، وثالثة من صديق لي في بيروت ينبئني بانه دفع، بناء على تكليفي، مبلغاً متواضعاً لواحد من الاقرباء واخذ منه ايصالاً، ويرجوني ان ادفع المبلغ المقابل لحسابه في مصرف في لندن. ولكن الذي قبض المبلغ كتب يشكو بانه لا يزال مديناً بمبلغ آخر ويأمل ان لا ابخل عليه بالسداد. ووجدت رسالة من توفيق قعوار، الذي كان طالباً في لندن، يطلب مني ان ادفع له ثلاثين جنيها استرلينيا وهو يرتب امر دفعها لاخي الفرد في عمان. وقد تم ذلك.

والطف من هذا كله هو الرسائل التي كانت تصلنا من الاهل والتي كانوا يطلبون فيها ان نبعث لهم كاتالوغات للنجارة والتنجيد وعدة صناعة من النوع الجيد للحفر والنقش وكتبا صالحة للرياضة والكشافة.

وقد وجدت انني كنت يومها ابعث باحاديث اذاعية للاذاعة الفلسطينية ولاذاعة الشرق الادنى (اولاً في فلسطين ثم في قبرص لما انتقلت اليها بعد ١٥ أيار / مايو). والطف من هذا بعد انني كُلِّفتُ ان اكتب احاديث في الرياضة البدنية وخطابات تصلح لمناسبات ومهرجانات رياضية لجوزيف اخي مرغريت لما عين في صيف ١٩٤٨ مدرساً للرياضة البدنية في كلية سوق الغرب (بلبنان).

ولعل مما يدل على شيء من اعتياد الامور اننا احتفلنا بعيد ميلاد رائد الثاني (أيار / مايو ١٩٤٨) في بيت المسز ويلمان (78 Vivian Anenue) وكان ممن حضر هذا العيد يوسف شديد وزوجته، وقد كان يومها مستشاراً في السفارة اللبنانية في لندن، وسالم خميس وعبدالكريم غرايبه وميخائيل حداد.

وفي سنة ١٩٤٨ اقيمت الالعاب الاولمبية في لندن (وكانت قد تعطلت، بسبب الحرب، سنتي ١٩٤٠ و١٩٤٤). وابتعت تذاكر لمرغريت كي تشاهدها. لكن بريطانية كانت فقيرة بعد حرب طويلة الامد، وقبل مشروع مارشال، لذلك فان الالعاب لم ترافقها البهجة والعظمة والفخفخة التي عرفتها انا سنة ١٩٣٦ في برلين، او التي رأيناها على التلفزيون فيما بعد.

مشكلتي انا بالنسبة للكتوراه انني كنت، على نحو ما ذكرت، اعمل منفرداً دون ارشاد. صحيح كنا نحضر

السمنار الاسبوعي، لكن السمنار لم يكن فيه تدريب، بل كان من المألوف ان يقدم فيه موضوع (هو نتيجة بحث) للمناقشة. وكل ما فعله رايس لي ان اقنع ليفين، الذي كان مسؤولاً عن قسم المخطوطات العربية في مكتبة المتحف البريطاني (المكتبة البريطانية فيما بعد) بان يسمح لي بالاطلاع على المخطوطات التي تلزمني. كانت المخطوطات قد اعيدت جميعها الي المتحف من مخابئها لكنها لم تكن قد اعيدت الى خزائنها. لذلك كان يسمح لي بالعمل ساعتين وبعد ظهر ايام العمل، وكان المخطوط اللازم ينقل اليّ من المكان المؤقت له الى ممر ضيق اعطيت فيه كرسيا وطاولة صغيرة. والمهم انه كان فيه من النور ما يكفي.

كان من الاماكن التي زرناها بلاد شكسبير. ذهبنا في موسم شكسبير (١٩٤٨) واقمنا نحو اسبوع في ستراتفورد (أبن افون)، وحضرنا ثلاث تمثيليات شكسبيرية : مكبث وتاجر البندقية وتطويع الشرود. وتجولنا لا في منطقة شكبير فقط، بل زرنا منطقة كوتسوالد (Cotswald)، وهي منطقة المراعي الجيدة، لذلك فقد كانت تنتج الانواع الجيدة من الصوف منذ القرن السادس عشر.

كان رائد ينمو بين ايدينا. وقد ارسلناه الى دار حضانة، فلم يبق فيها سوى بضعة ايام. لكن رائد اصبح صديقاً للمستر ويلمان. هذا الرجل الطيب كان يأخذ رائد معه الى حديقة المنزل وهناك يعلمه اسماء الخضار والزهور المزروعة ويتحدث معه بحيث ان رائد اصبح يجيد النطق بالانكليزية والتعبير عن اعماله ورغباته. وكان رائد يحب ان يذهب مشاوير معنا اما مجتمعين او منفردين. ولعله كان يفضل ان يكون رفيق واحد منا فقط، اذ انه كان يضمن عندها ان الانتباه ينصرف له.

وحضرت مرغريت دروسا نظمتها لها جمعية مدارس الحضانة (البريطانية). فكانت تذهب الى مركز الجمعية في 1, Park Crecent - Portland Place WI كما كانت تزور مدارس حضانة للمراقبة وحتى للتمرن على العمل بحد ذاته.

ومن هنا كانت حياتنا في ربيع سنة ١٩٤٨ وصيفها فيها كثير من الفائدة والنفع، مع ما كان يرافق هذا كله من الحسرة والألم على فلسطين التي كان اليهود يقضمون منها أجزاء حتى بعد توقف القتال عند الهدنة الثانية.

لما وصلت الى لندن سنة ١٩٤٧ كانت حكومة العمال، بزعامة اتلي، تدير البلاد منذ ان فازت في الانتخابات سنة ١٩٤٥ (واستمر اتلي رئيساً للوزارة الى ١٩٥١). وكانت قد بدأت سياسة التأميم. ولم يكن لنا في هذه الاشياء نصيب. لكن الفائدة التي عادت علينا في انكلترا جاءت من الضمان الصحي، الذي وضع موضع التنفيذ في شهر أيار / مايو ١٩٤٨. اذكر ان رائد اخذ الدفعة الاولى للتطعيم الثلاثي ودفعنا ثمنها، لكن لما عدنا الى الدكتورة ماسترمان، بعد شهر، وكنا قد قيدنا انفسنا معها، اخبرتنا ان التطعيم اصبح مجانياً. والواقع اننا افدنا كثيراً لما اصيبت مرغريت بالأم شديدة في ظهرها في كمبردج وعولجت مجاناً. وكان طبيبنا هناك الدكتور سمل. وكان هو يحيل مرغريت الى اطباء العظام والاعصاب وما الى ذلك.

وفي شهر حزيران / يونيو جاءتني رسالة من جامعة كمبردج فيها ان قسم اللغات الشرقية يود ان يعينني قارئاً للعربية فيه، وان المرتب هو اربعمئة جنيه استرليني سنوياً، والعقد لسنة واحدة، وقد تجدّد، وقد قبلت بطبيعة الحال.

وفي الصيف بدأنا نبحث عن شقة نقيم فيها في كمبردج، وقد اعاننا سيمون سكسك على ذلك، واستأجرنا شقة عند مس ليلتشيلد في ٢٨ سانت اندروز. ونقلنا اليها في الخامس عشر من ايلول / سبتمبر ١٩٤٨.

كان لنا في جامعة كمبردج اصدقاء، كان وصفي قد عاد الى البلاد، ووجد عملاً في حلب، وكذلك عاد سالم خميس ووجد عملاً في الجامعة الاميركية. لكن ظل هناك سمير الشهابي واسعد نصر وسيمون سكسك. كانوا

يزوروننا ونستمتع بوجودهم. خاصة لما اصيبت مرغريت بالام الظهر واصبح الخروج من البيت متعذراً عليها. كانت زيارات هولاء الاصدقاء مدعاة للراحة والغبطة. وقد زارنا بعض من الاصدقاء من لندن وقضوا عيد الميلاد في بيت قريب من بيتنا. كما زارنا الدكتور كامل حمارنة، بناء على توصية من صهري اميل سعد. وكانت هذه الزيارة بدءاً لصداقة متينة لا تزال قائمة. وانا، كلما زرت عمان، قصدت منزل كامل لاستمتع بحديثه وافيد من معرفته لشؤون البلد.

كانت شقتنا في الدور الأعلى من بيت قسم قسمين كانت صاحبته تقطن الدور الاسفل وتؤجر الدور الاعلى. وقد كانت المس لِتلَشيلد لطيفة انيسة. وكانت تحب رائد، لذلك كانت تسمح له باللعب في حديقة منزلها الخلفية. فهي لم تكن تقدر على العناية بحديقة مطبخ فيها.

كان في كمبردج جمعية عربية، اذ كان هناك عدد كبير من الطلاب العرب، منهم عبداللطيف النشار (مصر) ورحمة الله (السودان) فضلاً عن آخرين نسيت اسماءهم، وقد اسهمت في الجمعية لا مشاركة فحسب ولكن بالقاء محاضرة والاسهام في ندوة. اما المحاضرة فقد القيتها يوم الاربعاء (وكان هذا يوم النشاط الثقافي - الاجتماعي للجمعية) ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٨ وكان موضوعها «العرب والثقافة الغربية: الضغوط ورد الفعل».

كانت ثمة مناسبات اخرى تحدثت فيها، ولكن عندما اتذكر الحديث الذي القيته في مؤتمر رابطة الطلاب العرب في لفربول عن اساليب الحكم ونظمه في العالم العربي والمناسبتين اللتين اشرت اليهما اراني وكأني اتحدث اليوم، كما اذكر الحديث الذي القيته في غزة (للمجلس الثقافي البريطاني) سنة ١٩٤٦ بعنوان «نوافذ». النوافذ والعرب وثقافة الغرب يدوران حول نقطة واحدة، على تباعد المكانين والزمانين. العرب لم يتلقوا. لم يسمحوا لانفسهم ان يتلقوا. ما يكفي من تجارب الغرب ومعرفته وعلمه. لم يكادوا يتصلون به ويتعرفون على ما عنده حتى توقفوا خوفاً وتقوقعوا. هذا الموقف السلبي، والذي كان الكثيرون يقولون فيه على الغرب المادي وما الى ذلك، فيه الكثير من المسؤولية عن الجمود والفراغ في عالم الفكر.

واساليب الحكم ونظمه في العالم العربي كانت الفكرة الاساسية فيه هو ان الحكم في العالم العربي سنة ١٩٤٨ كان حكم الفرد، وسواء اكان الفرد عادلاً أم ظالماً، فان البلاد تُصرِّفُ شؤونها وفق هوايته ورأيه. وتساءلت يومها هل للوراثة الاجتماعية، التي يبلغ عمرها الاف السنين، أثر في ذلك. هل هذا الحكم الفردي في القرن العشرين مستمدا من الحكم الفردي الذي عرفته المنطقة العربية عبر تاريخها؟انا لم انكر يومها، ولا انكر اليوم، ان الاستعمار الذي كان ينوء على البلاد جميعها بِكَلكله اراد لهذا النوع من الحكم ان ينتشر. ولكن ها قد مر علينا نصف قرن منذ ذلك الوقت. فما الذي نجده؟

اما الزواج بالاجنبيات وهذا كان موضوع الندوة فانا لست من مؤيديه. ولعلي كنت اشد مقاومة له يومها مما انا الآن؛ ولكن الموقف لا يزال فيه سلبية قوية. والذين تزوجوا من اجنبيات منذ ذلك الحين. وقد ازداد هذا الزواج وتنوع لا يزالون يعانون من مشكلات تتجاوز قضية الفراش والمطبخ، وتمتد الى الاولاد واللغة. فالفرد، كائناً ما كان، لا يستطيع ان ينفصل عن مجتمعه ما دام يعيش فيه. اما عندما ينفصل ويهاجر، فالامر يختلف. بل لعلّه من الضروري عندها ان يختار الفرد المنفصل رفيق حياته من المجتمع الجديد.

انا، من حسن حظي، لست باحثاً اجتماعياً. لذلك فانا غير مكلف بجمع الاحصاءات والارقام حول هذا الموضوع ودرسها. انا، لما تحدثت عن هذا الموضوع يومها، كنت قد عرفت مباشرة عدداً من الحالات معرفة داخلية دقيقة. وقد عرفت حالات اكبر عدداً منذ ذلك الوقت، والذي توصلت اليه اليوم، بعد هذه التجارب عند الآخرين، يحملني على الاحتفاظ بموقفي الاصلي، لا تعنتا ولا محافظة ولا عصبية ولا كرها ولكن لانني، دون

المعرفة السيكولوجية والاجتماعية الاحصائية، استطيع ان أرى واحس وادرك اموراً كثيرة قد يغفل عنها الآخرون؛ ذلك بانني أسير دوما مفتح الاذنين والعينين، واحياناً حتى الأنف.

عملي في جامعة كمبردج كان بسيطاً ورتيباً. كان هناك اربعة طلاب يتعلمون العربية وكنت اعطيهم درسين في الاسبوع في قواعد اللغة العربية والتمارين اللازمة. الكتاب المدرسي كان كتاب رايط - قواعد اللغة العربية (R. Wright - Arabic Grammer)، اما التمارين فاصبحنا، بدءاً من الثلث التالي من السنة الدراسية، ننتقيها من أي كتاب ما دام مشكولاً. وقد انضم الى هؤلاء الطلاب سيمون سكسك الذي كان طالباً في قسم القانون والادارة.

وقد وجدت ان الطلاب لا يعرفون الا القليل من تاريخ العرب، لذلك اضفت ساعة اسبوعية كنت اتحدث اليهم فيها عن تاريخ العرب، وقد اهتموا بالموضوع كثيراً، وقرأ البعض كتاب حتي في تاريخ العرب (المطول) وكان هناك اثنان من الطلاب اللذان سطوا على غير حتي ايضاً.

وكان ثمة مجموعة من الرجال الانكليز الموظفين في نيجيريا الذين اتوا الى جامعة كمبردج لحضور دورات تدريبية لمدة تتراوح بين الاربعة شهور والسنة. كان خمسة من هؤلاء يودون تعلم اللغة العربية او تقوية ما يعرفون. لما سأل هؤلاء اربري عن شخص يمكن ان يفيدهم استمزجني في القضية ولما قبلت حولهم عليَّ. هؤلاء كانوا يدفعون المبلغ لي رأساً، فلم اكن ادفع ضريبة دخل.

كنت وانا بعد في لندن قد بدأت اكتب للأذاعة البريطانية. وكان اول ما كتبته من الاحاديث ثلاثة عن رأي توينبي في التاريخ ونظرته التحدّيّة. واستمر العمل مع الاذاعة بعد ان انتقلت الى كمبردج. كان الفرق انني اعد حديثين او ثلاثة واذهب الى لندن لتسجيلها دفعة واحدة.

ذهبت يوماً الى محطة سكة الحديد في كمبردج لانتقل الى لندن، فوجدت جميع الرفوف في اماكن بيع الصحف والكتب في المحطة عليها كتاب واحد: الجزء الاول من مذكرات تشرتشل. ابتعت نسخة واخذت بقراءتها في القطار. لما وصلت دار الاذاعة وانتهيت من التسجيل، وجدت رسالة من المستر وايتهد. مدير القسم العربي في الاذاعة يطلب مني فيها زيارته في مكتبه. لماذهبت قال لي انه لما سلمت عليه ذلك الصباح رأى معي كتاب تشرتشل. فهل انا على استعداد لمراجعته؟ وكانت مراجعة الكتب جزءاً رئيسياً من احاديثي. فاجبت بالايجاب. وكان شرطه الوحيد الاسراع قليلاً، اذ لا يجوز ان يتأخر القسم العربي كثيراً عن القسم الاصلي في المراجعة.

اعددت المراجعة وبعثت بها اليه، فعادت ومعها ملاحظة انني لم انصف الاديب في الكتاب. فطلبت منه ان يعطيني ١٨ دقيقة بدل ٩ دقائق. فقبل وكتبت مراجعة قبضت عنها ايضا ضعف المبلغ.

نشاطنا الاجتماعي في كمبردج كان محدوداً جداً. فالطلاب العرب كانوا يزورونا عادة يوم الاحد، فنستمتع بوجودهم. وكان لنا جيران دعونا مرتين لسهرة مبكرة عندهم كي نشاهد التلفزيون.

وعلى كل فقد كنت انا مشغولاً بكتابة رسالتي. وكان هذا العمل يتم ليلاً في الدرجة الاولى. ففي النهار علي ان اقوم بالتعليم علي نوعيه، وان ابتاع الاشياء اللازمة للبيت. ولما مرضت مرغريت، وقضت وقتاً طويلاً في الفراش بسبب الام الظهر، كان عملي في الكتابة يبدأ حول التاسعة مساءً ويمتد حتى الثالثة صباحاً. كنت اعمل على طاولة السفرة الموجودة في المطبخ، وكنت اتدفأ على الغاز التي اشعله في الفرن. اذ لم يكن في المطبخ مدفأة كهربائية.

كنا نزور، عندما يتيسر لنا ذلك، حدائق جامعة كمبردج التي تقع بين بعض الكليات ونهر الكام، الذي اعطى اسمه للجسر الذي اقيم هناك اصلاً، وحول الجسر نشأت المدينة.

وجامعة كمبردج من اقدم الجامعات الاوروبية، وهي واكسفورد، اقدم جامعات بريطانية. وفيها ما لا يقل عن عشرين كلية، كان احدثها تلك التي دشنت ونحن في المدينة كلية تشرتشل. ولكل كلية (التي قد لا يكون فيها تدريس قط) رئيس، لكن اسماء مناصب هؤلاء الرؤوساء مختلفة. ويختار رئيس الكلية عادة من بين اعضاء الهيئة التدريسية، وله منزل يقطنه. ومدة الرئاسة تختلف بين الكليات كثيراً.

وللجامعات البريطانية التي كانت قد تم لها الوجود قبل الحرب العالمية الثانية، ادارة يتصدرها رئيس الجامعة، وهو منصب شرفي. ودوره الحفاظ على أسم الجامعة ومحاولة الحصول على مساعدات مالية لها. وكثيراً ما يسمى احد كبار الساسة او رجال الأعمال او المال لهذا المنصب. لكن الذي يدير الجامعة هو نائب الرئيس مع مكتب التسجيل والادارة. ونائب الرئيس هو دوما احد روساء الكليات، ويختار لهذا العمل لمدة سنتين فقط. هذا هو الذي كان متبعاً في كمبردج.

ولا تزال الجامعة في انكلترا مؤسسة مستقلة. ومع ان الجامعات أصبحت تعتمد على هبات مالية كبيرة من الحكومة، فان الحكومة تعرف درسها تماماً: تدفع الاموال المقترحة، وتظل واقفة عند الباب لا تتجاوزه ولا تتخطاه. هذا هو الاستقلال الجامعي.

في جامعة كمبردج كلية اسمها كلية الملك. هذه الكلية فيها جوقة موسيقية كبيرة مشهورة لانها هي التي تقدم انا شيد عيدالميلاد في الاذاعة البريطانية. لكن هذا شيء حديث العهد. فالكلية تعود الى القرن الرابع عشر وجوقتها تبلغ نحو المئتي سنة من عمرها المديد. وقد حضرت هذا الاحتفال مع رائد (الصغير طبعاً)، لان امه لم تستطع ان ترافقنا.

وزرنا بعض الاماكن القريبة من كمبردج مثل كاتدرائية ايلي وهي من اجمل الكنائس القوطية الطراز.

ولكن الذي كان يشغلني - ويشغل مرغريت معي - هو الحصول على عمل يضمن لنا العيش المحترم والى امد طويل، ولو نسبياً. وكنا قد قررنا ان لا نبقى في بلاد الانكليز (مع ان اربري قال لي ان عرضاً لاتفاقية مدتها خمس سنوات هي جاهزة لي)، لان جو كمبردج لم يوافق مرغريت.

كنت كتبت الى اصدقاء في دمشق، لكنني لم اتلق جواباً. جاء مدير معارف فلسطين، دو بنصون، الى لندن والتقيته هناك وسألته عن اشخاص يمكن ان يساعدوني. فكتب رسالة الى المستر ادامز، الذي كان مدير مكتب التنسيق المختص بالاهتمام بحاجات الجامعات والكليات البريطانية، او الشبيهة بالبريطانية في الخارج. وذهبت لمقابلته. فاخبرني ان هناك مجالي الاول في كلية الخرطوم الجامعية (التي كانت على وشك ان تصبح جامعة الخرطوم). فان قسم التاريخ فيها مقرر له ان يوسع اعتباراً من سنة ١٩٤٩-١٩٥٠ الدراسية. والثاني في جامعة ابا دان في نيجيرا، وهو منصب مدير الدراسات العربية. ووعدني بان يكتب الى المؤسستين، ويبلغني النتيجة. وكتبت الى نبيه امين فارس - ابن بلدي وصديقي من ايام الصبا، وكان يومها رئيس دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت. ثم عرفت عن طريق السيدة ماري شكري ديب انه توجد وظيفة مساعد مدير معارف في برقة (ليبيا).

وبدأت السعي على الجبهات جميعها.

جاءتني رسالة من نبيه فارس يقول ان عميد كلية الاداب والعلوم سيكتب لي حول الموضوع. والعمل في برقة يحتاج الى تقديم طلب ومقابلة لجنة. وجواب المستر ادامز على الطريق. وحدث ما يأتي: توسيع اقسام الكلية، بما في ذلك قسم التاريخ، في الخرطوم تأجل.

جاءتني رسالة من هارولد كلوز، عميد كلية الاداب والعلوم في الجامعة الاميركية يقول لي فيها: ان الجامعة تنتظر هبة من مؤسسة روكفلر لتقوية الدراسات العربية وتوسيعها، فاذا تم الأمر فانني سأكون احد المرشحين

للعمل في الجامعة في قسم التاريخ.

وكتب المستر ادامز يقول ان رئيس جامعة ابادان (نيجيريا) سيصل الى لندن خلال اسبوعين، وانه يود مقابلتي ليوقع معي العقد ان كنت جاهزاً.

وهنا بدأ الحساب الجدي: الخرطوم زالت من البرنامج، نيجيرا بعيدة وقد تكون مزعجة. اعتذرت عن العمل. الجامعة الاميركية - احتمال وهو المفضل. برقة - بعد المقابلة - عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة. ووقعت الاتفاقية مع وزارة الحرب - فليبيا كانت تابعة لها ادارياً يومها.

لما كنت اطلبُ العلمَ في جامعة لندن قبل الحرب العالمية الثانية، كان اهتمامي منصرفاً الى دراسة تاريخ اليونان والرومان، ولعلي كنت، ولا أزال، الى الموضوع الأول أميل. لذلك عزمتُ على زيارة بلاد اليونان زيارة طويلة، بحيث اسمح لنفسي ان اتنقل في انحائها من اولمبيا الى اثينا الى كورنث. ولعلي كنت أنوي ان ازور موحي دلفي واستوحي الهته فيما يجب ان افعل في المستقبل. واعددت العدة لذلك، وخططت الزيارة.

كنت يومها، في صيف سنة ١٩٣٧، في المانية، وابتعت تذكرة للسفر من لندن، لان المارك السياحي الرخيص لم يكن يصلح لشراء تذاكر للسفر خارج المانية في المانية.

ثم بدا لي فغيرت رأيي، وقررت الغاء الرحلة، وقلت لنفسي، الوقت طويل. ولكن الوقت كان اقصر مما حسبت، فعدت الى القدس في تموز / يوليو سنة ١٩٣٩، ووقعت الحرب العالمية الثانية بعد ذلك باسابيع، واكتفيت من الزيارات اثناء الحرب بالقريب. فزرت الاردن مرات ثلاثاً، وذهبت الى مصر مرتين.

وفي سنة ١٩٤٧ عدت الى لندن للعمل للدكتوراة. ولما فرغت من الشغل، وكان علي ان أجد عملاً اتعيش منه مع زوجتي وابني، فقد عدت في نيسان / ابريل سنة ١٩٤٩ الى بيروت. عدنا بحراً. ووقفت الباخرة في ميناء بيريا، وكان لدينا نحو ست وثلاثين ساعة.

وهكذا تأخرت الزيارة سنوات طويلة، وتقلصت بحيث شملت اثينا فقط.

كنا قد أخذنا الباخرة ايونيا من مرسيليا، ومررنا بجنوه، وهناك انضم الى الباخرة الدكتور كامل حمارنة. ومن ثم فقد اصبحنا شلة تتكون من مرغريت وكامل وآن الذاهبة الى قبرص لتتزوج وشاب استرالي ورائد طبعاً.

نزلنا من الباخرة وأردنا استئجار سيارة ننتقل فيها الى اثينا - كان لا بد من زيارة الاكروبوليس. طلب سائق السيارة مبلغاً ظننا انه كبير، وقلت ذلك بالعربية لمرغريت وكامل، فاذا بالسائق يقول بالعربية «لا والله مش كثير يا بك». واذا به يوناني كان قد عاش في مصر مدة طويلة. وعاد الى بلاده بعد الحرب العالمية الثانية.

ركبنا السيارة واوصلنا السائق الى اقرب نقطة الى الاكروبوليس، لنرى ما كان قد بقي هناك من هيكل البارثنون.

كنت ان الوحيد الذي يعرف شيئاً عن المكان. حدثت الجماعة. لكن في واقع الامر كنت اتحدث بصوتين: الواحد للفئة الصغيرة المحيطة بي، والآخر لنفسي. قلت لهم ان الاكروبوليس تعني، بشكل عام، القلعة التي تعتمد عليها المدينة لحمايتها، وهي تقوم عادة على مرتفع بحيث يمكن للحامية ان تشرف على المدينة وتراقب الطرق المؤدية اليها. وقد كان كل ذلك مهماً لان بلاد اليونان، في عصورها المزدهرة، لم تكن دولة واحدة. كانت دول مدن، كل منها مستقلة في شؤونها جميعها. وقد تكون الدولة الواحدة صديقة لجارتها، لكن ذلك لا يمنع الدولة نفسها ان تصبح وقد بيتت لتلك الجارة حملة عسكرية قوية. فالمصلحة هي التي كانت تعين الامور وسبلها.

وفي الوقت الذي كنت اقول هذا لجماعتي الصغيرة، كنت أناجي نفسي، داخلياً، بان هذا الوضع الذي كانت عليه بلاد اليونان كان الاصل فيه ان المدن المختلفة، على العموم، لم تكن مستقلة فقط، ولكنها كانت تمارس الديمقراطية. كانت نظمها وسبل ادارتها ووجهة السياسة فيها تقرها اجتماعات يحضرها المواطنون، وهم الذين يختارون حكامهم وموظفيهم، وهم الذين يقررون ما على الدولة ان تقبله. فالسلم اذا قال المواطنون السلم؛ اما اذا قالوا الحرب، قُرِعَت الطبول واستعدت الجيوش للهجوم.

وقلت لجماعتي انه في القرن الخامس قبل الميلاد كان رجل اسمه بركليس. وهو اثيني ولد سنة ٤٩٥ ق.م. وتوفي سنة ٤٢٩. بركليس انتخب سنة بعد سنة لحكم اثينا، واستمرت ولايته نحو ثلاثين سنة. وقالت الفتاة الانكليزية لكن هذا حكم ملكي وليس جمهورياً. فقلت كان الاحرار من اثينا ينتخبونه لانه كان يحكم البلد حكماً صالحاً.

ولكنني قلت لنفسي ايام بركليس، بالنسبة لاثينا، كانت أيام عظمة وحرية. كان الرجل يقود اثينا التي كانت قد تخلصت من الفرس وهجومهم، وقد أخذت نفسها بتزعم عدد كبير من المدن اليونانية، فانشأت حلف ديلوس، الذي كان نوعاً من الامبراطورية الاثينية. وقد قبلت المدن بتزعم اثينا لأن هذه كانت الاقوى. وكانت كذلك لأن نظامها الديمقراطي جعل لكل من مواطنيها دوره في العمل وحصته في الحكم. نعم تذكرتُ ان سكان اثينا كان فيهم، واقصد المواطنين الأحرار، فئات مختلفة من حيث الوظيفة المدنية والاقتصادية والمنزلة الاجتماعية. وقد كان أهل الفكر مثلاً ينظرون بشيء من الازدراء الى البنّاء او الفنّان الذي كان يقوم بعمل يدوي وهو في ثياب تبدو رثة قذرة. لكن عندما كان يُدعى المواطنون لانتخاب اعضاء البوله، اي المجلس المدني للحكم، كان الفيلسوف يجلس الي جانب البناء او النجّار، ويتمتع الاثنان بالحقوق نفسها.

وقلت للجماعة ان اثينا كانت قد خسرت ما كان فيها من معالم للفن والحضارة اذ احرق الفرس، لما احتلوها ما يُحرق وهدّموا ما يُهدّم. لذلك كان لا بد لاثينا من ان تستعيد وجهها الحضاري. وهمست في أذن نفسي، داخلياً، ان الامر كان اهم من ذلك واعمق. ان اثينا كانت قد بلغت يومها الأوج في الفن بالنسبة لآلاف السنين التي سبقتها فيها دول وشعوب اخرى. تلك الشعوب كانت تقبل بالحاكم وريث إله او نائب إله، ومن ثم فلم يكن هناك سبيل لان يتحرر المفكر او الفنان او الأديب. كل شيء كان يتبع قالباً جاهزاً. والتطور كان يتم أصلاً على هذا النوع من القالب.

لكن اليونان تحرروا من ذلك. كانت آلهتهم التي اقامها هو ميروس، شاعرهم الاسطوري، في جبل اولمبوس، تعيش كما يعيش البشر: تحب وتكره، تغضب وترضى، تعشق وتغار، تحارب وتصالح، وتقاتل وتسالم، واذن فلم يكن لها هذا النفوذ القوي الذي يقولبُ الفكر والأدب والتاريخ والعبادة والفن. على العكس من ذلك، فان هذه كلها كانت تنمو وتتطور بحرية. لذلك بلغت هذا الذي بلغته في عصر بركليس هذا. هذا هو العصر الذي عاش فيه سقراط، الذي اتخذ من الانسان أساساً لتفكيره الفلسفي.

والتفت الى الجماعة، وكأنني نسيتها، وقلت أراد بركليس ان يجمل اثينا، فاختار الاكروبوليس ليقيم هيكل البارثنون. وعين اكتنوس مهندساً لتخطيط البناء، وعهد الى فيدياس، معاصره سناً تقريباً، بالاهتمام بالشأن الفني الزخرفي. وكان فيدياس اكبر نحات في عصره، إن لم يكن اكبر نحات عرفه العالم الاغريقي الى ايامه. وقد سبقته شهرته العملية لما نحت تمثال زفس، كبير الالهة، الذي كان يزين اولمبيا. وهو الذي اعتبر أحد عجائب الدنيا السبع.

احتاج المهندس والفنان نحو خمس عشرة سنة لاقامة هذا الهيكل العظيم، الذي كان يمثل المهارة والدقة والهندسة والفن على احسن ما وصل اليه الناس. وكانت حصة فيدياس من هذا الهيكل التمثال الكبير الذي كان

يمثل الألهة أثينا. وقد فقد بكامله، وكل ما نعرفه عنه، فضلاً عن الوصف الذي خلفه الكتاب، نسخة تقليدية مصنوعة من الرخام تعود الى أيام الرومان، وموجودة في المتحف الوطني في أثينا. لم يتح لنا يومها زيارة المتحف، لكنني شاهدتها فيما بعد في زيارات تالية.

فضلاً عن تمثال الألهة اثنا نحت فيدياس الأفريز الذي كان يدور بالهيكل في أجزائه العليا. واذا تذكرنا ان الهيكل كان ارتفاعه نحو عشرين متراً، وطوله نحو سبعين متراً، وعرضه ثلاثين متراً، ادركنا ان فيدياس نحت افريزاً طوله مئتا متر وعلى ارتفاع كبير. والأفريز كان يمثل الا حتفاء السنوي بديونسيوس.

كنت اتحدث الى أصحابي عن الهيكل، معطياً معلومات وأرقاماً، فيما كان الصوت الآخر الداخلي يملأ نفسي اذ يقول : إن هيكل البارثنون يمثل ثقة الانسان بنفسه وبقدرته على التغلب على الصعاب. الست ترى أن الإفريز تكاد اشكال الصور فيه تخاطبك كالأحياء؟ ثم انظر الى ما تبقى من الافريز، تجد فيه شيئاً عجباً من عبقرية فيدياس. ان النحات أدرك أن الذي ينظر الى أشكال الافريز من أسفل الهيكل، ستحجب عنه الظلال التي تلقيها الاجزاء السفلى رؤية الاجزاء العليا من الأشكال. لذلك جعل الاجزاء السفلى اقل نفوراً، بحيث يستطيع الناظر ان يتمتع برؤية الأشكال جميعها على السواء.

وقلت للفئة المرافقة لي. كانت الألهة أثنا هذه تسمى في المدينة اليونانية بارثينوس (Parthenos) ومعناها العذراء. وكانت هذه الألهة حامية المدينة. والآن تدركون لماذا سمي الهيكل البارثنون. إنه منسوب الى هذه الألهة العذراء.

وأضفت اخيراً. وقد أشار الكتاب والشعراء الى هذه الألهة على انها راعية الفنون اليونانية.

وقال الصوت الخاص بي : إنها هي راعية الفن في كل زمن من أيام بركليس الى اليوم. انها واحد من أسس الوحي في الفن والادب والحياة الانسانية.

وكانت زيادة اثينا هذه في طريق عودتنا من لندن الى بيروت. فقد كان علينا أن نغادر لندن.

وحزمنا امتعتنا في صناديق واكياس من أكياس الجنود وشنط. وسلمناها الى شركة الشحن في كمبردج، حيث كنا نقيم منذ ان عملت في التدريس هناك، وانتقلنا الى لندن لقضاء بعض الوقت قبل مغادرة انكلترا.

ابتعت التذاكر اللازمة للسفر بالقطار من لندن الي مرسيليا، وبالباخرة اليونانية ايونيا من مرسيليا الى بيروت.

ركبنا القطار من محطة فكتوريا في لندن متجهين نحو دوفر، لنجتاز المانش الى كاليه. وقد حافظنا على النظام تماماً. فقد كان يُسمح لكل شخص يغادر بريطانية يومها بأن يحمل معه خمسة جنيات استرلينية فقط، مع شيء من الفراطة. ونحن ثلاثة فالطفل رائد كان له نفس الحق. لذلك كان في جيبي لما وصلنا البر الفرنسي ما يعادل سبعة عشر جنيها ونصف الجنيه. وما دامت التذكرة جاهزة، فهذا المبلغ سيكفينا ولا شك.

سار بنا القطار من كاليه الى باريس، ومحلاتنا كانت محفوظة، ومع ذلك كان لا بد لنا من ان نهدي المسؤول بضعة فرنكات قبل ان يهتدي الى اماكننا المرقمة على تذاكر سفرنا.

أول ما صادفنا من الصعوبة كان انعدام العتالة في محطة القطار. لكن من حسن الحظ لم تكن المسافة بين القطارين بعيدة. عنيت مرغريت برائد. ولو ان رائد كان يصر انه هو الذي يعنى بأمه. فيما عملت انا على سحل الشنط من قطار الى قطار.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً لما تحرك القطار. وسار بنا ينهب الارض والوقت ينبهنا حتى الصباح المبكر، اذ وصلنا مرسيليا، حيث كان وكيل شركة كوك السياحية المشهورة ينتظرنا، فاخذ منا شنطنا

مدة، وكان يجيد العربية حديثاً ايضاً.

وكانت المحطة التالية للسفينة الاسكندرية ولم يسمح لنا ضابط الامن بالنزول الى البر لنقضي النهار مثل بقية الركاب لان جواز سفرنا الفلسطيني كانت قد انتهت مدته. ولم يقبل رجاء، وكنت حريصاً على ان ترى مرغريت مع رائد بعض معالم المدينة. ولكن صديقي علي شعث، الذي كان يومها مدير البنك العربي في تلك المدينة وصل ساعتها ليستقبلنا، وكنت قد انبأته بقدومنا. ولما رفض الضابط طلبه تناول علي سماعة التلفون وطلب حكمدار الاسكندرية، أي رئيس قسم البوليس في المدينة. فاعاد الضابط السماعة الي مكانها وقال له: تفضل يا بك مع ضيوفك. وقضينا يوماً ممتعاً في صحبته علي تنقلاً في المدينة ثم في ضيافة أم نبيل في البيت.

وكانت الوقفة التالية - وقبل الاخيرة - في ليماسول في قبرص، حيث ودعتنا آن لأن خطيبها جاء الى الميناء لاستقبالها. وقد دعوانا الى العرس بعد اسبوع فتمنينا جميعنا لهما حياة سعيدة.

وكان معي ثلاثة احاديث لأذاعة الشرق الادنى التي كانت قد انتقلت بعد بدء الحرب من فلسطين الى قبرص، فأخذنا سيارة اجرة لبضع ساعات وذهبنا لزيارة الأذاعة وزيارة اخواننا واصدقائنا هناك. ثم تنقلنا في الجزيرة قليلاً وعدنا الى الباخرة كي نعد انفسنا لقضاء آخر ليلة فيها.

كانت سفرتنا البحرية ممتعة جداً. وقد سر رائد بأنه سافر في باخرة، وأحس بذلك هذه المرة، اما لما سافرت مرغريت معه في نهاية سنة ١٩٤٧، فأنه كان صغيراً، ولم يكن يدرك الفرق بين الباخرة والبر.

وقضينا الليلة الاخيرة في جمع الاغراض تمهيداً لوضعها في الشنط. وقد كنا على شيء كثير من التوتر الذي كان سببه الشوق الى لقاء بعض الأهل وبعض الاصدقاء، والاطمئنان على وجودهم اصحاء. ولست أحسب ان مرغريت نامت كثيراً ليلتها ولو أنها تظاهرت بذلك.

اما انا فلم أنم، ولو أنني ايضاً تظاهرت بذلك؛ وعند إحساسي بأن الفجر انبثق، خرجت من القمرة الى السطح. وبعد نحو نصف ساعة لحقتني مرغريت. ولعلنا كنا الوحيدين على السطح، باستثناء البحارة الذين كانوا يقومون بأعمالهم المختلفة.

وقفنا نحن الاثنين في معبد الكون الاكبر، صامتين وفي نفس كل منا صلاة، ونحن ننتظر الهة النور. اتجهنا نحو الشرق، فبدا صنين يقتعد الجبال المحيطة به، وكأنه كاهن «قديم» وقف ينتظر الهة النور كي يقدم لها خضوعه ويشكرها على نعمائها.

وبرزت الشمس فوق الجبل. وشعرت كأن يدين اثنتين كبيرتين ارتفعتا من الجبل، وتناولتا هذه الكرة النورانية، ثم امتدتا بها وقد دار الجبل ودارتا معه وقدّمتاها هدية لنا. فتقبلناها نحن نيابة عن أهل الباخرة، وعن المسافة الواسعة الممتدة الى الغرب منا.

وخشعنا، وقد ملأ جمال المنظر وروعة الشروق نفسينا، وأنشدنا شاكرين لله نعمه.

وكانت الباخرة قد دخلت المرفأ. ونظرنا الى الرصيف، فلم نر احداً من الأهل. واخذ الخوف يتسرب الى قلوبنا. وأنزلت اغراضنا. وجاء مفتش الجمرك وقال اثنتان وعشرون قطعة عفش، اين نبدأ في التفتيش؟ كنت قد سمعت أن هدية تنفع في مثل هذه الحال. وكان كل ما أملك ساعتها عشر ليرات لبنانية، فأمررتها بين الصناديق. فقال المفتش: لا شك انكم متعبون من السفر ومعكم طفل «صغير» اذهبوا بسلام. وبدأ يضع الاشارات على العفش.

ولكن من اين لي النقود لانقل كل هذا العفش.

وكأن قمقما فتح. فاذا بحنا صليب يقف امامي. وبعد سلام مقتضب قال: خذ تكسي واذهب مع العائلة الى اقاربكم، واترك كل شيء عليّ.

لينقلها بدوره الى الباخرة، واخبرنا عن الموعد الذي يجب ان نصل فيه الى المرفأ.

درنا في مرسيليا قليلاً، فالزمن ربيع، وليس هو موعد الاحتفال بالعيد الوطني الذي هو عيد صيفي. ثم اخترنا مطعماً بقصد تناول طعام الغداء. واذكر تماما اننا اكلنا سمكة مشوية ـ فالقاعدة أنك اذا هبطت مرسيليا يجب ان تأكل سمكاً. ونحن نحب السمك على كل حال. وانتقلنا بعدها الى المرفأ فالسفينة.

وهنا وجدت نفسي في مأزق. الذي كنت اعرفه ، من اسفاري البحرية السابقة مع شركة البواخر الشرقية البريطانية، هو ان المتاع الذي تحمله في مخزن الباخرة لا تدفع عنه اجرة الا اذا تجاوز حجما معينا. وكنت مطمئناً الي ان القطع العشرين، المنقولة مع العفش على الباخرة، هي دون الحجم الذي حسبته. لكن وكيل شركة كوك فاجأني بفاتورة قيمتها ثلاثة عشر جنيها استرلينيا هي أجرة شحن الاغراض. فالشركات التي تعمل في البحر المتوسط فقط لها حساب خاص بها.

لما دفعت المبلغ المطلوب بقي معي ثلاثة جنيهات وبعض الفراطة. ونظرت الى المبلغ في يدي، ونظرت الى الرجل، وقلت له لم اكن احسب لهذا الأمر حساباً. وهذا المبلغ الذي بقي معي لن يكفيني مع أسرتي نفقات لمدة اسبوع على السفينة، حتى ولو اقتصدت.

أدرك الرجل صعوبة موقفي فقال لي انا لا اعرفك ولكنني مستعد لأن اقرضك مبلغاً صغيراً يساعدك، وسألني فيما اذا كانت اربعة جنيهات ـ وهو كل ما كان في جيبه ـ تكفي.

قبلت الجميل، وعرضت عليه ان اعطيه شكاً بالمبلغ، فكان ان رفض لان صرف شك مسحوب على انكلترا في فرنسة كان يومها امراً صعباً. لكنه أعطاني اسم صديق له يملك حانوتاً في ساحة البرج ـ ساحة الشهداء ـ في بيروت وطلب مني أن ادفع المبلغ له. فالرجل الفرنسي كان قد عمل في بيروت أيام الانتداب الفرنسي في الشرطة الفرنسية.

ولا تم هذه القصة. لما وصلت بيروت، ذهبت الى ساحة البرج أبحث عن هذا الصديق. فلم اجده، وعرفت انه عزّل من الساحة. وقررتُ ان اسأل عنه في دائرة الشرطة، وكان مركزها بعد في الساحة، فلما دخلت ووصلت الى شخص شبه مسؤول، لانه كان يحمل على ذراعه اشارة الشاويش، وطرحت عليه السؤال اجابني، وفي لهجته كل ما استطاع ان يجمعه من التهكم، «ليش نحنا هنا مركز تأجير دكاكين؟»

كتبت الى الرجل الفرنسي رسالة الى مكتب كوك الى مرسيليا أخبره بالقضية وأطلب رأيه. وبعد مدة عادت الي الرسالة من مكتب كوك في مرسيليا، لكن كان في صحبتها كتاب من المكتب، يقول : إن الرجل توفي قبل مدة قصيرة، ولما سألنا زوجته أجابت بانها لا تعرف شيئا عن الرجل الاجنبي، اي عني ولا عن الدين، فتصرّف انت كما تريد». أسقط في يدي، لكنني تبرعت بالمبلغ، مع إضافة جزئية، الى مؤسسة خيرية عن روح الرجل الذي أحسن الي.

في الطريق وقفت الباخرة بنا في بيريا ميناء اثينا، ويومها حققتُ أملي في زيارة اثينا. وقد كانت الزيارة جماعية لفرقة تتكون مني ومن زوجتي مرغريت والدكتور كامل حمارنه، وفتاة انكليزية وشاب استرالي ورائد. وبعد ان زرنا الاكروبوليس اراد الآخرون التجول في الاسواق وكان رائد قد تعب فأخذته الى مقهى لاطعمه بوظة. وكانت ثمة طاولة «وحيدة» يمكن ان نجلس عليها، لأن شخصا واحداً فقط كان يحتلها، فاستأذنا وجلسنا. وأراد الرجل أن يتحدث، وكان رائد قد بدأ التكلم وهو في انكلترا، لذلك كان يتكلم الانكليزية، وجرب الرجل الحديث بهذه اللغة بصعوبة. ثم تنبه الى انني استعملت كلمتين بالعربية فأخذ يحدثني بلغة عربية مصرية اللهجة. وعرفت منه انه عاش في القاهرة نحو ثلاثين سنة يعمل في التجارة، وأنه عاد الى اثينا قبل مدة قصيرة ليقضي فيها بقية عمره. وكان سائق السيارة الذي نقلنا من الميناء الى الاكروبوليس يونانيا قد عاش في مصر

الفصل الثالث والعشرون

في ١١ ايار / مايو ١٩٤٩ غادرت بيروت الى بنغازي لتولي عملي كمساعد لمدير المعارف في برقة. كان السفر بطريق القاهرة. وقد سافرت اليها بطائرة من طائرات الخطوط اللبنانية قبل أن تندمج هذه مع طيران الشرق الأوسط وتكونا شركة واحدة.

وقد كتبت الى مرغريت رسالة من الطائرة جاء فيها: «ارتفعت الطائرة من مطار بيروت في تمام الساعة ٩,٤٥ (صباحاً). وأؤكد لك يا مرغريت انني لم أشعر انها سائرة، ولولا انني رأيت الأرض تختفي تحتنا والبحر يظهر مكانها، لما صدقت اننا متنقلون ... ولم أفكر بما قد يصيب الطائرة. فذلك أمر لا حيلة لي فيه، وقد أسلمت أمري الى الله. لكن الذي فكرت فيه أمران الأول انتما - أنت ورائد. والثاني هو هذا الانقطاع عن العالم. فالانقطاع عن اليابس، ونحن في الباخرة، شيء يختلف كل الاختلاف عن الانقطاع عن العالم ونحن في الطائرة. هناك يرى الواحد نفسه جزءاً من كتلة بشرية يربط بينها كونها من بني الانسان، ويشعر بأن السفينة لا تزال موطىء قدميه. ولكن أين موطىء القدمين في هذه الحالة. ان قدمي ترتفعان عن العالم نحو خمسة الآف قدم، فأين موطئهما؟ هذا هو الانقطاع الذي يشعر به واحدنا.» وفي حقيقة الأمر فقد كانت هذه أول سفرة لي في طائرة. كان ذلك يوم ١١ ايار / مايو ١٩٤٩.

بعد يومين في القاهرة ويوم في الاسكندرية غادرت الاسكندرية بالطائرة الى بنغازي. كان ذلك في يوم ١٤ من الشهر نفسه. وقد قضينا في الطريق قرابة ثلاث ساعات حتى هبطنا في مطار بنينا.

هذا مجمل ما كتبته عن برقة في رسائلي الى زوجتي وأنا هناك، وما أضفته خلال الشهور الأولى بعد تركي برقة واقامتي في بيروت.

كانت أول نظرة القيتها من الطائرة: فيسر لي ذلك أن أتعرف الى معالم سطحها، أو على الأقل الجزء الشمالي منها، بشيء من الوضوح. فرأيت هذا الشاطىء المنحني كأنه قوس يمتد من البَرْدية الى خليج سِرْت، والذي هو خلو من التعاريج الكبيرة النافعة، باستثناد تعريجة واحدة حرية بالذكر عند طُبْرُق. وهذا الشاطىء يتلوه سهل ساحلي هو، في الجزء الأوسط من البلاد، ضيق جداً، بحيث يتكون في الواقع من جيوب ساحلية تنحشر بين رؤوس صخرية تصل الى الشاطىء، وتعانق البحر. لكن على جناحي برقة: في البُطنان (أو مَرْمريقة) شرقاً - وفي برقة البيضاء والحمراء غرباً - يتسع هذا السهل الساحلي بحيث يمتد عشرات الأميال الى أن يلتقي بالصحراء..

ومرت بنا الطائرة فوق البطنان، أو جبل عقبة، الذي بدا لنا منبسطاً، ولا غرابة في ذلك، فإن ارتفاعه لا يتجاوز المئتين من الامتار الا في ما ندر. واتضح لنا، وكانت الطائرة على ارتفاع يمكننا من تبين معالم الأشياء، ان هذا الجناح من برقة انما هو جزء محدود الموارد، تغلب عليه الصحراوية او ما يشبه ذلك. فنحن نطير في فصل الربيع، وليس فيه ما يدل على الربيع!

وحلقنا فوق الجبل الأخضر، وهي الهضبة التي تستأثر في برقة بالأجزاء المرتفعة، والامطار الغزيرة

(نسبياً)، والأرض الخصبة. وقد ظهر هذا بادياً للعيان. فهذه الغابات تكسو الأجزاء الجنوبية المرتفعة من الجبل الأخضر، وهذه الكروم تغطي السفوح الشمالية منه. وهذا جزؤه الغربي يبدو وقد آتى اكله لاولئك الذين أحسنوا خدمته.

فاذا تم لنا اجتياز الجبل الأخضر، واستشرفنا بني غازي من الجو، عاد الى الأرض عريها، وبدا ما يشبه الصحراء، ان لم تكن الصحراء بعينها، يمتد أمامنا مئات الكيلومترات غرباً وجنوباً.

وثمة أمر آخر رأيناه من الطائرة، وهو ان الجبل الأخضر يرتفع من الشاطىء ارتفاعاً مباشراً في الشمال، وكأنه يرتقي في ثلاث درجات (تبلغ أعلاها ٨٧٥ متراً)، ارتقاء مصعداً صعباً، لكنه ينحدر نحو الجنوب، الى الصحراء، انحداراً تدريجياً فيه هون ولين. وكأني بالطبيعة كانت رئيفة بالمصعد من الصحراء، فلم توصله الى ما يشبه الجنان بسرعة، وكانت رفيقة بالمنحدر الى الصحراء، فلم تلقه في احضانها دفعة واحدة.

ومع ذلك فما أحسب ان الذي ألقينا عليه النظرة السريعة من الطائرة يتجاوز سبعين أو ثمانين ألفاً من الكيلومترات المربعة، وهو لا يكاد يزيد على عشر مساحة برقة البالغة نحو ٨٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع.

فشاطئها، من الحدود المصرية شرقاً، الى الحدود الفاصلة بينها وبين طرابلس غرباً، يبلغ طوله نحو ١,٥٠٠ كيلو متر. أما عرض البلاد، الى الجنوب، فيمتد الى السودان وافريقية الوسطى.

«ان التصعيد من السهل او الساحل الى الجبل الأخضر صعب، سواء أكان ارتقاؤك من بني غازي الى الأبيار، أو من طوكرة او طلميثة الى المرج، او من سوسة الى الشحات والقيقب، او من درنة الى عين مارة والقبة. لكن هذا الجهد الذي تبذله في التصعيد تكافأ عليه. وقد كان اول ما لفت نظري، لما تركنا طوكرة، واتجهنا جنوباً نحو الجبل الأخضر، هو ان السيارة خففت سيرها. ثم فاجأتنا في أول الطريق لوحة كبيرة كتب عليها - ممر طوكرة - طريق شديدة الارتفاع، والتوت الطريق، وتبعتها السيارة متعبة. واخذت اطراف الاودية تبدو على اليمين والشمال وبدت بعض الاشجار والانجم، مثل البطم والخروب القزم، على الجانبين، ولم تلبث ان ظهرت بعض صنوبرات من الصنوبر الافريقي، لكن هذه الأودية تبدو طفلة اذا قوبلت بأودية لبنان، وهذه الجبال تبدو قزمة اذا قورنت بجباله»(*).

«وانتهينا من ممر طوكرة فاذا بنا في الجبل الاخضر، في اجزائه الغربية المسماة المرج، وهي هضبة متسعة انها سهل مرتفع، تتوسطه مدينة المرج نفسها؛ وقد كان الايطاليون يطلقون عليه سهل بارتشي»(*).

«ها انا في الشحات (قيرني)، وقد ذهبت اليوم الى سوسة (ابولونية) في زيارة قصيرة. لقد شعرت وانا في السيارة، وهي تهبط هذه الطريق الملتوية المعوجة، كأنني انحدر من جبال كسروان نحو جونية، أو كأنني انحدر من رام الله الى الرملة. فلا تختلف الطريق ولا ما حولها عن تينك الطريقين أو ما حولهما»(*).

«وحول الشحات هنا تقع منطقة من أجمل المناطق التي يمكن أن ترى في برقة. فالارض، الى مسافة بعيدة، تكسوها الأشجار الجميلة، بعضها طبيعي كالزيتون البري والصنوبر والسرو، وبعضها غرسته الايدي العاملة، على عدوات الاودية، وجوانب الطرق، وأكثره من شجر اليوكالبتوس»(*).

«وأقبلنا على درنة. وتبدت لنا، ونحن في طرف الجبل الأخضر، مدينة صغيرة بيضاء تكتنفها اشجار النخيل، وتجملها زهور الياسمين وغيرها. وهي في جيب من هذه الجيوب الساحلية التي يمتاز بها الشاطىء البرقاوي المصاقب للجبل الاخضر. وقد انحدرنا نحو اربعمئة متر في نحو اربعة كيلومترات أو أقل، في طريق يتلوى كأنه لدغته حية، فسرى الالم في جسمه»(*).

«غادرنا درنة الى طبرق. فلما أخذت السيارة تصعد في هذا الطريق الشديد الارتفاع، نظرت خلفي، لألقي نظرة على درنة من جهة الجنوب الشرقي، فوجدتها كالصغير يحاول أن يلعب لعبة الاختباء. ان اعوجاج الطريق

يظهر المدينة حيناً، ويخفيها حيناً آخر، وهي فرحة بهذا، فلا يبدو منها الا وجه ضاحك فرح، كأنها لم تعرف الألم»(*).

«فاذا صعدت من الساحل الى الجبل الاخضر، وتنفست هواء الجبل المنعش، وجدت في هذا السفح الذي يسميه البرقاويون الوسيطة، أرض المرج الخصبة، التي تنتج القمح والفواكه والخضار والكروم والتين، وتصلح للزيتون، وان كانت لا تنتجه اليوم. ووجدت الى الشرق منها أرض العرقوب، وهي الأرض المخددة الكثيرة الاودية، المكسوة بالاحراج الكثيفة، ولون ان الكثير من أشجارها صغير»(*).

«اما بين دانزينو والزاوية البيضاء (سيدي رافع) فثمة مجموعة من الاودية الصغيرة، تأتي من الهضبة، وتلتقي اكثرها معاً في وادي الكوف (الكهوف) الذي هو اشبه ما يكون بوادي الزرقا في شرقي الاردن، بين عمان وجرش، لكنه خال من الماء، ولا يمتلىء الا في فصل الشتاء، فصل الأمطار. على انه، وهو عميق وجميل وخطر، لا يبلغ في هذه كلها ما يبلغه الزرقا أو أودية لبنان. ولعل مطلع باب الواد، بين القدس والرملة، أقرب الاماكن شبهاً به. وهنا يبدو شجر السرو، ويكثر الصنوبر»(*).

والى الجنوب من المرج والعرقوب تمتد الأجزاء المرتفعة من الجبل الاخضر، وهي التي تسمى الظاهر، وأعلى اجزائها هو ٨٧٥ متراً. وهذه الأجزاء هي التي يصح أن يطلق عليها اسم الغابة فعلاً لأن الغابات تكسوها باكملها.

وينحدر الجبل الاخضر تدريجياً نحو الصحراء جنوباً. وتكثر في هذه الانحدارات الاودية. لكن المنظر هنا، كما يبدو من الطائرة، وكما هو في الواقع، مختلف. فالغابة واشجارها تنعدم، وترى الانجم الصغيرة القزمة والاعشاب التي تظهر بعد سقوط المطر. وحيث تتكون وهدات متسعة يكثف الكلأ، اذ تتجمع فيها المياه، وتظل مدة أطول تغذي هذه الأعشاب بعد انقطاع الأمطار. لكن كلما اتجهنت جنوباً قل العشب، وبدت طلائع الصحراء القاحلة، ثم تمعن الارض في القحولة بحيث لا تعود تصلح لشيء، ولا تعرف للنبات معنى.

«وبين درنة والبردية، على الشاطىء البرقاوي، نحو ثلاثمائة كيلومتر، وبينهما تقع طبرق وهي أقرب الى الاخيرة قليلا منها الى الاولى. وأنت تجتاز هذه الطريق، تشعر، بعد أن تخلف درنة وراءك، انك في أرض قاحلة»(*).

«ان الطريق من درنة الى طبرق فيها قريتان فقط، وقد رأينا فيها مزرعتين تقومان حول نبعين من الماء. اما بين طبرق والبردية فلم نجز الا في قرية واحدة، وهي قرية قمبوت»(*).

«وهذه الطريق القفر لا يقطع عليك تفكيرك فيها الا اكداس العتاد الحربي المهشم، من ايام الحرب العالمية الثانية، والا صف من الابل تراه على الأفق بين آن وآخر»(*).

«ولا شك ان هذه الحالة تتغير في الشتاء. فنحن الآن في الصيف (فأنا أكتب في آواخر حزيران / يونيو). ولكن متى هطلت الأمطار القليلة، ونبتت الأعشاب، كثرت هنا الأغنام والماعز والأبقار، التي تكون في هذه الأيام في الجبل الأخضر، تفتش عن غذائها»(*).

هذا هو ساحلُ البطنان أو جبل عقبة أو مرمريقة. وعلى كل فإن هذه الأجزاء الصالحة للرعي لا تعدو ثمانين كيلومترا الى الجنوب من الساحل، أما بعد ذلك فهي أرض صحراوية، غاية في القحولة، ولا تصلح لشيء.

«فاذا انتهى المرء الى أجدابية، على الشاطىء او السلوق في الداخل، واجتازهما، ودع الارض الصالحة للاستغلال، ودخل في قلب الارض الصحراوية. وهذه الطريق التي اجتزتها امس من بني غازي الى طرابلس، هي، بين أجدابية ومدينة سرت، لا تقع العين فيها الا عى ما يذكرك بالجفاف. وقد مرت بنا ساعات، اجتزنا فيها نحو ٦٠٠ كيلومتر، ولم تقع العين على ما يذكرنا بالحياة، الا هذه الأشواك التي تتغلب على الجفاف، والا هذه الطريق التي كانت تمتد أمامنا كأنها طريق الابدية»(*).

(*) هذه مختارات من رسائلي إلى مرغريت التي كانت يومها في لبنان.

والامطار في برقة قليلة على العموم، وتختلف اختلافاً كبيراً في هذا القطر الواسع، الذي يمتد من خط عرض ٢٧ الى خط عرض ٣٣ شمالاً تقريباً. وتسقط الامطار في فصل الشتاء (من تشرين الأول / اكتوبر - الى نيسان / ابريل). وفي الأجزاء المرتفعة من الجبل الأخضر يسقط من الامطار بين ٥٠٠ و ٦٠٠ مليمتر. لكن المنطقة التي تتمتع بهذا المطر الغزيز - نسبياً ضيقة ولا تصلح الا نادراً للاستغلال الزراعي. لكنها تكون مناطق للرعي في الصيف. ومنطقة المرج، والأجزاء الشرقية من الجبل الأخضر، يسقط فيها من المطر بين ٤٠٠ و ٥٠٠ مليمتر. وما تبقى من الجبل الأخضر يخصه بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليمتر، الا السفوح الجنوبية التي يسقط فيها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ مليمتر. ومثل ذلك يقال عن السهل المحيط ببني غازي الى الشمال، وبدرنة وبطبرق. ثم تأخذ كمية المطر في التناقص كلما اتجهنا جنوباً، حتى تصبح دون ١٠٠ مليمتر الى الجنوب من خط منحنٍ الى الشمال يمتد من أجدابية غرباً الى جنوب طبرق شرقاً. وهذه تقريباً حدود المنطقة الصحراوية - اذ كل ما جنوب هذا الخط داخل فيها.

اما الحرارة فمعتدلة عموماً على السواحل وفي الجبال، اذ هي شبيهة بحرارة فلسطين. لكن في الصحاري تختلف الحرارة اختلافاً كبيراً بين الصيف والشتاء، وبين النهار والليل. وقد سجلت في أوجيلة في كانون الأول - ديسمبر - عام ١٩٢١، حرارة النهار العليا ٥٠ مئوية وحرارة الليل الدنيا ١ مئوية.

وقد تنقلت في برقة بقدر ما سمح به العمل والوقت ووسائل النقل. ذلك بانني كنت أزور المدن للتفتيش عن المدارس في سيارة شحن يحفظ لي فيها المقعد المجاور لمقعد السائق. وقد يمكن أن يحجز لي مقعد في الدرجة الأولى في باص ما. والفرق بين مقعد الدرجة الأولى وغيره هو ان الصفوف الأمامية، التي لا تختلف مقاعدها عن الباقي في شيء، هي التي تسمى الدرجة الأولى. والمقاعد من الخشب، وكذلك الظهر. وقد كانت أفخم زيارة لمدارس متعددة لما أتيح لي أن أحصل على سيارة جيب، وهي التي كانت يومها تسمى ستاف كار (STAFF CAR). وفي الليلة السابقة لبدء الرحلة من بني غازي الى طبرق، اتصل بي ثلاثة موظفين كبار بقصد مرافقتي في الرحلة لاشغال رسمية: واحدهم من ادارة البريد وآخر من الاشغال العامة وثالث من ادارة الصحة. واقتضى الامر التوقف في الطريق للقيام بأعمال رسمية، لذلك لم أصل طبرق، بعد أن تركت الجميع في درنة، الا في المساء. ولم نكد نوقف السيارة حتى تبين للسائق أن «اكس» السيارة انكسر فيما كان يديرها قبل التوقف الاخير. وكان معنى هذا الاستغناء عن السيارة مؤقتاً لان «الاكس» يجب أن يؤتى به اما من ايطاليا أو المانيا (والا فمن انكلترا). وترتب على هذا انني بعد أن أنهيت مهمتي في طبرق والبردية، انتظرت يومين حتى صادف ان كانت سيارة اسعاف (جاءت من درنة في الليلة السابقة) على استعداد لنقلي في اليوم الرابع الى درنة، وبعدها ربنا ييسر.

ولما استقلت من عملي في برقة، لا قبل منصب استاذ مساعد للتاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت، واردت أن أسافر من بنغازي الى طرابلس براً لم يكن هناك سوى الباص الخشبي المقعد والمسند - والدرجة الأولى. فابتعت تذكرة لمقعد فيه. وكان أن غادرنا بنغازي الساعة الثامنة من صباح يوم - أظنه كان الجمعة - فوصلنا طرابلس الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي. المسافة هي ١٠٥٠ كلم، لكن كان لا بد من التوقف في الطريق. اولاً كي ياكل الركاب والسواق ومساعده لقمة للغداء. ثانياً كي يسخن الركاب ما يحملون من طعام مطبوخ ويتناولوا طعام العشاء. وكان هذا عند قوس النصر، وهو قوس رخامي كان الايطاليون قد بنوه لما استولوا على ليبيا، احتفاء بانتصارهم. وثالثاً لما توقفنا في سرت حول الساعة الحادية عشرة مساءً كي نتناول طعام العشاء في مطعم يظل صاحبه ينتظر هذا الباص. فإن عدداً من الركاب، مثلي، لا يحملون معهم ما يكفي من

الطعام للسفرة بأكملها.
ولما وصلنا الى نقطة الحدود بين برقة وطرابلس لم يكن المكتب قد فتح، فانتظرنا نحو ساعتين. وأخيراً وصلنا مدينة طرابلس ونزلنا أنا وراكب آخر، في فندق فكتوريا. على هذه الطريقة كان تنقلي في برقة.
اثناء وجودي في برقة كنت اكتب الى مرغريت التي كانت مع رائد وامها وابيها في سوق الغرب بلبنان لقضاء الصيف. وقد كان من الطبيعي أن أكتب يومياً فانا أردت أن لا تنقطع الصلة ابداً. فضلاً عن ذلك فانا عندي عرض من الجامعة الأميركية للعمل هناك. والأمر كان يقتضي اتخاذ قرار مشترك حول هذه القضية: البقاء في بنغازي مع انضمام الأسرة الصغيرة لي، أم ترك العمل هناك والذهاب الى بيروت. وكان يتوجب علي أن أحيط مرغريت علماً بأحوال البلد والمعيشة فيه. لذلك لم تكن الرسائل اليها مجرد عواطف على أن العواطف كانت فعلاً مشبوبة؛ لكنها كانت تحتوي معلومات واخباراً واراء تتعلق بما يجري فيها. لذلك فأن الذي أنوي أن أفعله هنا أن انقل من الرسائل التي احتفظت بها مرغريت كاملة ما أرى انه قد يفيدو أو قد يكون فيه متعة للقارىء.أو قد يوضح بعض مواقفي من الأمور التي مرت بي في هذه المدة القصيرة (من ١٤ ايار/مايو الى ٤ ايلول/سبتمبر ١٩٤٩).

بنغازي ٢٠ ايار/مايو ١٩٤٩

بنغازي قسمان الواحد غربي حول الشاطىء وهو حديث متسع الشوارع وقد غرست الاشجار على جانبيها، وعلى الشاطىء نفسه كورنيش لا بأس به. هذا هو القسم الحديث الايطالي من المدينة. وفي ايام الايطاليين كان الوطنيون ممنوعين من الدخول اليه. والقسم الثاني بلدي وسخ... ويبدو الوسخ فيه كثيراً بسبب الغبار الكثير الذي تنقله الرياح الى المدينة.
ولا شك ان التخريب والتدمير فعلاً كثيراً ببنغازي. فانا اكتب اليك الآن من الغرفة (التي أقيم فيها في فندق الكسيور) وأطل من الشباك وأمامي خمس دور متحطمة مهدمة.
يوجد في المدينة سوقان: سوق بلدي وسخ نسبيا، لا يعتمد عليه. وسوق متمدن نظيف، ولكن الاشياء الموجودة فيه محدودة. فلم أر في البلدة اكثر من عشرين طنجرة الومنيوم مثلاً، ولكنني رأيت الكثير من اباريق التنك. الناس فقراء... ويوجد في المدينة صيدليتان حسنتان ولكن جميع الدكاكين النظيفة المرتبة، يا عزيزتي، هي بيد اليهود.
لا يصنع في بنغازي شيء البتة. كل شيء يأتيها من الخارج. حرامات (زرابي) الصوف وأباريق الفخار من طرابلس (وتونس) والأحذية من مصر وانكلترا.
في السوق المدني الغربي النظيف ثلاثة أمكنة لطيفة:ـ سوق اللحم وسوق السمك وسوق الخضار. انها انظف من السوق البلدية بكثير، لكنها أغلى هنا منها هناك.
المطبخ هنا يعتمد على البريموس، والكهرباء الموجودة لا يمكن أن يعتمد عليها كثيراً للطبخ، فهي ضعيفة في النهار، وتقطع أحياناً كثيرة. أما في الليل فتقطع ليلة واحدة عن كل جزء من أجزاء المدينة.
هذه لائحة بأسعار بعض الحاجيات ـ الثمن للكيلو: اللحم ٢٥ قرشاً مصرياً؛ البندورة ٨ ـ ١٠ قروش؛ الخيار ٥ ـ ٧ قروش ؛ الكوسى ٤ ـ ٦ قروش؛ البطاطا ٣ ـ ٥ قروش؛ البيض كل أربع بيضات، ويسميها القوم هنا حارة، بثلاثة قروش. (لكن في الشتاء تكون البيضة الواحدة بقرشين).
في الصيف يكثر العنب؛ والآن ثمن الموزة الواحدة ثلاثة قروش.
النقد المستعمل هنا هو النقد المصري. فالوحدة هي الجنيه، وهو، كما تعرفين، مقسم الى ١٠٠ مل. فالقرش هو استعمال سوقي.

٢١ ايار / مايو ١٩٤٩

يخيل الي يا عزيزتي ان سياسة الايطاليين كانت ذات وجهين. فهم أجلوا بعض السكان عن اراضيهم بالمرة، وهؤلاء ظلوا بدوا ايام وجود الايطاليين؛ فلما عادوا الى أراضيهم ظلوا بدوا... أما من لم يرحل عن بلاده من السكان فقد عمل الايطاليون على طلينته. وهذه الطلينة، التي قامت على الحراب، نجحت الى درجة ما. فالسكان يتكلمون الايطالية، واذا تكلموا العربية جعلوا فيها كلمات ايطالية. فقد قال أحد البرقاويين وهو يعلل انحراف سيارة الجيش ان السائق أغرق بها شمالاً من أجل السلفاري للبوليس: وسلفاري هي الكلمة الايطالية للنجاة... وهناك مثلاً انتشار اكل المعكرونة في البلاد... حتى في الاماكن الصغيرة.. والبرقاوي يمسك الشوكة ويغرزها بالمكرونة ويلفها حول الشوكة ويأكلها على الطريقة الايطالية.

لكن هذه الوفائد القليلة، ان كانت بالضرورة تعتبر فوائد، جاءت قسراً ودفع الليبيون ثمنها غالياً. فأجلوا عن دورهم... وجهلهم الايطاليون فمنعوا عنهم التعليم الا أقله، ولأقلية صغيرة. ومنعوا عنهم الكتب، حتى ان اقتناء الكتب كان أمراً يعاقب عليه القانون. وحرموهم من العمل في الصناعات اياً كان نوعها. ومن هنا فإنك لا تجدين في هذه البلاد عمالاً أو صناعاً مهرة. فكل ما يحتاجه الناس يؤتى به من الخارج. وتجد دائرة الأشغال العامة صعوبة كبيرة في الحصول على نجارين أو حدادين أو دهانين يمكنهم القيام بالأعمال الفنية، حتى البسيط منها.

٢٣ ايار / مايو ١٩٤٩ من مدينة المرج (BARCE)

زرت أمس في درنة مدرسة النور، وهي مدرسة ابتدائية للصبيان، فيها قرابة ٥٠٠ تلميذ و١٥ مدرساً. مديرها برقاوي، شأن جميع المدارس في هذه البلاد؛ فليس هناك مدير اجنبي ابداً... والمنهج المتبع في التعليم مصري بالمرة. لذلك يتعلم التلاميذ هنا، مثلا، تاريخ مصر وجغرافيتها، ولا يعرفون الا القليل عن بلادهم. (يذكرني هذا بما مر بنا في جنين لما جاءتنا الكتب المدرسية المصرية ١٩١٩-١٩٢٠). وفي الحساب يتعلمون الأوزان المصرية كالرطل المصري (وهو ١٤٤ درهماً) والقنطار المصري (وهو مئة رطل) مع انهم يستعملون الكيلو في الوزن وقنطارهم يساوي مئة كيلو. ويتعلمون عن الذراع المصري مع ان جميع المبيعات هنا بالمتر.

وقد وصلت المدرسة بعيد الساعة الثامنة، لكن الناظر (أي المدير) لم يكن قد وصل. وعرفت انه قلما يأتي قبل التاسعة. وله وكيل. ورافقني وكيله في زيارة ثلاثة صفوف قبل أن يأتي حضرته. ولما جاء قدمت نفسي له فكان أول ما قاله: «كان من واجب الادارة ان تعمم خبر تشريفكم». وسألته بعض الأسئلة عن المدرسة، ثم طلبت منه أن يرافقني الى صف فيه درس حساب. فقال: «اذا كان ذلك للزيارة فأهلاً وسهلاً. اما اذا كان للتفتيش، فالتفتيش من اختصاص من حضرة مفتش المنطقة». ولم تعجبني صفاقته، فقلت له بلهجة بسيطة ولكن حازمة: «أنا مساعد مدير المعارف، وأنا أعرف ما لي وما علي، وأنا أقوم بما يقوم به مدير المعارف تماماً. ولنذهب الى صف فيه درس حساب». فبلع ريقه وسار معي.

زرت مدرسة البنات. الناظرة برقاوية ابوها من اسرة الديبان الكبيرة وامها من الاسرة السنوسية. كانت تقيم في مصر مدة طويلة فتلقت تعليمها الثانوي هناك، ثم التحقت بالجامعة المصرية ونالت شهادة الليسانس في الأدب الانكليزي؛

وجاءت في أول هذا العام ناظرة للمدرسة. وهي نشيطة مهتمة ببنات بلدها (درنة)، وتصرف الكثير من وقتها في المدرسة. وبهذه المناسبة فبرقة كلها فيها ثلاث مدارس للبنات فقط اثنتان في بنغازي وواحدة في درنة. وقد استطاعت الناظرة أن تجعل من الفتيات شيئاً جديداً. فالكل يلبسن زياً واحداً... وقد منعتهن الناظرة من لبس الأساور والخلاخيل. والعادة في هذه البلاد ان الصغيرات يضعن في ايديهن أساور من الفضة يبلغ عرض الواحدة منها بضعة سنتيمترات؛ أما الخلاخيل الفضية فتكون أعرض. كذلك منعتهن من لبس الخواتم

والحلق وزينة الأنف، وهي حلقة فضية أو ذهبية توضع في ثقب خاص بالأنف. وحرمت عليهن تحنية الأيدي. وفي الواقع فانني لم أر في المدرسة سوى أربع بنات يلبسن الحلق وبنتاً واحدة قد خضبت يدها بالحناء. اما البنات فتتراوح أعمارهن بين الخامسة والثانية عشرة.

وقد لقيت مقاومة من الناس، لكنها لانها بنت بلد وتسير سافرة ولا تبالي، نجحت فتحية في تحديها.

ومن أطرف ما جرى لي أمس انني تغديت في مطعم «على كيفك». أكلت أولاً معكرونة ثم طلبت بيضتين مقولتين بدون أي شيء الى جانبهما. أتصدقين يا مرغريت أن الجرسون جاء أولاً ثم جاء صاحب المطعم بنفسه ليتأكد كل بدوره انني لم اطلب بطاطا مقلية مع البيض!

١ حزيران/ يونيو ١٩٤٩ بنغازي

يوجد في برقة ٥٣ مدرسة منها ثلاث فقط للبنات، ولكن في كثير من القرى تتعلم البنات مع الصبيان. ويزيد عدد المعلمين عن المئتين؛ أما عدد التلاميذ فهو نحو ٨٠٠٠.

بعد ظهر اليوم، حول الساعة السادسة، تركت المستشفى، حيث أصبحت أقيم في غرفة الى جوار سكن الأطباء، حول الساعة السادسة، فمررت بالسوق فاذا به مقفل، والذين تأخروا في اقفال محالهم كانوا يسرعون بذلك، ولما وصلت الى ميدان البلدية وجدته خالياً من الناس فسألت احدهم فقال القوم مجتمعون حول القصر، قصر الأمير ادريس السنوسي، وقال آخر أعلن الاستقلال.

وقد حدث ذلك. ففي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم، اليوم الأول من شهر حزيران / يونيو سنة ١٩٤٩، أعلن الأمير أن برقة استقلت، وان السلطات ستنتقل الى يده. أعلن هذا في اجتماع للمؤتمر الوطني الذي انعقد لهذا الغرض. والمؤتمر الوطني هو جماعة من الوجهاء والأعيان اختارهم الأمير ممثلين لقبائلهم وعشائرهم وقراهم ومدنهم، وعددهم نحو ١٥٠ شخصاً. ومنهم يختار مجلس أعلى فيه أربعون عضواً فقط. أعلن الأمير الاستقلال في القصر بحضور المؤتمر الوطني ثم قام الوالي (مستر دوكاندول) فخطب بالنيابة عن الحكومة البريطانية، فاعترف بحكومة الامير، وهنأ البلاد والشعب.

وكان الشعب يسمع ذلك بواسطة مكبرات الصوت المركزة خارج القصر، ويهتف للامير وبرقة، لكن الهتافات شملت طرابلس أيضاً.

وها انا انهي هذه الرسالة اليك، وأنا أفكر بهذا اليوم، اليوم الاول من حزيران ١٩٤٩، وهذه دولة عربية جديدة على وشك الولادة فما الذي سيكون من أمر ها؟ وأفكر بالنزاع بين سورية ولبنان، وماذا يمكن أن يكون من أمره.

وأفكر بك، وأفكر برائد، وأفكر بنا نحن الثلاثة أين ينتهي الأمر بنا؟ أنسكن هنا؟ في بيروت؟ في لندن؟ في؟ في؟ في؟

٤ حزيران/ يونيو ١٩٤٩

في الساعة الحادية عشرة ذهبت مع المستر غوردون، مدير المعارف، الى قصر المنار، الذي يسميه الناس هنا «الديوان»، وهو قصر الأمير. وهناك قيدنا اسماءنا في سجل التشريفات الذي وضع خصيصاً لمناسبة عيد الاستقلال. وبعد توقيع الأسماء عاد غوردون الى المكتب أما أنا فأرسلت بطاقتي الى سكرتير الأمير الخاص الدكتور وهبه البوري، وهو برقاوي ويحمل دكتوراه في الفلسفة، ومن الشباب الممتاز. فجاء بنفسه يستقبلني. وبعد حديث مقتضب ادخلني على عمر منصور باشا الكيخيا، رئيس الديوان العالي. فبقيت عنده ربع ساعة.

وعمر منصور باشا برقاوي ايضاً، وقد ساح في اوروبا سنتي ١٩١١ و١٩١٢، وكان عضواً في مجلس المبعوثان العثماني قبل الحرب العالمية الأولى، وله تاريخ سياسي طويل في بلاده.

وعمر منصور باشا أنيق في مظهره، لطيف في معشره، شديد العناية بشؤون بلاده. كثير الاهتمام بالتعليم والمدارس.

أشرت من قبل، في احدى رسائلي، الى أن مجيئي هنا أحدث زوبعة. وقد بلغني مؤخراً أن أحد موظفي ادارة المعارف وهو السيد علي صفي الدين، ووالده ابن عم ادريس، من أفراد العائلة السنوسية، رفع عريضة احتجاج الى الوالي قبل وصولي بأيام يعترض فيها على تعيين فلسطيني غريب في منصب يجب أن يتولاه واحد من أهل البلد. لكنني لم أعرف تماماً ما جاء في العريضة. واليوم وقعت العريضة في يدي مصادفة، فقرأتها وهي في صفحتين كاملتين. وحقاً فإن المعترض «علي» يقول أن الفلسطيني الغريب لا يجوز له أن يتولى منصباً هاماً في المعارف. ولكن الأغرب من هذا يا مرغريت قوله: «لما كان مساعد مدير المعارف انكليزياً كانت الأمور ماشية على خير ما يرام، لكن لماذا يؤتى اليوم بفلسطيني غريب ليتولى هذا المنصب».

٩/٦/٤٩ / (٦حزيران / يونيو

ان اليوم عطلة لمناسبة عيد العنصرة. لكنني ذهبت عملت في المكتب نحو ساعتين، بسبب كثرة الأعمال عندنا في هذه الأيام.

وبعد الغداء والراحة والقراءة، خرجت فالتقيت بالدكتور أمين عوده واجتمعنا بالسيد محمود مخلوف، وهو من الشباب «المليح» جداً، وعضو في جمعية عمر المختار. وهذه الجمعية سياسية، وغايتها توحيد ليبيا بكاملها بدل الولايات الثلاث كما هو الحال الآن: برقة وطرابلس تحت الادارة البريطانية، وفزان تحت الادارة الفرنسية. تحدثنا في الشؤون العامة واقترحت على السيد مخلوف، ووافق أمين على اقتراحي، بأن تضع الجمعية نفسها تحت تصرف الأمير، خشية أن يعمل الواشون على الوقيعة. واقتنع بوجهة النظر هذه. ووضعت له صيغة ما يجب أن يقال للأمير.

أحسب انه من المناسب أن أتحدث هنا قليلاً عن جمعية عمر المختار، وعن الدور الذي قامت به لما تصافت مع الأمير.

انشئت جمعية عمر المختار في الاسكندرية سنة ١٩٤١. كان أعضاؤها الأول جماعة من الشباب الليبي المعني بقضية بلاده. كان يومها الأمير ادريس (الملك فيما بعد) منفياً في مصر. ولعله كان يرعى الجمعية عن بعد. وقد اضطرت الجمعية الى الاقتصار على النشاط الرياضي والاجتماعي العادي. لكن الأعضاء كانوا، في خفية وحيطة، يعملون في المجال السياسي. ولما حررت برقة من الايطاليين (١٩٤٣) انتقل عدد من اعضاء الجمعية الى بنغازي. وهم أصلاً برقاويون، فكان من الطبيعي ان يستقروا هناك الى أن يبت في أمر البلد الكبير - ليبيا.

عنيت الجمعية في بنغازي بالفقراء والمحتاجين فآستهم وساعدتهم، واهتمت بالرياضة والكشافة وانشأت صفوفاً لتعليم الأميين كما نظمت، عن طريق جمع التبرعات، ارسال بعض من الشباب لمتابعة دراستهم في الخارج.

ومع شدة عناية الجمعية بالنواحي الثقافية فقد اضطرت الى التوقف عن اصدار مجلتها «عمر المختار»، بسبب النفقات الباهظة.

في الناحية السياسية كانت الجمعية تسعى الى أن تكون ليبيا وحدة سياسية كاملة. وكانت، حتى سنة ١٩٤٩ قضية ليبيا مكان أخذ ورد في أروقة الأمم المتحدة وفي أروقة أخرى. وكان الطليان لا يزالون يحلمون في أن يكون لهم موطىء قدم في ليبيا.

والذي عرفته انا، بعيد وصولي الى بنغازي بأيام، هو أن أعضاء مجلس الجمعية الخمسة لا غبار على

اخلاصهم للبلاد وقضيتها. لكن الذي عرفته أيضاً أن أولئك الذين يبحثون عن مصالحهم في كل مكان، كانوا مستعدين أن يشوهوا سمعة الجمعية كي يفيدوا هم. وتشويه السمعة معناه الايقاع بين الجمعية والامير.

وقد تعرفت بعد وصولي بنغازي بأيام الى محمد مخلوف والحاج مهدي المطردي، وهما من أعضاء المجلس. وقد قامت بيننا صلة طيبة تحولت الى صداقة متينة. فكانت أحاديثنا، في أكثر الأوقات، تتعلق بليبيا ومستقبلها. وانا كامرىء كان قد فقد بلده، كنت أخشى على كل قطر عربي أن يفلت من ايدي أصحابه.

٧ حزيران / يونيو ١٩٤٩

مر بي اليوم الحاج عبد الهادي مرتضي، وهو شاب من شباب جمعية عمر المختار. مر بي في المكتب وتحدثنا عما ذكرته أمس لمحمود، عن وجوب مقابلة الأمير وأعدت عليه الصيغة التي اقترحتها أمس لزميله. وقد عرفت في المساء أن وفد الجمعية سيزور الأمير يوم الخميس (أي بعد غد) في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ليعرض عليه خدمات الجمعية بارشاد سموه.

في الساعة ٥,٤٠ حضرنا حفلة شاي أقامها المؤتمر الوطني على شرف سمو الأمير في قصره. وقد حضرها رجال المؤتمر الوطني وكبار رجال الادارة من بريطانيين وعرب. وتكلم فيها رئيس المؤتمر الوطني وهو أخو الأمير. ورد عليه الأمير شاكراً.

اعلان استقلال برقة (في بنغازي) كان مثاراً لكثير من الأسئلة والتساؤلات. أنا لم أسأل ولم اتساءل كثيراً. انا كنت أرى في البلد قوتين - الواحدة يمثلها الامير الذي يحبه الاكثرية من سكان برقة بسبب ارتباط السكان هناك بالسنوسية؛ والثانية تمثلها جمعية عمر المختار. الاولى ظاهرة بينة والثانية خفية. من الممكن أن تصطدم هاتان القوتان. وكان هناك من البرقاويين من يحب ذلك لعله يفيد من الامر.

حسبت انه علي أن أفعل شيئاً. في ٦ حزيران / يونيو تحدثت الى مخلوف حول الموضوع. والموضوع كان في رأيي هو ضرورة اقامة تعاون بين القوتين. مخلوف، مثل مطردي، كان قد قبل رأيي. في هذا اللقاء الاخير قال مخلوف ان احد أفراد العائلة السنوسية (اسرة الامير) سيقوم بالوساطة.

بعد أن فكرت قليلاً قلت له: «رأيي حول هذه القضية هو أن تتجنب الجمعية الوساطة وان يقوم مجلسها بالعمل مباشرة. ليطلب المجلس موعداً من الامير. عندها تذهبون جميعاً (اي اعضاء المجلس وهم خمسة) فيكون أول ما تفعلون أن تباركوا للامير بهذه الخطوة الهامة في حياة البلد. ثم قولوا له انكم انتم رجاله وانكم تأملون ان يعتبر ان وحدة ليبيا هو الامر الاول. سارعوا ولا تتأخروا ولا تنتظروا وساطة أحد.» ولما زارني مطردي في اليوم التالي قلت الشيءنفسه. وهكذا حصلت على الموافقة من اثنين.

في ٨ حزيران / يونيو (١٩٤٩) عرفت ان المجلس طلب المقابلة، وان الامير عين الموعد لصباح يوم ٩ حزيران / يونيو، في الساعة التاسعة والنصف صباحاً.

وفي هذا اليوم لقيت مخلوف في العاشرة والنصف صباحاً. كان الموعد قد تم، وقد ذهب المجلس بكامله: برئيس الجمعية مصطفى بن عامر وامين سرها محمد بشير المغيربي ومحمد صبري ومخلوف ومطردي. واعتبروا انفسهم وفداً يمثل الجمعية. قضى الجماعة اربعين دقيقة في حضرة الامير، وتبادل الفريقان الاحاديث المتعلقة بالبلاد. وقد كانت كلمات الامير الوداعية لهم: «اعتبروا انفسكم ابنائي. ان ابواب قصري وبيتي مفتوحة دائماً لكم. لا تصغوا لما يقوله الآخرون. ليس لي شيء ضدكم أوضد الجمعية. ان اهدافنا واحدة. سيروا في عملكم والله يحفظكم ويباركم».

وقد سلم الوفد مذكرة الى سمو الامير وقد جاء فيها، بحسب رواية مخلوف لي، ان هناك اموراً ثلاثة هي

لباب القضية الليبية وهي (١) يجب أن يتجه تفكيرنا دوماً نحو وحدة ليبيا؛ (٢) ان المعاهدة التي ينوي الأمير عقدها مع بريطانيا يجب أن تقوم على أساس التساوي بين الفريقين وان تؤكد على ان استقلال برقة يجب أن يكون ناجزاً؛ (٣) ان يتم الاتصال بين برقة والدول العربية والاسلامية للاعتراف بالوضع الجديد في برقة.

وقبل أن يغادر الامير برقة (الى لندن) استدعى مجلس الجمعية وقال لهم انه يعتبرهم وكلاءه اثناء غيابه، وانه يأمل منهم أن تظل عيونهم مفتحة (أي يقظين).

١٦ حزيران / يونيو ١٩٤٩

لم أذهب الى المكتب اليوم بعد الظهر لانني أردت أن أصحح بعض الأوراق (أوراق الامتحان وعددها بالنسبة لي ١٦٦ ورقة للانشاء العربي وما اليه). فعملت من الخامسة الى قبيل الثامنة، ثم انقطعت لأن وقت العشاء حان. كان عندنا على العشاء الليلة اثنتان من المرضات الانكليزيات، وهما تدعوان كثيراً لان الطبيبين الانكليزيين مهتمان بهما، وهما مهتمتان بالطبيبين. بعد العشاء لعبنا الورق قليلاً. لعبنا البوكر، بعد أن علموني اللعبة، وقد خسرت أربعة عشر قرشاً ونصف القرش. لعبت لانني اردت أن ألعب، وخسرت وسرتني الخسارة، سرتني لانني اختبرت شيئاً لم أكن أعرفه. واذا كتبت في يوم من الأيام قصة اجتماعية وادخلت فيها عنصر القمار، فانني استطيع أن أصفه عن تجربة. ولكن هذه لعبة البوكر الأولى والأخيرة في حياتي. (وهكذا كان، بيروت ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩١).

طبرق ٢٦ حزيران / يونيو ١٩٤٩

طبرق لها ميناء جميل أما المدينة فلا تزيد عن أكوام من الحجارة من البيوت المتهدمة. فقد ضربت ضرباً عنيفاً في الحرب الماضية.... عدد سكان المدينة لا يتجاوز ٢٠٠٠ نسمة، لكن عدد العمال فيها يبلغ ٣٠٠٠ عامل.

زرت في طبرق مع أمين عودة جماعة من الالمان عددهم ١٧ رجلاً. أصلهم أسرى حرب، لكنهم الآن أحرار. يعملون هنا فنيين في دائرة الأشغال وعند الجيش. يسكنون معاً ويأكلون جماعة. يقيم كل اثنين في غرفة؛ بعض الغرف من ألواح الزنكو وبعضها من براكات صغيرة وبعضها الآخر مبني من الحجر. وكلها نظيفة ومرتبة. عندهم دجاجهم وحمامهم وكلابهم وقططهم. سقونا عصير البرتقال وأطعمونا اناناس (معلباً طبعاً).

ذهبت بعد الغداء لزيارة جماعة من الموظفين الصغار الذين يتعلمون الانكليزية. معلمهم هو باشكاتب المتصرف.

انهم يتعلمون الانكليزية كي يترقوا في وظائفهم.

طبرق ينقصها الماء. ماؤها ملح جداً لا يصلح للشرب أو للطبخ. لذلك ينقل اليها الماء بالسفن من الاسكندرية. ويكلف الطن الواحد من الماء نحو ٨ جنيهات، يعني ان التنكة الواحدة منه تكلف ١٣ قرشاً بتقسيط دقيق. والماء المالح لا يمكن الحصول عليه بسهولة، لأن المضخات التي ترفعه الى البيوت بعضها معطل. أمس مثلاً لم يكن في المدينة ماء حتى للتغسيل. لكن اليوم وصلنا ماء ملح، لذلك استطعت أن آخذ حماماً بارداً ملحاً.

الحاجيات هنا أقل منها في بنغازي، ودكاكينها على قد الحال. وتأتيها الخضار من درنة. لكن الدكتور أمين عودة مسرور فيها لانه يستطيع أن يشتغل براني. فقد يحصل ٤٠ ـ ٥٠ جنيهاً في الشهر.

ظلت الوزارة وتأليفها الشغل الشاغل للناس بين اعلان الاستقلال وصدور المرسوم الاميري بتشكيلها في ٦ تموز / يوليو.

منذ اعلان استقلال برقة أخذ الناس، افراداً وجماعات، يتحدثون عن الوزارة التي سيكون أول عمل لها تنفيذ برنامج الاستقلال. وفي بلد الأعمال فيه قليلة والزعماء والمتزعمون فيه كثر تصبح قضية مثل هذه الشغل

الشاغل. وقد كنا نسمع اخبار الترشيحات في المقاهي والمطاعم ودور السينما (عندما اذهب على قلة) وفي الاجتماعات العامة.

وقد دارت الاحاديث حول اشخاص معينين لرئاسة الوزارة. ورد اسم السيد صفي الدين السنوسي، وهو ابن عم الامير. ذكرت صفاته وأشار الناس الى مقدرته، واشادوا بأن الرجل ظل في برقة يقاتل الطليان في الوقت الذي كان الامير لاجئاً في مصر. وقيل هرباً من المعركة، والواقع غير ذلك. فقد قصد الطليان ايذاء الحركة بأجمعها في شخص الأمير. لكن السيد صفي الدين، على كل ما كان يقال عنه، كان يزاحم الامير على ترؤس الدولة. فلا يمكن للامير أن يثق به في منصب رئيس للوزراء.

كان هناك السيد محمد الرضا أخو الامير. لكن الذين يعرفون حصافة الامير قالوا ان الامير لن يجمع في بيت واحد السلطة فيثير سخط الناس عليه. ومن ثم انتقل التفكير الى السيد صادق، وهو ابن السيد محمد الرضا. لكن الامر يشبه اختيار ابيه. فضلاً عن ان الناس كانوا يعتبرونه صغير السن (مولود سنة ١٩٠٨-فهو ليس صغيراً قط). وهذا أمر مهم في رأي البعض. وذكر اسم السيد ابو القاسم وهو من ابناء العمومة.

وانتقل التفكير الى افراد من خارج الاسرة. خليل القلال محام ناجح وعامل قديم في السياسة فضلاً عن انه كان عضواً في الوفد الليبي الى الامم المتحدة.

وتحدث الناس عن عمر باشا منصور (الكيخيا) الذي كان رئيس الديوان الاميري. لكن عمر كان يتمتع بشيء من العداء في البلد. ثم قيل انه عجوز (كانت سنه ٧٤ فقط).

دامت المشاورات مدة طويلة. وهي مشاورات ثلاثية الرؤوس. فهناك الامير؛ وهناك الوالي (اي رئيس الادارة) البريطاني مستر دوكاندول؛ وهناك الزعماء المختلفو الرأي وأصحاب المطامع والذين قد لا يمحضون النصح.

واخيراً اعلنت اسماء الوزراء في بيان اميري رقمه ١ مؤرخ ٦ تموز / يوليو (١٩٤٩). ولم يكن بين الأسماء الستة واحد من الاسرة السنوسية (فيما بعد منع الامير أن يعين افراد الاسرة في مناصب حكومية كبيرة أو ان تكون لهم شركات كبيرة تفيد من أموال الدولة في مناقصات أو عطاءات). والوزارة كانت مؤلفة على الشكل التالي.

الدكتور فتحي الكيخيا (ابن عمر منصور باشا) وقد كان يعمل محامياً في الاسكندرية فاستدعي للقيام بهذه المهمة. فالذي خسره الاب ناله الابن. رئيس وزارة ووزير للعدل والتربية والدفاع

خليل القلال ـ للصحة، حسين مازق (للزراعة والاحراج)، محمد بو دجاجة (للمالية)، علي الجربي (للمواصلات والاشغال).

وفضلاً عن خلو الوزارة من أفراد الاسرة السنوسية فقد خلت من وزير للخارجية، لان هذه الامور كانت بيد بريطانية. فاستقلال برقة كان داخلياً.

١٠ تموز / يوليو ١٩٤٩

... بنغازي اليوم مخبوطة، وقد اتيح لها حديث شهي. ذلك ان ثلاثة مصريين، من أعضاء جمعية الاخوان المسلمين المنحلة، ومن الارهابيين، ومن المتهمين بالقاء القنابل على رئيس مجلس النواب المصري، ومن قتلة النقراشي باشا ـ هربوا من مصر قبل بضعة أيام ودخلوا برقة، ولم يكن أحد يعرف مقرهم. لكنهم أول أمس صباحاً وصلوا بنغازي والقوا بانفسهم في رحاب الأمير أدريس، وطلبوا حمايته. وكان البوليس المصري قد لحقهم بالطائرة فكان اليوم هنا نحو عشرة من ضباط البوليس والجيش المصري. أما الأمير فقد رفض تسليمهم، واما الوالي فقد أجاب بأن هؤلاء في عهدة الأمير. وبنغازي «مخبوطة» في الحديث عن هؤلاء الناس.

١٣ تموز/ يوليو ١٩٤٩

... لا تزال بتغازي تتحدث بأمر الثلاثة من المصريين الذين لجأوا الى حمى الأمير. والمهم ان هؤلاء، في نظر الحكومة المصرية، مجرمون عاديون. والقانون الدولي يقضي بتسليمهم الى مصر. لكن ليس هناك اتفاق على تسليم المجرمين بين مصر وبرقة، اي بين مصر والادارة البريطانية. والحكومة المصرية لم تعترف بعد بالامير وباستقلال برقة. لذلك فالادارة البريطانية في حيص بيص. فلا هي تستطيع تسليم المجرمين لانهم في حمى الامير، والأمير، بحسب العرف العشائري المعمول به يستضيفهم. والامير غائب عن بنغازي، وليس من ينوب عنه أو يمكنه أن يفعل شيئاً اثناء غيابه، وقد وعد بالنظر في القضية بعد عودته من لندن، فقد غادرنا قبل فترة وجيزة الى طرابلس فلندن لاجراء مفاوضات حول وضع برقة ووضعه. وقد نسي البنغازيون تأليف الوزارة وشؤون الدولة، واخذوا يتحدثون عن المصريين الثلاثة. ولأن أهل برقة غاضبون على مصر والصحف المصرية لحملتها على الامير واستقلال برقة. (هذا قبل لجوء المصريين الى بنغازي) فهم مسرورون لانهم يستطيعون الآن اغاظة مصر. لكن التجار وأصحاب الأعمال متضايقون لان الحكومة المصرية تمنع البرقاويين من السفر اليها.

١٧ تموز / يوليو ١٩٤٩

كل شيء هادىء على هذه الفرندا. فأنا جالس وحدي، لان كل سكان المنزل خرجوا ـ متفرقين.

في هذا الهدوء القيت كتابي جانباً، وأشعلت غليوني، وسمحت لافكاري بان تشرد كما تشاء. انني اشعر بشوق هادىء عنيف، اشعر به كانه يجتذبني اليك والى رائد. شوق قوي ما أكثر ما يراودني. لكن شيئاً آخر يمتزج بهذا الشوق هذه الليلة؛ هو نوع من القلق. رباه ارجو ان لا يكون قد أصاب احداً منكم مكروه. لا أدري لماذا أشعر بقلبي كانه يعتصر الماً. رباه احم اولئك الذين احب من الشر.

٢٠ تموز / يوليو ١٩٤٩

استدعاني اليوم السكرتير السياسي للادراة البريطانية المستر الكسندر. فقد ذكرت اخبار اليوم اسم أحد المدرسين المصريين العاملين في برقة، وعندنا منهم عدد كبير، على انه عضو في جماعة الاخوان المسلمين، ومتهم بالقيام بأعمال ارهابية في مصر. فدرست ملفه واعطيته المعلومات، المتوفرة عنه لدينا في ادارة المعارف، وأنبأته بأن هذا المدرس موجود الآن في مصر، فاذا اعتقل، فلا يهم الادارة من امره شيء. فقال شكراً فنحن يكفينا ما عندنا.

وقد اضيف الى قضية المصريين الثلاثة عنصر جديد، فقد اتهم سكرتير القنصلية المصرية هنا بانه من الاخوان المسلمين، فاستدعته حكومته للتحقيق معه. ولما كان خارجاً من دار القنصلية لنقله بالسيارة الى المطار، هرب من حراسه، ولجأ الى دار القيادة العسكرية البريطانية، وهي على بعد نحو خمسين متراً من القنصلية. وبذلك نشأت مشكلة جديدة. فهذا متهم سياسي. هل يُسلم الى الحكومة المصرية أم لا؟ وقد بدأت مفاوضات جديدة حول هذا الموضوع.

٢٠ تموز / يوليو ١٩٤٩

ذهبت اليوم الى مكتبة الاوقاف، وهي المكتبة العامة الوحيدة في برقة كلها. فيها نحو ثلاثة الاف كتاب، أكثرها في الفقه، وبعضها في التاريخ، ولكن ليس فيها مجموعة كاملة من أي كتاب ذي اجزاء متعددة. هذه المكتبة كانت اصلاً في الجغبوب والكفرة مقري السنوسيين العلميين الرئيسيين، والجغبوب كانت الأهم. فلما احتل الايطاليون هاتين الواحتين (١٩٣١) خربوا فيها كثيراً، واحرقوا بعضاً من الكتب، ثم نقلوا ما تبقى الى بنغازي. كان العدد الاصلي بين ١٠,٠٠٠ و ١٢,٠٠٠ مجلد. فلما وصلت الكتب الى بنغازي كان العدد قد أصبح

نحو ٧٠٠ مجلد، وضعها الايطاليون في مكان في المكتبة العامة الاوروبية، التي كان فيها نحو ٢٠,٠٠٠ مجلد. وقبل الحرب الأخيرة بسنوات، لما رأى الايطاليون ان يسترضوا البرقاويين، سمحوا بنقل كتب الفقه والتاريخ الى مكتبة الاوقاف، حيث بقيت هذه المجلدات. لكنها غير كاملة. وما أقل الفائدة من مجلدات غير كاملة.

٢٣ تموز / يوليو ١٩٤٩

انا خارج الليلة مع جماعة من اليوغوسلافيين في مركب بخاري لصيد السمك. هؤلاء أصحاب شركة معها امتياز لصيد السمك. وعندهم مركب بخاري وعندهم نحو ١٥ بحاراً. هم اصدقاء الدكتور كريشل الالماني. وقد خرج معهم اولاً مكلنغن (الطبيب الاسكتلاندي) ثم سوبر (الطبيب الجراح الانكليزي) قبل مدة. والليلة دوري. سنخرج حول الساعة الخامسة (بعد الظهر) وقد نرجع حول الثانية صباحاً. وكي لا أخسر البريد لهذا الاسبوع فانني اكتب هذه الرسالة في المكتب لاضعها في البريد اليوم.

٢٤ تموز/ يوليو ١٩٤٩ الساعة ٣,٣٠ صباحاً

عدت الساعة من رحلة الصيد، ووضعت الابريق على النار (لصنع الشاي) وجلست اكتب اليك (يا مرغريت) هذه الرسالة لتلحق البريد اليوم فتصلك مع رسالة الامس، وبذلك تطمئنين الى انني عدت سالماً.

تحرك القارب بنا من الميناء في تمام الساعة السابعة. واتجه غرباً. فلما كنا قد سرنا ساعة تقريباً، القوا حبل القياس، فوجدوا عمق الماء ٣٧ قامة (القامة يردان). وعندها القوا الشبكة الأولى؛ واستمر القارب بعد ذلك في سيره ساعة اخرى، كي تجمع الشبكة ما يمكنها من السمك. ثم اوقفوا القارب ولموا الشبكة. فخرجت كمية من السمك لا بأس بها. وبينها سمكة واحدة كبيرة من نوع يسمى (rhae) شكلها مثل الترس المثلث ولها ذنب طويل، قطعوه حالاً. اما وزنها فلا شك انه يساوي وزن رائد وجوني معاً (جوني ابن خال رائد، والاثنان كان يومها في الرابعة من سنهما).

بعد ذلك القوا الشبكة للمرة الثانية، وتحرك القارب نحو ساعة في حركة دائرية. ولما سحبوا الشبكة انقطع الحبل الحديدي في احدى جهتيه، لذلك لم تجمع الشبكة سوى نصف الكمية. والقيت للمرة الثالثة، فكان ما جمعته قليلاً، لان انقطاع الحبل أخل بتوازنها. لذلك امرهم القبطان بالعودة الى الميناء. ولما وصلنا نقلني القبطان بسيارته الى المستشفى مع حصتي من الصيد (ست سمكات لغداء اليوم).

كان في المركب سواي ستة ضيوف. وأعطى القبطان بقية الضيوف هدية من السمك.

٢٩ تموز / يوليو ١٩٤٩

يوم ٢٥ تموز / يوليو ١٩٤٩ قدمت استقالتي رسمياً الى السكرتير العام. ذكرت انني سأعمل حتى ٤/٩/١٩٤٩؛ واليوم، بعد ان ذاع خبر استقالتي جاء لزيارتي حامد الشويهدي ـ المفتش بادارة المعارف المسؤول عن منطقة بنغازي. حامد هو الذي قال «نحن غير مستعدين لان نهان في عقر دارنا». والذي استقال احتجاجاً على ما سماه تصرفاتي الاستبدادية في الدائرة .وكنا قد تصافينا لما أدرك انه كان مخطئاً فاعتذر وسحب استقالته. وقد دبرت انا له بضعة أعمال اضافية افاد قليلاً من المال.

اليوم جاء لزيارتي وقال لي: «نحن بعد أن اختلفنا في أول الأمر، وتمكنا من معرفتك، كنا نعتقد انك أنت الرجل اللازم لنا في برقة، ولكن يبدو أن برقة سيئة الحظ».

وقد احتج على استقالتي احتجاجاً شديداً محمود مخلوف لما زارني امس.

١ آب/ اغسطس ١٩٤٩

قضيت الصباح على شاطىء البحر مع اميل بستاني وعائلته. اليوم عطلة رسمية هي عطلة أول آب /اغسطس عند الانكليز ونحن نعطل هنا أيضاً، واصطدنا سمكاً. والظاهر اننا ـ اميل وانا خاصة ـ لم ننتبه، فبقينا

في الشمس اكثر من اللازم. لذلك لما عدت الى البيت مساءً وجدتني لست ملدوغاً فقط، ولكنني تعب جداً. وجاء المستر بغس (BIGGS) ليأخذني الى بيته للعشاء، فقد كنت مدعواً عنده. فذهبت معه في سيارته. وفي بيته شعرت بحرارة، فلم آكل، وحول التاسعة أعادني الى البيت. دعوت كريشل ففحصني وذهب واحضر لي مرهماً ودهن به ظهري ودهنت انا ما تبقى من جسمي. ثم اخذت حبتي اسبرو، وذهبت الى الفراش. لا بد انني نمت.

٢ آب اغسطس ١٩٤٩

افقت خالصاً من الحمى لكنني لم آكل شيئاً، وشعرت بجسمي انه محروق، فلم اذهب الى المكتب، ولكنني طلبت الرسائل لتوقيعها في البيت. فالمدير غوردون غائب عن البلد.

٥ آب /اغسطس ١٩٤٩

اكتب اليك من المكتب، وانا اليوم بخير... الجلد يقشر والالم يخف.

٦ آب / اغسطس ١٩٤٩

وصل اليوم الفرد من القاهرة لتولي عمله في ادارة الاشغال العامة.

٩ آب /اغسطس ١٩٤٩

في الساعة السابعة صباحاً جاء رجب بن كاتو، احد اثرياء بنغازي ومعه ال «بك آب» وكان معه الياس البينا وانطوني كربديان وعمون (وبارودته) وكربيد واثنان انكليزيان واثنتان اوروبيتان ونوبار خشادوريان.

ذهبنا الى سيدي خليفة (١٨ كلم شر في بنغازي)، المزرعة هناك تخص رجب قضينا يوماً لطيفاً.

١٩آب / اغسطس ١٩٤٩

قضيت اليوم في زيارة للسلوق. كان القصد من الزيارة التأكد من صلاحية واحد من مبنيين ليكون مدرسة داخلية. فأهل المنطقة وفيهم الكثيرون من البدو المتنقلين طلبوا فتح مدرسة داخلية في السلوق اسوة بتلك التي في الابيار. والطريف انه لما عرض عليهم توسيع مدرسة الابيار القائمة، بحيث يمكن ادخال ابنائهم فيها، رفضوا لان هذا معناه الحاقهم ـ كقبيلة ـ بالقبيلة المجاورة وهذا لا يجوز. فهم ايضاً لهم منزلتهم الاجتماعية.

لكنني بعد ان انتهيت من عملي الرسمي مع الموظفين المسؤولين، ذهبت لزيارة آل الكزة في دارهم العامرة. وهناك امام البيت جلسنا نحتسي كؤوس الشاي الليبي، ونتحدث عن ايام الايطاليين. فقال كبيرة الاسرة : امام هذا البيت، الذي كان مقر المتصرف الايطالي، وقف ديبونو، وزير المستعمرات الايطالية، وبادوليو حاكم ليبيا وغرازياني، وكان قد وصل الى برقة قبل أسابيع. وكان بادوليو قد استدعى مشايخ القبائل في تلك الجهات، وامرهم بأن يصطفوا، وانذرهم بانه لا يريد ان يسمع منهم كلمة... وأخبرهم بادوليو انه قد عين الجنرال غرازياني حاكماً وقائداً عسكرياً لبرقة. وهو من سمعوا اخباره في البلاد المجاورة، وعنده الصلاحية اللازمة للقضاء على كل من تحدثه نفسه بمساعدة الثوار العصاة (يقصد المجاهدين) ولو اقتضى الامر أن يتخذ من منطقة السلوق مقبرة لجميع العرب في برقة.... وانصرف الثلاثة بعد ذلك دون حديث أو تحدث.

ولم يقصر غرازياني في حكمه لبرقة في اي من انواع الشدة والظلم والقسوة والبلاء منذ ان وصل برقة في آذار مارس ١٩٣٠. وكان من سوء حظ عمر المختار، روح الثورة وقائدها ومنظمها، ان وقع اسيراً في ايدي الطليان في ١١ ايلول / سبمبر ١٩٣١. وحمل مصفداً بالاغلال الى بنغازي، وحوكم امام المحكمة الطيارة في دار البرلمان البرقاوي وذلك يوم ١٥ ايلول سبتمبر، واستغرقت محاكمته ساعة وربع الساعة. وحكم عليه بالاعدام. (راجع التفاصيل في نقولا زيادة : برقة الدولة العربية الثامنة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٠ ص ١١٥ـ ١١٧، وللمؤلف نفسه، ليبيا في العصور الحديثة، القاهرة ١٩٦٦ ص١٠٩ـ١١١).

عودة الى الرسالة المؤرخة في ١٩ آب / اغسطس ١٩٤٩

وبعد أن القي القبض على عمر المختار وحوكم وحكم عليه بالاعدام جيء به الى هنا الى السلوق لاعدامه. فقد كان هناك واحد من أكبر مراكز الاعتقالات والتهجير التي اقامها غرازياني. لذلك نفذ حكم الاعدام به هنا وحمل الناس من المعتقل وغيره على المجيء لمشاهدة ذلك. وقد كان هناك ما لا يقل عن عشرين الفاً.

والمكان الذي اعدم فيه عمر المختار يبعد نحو كيلومترين عن السلوق. وقد زرت المكان فاذا به قفر بلقع... وحري بأن يقام هناك نصب تذكاري للرجل الذي قارع الايطاليين قائداً وروحاً للثورة عشرين عاماً.

وتذكرت قصيدة شوقي الذي يقول في مطلعها

ركزوا رفاتك في الرمال لواء   يستنهض الوادي صباح مساء

٢٩ آب/ اغسطس ١٩٤٩

حجزت اليوم تذكرة بالباص الى طرابلس، وان شاء الله سأغادر بنغازي يوم الاحد في ٤ ايلول/ سبتمبر الى طرابلس ومنها الى مالطة فدمشق فبيروت.

طرابلس ٥ ايلول/ سبتمبر ١٩٤٩.

صباح امس في الساعة الثامنة الا ربعاً بدأ الباص سيره الى طرابلس يوم الاحد.

المسافة بين بنغازي وطرابلس ١٠٥٠ كلم ... والباص مقاعده متعبة لانها من الخشب وضيقة وظهرها قصير. لكنني حملت معي من المستشفى حراماً ومخدة، وبذلك جعلت المقعد مريحاً نسبياً.

وصلنا طرابلس الساعة ٣,١٥ من بعد ظهر يوم الاثنين اي اننا قضينا في الطريق ١/ ٢ ٣١ ساعة. وفي هذه المدة كان الباص يسير، ولم نقف الا للاكل أو للفحص الجمركي. والسائق لم يتغير، ولم ينم في هذه المدة كلها سوى ساعة ونصف الساعة.

من بنغازي الى المقرون (٨٠ كلم) كانت الطريق شبه صحراوية، تخفف من حدة الجفاف فيها بئر على جانب الطريق أو أغنام ترعى. ومع ان الغنم ترى، وقد تبدو الآبار، فان الطريق الى أجدابية وهي ١٦٠ كلم من بنغازي تزداد جفافاً وتقل الآبار. واجدابية بقية من البيوت الرسمية بنتها الحكومة الايطالية، وبيوت طينية او تنكية، يسكنها البدو، وبيوت من الشعر.

في اجدابية تم تفتيش الخروج على جوازات السفر والثياب. وبينما كان التفتيش يتم أكلنا، ونحن وقوف أو جلوس على الحجارة.

تركنا اجدابية الساعة ١٢,٣٠، ووصلنا سرت في الساعة ١١,١٥ مساءً، اي بعد أكثر من ١١ ساعة، والمسافة ٤٥٠ كلم بين المكانين. لكننا وقفنا عند قوس فيلونيوم القوس الرخامي أو ماربل ارتش ساعة ونصف الساعة من ٤,٣٠ ـ ٦). أكلنا فيها، وأصلحت ماكنة الباص من عطل بسيط أصابها.

هذا الجزء من الطريق قاحل بالمرة. تصوري يا مرغريت انه لا يوجد على جانبيه الا بئران في كل هذه المسافة الطويلة، واحدهما ماؤه ملح. وقد ترين على جانب الطريق جملاً يرعى، أو بيتاً متهدماً من بقايا الطليان، أو بيت من الشعر يعتبر بيت الشعر الذي زرناه في بئر السبع (في فلسطين) منزلاً فخماً بالنسبة اليه.

في ايام الطليان اقيمت على جانب هذا الطريق بيوت كان يقطنها جماعة من الايطاليين عملهم الاشراف على اصلاح الطريق، وهذه البيوت ـ أو آثارها ـ يبعد الواحد عن الآخر بين ٦٠ و ١٠٠ كيلومتر؛ وهناك ثلاثة مراكز للبوليس كذلك. ولكن جميعها الآن متهدمة مهملة.

وما الذي يراه المسافر في هذه الجهات؟ طريق طريق طريق وعلى الجانبين رمال وصخور، وقد يظهر البحر على مسافة قريبة من الطريق. انه طريق لا نهاية له كأنه طريق الابدية ـ لا تكاد تختفي قطعة منه حتى تبدو قطعة أخرى.

وصلنا سرت الساعة ١١,١٥ ليلاً، فاكلنا معكرونة في مطعم ايطالي وشربت بعدها قهوة بالحليب، واستمر الركب بعدها (خلص الحبر فلاتم الرسالة بقلم الرصاص) فوصلنا جادو في الساعة ٦,١٥. هناك توجد نقطة بوليس ومركز مهاجرة وجمرك للذاهبين الى طرابلس (فقد كانت طرابلس وبرقة ولايتين مختلفتين ولو انهما كانتا تحت اشراف بريطانية). وفي جادو مقهى ومطعم للايطاليين. ان منطقة طرابلس لا يزال فيها نحو ٤٥ ـ ٥٠ الف ايطالي، وهم القائمون بشؤون المطاعم والمقاهي والفنادق. وهكذا انتظرنا في جادو الى ان فتح المقهى فشربنا فنجاناً من القهوة مع الحليب. ولما انتهت معاملات الجمرك وجوازات السفر للركاب وتابعنا السير من جديد الى مسراتة.

والطريق من سرت تدب فيه الحياة. فالارض خصبة وتبدو البيوت ذات المزارع على النحو الذي عرفناه في الجبل الاخضر في برقة. ولكن البيوت والمزارع هنا عامرة. وتستمر الحال على ذلك الى مسراته. وهذه مدينة صغيرة جميلة جداً جداً.

جلست فيها في مقهى واكلت آخر ما كان معي من السندويش، وشربت قهوة بالحليب. وصلنا مسراته الساعة ٩,٤٠ وغادرناها الساعة ١٠,١٥ الى طرابلس.

المسافة من سرت الى مسراته نحو ٢٥٠ كلم، ومن مسراته الى الخمس نحو ١٠٠ كلم. والجزء الأكبر من هذا الطريق يمر ببيارات برتقال ثم بكروم الزيتون.

والخمس هي لبدس ماغنا الرومانية، وآثارها كثيرة، لكن الشوفير لم يقف فيها ابداً. فالقينا عليها تحية، والقى الباقون عليها لعنة، لانها «بلدة خربت بسبب فجور أهلها» هكذا يعتقد القوم هنا.

وقف الركب في قرابلّي (غرابلّي) على بعد ٥٢ كلم من الخمس، حيث استراح الجميع وتغدوا. اما انا فلم اكن جائعاً لآكل. وبين الخمس وطرابلس يجتاز الطريق مساحات واسعة من غابات النخيل. اما عندما يقترب الواحد من طرابلس تبدو أمامه حدائق ومزارع جميلة جداً؛ يتجلى فيها الذوق الايطالي.

وفي الساعة الثالثة والربع دخلنا طرابلس (٥٨ كلم عن قرابلي و ٢١٠ كلم عن مسراته). وذهبت الى فندق فكتوريا.

الاحد ٤ / ٩ مغادرة بنغازي

الاثنين ٥ / ٩ الوصول الى طرابلس

الثلاثاء ٦ / ٩

الاربعاء ٧ / ٩

الخميس ٨ / ٩ في طرابلس

الجمعة ٩ / ٩ من طرابلس الى مالطا

وجدت ان رحلة ذلك اليوم من لندن الى دمشق الغيت

السبت والأحد والاثنين والثلاثاء في مالطة.

الاربعاء من مالطا الى دمشق. غداء عند اميل وماري ومتابعة بالسيارة الى سوق الغرب.

رائد يحمل شنتتي وانا أساعده من السيارة الى البيت.

القسم السادس

في بيروت

الفصل الرابع والعشرون

وصلت بيروت، عائداً من برقة بطريق طرابلس ومالطة ودمشق في أواسط شهر ايلول / سبتمبر ١٩٤٩. وكان ثمة أمور كثيرة يجب أن ترتب قبل أن يبدأ العام الدراسي في الجامعة. وأولها وأهمها هو العثور على بيت أو شقة لتكون مأوى لنا. وبعد زيارة عدد من الاماكن، كانت مرغريت قد زارت بعضها قبل قدومي، استقر رأينا على بيت منفرد من طابق (دور) واحد يحيط به ما يمكن ان يطلق عليه حديقة ولو تجوزا. كان هذا في عين المريسة.

وكان الامر الآخر شراء فراش لنا. وأرشدنا الى المنجدين المشهورين يومها وكانت حوانيتهم في درج الاميركان، وهو درج كان يصل مجمعاً فيه مبنى مدرسة البنات الاميركية، ومبنى كلية اللاهوت للشرق الادنى وكنيسة الطائفة الانجيلية (البيروتية) الوطنية بأول ما عرف فيما بعد باسم ساحة رياض الصلح. والذين ارشدونا الى المنجدين خصصوا احدهم بالعمل المتقن لانهم جربوه وكنا قد حملنا معنا من لندن بعض ما ينفع في المطبخ وفي مكان تناول الطعام من طناجر وصحون وملاعق وما الى ذلك. كما اننا كنا قد اتينا من هناك بعدد لا يستهان به من الشراشف والمناشف يصلح للفراش والحمام.

كان بيتنا صغيراً. فيه غرفتان للنوم واحدة لرائد والاخرى لنا، وفيه ليوان متسع افدنا منه غرفة جلوس ومكتباً لي. وكان المطبخ واسعاً، فاجتزأنا بقسم منه للطعام، وما تبقى استعمل لشؤون المطبخ العادية.

ولكن لما جاء الجيران - في البناء القريب وفيه ثلاثة طوابق (ادوار) - وجدنا انه يوجد عندهم ١٤ ابنا وبنتاً. (مع انهم قالوا ان عندهم اربعة فقط). وكان لعبهم في الساحة الواقعة امام بيتنا. كنا رضينا بالامر، الى أن بدأ الربيع وهاج البعوض في المنطقة، وهاجمنا، فبدأنا العمل بالناموسيات. على كل في مطلع ايار / مايو ذهبت مرغريت مصحوبة برائد الى سوق الغرب حيث كنا قد استأجرنا بيتاً اقام فيه ابوها وامها . وعندئذٍ تفرغت أنا للعمل.

كان التحاقي بالجامعة الاميركية في بيروت محطة مهمة في حياتي. كان أملي، وأنا أعلم في عكا (١٩٢٥ - ١٩٣٥) ان التحق بجامعة للدراسة. وقد تم لي هذا. ولما عدت سنة ١٩٣٩ وعينت في القدس في الكلية الرشيدية والكلية العربية، اعتبرت هذا خطوة مهمة في حياتي العلمية. وكنت اغبط الذين أعرفهم في مصر أو في بيروت لانهم يعلمون في جامعة.. ولذلك فقد أثلج صدري القرار الذي اتخذته حكومةفلسطين بوجوب اتمام الدراسة في الكلية العربية بحيث تصبح جامعية يحمل الذين يتخرجون منها رتبة بكالوريوس (اجازة). ولما ذهبت الى لندن سنة ١٩٤٧ للعمل في سبيل الدكتوراه كان ذلك جزءاً من مخطط المقصود منه أن يؤهل عدد معقول من المدرسين في الكلية العربية تأهيلاً علمياً عالياً، كي يتمكنوا من الاضطلاع بالمسؤولية على شكل أفضل.

لكن الامر لم يتم على ما خطط له. فقد انهت الحكومة البريطانية انتدابها على فلسطين، وانتهى الأمر بي، على ما رويت من قبل، ان وجدت نفسي وليس لدي بيت أوعمل أو دولة.

من هنا كان التحاقي بالجامعة الاميركية فيه امران: الواحد تحقيق للحلم الذي كان يراودني في أن أعمل في

مؤسسة أوسع من الكلية العربية التي عرفت؛ والأمر الثاني هو التحدي الذي يمكن أن يفرضه العمل الجديد علي. وهذا لم يكن لدي اي شك في مقدرتي على الاستجابة له. فلم يكن هذا اول تحد، ولم يكن آخر تحد، كما سأذكره فيما بعد.

كان مبنى كولدج هول (بني سنة ١٨٧٣)، وهو أول مبنى اقيم للكلية السورية الانجيلية (وهو الاسم الأصلي للجامعة الاميركية بعد أن تم للمؤسسة ابتياع الارض اللازمة في منطقة راس بيروت) مركز العمل الرئيسي لما يسمى قسم الآداب من كلية الآداب والعلوم. كانت المكتبة العامة تشغل الطابق الثاني منه في نصفه الشرقي؛ اما النصف الغربي فقد كانت فيه مكتبة متخصصة تسمى مجموعتها المكتبة الاسلامية. ولا تزال الكتب التي كانت في هذا الجزء من المبنى يقرأ عليها الحرفان IL، وهما الحرفان الاولان لكلمتي Islamic Library

وفوق هذين القسمين من المبنى كانت تقوم غرف نوم للطلاب. والواقع ان اكثر مباني الجامعة كان فيها غرف نوم لما انضممت انا اليها.

اما الطابق الاول (الارضي) فقد كان فيه مكاتب لدائرة التاريخ والعربية والتربية وعلم النفس.

اعطيت انا طاولة وكرسياً في المكتبة الاسلامية وقد سرني ذلك. وكان زملائي هناك انيس المقدسي استاذ الادب العربي ورئيس الدائرة العربية؛ واسحق موسى الحسيني زميلي في الكلية العربية في القدس وصديقي العزيز، وموسى سليمان الذي كان مدير الدروس العربية في المدرسة الاستعدادية لكنه كان يعد بحوثاً لرسالة الدكتوراه؛ وجورج عطيه (رئيس قسم الكتب العربية في مكتبة الكونغرس في واشنطون اليوم) وكان يعد رسالة للماجستير عن الحزب القومي السوري الاجتماعي. وكان جبرائيل جبور يتردد على المكتبة كثيراً.

الصعوبة الوحيدة التي كنا نلاقيها هناك هي استقبال الطلاب؛ اذ ان هذا معناه الكلام وازعاج الآخرين. لكن كنا نتصرف بشكل يكون فيه الازعاج على أقله.

وكان الزملاء الآخرون في دائرة التاريخ هم نبيه امين فارس (رئيس الدائرة) وزين نور الدين زين وتشارلز ملر ودافيد غوردون ومحمد توفيق حسين. وكان قسطنطين زريق قد ذهب الى دمشق ليكون رئيساً للجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم).

اما في دائرة اللغة العربية فقد كان هناك الى جانب انيس المقدسي وجبرائيل جبور واسحق الحسيني، الذين ذكرتهم قبلاً، انيس فريحه وكمال يازجي.

وحري بالذكر ان مبنى كولدج هول لم يكن يومها على الحالة التي هو عليها الآن. (كتبت هذه الكلمات قبل تفجيره في ٨/ ١١/ ٩١) كان بناء مستمراً يمتد من الشرق الى الغرب، وله مدخلان واحد في الشرق والآخر في الغرب. وقد كان زخرف طبيعي في الحجر المبني من الباب الغربي يبدو كأنه كلمة كفر، فقيل في ذلك:

كـيف يرجى الخـيـر من مـدرسـة   كـتب الكفـر على أبوابـهـا

في السنة الثانية من وجودي في الجامعة (١٩٥٠ـ ١٩٥١) ادخل بعض التنظيم على وجودنا في المكاتب. الغيت المكاتب في المكتبة الاسلامية، وحشرنا جميعنا في الدور الارضي من كولدج هول. كان زين وملر وغوردون في مكتب؛ وكان لنا أنا وكمال يازجي واسحق موسى الحسيني ومحمد توفيق حسين مكتب يجمعنا. وكان ثمة مكتب لنبيه امين فارس بوصفه رئيس دائرة التاريخ ومدير برنامج الدراسات العربية. كما ان جبرائيل جبور رقي الى رتبة استاذ وعهدت اليه رئاسة دائرة اللغة العربية ـ ذلك بان انيس المقدسي احيل الى التقاعد.

وكان في مبنى كولدج هول مكتب لحبيب كوراني رئيس قسم التربية وعلم النفس، وذلك في الطابق الاول (الارضي) وكان جبرائيل كاتول وليفون مليكيان من أساتذة الدائرة التي يرئسها حبيب كوراني.

هذه هي المجموعة التي كان لي بها اتصال مباشر في اول عهدي بالجامعة الاميركية. ولم يكن جميع هؤلاء اشخاصاً اتعرف عليهم للمرة الاولى. فنبيه امين فارس، اللبناني الاصل، مولود في الناصرة بلدة اصل اسرتي (ولو انني مولود في دمشق). كان نبيه قد تخرج في الجامعة الاميركية سنة ١٩٢٩، وبعد ان علم في مدرسة صهيون (مدرسة المطران غوبات) بالقدس بعض الوقت، ذهب الى برنستون في الولايات المتحدة ليدرس في كلية اللاهوت هناك. وقد انتهى به الامر ان وضع رسالة الدكتوراه تحت اشراف فيليب حتي وكانت عن الاكليل (الجزء الثامن) اذ ترجمه الى الانكليزية وكتب مقدمة وافية عن المؤلف والكتاب. وعمل في برنستون في تنظيم مجموعة غارت للمخطوطات العربية وفهرستها. واظن ان نبيه امين فارس كان اكثرنا خبرة في اساليب البحث والتنقيب والدقة في العمل.

كنت أعرف نبيه امين فارس معرفة محدودة ايام كان طالباً في صهيون وفي الجامعة الاميركية. ذلك ان والده أمين فارس كان يدرس العربية في مدرسة لمؤسسة تبشيرية بروتستانتية في الناصرة هي جمعية التبشير المسيحية. وكان عالماً ضليعاً في اللغة. وكان في القدس مؤسسة علمية اسمها كلية الشباب (بالعربية) English College بالانكليزية . هذه كانت في العشرينات تعتبر نواة لدراسة ما بعد الدراسة الثانوية كان استاذ العربية فيها نخله زريق. فلما توفي هذا الرجل اختير امين فارس للتدريس في كلية الشباب. ومن هنا لم يكن اجتماعي بنبيه كثيراً. فهو في القدس وانا اعلم في عكا.

وبعد ان قضى نبيه امين فارس نحو أربعة عشر عاماً في برنستون طالباً وباحثاً، سنحت له الفرصة لان يأتي الى الجامعة الاميركية في بيروت. ذلك بأن قسطنطين زريق عينته الحكومة السورية مستشاراً للسفارة السورية في واشنطون (على أن يصبح سفيراً بعد ستة شهور وقد تم ذلك). وارادت الجامعة الاميركية الحصول على من يحل محله في تدريس التاريخ الاسلامي، وتمت الترتيبات بان جاء نبيه امين فارس في منصب استاذ مشارك لمدة سنتين (١٩٤٥-١٩٤٧). ولما اصرت الحكومة السورية على الاحتفاظ بقسطنطين زريق سفيراً لمدة أطول. عرض على نبيه أن يبقى في الجامعة، فاشترط ان يكون «استاذاً». وهكذا كان.

وكنت قبل أن التحقت بالجامعة الاميركية زميلاً لنبيه، قد التقيته في القدس، في زيارة قصيرة؛ ولما واجهنا واحدنا الآخر، بعد ما لا يقل عن ربع قرن، نطق كل منا باسم الآخر، كما لو كنا تركنا بعضنا قبل أيام.

وقد دعا النادي العربي، في يافا، نبيه امين فارس لالقاء محاضرة فيه سنة ١٩٤٦، ودعيت انا من القدس لتقديمه. وكانت أمسية في غاية المتعة - أثناء المحاضرة وبعدها؛ وخاصة بعدها.

كنت قد تعرفت الى قسطنطين زريق في زيارة له للقدس سنة ١٩٤١. ولما كنت في لندن اعد رسالة الدكتوراه، وكان هو قد عاد الى الجامعة الاميركية في بيروت من مهمته الدبلوماسية، طلبت منه تيسير الحصول على فهرست محفوظات المكتبة الظاهرية - قسم التاريخ يسر لي الامر. ولما مررت بالجامعة في طريقي الى برقة واتفقت مع العميد مبدئياً على العمل فيها، زرت قسطنطين زريق في مكتبه (وكان يومها قد عين نائباً لرئيس الجامعة) كانت زيارتي له مشجعة لي كثيراً. لكن معرفتي بقسطنطين زريق، ونبيه امين فارس، تعود بطبيعة الحال الى الفترة الطويلة التي تزاملنا فيها فيما بعد.

لم اكن قد التقيت زين نور الدين زين قبل انضمامي الى الجامعة. لكنني كنت أعرف اباه بعض المعرفة (ولم اعرف بهذه القرابة الا بعد ان جئت الجامعة). ذلك بأن نور الدين زين، الذي كان أحد المقربين من عباس افندي، زعيم البهائيين الذي كان يقيم في حيفا، كان يسكن في البهجة في عكا. وكان معروفاً عنه جودة الخط. لذلك لما انشأنا النادي الارثوذكسي في عكا، زرته، مع آخرين وطلبنا منه أن يكتب لنا بخطه اسم النادي الارثوذكسي في عكا (وسنة انشائه) ١٩٢٩. وهذه ظلت الكليشيه الخاصة بالنادي طوال عمره.

نبيه امين فارس بدأ عهده بالطلب الجامعي في التاريخ وانصرف اليه. قسطنطين زريق بدأ يدرس الهندسة (وكانت الهندسة فرعاً من دائرة الرياضيات فقط)، لكن الاغراء نقله الى التاريخ، وبعد حصوله على البكالوريوس ذهب الى شيكاغو للماجستير وبرنستون للدكتوراه. اما زين نور الدين زين فقد حصل على البكالوريوس في الكيمياء، وظل مدة يعلم الكيمياء في القسم الاستعدادي ثم تحول الى التاريخ: ماجستير ودكتوراه. وزين خصص جهده في دراسة التاريخ العثماني الحديث.

وشارل ملر، الذي كان يوم انضممت انا الى الجامعة استاذاً مساعداً، كان متخصصاً في التاريخ الاوروبي. وشارل ملر كان ملتزماً من الناحية الدينية. لم يكن متعصباً بالنسبة للمذاهب المسيحية الاخرى أو للاديان السماوية الباقية. لكنه كان ملتزماً وكان يحب أن يتحدث مع طلابه، وخاصة الانجيليين منهم، عن الشؤون الروحية. وقد سمعت من بعض طلابه انه اثر فيهم تاثيراً ايجابياً. اما الذي عرفته انا منه وعنه شخصياً انه كان معتداً بنفسه فيه شيء من الحسد والغيرة. ويخيل الي، وقد أكون مخطئاً، انه كان يعتبر عمله في الجامعة الاميركية نوعاً من محاولة «تثقيف وتحضير» لا التعليم والبحث العلمي فحسب.

ولاستبق الاحداث بالنسبة لملر. كان العميد هارولد كلوز قد انتهت (أو كادت ان تنتهي) مدة عمادته في آخر العام الدراسي ١٩٥١ ـ ١٩٥٢. لذلك بدأ البحث عن شخص يمكن أن يخلفه. وبدأ الرئيس بنروز يبحث معنا هذه القضية. وأخيراً تقرر أن يظل كلوز سنة اضافية وبذلك تنتهي عمادته في الوقت الذي يبلغ سن التقاعد (اي الخامسة والستين). وبسعي مني ومن غيري عين تشارلز ملر عميداً بالوكالة (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤)، وذهب بعد ذلك لقضاء سنته السباعية، وقد اتضح ان ملر لم يكن الشخص المناسب للعمل. (وكم اسفت انا شخصياً لتأييدي اياه). ولكن الأهم من ذلك هو أن ملر لم يرجع الى الجامعة الاميركية. فقد طلب اليه، وهو في الخارج، ان يستقيل من العمل، وأعطي المكافأة التي يستحقها (او لا يستحقها). وقيلت امور كثيرة عنه تكشفت لما تولى الادارة ـ ولو لسنة واحدة.

اما دافيد غودون فقد جاء مدرساً يحمل شهادة البكالوريوس من جامعة برنستون. وقد عمل للماجستير (وحصل عليها وكانت رسالته جيدة) في الجامعة الاميركية. ثم ذهب الى برنستون وحصل على الدكتوراة وعاد الينا، (وليته لم يعد) وذلك بسعي من نبيه فارس ومني.

غوردن كان فيه الكثير من الخبث، وكثيراً ما كان يتكاذب. وبعد عودته الى الجامعة، ثم ترقيته، كان يحارب نبيه امين فارس حرباً شعواء. اما انا فعلاقتي به، لما اتضح لي من شخصيته ما كان قد خفي، كانت علاقة لا تتعدى صباح الخير. خاصة لما توليت رئاسة الدائرة دائرة التاريخ (١٩٦٥ ـ ١٩٦٦) ذلك بانني انذرته من اول الامر بانه يترتب عليه ان يؤدي واجبه نحو الطلاب ولا يلغي بعض المحاضرات او السمنارات لمجرد ان ذلك يحلو له. ولم يعجبه هذا قط..

محمد توفيق حسين كان ايضاً مدرساً في قسم التاريخ. وهو عراقي متخرج من الجامعة. أمين في معاملته، صديق وفي مخلص او خصم على المكشوف. كنا أصدقاء ولو اننا اختلفنا في نظرتنا السياسية. فقد كان يسارياً، ولم أكن أنا متفقاً مع هذه الفلسفة السياسية. لكن اختلاف الراي بيننا لم يفسد للود قضية.

وقد تركنا محمد توفيق حسين لما حدثت ثورة العراق تموز ١٩٥٨. وعاد الى بلده، وتولى الشؤون الادارية في وزارة الاعلام. ثم اكتشف ان هوة عميقة تفصله عن القوم. فترك المنصب وعاد الى التدريس في قسم التاريخ في كلية الآداب في جامعة بغداد. واذا صحت قراءتي له لما اجتمعت به غير مرة في بغداد، فقد شفي مما كان يداخله من خطل الاتباع السياسي.

كانت دائرة اللغة العربية وآدابها ودائرة التاريخ توأمين من حيث الاقامة والمشاركة في المكاتب. وجدت هذا لما دخلت الجامعة (١٩٤٩) ولا يزال الامر على ذلك (١٩٩١)؛ ومن هنا كنا كثيراً ما نحسب انفسنا أكثر من زملاء في مؤسسة، فنحن زملاء في درس ثقافة وحضارة وادب تعود الى ينابيع واحدة؛ لذلك فالرابطة بيننا قوية - مكانا وعملاً وهدفاً.

زاملت انيس المقدسي سنة واحدة، وكنا نشغل طاولتين في المكتبة الاسلامية. وانيس المقدسي كان جدياً في عمله وتصرفه، محافظاً على القيام بواجبه. وأقول، وقد عرفت آثاره فيما بعد، وسمعت الكثير عنه من الذين عملوا معه وتتلمذوا عليه، ان الرجل استحق لقب «معلم الجيل» بكل ما في الكلمة من معنى. ولعل اللقب اطلق على الكثيرين، لكن انيس المقدسي كان بذلك حرياً.

ومما يجب ان يذكر لانيس المقدسي انه لم يكن دعياً ولا متكبراً. ترك الجامعة سنة ١٩٥٠، وكان في سن الخامسة والستين. وقد ناهز التسعين لما توفي، وظل يعمل في كتبه تنقيحاً وزيادة حتى قبيل وفاته.

وجبرائيل جبور زاملته نيفاً وعشرين سنة. جبرائيل فيه لمعة ذكاء، لكن الذي كان يؤذيه امران غلبا عليه، خاصة بعد أن وصل رتبة الاستاذية، وهما ادعاؤه، تصرفاً لا تحدثا، وسطحيته. ومثلي على ذلك بشكل خاص كتابه عن البدو. فقدتحدث عن الكتاب سنوات طويلة وكان قلما يفوت فرصة لا يشير فيها الى انه يجمع المادة لهذا الكتاب. فلما نشر قبل وفاته ببعض الوقت وجدته - ووجده غيري - سطحياً بالمرة. وبسبب ما كنت اكن لجبرائيل من حق الزمالة رفضت ان اراجعه، لانني لم ارد أن أكذب على القراء. والقسم الافضل من الكتاب هو ما نقله عن عدد من الاجانب الذين عرفوا البدو وعاشوا بينهم ومعهم مثل موزيل وداوطي.

وكنت اعتبر كمال اليازجي مثل الرجل الدؤوب. وبفضل نشاطه وعمله المستمر نجح في أن يكون معلماً جيداً. وكتبه المدرسية دليل على ذلك. لكن كمال اليازجي كانت تنقصه، فيما أرى، اللمعة الذكية، لذلك لم يتمكن من ادراك أمور كثيرة، حتى فيما كان يدرس من الفلسفة العربية الاسلامية. فضلاً عن ذلك فان اليازجي كان قليل الاطلاع على مناحي الفكر الاخرى.

انيس فريحة كان الاذكى بين زملائنا يومها، وقد اتيح لانيس ان يدرس في شيكاغو وفي هيدلبرغ، كما انه علم في العراق وزار انكلترا في احدى سباعياته، وقد كان الأكثر انفتاحاً. ولم اسمع من انيس فريحة في مدة زمالتنا وبعيد انتهاء عمله اذ كنت اراه (قبل أن يقعده فقد بصره في البيت) يوماً تمدحاً أو ادعاء.

وكان رضي النفس. وقد سمى ابنه رضا. وتروى عن ذلك حكاية طريفة. كان ابراهيم طوقان الشاعر الفلسطيني وانيس فريحة زميلين في الجامعة. وكان ابرهيم يرى في انيس عيناً راضية. فسماه ابو الرضى. فلما تزوج انيس وولد له ابنه سماه رضا تيمناً بما كان يتفاءل به ابرهيم.

واسحق موسى الحسيني قضى في الجامعة سبع سنوات قبل أن ينتقل الى القاهرة. اسحق كان، مثل غيره، يستطيع أن يبحث وأن يعد دراسة جيدة. وكان كثير القراءة .لكن اسحق كان متوسطاً في لمعانه الفكري. وكان يميل الى الانفراد كثيراً. لذلك لم يستطع أن يصبح جزءاً من مجتمع الجامعة أو مجتمع بيروت؛ فترك المكان.

وكان أقرب الزملاء من غير الدائرتين المذكورتين الي وبي ثلاثة يعملون في دائرة التربية وعلم النفس. وهم جبرائيل كاتول ولفون مليكيان وحبيب كوراني.

جبرائيل كاتول تعود معرفتي به الى ربيع سنة ١٩٢٣. كان بين المدرسين في دار المعلمين يوسف قدورة من رام الله. وفجأة اكتشف يوسف قدورة ان المرتب الذي يتناوله دون ما يستحق فاستقال. وهكذا دخل علينا في درس علم الحيوان (في اليوم التالي للاستقالة) مدير دار المعلمين ومعه شاب نشيط قدمه لنا على انه الاستاذ

جبرائيل كاتول الذي سيتم لنا المادة التي كان يدرسها يوسف قدورة.
رأيت في جبرائيل، من الحصة الاولى التي حضرتها عليه، انه رجل صارم مع نفسه، وقابلته بذاكرتي بأخيه سليم الذي علمني في السنة السابقة، ووجدت فرقاً كبيراً. اما علمه ومعرفته فمن أين لنا أن نحكم عليهما لكن جبرائيل كان يدخل قاعة الدرس وبيده دفتره الذي اعد فيه محاضرته. وكان يترك في نهاية المحاضرة بضع دقائق للاسئلة. كما أصبح فيما بعد يبدأ الدرس بأن يسألنا فيما اذا كان لدينا ما نحب ان نستفسر عنه من دروس سابقة. احسب اننا كنا سنفيد من جبرائيل كاتول فائدة كبيرة لو انه تابع عمله معنا. لكنه ترك اذ ان اعماله الادارية لم تكن تسمح له بالانصراف الى التدريس. فحل محله في تدريس المادة لما بقي من السنة درويش الحاج ابراهيم (درويش المقدادي فيما بعد). ودرويش كان يتعلم الدرس مساءً ليعلمه لنا صباحاً.
ترقى جبرائيل كاتول في ادارة المعارف بحيث أصبح مساعداً ادراياً لمدير المعارف، وكان في الوقت نفسه كبير المفتشين وخاصة للرياضيات. ولما كنت اعلم في عكا (١٩٢٥-١٩٣٥) كثيراً ما زارنا مفتشاً. وكان، على ما كان بيني وبينه من صلة، يحافظ دوماً على المسافة بينه - الرجل الاداري فوق وبيننا - المعلمين.
ولما عدت من لندن سنة ١٩٣٩ وعملت في الكلية العربية، لم يكن جبرائيل كاتول صاحب سلطة علي، لان الكلية العربية كانت معهداً خاصاً مرتبطاً بمدير المعارف مباشرة. لكنني كنت القاه احياناً، وقد استشرته مرة اواثنتين في أمور العمل وتبديله، لانني كنت اعرف عنه انه كان صريحاً.
لذلك لم يكن غريباً علي أن أرى جبرائيل كاتول زميلاً لي. لكنه بدا في أول الامر وكأنه لا يزال يحسب نفسه مساعداً لمدير المعارف وانا معلم في مدرسة عكا الثانوية. لكن تصرفه على هذا الشكل مرة واحدة وازوراري عنه كان كافياً لان يقنعه بأن الدنيا تبدلت. وصرنا بعدها زملاء، وكان يحترمني حتى انه لما وضع كتابه في الادارة التربوية طلب مني أن أكتب المقدمة!
كان سروري بوصول ليفون مليكيان، بعد بدء الدراسة بأيام، كبيراً. كان ليفون مسؤولاً عن قسم الاحداث (الصغار) في جمعية الشبان المسيحية في القدس. وفي عمارتها الفخمة كان يشرف على نشاطات هؤلاء الصغار. وكان المشرف على الشؤون الثقافية والاجتماعية في الجمعية شفيق منصور، ابن بلدي (الناصرة). وقد كانت ثمة لجنة تساعد المشرف في الامور المختلفة فطلب مني ومن عبد الحميد ياسين أن نعاونه، ففعلنا. وهناك عرفت ليفون، الذي كان واعياً عمله قائماً بواجبه خير قيام.
غادرت القدس في ايلول / سبتمبر ١٩٤٧، وقامت الدنيا في فلسطين ولا تزال قائمة، ولم نعد نعرف عن اصدقائنا الا القليل وكان ليفون قد ترك القدس قبلي. ولذلك كان سروري عظيماً اذ عرفت ان ليفون كان قد التحق بجامعة كولومبيا في نيويورك وحصل على الدكتوراه في علم النفس، وانه جاء للعمل في الجامعة الاميركية في بيروت.
وكان حبيب كوراني من اوائل من تعرفت اليهم من جديد بعيد التحاقي بالجامعة. كان حبيب قد قضى سني الحرب (العالمية الثانية) في الولايات المتحدة، وكان قد عمل هناك في الحكومة الاميركية، وحصل في الوقت نفسه على دكتوراه في التربية. ولما عاد عهد اليه برئاسة دائرة التربية (وعلم النفس جزء منها).
لم يكن حبيب كوراني ممن يمكن أن تسميهم من أهل الفكر، ولكنه كان يتمتع بخصلتين كان لهما اثر في سيره في الجامعة وتصرفه مع الناس. الاولى انه كان مخلصاً دؤوباً في عمله، والثانية انه كان يتخذ من أهل الجامعة، من رئيسها الى أصغر مدرس في دائرته، موقفاً أبوياً فيه حدب على الأشخاص. وظني انه كان يخطىء في تصرفه بالنسبة للخصلة الثانية. فقد يفيده هذا بالنسبة للصغار والموظفين، لكن مثل هذا التصرف لا ينفع مع الذين يعرفون قدر نفوسهم. وقد اظهر لي لطفاً خاصاً لما أصبح لدينا في الجامعة مدرسة صيفية كي

أساعده. وقبلت، فأنا كنت بحاجة الى مورد اضافي يساعدني في حاجاتي وحاجات اسرتي. ولما اكتشف حبيب كوراني انني مستعد لتقديم العون والمساعدة لكن على طريقتي وبدون تلقي اوامر تفصيلية، اراد، أول الأمر، أن يشيح بوجهه عني. لكن لما عرف ان هذا لن يغير موقفي، عاد الي على اساس: نقولا رتب انت الأمور كما ترى مناسباً.

كان رئيس الجامعة الأميركية لما وصلت اليها ستيفن بنروز، الذي تولى الرئاسة سنة ١٩٤٨. وبنروز كان قد علم في الجامعة اثر حصوله على الشهادة الجامعية الاولى (١٩٢٦-١٩٢٧) في الفلسفة. وبعد ان تقاعد الرئيس الذي سبق بيار دودج (١٩٢٣-١٩٤٨) عينه مجلس الامناء رئيساً. وكان قسطنطين زريق نائب الرئيس للشؤون الاكاديمية (وقد غاب رئيساً للجامعة السورية - جامعة دمشق اليوم - لكن الجامعة احتفظت له بمنصبه شاغراً حتى عاد سنة ١٩٥٢). وكان البرت ماير، احد الاساتذة المساعدين في قسم التجارة والاقتصاد، قد اختير مساعداً للرئيس. والذي اذكره ان بنروز كان يتغيب كثيراً عن الجامعة في سبيل القيام بجمع الاموال للجامعة، وكان زريق يتولى الرئاسة بالنيابة. لكن لم يحدث قط ان غاب بنروز الا وماير موجود في بيروت. فقد كان هذا يتغيب للامر نفسه. لكن يجب ان يكون، الى جانب النائب زريق مساعد اميركي! وحتى لما توفي بنروز (١٩٥٤) وعين زريق رئيساً للجامعة بالوكالة، ظل البرت ماير مساعداً له!

بدأنا التدريس في مطلع شهر تشرين الاول / اكتوبر سنة ١٩٤٩. كان الضغط علينا شديداً وخاصة فيما يتعلق بتدريس التاريخ العربي قديمه وحديثه. لذلك فقد كانت حصتي من التدريس اثنتي عشرة ساعة في الأسبوع. وكان هذا يشمل تدريس الصف الفرشمن (السنة الاولى) علمية وموضوعه التاريخ الاوروبي الحديث، وتاريخ العرب الحديث لطلاب البكالوريوس والدراسات العليا. ولم ينلني نصيب من تاريخ المماليك وهو موضع اهتمامي الاول. وانا لم أكن أحب التاريخ الحديث، لكن قيل لي ان موضوع المماليك محجوز لقسطنطين زريق ولا نستطيع المس به. والتاريخ الاسلامي المبكر، السابق للمماليك، هو حصة نبيه فارس ويساعده محمد توفيق حسين. وليس هناك من يدرس تاريخ العرب الحديث لذلك وقعت القرعة علي. وبهذه المناسبة ظلت القرعة علي حتى انتهى عملي بالجامعة سنة ١٩٧٣. لكنني كنت دوماً أعود الى حبي الاصلي عن طريق الاشراف على رسائل الماجستير و(الدكتوراه لما اضيفت الى برامجنا فميا بعد).

لكن تدريسي للتاريخ الحديث، من جهة أخرى، جذبني الى بلاد المغرب العربي. ومن هنا قمت بزيارات متعددة لتلك البلاد المغرب والجزائر وتونس وليبيا وكانت الزيارة تمتد من اسبوع الى شهر. وعدت الى تاريخ تلك البلاد القديم وشبه القديم أعنى به كي ابني دراساتي الحديثة على أساس متين، على نحو ما سبق وفعلت في درسي لتاريخ المشرق العربي. وسأتحدث عن بعض هذه الرحلات في المستقبل.

فضلاً عن هذا الحمل الثقيل من التعليم الذي القي به على كتفي، كان علينا أن نعمل في برنامج الدراسات العربية الذي انشىء في الجامعة في خريف سنة ١٩٤٩. والذي مولته مؤسسة روكفلر. كان القسط الاول الهبة للسنوات الثلاث الاولى هو ١٨٠,٠٠٠ دولار أميركي. وقد وزعت ضمناً على مشاريع ثلاثة: الاول ان يضاف الى الهيئة التدريسية في كل من دائرتي التاريخ والعربية اساتذة ليخف العبء التعليمي عن العاملين في التدريس، بحيث يمكنهم أن ينصرفوا الى البحث والتأليف. والثاني ان تنفق مبالغ محترمة من الهبة على تنمية المكتبة واغنائها في حقل الدراسات العربية. والثالث أن تعقد مؤتمرات سنوية على الاقل تتناول بالدرس قضية أو مشكلة من القضايا والمشكلات التي تهم العالم العربي معالجتها. وقد خصص مبلغ متواضع كي ينفق على سفر الاساتذة وتنقلهم في سبيل البحث والدرس. واظن انني كنت من اوائل، ان لم أكن اول، من افاد من هذا اذ

قضيت شهرين في صيف ١٩٥١ في تونس والجزائر، وعرجت على استانبول، بطريق روما، لحضور مؤتمر المستشرقين الذي عقد في تلك السنة في عاصمة البيزنطيين السابقة وعاصمة آل عثمان بين ١٤٥٣ و ١٩٢٠، ودرة من درر المدائن دائماً.

وكان ثمة نوعان من النشاط بالنسبة لبرنامج الدراسات العربية: الاول هو أن اختار كل من العاملين في حقل التاريخ العربي واللغة العربية وآدابها موضوعاً للدرس يعده خلال مدة لا تتجاوز السنوات الثلاث وهي فترة القسط الأول من الهبة. وقد اختار الزملاء المواضيع التالية للدراسة

انيس فريحة: امثال رأس المتن: جبرائيل جبور: البدو في بادية الشام

نبيه فارس بالتعاون مع محمد توفيق حسين: العالم العربي - عوامل التوحيد والتفرقة - دراسة تحليلية

اسحق موسى الحسيني: الاخوان المسلمون؛ نقولا زياده: السنوسية.

كان كمال اليازجي ما زال مشغولاً برسالته الدكتورية، فلم يختر أن ينضم الى فريق العمل، ولم ينضم فيما بعد (اظن انه وجد ان وضع الكتب المدرسية اجدى وانفع).

اما النشاط الثاني فكان يتمثل في اجتماعات شهرية تعقد في المنازل يحضرها اعضاء هيئة الدراسات العربية التي كانت تضم (مع حفظ الالقاب) نبيه امين فارس (رئيساً) قسطنطين زريق وجبرائيل جبور والبرت بدر ونقولا زياده وصبحي المحمصاني وفؤاد صروف وانيس فريحه وزين نور الدين زين واسحق موسى الحسيني وجورج طعمه ومحمد توفيق حسين وميشيل ابكالوريوس وكان انيس المقدسي عضواً في السنة الاولى لكنه تقاعد سنة ١٩٥٠، فظل عضواً فخرياً.

وكان يطلب من أحد أعضائها أن يعد بحثاً للمناقشة في هذه الجلسة الشهرية. وقد استمتعنا بابحاث جيدة اعدت ونوقشت وبعضها وصل المجلات العلمية المتخصصة.

على ان العمل الذي كانت الهيئة تقدمه لقوم من خارج الجامعة خدمة للفكر والثقافة هو المؤتمر السنوي. وقد عقد المؤتمر السنوي الاول سنة ١٩٥١، وكان موضوعه العرب والحضارة الحديثة. وقد ساهم فيه احمد زكي بك (موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية) وصبحي المحمصاني (التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث) واحمد سامح الخالدي (المدرسة العربية نشاتها وسيرها واتجاهها) والشيخ محمد بهجة الاثري (الاتجاهات الحديثة في الاسلام). وكان الترتيب ان يلقي خطيب المؤتمر محاضرته في المساء على جمهور كبير من المستمعين؛ وفي اليوم التالي كانت تعرض المحاضرة على أعضاء المؤتمر للمناقشة. وهم فئة من أهل الفكر والثقافة كانوا يدعون مسبقاً.

وقد نشرت محاضرات المؤتمرات سنوياً في مجلة الابحاث ثم استل منها عدد اهدي للمحاضرين واعضاء المؤتمر. ودرجت الهيئة، بناء على اقتراحي، ان يلحق بالمحاضرات فصل هو خلاصة للمناقشات التي دارت، بحيث يقتصر على المهم منها، وقد كتبت انا هذا الملحق الذي سميته صدى المحاضرات (وقد حوفظ على التسمية الى آخر الشوط) بالنسبة للمؤتمرات الاربعة الاولى ١٩٥١ و ١٩٥٢ و١٩٥٣ و ١٩٥٤. ولما كنت احد المحاضرين في مؤتمر سنة ١٩٥٥ (مهمة الجامعة في العالم العربي) فقد عهد الى محمد يوسف نجم في كتابة الصدى.

ولنا الى نشاطات هيئة الدراسات العربية وآثارها عودة. اكتب هذه الكلمات في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١ وانا أذكر ان النشاطات الاولى لي كانت تتم في مبنى كولدج هول في الجامعة الاميركي. وهو أول مبنى بني في أرض الجامعة (١٨٧٣) بعد انشائها وكان اسمها الكلية السورية الانجيلية. لكنني اليوم يعصر الالم قلبي على مبنى كولدج هول. ففي الصباح المبكر (قبيل الساعة الرابعة) من

صباح يوم الجمعة في ٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١ دوى في منطقة رأس بيروت انفجار اقض مضاجع النائمين. وتبين، بعد ذلك، ان يداً مجرمة اثيمة غبية وضعت سيارة مفخخة بين مبنى كولدج هول ومكتبة يافت التذكارية؛ وفيها مئتان أو اكثر من الكيلوغرامات من المواد المتفجرة القوية. ولما ضغط الزر الذي كان معداً لذلك، انفجرت السيارة بما فيها وهوى طود كان رمزاً «للفكر» في دنيا العرب.

وحول الساعة الواحدة بعيد ظهر اليوم نفسه ذهبت الى الجامعة، ووقفت على مقربة من الانقاض ونظرت الى هذا الركام فلم اتمالك من ذرف دمعة على المبنى. فيه بدأت نشاطي في الجامعة سنة ١٩٤٩ وفيه كان مكتبي الى سنة ١٩٧٣؛ فيه قضيت اثنين وعشرين عاماً (فقد نقلنا سنتين الى مبنى آخر لما اعيد ترتيبه سنتي ١٩٦٢ و ١٩٦٣).

ان الالم الذي شعرت به يوم وقفت قرب انقاض كولدج هول كان من نوع الالم الذي ملأ قلبي يوم ووريت زوجتي مرغريت التراب!

ولنعد الى حديثنا. فكولدج سيعاد بناؤه، ما دام للجامعة الأميركية خريجون واصدقاء يحرصون عليها ويعنون بها عنيتهم بامورهم واشغالهم وانفسهم.

لما انضممت الى الهيئة التدريسية في الجامعة الأميركية كان الاتفاق مدته ثلاث سنوات. وكان المرتب للسنة الأولى ١٩٠٠ دولار اميركي في السنة - نعم في السنة مع ١٥٠٠ ليرة لبنانية مساعدة لايجار البيت. صحيح ان مدة ثلاث سنوات لا تنتهي بسرعة، لكنها لا تكفي لضمانة المستقبل. وانا، لانني عرفت الفقر مرتين في حياتي وأنا صغير (المرة الأولى بعيد وفاة ابي في دمشق، يوم لم يكن بين يدي اسرة في أرض غريبة وفي ايام الحرب العالمية الأولى لما كانت امي تعمل في سبيل اعاشتنا، ولم اتخلص من هذا الكابوس الا لما حصلت على شهادة دارالمعلمين، وعينت معلماً وقبضت أول معاش، وهو للنصف الثاني من شهر ايلول / سبتمبر ١٩٢٤ وقيمته اربعة جنيهات وخمسمئة وخمسة وسبعون مليماً بالعملة المصرية) نعم، لانني عرفت الفقر في حياتي وانا صغير، كنت اخشى ذلك سنة ١٩٤٩ـ١٩٥٠، في سنتي الاولى في الجامعة. كنت اخشى أن تنتهي مدة العقد، ولا تجدد مؤسسة روكفلر هبتها، وعندئذ أجد نفسي بدون عمل. لذلك كنت ارقب الأمور بحذر. انا واع مقدرتي، عارف بالذي استطيع انجازه، لانني لم ابدأ حياتي العملية في خريف ١٩٤٩. كنت قد بدأت عملي في خريف ١٩٢٤ اي قبل ربع قرن تماماً. وكنت واثقاً من نفسي ومن معرفتي ومن مقدرتي ومن اخلاصي لعملي؛ ولكنني كنت احسب ان هذه المور جميعها لا تدخل دوما في حساب الاحتفاظ بالاشخاص في المناصب التي يستحقونها. وفي الجامعة الاميركية كان المهم أن يحصل الموظف الاكاديمي على وضع هو «الدخول في الملاك» عندها يصبح الاستغناء عنه، الا لدنية، امراً صعباً، ويقتضي التعويض له.

وانا رتبتي كانت استاذاً مساعداً؛ وكان يجب أن أصل الى رتبة استاذ مشارك قبل أن أثبت في الملاك. وكنت أعرف أن البشر بشر، اينما كانوا، فهم يحبون ويكرهون، ويتقربون ويبتعدون، ويغبطون ويحسدون ويشجعون ويثبطون العزائم لا لسبب معقول، بل لأن المزاج الآني اقتضى أن يتخذ التصرف شكلاً معيناً. وقد عرفت في السنوات التي قضيتها في الكلية العربية في القدس مدى ما يمكن أن تفعله الغيرة - الغيرة المبطنة بالحسد - في أضعاف العلاقات الشخصية بين زميلين، وتقويتها بين زميلين آخرين بحيث تصبح مؤامرة ضد واحد من الاثنين الاولين. وما أكثر ما سمعت وقرأت من النقد اللاذع بشكل تنكيت لما صدرت لي كتبي الاولى: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (١٩٤٣) وشخصيات عربية (١٩٤٦) وصور من التاريخ العربي (١٩٤٦) والعالم القديم بجزأيه (١٩٤٥ و ١٩٤٧) وغيرها.

وبهذه المناسبة لما صدر كتابي صور من التاريخ العربي (١٩٤٦) كان الدكتور نبيه فارس قد جاء الجامعة

الاميركية حديثاً، وكان الدكتور عبد الكريم غرايبه طالباً في دائرة التاريخ (بعد أن تخلى عن دراسة الطب) في الجامعة الاميركية. وقد روى لي عن دراسة الطب) في الجامعة الأميركية. وقد روى لي صديقي عبد الكريم ان الدكتور نبيه فارس قال لهم في أحد الأيام من اراد أن يفهم التاريخ العربي فليقرأ كتاب نقولا زياده «صور من التاريخ العربي». ولكن نبيه فارس، لما أصبحنا زملاء في الجامعة الأميركية ورأى مدى نجاحي الاكاديمي كان يقلل من أهمية ما أقوم به الى حد انه في سنة واحدة مؤكداً (ولعله في سنتين) وكان رئيس الدائرة، لم يقترح زيادة مرتبي (مع انه اقترح الزيادة لزميل غبي) وقال في تبرير ذلك انني اصرف وقت الجامعة في ترجمة الكتب (وهي علمية) وكتابة احاديث للاذاعة. والزميل الغبي الذي اقترح رئيس الدائرة زيادة مرتبه كان، وبمعرفة نبيه فارس نفسه، يقوم بترجمة كتب لا علاقة لها بموضوع اهتمامه.

نعم كنت أعرف ما الذي يمكن أن يجنيه علي نجاحي، لذلك كنت دائماً مفتح العينين في سبيل البحث عن سبيل آخر للعمل اذا اقتضى الامر. ولكن الامر لم يقتض ذلك، ونجحت، وحسدني غير واحد من الزملاء، لكنني سرت في طريقي وكانت ثمة فائدة لتلاميذي واصدقائي وصغار الزملاء ـ الذين لما بلغوا سن الرشد اداروا لي الظهر ايضاً. لكن المهم ان وجهي ظل وسيبقى ابيض ناصعاً، ورأسي ظل وسيبقى مرفوعاً، وسيري ظل وسيبقى الى الامام. وشكراً للقلة التي وقفت الى جانبي دوماً. وكانت زوجتي مرغريت في الطليعة. اما هذه القلة فلن أعدد افرادها الآن، ولكن آمل ان أفي كل واحد حقه عندما يأتي دور الحديث عنه.

بعد أن بدأت عملي في الجامعة في اول السنة الدراسية ١٩٤٩ـ١٩٥٠ صرفت بعض همي الى رسالة الدكتوراه التي كان قد طلب مني اعادة كتابتها اذ كانت كما قال عنها الاستاذ غب يوم المناقشة: نحن قبلنا الاراء لكننا رفضنا الشكل.

بدأت بذلك لكن الاعباء التعليمية التي كانت ملقاة على عاتقي لم تترك لي الوقت الكافي. فكان عملي فيها مثل كأس الكيف ـ مناقلة. ولكن لما انتهت السنة الدراسية وكانت مرغريت قد ذهبت الى سوق الغرب مع رائد لتقضي الصيف هناك مع امها وابيها، وعلى مقربة من اخيها جوزف. اتسع الوقت لي للعمل. في صيف ١٩٥٠ لم تكن الجامعة الاميركية قد بدأت اعطاء دروس صيفية بعد. كانت المكتبة تقوم في كولدج هول، وكانت تقوم في الجناح الغربي منه المكتبة الاسلامية. ترك الزملاء بيروت الى حيث يصطافون. اصبحت المكتبة الاسلامية تحت تصرفي. فوضعت اربع طاولات كبيرة الواحدة الى جانب الاخرى، واتيت بجميع الكتب اللازمة مرة واحدة ووضعتها تحت تصرفي المباشر. وبدأت العمل. كنت أعمل ايام الاثنين والثلاثاء والخميس والجمعة ونصف يوم السبت، واقضي الاربعاء والاحد وبقية يوم السبت مع الاسرة في سوق الغرب. واتفقت مع ثلاث من الطابعات على الآلة الكاتبة في الجامعة على أن يطبعن في وقت واحد. وانتهيت من العمل وارسلت النسخ الثلاث المطلوبة الى المجلد الذي كان يقوم بتجليد الرسائل في لندن (المستر ووكر). كان الموعد المطلوب فيه وصول الرسالة الى المسجل ١٥ ايلول/ سبتمبر ١٩٥٠. وقد تم ذلك وبعد الموعد المحدد بيومين تلقيت برقية من المجلد جاء فيها قوله: «وصلت وجلدت وسلمت». فتنفست الصعداء حقاً، لاني خشيت أن تكون قد ضاعت مع «شحن» شركة البان اميركان.

وكأن هذا الذي كان علي أن أقوم به لا يكفي. ذلك بأن فريقاً من طلاب الجامعة طلبوا الي ان اتعهد حلقة دراسية خاصة، تتناول القومية العربية بالدرس والتحليل. قال لي أحدهم ان الدكتور قسطنطين زريق كان يقوم بذلك قبل ذهابه الى دمشق. واضاف ان هذا الفريق من الطلاب يعرف كتابي القومية والعروبة (القدس ١٩٤٥) وانهم يريدون أن يكون لهم حظ مثل اولئك الطلاب الذين كنت أتحدث اليهم عن القومية العربية في القدس، ومثل حظ الذين سمعوني أحاضر حول الموضوع في القدس ويافا وحيفا والخليل وغزة والناصرة.

لم يسعني الا القبول. كنا نجتمع مرة كل اسبوعين، وكان الحضور يضم: عائشة الدباغ وظبية الشواف ونيللي قرنفلي وهادي الصراف وسميح العلمي وهاني الهندي وعادل عفيفي ومطيع عبارة. وكان ينضم الينا احياناً صبيحة فارس ويوسف خوري ومرة أو مرتين جورج حبش. ولم يكن القصد توسيع الحلقة بل تعميق الحديث. وقد كان أكثر الحاضرين يقرأون ما اقترحه عليهم. دامت اجتماعاتنا سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥١-١٩٥٢.

اما مكان الاجتماع فكان في شقة تقطنها ظبية الشواف وزميلة لها. ان الذي يخرج من مستشفى (أو مشفى) خالدي في راس بيروت تقابله الآن عمارة ضخمة تخص شخصاً (او اكثر) من بيت بخعازي. لكن قبل أن تقوم هذه العمارة الضخمة (نسبياً) كان هناك بناء متواضع (نسبياً ايضاً) مكون من طابقين (دورين) وكانت شقة ظبية الشواف هناك - في الطابق (الدور) الثاني. في هذه الشقة الصغيرة زرعت بذور للقومية العربية واحسب ان لها الآن اغصاناً وارفة نمت عند هؤلاء الشباب يومها. واستقرت في نفوسهم اشجاراً عاتية.

كان يقوم يومها في رأس بيروت ناد اسمه النادي العربي. لما وصلت أنا الى المدينة كان الناس يتحدثون عن الشخص الذي اسسه ورعاه - رامز شحاده وقد هاجر. وكان المبنى - في شارع بلس - لا يزال يومها موجوداً باسم النادي العربي. كانت تلقى فيه محاضرات، وكان يدعو احياناً البعض من رجال السياسة للزيارة والتحدث الى الاعضاء. لم أكن أنا عضواً فيه، ولا كان نبيه فارس. لكننا كنا نزوره بين الفينة والاخرى. كان يشرف عليه سميح العلمي، اذ كان يقيم فيه مع بعض الطلاب.

في النادي العربي ظهرت لاول مرة في مناظرة حول العرب والديمقراطية. كان نبيه فارس مقابلي، والموضوع هو الديمقراطية وموقف العرب منها. وكان مدير المناقشة (اذ اشترك فيها الحضور فيما بعد) سعيد حماده، استاذ العلوم التجارية والاقتصاد ورئيس دائرة التجارة في الجامعة. (توفي سعيد حماده في ربيع سنة ١٩٩١ عن عمر تجاوز الخامسة والتسعين). لست أذكر، بعد أربعين سنة ونيف، جميع ما قيل، ولكنني أذكر انني ابديت رأياً اعتبره البعض فطيراً يومها (ولم اوافق انا على ذلك، ولا أزال على موقفي) وهو اننا لا يمكن ان ننتظر حتى يتعلم العرب قواعد الديمقراطية وأساليبها من الكتب ثم نحملهم اليها؛ الطريقة الوحيدة هي أن تمنح الحقوق الديمقراطية للقوم - وبدرجات معينة - كي يتعلموها بالممارسة، ويعتادوها عملياً، وعندها تصبح جزءاً منهم، ويصبحون هم جزءاً منها.

ولكن العالم العربي لا يزال الى الآن (١٩٩١) ينتظر ان يهبط الوحي على الشعوب العربية بالديمقراطية وعندها يمكن أن يعطوها نظماً وأسلوب حياة وطريقة عمل.

في السنة الثانية لي في الجامعة ١٩٥٠-١٩٥١، بدأت بأن انتقلنا من بيتنا في عين المريسة الى شارع جاندارك. كان البيت بسيطاً مكوناً من طابقين، يخص وديعة (حوراني) المقدسي. هي ابنة فضلو حوراني اللبناني الذي استقر في مانشستر في نهاية القرن الماضي، وامها اخت سلام الراسي وكانت زوجة الياس المقدسي ابن جرجس المقدسي اخي انيس المقدسي زميلنا في سنتي الاولى في الجامعة. كانت ام الياس تقطن الطابق الأرضي ونحن استأجرنا الطابق الثاني وفيه غرفتا نوم (وغرفة للخادمة) وصالون وفسحة استعملناها غرفة طعام بعد أن فصلناها عن الصالون بحاجز زجاجي. وكان للشقة فرنده واسعة، وفيها مطبخ صغير مرتب وحمامان. ولا شك في انها من أول الشقق الصغيرة التي بنيت اصلاً وفيها حمامان.

كانت مرغريت تنتظر مولوداً. وكان موعد وصوله الى دنيانا اوائل شهر كانون الثاني / يناير ١٩٥١. لكنه فاجأنا وجاء قبل الموعد بشهرين، فقد ولد باسم في الثامن من تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٥٠.

وكان من لطائف المصادفات انه في اليوم الذي ولد فيه باسم جاءتني رسالة من برنارد لويس ينبئني فيها ان

اللجنة الفاحصة (المناقشة) لرسالتي لم تر من حاجة الى ان اظهر ثانية امامها، ولذلك اوصت مجلس شيوخ الجامعة (لندن) بأن أمنح درجة الدكتوراه.

ومع اننا سررنا بولادة باسم الا انه كان لبضعة اسابيع مصدر ازعاج لامه. فقد وضع في حاضنة في المستشفى، وكان على مرغريت أن تذهب لارضاعه مرتين أو ثلاثا في اليوم. الا انه من حسن الحظ ان المستشفى لم يكن بعيداً عن بيتنا؛ لكن الشتاء كان على الأبواب.

العمل في الجامعة لم يقل. الساعات ما زالت اثنتي عشرة في الاسبوع؛ اضيف اليها الاشراف على ثلاث رسائل للماجستير. وكانت حصتي ثلاثة طلاب سوريين هم: عائشة الدباغ (من حلب) وعدنان القواف (من اللاذقية) ومحمد خوله (من دمشق). عائشة الدباغ اقترحت عليها قبل أن تغادرنا في نهاية السنة الدراسية السابقة (١٩٤٩ـ١٩٥٠) أن تبحث عن أدباء حلب ومفكريها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولتدر رسالتها حول هذا الموضوع. وآثر عدنان ان يكتب عن العلاقات اللبنانية الفرنسية مع عناية خاصة بالناحية الثقافية. اما محمد خوله فكان فريسته الشيخ محمد عبده. وليس في اختيار الشيخ موضوعاً لرسالة علمية أي مأخذ. لكن محمد خوله كان من الاخوان المسلمين، ولذلك فهو لم يكن ينوي دراسة اراء محمد عبده، ولكنه كان ينوي محاكمته. وركب رأسه. لكنني افمته انني لن اقبل بذلك من حيث الاصل. لكن اذا كان دراسة اراء محمد عبده تظهر اي شطط عند الرجل، فعندها يكون لكل حادث حديث. واخيراً استطعت أن أحمله على التخلي عن دور الحاكم والا فانه يتأخر عن زملائه الآخرين (كان لهم زميل رابع هو بكري الشيخ علي، ايضاً من اللاذقية، وكان يعمل مع نبيه فارس). على انه بلغني ان محمد خوله عاد فحاكم الشيخ محمد عبده ونشر حكمه القضائي على انه رسالة الماجستير.

وقد لقيت فيما بعد عدنان وبكري وعائشة ـ هذه لقيتها مرات ـ وزرتها في حلب في بيتها العامر ـ لكنني لم اسمع باسم محمد خوله بعد أن ترك الجامعة.

ولنعد الى المؤتمر الأول لهيئة الدراسات العربية، الذي عقد سنة ١٩٥١. كان اعضاء الهيئة سنتها هم:

الدكتور نبيه امين فارس (رئيس)
الاستاذ أنيس الخوري المقدسي
الدكتور انيس فريحة
الاستاذ زين نور الدين زين
الدكتورنقولا زياده
الدكتور جبرائيل جبور
الدكتور البرت بدر
الدكتور اسحق موسى الحسيني
الاستاذ ميشيل أبكاريوس
الاستاذ محمد توفيق حسين

كان موضوع المؤتمر كما ذكرنا، العرب والحضارة الحديثة. ويرى قارىء هذه الصفحات من خطة المؤتمر وبرنامجه مدى العناية والاهتمام في تنظيمه.

مؤتمر الدراسات العربية

الجامعة الاميركية في بيروت

٧ ـ ١١ نوار ١٩٥١

وست هول

الاثنين ٧ نوار

١٦:٠٠ افتتاح المؤتمر (تحت رعاية الاستاذ ادوار نون وزير التربية)

حفلة شاي لاعضاء المؤتمر

١٨:٣٠ محاضرة عامة

موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية

المحاضر: الدكتور احمد زكي بك

العريف: الدكتور جبرائيل جبور

الثلاثاء ٨ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة ـ الأعضاء فقط

العريف: الدكتور نقولا زياده

المعلق: الاستاذ محيي الدين النصولي

١٨:٣٠ محاضرة عامة

التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث

المحاضر: الدكتور صبحي المحمصاني

العريف: الدكتور انيس فريحه

الاربعاء ٩ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة ـ الاعضاء فقط

العريف: الدكتور جبرآئيل جبور

المعلق: الدكتور اسحق موسى الحسيني

١٨:٣٠ محاضرة عامة

المدرسة العربية، نشأتها وسيرها واتجاهها

المحاضر: الاستاذ احمد سامح الخالدي

العريف: الاستاذ جورج شهلا

الخميس ١٠ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة ـ الاعضاء فقط

العريف: الدكتور حبيب كوراني

المعلق: الاستاذ جبرائيل كانول

١٨:٣٠ محاضرة عامة

الاتجاهات الحديثة في الاسلام

المحاضر: الشيخ محمد بهجة الاثري

العريف: الاستاذ انيس المقدسي

الجمعة ١١ نوار
١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة - الاعضاء فقط
العريف: الدكتور اسحق موسى الحسيني
المعلق: الاستاذ عبد الله المشنوق
٢٠:٠٠ مادبة عشاء تكريماً لاعضاء المؤتمر.

وقد تبع كلا من المحاضرات الرئيسية الاربع نقاش اسهم فيه أعضاء المؤتمر. ومع ان القضايا التي أثارها المحاضرون مهمة - كانت ولا تزال - فان النقاش كان دون المنتظر. ولعل السبب في ذلك يعود الى انها المحاولة الأولى. فقد كان النقاش أعمق وأوسع وأشد في مناسبات تالية. ولعل أهم ما اثير من امور تناول (١) روحانية الشرق ومادية الغرب، كأن الامر يجب أن يفصل بمثل هذه الحدة والدقة. وبدا وكأن الحديث انتهى الى القول بان القيم الروحية والقواعد الخلقية هي تلك التي تنظر الى الانسان من حيث انسانيته؛ وان حضارة اساسها العلم وروحه والمساواة التامة بين افراد المجتمع، لا بد أن تكون فيها قيم روحية (أو روحانية) بقطع النظر عن أماكن وجودها.

ومن الأمور التي اثيرت (٢) العلاقة بين جمودنا الفكري وبين سيطرة الميتافيزيقيات في حياتنا.

فطرحت اسئلة ظل، بطبيعة الحال، بدون جواب، ولا تزال اسئلة تطرح في الميادين دون الاجابة عنها: هل من الممكن التخلي عن هذه الابحاث الميتافيزيقية لنبعد سلطانها عنا؟ وهل مثل هذه الخطوة ضرورية لنتمكن من قبول العلم دليلاً ومرشداً في حياتنا واساساً لحضارتنا؟ وهل في قبولنا العلم في هذه المرتبة ما يحطم حياتنا وكياننا؟

اذكر اني انا الذي اثرت هذه الأسئلة. واذكر ان الملاحظات التي وجهت الي كان شبيهة بالملاحظات التي وجهت الي لما القيت محاضرة حول هذه النقاط بالذات في عمان (بدعوة من مؤسسة عبد الحميد شومان في تشرين الاول / اكتوبر ١٩٩١). فالموقف لم يتغير بعد اربعين سنة!

وقد كان هناك حديث حول اللغة. ذلك بأن قضية اللغة العربية عرضت في المحاضرة من حيث الكتب والمناهج المدرسية والحاجة الى اصلاحها. وقد اتيح لي ان ادخل الى صلب الموضوع بشكل ادق. «لقد مس المحاضر هذه الاداة الكبرى اللغةالعربية مسا رفيقاً. وكم تمنيت لو وقف عندها وقفة طويلة. ذلك ان النظر الى هذه اللغة انما هو نظر الى مستقبل العلم والفكر والدين والفن عند العرب. او ليست هي تعبيراً عنها جميعاً وبناً لها جميعاً والصورة المتصلة بمادتها جميعاً؟

«واذن كيف يكون لنا علم ايجابي منظم وفكر حر وتشريع عادل ومنطق في قواعد اللغة مكتمل، ونحن نقدس الحرف في هذه اللغة ونؤمن به تنزيلاً من السماء على الارض، لا تصعيداً من الارض الى السماء؟

«فهل يمكن ان نجرد هذا الحرف مما حمله عبر الزمان من عقيدة هي وحدها الموحى بها (اذا شئتم) وان ننزع عنه قدسيته ونناوله للعالم العربي - من هذا المؤتمر - لسانا بشرياً، يدرس وينقد وتجري عليه سنة التطور كما تجري على الاحياء من ابناء البقاء؟ اذ كيف تبرأ اساليبنا من العقم ونحن نرهب الحرف، ونقيده بالدين ونعفر جبين المنطق والعلم على أقدامه؟»

في سنة ١٩٥١ زرت ليبيا وتونس والجزائر واستانبول قضيت شهرين وبعض الشهر خارج لبنان في صيف تلك السنة. مررت ببنغازي حيث كان اخي الفرد يقيم مع زوجته وابنهما وليد ووالد الزوجة حنا اسحق.

الذي كان مريضاً. وكانت فرصة لزيارة المدينة التي لم تتغير خلال السنتين اللتين غبتهما عنها. صحيح ان بعض الابنية قد رمم وبعض الاسواق قد اعيد فتحه، لكن الخراب كان لا يزال الصفة الغالبة على المدينة. لكن شيئاً واحداً كان يشغل الناس هو ان ليبيا ستمنح استقلالها قبل اليوم الاول من سنة ١٩٥٢. صحيح ان البلاد ستتكون من ثلاث ولايات. برقة وطرابلس وفزان، وصحيح ان كل ولاية ستكون لها ادارتها الخاصة، ولكن البلاد ستكون تحت حكم ادريس، ملك ليبيا.

كان الكثيرون يدركون ان هذا التوزيع الداخلي لاي ثلاث ولايات كان يقصد منه ان يتيسر للدولة الاجنبية صاحبة المصلحة المباشرة ان يكون لها نفوذها محلياً. فرنسا في فزان وبريطانيا في طرابلس وبرقة؛ ولعل بريطانيا ستتيح لايطاليا الحفاظ على مصالحهما الاقتصادية في طرابلس. ومع ذلك فقد رؤي ان هذا الحل الذي توصلت اليه الامم المتحدة هو خير ما يمكن الحصول عليه يومها. ان بعض زعماء طرابلس، الذين لم يستطيعوا ان يقبلوا ادريس ملكاً على ليبيا، هاجروا من البلد، وقد اقام كبيرهم، بشير السعداوي في المملكة العربية السعودية.

في بنغازي زرت من اصحاب الحل والعقد حسين مازق الذي كان يشغل منصب وزير محلي. وقد كان متصرف الجبل لما كنت انا مساعداً لمدير المعارف في برقة سنة ١٩٤٩. وزرت اصدقائي السابقين المهدي المطردي ومخلوف والمحامي محمد بن عامر.

بعد اسبوع في بنغازي انتقلت الى طرابلس حيث وضع رئيس الوزراء الاتحادي، محمد المنتصر، سيارة لتنقلي، وحيث نعمت بصداقة منير برشان في زيارتي للبلاد. والتقيت الدكتور علي العنيزي، الذي أصبح فيما بعد اول سفير لليبيا في لبنان. وكان ممن توثقت صداقتي بهم خلال هذه الزيارة المرحوم اسماعيل راغب الخالدي الذي كان من كبار موظفي الامم المتحدة هناك، والذي زودني بمواد وتقارير اعدتها المنظمة عن ليبيا، مما كان عوناً لي في وضعي اول كتاب لي عن ليبيا (١٩٥٨). وكان عوني داوود الدجاني يومها المستشار القانوني لجلالة الملك ادريس، وهو من زملائي في الدراسة في بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية.

ومن طرابلس اتجهت الى تونس. واحسب، انه بسبب زياراتي المتكررة للمغرب العربي، بدءاً من سنة ١٩٥١ وحتى ١٩٨١، يجدر بين أن اجمل هنا سبل تعرفي الى تلك البلاد. ان هذا يضع امامي، وامام القارىء، بعض المجال الجديد الذي اخذت اجوب فيه.

على انني قبل ان اتحدث عن هذه المنطقة، اود ان اشير الى زيارتي الاولى لاستانبول (١٩٥١). في صيف تلك السنة انعقد مؤتمر المستشرقين في تلك المدينة، وذهبت لحضوره. وفيه تحدثت عن ادارة بلاد الشام في ايام المماليك. وقد رتبت وقتي بحيث انني وصلت قبل بدء المؤتمر باسبوع كي ازور معالم هذه المدينة التي ربطتنا بها قرون من ايام البيزنطيين الارثوذكس الى ايام الخلافة العثمانية.

وقد زرت معالمها. قصور سلاطين بني عثمان وجامع ايا صوفيا البيزنطي الاصل، وعدداً من الجوامع التي بناها الاتراك مثل جامع محمد الفاتح وجامع السلطان احمد وجامع السليمانية. هذه الجوامع كثيرة في عاصمة الخلافة السابقة بحيث انك ترى مئذنة انيقة رشيقة حيثما وجهت وجهك. وقد كانت السوق الكبيرة اللافت الثالث لي في هذه المدينة. انها سوق لا تتناسب مع استانبول الا في سعتها وتنوع بضاعتها. اما اختلاط الحابل بالنابل بها، وتجاور البضائع المختلفة النوع والرائحة، والوسخ الذي يكاد يلحقك في تنقلك، فأمر كنت أرباً به عن هذه المدينة.

وقد زرت استانبول فيما بعد مع مرغريت وكان الصديق الكريم عبد الكريم غرايبه يومها يقيم في العاصمة القديمة دارساً منقباً، وكانت زوجته وابنهما رائد معهما. وقد نعمنا يومها بضيافة الاسرة الصديقة، وبمرافقة

الاستاذ خليل ساحلي اوغلو الذي كان دليلنا العلمي. واكرم به من خليل وصديق ودليل.

ولعل الشيء الخاص الذي حصلت عليه في زيارتي لاستانبول سنة ١٩٥١، والذي لست أحسب ان كثيرين اتيحت لهم مثل هذه الفرصة، هو زيارة قصر يلدز - قصر السلطان عبد الحميد.

كان الموظف في الفندق قد اخبرني (خطأ على ما اتضح لي فيما بعد) انني استطيع ان انتقل الى القصر في باص عادي، وهناك ادخل وازوره. وقد نقلني الباص الى مكان قريب من القصر، لكنني وجدت البوابة يحرسها جنديان. فلم اتقدم منهما، الا انني رأيت ضابطاً يحدق بي فتقدمت نحوه (وكان يتكلم الانكليزية) واخبرته عن الخطأ الذي وقع فيه موظف الفندق. فقال لي ان القصر الآن هو الاكاديمية العسكرية، وان زيارته ممنوعة. شكرته وهممت بمغادرة المكان، الا انه استدعاني وقال لي ان القومندان... مدير الاكاديمية يريد ان يسألني بضعة أسئلة.

وسألني - عن طريق الضابط - عن سبب وجودي في استانبول وسبب اهتمامي بقصر يلدز. ولما أوضحت له الامر واضفت انني ادرس في الجامعة الاميركية في بيروت، وان تارخ الدولة العثمانية من نواحي اهتمامي، لذلك نويت زيارة القصر. اما والامر على ما هو عليه، فقد عدلت بطبيعة الحال.

وكانت المفاجأة. قال انه يعتبرني ضيفاً عنده، وسيرافقني في ارجاء القصر «النجم» الصغير نسبياً، المحصن على البوسفور، الواسع الارض المحيطة به. وكان مما زرته غرفة نوم السلطان. وكان كل شيء في الغرف الخاصة على ما كان عليه.

وجلسنا في مقصف الاكاديمية وتحدثنا عن تركيةالعثمانية وعن عبد الحميد وروى لي قصصاً نقلها عن ابيه وعمه، اللذين كانا في خدمة السلطان، على ما قال.

وهكذا ظفرت بهذه الزيارة التي جاءت منحة من مدير الاكاديمية.

الفصل الخامس والعشرون

من برقة سرت غرباً، أخذت اقضم المغرب العربي على مهل وفي زيارات كثيرة جداً. وقد انتقلت في الطريق الساحلي، من البردية على الحدود الليبية - المصرية، الى وهران. هذا الطريق الذي قلت عن أوله انه يشبه طريق الأبدية، قطعته في أنواع مختلفة من وسائل النقل. فمن سيارة شحن الى سيارة اسعاف الى باص مقاعده وظهورها من الخشب الى سيارات عادية الى سكة الحديد، وفيما بعد تنقلت براً من طنجة الى اغادير في المغرب. توغلت في داخل البلاد احياناً، واجتزت جبال الاطلس في سلاسلها الثلاث. تعرفت الى البلاد وعرفت اهلها صغاراً وكباراً.

اردت ان اتعرف الى الاجزاء الداخلية من ليبيا. فزرت فزان حيث قضيت بضعة ايام (١٩٦١).

اقلعت الطائرة بنا من مطار طرابلس الغرب وفي برديها عزم وهمة وفي جوفها ركاب اسلموا انفسهم لله بعد أن ارتفعت هذه الآلة الضخمة عن الأرض. وقد كان في الطائرة من عرف الطريق غيباً ومن كان تعباً منهكاً، فلم يهتم بما تحته أو بما فوقه. أما انا فقد سمرت عيني على ما هو خارج الطائرة. الجو صاف والسماء زرقاء. وتحتنا مزارع خضراء وزيتون يغطي الأرض مسافات واسعة. ولكن ما الذي حدث؟ إنها خمس وعشرون من الدقائق أو نحو ذلك واذا بالمزارع تختفي والزيتون يغيب. ولم كل هذا؟ ان الصحراء بدأت. وأكدت النظر الى ما تحتنا، فاتضح لي اننا نطير فوق رمال ورمال ورمال. لكنها ليست كلها رمالاً ناعمة تنقلها نسمة الهواء أو تسفيها الرياح. إن بعض هذه الرمال صلبة قاسية، بل ثمة منها ما يتحد ويتجمد ويرتفع بحيث يكون تلالاً وجبالاً تلقي على ما أمامها أوخلفها ظلالاً. وأنت تطير على ارتفاع ثلاثة آلاف من الأمتار. ومع ذلك يملأ الفرح نفسك اذا لمحت في هذه الرقعة الشاسعة الممتدة تحتك شجرة أو ظل شجرة. اما اذا وقعت عينك على واحة - وقد تقع - فأنت ترقص من الفرح مشاركة لمن يمكن ان يكون سائراً فوق تلك الرمال. وظل الشجرة نادر وأندر منه، في الطريق الذي طرناه، مجتمع الأشجار في واحة.

وظلت الطائرة مستقيمة هادئة، الا من جيب هوائي هنا وهناك، حتى وصلنا فوق الزلاف، وهو جزء من الصحراء فيه كثبان من الرمل الناعم، يقع بين سبها وبراك في منطقة الشاطىء. كان النهار قد تجاوز منتصفه. وكانت الرمال قد امتصت من الحرارة ما زاد عن حاجتها، فنقلته الى الهواء فوقها، وهذا كثرت الثقوب في جيوبه وهو صاعد، فأخذت الطائرة تنفذ الى هذه الجيوب فتتهادى وتتمايل بل وترقص. وقال قائل القوم إنه الزلاف، وقلت: «اذن فهذه رقصة الزلاف». وزاد في رقصتها انها اضطرت الى الانحدار التدريجي لانها قاربت الوصول الى هدفها. ولم نلبث أن رأينا واحة، فقال جاري: سبها وبعد ساعتين ونصف الساعة على خروجنا من طرابلس هبطت الطائرة على مدرج رملي طبيعي في مطار سبها.

وسبها كانت بلدة صغيرة بعد، لا يتجاوز عمرها بضع سنوات. فهي بنت من بنات استقلال ليبيا. بني أول ما بني فيها دار لواليها الأول هي التي يقطنها الوالي الحالي. ثم اضيفت، تدريجياً، بيوت وأبنية لدوائر الحكومة والمدارس والموظفين. لكنها بلدة تنمو وتتطور، تقف في أعلى نقطة من قلعتها، فتشرف على شوارع لطيفة

وبيوت انيقة وحوانيت مرتبة. وترى طرقاً رملية مخططة. وان لم تكن مزفتة، تخرج منها متفرعة الى غات ومرزق وبراك وهون وغيرها، وعند أول كل طريق اشارة تبين لك المسافة الى المكان الذي تقصده.

وخرجنا من سبها الى البحيرة، والبحيرة مجتمع ماء تحيط به أجمة من النخيل. وفي الشتاء يتسع بحيث يكون بحيرة لطيفة، لكن ماءها ملح وإن لم يكن اجاجاً. اما في اواخر الصيف، وهو الوقت الذي وقفت فيه على ضفتها، فقد كان فيها بعض الماء الآسن. ولكن نحن في صحراء. وفي جوف الصحراء، وكل ماء مهما قل وملح، فإنه مدعاة للسرور والطرب. ونحن في بلادنا نقطف بعض الثمار عن الشجر باليد وناكلها وهناك، على شاطىء البحيرة، قطفت التمر عن شجر النخيل دون تسلق أو اعتلاء.

ولم اكتف بالوصول الى قلب الصحراء في سبها. ذلك انني اردت ان اتوغل فيها قليلاً. وتلطف رئيس الحكومة فوضع تحت تصرفنا - انا وصديق عزيز لي - سيارة قوية نقلتنا الى مرزق. فكنا على بعد ٩٠٠ كيلومتر عن الشاطىء الليبي.

مرزق كانت عاصمة الولاية في أيام العثمانيين. كان فيها قائمقام تركي وقاض تركي ورئيس جند تركي. وكانت القلعة التي بناها الاتراك، ولا تزال جدرانها قائمة، مركز الحكم ومستودع الهيبة ومهبط آمال العدل. ولم تحقق دوماً كل ذلك. لكن مرزق كانت، اضافة الى ذلك، منفى تبعث اليه الحكومة العثمانية في اواخر القرن التاسع عشر ببعض اولئك الذين يغضب السلطان عليهم، فيقضون اياماً وشهوراً وسنوات. وقد ينسون هناك، وقد ينتقلون الى العالم الآخر رأساً من مرزق.

القلعة التركية في مرزق مكان للزيارة لا للإقامة، والجامع التركي المبني من اللبن المجفف اثر لا مصلى فيه. والوقفة على القلعة تكشف امامك منبسطاً لا حد له، ومتسعاً ينتهي عند الأفق. ولا شك انه مكان يعشق. إن لم يرغم المرء على الاقامة فيه.

مرزق تمثل، في تاريخ ليبيا الحديث، حكم الأتراك وحكم الايطاليين وحكم الفرنسيين، لكنها تحكي ايضاً حكايات بطولات انتهت بالاستقلال. وهذه الحكايات حرية بان تسمع وحرية بأن تدون.

ومع ان قصص التاريخ وقصص البطولات محبب الى النفس اخاذ جذاب، فإن قصص الواقع والإنشاء قد يفوقه. ولعل ما تم في فزان في السنوات العشر الأخيرة مما يستحق عناية خاصة. الواقع ان كل ما تم في ليبيا يستحق ذلك. لكن فزان حالة خاصة. بلد بعيد عن البحر. كان يعيش على القوافل وما تحمله الى واحاته، ولا تزال الواحات مراكز العيش والتجمع. لكن سبها، قلب فزان الاداري، ترتبط اليوم بالعالم بغير القوافل. فا لطائرة تنقل الركاب المدنيين منها الى طرابلس وبالعكس. ومعنى هذا انها اصبحت مرتبطة بالعالم كله. وهذا البريد يصل اليك مرتين في الاسبوع وأنت هناك. وخط التلغراف أو خطوطه تربط انحاء المملكة الليبية ببعضها البعض ولذلك فإنها تيسر العمل. وثمة طريق، على وشك أن ينتهي، يصل طرابلس بسبها عن طريق هون. وهون منطقة غنية بالتمر الجيد، لذلك انشىء فيها مصنع للتمر المحشو باللوز وغيره، ينتج انتاجاً جيداً، وقد حملت منه هدية صغيرة اعجب بها كل من ذاقها.

وجد بي السير الى تونس. فزرت منها مدنها الرئيسية، وتنقلت في ربوعها. ودخلت جزيرة جربة (١٩٦١). وهي رقعة من الأرض يدور بها البحر من جميع جهاتها، فيسرع اليها ممرغاً وجهه على جسمها الناعم، فإذا احس ارتواء انحسر عنها، ولا يلبث أن يعاوده الشوق اليها فيعود لينعم بها. وهكذا يقضي أيامه ولياليه وهو بين شعور بالارتواء واحساس بالشوق. ويطل القمر بدراً من خلال هذه الغيوم المتناثرة في رقعة السماء، ليتأكد من هذه الأشباح الواقفة على الجزيرة هل هي عذارى نثر الريح شعورها يمنة ويسرة، أم هي اشجار نخيل تطعم

الناس لذيذ ثمرها، وتسكرهم بخمرها؟ ومع انه ينزوي خلف غيمة خجلاً دون أن ينال بغيته، فإنه يبدو ثانية وكأنه يسترق النظر الى هذه الأشياء المتكورة البيضاء ليرى أهي صدور العذارى شرعتها للهوى أم هي قباب هذه البيوت التي أوى اليها أهل العمل والأحلام، ويظل القمر يحار في الأمر فلا هو قادر على إدراك الحقيقة ولا هو قادر على طرد الأحلام.

وهذه الشمس تلفحها عند الشروق فتثير ما فيها من شوق الى الحياة، وتحرقها عند الظهيرة فتسترخي كسلاً، وتودعها عند الغروب تاركة لها شفقاً وردياً يحبب اليها اللذائذ والملاذ.

وهذه الجزيرة تختبر الحياة، فتحب وتكره، وتسر وتألم، وتحيي وتميت، وهي في كل هذا تتململ راضية حيناً، غاضبة حيناً. فإذ كان في تململها غضب او ألم ظهرت آثار ذلك على جسمها ارضاً قاحلة أو صبراً شائكاً. ولكنها يغلب عليها تقبل الرضى، وعندها تنفجر ينابيع صغيرة تروي الزرع والضرع، أو تنبت نخيلاً ينعم الناس به غذاء ووعاء وكساء، أو تغذي شجر الزيتون الذي يتبارك الناس به ثمراً وبلسماً وحطباً.

وتحركت جربة، وقد أحست بخفيف الوطء على أديمها، وابتسمت وتكلمت قائلة:

«أنا قديمة قدم الأسطورة. الأسطورة التي ترتبط بزهرة اللوتس اللطيفة. ألم يسمني الناس جزيرة آكلة اللوتس؟ لقد أدركوا ما في جسمي من نعومة، وما في نفسي من طهارة، وما في قلبي من شوق، وما في دمي من نشاط، فربطوني بزهرة اللوتس الجميلة الأنيقة. إن الأقدمين كانوا كثيري الاحترام للمثل العليا التي أدين بها، فاحترموني من أجلها».

فقلت لها، وقد أثارت كلماتها بعض ما سمعت عن هذه الجزيرة: «ولكنك لم تحافظي دوماً على مثلك. ألست أنت التي أسرت يوليسس، وقد كان في طريقه الى زوجته؟».

فتحركت الجزيرة، وبدت على وجهها امارات الغضب الهادىء وقالت: «لم آسر احداً في حياتي. كل ما هناك أن الناس، قبل يوليسس وبعده، يقعون في التجربة، ويفتنون. ويبدو أن بي فتنة وإغراء، لذلك وقع يوليسس كما وقع غيره، وفتن كما فتن غيره، ومع ذلك فما الذي حدث له؟ لقد كان خصومه يقتفون اثره، ويحاولون القضاء عليه، فخبأته هنا، وأنقذته. لقد كان مشرفاً على الموت فعادت له الحياة، وكان يائساً فاعدت له الأمل، وكان تعباً فعاد اليه النشاط. أمن أجل ذلك الام؟»

وصمتت قليلاً ثم اضافت: «وهذا شأن كل من يسكن هنا، سيغرب، ويشرق، ويغيب اياماً وشهوراً وسنين، ويعود بعد ذلك الي. هؤلاء هم أبنائي ينشؤون اعمالهم في جهات الأرض، ثم هم لا يهدأون ولا يقر لهم قرار حتى يعودوا هنا ليتمتعوا بالطمأنينة والهدوء. وها أنت قد زرتني في هذه المرة، ولكنني واثقة من انك ستعود في المستقبل».

وهكذا أصغيت لصوت جربة ـ جربة الأسطورة والواقع ـ وبينهما، بين الأسطورة والواقع، تاريخ طويل عريض، وحياة مديدة، وجهاد كبير. جهاد لدفع الأذى ورد العدوان، وجهاد لإخراج الحَب، وجهاد في سبيل العيش.

وتذكرت الكثير من هذا التاريخ الذي يحدثنا أن أول من استوطن الجزيرة البربر الليبيون، وكانوا قوماً اصحاب زراعة وبعض صناعة محلية، ولأنهم لم يبنوا البيوت الحجرية، فهم لم يخلفوا آثاراً عمرانية. ذلك انهم اصطنعوا بيوتهم، أو اخصاصهم على الأصح، من الجريد. ويبدو ان هذا الطابع ظل الغالب على بيوت الجزيرة حتى اليوم. ولا يزال الزائر لجربة يعثر على بعض الأخصاص.

وما كانت جربة، بموقعها القريب من البر التونسي، والمحمي من هجمات سكانه بالبحر المحيط بها، لتغيب اهميتها عن الشعوب التي وصلت تونس وليبيا نازحة أو فاتحة. لذلك هبطها الفينيقيون واليونان تجاراً

وصيارفة، وأقاموا في شواطئها الشمالية يشرفون على أعمالهم. وقد خلف الفينيقيون صناعة الفخار في الجزيرة. ولا تزال هذه الصناعة قائمة الى اليوم وخاصة في القلالة.

وقد كانت إقامة الرومان أطول وأمتن أصولاً وأعرق جذوراً. فنحن اذا تذكرنا انهم ذهبوا الى إفريقيا فاتحين، وانهم منذ منتصف القرن الثاني ق.م أصبحوا حكام المنطقة بأسرها، واذا اعتبرنا ان الفترة الرومانية ـ البيزنطية هي فترة واحدة، كان لنا من ذلك نحو ثمانية قرون خضعت فيها الجزيرة لهذا النوع من الحضارة التي يرجع اليها على ما يبدو، فضل كبير في ترسيخ الأسس العامة للمدن التي قامت في الجزيرة. ذلك أن أكثر المؤرخين اتفقوا على أن الرومان انشأوا في الجزيرة ما لا يقل عن ست مدن لا تزال هي أو اثارها قائمة الى الآن. وقد قال الأستاذ محمد المرزوقي في مقدمته لكتاب «مؤنس الأحبة»: «وتنبه الرومان الى أهمية هذه الجزيرة مدة احتلالهم لإفريقيا وقضائهم على دولة قرطاجنة سنة ١٤٦ ق.م، فنزلت بها أساطيلهم، وشرعوا حال نزولهم في إدخال حضارتهم وأسباب عمرانهم اليها، فأسسوا بها الضيعات الزراعية والمراسي التجارية والمدن، وربطوا بينها وبين البر بجسر بني بالحجارة في مكان (القنطرة)، فكان المسافر يستطيع أن يسلكه على الرجلين، وفي وسط هذا الطريق بنوا حصناً للحراسة، وصلوه بالطريق بواسطة جسر متحرك يرفع بالسلاسل عند الحاجة فيقطع الطريق، وينزلونه حين يريدون المرور. ونحن لا نعرف كثيراً عما أحدث الرومان بجربة من الحصون والمدن ما دامت مصلحة الحفريات لم تتجه بعنايتها الى التنقيب عن هذه الآثار».

وقضينا ليلة في صفاقس، وكنا قد أتيناها من طرابلس (ليبيا). وكانت الشمس قد ارتفعت في الأفق الشرقي، وانعكست أشعتها على مياه المتوسط التي تغسل شاطىء مدينة صفاقس، لما تركنا هذه المدينة ميممين شطر عاصمة الديار التونسية. وصفاقس، التي كنا قد قضينا فيها ليلتنا، تنظر الى الماضي فتجد له في نفسها ذكرى متمثلة في سور يحيط بالبلد يرد عنها عادية الأيام، وفي جامع أنيق البناء والزخرف يرجع الى أيام الحفصيين. فإذا عمقت الذكرى وجدت في ضميرها البعيد صدى حضارة أقدم من ذلك، تعود الى يوم كانت تقوم في ارجائها مسارح للتمثيل ومسابق للفرسان. على ارضها تحارب القرطاجيون والرومان، وفي رياضها تبارت الفتيات والغزلان، وفي اجوائها علق الشعراء بالحسان. وما ذلك بغريب على بلد انطوى على البحر فطوق البحر خاصريه، وقبل النيرين فصب النيران ضوءهما في ناظريه، وأحاطت به الغابة والزياتين، وزينته أشجار النخيل والبساتين.

تركنا صفاقس واتجهنا شمالاً محاذين للشاطىء في سيرنا، متعمدين البطء في تنقلنا، راغبين في أن نرى القسم الكبير، طامعين في أن نذكر مما نري الكثير.

وتهادت السيارة بنا، وإن كان سائقها تضايق، فقد كان يحب السرعة. والسرعة في رأيي عدوة المتعة، وخاصة في تنقيل العيون بين مغاني الجمال التي تعرضها عليك تلك المنطقة الشرقية من الساحل التونسي. وكان البحر كمن أفاق من حلم لذيذ، يتمطى متثائباً ويغمض عينيه رغبة في استعادة الرؤى. فإذا لمح اننا أدركنا ما به غمزنا اغراء، مطالباً ايانا بأن نعدل عن السير لنرتمي في احضانه. وما أكثر ما يغري البحر! ولكن كان علينا أن نسير.

وسرنا حتى وصلنا المهدية، فوقعنا على مدينة جليل قدرها شهير ذكرها، تحمل في قلبها ذكرى جماعة من السادة النجب الذين كان لهم على حضارة العرب والاسلام فضل اي فضل! إن المهدية من بناء عبيد الله المهدي أول الفاطميين واليه تنسب. وقد روى المؤرخون قصة بنائها قالوا: «خرج عبيد الله المهدي بنفسه سنة ثلاثمائة الى تونس فاجتاز قرطاجنة وغيرها ومر على جميع السواحل يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة

تحصنه وتحصن بنيه من بعده. فاقام يلتمس ذلك مدة فلم يجد موضعاً أحسن ولا احصن من موضع المهدية. فبناها هنالك وجعلها دار مملكته. وكان أول ما ابتنى منها سورها الغربي... وعندما وضع أول حجر منه امر ناشباً كان بين يديه أن يوتر قوسه ويقف على ذلك الحجر ويرمي سهمه. ففعل الرامي ذلك. فانتهى السهم الى المصلى ووقع قائماً على نصله. وأمر المهدي بقياس مسافة هذه الرمية فكانت مائتين وثلاثة وثلاثين ذراعاً. وكان المهدي يقف على فرسه فيأمر الصناع بما يصعنون. وأمر بعمل باب الحديد للمدينة».

وقد حرص المهدي، فيما حرص عليه من بناء المهدية، على أن يحفر مرسى في الحجر الصلد ليكون ثمة حصناً لمراكبه الحربية، وأقام على فم المرسى سلسلة من حديد يرفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت. وانشأ فيها دار صناعة كانت من عجائب الدنيا. وكانت المدينة كثيرة الجباب التي ملئت ماء وكانت اهراؤها مختزنة طعاماً.

وما أكثر ما وهبتنا المهدية من تاريخ وأدب وشعر، وليس المجال مجال عرض هذا كله، ولكن بضعة أبيات للقيسي قد تلذ للقراء. قال متشوقاً لبلده وهو بعيد:

سرح دموعَ العين مبتدراً ... وبذكر ماضي عهدهم فاشد
والثم على شغف مواطئهم ... إن عاق عن مقصودك البعد
لم انس يوم وداعهم سحراً ... والدمع أسلم دره العقد
هز الصبا أغصان بانهم ... فتعانقت وتواجد الرند.

وتونس الحاضرة تسحر وتأسر، وقد وقعت في سحرها (١٩٥١) وأسرها، وأوقعت معي غيري ممن زارها برفقتي من اولئك زوجي، رحمها الله، وأصدقاء رافقوني في انحائها في آخر زيارة لي للمدينة، سنة ١٩٨٤.

زرت تونس من قبل، وزرتها ثانية مؤخراً (بعيد الاستقلال ١٩٥٩).

كان أول ما فعلته في تونس، بعد وصولي اليها بقليل، أن خرجت الى الشوارع استجلي معالمها وأستعيد ذكرياتها. ودرت في المدينة أتزود منها فراعني وراقني أمر هام. ان السور الذي كان يحيط بالمدينة فيفصلها عن العالم الخارجي قد زال. راعني ذلك أول الأمر لأنني أرى في آثار التاريخ شيئاً من القداسة، لكنني لم ألبث أن راقني ذلك إذ أدركت معنى إزالته، في أجزاء منه. ذلك أن هذه المدينة وسكانها ليس ثمة ما يفصل الان بينهم وبين العالم. لقد كان عالمهم ينتهي من قبل داخل بوابة المدينة، وكان عالم غيرهم يبدأ خارج هذه البوابة. أما الآن فقد أصبح لهم الحق في أن يمتدوا قلباً وعقلاً وروحاً وجسماً الى المدى الذي تطيقه اجسامهم وتقوى على تحمله نفوسهم. إنهم اصبحوا احراراً. وهذا هو الذي راقني، حريتهم.

وتطلعت يمنة ويسرة، وحدقت أمامي، وتلفت خلفي، فرأيت العلم التونسي يرفرف في كل مكان وفوق كل بناء حري به. وأهم من رفرفة العلم تعلق أرواح الناس به. حتى لكانك ترى في رأس كل علم روحاً مستعدة لتدرأ عنه الخطر.

ودخلت المكتبات افتش عن الكتب، فهالني كثرة الكتب العربية التي تصل من أنحاء العالم العربي، ولم يكن ليسمح لها قبلاً (اي في عهد الحماية) بدخول البلد.

وسرت غرباً نحو الجزائر. (١٩٥١، أول زيارة).

والمسافر من تونس الى مدينة الجزائر الى تلسمان، اذا استقل السكة الحديد، استطاع أن يتعرف الى

الجزائر، على الاقل في قلبها، وقد قمنا بهذه الرحلة فبدأنا «السفرة في سهول تونس التي كان بعضها اجرد بحكم العادة، والبعض الآخر أجرد هذه السنة (صيف ١٩٥١) بسبب قلة الامطار. وهي شبيهة بالسهل الساحلي في جنوب فلسطين، أي بين اللد وغزة، بعد أن يجرد من البيارات، على أن يحتفظ بأشجار الزيتون وبعض النخيل وكروم العنب. ويرى الواحد على الجانبين، عن بعد، جبالاً يرتفع بعضها الى نحو ٥٠٠ متر... وفي محطة غرديمو على الحدود الحدود التونسية ـ الجزائرية، وفي بناء واحد، مكتبان: الواحد كتب عليه الدوانة التونسية اي مكتب الجمرك التونسي (ودوانة هي تعريب لكلمة douane الفرنسية المأخوذة اصلاً من كلمة ديوان العربية). وعلى المكتب الثاني وضعت كلمتا الدوانة الفرنسية. والسبب في تسمية الجمرك فرنسياً يرجع الى أن الفرنسيين يعتبرون القطر الجزائري جزءاً من فرنسا، لا كما هي الحال في تونس ومراكش المعتبرتين محميتين... وبعد غرديمو أخذ القطار يسير في أودية متعرجة، حتى وصل سوق الخميس، فارتفعت الجبال على جانبي الطريق، واكتست بالأحراج الجميلة، وصارت أقرب شبهاً بجنوب لبنان وأواسطه. واخذ القطار يصعد وظل على ذلك فترة من الوقت لا بأس بطولها حتى انتهى التصعيد في دوفيفيه، لكن الطريق استمر مجتازاً منطقة جبلية، وقبل أن يصل الى قسنطينة عاد فصعد، لأن هذه المدينة تقع على مجموعة من القمم يتراوح ارتفاعها بين ٦٨٠ و ٧٦٠ متراً.

والطريق من قسنطينة الى الجزائر اكثر امتاعاً. حقاً ان الجزء الاول منها كان عادياً، يجتاز ارضاً سهلية تخترقها أودية أكثرها جاف، لكن بعضها فيه من الماء ما يكفي لأن ينمو البعوض فيه. الا أن الطريق اخذ يظهر بعض محاسنه تدريجاً، وخاصة بعد أن اجتزنا محطة برج بوعريريج. فقد تنوعت الألوان في الجبال، حتى لحسبت ان الحديد لا بد أن يكون داخلاً في تركيبها. وقد صدق حدسي، اذ لم نلبث أن مررنا بمحطة اسمها، بورت دي فر، أي باب الحديد.

وهذه الأشجار، التي بدأت زيتوناً وصنوبراً افريقياً متفرقاً، لم تلبث ان تزاحمت في بقع كثيرة، ثم تناكبت في غيرها. واخيراً تعانقت صفصافاً وحوراً جميلاً على عدوات الأودية. وقد بدا عناقها رائعاً لأنه جاء مع غروب الشمس، التي كانت تختفي ثم تبدو، بسبب دوران الطريق ولفها في هذه الاودية المحاطة بجبال ترتفع احياناً حتى تحسب انك تسير بين قمم لبنان الشمالي، وخاصة المجموعة التي تقع على يميننا (اي شمال الطريق) والمعروفة باسم القبايل الكبرى.

واخيراً خيم الظلام، فلم أعد اتبين سوى أنوار المزارع والقرى عن بعد، وأنوار المحطات اذ نجتازها سراعاً أو نقف فيها لحظات.

وفي زيارتنا للبليدة، على نحو خمسين كيلومتراً الى الجنوب الغربي من الجزائر، اجتزنا وسط كروم هي غاية في الاتقان والترتيب والعناية، تتخللها أشجار من الزيتون، ويزين التلال الملاصقة لها شجر الصنوبر وبعض الأرز. والقرى التي في الطريق تمثل عمل الفرنسيين اي اغتصابهم للأرض. والبليدة تقع في منطقة التل، أخصب اجزاء القطر الجزائري. وعلى مقربة من البليدة، على نحو خمسة عشر كيلومتراً منها، زرنا وادي السعادين. وهو من حيث جماله وماؤه وهواؤه لا يقل عن أودية قاديشا والباروك والقرين. تحف به الجبال الى ارتفاع شاهق وتكسو سفوحها أشجار الارز، ويخترق الوادي نهير ينبع في أعاليه، ثم يتدحرج الى البليدة وما اليها وهو يروي الأرض وينعش السكان.

والطريق من مدينة الجزائر الى تلمسان يجاري أطراف منطقة التل والسفوح الجنوبية للأطلس الشمالية. ولا تقل هذه الطريق الي اجتزناها في الساعات العشر الماضية جمالاً عن تلك التي وصفتها لك من قبل بين قسنطينة والجزائر. وقبل أن نصل تلمسان اخذت الطريق تدور بنا وتلف، متجنبة هذه الأودية السحيقة، مجارية

لهذه الجبال السامقة، مستظلة بين الفينة والفينة بهذه الأشجار الباسقة، مشرفة، بين الحين والحين، على نهيرات عذب ماؤها وصفا لونه حتى لكانه غير الماء. ولم نلبث أن أشرفنا على تلسمان، فإذا بنا في منبسط من الأرض جاد فيه التراب، فاينع الثمر، وانتظم الشجر، وفاح من الزهور أريج، وكسا الجبال غاب، فنقلنا ذلك كله الى عالم فيه من الجمال ما يعجز الوصف. لولا أن كثيراً من هذا، مثل ذلك الذي رايته في طريقي الى البليدة، يمثل انتزاع الفرنسيين للأرض من ابنائها، وإقامتهم ملكهم على أشلاء المجتمع العربي في البلاد». (من رسالة الى مرغريت).

ومثل ذلك يقال عن الطريق من تلسمان الى وهران، ومنها الى مستغانم. فإنا نسير في كل هذه المناطق في أراض جميلة خصبة. وإن كان يعطل هذا الخصب، في سنوات كثيرة، جفاف يحيق بالأجزاء الجنوبية من التل وبالسهوب، فياتي على الحرث والسعي (الماشية) ويزيد في فقر القوم.

واتيح لي أن أصل المغرب. وكانت الزيارة الأولى سنة ١٩٥٩، اذ لم أمنح تأشيرة لدخول المغرب ايام الحماية الفرنسية. ولم ادر لماذا!

وكان من اول الأماكن التي استمتعت بزيارتها زرهون حيث شاركت في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

وقد كتبت عن ذلك يومها ما يلي:

نحن في المغرب، في قلبه الخفاق، إننا نقف على ارتفاع يقرب من ٧٥٠ متراً. في مدينة صغيرة لعل عدد سكانها لا يتجاوز العشرة الآف. إن بيوتها تتوج هامة هذا الجبل الأشم، وتنحدر على جوانبه بحيث تلفه كأنها تحاول أن تقيه من عوامل الطبيعة، فاذا وقفت البيوت عند هذا الحد قامت اشجار الزيتون القوية بالمهمة عنها، حتى تبلغ الوادي الذي يدور بالقرية وجبلها من جهات ثلاث. ومهمته أن يدرأ عوادي الزمن، لكن الوادي نفسه تحميه من مثل هذه العوادي جبال تحيط به وترتفع في أجواز الفضاء. والمدينة نفسها يتوسطها جامع وضريح. وليست العبرة في أن يكون في المدينة جامع وضريح، ولكن أن يكونا هذين بالذات. إنه ضريح مولاي ادريس الاكبر (١٧٢-١٧٧هـ / ٧٨٩-٧٩٣م) وجامعه. وانت اذ تلقي نظرة الى الجهة التي تخلى عنها الوادي، وقع طرفك على سهل جليل عامر: فيه خصب وفيه ماء وفيه تاريخ. أما الماء والخصب فهما اللذان صنعا التاريخ الى حد ما. فقد تحلق الناس حول الماء، فلما كثر عددهم حفروا للماء سبلاً وصل بها الى رقعة أوسع، أوى اليها من الناس عدد كبير. وكان أن تعددت ألوان السهل والجبال المحيطة به. فاخضرار الشجر والزرع تجاوره التربة الحمراء حتى لكأنها قلب تفتح الحب فيه فجرى أثره في الوجنات. والى جانب هذين تقف الصخور الدكناء والمغبرة والبيضاء، وهي صخور ما كانت لتقول الكثير لو انها بقيت في امكنتها. أما وقد عملت بها ايدي الناس فاقتلعتها من مكانها، وسوت اطرافها وهذبت حواشيها ورفعتها حجراً جنب حجر، وصفاً فوق صف. فبدت بنياناً مرصوفاً، فكانت معبداً وسوقاً وحماماً وقصراً وقوس نصر وشارعاً تحيط به الأروقة وسوراً. هذه هي وليلي وتسمى وليبولس. وهي فينيقية الأصل، ولكنها من الناحية التاريخية أهم مدينة انشأها الرومان في المغرب. فقد نالت مدينة الزيت والزيتون عناية أباطرة روما في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد فأغدق عليها انطونيوس بيوس وسفيروس ومرقص اوريلوس وكركلا المال الكثير لإقامة مبان انيقة جميلة فخمة. وقد استمرت المدينة مركزاً للحياة الرومانية الوثنية والمسيحية. لكن الزمن عفى عليها، فاختفت معالمها تحت التراب وسماها الناس قصر فرعون. ولم يتعرف العالم الحديث اليها ثانية حتى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن الحالي، اذ عملت فيها المعاول بانتظام، ونظفت شوارعها ايد مدربة، فخرجت تعلن للعالم ان الحضارة وصلت تلك الجهات في ما غبر من القرون وفات.

وقفت على انقاض وليلي واجلت ناظري حولي - قريباً وبعيداً - فرايت عجباً. هناك في رقعة أخرى من الأرض بعيدة ينبسط أمامك سهل فسيح واسع كثير المياه والخيرات، جميل المنظر والمخبر حيي خفر مع منعة وقوة، اسمه سهل البقاع. وفي ركن منه، بقية كبيرة من مدينة عبد الناس فيها الاله عشرات السنين، وبأشكال متغايرة. لكنهم عبدوه بفن وقدسوه بالفن. وقد تعاورت على بعلبك الأيام وتبدل الحكام، ولكن الأعمدة ظلت مرفوعة الرأس والهامة منتصبة القامة، تتجه نحو السماء، شأنها في ذلك شأن النفوس العلوية.

بعلبك ووليلي وبينهما الآف الاميال، هما نتاج عصر واحد، ومع أن اليد التي أقامت بعلبك كانت امهر، فإن الإله الذي صنعهما واحد في الأساس.

وكما انطلق التاريخ من بعلبك غير مرة فقد انطلق التاريخ من وليلي كذلك. فإن هذه كانت موطن المولى ادريس الأكبر الذي وصل هناك في اواخر القرن الثامن للميلاد واستقر به المقام بين اهلها، وكان بينهم اتباع الأديان على اختلافها، لكنه علمهم الإسلام فقبلوا ذلك منه وملكوه عليهم.

وهكذا فنحن نطل على وليلي فنشرف على تاريخ طويل ينتهي منه فصل ليبدأ فصل. في هذه الرقعة انتهت حضارة الرومان، لتبدأ حضارة العرب. وانتهت الوثنية والنصرانية، ليبدأ الاسلام. ولكن ظل من كل ذلك الماضي شيء في الذي تلاه، لا في الآثار فحسب، ولكن في الحياة. فالتاريخ لا يقف فجأة ليبدأ فجاة. والحضارات أمور تتلو فيها الأجزاء بعضها البعض ليتم منها كل أو مايشبه الكل. ومن هنا كان هذا الاعجاب الذي شاهدناه بأنفسنا ونحن نرقب إخواننا المغاربة وهم يتجولون بين أنقاض وليبولس، ويدركون أن شيئاً من اولئك الذين رفعوا تلك العمد واقاموا تلك الأسوار وبنوا تلك القاعات وشيدوا تلك الهياكل لا يزال يسري في دمائهم ويقيم في نفوسهم.

اشرف ابن زاكور على مقام مولانا ادريس بن عبد الله بزرهون، وهو على مقربة من وليلي، فقال فيه:

هذا هلال المغرب   هذا مجلي الغيهب
هذا الذي انواره   تفوق كل كوكب
هذا الذي من أمّه   لا يختشي من نوب
هذا الذي من زاره   ليس يرى من تعب
هذا رفيع الرتب   هذا عظيم المنصب.

وحظيت بعلبك ايضاً بشاعر يصف خربها هو خليل مطران الذي قال من قصيدة طويلة.

خرب حارت البرية فيها   فتنة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار   لأناس ملء الزمان كبار
البستها الشموس تفويف در   وعقيق على رداء نضار
وتحلت من الليالي بشاما   ت كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع   شربتها ظوامىء الأنوار
زادها الشيب حركة وجلالا   توجتها به يد الأعصار
رب شيم اتم حسناً واولى   واهن العزم صولة الجبار
معبد للأسرار قام ولكن   صنعه كان أعظم الأسرار
مثل القوم كل شيء عجيب   فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمراً يجنى   ولكن بالعقل والابصار

وضـــــروبـاً مـــن كـل زهـــر أنـيــق لـــم تـفـــتـــهـــا نـضـــارة الأزهـــار
وشـمـوسـاً مـضـيـئـة وشـعـاعـاً بـاهـرات لـكـنـهـــا مـــن حـــجـــار
تـلـك آيـاتـهـم ومـــــا بـرحـت فـي كــــل آن روائــــع الـــــزوار
ضـــمـــهـــا كـلـهـــا بـديـــع نـظـــام دق حـــتـــى كـــأنـه فـــي انـتـــشـــار
فـــي مـــقـــام لـلـحـسـن يـعـبـد بـعـد الـعـقـل فـيـــه والـعـقـل بـعـد الـبـاري
مـنـتـهـى مـــا يـجـاد رسـمـــاً وأبـهـى مـــا تـحـج الـقـلـوب فـــي «الأنـظـــار»

ومن وليلي ومن بعلبك انطلق التاريخ، فما وقف عند حد. وهكذا التاريخ لا يقف ابداً ولا يمكن ان يوقفه احد.

وأنت تهبط مدينة ما أو تزور بلداً ما، لا بد ان تطالعك هناك أمور وأشياء، فهناك موقع المدينة وهناك طبيعة البلد وهناك الناس. فموقع المدينة قد يثير في نفسك شفقة عليها أو حيالها، وفي الحالين تحب أن تعبر عن هذا ساعتها وأن تتذكر الشيء نفسه فيما بعد. وطبيعة البلد لا بد أن تترك في نفسك اثراً من الاثار. فأنت في الصحراء، سواء أكنت تنتقل على دابة أم تحملك سيارة شحن أم ترفعك طيارة الى الجو لتلقي بك في الطرف الآخر، تمتلىء نفسك رهبة وخوفاً. هذا ما احسست به مثلاً وأنا اجتاز الصحراء الكبرى من بنغازي في برقة الى كانو في شمال نيجيريا (١٩٧٦). هي الرهبة من الفراغ، ولو انه دونك، أو لأنه دونك، بالآف الأمتار، والخوف من الخواء الذي تشعر أنه يلف كل شيء. وكل شيء هذا هو امتداد رملي، ناعم حيناً وصلد حيناً آخر، تزوقه الألوان من الأبيض الى الأصفر الفاتح الى البني الخفيف، وليس هناك ما يخفف من رهبته وفراغه وخوائه من الشجر أو النبات.

وكم يختلف شعورك اذا كنت تنتقل عبر أرض مكسوة بالشجر أو الزرع يجول في انحائها الضرع، أو كنت ترى هنا زهرة يفوح منها الأريج وهناك طائرا يغرد على فنن. فأنت في الصحراء، أو حتى فوقها، لا تنفك تنتظر الخروج منها، فيما أنت، في الثانية، لا ترغب في الانفصال عنها.

وكل مدينة زرتها في المغرب الغربي، من تارودانت في السوس الى درنة في شرق ليبيا، جذبتني اليها ثم اسرتني فلما أطلقت سراحي كان سحرها قد تغلغل في نفسي، فإذا عدت الى بيروت لحقت بي أصوات حورياتها البحريات وجنياتها الجبليات، فلا ألبث حتى أعود اليها فرحاً مسروراً كمن يعود الى حبيبته بعد طول هجر، ودون كلمة عتاب!

اما الناس هناك فقد ربطتني بعشرات منهم صلات ود عميق، فهم لا يفتأون يسألون عني سواء في ذلك الهادي المطردي الليبي والفقيه التطواني الذي يستفسر عبر الدكتور احسان عباس عن الشيخ نقولا زيادة.

ليس من اليسير أن يتذكر الواحد منا عشرات الأصدقاء الذين ارتبط بهم خلال الزيارات القصيرة والطويلة، ولست أنوي أن أفعل شيئاً من هذا. لكنني أذكر أنني كنت في سنة ١٩٥١ في بنغازي (وكانت هذه زيارة بعد إقامة بضعة شهور من قبل سنة ١٩٤٩). فلقيت المرحوم المحامي الأستاذ عامر عامر (وكانت تربطني به رابطة قوية). فلما عرف انني ميمم شطر تونس والجزائر زودني برسالتين: الواحدة الى (المرحوم) السيد محمد الحبيب في الأولى، والأخرى الى (المرحوم) الشيخ محمد بن زكري في الثانية. واكتشفت اذ وصلت تونس ان السيد الحبيب هو اديب ممثل، ولكنه لم يكن يحصل على عمل في المسرح كما أنه لم يكن يشجع على الكتابة المسرحية. فالرجل كان من المشتغلين بالحركة الوطنية. وهؤلاء كانوا يحرمون من العمل الرسمي أو شبه الرسمي، اذ كان كل ذلك في يد الاقامة العامة (الفرنسية).

اما الشيخ محمد بن زكري فقد كان مديراً للمدرسة الاسلامية في العاصمة. وهذه واحدة من ثلاث مدارس فتحتها الادارة الفرنسية في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان. في هذه المدارس كان الطلاب يعلمون اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي، وكانوا يعلمون اللغة العربية وآدابها والشريعة. وكان خريجو هذه المدارس يوظفون في المحاكم الشرعية في الجزائر، اذ كان يوكل اليهم أمر ترجمة الاحكام (أو تلخيصها في بعض الأحيان) التي تصدرها المحاكم الشرعية الى الفرنسية كي يطلع عليها الموظف الفرنسي المسؤول عن التصديق على هذه الأحكام.

وقد لازمني الرجلان - الحبيب وابن زكري - فعرفاني الى كثير من نواحي المدينة واحيائها، ويسرا لي الاتصال بجماعة من أهل الفكر. وكانت ملازمتهما تتسم بالصداقة والإلفة مع كرم النفس والخلق.

وليس هنا مجال التحدث عن آخرين لا يزالون، والله الحمد، على قيد الحياة. وقد نعمت بزيارات لهم في آخر مرة زرت تلك الربوع قبل سنوات. ولست أكتم الناس انني في شوق شديد الى زيارة للمنطقة في اليقظة، فزيارة الكرى لا تشبع رغبة طالب السرى.

وانا طالب علم؛ فالزيارة هي ناحية واحدة من نواحي التعرف على البلاد وأهلها، ولكن ثمة قراءة في النصوص وفي الآثار؛ وقد فعلت ذلك فغصت في التاريخ، وهو صناعتي، استجلي صحفه، وأتبين قصصه، واكشف عن أساطيره، وأتملى من رواياته، فتم لي من المعرفة الكثير اذا قيس بجهدي ولكنه قليل اذا قيس بالموجود. وعلى كل، فقد خرجت بثروة أخضعتها لمقاييس من البحث والأسلوب قبستها طالباً وقارئاً وأقررتها لنفسي باحثاً وكاتباً. ودونت بعض ما اهتديت اليه عن المغرب العربي في كتب عدة أولها برقة (بيروت ١٩٥٠)، ثم «ليبيا من الاستعمار الى الاستقلال» (القاهرة، ١٩٥٨)، وتونس في عهد الحماية (القاهرة، ١٩٦٣) وصفحات مغربية (بيروت، ١٩٦٦). وترجمت عن الانكليزية تاريخ المغرب في القرن العشرين لروم لاندو (بيروت، ١٩٦٣)، وليبيا الحديثة لمجيد خدوري (بيروت، ١٩٦٦)، وفاس لتورنو (بيروت، ١٩٦٧). ووضعت بالانكليزية الكتب التالية:

Whither North Africa (Aligarh, India, 1957)

Sanusiya (Leiden, 1958, 1968 and 2 nd ed. 1983)

Origins of Nationalism in Tunsia (Beirut, 1962).

وإذا كان كتاب برقة، على ما جاء في الكلمة التي قدمت بها للكتاب: «هو وفاء لبعض الدين الذي طوقت به تلك البلاد وأهلها الغر الميامين عنقي». فإن كل كتاب وضعته عن المغرب العربي، كلا او جزءاً، كان فعل ايمان بالقضية التي تحدثت عنها: ولكنه فعل إيمان ركيزته البحث عن الحقيقة في مظانها الأصلية، وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة، قبل تدوين النتائج.

كان لا بدمن الدخول مع العرب الى شمال افريقيا فاتحين وحاكمين ومدبرين قبل القيام باكتناه الدور الحضاري الذي تم على أيديهم. ومن هنا فقد أطلقنا على الفصول من كتابنا افريقيات (رياض الريس لندن، ١٩٩١)، «المدخل». والفصل الأول من المدخل، والأولى بهذا الفصل أن يسمى البوابة، لخصنا ما تم على أيدي العرب من فتح أولاً واستيطان ثانياً (خصوصاً على أيدي بني هلال وبني سليم في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي)، وثورات متنوعة ضد الحكم الأموي ثم قيام دويلات ودول ظل بعضها يعترف بالخلافة بعض الوقت، واستقل بعضها الآخر استقلالاً تاماً، بل بلغ البعض حد التلقب بالخلافة. حاولنا في هذا الفصل، أن نجمل ما يحتاج الى مساحة كبيرة لتفصيله. فالبوابة هي نقطة للدخول. لكن كان يغلب على البوابات، في

المغرب العربي وفي سواه، أن يكون تخطيط البوابة معقداً، كي لا يسهل الدخول منها الى المدينة. أما نحن فحاولنا أن نخطط بيسر ونوضح بسهولة. وكل ما يحتاجه القارىء - لهذا الفصل وسواه - اطلس يقلب صفحاته ليحصل على الخارطة المناسبة.

وسيرى القارىء اننا المحنا الى الانجازات الحضارية التي تمت على أيدي العرب في الفترة الممتدة منذ بدء الفتوح ٢٢ هـ/ ٦٤٠م، حتى الفتح العثماني للبلاد - الا المغرب - في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

ان اخص ما يلفت في دراسة هذه الفترة من تاريخ المغرب العربي، هو أن الدويلات التي تفرعت عن دولة الخلافة جاءت نتيجة قوة الطرد المركزي (أي قوة الدفع عن المركز)، ولكن كانت ثمة مبررات لجأ اليها القوم لما انكمشوا على أنفسهم، البعض في ظل الخلافة، والبعض مستقلاً على ما ذكر. كانت لهم مقولات يرتكزون اليها منها الديني ومنها الإثني ومنها الإداري ومنها التجاري. لكن هذ القوة الدافعة الى الخارج كان يقابلها قوة اللم الداخلي، اذا صح التعبير. وهذه تمثلت بالإسلام الذي انتشر تدريجاً ثم تجذر وأصبح العروة الوثقى، وباللغة العربية التي كانت وسيلته الى القوم كما كانت تتقوى بوجوده.

ولما وصل العثمانيون الى المغرب العربي حازوا ليبيا وتونس والجزائر، وامتنع المغرب (الأقصى) عليهم. وتجربة المغرب مستقلاً، وما تبقى من المغرب العربي ولايات عثمانية لكل كيانها الخاص وخصوماتها وحروبها فيما بينها، هذه التجربة وما عرفته المنطقة من تحرك اقتصادي كان يتناسب مع ما يتطلبه العالم يومها - وكان قد اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح والعالم الجديد - هي موضوع الفصلين الثاني والثالث (من الكتاب).

ولم يسمح الغرب الاوروبي للمغرب العربي أن يتم تجربته أو أن يظل مكانه على الأقل. فقد خرجت أوروبا في القرن التاسع عشر الى العالم الواسع تقضم منه أجزاء هنا وأجزاء هناك، وتحتل منطقة هنا وأخرى هناك، لتقيم لمتاجرها أسواقاً، وتلتهم المواد الخام اللازمة لصناعتها. وهي تدعي عهراً وبطلاناً، أنها إنما تحمل على عاتقها واجب الرجل الأبيض لنشر الحضارة عموماً، والحرية والفكر خصوصاً، بين الشعوب التي فرضت نفسها عليها. وكان الاستعمار الذي عرفه المغرب العربي من أسوأ ما خبره الناس في العصور الحديثة.

فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠، وتونس ١٨٨١، والمغرب ١٩١٢، كما هاجمت ايطاليا ليبيا سنة ١٩١١. وفرضت فرنسا على القطر الجزائري نفسها، فضمته الى ارضها واعتبرته جزءاً منها.

وانتزعت من السكان الأراضي الخصبة وقسمتها بين رعاياها الذين أرسلتهم الى تلك البلاد، أما تونس فقد فرضت عليها نظام الحماية، وهذا هو الذي فرضته على المغرب لما وصل دوره. لكن اذا جردنا القضية من الأسم، فإن ما فعلته فرنسا في المحميتين كان من نوع ما فعلته في الجزائر. ولم تقصر ايطاليا، إن لم تكن أشرس في معاركها خصوصاً. وقد تناولنا عمل ايطاليا في ليبيا في كتابينا: ليبيا من الاستعمار الى الاستقلال (القاهرة، ١٩٥٨)؛ ليبيا في العصور الحديثة (القاهرة ١٩٦٣).

أما في هذا المجلد، فقد رأينا أن نضع في المدخل فصلين: الواحد عن «الجزائر ومشكلاتها» والثاني عن «تونس وقضيتها» وهما الفصلان الثاني والثالث (من الكتاب).

أما وقد اجتزنا المدخل، فإننا نجد أنفسنا في رحاب المغرب العربي، وأمامنا أحاديث ومقالات عن مدن زرتها، وطرق جزتها ومؤسسات عرفت عنها أوعرفتها. وسيرافقني القارىء مستمتعاً بما استمتعت، مستلهماً ما استلهمت، مكتشفاً معي ما اكتشفت. وقد يجنح به الخيال، كما جنح بي أحياناً، فيرى أكثر مما رأيت.

ومع ذلك، فهذه الفصول التي أضعها بين يديه قد تظل منفصلة متفرقة إن لم أربط بينها بما جرى لي هنا وهناك وبأحاديث عمن عرفت ولو لماماً. ولأن زياراتي كانت تتنوع أسبابها وتتعدد مسبباتها فقد يبدو حديثي

وكأنه مكوكي. وأنا أرى أن هذا التعبير مناسب لما أريد قوله على اعتبار ان المكوك هو أداة الحياكة والنسيج، وأنا أحاول أن أحيك هنا وأنسج، لا شبكة اصطاد بها القارىء، ولكن قطعة من القماش الناعم لعلني أستطيع أن أرسم عليها صوراً فيها متعة تنضاف الى متعة القراءة.

في أول زيارة لليبيا سنة ١٩٥١ (بعد فترة العمل السابقة) كان بين من استقبلني رئيس وزراء ليبيا في الحكومة الانتقالية محمود المنتصر، الذي وضع سيارة حكومية تحت تصرفي وكلف الاستاذ منير برشان، من أعضاء مجلس النواب، أن يرافقني. وهذا الرجل كان ذا معرفة وافية بتاريخ ليبيا، ومن رجال السياسة والجهاد فيها، فكان أن زودني بالكثير مما يشار اليه على انه «معلومات داخلية، وكنت أنا مغرماً بزيارة الآثار الليبية، وهي كثيرة. وكان ثمة بدء عمليات التنقيب عن الآثار، كنت قد زرت قيريني (لشحات) في الجبل الأخضر في برقة، وكان مدير الآثار في برقة المستر جونز الذي كان أحد موظفي ادارة الآثار العامة بفلسطين، والذي كانت تربطني به صلة من تلك الأيام. وذهبت مع برشان في يوم قاظ وسطه، وكان أن وصلنا الخمس (لبدة) في تلك الساعة، فرجوت برشان، وكان فيه سمن وله تقدم في السن، أن يقيل في ظل شجرات لطيفات، وذهبت أنا أدور بين الآثار، واذا بي أمام مدير الحفريات ولما أظهرت رغبتي في الزيارة ترك عمله ورافقني وحدثني عن تاريخ هذه المدينة الرومانية أصلاً كما تحدث عن مدينة صبراتة (التي زرتها في اليوم التالي). وفي سنة ١٩٦٨ أقامت الجامعة الليبية - وكانت بعد جامعة واحدة بفرعين: واحد في بنغازي (الآداب والتربية والتجارة) والآخر في طرابلس (العلوم والهندسة) في فرعها في بنغازي - مؤتمراً تاريخياً عن ليبيا عبر التاريخ. وكنت بين المدعوين، وفي يوم الافتتاح وجدتني وجهاً لوجه أمام الأستاذ نفسه الذي كان مدعواً للتحدث عن الآثار الرومانية المعمارية في ليبيا وهو الاستاذ بركنز Perkins.

ولما زرت ليبيا مع زوجتي مرغريت في السنة ذاتها كان من اليسير علي، وقد وضع الحاج أحمد الهوني وزير الثقافة والاعلام يومها (ونزيل لندن اليوم ورئيس تحرير جريدة العرب التي تصدر هناك) سيارة تحت تصرفنا، أن اكون دليلاً للبلاد والآثار لها ولصديقتها رائدة جار الله الحسيني التي كانت تعمل هناك في دار المعلمات.

في تونس تزور الجامع الأعظم، وهو جامع الزيتونة، وترافقني في الزيارة، ولو اتيح لك أن ترافقني في السير من باب البحر الى الجامع لأتيح لك أن ترى الكثير من آثار الصناعة المحلية، حلياً من الفضة وزرابيات (بسط) وشاشيات (طرابيش تونسية) وغيرها، ولكنت تتنشق رائحة التاريخ الطويل تملأ رئتيك، دون أن تصدعك، ولكنت استمتعت بما كنت استمتع أنا به اذ ادخل حوانيت الوراقين - باعة الكتب القديمة والطبع وابتاع منها ما يقدر عليه جيبي، وأترك لصديقي المزابي (الجزائري الأصل) إرسال الكتب بالبريد. وكان هذا يتكرر كلما زرت تونس!

كان رفيقي في تونس الحاضرة في أول زيارة (١٩٥١) السيد محمد الحبيب، على ما ذكرت. وكان ممن تعرفت اليهم في تلك الزيارة الشيخ الفاضل بن عاشور، أحد كبار شيوخ الزيتونة يومها. زرته في مكتبه في الجامع، ورافقني متفضلاً لزيارة المكتبة. ثم رتب لي زيارة لحضرة والده الشيخ الطاهر بن عاشور وكان أحد كبار رجال الإصلاح في تلك الحقبة. وكان من غرائب المصادفات أنني بعد زيارتي لتونس والجزائر في ذلك الصيف (١٩٥١) أن عرجت على استانبول لحضور مؤتمر المستشرقين.

ووصلت عاصمة الامبراطورية العثمانية قبل الموعد بأسبوع لأمتع نفسي بالتعرف على معالم المدينة الكبيرة. وفيما أنا خارج في أحد الأيام من زيارة جامع السلطان أحمد، وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الشيخين

الأب والأبن اللذين كانا داخلين لأداء صلاة العصر، فكان لقاء وتحية ودعاء بأن يتقبل الله منهما وأن يذكراني بالخير.

وكان أن لقيت الشيخ الشاذلي النيفر العالم الفقيه والأديب. وأسرة النيفر في تونس أسرة عرفت العلم والأدب جيلاً عن جيل. وقد كان منهم صاحب عنوان «الأديب» الذي يؤرخ لاهل لأدب والشعر في تونس. الشيخ الشاذلي استقبلني في بيته أكثر من مرة، يومها وفي الزيارات التالية: ضيفاً الى مائدته، وطالب علم في مكتبته.

أردت أن أزور القيروان (١٩٥١)، وكنت قد تعرفت الى الاستاذ مصطفى (سليمان) زبيس، أحد كبار العاملين في الآثار الإسلامية في تونس، فاصر على مرافقتي. ومن هنا جاءت معرفتي الأولى. ثم اتبعتها بما قرأت. وتعرفت في تونس في تلك الزيارة الى خزانة المعرفة التاريخية في البلد وهو عثمان الكعاك، كان موظفاً كبيراً في المكتبة الوطنية يومها، وأصبح فيما بعد مديراً لها. زرته في تلك السنة في مكتبه. لكن في سنة ١٩٥٩ حملني الى منزله في سيدي بو سعيد. ولهذا المنزل حكاية، كان مثلها في تونس مئات. بعد الاستقلال (١٩٥٦) خرج كثيرون من الفرنسيين من البلاد عائدين الى فرنسا. وكان هؤلاء قد بنوا البيوت الجميلة في ضواحي الحاضرة وفي مصايف الشاطىء التونسي الجميل. فرغت المباني من أصحابها وعرضت للبيع بأسعار متهاودة. لذلك تمكن عثمان الكعاك وأمثاله من شراء بيوت جميلة أنيقة، وإلا فمن أين للموظف أن يملك «فيلا» في مصيف بو سعيد.

والمكتبة الوطنية كانت غنية بالكتب التي تعنى بالبلد، وقد كانت تحوي نحو ثلاثمائة مجلد عن جغرافية القطر التونسي الطبيعية والجيولوجية. كانت الكتب الفرنسية كثيرة، ولم تكن الكتب العربية موضع عناية كافية. لكن لما تولى عثمان الكعاك الأمر وجه العناية الى هذه الأخيرة فأصبح الوصول اليها متيسراً، وكثر زوار المكتبة من أبناء البلد.

كان عثمان الكعاك خزانة علم ومعرفة، لكنها خزانة كان ينقصها التنظيم. فأنت اذا تفتحها لتأخذ منها ما تريد، هرت منها محتوياتها لانها لم تكن مرتبة. لكنها كانت غنية. وكان الشاطر يستطيع أن يفيد منها.

وهناك لقيت بعضاً من الصحفيين، وكان في مقدمتهم الصحفي الشاب نور الدين صمود، وهو الآن في مقدمة العاملين في حقلي الشعر والأدب في البلاد. وقد اتصلت بعدد من الشباب المنضمين الى الحزب الدستوري الحر وتنظيماته. ورافقتهم في رحلات طويلة الى صفاقس وقابس وطبرقة وبنزرت وجربة. وحضرت، بدعوة من القيادات المحلية، اجتماعات اللجان التي كانت تدرس مقترحات أتتها إما من أهل المنطقة أو من القيادة لإبداء الرأي والملاحظات. وكان أكثر ما حضرت منها في حومة السوق (جربة) وقابس وسوق الاربعاء. وكانت هذه الاجتماعات في الزيارات التالية: (١٩٥٩ و ١٩٦١ و ١٩٦٨ و ١٩٧٠). وطلب مني أن ألقي محاضرات ففعلت في تونس وصفاقس. وألح علي مدير قسم الأحاديث الأدبية في الإذاعة التونسية (السيد حسين العكروت) فلبيت طلبه أو على الأصح بعض ما طلب.

هذه الاتصالات والتنقلات والرحلات الزيارات أتاحت لي فرصاً للتعرف على الحياة في تونس أوفى مما تحمله الكتب والوثائق الى القارىء. فكانت الواحدة دعماً للأخرى.

أما الحبيب بورقيبة فقد لقيته لا في تونس ولكن في بيروت في خريف ١٩٥١، وفي بيت الزميل الصديق سيسل حوراني، ولهذا اللقاء قصة ليس هنا موضعها.

لعل تعرفي الى الجزائر والجزائريين لم يختلف عما لقيت في تونس الا من حيث المساحة. فالجزء الذي زرته من هذا القطر كان صغيراً، لكنه كان كافياً لاتعرف منه مشكلات البلاد (اما تاريخها فحصلت عليه من الكتب من

قبل ومن بعد). كان دليلي في الجزائر (المدينة)، كما مر بنا، الشيخ محمد بن زكري. واقترح علي يوماً أن أزور حاكم الجزائر العام، فقبلت على أن يرافقني ليترجم لي. وتم الترتيب وذهبنا الى مكتبه، وكان الحاكم نفسه في اجازة. ولكن السكرتير العام للحكومة كان ينوب عنه دائماً. كان الموعد في الثانية عشرة زوالية. ولما دخلنا مكتبه شكرته على استقبالي فقال لي: نحن لا يزورنا كل يوم استاذ جامعي. وقد خصصت لك ساعة كاملة للحديث، فأسأل ما تشاء. سرني ذلك، وبعد أن شكرته وجه لي سؤالاً بسيطاً فيما اذا كنت قد زرت مدناً أخرى قبل العاصمة. فقلت له أنني زرت قسنطينة، فأضاف نحن احتفظنا بقسنطينة متحفاً اجتماعياً. فقلت له: كان من الممكن الاحتفاظ بها متحفاً نظيفاً (يجد القارىء فصلاً خاصاً بالاستعمار الفرنسي في الجزائر في «افريقيات»). عندها نظر الى ساعته وقال إنه تذكر أن لديه موعداً آخر. وهكذا مسخت الساعة الى خمس دقائق.

والشخص الآخر الفرنسي الإداري الذي لقيته كان الكابتان سوليير، وهو المنسق للعلاقات بين المغرب والجزائر وتونس. ذلك انني لما تركت بيروت كنت قد حصلت على تأشيرة لزيارة الجزائر وتونس، أما تأشيرة المغرب فلم تكن قد وصلت. في بيروت كان يقيم واحد من اصدقائي هو المرحوم عز الدين الشوا، الذي كان يعرف الكابتان سوليير. فنصحني أن أحاول الاتصال به لعله يسهل المهمة. ولكن لا رسالة عز الدين ولا شفاعة ابن زكري نفعت. ولم يسمح لي بزيارة المغرب يومها.

وكان في جعبتي رسالة الى احمد توفيق المدني، وهو من المناضلين الجزائريين، فضلاً عن كونه من أهل الفكر هناك. تواعدنا، لما اتصلت به الساعة الرابعة بعد ظهر يوم من أيام آب / اغسطس (١٩٥١)، فذهبت في الموعد، وقال لي أن اجتماعاً سيعقد في مكتبه في الساعة السادسة، لذلك فنحن لدينا ساعتان. أحمد توفيق المدني شرح لي القضية الجزائرية شرحاً وافياً. بعد نحو ساعة ونصف الساعة من وصولي بدأ المجتمعون بالوصول، فاتفقنا على أنني أستطيع أن أبقى وأتحدث الى القادمين الى ان يكتمل النصاب، فانسحب. لكن الذي حدث انه لما اكتمل النصاب قال احدهم: لماذا لا يبقى الضيف؟ نحن لا نعمل في الخفاء. بقيت وكان المجتمعون يمثلون المجتمع الجزائري السياسي من أقصى اليمين الى أبعد اليسار: من جمعية العلماء المسلمين في الجزائر الى الحزب الشيوعي. وكان القصد من الاجتماع «انشاء لجنة الدفاع عن الحقوق الديمقراطية في الجزائر». أكان من الممكن أن تتاح لي فرصة أفضل من هذه للتعرف الى الناس والاطلاع على ما يريدون؟

وعن طريق أحمد توفيق المدني أرشدت الى الشيخ البشير الابراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر (وهي التي كنت أول من كتب عنها من المشارقة. راجع «افريقيات»). ونشأت بيني وبين الشيخ البشير صداقة في الزيارات التي قمت بها لمركز الجمعية. وفي سنة ١٩٧٠ كنت في تونس. وعرفت أن الشيخ البشير هناك، وكان مريضاً، فزرته وطلب مني أن أنحني ليغمرني بقبلة. (في سنة ١٩٧٨ كنت في الجزائر لحضور مؤتمر عن ابن خلدون، ولقيت أحمد الإبراهيمي وكان وزيراً فقال لي ان والده كان يحدثه عني. وكم سررت أن هذا الشيخ الجليل تذكر هذا الزائر العربي من المشرق).

كان في نيتي زيارة تلمسان ووهران. ولما عرف الشيخ البشير بذلك أنبأني أنني سأكون ضيف الجمعية هناك. وأخذت القطار من العاصمة الى تلمسان. سار القطار من العصر، عبر الليل، ولما قارب الوصول الى تلمسان بدأت حواراً مع نفسي: هل أحلق وأغير القميص في القطار، أم أترك ذلك حتى الوصول الى الفندق؟ واخيراً تغلبت عادتي علي فحلقت وغيرت القميص. وكم سررت بذلك اذ وجدت عشرة من الشباب ينتظرونني في المحطة.

سيعثر قارىء كتاب افريقيات على وصف وتاريخ لتلمسان في مكانه من الكتاب. لكن الذي لن يجده هناك. والذي أرويه هنا هو الأمسية التي قضيناها في منزل التاجر الكبير الكريم الحاج بن يونس. دعينا للعشاء. وكان

هناك هو وأنا وفئة من أعضاء الجمعية: لعلنا كنا جميعاً نحو الدزينة. بدأ الاجتماع حوالي الثامنة مساء. وطعمنا خير زاد، ودار الحديث حول القومية العربية.

اتفقنا من أول الأمر اننا لن نحاول الإقناع بصحة القضية القومية ولا بعقمها. كانت الفكرة توضيح هذا الذي ندعو اليه في المشرق ومعناه وغايته. تناقشنا الى بعيد منتصف الليل. وكان آخر ما قاله الحاج بن يونس: هل تنتظر مني اذا كانت هناك مشكلة وقعت لك، وأخرى مماثلة وقعت لباكستاني، أن أهرع الى مساعدتك قبل الباكستاني لانك عربي مع انه مسلم؟ قلت: لا أمنعك طبعاً من مساعدة الباكستاني، لكنني أود أن تشعر أنني أقرب اليك بسبب العروبة من الباكستاني المسلم، الذي ليس عربياً. فقال. وكان قوله فصل الخطاب في حديث تلك الأمسية الطويلة المفيدة: «الباكستاني المسلم اقرب الي منك».

أود أن أسرع الى القول ان الحاج بن يونس ليس الجزائر بأكملها. إنه واحد، ولعله كان له مشايعون وأنصار ومؤيدون. لكن رجلاً مثل أحمد توفيق المدني والشيخ البشير الإبراهيمي مثلاً كانا مسلمين عربيين. وشعار جمعية العلماء المسلمين في الجزائر كان:

شعب الجزائر مسلم   والى العروبة ينتمي

وحتى الشباب الذين لقيتهم في تلمسان ووهران، وهم من جماعة المدرسين في المدارس الرسمية ومدارس الجمعية كانت لهم ميول عربية قوية. لكن مشكلتهم كانت، في الدرجة الأولى، عجزهم عن التعبير عن آرائهم باللغة العربية. كانوا يتحدثون عن الأمور العادية بالعربية، فإذا نتقلوا الى شيء من شؤون الفكر اضطروا الى اللجوء الفرنسية.

في زيارات لاحقة أتيح لي أن أتعرف الى آخرين من أهل الفكر في الجزائر مثل ابو القاسم سعد الله المؤرخ للحياة الثقافية في البلاد، ورشيد بورويبة وزملائهما في معهد الدراسات التاريخية.

لم أتمكن من زيارة المغرب للمرة الأولى الا في سنة ١٩٥٩. وكانت طنجة المدينة الأولى التي عرفتها، وكان العلاّمة عبد الله كنون أول من لقيت من علماء المغرب. زرته في بيته مرتين، ولقيته بعد ذلك مرات، كانت إحداها في القاهرة. عبد الله كنون عالم جمع معرفة السلف ورؤيته الى محاولة لدرس الأدب دراسة فيها محاولة النظرة الحديثة: ولكنني واثق من انه لم ينل رضى أهل الحداثة ولا ثقتهم. وأنا، لأنني طالب علم، كان من حسن حظي أن أجتمع الى هذا الرجل.

لما وصلت الرباط - بعد زيارة لطنجة وتطوان - نصحني سفير لبنان في المغرب يومها أن أذهب لزيارة مراكش، لأن عيد المولد النبوي اقترب. والمألوف منذ عقود طويلة من السنين هو أن يحتفل بالعيد في زرهون. ويكون ملك المغرب (محمد الخامس يومها) على رأس المحتفلين، ويرافق الملك جميع الموظفين الكبار ورجال السلك الدبلوماسي. ومعنى هذا أن الرباط تفرغ ممن يستحق أن يزار أو يقابل. وقبلت النصيحة.

إلا أنني عرفت، مصادفة، أن مرغريت بوب تعمل في القسم الإنكليزي من الإذاعة المغربية. ومرغريت هذه عرفتها في فلسطين (في الأربعينات) إذ كانت تعمل في الصحافة، وكانت قد خطبت لأحد اصدقائي: ثم اختلفا ففسخت الخطبة. كلمتها تلفونياً ودعوتها للعشاء. ولما جاءت سألتني عما أنوي فعله، ولما أنبأتها عن نصيحة السفير اللبناني لم توافق عليها. وقالت إن هذه فرصة العمر لأن أحضر احتفالات المولد النبوي في زرهون. وذكرت لي أن السيد مراد، القائم بالأعمال الهندي في الرباط (وهو حديث عهد بعمله) لا يعرف العربية، ولعله يسر اذا أنا رافقته. وكلّمْتُه تلفونياً، فكان عند حسن ظنها، وهكذا مر بي في اليوم التالي، ووفقت في الحصول على غرفة في فندق مكناس في مدينة مكناس (مكناسة الزيتون) وهي المدينة التي بناها المولى اسماعيل (١٠٨٢

-١١٣٩هـ / ١٦٧٢-١٧٢٧م) لتكون عاصمته، ولم تكمل في أيامه وأهملت بعده، وقضيت خمسة أيام في المنطقة زرت خلالها وليلي وزرهون ومكناس وافران وكنت في صحبة جماعة من الدبلوماسيين وذلك بسبب السيد مراد. ولقيت في زرهون وفي مكناس سفير لبنان في المغرب لكنه لم يعن بي، ذلك شأنه، رحمه الله.

لعل زياراتي للمغرب كانت، من حيث العدد، اكثر من زياراتي لأي من اقطار المغرب العربي. تعددت وكان بعضها بمهمات رسمية، فضلاً عن الدعوات لحضور مؤتمرات وزيارات خاصة. وتنقلت في أنحاء المغرب وزرت مدنه العديدة. جميع زوار المغرب يعرفون الدار البيضاء وفاس والرباط ومراكش. لكنني أضفت الى ذلك تطوان وطنجة وشفشاون في الشمال، ووادي زم أواسط البلاد، وتارودانت واغادير واسفي في الجنوب.

وأتيح لي أن أتعرف الى عدد من الزملاء في الجامعة (جامعة محمد الخامس) مثل: محمد زنيبر ومحمد الحجي وابراهيم حركات ومحمد بن شريفة، وآخرين من أهل العلم والبحث مثل: الفقيه التطواني والفاسي الكتاني وابن داوود ومحمد القباج، ومن رجال السياسة: علال الفاسي والقيت عشرات من المحاضرات على معلمي المدارس الابتدائية (١٩٦٥ و ١٩٦٦)، وأخرى عامة بدعوة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (١٩٧٩).

لن يستغرب القارىء، بعد أن يقرأ هذه الصفحات التي دونت فيها. وبكثير من الاختصار، بحيث انها كانت اشارات، مدى اتصالي بالمغرب العربي ارضاً ومدناً وناساً واشرت الى القدر الذي اتيح لي للتعرف على جغرافية البلاد لا من حيث تضاريسها فحسب، ولكن من حيث انها الرقعة التي حدث التاريخ فوقها، والتي اثرت في توجيهه. والدرجة التي استمتعت فيها بوجودي هناك وتذوقي الطعام الذي يطبخ من الكسكس الى الطجين الى السمكة الحارة. اذا عرف القارىء هذا، وهو قليل مما دخل في تكويني النفسي، استطاع أن يدرك الحب الذي عبرت عنه في وصفي للمدن والمجتمع والطرق، والشوق الذي اكنه لكل شخص لقيت، وكل مكان زرت، وكل طريق قطعت، وكل رفيق درب عاشرت، وكل جهد بذلت، وكل تعب لقيت، وكل مشقة عانيت. وهذا كله، وكثير غيره، هو الآن ليس شيئاً اتذكره فانشد ذكره فحسب، بل كل حادث من هذه له في قلبي مقر وفي نفسي مستقر وفي عقلي موضع وفي اذني مسمع. وأنا اذ اجلس احياناً الى نفسي، وأستعيد مراحل حياتي، التي طالت (ولله الحمد) لكنني لم أملها ولم تملني (أقول هذا تحدثاً بنعمة الله) واستذكر الأحداث، أرى لعلاقتي بالمغرب العربي بقعاً صافية ونقاطاً واضحة، تدور الذكريات حولها، فتتخذ شكل الفتاة الجميلة اللعوب أحياناً، والعجوز الحكيم حيناً آخر. ولعلها تبدو جنية ساعة وحورية ساعة اخرى. وكم وجدتني وقد انجذبت نحو الواحدة أو الأخرى فنسيت وجودي وجريت نحوها محاولاً الإمساك بها، فيوقظني من حالتي صوت العجوز الحكيم. ثم اكتشف ان هذا الصوت هو حلم في حلم. انا في تذكري أسفاري يصيبني مثل هذا، لكن أحلام المغرب العربي أقوى اثراً في نفسي، لأن لتلك الزيارات أعمق مكانة في قلبي.

لم يتح لي أن أزور السودان الغربي، وأقرب مكان اليه وصلته هو شمال نيجيريا. ومع أن أكثر الوقت قضيته في كانو ثم في زاريا. وكنت في الحالين ضيف الجامعة هناك. فقد أتيح لي التنقل في تلك المنطقة.

هناك اتصلت بعالم يختلف كلياً عن العالم الذي عرفته، هذا العالم يشبه، من حيث بعده عن عالمي الخاص، عالم الهند والباكستان. لكن ذلك لم يقلل من محاولتي التعرف على خصائصه. وأدركت أن هذه المنطقة هي المحطة الأولى، جنوب الصحراء الكبرى، على الطريق الموصل من ليبيا وتونس الى السودان الغربي.

وتابعت تطور بضعة أمور في السودان الغربي منها انتشار الاسلام في تلك المناطق، والمجتمعات الاسلامية التي نشأت عن ذلك هناك، ومعاهد العلم الاسلامية في السودان الغربي. ورافقت ابن حوقل وابن بطوطة في

انتقالهما في تلك الربوع. وحاولت أن أرى التطور الذي أصاب السكان بين القرن الثالث والثامن الهجري / التاسع والرابع عشر الميلادي. وأخيراً رافقت جيش المنصور الذهبي (٩٨٦ ـ ١٠١٢هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣م) الذي سيّره من مراكش الى تمبكتو وجوارها.

هنا وقف الكلام المباح عن السودان العربي.

الفصل السادس والعشرون

في الوقت نفسه الذي كنت اقضم فيه المغرب العربي كان المشرق العربي يحملني على التعرف عليه حملاً. فبين سنتي ١٩٥٦ و ١٩٩٢ زرت، وكانت بعض زياراتي تمتد الى اسبوعين في المرة الواحدة، العراق والكويت والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية واجزاء من المملكة العربية السعودية. واتسع نطاق تجولي شرقاً فزرت ايران ثلاث مرات وزرت الباكستان (الغربية) والهند (مرتين، كانت اقامتي هناك في الزيارة الثانية نحو شهرين) واواسط اسيا، التي كانت يومها جزءاً من الامبراطورية السوفياتية.

وقد تنوعت اسبابي وغاياتي في هذه الزيارات: السبب الأصلي والغاية الأولى كانت الرغبة في التعرف الى البلاد واهلها. لكن المناسبات هي التي تعددت: فمن دعوة لحضور مؤتمر أو ندوة، ومن دعوة من جامعة للاسهام في التدريس فيها، مثل بغداد والكويت وجامعة عليكره الاسلامية في الهند؛ ومن دعوة لالقاء محاضرة. وهكذا فقد كانت تترتب على زياراتي شرقاً واجبات علمية اكاديمية، لم يكن لها في المغرب مثيل سوى موسمين، كنت فيهما (سنتين ١٩٦٥ و ١٩٦٦) عضواً في بعثة من الجامعة الأميركية في بيروت انتدبت، وكنت على رأسها، لالقاء محاضرات في التاريخ والادب والتربية والاجتماع على مجموعات من مدرسي المدارس الابتدائية في المملكة المغربية. وقد كانت تجربة ذات أثر خاص في نفوس الفريقين: المعلمين والمحاضرين الزائرين على السواء.

في سنة ١٩٥٦ ذهبت الى بغداد للمرة الأولى. اردت أن أحس بالطريق والانتقال لذلك سافرت مع شركة نيرن التي بدأها اخوان من استراليا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، والتي كان لها الفضل في شق الطريق وباسلوب متقدم راق (ومستمر على التقدم) الى السبعينات من القرن العشرين.

وكان بانتظاري في بغداد ساعة وصول الباص الكبير الصديق الوفي المرحوم عبد الرحمن البزاز. وحملني الى منزله العامر، حيث قضيت اياماً طيبة. وقد يسر لي الصديق زيارات للآثار وللناس، وكان دوره في النوع الثاني أكبر وأهم. وقد طلب مني يومها أن أتحدث الى القوم في واحد من أندية بغداد فكان أن اخترت الحديث عن الحركة القومية في شمال افريقيا. ولم اكد ابدأ حتى دخل القاعة ثلاثة من العاملين في الحركة الوطنية في الجزائر. وكانت لي باحدهم معرفة؛ فقلت في انعطافة كلامية موفقة، «أنا أتحدث اليكم مؤرخاً للحركة القومية في المغرب العربي، لكن الآن أمامكم فئة من الذين يصنعون التاريخ في الجزائر، فلنقف ترحيباً بهؤلاء القوم».

جاء هؤلاء العراق كلهم أمل في الحصول على عون مالي من القطر الشقيق. وكان العراق يومها ينعم بحكم ملكي ابيد بعد سنتين. ولكن زعماء العراق، الذين كانوا من ابناء الثورة العربية الكبرى (١٩١٦)، لم يبخلوا يومها على الزوار. لست أدري كم كان المبلغ الذي قدم الى هؤلاء الزعماء رمزاً للعون الاخوي، ولكن مما سمعته يومئذ ان الثلاثة عادوا يحملون ما يعادل ربع مليون جنيه استرليني، وأن وعدا بمبلغ مماثل سنوياً قد قطع. ولعله ارسل سنة واحدة: ثم جاءت ثورة عبد الكريم قاسم التي طهرت البلاد من الحكم الفاسد فيما زعمت وزعم مؤرخوها وزبانيتها.

اما قولي فان المبلغ الموعود به قد يكون وصل مرة الى الجزائر فمبني على تجربة تمت معي. لما انشئت دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨، وجد عدد من الطلاب الفلسطينيين انفسهم وقد انقطع عنهم المال من ذويهم المقيمين في فلسطين. عندها ارتأى رئيس الجامعة الأميركية في بيروت، ستيفن بنروز، أن ينشىء صندوقاً خاصاً بهؤلاء الطلبة لمد يد العون لهم. واقتطع مبلغاً من موازنة الجامعة نفسها لهذا الغرض. وأخذ على عاتقه، كما أخذ آخرون على عاتقهم، جمع التبرعات لهذا الصندوق.

لما انضممت انا الى هيئة التدريس في الجامعة الاميركية كانت اللجنة الخاصة بدعم الطلاب من هذا الصندوق قد الفت، وكان يرئسها جبرائيل كاتول. وعمل كل بما اوتي من جهد لجمع التبرعات. ولم يكن لي دور لا في اللجنة (وقد ضممت الى أعضائها فيما بعد) ولا في جمع التبرعات. فانا مجال اتصالاتي محدود، ومعرفتي بالناس قليلة بعد. لكن لما ذهبت الى بغداد استأذنت اللجنة في أن أسعى هناك في سبيل الخير هذا. وقد وفقت بسبب صلة عبد الرحمن البزار بأهل الحل والعقد في العراق، في الحديث الطويل مع خليل كنه، وكان وزيراً للتربية، وتولى اثناء وجودي القصير ببغداد وزارة المالية وكالة. لذلك فقد اقترح خليل وزير التربية علي خليل وزير المالية بالوكالة، أن يضع باباً ثابتاً في موازنة الدولة هو: ثلاثة الاف دينار لمساعدة صندوق الطلبة الفلسطينيين بالجامعة الاميركية، تدفع سنوياً. ويتم الدفع بواسطة نقولا زيادة.

وبعد أن عدت الى بيروت بمدة قصيرة وصل الصك بالقيمة المذكورة فحولته لحساب الصندوق. وفي ربيع السنة التالية (١٩٥٧) كنت استاذاً زائراً في جامعة هارفارد فوصلتني رسالة من وزارة المالية العراقية تستطلع رأيي في كيفية ايصال المبلغ (ثلاثة الاف دينار) الى الصندوق. اذكر انني طلبت منهم يومها أن يرسل المبلغ باسم الدكتور قسطنطين زريق. وهذا ما حدث.

وجاءت سنة ١٩٥٨، وقام عبد الكريم قاسم بالثورة ليصحح أوضاع العراق، وليزيل الاعوجاج. وكان فيما ازيل من الاعوجاج الثلاثة الاف دينار لصندوق الطلبة الفلسطينيين في الجامعة الاميركية في بيروت؛ واحسب ان ما وعد به الزعماء الجزائريون الثلاثة ازيل مع ما ازيل من الاعوجاج. قد اكون انا محافظاً، وقد اكون متأخراً، وقد أكون كل شيء؛ فليقل الناس عني ما شاءوا. فانا أقول ليت الاعوجاج الذي كان العراق يشكو منه - على زعمهم - ظل ولم يزل بالاساليب التي عرفها القطر الشقيق سنة ١٩٥٨ وما بعدها!

انتقلت من بغداد الى الكويت. كان ذلك بالطائرة. فلما حطت الطائرة لم تحط في مدرج واسع كبير كتلك المدارج التي يجدها المسافر هذه الايام في كل من مطارات دول الخليج. كانت قطعة من الارض قد مد عليها شبك من حديد، يمكن للطائرة أن تستقر عليه. وبهذه المناسبة فقد هبطت الطائرة بي في مطارين من هذا النوع فيما بعد - جربة (١٩٦١) وشيراز (١٩٦٢).

كان درويش المقدادي، بقامته الفارغة، يتقدم مجموعة من المستقبلين هم من تلامذتي واصدقائي تلامذتي في الكية الرشيدية والكلية العربية (في القدس) وفي الجامعة الاميركية في بيروت. لقيتهم بكل ما نفسي من الحبور، ولقوني بكل ما في نفوسهم من طيبة وسرور. وفيما نحن سائرون اقترب مني محمود السمرة وقال لي نتعشى (أو نتغدى) غداً معاً. فاستجبت لدعوته. ولكن لما وصلنا نزل ضيوف حكومة الكويت وبدأنا نتحدث عن الدعوات، قلت لهم انا مقيم هنا خمسة أيام. اقتسموا وقتي كما تريدون، على ان لا تشققوني. وقد تم الاتفاق فيما بينهم على اقامة حفلة شاي تضم الجميع. وقد عثرت في أوراقي على بطاقة الدعوة.

أصدقاء وتلامذة

الدكتور نقولا زيادة

يتشرفون بدعوتكم الى تناول الشاي معه في قاعة المدرسة الثانوية بالشويخ في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٢ / ٢/ ١٩٥٦

وكان عدد الذين اشتركوا في الدعوة الى حفلة الشاي ستة وثلاثين. اما الذين حضروا فقد كان عددهم يفوق المئة. وقد حضر تلك الحفلة الشيخ عبد الله الجابر الصباح، وكان يومها رئيساً للمعارف. واذكر انني القيت كلمة مناسبة تناسب المقام.

وهذه لائحة باسماء المسهمين بالحفلة.

الترتيب الأبجدي للداعين الى حفلة الشاي المقامة للدكتور نقولا زيادة بثانوية الشويخ الاربعاء ١٩٥٦/٢/٢٣

(١) الدكتور اكرم الدجاني
(٢) احمد ابو حاكمه
(٣)الياس فرح
(٤) اكرم الدقاق
(٥) احمد الصادق
(٦) اديب ناصر الدين
(٧) جميل الصالح
(٨) حسن الدباغ
(٩) خير الدين ابو الجبين
(١٠) الدكتور سليمان ابو ستة
(١٢) سعيد بريك
(١٣) حسين نجم
(١٤) سميح دروزه
(١٥) سمير العارف
(١٦) صبحي الخوري
(١٧) عصام الخماش
(١٨) عبد الله زيد
(١٩) عثمان صالح
(٢٠) علي ابو ستة
(٢١) عبد المنعم الترتير
(٢٢) عبدالقادر محمد
(٢٣) عبدالمحسن قطان
(٢٤) الدكتور فضل ابو لبن
(٢٥) مصباح الزحلان
(٢٦) محمد حموده
(٢٧) محمد بشير
(٢٩) مفيد ملحس
(٣٠) معاوية القاضي
(٣١) الدكتور محمود البزاري
(٣٢) محمود السمرة
(٣٣) نايف خرما
(٣٤) محمود سعد الدين
(٣٥) وصفي الخازن
(٣٦) يوسف البرغوثي.

تحدثت عن الرحلة الاولى بشيء من التفصيل لأن اموراً حدثت اثناءها اقتضت ذلك. ولكنني لن اشغل القارىء بأمور هي الى الترهات، في رأيه، اقرب. وقد يكون هذا صحيحاً. فهناك أمور هامة نضرب صفحاً عن ذكرها مرات، ثم نتوقف عند حفلة شاي؟ واذن فلاعد الى هذه الأيام الاولى التي قضيتها في الكويت. نزلت في دار الضيافة الحكومية. كنت اخرج في الصباح المبكر استمتع بالمشي على الشاطىء. وفي يوم وقفت فجأة وتصورت الأبنية الواقفة امامي. ولم تكن يومها لا كثيرة ولا كبيرة على نحو ما آلت اليه الامور فيما بعد. وقد خلت من ساكنيها واصبحت قاعاً صفصفاً. وذكرتني الصورة التي استحضرتها من ضمير الزمان بتدمر ذات الاعمدة الضخمة التي تشهد بما كان، ولكنها لا تشهد على ما هو كائن. وعرفت من اين جاءت هذه الصورة للكويت: ماذا يحدث عندما يجف النفط في الكويت؟ وفي سنة ١٩٥٦ كان النفط بعد في أول تدفق، وكانت الهيئات واللجان المختلفة تخطط وتعيد النظر في المخططات. ولم يكن ثمة حاجة لمثل هذه النظرة السوداء. لكن السؤال الذي يسأل دوما. وماذا بعد النفط؟ ولم أسمح لنفسي بتصور الجواب؛ اما خوفاً من المستقبل او تجنباً للخطأ أو الزلل.

على انني في كل مرة كنت أزور فيها واحدة من مدن النفط الخليجية الحديثة، وكل مدينة هي مدينة نفط، كان مثل هذا السؤال يفرض نفسه علي، وكنت في كل مرة اترك الاجابة عنه او على الاقل اتجنبها.

على كل استمرت علاقتي بالكويت. ففي هذه الزيارة الاولى تحدثت مع بعض المسؤلين عن انشاء مركز لدراسات الخليج تجمع فيه، بالدرجة الاولى، الوثائق السياسية التي يمكن تصويرها من مظانها الرسمية. وقد انتهى الامر سنة ١٩٥٧ وكنت في طريق عودتي من الولايات المتحدة، ان قضيت شهرين في لندن وقد اخترت نماذج من الوثائق الموجودة في المكتب العام للوثائق. وارسلت الى الكويت في تشرين الأول / اكتوبر من تلك السنة. ثم هبط الكويت احمد ابو حاكمة، احد خريجي الكلية العربية في القدس، وعهد اليه باتمام المشروع.

زرت الكويت مرات، وفي كل مرة كان ثمة عمل أقوم به للمسؤولين. اما محاضرات عامة او في الجامعة، واما لحضور ندوة واما لتقديم احاديث للاذاعة بترتيب خاص. اذ ان المقابلات الاذاعية والتلفزيونية العادية كانت تتم في كل زيارة تقريباً. وقد جاءتني دعوتان من شركة بترول الكويت، فكانت المحاضرات موجهة الى موظفي الشركة واصدقائهم.

كانت الكويت قد وظفت عدداً كبيراً من الفلسطينيين الذين فقدوا بلدهم وبيوتهم وأعمالهم في أعقاب قيام دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨. وكان للكثيرين منهم بي صلة بدأت تلمذة وانتهت صداقة. فكنت انعم بزيارتهم عندما اهبط الكويت. وأنا اتذكر الآن اسماء البعض منهم، فإنني لا أفعل ذلك تفضيلاً للبعض على الآخرين، بل لأن هؤلاء اجتمعت بهم بعد أن تركوا الكويت.

في مقدمة هؤلاء درويش المقدادي، معلمي وصديقي، ومحمود السمره وزهير الكرمي وجميل الصالح وعبد الملك الناشف ومحسن القطان وصادق حطاب وعلي العطاونة ومعاوية الدرهلي وعيسى الهنيدي.

وقد اتيح لي، مع توالي الزيارات ان أتعرف الى عدد من الاخوان الكويتيين وان أنعم بصداقتهم ولا أزال انعم بها حتى الآن (١٩٩٢). وقد كان بدر الخالد واحمد السقاف، من ادارة الانباء، أول من اتيح لي الاتصال بهما. وفي مقدمة الذين أكن لهم الاحترام، واحسب انه يرعى هذه المعرفة، عبد العزيز حسين، الذي كان أول مدير للمعارف من ابناء البلد. وكنت احب الحديث الى احمد مشاهر العدواني الذي كان يشرف على سلسلة المعرفة وغيرها من الدوريات التي تتعاطى شؤون الفكر في البلد (توفي سنة ١٩٩٠) وهناك عبد العزيز البحر، احد خريجي الجامعة الأميركية، وأحد اصحاب المشاريع الاقتصادية والمالية الكبيرة في الكويت. وكان تلميذنا سعدون الجاسم، الذي تولى وكالة وزارة الأعلام مدة طويلة، كثير الحفاوة بي عندما أزور الكويت. وتعرفت بمحمد الرميحي يومها، لكن صداقتنا تقوت بعد أن تولى رئاسة تحرير العربي، قبل نكبة الكويت (١٩٩١) ثم بعدها.

وفي قسم التاريخ، الذي كان أول الأمر يكاد يكون حكراً على المصريين، كان حسين مؤنس صديقاً عزيزاً وفياً. وهو الذي رتب امر دعوتي استاذاً زائراً في جامعة الكويت (١٩٧٢).

وكان الوجه الذي يستقبلني بمنتهى البشاشة دوما هو احمد زكي منشىء مجلة العربي ومحررها لسنوات. تعود معرفتي بهذا الرجل العالم الاديب الى سنتي ١٩٣٣ و ١٩٣٤ اذ التقينا في لجنة التاليف والترجمة والنشر في القاهرة في ما يمكن أن يسمى منتداها في أمسيات الخميس. وهو واحد من علماء الكيمياء الذين يشار اليهم بالبنان. ولما أنشأنا لجنة الثقافة العربية في القدس كان احمد زكي احد الذين دعوناهم، من خارج فلسطين، لالقاء محاضرة باسم لجنتنا. وفي سنة ١٩٥١ كان الرجل واحداً من أربعة محاضرين في المؤتمر الأول للدراسات العربية الذي عقد في شهر ايار / مايو من تلك السنة في الجامعة الاميركية في بيروت.

في شهر تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٥٧ زارني في مكتبي بالجامعة الاميركية احمد السقاف، المدير

المساعد لدائرة الانباء، كما كانت ادارات الاعلام تسمى في تلك الايام. طلب مني أن أرتب له موعداً مع فؤاد صروف، نائب رئيس الجامعة الاميركية يومها. وقال لي: «اننا ننوي ان ننشىء مجلة شهرية في الكويت، وقد جئت لاطلب منه أن يتولى العمل. منشأ لها ورئيساً لتحريرها». قلت له ان فؤاد صروف سيعتذر بسنه وصعوبة الانتقال مرة ثانية، بعد ان كان قد نقل بيته من القاهرة الى بيروت.

على انني رتبت له الموعد حالاً، ورافقته الى مكتب صروف ثم انسحبت على ان يعود هو الي. ولما عاد بعد نحو نصف ساعة قال ان الرجل اعتذر، وكانت اعذاره تلك التي ذكرتها. وسرت مع أحمد السقاف في حرم الجامعة اذ كان يريد الذهاب الى المدرسة الثانوية (الاستعدادية). ولما وصلنا امام مبنى جسب وقف وسالني فيما اذا كنت اقبل انا القيام بهذا العمل، لان اسمي كان الثاني بعد صروف. فاجبته انني لم أقم بعمل صحافي في حياتي، لذلك فانه يصعب عليّ انشاء مجلة. واضفت لو ان المجلة قائمة، وانتم تبحثون عن رئيس تحرير، فلعلي كنت أقبل على أن أقضي ستة شهور متعلماً. اما البدء بمشروع مثل هذا فهو فوق طاقتي.

فسألني عندها ومن تقترح؟ قلت الدكتور احمد زكي والذي اذكره هو أن احمد السقاف لم يكن يعرف الكفاية عن هذا الرجل. فذكرت له مكانته العلمية والادبية، واضفت انه عمل رئيساً لتحرير المصور مدة طويلة. فهو يتمتع بخبرة الصحافي. اضفت: ان كنت يا اخي مفوضاً مطلقاً طر اليوم الى القاهرة وفاتحه في الامر، اما اذا لم تكن مفوضاً مطلقاً طر الليلة الى الكويت واحصل على موافقة المسؤولين، واذهب غداً الى القاهرة.

بعد نحو شهرين كان احمد زكي في الكويت يعد العدة لاصدار «العربي». وقد احتاج هذا الاعداد الى سنة وبعض السنة. ثم صدرت العربي وكانت المجلة التي يعرفها القراء. وكان من الذين عملوا فيها من أصدقائي محمود السمرة ويوسف زعبلاوي. وكان أحمد زكي يقرأ كل ما ينشر في العربي. ولما ضعف بصره كانت المادة تقرأ له.

كانت زيارتي الاولى للبحرين في ٣١ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥٩. وقد قابلني على المطار الشاعر البحريني ابراهيم العريض وألك غوردون والياس نجيب خوري.

ونحن في المطار رتبت لي زيارات ثلاث لبعيد الظهر وللمساء، فأنا مغادر قطر في الغد. فغوردون قال انه ينتظرني على الشاي. وغوردون كان مديراً للمعارف في برقة لما عينت انا مساعداً للمدير سنة ١٩٤٩. وظلت بيننا صلة ود. وكان قد ترك ليبيا وقبل عملاً مع شركة نفط البحرين. وقد زرته، وتناولت الشاي معه، ودرت برفقته في انحاء مركز الشركة.

اما ابرهيم العريض فتعود صلتي به الى سنة ١٩٥٤. في تلك السنة كنت مديراً لبرنامج الدراسات العربية بالنيابة (١٩٥٤-١٩٥٥)، بسبب تغيب المدير نبيه امين فارس في سباعيته. وكان علي أن أعد برنامج مؤتمر الدراسات العربية. فاخترت، بالاتفاق مع زملائي طبعاً، جبرائيل جبور (النقد الادبي) وابراهيم العريض (عالم الشعر الحديث) و محمود تيمور (القصة) وميخائيل نعيمة (رسالة الادب).

فلما وصل ابراهيم العريض اهتممنا به، وجمعت له، في بيتي، عدداً من الشعراء تسامر معهم وتحدثوا اليه. وامتدت الصلة فكان اذا جاء بيروت حسب حساب لقائنا. فلما لقيني في المطار قال لي انه رتب لقاء مع فريق من أهل القلم في البحرين في ناد لهم. وكم سعدت بالفكرة وزادت سعادتي باللقاء. صرفنا ساعتين في نقاش هادىء حول القومية العربية والمستقبل المرجو للعرب، فضلاً عن حديث دار حول الادب والشعر والصحافة.

ولما آذن المجلس بالانفضاض جاء الياس خوري ليصحبني الى منزل حامد القصيبي لقضاء سهرة رأس السنة. وهكذا كانت نهاية العام وبداية العام مدعاة للسرور.

وقد زرت البحرين بعد ذلك عدداً من المرات. وكانت جميعها، باستثناء زيارة واحدة، لالقاء محاضرات اما بدعوة من نادي المتخرجين الذي كان دنا ميكه الشيخ عبد العزيز آل خليفة، الذي صار مديراً للمعارف (بعد عمران) ثم كان وزيراً بعد الاستقلال؛ او بدعوة من الجمعية البحرينية للآثار أو التاريخ (اذ دعيت لأكون ضيف الشرف في لقائها السنوي الثاني في شهر نيسان / ابريل ١٩٧٢، وقد كان العشاء والقاء المحاضرة في ٢٥ من ذلك الشهر)؛ او بدعوة من شركة نفط البحرين. وأذكر انني كنت مرة في زيارة خاصة مع ابني رائد، فالقى نادي المتخرجين القبض علي، فتحدثت الى فئة من الأعضاء عن تاريخنا - ماله وما عنده وما عليه.

كنت أشعر دوماً بشيء كثير من الراحة النفسية اثناء زياراتي للبحرين. كان الامير عيسى يستقبلني بكثير من الود والأنس. وقد اهتم بابني رائد لما صحبني في احدى زياراتي لها. وكان الشيخ عبد العزيز آل خليفة يلقاني بصدر مفتوح وقلب كبير. وكنت آنس الى حديث ابرهيم العريض، ثم جاء دور ابنه جليل، الذي كنت أعرفه اثناء طلبه العلم في الجامعة الأميركية. وكنت كل مرة ادخل نادي المتخرجين في المنامة، اشعر كأن هبة من روح الانس قد اظلتني. وكان مما يشعرني بشيء كثير من الراحة وجود محمد مصطفى الخالدي في البلاد.

هذا الشاب النبيل تعود معرفتي به الى ايام كنا نطلب العلم في انكلترا قبل الحرب العالمية الثانية. ولما عدنا الى القدس كنا نجتمع كثيراً في القدس، كما كنا نذهب مرتين في الشهر الى يافا لحضور اجتماعات النادي العربي.

النادي العربي في يافا كان نشيطاً ثقافياً وسياسياً، ولو انه كان نخبوياً بعض الشيء. لم يكن يعنى بالمحاضرات العامة شأن النادي الارثوذكسي أو جمعية الشبان المسلمين. كانت جلساته الثقافية صغيرة العدد نسبياً، وكان المألوف ان يطرح موضوع ما على انه اساس للمناقشة لاكونه محاضرة. كان احمد عبد الرحيم واخوه اكرم وبرهان الدجاني ومحمود الحوت ويوسف زعبلاوي قوة النادي الدافعة. وقد ارتأينا، فئة منا كانت تقيم في القدس، ان لا ننشىء لنا نادياً هناك، بل ان ننضم الى نادي يافا. ومن هنا كانت هذه الزيارات. ولست اذكر، بعد هذه السنوات الطويلة، بل العقود العديدة من السنين، جميع الاعضاء المقادسة، ولكن عبد الحميد ياسين ومحمد الخالدي وانا كنا من الملازمين على هذا الأمر. فوجود محمد الخالدي في البحرين كان فيه احياء لتلك الايام عندما نجتمع، ولما زرت البحرين مع زوجتي كان هو وزوجته ممن اهتم بنا واكرمنا في منزله.

انا، على ما قد يذكر القراء لكثرة ما كررت هذا الامر واعدته، اعتبر الآثار مصدراً مهماً من مصادر التاريخ، لا من حيث درسه فحسب، بل من حيث فهمه فهماً صحيحاً. لذلك فانا حريص على زيارة الآثار وأماكن التنقيب عن الآثار. ففي الكويت ذهبت الى جزيرة فيلكه. لكن التنقيب كان هناك في أوله لما زرتها. اما في البحرين فقد كانت البعثة الدانماركية قد وسعت مجال أعمالها وعمقت دراستها. هذه البعثة بدأت العمل سنة ١٩٥٣. ولم أزر أماكن التنقيب في زيارتي الأولى (١٩٥٩) بل تم لي ذلك سنة ١٩٦٥، وما بعدها. كانت البعثة قد حفرت في بربر وفي قلعة البحرين، وكانت قد اطمأنت، ولو مبدئياً، الى ان البحرين الحالية، واسمها عند جغرافيي العرب جزيرة اوال (لأن البحرين عندهم كان يقصد بها منطقة الاحساء البرية اليوم) هي دلمون، وان هذه الدولة - المملكة - الامارة كانت بين سنتي ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ ق.م. مركز الاتصال الرئيسي بين المدن السومرية الشمالية من جهة، وماغان (عمان) وحوض السند الممثل بمدينتيه الرئيسيتين موهنجو دارو وهرَّبه (أو هربه) من جهة ثانية. ومن ثم فقد كان في المتحف المحلي اشياء تشاهد، وبقايا يطلع عليها. وتقارير عن الحفر متيسرة لمن اراد. ومع انني لم أقرأ يومها ايا من التقارير، فقد قرأت الكتاب الذي وضعه جيوفري بيبي، رئيس البعثة الدانماركية بعنوان «البحث عن دلمون» (لندن ١٩٧٠). وقد زرت هذه الاماكن مرتين فيما بعد لاتأكد من انني تعرفت الى المكان والحضارة المنسية في دلمون.

وفي وقت لاحق دونت الملاحظات التالية حول هذا الموضوع. وها انا انقلها هنا، ولو انني اشعر انني اكرر

نفسي بعض الشيء.

تاريخ البحرين، مثل تاريخ الكويت وقطر ودولة الامارات العربية، مرتبط بتاريخ الخليج العربي. فالتجارة والتجار الذين كانوا ينقلون السلع بين الشمال والجنوب، وبالعكس، كانوا يجدون في البحرين المركز المناسب للراحة والتبادل التجاري. والفاتحون الأقدمون ـ على الأقل من الاشوريين الى الفرس القدامى فالاسكندر خلفائه ـ كان يهمهم الاستيلاء على البحرين (منطقة قديمة او جزر) كما كانوا يعنون بالاستيلاء على أي ميناء على سواحل الخليج العربي. بل لعل اهتمامهم بالبحرين كان اكبر ذلك لتوسط الجزر الطريق أولاً. ولأن البحرين كان فيها ماء عذب يمكن أن يفيد منه البحارة والمسافرون.

على أن هناك أمرين آخرين هامين يتعلقان بالبحرين القديمة وهما: ان البحرين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأسطورة غلغامش؛ وكثرة القبور التي عثر عليها في جزيرة البحرين، والتي تعود الى الأزمنة القديمة.

اما فيما يتعلق بالأسطورة، فان بطلها غلغامش، بقطع النظر عن هويته التاريخية، يمثل الرغبة في الخلود والسعي له. وينصح له أن يذهب الى الفردوس ليحصل على زهرة الخلود. وتنمو الأسطورة مع الزمن فتصبح فيها اشارة، ولو بعيدة، للخليقة، واشارة أقرب الى الطوفان ورحلة الى المكان المقصود. ونحن اذا تذكرنا ان القصة سومرية الأصل، وأن المكان الذي ذهب اليه البطل هو الخليج العربي، فالبحرين تصبح المكان المقصود، اذ فيها توجد المياه العذبة في قاع البحر، تحت الماء المالح. ويرد في الأسطورة اسم دلمون.

اما القبور الكثيرة الموجودة في البحرين فلم يكشف عنها النقاب الا قبل مدة يسيرة. فقد كان الناس يرون هذه القباب الكثيرة في جزيرة البحرين، في وسطها وشمالها الغربي. ويتمركز أكثرها حول قرية عالي. ومع أن بعض التنقيب السطحي قد تم هناك، ومع أنه عثر على بعض القبور. فلم يعرف العالم ان المكان كان فيه آلاف من هذه القبور الا لما أخذ الرفش والمعول طريقه الجدي الى هذه المقابر. وقد بلغ من كثرتها ان ظن بعض الباحثين اولاً ان الجزيرة كانت مقبرة فقط لسكان المناطق الساحلية المجاورة: وأن السكان كانوا ينقلون موتاهم لدفنهم هناك لأن أرض الجزيرة ـ أوال ـ هي أرض مقدسة، بحكم تكريس الاله ـ الصنم اوال فيها.

واذا كان لا يزال من يقبل مثل هذا الرأي من الباحثين، فيجب ان يعدله (أو يعدل عنه) بحيث يكون السكان الذين كانوا يفدون على المنطقة والجزر ويقيمون في المكانين يدفنون موتاهم في تلك الجزيرة.

والثابت تاريخياً هو ان هذه المقابر تعود الى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، وهي الفترة التي كانت فيها التجارة عبر الخليج آخذة في الازدياد، بسبب حاجة المدن السومرية الى المواد الخام: المعدنية والخشبية بشكل خاص، لتنمية صناعتها. وهنا يرد عند المؤرخين اسمان هامان. بالنسبة الى الألف الثالث والنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وهما: ماغان ودلمون ولسنا هنا في معرض سرد الآراء المختلفة حول الأسمين، ولا في سبيل مناقشة هذه الآراء. فهذان امران ليس هنا موضعهما. ولكن الذي نريد أن نضعه بين أيدي القراء، وهو ترجيح لا قطع نهائياً فيه هو ان ماغان هي عمان رمنها كان يحمل النحاس الى السومريين عن طريق مراكز مختلفة منها، لن لم يكن أهمها، البحرين. وكانت بعض الأخشاب تحمل من ماغان (عمان) ايضاً، لكن الكثير من الاخشاب كان يحمل من الهند (حوض السند) ايضاً.

ويبقى عندنا دلمون. وهذا الاسم مثل ماغان (عمان) تدور حوله آراء كثيرة. لعل المرء يمكن أن يلخصها بقوله أن دلمون لم تكن تعني بقعة معينة صغيرة، بل كانت تعني، في قيود أهل المدن السومرية، منطقة واسعة الى الجنوب من بلادهم. وأن مركز هذه المنطقة كانت مدينة في البحرين اسمها دلمون أيضاً. وليس مثل هذه التسميات غريبة على الأنسان ـ أي أن تكون اسم العاصمة والدولة (أو المنطقة شيئاً واحداً) بل ولقب الملك أيضاً. (عندنا عن الأولى الجزائر ـ المدينة ـ والجزائر القطر. وعن الثانية غانة القديمة في السودان الغربي. فغانة كان

أصلاً اسما للملك، ثم اطلقت الكلمة على الدولة وثم على عاصمة الدولة. فكانت غانة ثلاثة في واحد).

نعرف أن تجارة الخليج العربي تراجع نشاطها بين حول ١٦٠٠ و ٧٠٠ ق.م. وانها عادت الى النشاط والحركة ايام الاشوريين والكلدانيين والفرس القدامى والسلوقيين. ونعرف أن الاسكندر حاول التعرف على أجزاء الخليج العربي وسواحله ـ الفارسي منها مع بعثة نيارخوس والعربي منها في بعثاته الثلاث التالية ـ وأن واحدة من هذه البعثات وصلت البحرين ولما عادت رفعت الى الاسكندر تقريراً عن مهمتها. لكن مما يؤسف له أن أحداً من الكتاب التالين لم ينقل شيئاً عن هذه التقارير عن السواحل العربية للخليج. فضاعت وضاعت اخبارها معها.

والمهم هو انه بين حول ٣٠٠ ق.م. وأيام السيد المسيح كانت ثمة فرضة ومدينة اسمها الجرها ارتبطت تجارتها بتجارة البحرين. والجرها مكانها لم يتفق عليه تماماً، وإن كان ثمة شبه قبول موقت للنظرية القائلة بأن الجرهاء هي العقير الحالية، في شرق المملكة العربية السعودية. ولعل معنى هذا ان تجارة الخليج العربي ـ أو أكثرها على الأقل ـ كانت تنتقل من البحرين (أو عن طريقها) الى الجرهاء، ومن هناك تنقل الى دومة الجندل (الجوف) فديار الأنباط ـ البتراء، لتوزع منها على مصر وجنوب فلسطين. وقد يعود اتباع هذا الطريق، بدل طريق العراق ـ الشام الطبيعي، الى حالة حرب كانت تقوم بين السلوقيين (أو خلفائهم) في العراق وبين الجماعات الفرثية التي كانت تناصبهم العداء.

وفي البحرين، في بعض زياراتي تعرفت الى عبد الله كانو مدير الاذاعة ومساعده محمد سلمان. وقد دعاني كانو للتحدث من الاذاعة ففعلت ذلك اكثر من مرة.

في اليوم الأول من عام ١٩٦٠، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر هبطت الطائرة التي حملتني من البحرين في مطار الدوحة، في قطر. كان جون لاتورل، مدير العلاقات العامة في شركة نفط قطر ونزيه زيدان ينتظرانني. كنت قد تعرفت الى جون في بيروت قبل نحو شهر من هذه الزيارة. وكان صلة التعارف فرانك ستوكس، مدير العلاقات العامة لشركة نفط العراق في بيروت. في ذلك الاجتماع سألني جون فيما اذا كنت مستعداً للمساهمة في الموسم الثقافي؛ ولما اظهرت القبول سألني فيما اذا كان باستطاعتي أن أتحدث عن ناحية من نواحي النفط. ولما كانت اجابتي نفياً، شعر كأنه أسقط في يده. لكنني فاجأته بقولي: ومن قال ان الرجال الذين يعملون في النفط اربعاً وعشرين ساعة، وزوجاتهم اللواتي يسمعن الحديث عن النفط سبعة ايام في الاسبوع، يحبون ان يسمعوا محاضرة عن النفط. انا مستعد لاعطائهم محاضرة عن «شمال افريقيا اليوم». وكان لا بد أن يحصل جون على موافقة اولي الامر في الدوحة، فهذا خروج تام عن البرنامج المرسوم. وكان أن أعجب لو الامر بالاقتراح لذلك وصلت الى الدوحة وانا احمل في رأسي حديثاً عن شمال افريقيا اليوم (اي يومها).

اما نزيه زيدان فهو من خريجي الجامعة الاميركية؛ كان قد حصل على الشهادة قبل سنتين. وكان يومها يعمل مع آل الدرويش من كبار تجار المنطقة.

بعد أن اخذني جون الى دار الضيافة وتأكد من ان كل شيء على ما يجب، تركني في عهدة نزيه، الذي اخذني ليلتها الى المطعم الوحيد الشرقي في الدوحة. كان بيننا حديث طويل. فنزيه كان من صحبي الذين أعزهم. وكان الامر الذي يشغله هو موضوع لرسالة الماجستير (في الادارة العامة). كان مدرسوه قد اقترحوا عليه موضوعات كلاسيكية، شأن عدد كبير من اساتذة الجامعات، لكنه لم يتحمس لاي منها. كان نزيه قد حدثني عن أعمال آل الدرويش في المنطقة. فاقترحت عليه أن يدرس أساليب آل الدرويش في ادارة اعمالهم الواسعة. تحدثنا عن الموضوع طويلاً. وقد عاد نزيه الى الجامعة، ووضع رسالة جيدة عن آل الدرويش وأعمالهم التجارية

وأساليبهم الادارية (وكان ذلك بعد أن تردد مدرسوه في القسم في قبول الموضوع).

في اليوم التالي والذي عقبه نقلت الى انحاء من قطر لزيارة القصور الاميرية (بعد زيارة الامير بالوكالة) والبساتين الداخلية والآثار في دخان وزبارة وام باب. وكان كل ما قدم تم يومها هو «خدوش» في التنقيب، ولم تكن البعثة الدانماركية قد حطت رحالها في قطر. لكنني في الزيارات التالية نعمت بالاطلاع على آثار اتضح من دراستها ان حضارة البحرين وقطر فرعان لاصل واحد.

كان مصطفى مراد الدباغ المفتش في ادارة معارف فلسطين سابقاً ووكيل وزارة التربية والتعليم في المملكة الاردنية الهاشمية بعدها، قد تولى منصب مدير للمعارف في قطر. وانا تربطني بالرجل زمالة وصداقة (كما تربطني الصداقة حالياً بابنه صلاح الدين)، فكان من الطبيعي أن أزوره. وزيارة مؤلف كتاب «بلادنا فلسطين» فيها دوماً متعة وفائدة. وفي الساعتين اللتين قضيتهما في مكتبه حصلت على معلومات عن قطر ما كان لي أن أزود بمثلها على يد شخص آخر.

وكان في قطر، وخاصة في زياراتي التالي، احمد عناني من طلاب الكلية العربية (القدس) الذي كان قد نال، بجده واجتهاده واهتمامه بتاريخ قطر، حظوة في القصر. وكم تحدثنا معاً حول عمل مشترك يتعلق بتاريخ البلاد، لكن شيئاً من ذلك لم يتبلور.

في اليوم التالي لزيارتي حملت بالسيارة الى ام سعيد. الدوحة كانت - ولا تزال - عاصمة قطر، لكن ام سعيد كانت يومها، واحسب انها لم تزل، العاصمة التجارية. منها كان النفط ينقل في حاملاته، وفيها كانت تقوم صناعات متنوعة. لكن الدوحة، التي عرفتها فيما بعد (١٩٧٧) كانت شيئاً يختلف تماماً عما كانت عليه سنة ١٩٦٠.

القيت المحاضرة في ام سعيد - في نادي شركة النفط القطرية - وكان موظفو الشركة قد حملوا بالطائرات الصغيرة من دوخان ومن الدوحة الى النادي. وكان ثمة عشاء قبل المحاضرة. ونجحت المحاضرة - ومحاضراتي تنجح عادة لانني اعدها وارتبها وانظمها. وانا في الغالب ارتجل هذه المحاضرات، وقد مرنت نفسي على ذلك من قبل.

في سنة ١٩٦٩ دعيت مع زوجتي مرغريت لزيارة الكويت والبحرين وقطر وابو ظبي. جاءت الدعوة من شركات النفط. وقد اكرمنا كثيراً. والقيت يومها خمس محاضرات لان الموظفين والعمال في دوخان - وهم يعدون بالعشرات - ارادوا ان تكون لهم حصة خاصة بهم. ولست انسى لما صعدنا الى الطائرة الصغيرة لتنقلنا من الدوحة الى دوخان، فامسكت مرغريت بيدي وقالت الا يمكن أن نذهب بالسيارة؟ فهل هذه الطائرة امان؟ وكنا ركاباً اربعة، وهي تتسع لعشرة فقط. وفي هذه المرة انتقل من يريد من ام سعيد الى الدوحة لسماع المحاضرة فقد آن للعاصمة أن تثبت مكانتها. لكن النادي الفخم ظل في ام سعيد.

وغبت عن قطر الى سنة ١٩٧٧، حيث اسهمت في مؤتمر تاريخ عن شرق الجزيرة العربية. وقد قدمت بحثاً عن شرقي الجزيرة العربية في مؤلفات جغرافيي العرب من أهل القرن الرابع / العاشر. يومها اجتمعت بزملاء واصدقاء بعد انقطاعنا عن بعضنا البعض سنوات. هذه المؤتمرات تحمل من يحضرها على قدح زناد فكره لكتابة موضوع يليق به وبزملائه، كما انها تعيد الى الاصدقاء المتباعدين مكاناً الصلة التي ينعمون بها لاسبوع او ما يقرب من ذلك.

لما زرت ابو ظبي لاول مرة كانت بعد امارة منفردة؛ ولم تكن حتى المحادثات حول انشاء دولة الامارات العربية المتحدة قد بدأت، ولو ان الآمال كانت قد اخذت تتحرك داخل النفوس، وتثير الرغبات حول احتمال

الاتحاد. وقد تحدثت الى فئة من مثقفي البلد يومها، وكان السيد مرسي هو دليلي. وزرت ابو ظبي ثانية وكان معي ابني رائد. وكانت احاديث الاتحاد بين المحميات السبع قد بدأت. ولما زرت ابو ظبي للمرة الثالثة مع زوجتي ١٩٦٩ كان قد أصبحت دولة الامارات العربية المتحدة حقيقة.

لما زرت ابو ظبي مع ابني سنة ١٩٦٨ زرنا راس العين، حيث تقوم جامعة دولة الامارات اليوم. وكانت قد أخذت تتجه نحو صيرورتها مدينة. ذلك ان الشيخ زايد كان يحب راس العين ويعنى بها.

كانت مشكلة واحة البريمي يومها موضع تبادل ادعاءات حول ملكيتها بين المملكة العربية السعودية وامارة ابو ظبي. وكان الدخول الى البريمي ممنوعاً، للحيلولة دون حدوث مشاكل. ولكن السائق الذي نقلنا الى راس العين كان خبيراً بالامور. فبعد أن تناولنا طعام الغداء قادنا، عبر مدخل سري، من رأس العين الى الواحة فزرناها. واذكر اننا لما دخلناها ملأت انوفنا رائحة السمك شبه العفنة؛ الا اننا عرفنا يومها ان هذه هي رائحة السمك المجفف بالشمس. وهذا السمك المجفف يستعمل الكبير منه غذاء عند الحاجة. اما الصغير فهو طعام اساسي للماشية على اختلاف انواعها. ولما عدنا الى بيروت اخرجت رحلة ابن بطوطة وقرأت لابني الوصف الذي خلفه هذا الرحالة لتجفيف السمك واستعماله على ما خبره في تلك المنطقة.

عدنا في المساء الى ابو ظبي لنتناول طعام العشاء عند احمد صوان، أحد المسؤولين في الاذاعة هناك. لكن المهم هو أن أحمد هو ابن عبد القادر صوان الذي كان زميلاً لي في الصف نفسه في دار المعلمين (الكلية العربية فيما بعد) بالقدس ١٩٢١ - ١٩٢٤. فالدعوة كانت لهذه المناسبة، لا لمناسبة اذاعية. ومع ذلك فقد رتبنا شيئاً للاذاعة في المستقبل. ولكنني لم أكد أعود الى بيروت حتى عرفت ان اذاعة ابو ظبي استغنت عن خدماته.

لما انعقد مؤتمر شرق الجزيرة العربية في الدوحة (١٩٧٧) كان مما فوجئنا به، بعد وصولنا، أن امير رأس الخيمة (وكانت دولة الامارات العربية قد انشئت ١٩٦٩) دعا أعضاء المؤتمر لزيارة امارته. وقد ارسل فعلاً طائرة حملتنا في الصباح الى رأس الخيمة، وبعد زيارة للمنطقة الصغيرة، وتفقد لآثارها وما نقب عنه منها، وغداء كريم، واستقبال بالنيابة عن الشيخ، عدنا الى الدوحة في المساء.

عثرت، قبل أيام، على اوراق كنت قد حررتها بعيد زيارتي لابو ظبي سنة ١٩٦٨، وفيها انطباعات عن امارات ثلاث (كانت الكويت وحدها قد استقلت سنة ١٩٦١) اما البحرين وابو ظبي فلم تكونا بعد قد اتجهتا نحو ذلك اتجاهاً جدياً. اذ ان عمل المشيخات المتصالحة وقطر والبحرين جاء نتيجة لاعلان بريطانيا (١٩٦٨) انها ستنسحب نهائياً من الخليج في زمن لا يتجاوز سنة ١٩٧١.

هذه هي الصفحات التي دونتها سنة ١٩٦٨

في ربيع سنة ١٩٦٨ زرت مع ابني رائد بعض امارات الخليج العربي. وقد اقتصرت الزيارة على الكويت والبحرين وابو ظبي. قضينا في الكويت ثلاثة ايام، وفي البحرين نحو خمسة ايام وفي ابو ظبي ثلاثة ايام ايضاً. فما الذي يمكن أن يقوله الواحد منا عن هذه الزيارة. اريد قبل كل شيء أن أقول بأن هذه ليست الزيارة الاولى بالنسبة الي، ولكنها الزيارة الاولى لابني. اما انا فقد زرت الكويت قبل ذلك خمس مرات والبحرين ثلاث مرات وابو ظبي مرة واحدة. لذلك فالانطباعات التي عندي هي انطباعات متراكمة. وليست انطباعات زيارة واحدة فقط.

اريد أن أقول انه من الضروري أن نذكر الفرق بين الواردات التي تأتي من النفط بالنسبة لهذه المشيخات الثلاث. فالكويت يأتيها في السنة ما يزيد عن خمس مئة مليون دولار وابو ظبي تنال نحو ثمانين مليون جنيه استرليني، اما البحرين فكل ما تحصل عليه من النفط لا يتجاوز عشرة ملايين جنيه استرليني. فهي من هذه

الناحية افقر جميع امارات النفط في الخليج كله.

من جهة أخرى هناك فرق في الوقت الذي بدأت فيه كل من هذه الامارات الثلاث العمل في سبيل التعليم والبناء والانشاء. فاقدمها البحرين. وقد احتفلت البحرين مؤخراً بمرور خمسين سنة على افتتاح اول مدرسة للحكومة في تلك البلاد. وفي هذه السنة احتفلت البحرين ايضاً بمرور خمسين سنة على انشاء اول بلدية للمنامة، عاصمة البحرين.

اما الكويت فقد بدأ العمل فيها بعد الحرب العالمية الثانية. ومعنى هذا انه مر عليها نحو عشرين او خمس وعشرين سنة وهي تعمل في سبيل التعليم والمجتمع والصحة وما شابه ذلك. لكن ابو ظبي حديثة العهد جداً. فعمر اكثر الانشاءات فيها نحو سنتين ونصف السنة فقط، لأن النفط لم يظهر فيها الا قبل نحو ثلاثة اعوام، من هنا يجب أن يفرق الواحد بين الانطباعات. فابو ظبي عندما ينظر اليها الواحد من الطائرة مثلاً، يرى شارعين طويلين يصلان بين المطار من جهة والمدينة من جهة، وبين وسط المدينة والاجزاء الاخرى منها من جهة ثانية. اما عدا ذلك فكل ما يراه الواحد في المنطقة بعض الأبنية التي تمت، وهي المتاجر ومكاتب شركة النفط وشركات اخرى تجارية ونفطية. ويرى بالاضافة الى ذلك عدداً كبيراً جداً من الالآت الرافعة التي تستعمل للبناء. فمعنى هذا ان البلد هو بعد في الدرجة الاولى. انها لا تزال في بدء دور الانشاء.

في الكويت انتقلت المدينة من دور الانشاء والبناء والتعليم والصحة والمستشفيات الى دور بناء المدن الصغيرة أو القرى الكبيرة لأصحاب الدخل المحدود.

وهناك مئات ومئات من هذه البيوت تبنى كل شهر، لكن الحكومة تبني وعدد طلاب البيوت يزداد. والسبب الرئيسي في ذلك ان جماعات كبيرة من البدو الرحل الذين كانوا يعيشون في اطراف الكويت، او حتى في اجزاء من المملكة العربية السعودية، وهي جارة الكويت، ينتقلون بين الحين والآخر من مضاربهم (من خيامهم) الى الكويت ليستقروا في المدينة. فالطلب على البيوت، بيوت اصحاب الدخل المحدود اذن في ازدياد. والدخل المحدود في الكويت يقدر على النحو التالي : الشخص الذي يحصل على أقل من مئة وخمسين ديناراً كويتياً شهرياً يعتبر انه من اصحاب الدخل المحدود او القليل .والدينار الكويتي الآن يساوي على وجه التقريب ثلاثة دولارات. فمعنى هذا ان الشخص الذي يحصل على أقل من اربعمئة وخمسين دولاراً يعتبر من اصحاب الدخل المحدود.

في البحرين تنشأ البيوت ايضاً لاصحاب الدخل المحدود. وهناك مدينة كاملة اسمها مدينة عيسى (والذي اعتقده انها سميت مدينة عيسى باسم جد الشيخ الحالي، لا باسمه هو). هي مدينة كاملة فيها سوق ومدرسة وثلاثة جوامع وطرق وكهرباء وماء. وقد سكن بعض أصحاب الدخل المحدود ما انتهى من بيوتها. ولا تزال عشرات منها تحت الانشاء. لكن الدخل المحدود في البحرين هو مئة دينار بحريني والدينار البحريني يساوي دولارين فقط فمعنى هذا أن أصحاب الدخل المحدود في البحرين هم الذين يحصلون، دون المئتي دولار في الشهر، مقابل اربع مئة وخمسين دولاراً في الكويت.

ابو ظبي فيها ايضاً بيوت لاصحاب الدخل المحدود. لكن هناك لم يعين الدخل تماماً. ان الذين يأتون ويمكن تأمين بيوت لسكنهم لهم أن يستوطنوا هذه البيوت بترتيب مع الحكومة. وفي جميع الحالات لا تعطى هذه البيوت مجاناً رأساً، وانما يدفع الذين يإخذونها للحكومة مبالغ شهرية ضئيلة بحيث تصبح البيوت ملكاً لهم على مدة خمس عشرة أو عشرين سنة. والمهم أيضاً انه لا يجوز للكويتي او البحريني او ساكن ابو ظبي الذي يحصل على بيت من هذه البيوت أن يؤجره او يبيعه، وخاصة لغير المواطنين، اي لاجنبي. لان البيوت مفروض فيها انها لابناء البلاد لتحسين أحوالهم المعاشية.

في الكويت بطبيعة الحال، بحكم الثروة الكبيرة والمدة الطويلة، نجد ان هناك مستشفيات كثيرة للحكومة.

وليست هذه مستشفيات عامة فحسب بل هناك مستشفيات تخصصية. فمستشفى للجراحة ومستشفى للعظام ومستشفى للأمراض العصبية ومستشفى للأمراض الصدرية وما شاء ذلك.

في البحرين عدد من المستشفيات اقل منه في الكويت. اولاً عدد السكان اقل؛ ثانياً الثروة التي تأتي أقل. لكن لانها أقدم فهي أكثر انتظاماً من مستشفيات الكويت.

في ابو ظبي مستشفى واحد لا يزال في حالة بسيطة لكنه يستقبل المرضى. والتطبيب في كل هذه الاماكن بالمجان لجميع المواطنين ولجميع الموظفين سواء كانوا من ابناء البلاد او من الخارج، وحتى لاقربائهم الذين يكونون في زيارة لهم. ولذلك يمكن الواحد ان يقول ان هذه الامارات فيها في الواقع ما يمكن ان يسمي بالدولة او الحكومة التي تعنى برفاهية الشعب او حياته او ما يقرب من ذلك على الأقل.

لوحظ مؤخراً في البحرين ان الادارة تحتاج الى تنظيم. فالادارة في البحرين قائمة الآن او التي كانت موجودة الي قبل بضعة شهور فقط وضع أساسها بلغراف لما كان مقيماً عاماً هناك. وقد بدأ في العمل سنة ١٩٢٦. وقد استمرت هذه الادارة في التوسع والتعميق والتنويع. ولكن رؤي مؤخراً انه اذا كان سيظل كل رئيس او كل مدير لهذه الادارات يتصل بالشيخ اتصالاً مباشراً فالامور قد تتسع اكثر من اللازم. ولذلك في شهر كانون الثاني (يناير) من العام الحالي (١٩٦٩) انشيء في البحرين ما يسمى مجلس الدولة. أعضاء هذا المجلس اثنا عشر شخصاً هم رؤساء الدوائر المختلفة في البحرين اي رؤساء المعارف والمالية والتنمية والصحية وما شابه ذلك. ولهذا المجلس سكرتير عام. ويرئس هذا المجلس الشيخ خليفة الذي هو أخو الشيخ عيسى حاكم البحرين. والمقصود من هذا كله اجراء شيء من التنظيم الاداري. وهذا المجلس هو مجلس تنفيذي وليس مجلساً تشريعياً. لحد الآن التشريع او وضع القوانين يتم عن طريق الحاكم. لكن الحاكم لما افتتح هذا المجلس التفيذي، مجلس الدولة، أعلن للشعب انه يأمل ان ينتقل الى الخطوة التالية، فينشيء في البلاد مجلساً تشريعياً في فترة قريبة بحيث تصبح حتى القوانين التي تسن هناك يشارك فيها ابناء البحرين.

والبحرين الآن مهتمة بالتنمية الصناعية وغير الصناعية كاهتمام الكويت. ابو ظبي لم تصل الى هذه المرحلة بعد.

الكويت فيها صناعات كثيرة قطعت شوطاً في أعمالها. منها الصناعات البتروكيميائية.

في البحرين وجد ان الصناعات البتروكيميائية لا يمكن ان تطور بنفس الاسلوب والطريقة كما هي في الكويت لانها تكلف كثيراً. لكن الصناعة التي لها مستقبل كبير في البحرين هي صناعة الالومنيوم. فالآن يبنون في البحرين مصاهر للالومنيوم. الالومنيوم سيؤتى به من استراليا مادة خامة. والوقود متوفر هناك لأن الغاز الذي ينشأ عن وجود النفط يحرق. فيستعمل هذا الغاز الطبيعي المباشر لادارة هذه المعامل. ومعنى هذا ان الالومنيوم المصنوع في البحرين سيكلف نفقات أقل بكثير من صنعه في أوروبا. هذا المشروع هو بحريني اجنبي. من الدول المشتركة فيه او الشركات هناك على الأقل شركة المانية وشركة بريطانية. والأسواق لما يمكن أن ينتج في المستقبل من مصنع الالومنيوم جاهزة لتقديم الطلبات من الآن. هذا يعتبر شيئاً هاماً في تاريخ البحرين الصناعي الحديث.

يتضح من هذا ان هذه الجماعة تفيد بقدر الامكان من الثروات التي تأتيها من الارض، اي من النفط. طبعاً كلما زادت الثروة يمكن ان يزيد العمل. لكن يجب أن نذكر من جهة اخرى مشكلة كبيرة هي مشكلة الايدي العاملة. فعدد السكان قليل من جهة ومن جهة اخرى الكويتي، ابن البلد، المواطن، لا يشتغل في الصناعة. فهو يريد ان يكون اما تاجراً أو موظفاً أوطبيباً وما يشبه ذلك. لكن العمل في الصناعة، العمل اليدوي لا يقبل عليه. فالمشكلة اذن عندما تؤسس هذه الصناعات البتروكيميائية هي من يقوم بالعمل في المصانع المختلفة.

في البحرين الوضع أقل خطورة. يبدو أن أهل البحرين اعتادوا منذ مدة على الثقافة والمعرفة وما شابه ذلك. فليس هناك ما يمنعهم من القيام بالاعمال الصناعية. فمثلاً شركة نفط البحرين ومصفاة النفط في البحرين فيها عدد كبير من العمال البحرينين. ولكن في الكويت عدد قليل من العمال هم من اهل الكويت الاصليين، اما الباقون فيأتون من الخارج.

وبهذه المناسبة وهي ملاحظة اخيرة. اذا اردت في البحرين ان تقول هذا رجل من البحرين او هذه امرأة من البحرين تقول بحريني او بحرينية. اما اذا قلت بحراني فمعنى هذا انه شيعي. بحريني مواطن من البحرين ولكن بحراني معناه انه شيعي اي ليس سنياً. ولا ينطبق هذا الكلام على الايرانيين المقيمين في البحرين ولو انهم شيعة، فهم ايرانيون.

يبدو من هذا الذي دونته انني كنت معنياً بالمدن والاسواق والبيوت والآثار. هذا صحيح. لكنني كنت شديد الاهتمام بالناس. مواقفهم واهتمامهم بالمدارس ونظرتهم الى المستقبل. وانا، باعتباري قومياً عربياً في الصميم كنت حريصاً على أن اسبر اغوار هذه القضية كل مرة زرت فيها امارات الخليج.

وما الذي خرجت به يومها؟ لم يكن كثيراً. في الكويت مثلاً كان احمد الخطيب، المتخرج من كلية الطب في الجامعة الأميركية، والذي ظلت تربطني به صداقة، لا يزال على ما كان عليه من ايمانه بالقومية العربية. لكن القومية العربية، في اواسط الخمسينات، كانت تعاني الكثير من الخلخلة في الحديث عنها، واهم من ذلك في الافادة منها. ومن هنا حار اتباعها في امورهم. ولهذا حديث له موضعه في هذه المذكرات فلاتركه الى حيث يمكن ان يفصل ويوضح.

لكن احمد الخطيب لم يتبدل، ولو انه قيل عنه انه مال الى اليسار (بمعنى الشمال لا الثروة).

على أن الأمر الذي يجب ان يدون هنا هو الاهتمام بالبعثات العلمية للتخصص. فقد كان ٨٥٪ من أساتذة جامعة الكويت في اواخر الستينات من الزملاء المصريين. وكان الكويتيون يريدون القيام على التعليم الجامعي. وحتى سنة ١٩٧٧ كان القائمون على الشؤون العلمية، تعليماً وادارة، في جامعة قطر من الزملاء المصريين.

وكانت الكويت - حتى آخر زيارة لي - تتحفز لرفع مستوى ادائها نحو خدمة الفكر العربي. وقد نجحت فالدوريات وعالم المعرفة والكتب المحققة التي وصلتنا منها كان فيها ما يدعو الى الابتهاج والسرور، ففيها منفعة وفائدة.

في ربيع سنة ١٩٧٠ رتبت كلية المعادن والبترول (ولم تكن قد أصبحت جامعة بعد) في الظهران، في المملكة العربية السعودية، برنامج زيارات علمية لفريق من اساتذة الجامعة الأميركية في بيروت. كان القصد من هذا البرنامج ان نقوم نحن بالقاء محاضرات على طلاب الكلية، وهي اصلاً معهد علمي تكنولوجي، في نواح من الدراسات الانسانية وكانت حصتي انا تدور حول الجغرافيا عند العرب. لما قبلت الدعوة لزيارة هذه الكلية، ورأيت أن البرنامج فيه فراغ، كتبت الى جونز، الذي كان زميلاً لنا في الجامعة وتركنا ليعلم في الظهران، طالباً منه ان يرتب لي رحلة اما الى القطيف (شمالا) او الى الهفوف (جنوباً). وفعلاً رتب الامر وقضينا يوماً ممتعاً في زيارة الجبيل والقطيف وتاروت والآثار هناك، وهي ليست قديمة اذ انها تعود الى العصور الحديثة. ذلك بأن أعمال التنقيب الاثري كانت بعد في المهد في المملكة.

وفي يوم آخر زرت الهفوف والاحساء.

عرفت ان عبد الحافظ كمال، زميلي في الكلية الرشيدية في القدس، يعمل في قافلة الزيت (القافلة فيما بعد) في قسم الابحاث. عبد الحافظ لم يكن من الاشخاص الذين يجتذبون الناس اليهم. بل كان الناس يشعرون

بالنفور منه. فوجهه يبدو دوماً فيه كشرة طبيعية، لكنها كانت تؤدي الى ان يحسبه الناظر كانه يشكو من امساك مزمن حاد. على كل ذهبت لزيارته. وهناك تعرفت مصادفة برئيس تحرير المجلة التي تصدرها شركة ارامكو. ودعاني لان اكتب في المجلة. وهكذا بدأت يومها صلة لم تنقطع تماماً بعد (آذار / مارس ١٩٩٢).

وكان ممن زرت في الظهران سامي قبيسي وزوجته سلام. وكان في القسم الاعلامي في الشركة.

ولما بلغ الدكتور عبد العزيز خويطر، وكيل جامعة الرياض يومها، انني سأزور المملكة طلب مني أن أعرج على الرياض زائراً ومتحدثاً للطلاب وغيرهم. لم تكن القضية هل أقبل الدعوة أم أعتذر. كانت قضيتي كيف أشكر للصديق الكريم هذه الدعوة. ولما كنت في الرياض اقترح علي ان اعود الى بيروت بطريق جدة لازور جامعة الملك عبد العزيز (وكانت يومها جامعة خاصة). فكررت الشكر.

المحاضرة العامة - الرئيسية - التي القيتها في الرياض (الى جانب ندوتين تخصصيتين للطلاب) كان منعطفات في تاريخ العرب. وقد أكرمني كثيرون بحضورها يتقدمهم خويطر والدكتور عزت النص وكان قد اعتزل عمادة كلية الآداب واكتفى برئاسة قسم الجغرافيا وآخرون. لكن الرجل الذي تعرفت اليه يومها كان مصطفى عامر، أحد رواد الدراسات الجغرافية في مصر. كان يومها يشغل منصب مستشار لجامعة الرياض. وقد كانت لي معه احاديث طيبة طويلة، افدت منها فضلاً عن انني استمتعت بها.

ورتب لي خويطر، عن طريق عبد الله النعيمي، أمين عام الجامعة، زيارة للدرعية، العاصمة (الاولى) للدولة السعودية (الأولى). وقد عرفت يومها ان برنامجاً قد أعد لتأهيل المدينة. وقد زرتها ثانية سنة ١٩٧٨ وكان العمل في هذا البرنامج قد بدأ.

قضيت ثلاثة ايام في جدة في فندق البحر الأحمر. تحدثت الى الطلاب والى المدرسين. فالجامعة يومها كانت شيئاً متواضعاً في اول السلم وكانت تقتصر على بضعة اقسام.

وزرت الرياض ثانية سنة ١٩٧٨ اذ اسهمت في الندوة (الأولى) العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية. وكان موضوعها: مصادر تاريخ الجزيرة العربية. وقد تحدثت يومها عن كتاب وضعه مؤلف صيني اسمه تشاو جو - كوا عن العلاقات التجارية بين الصين وبلاد العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

في سنتي ١٩٧٣ و ١٩٧٥ زرت العراق. في الأولى للمساهمة في المؤتمر الدولي للتاريخ الذي انعقد في بغداد، وفي الثانية كانت لي مساهمة في مهرجان الفارابي، واثناءها تمكنت من زيارة البصرة في الجنوب والموصل والحضر في الشمال. وكانت لي زيارة الى بغداد سنة ١٩٨٨ لمناسبة مهرجان المربد.

والشيء بالشيء يذكر. فقد زرت الخرطوم سنة ١٩٥٩ وحملني اصدقائي الى واد مدني في الجزيرة، وفي سنة ١٩٧٨ زرت الخرطوم ثانية (وكان ابني رائد قد عين مديراً لمكتب طيران الشرق الأوسط هناك) وكان ذلك في طريقي الى كانووزاريا في شمال نيجيريا.

وهكذا وجدتني، نتيجة لهذه الزيارات المتعددة الاسباب والعلات، قد وقفت، بالنسبة الى الخليج العربي، في البصرة (وريثة الأبلة منذ العهود الاسلامية الاولى) والكويت والجبيل والقطيف وتاروت والدمام والهفوف والبحرين وسواحل قطر وابو ظبي وراس الخيمة. فتمت لدي الصورة الجغرافية / التاريخية لمراكز الحركة التجارية (من جهة الخليج العربي) وصلة بعضها بمدن ارض الرافدين وبلاد الشام وموانىء هذه. ان الذي كنت قد عرفته من كتاب او اطلس، انطبع في ذهني الآن صورة حية.

اما الاماكن التي تتوسط الخليج العربي، ومنها الجرهاء، فامرها مختلف. فهي متصلة في تجارتها مع الحجاز غرباً (الى جدة وينبع والجار والعلا والحجر (مداين صالح) وجدة؛ ومع دومة الجندل (الجوف اليوم) وتيماء في اتجاه شمالي غربي.

والوقفة في جدة على البحر الأحمر تضعك في موقع يمكنك من تصور سفن البطالمة والسفن المصرية فيما بعد تحمل المتاجر (ثم الحجاج) من برنتشي وعيذاب وغيرهما الى موانىء البحر الأحمر.

على انني وقد وقفت في تلك الاماكن وتنقلت في تلك المناطق كنت اقدر على فهم التطور التاريخي للحضارات التي قامت في هذه البلاد وتطورها وتنقلها الى هذه المنطقة ومنها. نعم تصورت هذه الأشياء ـ الأسطورة والقصة والنقوش والقوانين واساليب البناء والادب والعبادات والاراء العلوم ـ وهي تنبت اشجاراً صغيرة في مكان، ثم تنمو وتقف على جذوعها وتنتشر في الانحاء القريبة والاجزاء البعيدة. وتقوم دول صغيرة (مدينية) أو كبيرة (ممالك وامبراطوريات) فتحتضن هذه الحضارات وتيسر لها سبل التطور. وتعطي ثمرها خدمة للبشر.

الفصل السابع والعشرون

واتيح لي أن أخرج عن نطاق العالم العربي شرقاً. فانا متى سلكت رجلي طريقاً لا أتخلى عنه بسهولة، بل اتبعه بأماكن اخرى.

في صيف سنة ١٩٥٧ كنت على وشك العودة، مع اسرتي، من الويلات المتحدة الى بيروت. كنت سنتها استاذاً زائراً (للمرة الأولى) في جامعة هارفارد. وكان من زملائنا في دائرة العلوم السياسية (وفي هارفارد كان اسمها دائرة الحكم) شاب اسمه هنري كيسنجر. كنا نعرف انه كانت له علاقات بالمؤسسات السياسية في البلد. لكن اجتماعاتي به، وكانت ثلاثة أو أربعة، كانت تتعلق بالندوة العالمية لجامعة هافارد، التي كان هو المشرف عليها. وكنا قد اجتمعنا حول هذا الموضوع لانه اراد ان ازوده بأسماء اشخاص يمكن ان يدعوا للمساهمة في الندوة. وفي آخر مرة لقيته، قبيل مغادرتنا مدينة كامبردج الأميركية سألني فيما اذا كنت مستعداً للذهاب الى هارفارد في صيف ١٩٥٨ لحضور الندوة. فاعتذرت لانني يجب ان أظل في البلاد للقيام بأمور كانت مطلوبة مني.

لما وصلنا بيروت جمعت البريد. وكانت الكتابة احب الى الناس منها الآن. وحملته الى البيت. وجدت دعوة من جامعة عليكرة الاسلامية بالهند لحضور الفية السمعودي. ولما اخبرت زوجتي مرغريت بالأمر سألتني فيما اذا كنت ساقبل الدعوة فأجبت بالايجاب. فقالت تعتذر عن هارفارد وتقبل هذه؟ قلت يا مرغريت هذا شيء جديد. الى الهند.

وهكذا وجدتني في شهر كانون الاول / ديسمبر سنة ١٩٥٨ في طريقي الى دلهي. وقد توقفت في طهران يومين. ولكن سنترك قصة طهران الى وقت آخر.

المؤتمر كان في عليكرة، على انني كنت قد قبلت دعوة للتحدث عن لبنان في دلهي بالذات، وفي ناد ثقافي. وكان من الحضور الدكتو حليم ابو عز الدين، سفير لبنان في الهند، الذي أحاطني برعايته خلال اقامتي في دلهي. وقد كانت لي به معرفة، لكنها منذ ذلك اليوم تحولت الى صداقة، لا تزال قائمة الى يوم الناس هذا (١٩٩٢) ونحن الآن جيران حي واحد في بيروت.

حملني الملحق الثقافي في السفارة السورية بسيارته الى عليكرة. وهناك كان عدد كبير من المشتغلين بالتاريخ والادب والحضارة العربية الاسلامية من الولايات المتحدة واوروبا وآسيا. وكان المسهمون الهنود كثرا ايضاً.

شغلنا بالمسعودي يومين كاملين. قدمت الابحاث، التي كانت قد وزعت علينا حين وصولنا، ونوقشت. وطعمنا طيبات ما طهاه الهنود مع التوابل، وما أعده الآخرون من الطعام الانكليزي. فحاكم المنطقة وزعيمها والجامعة ـ كل هؤلاء ارادوا تكريمنا؛ والتكريم صورته وواقعه سماط طعام يمد للناس. اما انا فقد جنبت نفسي الموائد كلها. كنت مصاباً بالقرحة المعوية. وكان يتحتم علي تجنب هذه المطهيات والمقلوات. وكنت قد حملت معي من بيروت جبنة سويسرية فكنت أحمل قطعة معي وأرجو مرافقي السيد الانصاري، وكنت اعرفه اذ قضى سنة

دراسية عندنا في الجامعة الاميركية، ان يطلب لي بيضة او اثنيتن مسلوقتين. وفي ضجة الحفل الكبير «وعجقته» كان يتم الامر دون أن ينتبه الي أحد.

وكان اليوم الثالث ندوة خاصة بتدريس التاريخ الاسلامي وكتابته في جهات مختلفة. تكلم المستشرقون، وتكلم الهنود وغيرهم من مسلمي آسيا ـ اندونيسيا.

ودعيت انا للكلام. فكان خلاصة ما قلته، على ما أذكر، هي: تكلم المستشرقون والمستعربون عن دراسة الاسلام وتاريخه وحضارته على انهم خارجه. يريدون ان يفهموه وان يفسروه. لهم اسبابهم في الاهتمام بذلك. ولهم مواقفهم التي قد تكون نتيجة لدرس جدي متحرر عن الهوى، وقد تكون ملونة بالكثير من النوايا المتنوعة. وعلى كل فهم يدرسون الموضوع من الخارج.

اما الباحثون الهنود، وهم مسلمون، فقد تكلموا من موقف خاص. انهم، على كثرة عددهم، اقلية تعيش في جو غريب. صحيح ان الجميع مواطنون هنود، وصحيح ان الدولة لا تفرق بين هذا وذاك من المواطنين، لكن الذي بدا لي من حديث الزملاء الكرام هو ان درس الاسلام وحضارته هو واحد من الدروع التي تلجأ اليها الاقلية للدفاع عن نفسها، سواء اكان لهذا الوضع مبرر ام لم يكن.

انا مسيحي، لكنني عربي، واعيش بين المسلمين. اشعر ان الحضارة العربية الاسلامية هي حضارتي وهي تراثي الثقافي والفكري. لذلك فانا أنظر الى هذا التاريخ والحضارة نظرة داخلية اي من داخل تراثي. وهذا ينطبق على الآخرين الذين يعملون في الحقل ذاته، وهم قد يكونون مثلي مسيحيين او قد يكونون مسلمين. فضلاً عن ذلك فنحن، ابناء منطقتنا، عندما ندرس التاريخ الاسلامي فاننا ندرس تاريخنا. لا يمكننا ان ننظر اليه نظرة من الخارج؛ زاويتنا داخلية. ومن هنا فإن بعض الأمور التي تعالجونها انتم وانتم متوترون، وخاصة هنا في الهند، تكون معالجتنا لها معالجة مختلفة. وقد يكون ثمة وجهات نظر متباينة بين الدارسين العرب، ولكن هذا التباين يظل أساسه داخلياً.

كان أعضاء المؤتمر قد وصلوا قبلي بيوم، وهو اليوم الذي خصص لزيارة تاج محل في أغرا. لذلك وضعت الجامعة تحت تصرفي سيارة وانتدبت الانصاري لمرافقتي لزيارة هذا المكان الجميل جداً. حجز لنا مكان في فندق فخم هناك. وصلنا بعيد العصر. وضعنا اغراضنا في الفندق. كنت قد تنبهت الى أن القمر ليلتها كان بدراً. وكانت السماء صافية لذلك اقترحت على الانصاري ان نذهب لزيارة تاج محل عند الغروب. وقضينا هناك نحو الساعة.

تاج محل مبنى ضخم فخم بناه شاه جهان (امبراطور من عصر المغول في الهند حكم من ١٦٢٧ الى ١٦٥٨) قبراً لزوجته المحبوبة ممتاز محل. وهو مبنى في غاية الاناقة، اساسه الرخام الابيض، الذي لم يبخل صاحبه في زخرفته وتزيينه. ويعتبر القمة في فن البناء الهندي الفارسي، الذي غلب على أيام المغول. وقد احتاج اتمام بنائه الى نيف وعشرين سنة (١٦٣٢ـ١٦٥٣)، ولو انه كان جاهزاً للاستعمال سنة ١٦٤٣.

عدت من الزيارة وانا اكاد ارقص حبوراً. ما كان اكثر ما سمعنا عن تاج محل، وما أكثر ما رأيناه من صوره. وها انا قد ملأت ناظري منه ومن الحديقة التي يتوسطها والبركة التي تعكس ظله في مياهها الصافية.

في الصباح وجدت الانصاري منزعجاً. مرَّ بغرفتي ليتأكد من ان فنجان الشاي المبكر (على الطريقة الانكليزية) قد وصلني فلم يجدني. ولم يجدني في حديقة الفندق. واخيراً عثر علي وانا ادخل الفندق. «ومن اين يا سيدي» سألني مستغرباً. قلت كنت في زيارة تاج محل لاراه مع شروق الشمس. المبنى الرخامي كان قصيدة حب في نور البدر، وكان سمفونية عشق مع أشعة الشمس الاولى.

زرنا جامع موتي او جامع الجوهرة وقلعة أغرا وجميعها آيات من الفن المعماري لتلك الأيام. ثم حملنا معنا

زوادتنا من الفندق وسرنا الى دلهي. ولما سألت رفيقي لماذا نحمل معنا حتى الشاي، قال هذا أضمن لنا. فصالات الأكل في طريقنا ليست على ما يرام. وقد تأكدت من صحة قوله اكثر من مرة خلال الساعات الخمس التي قضيناها في الطريق.

زرت قطب منار في دلهي زيارة سريعة. وقطب منار مئذنة (صومعة) لمسجد يعود بناؤه الى أيام دولة دلهي الاسلامية (١٢٠٦-١٥٢٦) وذلك في سنة ١٢٣٢ في عهد الطوتميش (١٢١١-١٢٣٦).

كان بين من تعرفت اليهم من اساتذة جامعة عليكرة الاسلامية سيد مقبول احمد ونور الحسن وقد تولى وزارة التربية وخليق احمد نظامي الذي سفر لبلاده في سورية فيما بعد وزاكر حسين الذي تولى رئاسة الجمهورية فيما بعد، وم.س. اغواني. وهذا سنلقاه فيما بعد في دلهي وفي بيروت وفي عمان.

عدت الى بيروت وفي نفسي رغبة قوية في زيارة ثانية للهند. ولكن...

لقد انتظرت طويلاً قبل أن تحقق هذا الأمل. ولما تحقق كانت الاقامة اطول بكثير، كما كان المجال الذي تنقلت فيه اوسع من ذي قبل. كان الفضل في تحقيق الدعوة لسيد مقبول احمد، الذي اصبح، في سنة ١٩٧٠، رئيساً لقسم غرب آسيا وشمال افريقيا في جامعة عليكرة الاسلامية.

قضيت قرابة الشهرين في هذه الرحلة الى الهند. كنت ضيف جامعة عليكرة، ومع ان الجامعة اخبرتني مسبقاً انها لن تدفع لي مرتباً، بل انها مضطرة للاكتفاء بما يسمى «مصروف جيب»، فقد عرفت، لما دفع المبلغ لي، انه كان أكبر من مرتب استاذ في الجامعة. هذا فضلاً عن الضيافة هناك. وفي هذه الرحلة قضيت اياماً في دلهي، فزرتها زيارة أدق وأوعى، وجُيِّرت الى الجامعة العثمانية في حيدر اباد الدكن، والى جامعة جيبور في راجستان. اما زيارتي لبومباي فكانت برعاية الجامعة دون أن أقدم لها شيئاً. كان الجميع في كلية الآداب مشغولين بالانتقال الى مبانٍ جديدة بغية التوسع.

في الفترة التي قضيتُها في رحاب جامعة عليكرة الاسلامية رتبت ندوات تناولت واحدة منها العالم الاسلامي من سنة ١١٠٠-١٥٠٠م. وقد تناولت التطور الداخلي والاخطار الخارجية. ثانياً كانت هناك ندوتان عن التطور السياسي للمغرب العربي منذ سنة ١٨٣٠. والقيت محاضرة حول الرحالة العرب في افريقيا. وكانت لي جلسات مع اساتذة الادب العربي في الجامعة. واهم من هذه كانت احاديث طويلة مع طلاب الدراسات العليا. ليس من شك، بناء على تجربتي، ان زملائي في قسم التاريخ كانوا من الاعلام. لكنهم، كما ذكرت اثناء زيارتي الاولى (١٩٥٨)، فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامي، ينظرون اليه من زاوية الدفاع عن النفس. ولست أنكر ان الكثيرين من زملائي العرب ينظرون الى التاريخ الاسلامي على انه سلاح ضد هجمات الغرب، لكن اولئك بعيدون جغرافياً عن الغرب. وهذه قضية مهمة جداً.

وكانت لي جلسات مع عبد العليم، رئيس الجامعة. وقد اقترحت، بعد أن تحدثت حول هذا الأمر مع سيد مقبول أحمد وخليق نظامي وغيرهما، منهاجاً جديداً للدراسات، خاصة الاقليمية منها، بحيث ان الطالب لا يقتصر على نظام واحد من الدراسة - الجغرافيا او التاريخ او الاقتصاد؛ بل يجدر به أن يلم بهذه الأمور بحيث تصبح آفاقه أوسع. وقد طلب مني أن أعد مذكرة بذلك، ووعد بأن يدعو أعضاء من اللجنة العلمية للجامعة والاساتذة المعنيين لبحث الامر. اعددت المذكرة وبعثت بها اليه. لكن لا دعوة ولا اجتماع تبع ذلك. وقد عرفت فيما بعد، من الزملاء، ان هذا هو اسلوب عبد العليم في الادارة. لذلك كانت الجامعة كالجندي الذي يعد مكانه في ايامه. لم تتقدم، ولم تتأخر، لكن الوقوف في المكان الواحد هو أقرب الى التأخر عادة.

قضيت نحو عشرة ايام في دلهي. هذه المرة تمتعت بالزيارة. زرت المدينة القديمة والقلعة الحمراء. وقضيت

بعض الوقت في قطب منار وما حوله. هذه جميعها من مخلفات الفترة المبكرة لايام سلطنة دلهي الاسلامية (١٢٠٦-١٥٢٥)

تذكرت وانا اتنقل بين الجامع والقلعة وادور بالاسوار، ان ابن بطوطة زار دلهي وتحدث عنها في رحلته. فرجعت اليه فوجدته يقول: «دلهي - ومدينة دهلي كبيرة الساحة، كثيرة العمارة، وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات. احداها المسماة بهذا الاسم دهلي، وهي القديمة من بناء الكفار. وكان افتتاحها سنة اربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨). والثانية تسمى سيري وتسمى أيضاً دار الخلافة، وهي التي أعطاها السلطان غياث الدين (٦٦٤-٦٨٦هـ/ ١٢٦٦-١٢٨٧م) الى حفيد الخليفة المستنصر العباسي (٦٢٣-٦٤٠/ ١٢٢٦-١٢٤٢) لما قدم عليه. وبها كان سكنى السلطان علاء الدين (٦٩٥-٧١٥هـ/١٢٩٦-١٣١٦) وابنه قطب الدين (٧١٦-٧٢٠ / ١٣١٦-١٣٢٠). والثالثة تسمى تغلق اباد باسم بانيها السلطان تغلق (ومنشىء دولة طغلق وقد حكم ٧٢٠-٧٢٥/ ١٣٢٠-١٣٢٥) والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه. وكان سبب بنائه لها انه وقف يوماً بين يدي السلطان قطب الدين فقال له: «يا خوند عالم، كان ينبغي ان تبنى هنا مدينة». فقال له السلطان متهكماً: «اذا كنت سلطاناً فابنها». فكان من قدر الله ان كان سلطاناً فبناها وسماها باسمه. والرابعة تسمى (جهان بناه)، وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن (٧٢٥-٧٥٢ / ١٣٢٥-١٣٥١)، الذي قدمنا عليه. وهو الذي بناها. وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد، فبنى منه بعضاً وترك بناء باقيه، لعظم ما يلزم في بنائه.

«والسور المحيط بمدينة دلهي ليس له نظير. وعرض حائطه احدى عشرة ذراعاً. وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب، وفيه مخازن للطعام ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات. ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة. ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه أسود، ولكن طعمه طيب. ورأيت ايضاً الكذرو يخرج منها. وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن (غياث الدين المذكور قبلا) منذ تسعين سنة. ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة الى آخرها. وفيه طيقان مفتحة الى جهة المدينة يدخل منها الضوء. وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة وأعلاه بالآجر. وأبراجه كثيرة متقاربة. ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً.

«وجامع دهلي كبير الساحة، حيطانه وسقفه وفرشه، كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة ابدع نحت، ملصق اتقن الصاق، ولا خشبة به أصلاً. وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة. ومنبره أيضاً من الحجر. وله اربعة من الصحون. وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدري من أي المعدن هو. ذكر لي بعض حكمائهم انه يسمى (هفت جوش) ومعنى ذلك سبعة معادن، وانه مؤلف منها. وقد جلي من هذا مقدار السبابة، ولذلك المجلو منه بريق عظيم. ولا يؤثر فيه الحديد. وطوله ثلاثون ذراعاً (نحو ٧٣٠ سم). وأدرنا به عمامة فكان الذي احاط بدائرته منها ثماني أذرع (نحو ١٩٥ سم). وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس، مطروحان بالأرض قد ألصقا بالحجارة. ويطؤها كل داخل المسجد او خارج منه. وكان موضع هذا المسجد بدخانة، وهو بيت الأصنام. فلما افتتحت جعل مسجداً. وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الأسلام. وهي مبنية بالحجارة الحمر، خلافاً لحجارة سائر المسجد فانها بيض. وحجارة الصومعة منقوشة. وهي سامية الارتفاع.

«الضيافة في دلهي - ولما وصلت الى الدار التي اعدت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج اليه من فرش وبسط وحصر واوان وسرير الرقاد. وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل، يحمل السرير منها الرجل الواحد. ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر يحمله غلامه على رأسه. وهو أربع قوائم مخروطة، يعرض عليها أربعة أعواد. وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن. فاذا نام الانسان عليه لم يحتج الى ما يرطّبه به، لأنه يعطي الرطوبة

من ذاته. وجاءوا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف، كل ذلك من الحرير. وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحف وجوهاً تغشيها من كتان او قطن بيضاء، فمتى توسخت غسلوا الوجوه وبقي ما في داخلها مصوناً. واتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني، والآخر الجزار، ويسمونه القصاب، فقالوا لنا: خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق، ومن هذا كذا وكذا من اللحم، لأوزان لا أذكرها الآن... وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق. وهذا الذي ذكرناه ضيافة ام السلطان.

وابن بطوطة قضى في الهند فترة طويلة خدم فيها سلطانها محمد شاه ثماني سنوات في القضاء (٧٣٤ - ٧٤٢/ ١٣٣٣ - ١٣٤١). ثم اختاره محمد شاه رئيساً لبعثة الى ملك الى الصين. فقبل لكنه لم يعد الى الهند.

وعدت الى قطب منار؛ وحقيقة الأمر ان الذي يشاهده المرء هنا هو مجموعة من الابنية بدأ بها في عهد إلتُتْمش (ألتامش)، ولكن ابنية اخرى كثيرة، دينية ومدنية وقبوراً، اضيفت اليها فيما بعد وخاصة ايام علاء الدين كلج (٦٩٥ - ٧١٥/ ١٢٩٦ - ١٣١٦). والذي، على ما يعرف عنه من شرة وقسوة، كان حريصاً على اقامة الابنية الجميلة. ومما رأيناه في قطب منار من آثار محاولاته قاعدة كان المقصود منها اصلاً أن تكون قاعدة لمنار يفوق البناء القائم ضخامة واناقة وزخرف لكن ذلك لم يتم للرجل.

وقفت يوماً امام قطب منار وتأملته وتأملت ما يمثل في هذه البقعة النائية (بالنسبة لنا) والبعيدة العهد (بالنسبة للجميع).

اواخر سنة ١٩٥٨ زرت دلهي وقطب منار. تركت الزيارة في نفسي شيئاً - صورة للمنار، فكرة تتعلق بضخامته، امر يرتبط بمكانه. لكنها كلها كان ينقصها الربط والاستقرار.

في صيف ١٩٥٩ زرت المغرب. وصلت مراكش ووقفت أمام جامع الكتبية. بناء ضخم، تحوم حوله فكرة وتهوم في انحائه اشياء. لكن ما هي؟

وفي يوم، بعد الزيارتين، تذكرت. دلهي بنيت في اواخر القرن العاشر (م)، ولكنها اتخذت شكلها (اي المدينة القديمة) الحالي الاسلامي - ممثلاً بقطب منار - بعيد سنة ١٢٠٠. مدينة مراكش بناها المرابطون (المسلمون) اواسط القرن الحادي عشر. وجامع الكتبية يعود الى مطلع القرن الثالث عشر. ولمعت الفكرة التي ربطت بين المكانين (المدينتين) والرمزين (الكتبية وقطب منار) في ذهني. في المغرب القاصي وفي الهند البعيدة تقوم مدينتان لتقولا للعالم هنا تقوم دولة الاسلام اليوم. لم يكن ذلك الحد، ولكنه كان رمز القوة. المدينتان حصنان للاسلام في بعض من حدوده القصوى. والمدينتان ترتفع في كل منهما مئذنة - صومعة - منارة لتقول للجوار شيئين: الاول نحن هنا للدفاع (ففي كل من المدينتين ابراج واسوار)؛ اما الثاني فهو نحن عندنا نور وايمان صالحان لارشاد العالم. فلينتفع من ذلك القوم العاقلون.

ولما زرت دلهي وقطب منار سنة ١٩٧١، وكنت قد زرت مراكش والكتبية مرات عديدة، رأيت الفكرة متجسمة امامي. وتذكرت من التاريخ ان قطب منار اصبحت، في مطلع القرن السادس عشر رديفاً للتقدم الاسلامي في الهند، لكنها ظلت تشع. والكتبية لم تعد حداً، فالاسلام انتشر الى الجنوب منها: لكنها ظلت تلقي بشعاعها على ما يتلوها من بلاد.

هذه هي الصورة؛ هذه هي الفكرة، التي حومت وهومت في نفسي حتى تمثلت في المئذنتين رمزاً سوياً.

وفي هذه الزيارة لدلهي تعرفت الى حكيم عبد الحميد: وهو رجل متقدم في السنّ، صغير الحجم، لكنه كتلة من النشاط والايمان. عبد الحميد درس الطب على الطريقة العربية اليونانية في الكليات المسماة في الهند وباكستان كلية طب يوناني. وفي جامعة عليكرة الاسلامية كلية منها؛ كماتوجد في جامعات هندية كثيرة وكان

أبوه من قبله كذلك طبيباً، وأخوه حكيم محمد سعيد (في الباكستان) مثله. والأب انشأ مصنعاً لانتاج العقارات النباتية اسمه هَمْدَرْد. وبعد تقسيم المنطقة الى الهند وباكستان انقسمت الشركة قسمين. تولى حكيم عبد الحميد شؤون القسم الهندي وترك القسم الآخر للأخ حكيم محمد سعيد في الباكستان.

لما تعرفت الى حكيم عبد الحميد كان قد ترك الطب وممارسته وانصرف الى انشاء مؤسسة علمية لدراسة تاريخ الطب، والعلوم القريبة منه، عند المسلمين. كان قد أقام مبنى ضخماً، وجمع مكتبة كبيرة، وأثث في المبنى غرفاً للضيوف، للذين يريدون ان يقضوا بعض الوقت لدرس ناحية من نواحي التاريخ لهذه العلوم. والمؤسسة كانت تستضيف هؤلاء استضافة كاملة.

زرت المبنى، ورأيت النماذج التي صنعت لالات الفحص الطبي والجراحة على نحو ما عرفها العرب في تاريخهم. وتحدثت الى حكيم عبد الحميد طويلاً. وطلب مني أن أتحدث الى فئة من العاملين في المؤسسة، وهم علماء شباب، عن منطقتنا. وقد فعلت ذلك بكثير من السرور، وكثير من الشكر لأنني كلفت بذلك.

وتعرفت، عن طريق الحكيم، الى مجموعة من العاملين في الحياة الفكرية الاسلامية: أفراد وجماعات متكاتفة في سبيل هذه الغاية. وكان في مقدمتهم حسين عابد.

كانت ثمة جامعة جديدة قد انشئت في دلهي (١٩٦٩) جامعة جواهر لال نهرو. جامعة الأصل في اتجاهها وعملها البحوث العلمية والدراسات العليا. كان م.س. أغواني احد الأساتذة فيها، وكان له نفوذ خاص. فهو عالم، نشيط، منفتح، يعرف المشرق العربي معرفة جيدة دراسة وزيارة (وقد زارني في الجامعة الاميركية مرتين) واطلاعا. في حديث معه حول ما يمكن ان تقدمه جامعة من هذا النوع للمجتمع وكيف يمكن أن يقدم، قال هذه الاراء يجب أن يطلع عليها اعضاء مجلس الجامعة، وخاصة الاكاديميين منه وتم ذلك. وقضينا نحو الساعتين في بحث الغايات والسبل والوسائل والحاجة الى العنصر الخارجي باستمرار، كي لا تأسن الجامعة او تتقوقع. وبعد يومين طلب البعض ممن حضر ان نجتمع في أمسية في بيت احدهم لنتم الحديث. ومثل هذا الحديث لا يمكن ان ينتهي. فكل مؤسسة تريد ان تنمو وتتطور بحاجة الى التحدث حول مشكلاتها مع آخرين، ومن خارج أطرها.

لما عدت الى بيروت، بعد ان زرت اجزاء اخرى من الهند، وجدت رسالة من رئيس تلك الجامعة، فيها شكر لي، وفيها، ما حسبته اهم من الشكر، خلاصة للاحاديث والمناقشات وقد سماها منهج عمل نأمل أن نحققه.

كانت تلك اللحظة ثمينة عندي؛ وكان وقعها في نفسي كبيراً. (عرفت هذه الأيام، ربيع سنة ١٩٩٢، ان اغواني هو رئيس الجامعة).

كانت نقلتي التالية في الهند الى حيدر اباد الدكن، التي تتوسط شبه الجزيرة الهندية. كانت هذه المدينة عاصمة لامارة (١٧٢٤-١٩٤٩) اسلامية كبيرة. كان حاكمها يسمى نظام (حيدر اباد). وكان في اواسط العشرينات من أغنى أغنياء العالم. لذلك لما ألغى مصطفى كمال (كمال اتاتورك ١٨٨٠-١٩٣٨) الخلافة سنة ١٩٢٤، سعى نظام حيدر اباد ليكون خليفة المسلمين.

كان الملك فؤاد سلطان مصر (١٩١٧ وملكها ١٩٢٢- ١٩٣٦) أحد الطامحين الى المنصب الكبير. الا ان الذي بويع بالخلافة يومها (١٩٢٤) كان الحسين بن علي (شريف مكة ١٩٠٨-١٩١٦ وملك العرب. او ملك الحجاز فقط. ١٩١٦-١٩٢٤). وقد توفي الحسين سنة ١٩٣١.

وقد الغيت هذه الامارة فيما الغي من امارات في الهند (١٩٥٦). وهي الآن عاصمة ولاية اندرا برادش. ويجد الزائر قصوراً جميلة تحوي الاثاث والفراش والتحف التي كان الامراء يستعملونها، وقد اصبحت هذه المباني متاحف يتمتع الزوار بمحتوياتها وفنها المعماري وزخرفها الجميل.

وقد كانت حيدر اباد الدكن من المراكز الاسلامية الكبرى. لذلك فكر جماعة من أهل الفكر بوجوب انشاء جامعة هناك على نحو ما كانت لعليكرة كلية مشهورة جداً. ولما نضجت الفكرة اراد هؤلاء ان يشترك في انشاء الجامعة مسلمو الهند لا مسلمو الامارة فحسب، لذلك عهد الى لجنة القيام بجمع التبرعات فوجهت هذه رسائل الى أهل الثراء من مسلمي الهند، وكانوا كثراً تنبئهم فيها بالمشروع وتعين لهم مواعيد قدومها واضافت الى الرسائل ان اللجنة لا تريد مهرجانات ولا حفلات ولا مآدب ينفق عليها المال جزافاً. ليكن استقبال اللجنة عادياً، وفي البيوت، وليتبرع كل واحد حتى بما كان يمكن أن ينفق على حفلة للمشروع. وقد نزل القوم عند رأي اللجنة وتبرعوا بسخاء. لكن فئة قليلة من سكان عليكرة وما اليها ابت الا أن تعد مأدبة فخمة لأعضاء اللجنة وضيوف آخرين. والقوم هناك كرماء في اعداد المآدب، على ما عرفت منذ الزيارة الأولى. لكن اللجنة رفضت حضور المأدبة لانها طلبت من الأصل تجنب المآدب.

وجمع المال وتقدم نظام حيدر اباد بتبرع قيل لي انه لم يكن يتناسب مع ثروته، وباعتبار المشروع لمدينته وعاصمته، وانشئت الجامعة سنة ١٩١٨. وقد اعتمدت الانكليزية ولغات اخرى، منها الاوردية والهندية، للتعليم في الجامعة الجديدة، واسمها الجامعة العثمانية.

على ان المهم، بالنسبة للتاريخ العربي والحضارة العربية الاسلامية ليس ما تتبعه الجامعة من مناهج، وهي في الكثير منها تقليدية، بل في نشر المخطوطات العربية القديمة. كنا نعرف عن الذي يحققه قسم النشر في الجامعة العثمانية في حيدر اباد الدكن. لكن لما دخلت القاعة الواسعة ورأيت هؤلاء العاملين، شيبا وشباناً، هنوداً ويمنيين وحضارمة ومصريين وسوريين، مكبين على المخطوطات يحاولون حل رموزها، ويجربون تخريج الكلمات وتفسير العبارات وشرح الافكار. لما رأيت هذا كبر العمل في نفسي وتضخم. زرت القاعة مرتين، وكانت كل زيارة تزيد عن الساعتين. وتحدثت الى الباحثين والمشرفين. وتذكرت ان الكتب التي نشرت في العقود السابقة لزيارتي كان العمل فيها قد تدنى عما سبق وظهر هناك من قبل. ولماذا؟ ان المحققين الذين يقومون بالعمل ايام زرت الدار ناقصو التدريب قليلو الخبرة. ولا يمكن للدار أن تتقدم وتنتج العمل الجيد الا بدعم مالي ضخم واقدام القادرين على العمل بالذهاب الى الجامعة العثمانية للعمل والارشاد والتدريب.

لكنني، مع ذلك كله، اكبرت هذا العمل وحييته يومها، وانا اكبره الآن واحييه وانا ادون هذه الكلمات.

نعمت في حيدر اباد بصحبة حسن العسكري وخوند ميري من اقطاب التدريس في الاسلاميات هناك. وقد مر بي العسكري في بيروت مرتين فيما بعد. وانتهى الامر به بالتدريس في احدى جامعات المانيا.

اسبوع في حيدر اباد، وكانت بومباي وجهتي التالية. لكن حسن العسكري وصديقه استاذ الفلسفة في الجامعة، خوند ميري، كانا قد وعدا استاذة علم السياسة في جامعة جايبور بمحاضرة مني عن الشرق الأوسط. ولا سبيل للرفض. وكان ان نقلتني سيارة الى جايبور عاصمة سلطنة راجستان سابقاً. وراجستان بلد فيه اجمل ما انتج الفن الهندي قصوراً انيقة وحدائق رشيقة ومنتزهات بديعة وملاعب فسيحة؛ تزينها جميعها، وهي مبنية اصلاً بذوق، زخارف جمعت دقة الفن الهندي والفارسي. ففي كل زاوية مفاجأة فنية، وفي كل جدار صورة، وفي كل قصر رسم تكاد تتقرّاه يداك بلمس، هذا عندما تعجز العين عن تبين خطوطه الأساسية والوانه المعبرة وصناعته المتقنة. وقد تفضل علي زملاء قسم العلوم السياسية في الجامعة، فضلاً عن الضيافة الكريمة البسيطة، فرافقوني في زيارة لأكثر من قصر واثر، ويسروا لي أن أتناول الطعام في واحد من هذه القصور على مقربة من جايبور، حول الى فندق فخم يأسر القلب زخرفه ويثير الشجن فنه ويحملك الى آفاق بعيدة جمال حدائقه الغناء.

وبعد ليلتين في جايبور قصدت بومباي بالقطار. كانت كلية الآداب وكليات اخرى تنقل الى مبان اضافية

بقصد التوسع، فلم أنعم برفقة زملاء. زارني مساعد المسجل، وهو، بالمعنى البريطاني - الهندي، مساعد المدير الاداري للجامعة، محيياً ومعتذراً (وكان الأمر قد عرفته وانا بعد في حيدر اباد). على انني قضيت بضعة ايام في بومباي التي كانت تسمى، ايام شركة الهند الشرقية، بوابة الهند. تجولت في أسواقها وسرت في شوارعها ووقفت على مقربة من مرفأها الذي كان فعلاً مدخل بريطانيا الى الهند.

قال صديق لي في بيروت، وقد عرف انني قد أصل بومباي، التق هناك السيد العجل، قنصل سوريا في المدينة. واظن انه حتى تفضل فأعطاني رسالة الى صديقه. وفعلت ذلك. واود أن أسجل هنا، بعد عشرين سنة ونيف، ان الساعات - وكانت طويلة - التي قضيتها في صحبة الاخوين - القنصل التاجر والتاجر فقط - كانت من أمتع الساعات التي قضيتها في زيارتي.

وبعد ذلك؟ عودة الى بيروت

في سنوات ١٩٥٧ - ١٩٥٩ كنت مستشاراً لمؤتمر حرية الثقافة لشؤون الندوات التي تعقد في الشرق الأوسط. ونتيجة لذلك نظمت واسهمت في ندوات عقدت في رودس وبيروت والخرطوم وكراتشي وشيراز. بهذه المناسبة صدرت مجلة حوار عن هذا المؤتمر وتولى تحريرها المرحوم الأديب توفيق صايغ ولما اكتشفنا ان المؤتمر له ارتباط مشبوه مع مؤسسات خارجية منها الـ س. آي. اي الاميركية ومنظمات فيها رائحة الصهيونية اقفل توفيق صايغ المجلة، وتخليت أنا عن عملي واقفل مكتب المؤتمر في بيروت.

اذكر هذه الأمور لأنني عن طريق هذا المؤتمر تعرفت الى علي احسن احد مدرسي جامعة كراتشي في باكستان، والذي كان المسؤول عن مكتب المؤتمر في العاصمة الباكستانية. وفي واحدة من زيارته، في ربيع سنة ١٩٥٨ حدثني عن فكرة عقد ندوة في كراتشي بعنوان «سلام في العالم الحديث». وبعد ان عرضنا القضية على مختلف نواحيها، ورأينا أهمية الموضوع والتنظيم له، عرض علي أن أكون عضواً في اللجنة التحضيرية، على أن يكون ثلاثة أو أربعة آخرون من باكستان. وبذلك يكون تكليف عضو أو أكثر من المنطقة العربية، واجراء الاتصال اللازم، منوطاً بي بدل أن يتم ذلك من كراتشي. قبلت، وبعد مدة اقترحت عليه / الدكتور مكي شبيكة (من السودان) مع تقديم بحث والدكتور ملحم قربان (من لبنان) على أن يقدم هو الآخر بحثاً (وأنا اقدم بحثاً)، واقترحت على اللجنة دعوة الدكتور قسطنطين زريق (دون ارهاقه باعداد بحث) وتبادلنا رسائل عدة حول الموضوع. واخيراً عقدت الندوة في كانون الثاني / يناير / فبراير ١٩٥٩، في فندق المتروبول في كراتشي.

استطاع علي أحسن أن يجند فئة نافذة في باكستان للعمل في الندوة. كان هناك حبيب الرحمن وزير التربية والاعلام والاذاعة، و. ا. ك. بروهي، أحد كبار رجال القانون في باكستان واحد الذين عملوا بصبر واناة وعلم في سبيل اعداد دستور الباكستان. ثم وضع كتاباً ضخماً فيه تاريخ هذا الدستور. ولكن هذا الدستور كان، يوم زرنا الباكستان، قد اخفاه ايوب خان لما قام بانقلابه في خريف سنة ١٩٥٨، وتعرفت الى محمود حسين، رئيس قسم التاريخ في جامعة كراتشي. وكان سيد علي أحسن موتور الندوة - قبلها واثناءها وبعدها.

وكان ممن اسهم في هذه الندوة. فضلاً عمن ذكرنا، فون غرونيباوم واحمد همايون (ايران) ولورا فيشيا فالكيري (ايطالية) ومقطي علي (اندونيسيا) وآن لامبتون (بريطانية) وكيت كالارد (كندا) وا.م.ل. عزيز (سيلان / سيرالانكا).

في هذه الزيارة تعرفت الى حكيم محمد سعيد، وهو اخو حكيم عبد الحميد الذي عرفته في الهند فيما بعد. ومحمد سعيد يرئس مؤسسة همدرد في الباكستان ويعمل جاهداً لرفع شان الحضارة الاسلامية بكل نواحيها. وقد التقيت حكيم محمد سعيد مرات بعد ذلك: في بيروت وفي عمان. ولا أزال آمل أن أزور الباكستان مرة ثانية

لأرى بشكل خاص الذي تم في مؤسسته.

وكان علي أصغر، شفيق علي حسن، استاذا للغة الانكليزية في جامعة كراتشي. وقد ارتبطنا بصداقة متينة خلال اسبوعي الزيارة، ذلك انني اقمت هناك بعد المؤتمر. وطلب مني أن أتحدث الى طلابه عن الأدب العربي الحديث؛ وفعلت ذلك، وتحدثت حديث متأدب كثير القراءة؛ لهذا الأدب، لا حديث متخصص فيه.

والذي فوجئت به، لما دخلت غرفة الاساتذة قبل الحديث، وجه كنت قد تعرفت اليه في القاهرة، قبل قيام دولة الباكستان. هو الاستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي العالم بالعربية. وكنت قد لقيته في مكتب مجلة الزهراء لصاحبها محب الدين الخطيب. وكم سررت بلقائه ثانية. وكان يومها يشغل منصب استاذ اللغة العربية في جامعة كراتشي.

كانت اللجنة الموكلة بأمورنا قد رتبت لنا زيارات محلية. لكن الزيارة المهمة كانت الى تل الموتى في موهنجودارو. وقد كتبت بعد عودتي الى بيروت وصفاً لهذه الرحلة. قلت:

نحن في القطار، وفي عربة مكيفة الهواء. لقد غادرنا كراتشي قبل ساعات في منتصف ليل السادس من شباط ١٩٥٩، وها نحن نسرح الطرف فيما حولنا. ليس ثمة الكثير؛ شجرة هنا وشجرة هناك، وقد يحيط بالشجرة نبات، لكن ليس ثمة أشجار تتعانق ولا نبات يكثف، فنحن في جزء صحراوي او ما يشبه ذلك من السند.

والقطار الذي أتيح لنا أن نأخذه قطار بطيء، يأبى الا أن ينال كرمه جميع المحطات. ولكن هذه الساعات الطويلة في القطار كانت كسباً بسبب هذه الصحبة التي متعت بها خلال ٤٢٥ كيلومتراً بين كراتشي ودكرى. ومع نسمات السحر الباردة وصلنا الى المحطة. وكنا قد استبقنا وقوف القطار فغسلنا وجوهنا وحلقنا ولبسنا. فلما قيل لنا هنا المكان، نزلنا لنطعم، ثم لننتقل في السيارات الى تل الموتى.

وأشرفنا على المكان، فطالعنا عن بعد بناء مستدير يتوسط الأفق، وبدا لنا كأنه يتوسط السماء. وقيل لنا هذا هو المعبد البوذي الذي هدانا الى هذا الكشف الأثري العظيم.

ذلك بأن المسؤولين كانوا سنة ١٩٢١ يدورون بالمعبد البوذي المهجور ليطلعوا عليه وينظفوا البناء وما حوله، لما تبدت لهم آثار لا تمت الى المعبد بصلة. فأخذوا يخدشون الأرض ثم أخذوا يعمقون الجراح. وتولى أمر الحفر السير جون مارشال، فكان أن أتضح لأهل الآثار، في غضون سنين قصيرة، ان النطقة التي يسميها الناس تل الموتى (موهنجودارو) كانت قبل أربعة آلاف عام او يزيد مدينة الحياة بكل ما في الكلمة من معنى. وتتابع التنقيب الأثري، وكان كل كشف يزيح نقاباً عما خفي من قبل حتى كان كشف عام ١٩٥٠. وكان المشرف عليه السير مورتيمور هويلر، الذي أوضح معالم موهنجودارو بشكل عام.

فما الذي اتضح للناس من ذلك؟

وصلنا الى المكان في الضباح المبكر، وقضينا فيه ساعات نرقى مكاناً ونهبط الى آخر، ونستجلي اشياء تبدو ولا شك غريبة عندما تطرق مسامعنا أول مرة. لكن ليست القضية سماع قصة نقلها راوٍ عن ثانٍ عن ثالث. ولكن هنا الأثر، وهنا البناء، فلا بد من التصديق.

تقع انقاض مونهجو دارو - تل الموتى - على مقربة من نهر السند، في منبسط من الأرض يتعرض لأن يغرقه النهر اذا خطر له أن يغير مجراه، وما أكثر ما كان يفعل ذلك. ومن أجل ذلك رفع أهل المدينة المصاطب ليبنوا مدينتهم في أمان من النهر وفيضانه وتغيير مجراه. وكانت الأرض المحيطة بتل الموتى أرضاً تخترقها قنوات الري فتجعل منها، بدل التربة المهملة اليوم، أرضاً تنتج الخير الكثير لسكانها. فكان القمح والشعير والسمسم

والقطاني والشوفان وبعض القطن مما تجود به الأرض. والأرض تعطي متى اعتني بها، وتقفر متى أهملت. أما المدينة التي كانت تقوم هناك حول سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد فقد كانت مدينة كبيرة، وكانت حضارتها من النوع الذي عرفه العالم القديم في أحواض الانهار الكبرى في العراق ووادي النيل وما اليهما. وكانت أنواع الخزف تعرض في أسواقها للبيع، كما يبدو أن سكانها اتقنوا صناعة الآجر المشوي الذي استعملوه للبناء الرسمي والعادي.

كانت المدينة تتألف من قسمين. الأعلى والأدنى، والأول كان يقع في الجهة الغربية من المدينة، وينتشر في مستطيل يبلغ طوله من الشمال الى الجنوب نحو ٣٦٠ متراً، أما عرضه فنحو نصف ذلك. والجدير بالذكر أن هذا القسم كان في غاية التحصين، إذ انه فضلاً عن المصطبة الضخمة التي أقيمت لارساء الأسس عليها، نجد بقايا سور يبلغ سمكه في أسفله نحو ١٢ متراً ويدق قليلاً كلما ارتفع، ويتراوح ارتفاعه بين ١٠ و١٢ من الأمتار. ومع ان السور مبني من الآجر المجفف بالشمس أو التراب، فإن جداره الخارجي كان من الآجر المشوي بالنار، وهذا كان يحميه من الأمطار الموسمية الغزيرة. وكانت تقوم على مسافات متساوية فيه حصون مستطيلة بنيت بناء قوياً.

يدور هذا السور بأرض رفعت نحو عشرة أمتار عن المستوى الأصلي، بحيث تكون الأبنية المقامة عليها في مأمن من الفيضان. وقد أقيمت على هذه المصاطب البنايات العامة، سواء في ذلك الأبنية المدنية والدينية. ومن هذه خزان كبير للماء، وبيت لعله كان مقر حاكم المدينة، وبناء آخر لعله كان الديوان العام الذي يجتمع فيه أهل الشورى والإدارة.

أما القسم الثاني - الأدنى - من المدينة فتتضح لنا معالمه اذا ارتقينا مكاناً عالياً في القسم الأول يشرف عليه: إنه الجزء الشرقي من «موهنجودارو». إن آثاره، من البيوت والحوانيت، تمتد كيلومتراً ونصف الكيلومتر في اتجاه نهر السند، حيث تقوم في آخر هذه المسافة، مصطبة ضخمة توضح للنهر المدى الذي يستطيع أن يصل اليه دون أن يؤذي المدينة أو سكانها. ولم يكن نهر السند ليرضى بهذه الحدود دوماً، فما أكثر ما بلغت به سورة الغضب ان يتجاوز هذه المصطبة فيخرب ويحطم. لكنه لا يلبث ان يعود الى مجراه هادئاً باسماً مسالماً، وعندئذ ينشط القوم الى البناء ثانية والاستمتاع بنعمة هذا النهر الكبيرة.

لقد رأينا، ونحن واقفون على أطراف تحصينات القلعة وهي القسم الغربي من المدينة، بقية شوارع متوازية ومتعامدة في عرض نحو عشرة أمتار، تمتد أمامنا، وتقسم المدينة اقساماً متسعة متساوية تقريباً، كل منها نحو ٦٠ في ١٥٠ من الأمتار المربعة. وهذا الأمر يدل دلالة قاطعة على أن المدينة لم تنم نمواً عادياً على مر السنين، ولكنها كانت نتيجة تخطيط من صنع مهندس عليم بأمر تخطيط المدن. ولكل شارع مجاريه التي تمتد تحته وفق خطة هندسية وفن رائع بديع.

وفي لمحة عين عاثت اليد الشريرة في الأرض فساداً، فأزالت مدينة عظية من الوجود.

فهذه هياكل عظمية لرجال ونساء وأطفال ما زال بعضها يحتفظ بآثار سيوف وفؤوس، بعد أن صرعتها بها أيدي حشود بربرية غاشمة وتركتها على ما هي عليه الآن.

اما الندوة الأساسية عن الاسلام في العصر الحديث التي عقدت في كراتشي فقد كانت ناجحة جداً. وقد عثرت بين أوراقي على قصاصة جريدة فيها رسالة بعث بها، من كراتشي، مراسل جريدة «انباء ثقافية من اسيا» التي كانت تصدر في دلهي يقول فيها ان الندوة كانت جيدة ان من حيث المواضيع التي اثيرت او الابحاث التي قدمت او المناقشات العقلانية التي سادت الجلسات التي انعقدت. وقد كان للرؤساء الثمانية الذين تولوا جلسات الندوة الثماني دور كبير في المحافظة على مستوى رفيع. الى هذا كله يجب القول بأن الموضوع العام للندوة

«الأسلام في العالم الحديث» كان بحد ذاته امراً يهم الكثيرين.

كان البحث الذي قدمته للندوة يدور حول الاسلام والقومية. وقد قالت صحيفة الانباء الثقافية (الهندية) بلسان مراسلها في كراتشي ما خلاصته: لعل البحث الذي قدمه نقولا زياده نال أكبر حظ من المناقشة الدقيقة من اي بحث آخر. واحسب ان ذلك يعود الى طبيعته فضلاً عن القضايا التي اثارها. فقد كان النقطة التي دار حولها النقاش، وهي التي قصدتها من بحثي، هي: ما دام الاسلام يعتبره المسلمون قومية، اي أن هناك امة اسلامية، فكيف يمكنهم أن يقبلوا بوجود قومية أخرى، هي القومية العربية. ولا يمكن للقومية العربية أن تقف على رجلها وان تصبح نقطة انطلاق الا متى تخلص المسلمون العرب من تفكيرهم الخاطىء بأن القومية العربية والاسلام شيء واحد. وهما شيئآن. فالاسلام، اذا اعتبر مظلة قومية فانه يظلل جميع المؤمنين به بقطع النظر عن لغاتهم وثقافاتهم الاصلية (ولنترك جانباً الأصول الاثنية او العرقية)، وهذا معناه ان يكون العربي والاندونيسي مثلاً أعضاء في ناد واحد. واين يقف العربي المسيحي (وأين يقع بالمثل الافريقي الوثني الذي يعيش في دولة اكثر سكانها مسلمون).

والأمور التي اثيرت حول هذا الموضوع، وقد ورد بعضها في البحث أصلاً، هي: الليبرالية في التصرف والتفكير، والعلمانية وملابساتها ووضع الباكستان. فالباكستان قامت على أساس ان المسلمين ارادوا أن تكون لهم دولة خاصة بهم. فلما قامت هذه الدولة كان فيها اقلية كبيرة العدد من غير المسلمين كما ان عدداً من المسلمين ظل يقيم في الهند. فرداء القومية الغربي الذي سحبته الباكستان عليها لما استقلت، وكان السحب قد بدأ من قبل، ظلت فيه ثغرات وثقوب. فلا هو ارضى جميع المسلمين ولا هو غطى غير المسلمين.

ومن هنا فان العلمانية، بما فيها من تحرر وتحرير، هي السبيل الوحيد لاعتماد القومية العربية مثالاً اساساً لحياة سياسية اجتماعية متحددة تجمع بين المسلمين والمسيحين من العرب. وهكذا دواليك فيما يتعلق بالقوميات الاخرى التي اعتنق افرادها وشعوبها الأسلام.

اثار الموضوع الذي طرحته عاصفة من النقد والمناقشة. لكن جوهر الردود علي كان يدور حول رفض فكرتي اي ان القومية - والقومية العربية كانت الموضوع الأساسي - تتعارض مع الاسلام. ان ما جاء به أكثر المتكلمين هو ان الاسلام يحتضن القوميات الأصغر. ونحن لم نختلف حول الاحتضان. لكنني اردت أن يبين القوم لي نوع هذا الاحتضان ومعناه. ولكنهم لم يستطيعوا لأن الفكرة اصلاً خاطئة. القومية هي اصلاً علمانية. فهل يمكن للاسلام ان يتعلمن؟

لما كنت في طريقي الى الهند للمرة الأولى (١٩٥٨) توقفت يومين في طهران. زرت المدينة التي عمل الشاه رضا بلهوي وابنه (١٩٢٤ - ١٩٧٩) على تجميلها وتوسيعها. وكان لي اجتماع مع فارمانيان المسؤول عن مؤتمر حرية الثقافة هناك لنرى ما الذي يمكن عمله في سبيل ندوة أو مؤتمر يمكن عقده في ايران.

وفي طريق عودتي من الباكستان في شباط / فبراير ١٩٥٩ توقفت في طهران ثلاثة ايام حيث انتهى بنا الأمر الى اتخاذ قرار لعقد ندوة في شيراز تدور حول «دور النخبة في تطوير الحياة الفكرية في البلاد». وعلى غرار ما حدث بالنسبة للندوة التي كنا قد انتهينا منها في كراتشي، كلفت أن أكون عضواً في اللجنة التحضيرية لاعداد المفكرة اللازمة. لكن الذي حدث كان أن رتبت أنا تقريباً كل شيء يتعلق بالندوة، وعقدت الندوة في سنة ١٩٦٠ وفي الربيع.

كان جميع المساهمين في الندوة من ايران، وقد قدمت جميع الاوراق باللغة الفارسية. القيت انا، بوصفي ممثلاً لمؤتمر حرية الثقافة، كلمة الافتتاح. وكنت قد طلبت من وكيل كلية الآداب في جامعة شيراز ان يزودني

بشاب يجيد الانكليزية ليساعدني. وقد لخص لي الأوراق التي قدمت وكان يزودني بخلاصات للمداخلات اثناء الجلسات. لذلك تمكنت من القاء كلمة الختام بالانكليزية محتوية على المشكلات التي اثيرت والحلول التي اقترحت.

وجمعت الأوراق، ونشرت التوصيات. ولكن، على ما عرفت من رئيس الندوة فيما بعد، انتهى كل شيء عند ذلك. فالنخبة، كائنة ما كان موقفها ورأيها، لا مكان لها في بلاد المنطقة - عربية كانت أم ايرانية. فقد انتهت ندوة الخرطوم (١٩٦١) الى مثل هذه. اذ ان الأنظمة القائمة في منطقتنا لا يتسع صدرها لأي توصيات تصدر عن أهل الفكر. وجل ما يسمح لهم في تلك العقود هو ان يجتمعوا ويتكلموا ويقدموا توصيات كي تلقى في سلال المهملات.

لكن الذي أفدته انا شخصياً من تنظيم هذه الندوة وعقدها هو انني قضيت أياماً ممتعة في شيراز واياماً اخرى في اصفهان. فقد عقدت الندوة في الربيع.

فنزلنا شيراز في نيسان والورد فيها ريان، فامتلأت النفوس بما كان يعبق في ارجائها من اريج، ومتعنا النواظر بجميل الحدائق. على أننا لم نكن في حديقة فحسب، بل كنا في دار علم. فهذا هو الاسم الذي عرفت به شيراز منذ قرون طويلة. فقد كانت حلقات العلم تعقد في مسجدها الجامع منذ أواخر القرن الثالث هـ/ التاسع م. لكن منذ القرن التالي عرفت شيراز منازل خاصة للتعليم ودوراً تقام للحديث والتفسير وغيرهما من فنون العلم وضروبه. وقد أتيح للعلم واهله من الأحوال الخاصة ما مكّن للمدينة من المحافظة على سمعتها، والاستمرار في رسالتها: فمن ذلك عناية حكامها في غالب العصور بتشجيع العلم والعلماء، حتى لكان كلا منهم يعتبر نفسه حامياً لهم. ومنها ان المدينة جُنِّبت، بفضل بعد نظر حكامها وامرائها، غزوة المغول بقيادة هولاكو والحملة التيمورية.

واتيح لشيراز ان ينبغ من ابنائها سعدي وحافظ، وهما من اكبر شعراء الفرس القدامى ان لم يكونا أكبرهم اطلاقاً. ولا شك ان هذا حفز الكثيرين من ابناء المدينة على محاولة تقليدهما.

وكانت شيراز من مراكز الحركة الصوفية الكبرى. ولست أريد الإطالة في تعداد ما عرفته المدينة وخبرته من معاهد العلم في تاريخها الطويل. ومن ثم فانني اكتفي الساعة بالاشارة الى مدرسة يِ خان التي تشغل رقعة طولها خمسون متراً ويقرب عرضها من ذلك.

كانت هذه المدرسة مؤلفة من أمكنة لاقامة الطلاب الذين يقصدونها للدرس. وهي من مدارس القرنين الثالث عشر والرابع عشرم.

في القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م زار شيراز كبير الرحالة المسلمين، ابن بطوطة، فدون انطباعاته عنها بقوله: «ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الأرجاء، شهيرة الذكر منيفة القدر، لها البساتين المونقة والانهار المتدفقة، والاسواق البديعة، والشوارع الرفيعة. وهي كثيرة العمارة، منقتة المباني، عجيبة الترتيب. واهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم. اهلها حسان الصور، نظاف الملابس. وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها ومبانيها وانهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز. وهي في بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات. وتشقها خمسة انهار... ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق، وهو أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء، وصحنه متسع مفروش بالمرمر... ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كلَّ عشيّة، ويصلون به المغرب والعشاء.

«وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصاً نساءَها. وهن يلبسن الخفاف ويخرجن ملتحفات متبرقعات».

وأنت تدور في شيراز كما درنا، وتتنقل في ربوعها كما تنقلنا، فتجد نفسك في جو يعبق بالسحر، كما يعبق بالأريج. اما السحر فمصدره ان شيراز هي مدينة الأولياء والشعراء. ولسنا نقصد بالأولياء أولئك الذين تملأ قبورهم رحاب الأرض من عهد عاد، بل أولئك الذين صرفوا عمرهم مقربين الى الله، يستشعرون في ذلك ارتباطا بين المخلوق والخالق، معبرين عن هذه الرابطة بهذا الادب الصوفي الكريم القوي اللطيف. فهو كريم بسبب طيبة عنصره؛ وهو قوي بسبب دفعه وزخمه؛ وهو لطيف بسبب اسلوب تعبيره. ولن نطيل على القارىء فلا نعدد أولياء شيراز بل نكتفي بالاشارة الى ابن خفيف من اهل القرن الرابع هـ/ العاشر الميلادي.

ويبدو أن مركز الحياة الأدبية الذي كان قد اتجه شمالاً وشرقاً عاد، في القرنين السابع والثامن هـ/ (الثالث عشر والرابع عشر، الى الجنوب وتمركز حول شيراز. فهي فضلاً عن المتصوفة الكبار انبتت شاعرين كبيرين هما سعدي وحافظ. والاثنان علمان من اعلام الأدب العالمي. وقد تحدث كل منهما عن شيراز في شعره.

ولد سعدي في شيراز. وهناك خلاف بين ان يكون مولده حول سنة ١١٨٥ م أو بعد ذلك ببضع سنوات. وعلى كل فقد توفي، على المرجح سنة ١٢٩٢. والواقع فان حياة سعدي يحيط بها الكثير من الغموض. فالرجل ترك بلده الى بغداد وهناك التحق بالمدرسة النظامية التي كان قد أنشأها نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور. وقد لقي سعدي هناك (شهاب الدين ابو حفص) السُهرَوَرْدي (١١٤٥ ـ ١٢٣٤). وقد كان هذا شيخ الصوفية ببغداد، وكانت شهرته بالوعظ والحديث (وهو بهذه المناسبة مؤلف «عوارف المعارف» في التصوف).

وذهب سعدي الى سورية. وروى أنه ألقي عليه القبض وكان في اسر الصليبيين، ولعل هذا كان سنة ١٢٢٩ او حولها. وقد روى سعدي عن هذه الحادثة ما يلي: «مللت عشرة أصدقائي الدمشقيين، فاتجهت نحو بيت المقدس، واقمت في صحراء قريبة منها (لعل المكان الى الشرق من المدينة على السفوح التي تنحدر نحو البحر الميت على مقربة من دير مار سابا ـ زيادة). هناك أنست بصحبة الوحوش. ثم جاء الوقت الذي أخذني فيه الفرنج أسيراً. وقد وضعوني مع يهود في خندق قريب من حلب، حيث كنا نحفر التراب ونخرجه من الخندق.

«وفي أحد الأيام وقعت عين أحد مواطني حلب الكبار علي، وكنت أعرفه، فعرفني، وأستفسر عن الوضع بقوله «ما هذه الحياة» فأجبته شعراً.

هربت من الناس الى الجبل والسهل
إذ لم أجد في البرية ما يمكن أن يفيدني
كيف حالي؟ ألق علي نظرة وأنا في هذه الحفرة
حيث يتوجب عليّ أن يجهدني العرق مع رجال
وهم ليسو رجالا

«ويبدو أنه انزعج لما أنا فيه، فافتداني بعشرة دنانير، وحملني معه الى حلب، وهناك ازوجني ابنته مضيفاً اليها هدية قيمتها مئة دينار. وقد مر بنا بعض الوقت».

ويستمر سعدي في رواية قصته مع زوجته. فقد كانت صفيقة متعنة سليطة اللسان بحيث اشارت الى ان اباها هو الذي افتداه بعشرة دنانير. وكان هذا سؤالاً فاجابها «أنا هو ذلك الرجل الذي انقذه ابوك من الفرنجة وسلمني اليك رقيقاً بمئة دينار».

وعاد سعدي الى شيراز. وهنا أخذ يقص اخبار رحلاته البعيدة والقريبة ويروي انباء مقابلاته. وقد شك معاصروه والذين جاءوا فيما بعد في الكثير من رواياته. إذ أننا لو قبلنا كل ما قال وروى، على ما رأى دارسوه، لتعبنا ونحن نتعقبه من الهند الى مصر ومن افغانستان الى آسية الصغرى ومن الحبشة الى المغرب الأقصى.

لسعدي شعر كثير، ويكفيه للحفاظ على مكانته الأدبية انه صاحب جلستان وبستان. لكن له فضلاً عن ذلك

ديوان. وليس المكان هنا للتحدث عن شعر سعدي، بل عن شيراز. لكن لا بد لنا من ان ننقل هذه المقطوعة (عن الانكليزية، ولذلك فان الدوار سيصيبها مرتين. الى ذلك فانها قطعة شعرية ينقلها نثراً شخص لا هنا ولا هناك). والمقطوعة عن شيراز. قال:

قلت لنفسي «الآن سأجوب العالم حراً
وقد قطعت سلاسل استعبادي وانطلقت حراً.
ألا يوجد هناك، خارج فارس، بيت آوي اليه؟
ولا في بلاد الروم أو الشام أو البصرة أو بغداد؟
لكنني اكتشفت ان شيئين (اثنين) يتمسكان باهداب ثوبي
تربة شيراز وفضة رُكنا المترقرقة
(ورُكنا هو نهر شيراز).

وحافظ من أهل القرن الثامن عشر (الرابع عشر)، وهو شيرازي النشأة والتربية والتعليم والعمل والاقامة. وهو الى كونه أحد كبار الشعراء، فانه صوفي النزعة. وقد وصفه ميرزا محمد قزويني، احد كبار النقاد الأدبيين في الأدب الفارسي، في القمة القمة من شعراء العصر الحديث (بالنسبة الى العصور الكلاسيكية).

ولد حافظ في شيراز حوالي السنة ١٣٢٤ وتوفي فيها سنة ١٣٨٩. وكانت شيراز وأصفهان ويزد وبقية مدن فارس (فَرس) وارجائها تنتقل من يد الى يد مجرد ان يتمكن سيف الواحد من المطالبين من رقبة خصمه. لكن الشخص الذي عاش حافظ في كنفه بعض الوقت هو شاه شجاع الذي توفي سنة ١٣٨٤ بعد ان حكم نيفاً وربع قرن. وعلى كل لم تكن كلها مريحة. وكان آخر من ظهر على المسرح تيمور، لكن شاه شجاع استرضاه بهدايا ثمينة وواحدة من بناته. ثم انقذه الموت مما هو ألعن.

يمكن القول بان حافظ كان الشاعر الخاص بالبلاط. لكن بعد وفاة شاه شجاع وجد نفسه وهو في نحو الستين من عمره يبحث عن ركن يأوي اليه. لكن كل ما استطاع ان يصل اليه هو أن ينسخ للآخرين قصائدهم. الا أنّ ايامه لم تكن هينة عليه، ولم يكن بين أهل الثراء من تنبه الى مكانة الشاعر أو حالته.

وقبل ان يموت حافظ لقي تيمور، الذي كان يعرف شعره وقدره. ويروى أن تيمور منح أهل شيراز الأمان على أنفسهم. ثم صدرت اللوائح التي تحمل اسماء الملاكين للعقارات في شيراز، كي يدفع كل منهم ما يتوجب عليه. ولأن حافظ كان يملك بيتاً في حي من أحياء المدينة، فقد توجب عليه بموجب هذا الحق أن يقوم بدفع ما عليه من الغرامة التيمورية ولو أنها سميت التعويض (عن الأمان).

رفع حافظ الأمر الى تيمور راجياً اعفاءه لأنه مُفلس: لكن الأمير ذكره بأبيات من شعره جاء فيها انه اذا قبلت هذه التركية من شيراز ان تحتضن قلبي بيديها فانني أدفع ثمن شامتها بخارى وطشقد وحتى سمرقند؛ فالرجل الذي يستطيع ان يقدم بخارى وسمرقند ثمناً لشامة واحدة لا يمكن ان يكون مفلساً. فأجاب حافظ حالاً «انه بسبب هذا البذخ والاسراف أصبحت مفلساً». وبسبب هذا الجواب الحسن أعفاه تيمور من دفع ما عليه، وأطلق سراحه.

كنت قد سمعت عن شيراز انها مدينة الورود والرياحين. ولما نشر آرثر ج. اربري كتابه عن شيراز (أوكلاهوما، ١٩٦٠) سماها مدينة الأولياء والشعراء. ولما زرتها (مع أصفهان) سنة ١٩٦٠ لم أدر ما هو الاسم الذي يمكن ان أطلقه على الواحدة أو الأخرى. ولأنني تحيرت لم أقرر، ولم أقرر بعد. لكن الزيارة لهاتين المدينتين أعتبرها أنا امراً ضرورياً لمن يريد ان يرى للفن اثاراً. في شيراز أشياء كثيرة لكن قبر حافظ في المدينة وقبر

سعدي خارجها يذكران الزائر بانه يزور قبرين لشاعرين - بناء وازهاراً.

ثم انني هبطت اصفهان فهبطت رياضاً غناء وحدائق فيحاء، ونزلت بين ورد ورياحين. ذلك أول ما يطالعُك من هذه المدينة التي قست الطبيعة على ما يحيط بها على بُعد فجففته، وحَنَتْ على اصفهان وارباضها فاغدقت عليها الماء نهراً كبيراً، فرويت الزروع وأيْنَعت الزهور وراقَ المنظر.

لكنني لم أكد أدخل المدينة حتى وجدت عجباً. ذلك بأن أصفهان انما هي متحف حي للفن. فهذه المساجد والقباب والمدارس والأقواس تتحدث عن مهارة واتقان اقتربا من الكمال ان لم يكونا قد بلغاه.

ووقفت في ميدان شاه، في وسط المدينة، وكانت الشمس تهم بالمغيب فرأيت اشعتها الاخيرة تجرر ذيولها على قبة مسجدي شاه ولطف الله فتتعلق الوان هذه بتلك الأشعة، فيبدو للناظر منظر من أروع ما يمكن ان يعثر عليه. ووقفت في المكان ذاته صباحاً، وكانت الشمس قد اختلست غفلة الناس او التهاءهم باعمالهم فسرقت من القبتين قبلة احمرتا لها سروراً وبهجة، فاختلطت الوان الحب بالوان الأمل بالوان الغضب بالوان الحقد، فكوّنت قَوْسَ قُزَح، لكنه كان على الأرض لا في السماء.

ولعلنا نحسن صنعا، أيها القارىء الكريم، ان نحن رجعنا بعض الوقت في التاريخ، لنتحدث عن هذه التحف الفنية في أصفهان كما كانت ايام عني بها بناتها ومهندسوها والمتعبدون والمتعلمون. ولنقف في هذا الميدان في أوائل القرن السابع عشر للميلاد، أي قبل نحو ثلاثة قرون. ويومَها صاحب الأمر في ايران الشاه عباس الصفوي (١٥٨٧-١٦٢٩) وعاصمة ملكه هي اصفهان. هذا ميدان طوله خمسمئة متر في مئة وخمسين، وفي طرفيه الشمالي والجنوبي ركّازات يستعملها لاعبو الكرة والصولجان. وتدور بالجهات الأربع من هذا الميدان هذه الأبنية الانيقة الجميلة.

هذا الشاه عباس يحاول ان يجعل من عاصمته دُرَّة فنية. فها هو يقيم في الجهة الشمالية من الميدان القيصرية، حيث كان يتبادل التجار أحمالهم واثقالهم. لكن البوابة التي تنقلك من الميدان الى القيصرية تحمل افاريز تؤرخ بالصور لحروب الشاه عباس ضد الأُزْبك. ومع انها قد خبا بعض لونها بسبب الشمس والهواء، فانها لا تزال تبْهرُ الابصار. وتعلو البوابة نفسها فسيفساء متقنة الصنع تمثل الصياد الرامح الذي تقع اصفهان، فيما يرى المشارقة، في برجه. وهكذا جمعت بوابة القيصرية بين الفن والاسطورة، فالصياد الرامح كان رمزه مخلوقاً نصفه انسان ونصفه نمر ذنبه أفعى كبيرة، وتبدو عمل يد صناع افرغت فيها المهارة كلها.

فاذا وجَّهْنا وُجْهَنا نحو الشرق، ونحن وقوف في الميدان، وجدنا أمامنا مسجد الشيخ لطف الله! وقد استغرق بناؤه قرابة العشرين عاماً. وانت اذ تلتفت اليه تحار أين تركز نظرك للاستمتاع بالجمال. فالمدخل جذّاب بالوان الطلاء، والقبة التي تقتعد الجزء المتوسط من المسجد تخطف الأبصار بالخط والرسوم الانيقة، فضلاً عن انها تكسب الناظر اليها راحة وهدوءاً، بسبب ما فيها من اتساق وانسجام، لوناً وشكلاً وهندسة. ولست أبالغ اذا قلت ان هذه الجوهرة الفنية لا يمكن ان تدرك قيمتها الا بالوقوف امامها والتملي من رؤيتها شخصياً.

اما في الجنوب فترى، ونحن بعد في الميدان، مسجد الشاه. والبوابة الموصلة من الميدان اليه مرتفعة جميلة، مقرنصاتها تكسبها ظلالا تزيد في رقتها رقة، وفي حسنها حسنا. وقد استغرق بناؤها وزخرفتها اربع سنوات، إذ أنها كلها من الفسيفساء. اما ما تبقى من ابنية المسجد فقد زخرف بالآجر المطلي المعروف بالقاشاني أو القيشاني والمسمى في ايران هنترنغ أي ذي الالوان السبعة.

وهذا المسجد فيه من ثمار هذا الفن الجميل: البوابة والقبة الجميلة التي تنافس قبة جامع الشيخ لطف الله أناقة ورزانة، وقطع الرخام الضخمة التي استعملت للركائز في فناء المسجد، وفسيفساء باب المسجد التي تمثل

طاووسين يبدوان كأنهما طبيعيان، وأوعية الماء الضخمة المحفورة في قطع ضخمة من الرخام، والمنارة التي تنهد نحو السماء، وكأنها مثل حي على جهاد الفن وأهله في سبيل الوصول الى الله.

ولعل من أطرف ما يجب أن يذكر عن مسجد شاه هو أنك عندما تقف تحت منتصف القبة تماماً تستطيع ان تسمع صدى كل كلمة تتلفظ بها أو حركة تأتيها مهما كان الصوت خفيضاً.

وكان الشاه يطل من قصره المسمى «عالي قبو» فيشرف على هذه الأبنية الفخمة الجميلة، ويراقب ما يجري في الميدان لعباً كان ذلك أو استعراضاً أو فروسية. والقصر فيه سبعة طوابق أو أدوار، يختلف زخرف الواحد منها عن زخرف الآخر، والغرف والقاعات تختلف سعة وزخرفة، بين الزهور والأوراق والأشجار وبين الخطوط التقليدية. ولعل أجمل قاعاته هي قاعة الاستقبال الكبرى في الطابق الثالث. فسقفها مزين برسوم الطير بألوانها الطبيعية.

وليس هذا كل ما في أصفهان. فثمة مسجدها الجامع الذي يشغل تاريخاً معمارياً يمتد من القرن الحادي عشر الى القرن السابع عشر. وفيه من القاشاني ما يذهب بالابصار رونقاً وبهاء. وثمة قصور وقصور. ولعله مما يروق القراء الكرام ان يعرفوا ان الشاه عباس انشأ في اصفهان شارعاً طويلاً يمتد من شمال المدينة الى جنوبها وأقام عليه اربع حدائق غاية في التنظيم والجمال. ولا يزال الشارع قائماً الى يوم الناس هذا. واسمه لا يزال على ما كان عليه يومها جهار باغ.

وبعد ايها القارئ الكريم فاصفهان متحف. لكنها متحف حي للفن. انها متحف يقوم وسط حدائق غناء. فما أجمل الزيارة والمزار.

وهكذا فقد اتيح لي في فترات متلاحقة ومتقاربة ان أرى معالم اسلامية وغير اسلامية في ايران والهند وباكستان.

الفصل الثامن والعشرون

الا انني اردت ان يتم لي التعرف على معالم الحضارة الاسلامية، ولو من حيث ما تبقى من الآثار، في اسيا الوسطى. لذلك شددت الرحال (١٩٧٥) الى طشقند وسمرقند وبخارى وخيوه (خوارزم).

هناك يستطيع المرء أن يرى المنطقة التي تعرضت فيها الآثار الاسلامية للتأثير الصيني من حيث الألوان ومن حيث الخطوط. ولذلك فان ما تبقى من الآثار في بخارى وبقية الأماكن لا يريح العين فقط، ولكنه يملأ النفس خيلاء بسبب الاتقان والدقة، فضلاً عن بقايا تدل على الضخامة مثل أسوار بخارى وخيوه. وميادين طشقند وسمرقند ومدارسهما أشياء توضح لك معنى ما نقصده من قولنا حضارة عربية اسلامية. ففي بخارى مثلاً، حتى في الزمن الذي كان الفردوسي يحيي فيه اللغة الفارسية (البلهوية الحديثة) كان ابن سينا وخلفاؤه يدونون العلوم واخبار الفنون باللغة العربية.

وفي سمرقند، فضلاً عن المساجد والقباب التي لا تزال تعمر المدينة، فهناك بقايا المرصد الذي بناه اولغ بك (٨٥٠-٨٥٣هـ/ ١٤٤٧-١٤٤٩م)) كي يرصد منه الكواكب ويصحح بعض الجداول الفلكية. الى هذا كله فقد كنت، لما زرت طشقند، على مقربة من نهر طلس (طرس) حيث وقعت معركة، هي الوحيدة في تاريخ العرب، بين جيش عربي وجيش صيني (١٣٢ / ٧٥١). وقد انتصر العرب لكنهم لم يتابعوا انتصارهم. ولم يحاول الصينيون الانتقام. وقفت الحرب هنا، وحل محل القتال، شيء كان له اثر كبير في تطور الفكر في العالم. فقد كان بين الصينيين الذين اسروا في المعركة جماعة من الصناع بينهم صناع الكاغد (الورق). كان الكاغد الصيني معروفاً في المدن الاسلامية في تلك الجهات. لكن صناعته كانت سراً صينياً. اما الاسرى من صناعه فقد اخذوا بصناعته وعلموا اهل سمرقند سر هذه الصناعة. وبذلك عرف الكاغد هناك في القرن الثاني (الثامن) ووصلت صناعته خلال قرن ونصف القرن الى بلاد الشام. فقد روى المقدسي ان دمشق وطبرية كانت بين المدن التي يصنع فيها الكاغد.

على ان الذي اود أن أقوله انني في زياراتي جميعها لم أكن انظر الى هذه الأماكن - مدناً قديمة أم حديثة كانت أو مناطق - بالمفرق بل بالجملة: بالجملة من حيث ارتباط كل من هذه بالطرق الرئيسية ومن ثم بالتجارة والهجرات وتنقل الجيوش وسير الرحالين والحجاج وسواهم. والتعرف الى طبيعة المناطق وما تنتج، او ما كانت تنتج، وما تبيع او ما كانت تبيع، وما تشتري او ما كانت تشتري، وتطور الحضارة في اجزائها - كل ذلك كانت اموراً تعين على تفهم التاريخ وتطوره.

الى هذا كله كنت حريصاً على التعرف الى دور التاجر في نقل الافكار على تنوعها الى جانب سلعته على تباينها.

ذلك بأن الكثيرين يغفلون عن الوقت الذي كان التاجر - مهما كانت بلاده او متاجره - يقضيه في الطريق: مع الجماعة الكبيرة في السفر، وفي الخانات اقامة وفي الاسواق تعاملاً مع غيره من التجار. وكل من هؤلاء، مهما كانت درجته من المعرفة، كان لديه ما يرويه قتلا للوقت، ومبادلة حديث، وتسلية جماعة. هي اساطير وقصص

وروايات واخبار واغان يتبادلها القوم في مجالسهم مقيمين او متاجرين، ومع الزمن تكبر هذه وتترسخ وتدون وتصبح جزءاً من ثقافة السامعين والمشتركين وابنائهم واحفادهم. وتتبدل القصة والاسطورة والخبر روحاً وجسماً وشكلاً كي تتناسب مع الاجواء الجديدة. والمهم انها تترك اثراً في الناقل والسامع والوارث والناشىء.

فالتاجر القديم البطيء في تنقله، المتأني في تعامله، المتأني في حديثه، كان عاملاً اساسياً من العوامل المؤثرة في التطور الثقافي عبر العصور السابقة.

في ربيع ١٩٥٢ عنيت بقضية ترقيتي الى رتبة استاذ مشارك. كان الباعث على اهتمامي امران: الاول ان تلك السنة كانت السنة الاخيرة للاتفاقية التي عقدتها مع الجامعة. والترقية كان يومها معناها الدخول في سلك الخدمة الدائمة في الجامعة، بحيث ان فصلي منها لن يكون الا لدنية. ولم يكن الامر الثاني اقل اهمية. ذلك بانني عرفت خلال الفترة القصيرة - نسبياً التي مرت بي في الجامعة ان كثيرين كانوا دوني معرفة وعملا وانتاجاً كانوا قد وصلوا لا درجة الاستاذ المشارك فقط، بل الاستاذية (الكاملة). ولكن الدعم الذي كان يؤمل من جانب رئيس الادارة (نبيه فارس اذ كان عضواً في اللجنة الاستشارية لكلية الآداب والعلوم هذه بمثابة مجلس الكلية) لم احصل عليه. فقد اعتذر بانه بسبب الصداقة التي تربطنا فقد فضل موقف الحياد. ولكنني عرفت ان مدة عملي في الجامعة قد مددت، ودون قيد خاص بالزمن. على كل جاءت الترقية في السنة التالية (بدءاً من اول تشرين الأول / اكتوبر ١٩٥٤)

وكان نبيه فارس قد رتب امر سنته السباعية (١٩٥٣ـ١٩٥٤)، لذلك فقد قرر ان يتخلى عن رئاسة دائرة التاريخ فتولاها زين نور الدين زين. اما رئاسة برنامج الدراسات العربية فقد عهد بها الي وكالة. وقد نجحت في ادارة البرنامج، الامر الذي اغاظ الزملاء. لذلك لما غاب في المناسبة الثانية في جزء من السنة الدراسية (١٩٥٨ـ ١٩٥٩) عهد بادارة البرنامج الى زميل آخر. وقد فسر لي ذلك بقوله ان الوكالة اعطيت لأكبر الزملاء منصباً.

في السنة التي توليت انا ادارة البرنامج كان شارلي ملر (من دائرة التاريخ) قد عين عميداً بالوكالة لكلية الآداب والعلوم. وقد عملت انا كثيراً في سبيل ايصاله الى ذلك المنصب، مع ان مقاوميه كانوا أكثر. وقد اتضح لي فيما بعد انني كنت مخطئاً. لكن ملر ذهب في اجازته السباعية بعد تلك السنة ولم يعد الى الجامعة. فقد نصح له ان يتدبر امره في بلاده.

كان مؤتمر الدراسات العربية تلك السنة (١٩٥٤) ناجحاً. فقد كان المحاضرون فيه جبرائيل جبور وابرهيم العريض ومحمود تيمور وميخائيل نعيمة. وكان من الحضور المميزين سنتها مارون عبود. فقد حرصت انا شخصياً على أن يكون بيننا.

لكن الشيء الأهم الذي تم في تلك السنة هو تجديد هبة روكفلر للدراسات العربية. كانت الفترة الأولى (لثلاث سنوات) قد انتهت في خريف ١٩٥٢، وقد بدأت المفاوضات والمراسلات في سبيل تجديدها في ذلك الوقت. لكن الخطوة النهائية لم تتخذ الا في مطل ١٩٥٤؛ ذلك باننا لم ننفق كل المبلغ الذي منحناه من قبل (١٨٠,٠٠٠ دولار لثلاث سنوات) فكان بين ايدينا ما ننفقه. ولم تكن المفاوضات يسيرة ولا هينة. صحيح ان البرنامج كان ناجحا، وكانت عثراته قليلة. لكن هنات كانت قد تكشفت وكان اصرار من القائمين على المؤسسة بوجوب توضيحها. فضلاً عن ذلك فان العميد بالوكالة (شارلي ملر) لم يكن يحب ان انجح انا في المفاوضات. كان يريد ان يتركها الى حين عودة المدير الاصيل (نبيه فارس) لكن اصراري وحجتي وموافقة قسطنطين زريق (وكان نائب الرئيس للشؤون الاكاديمية) مكنتني لا من النجاح فحسب، بل ومن زيادة المبلغ بحيث اصبح

للسنوات الثلاث التالية ٢٢٤,٠٠٠ دولار.

فلما رجع نبيه فارس من اجازته السباعية في اواخر صيف ١٩٥٤، وجد كل شيء قد تم، وكان المبلغ جاهزاً للانفاق منه. بل انني كنت قد قابلت الطالبات اللواتي تقدمن للعمل في البرنامج وتركت له تقريراً عن كل منهن. فلما عاد اختار اثنتين، لا تزال واحدة منهما تعمل الآن امينة سر لدائرة اللغة العربية فقد نقلت اليها (بعد أن ذاب البرنامج).

عندما يفكر الواحد منا بالقومية العربية والعروبة وخاصة نحن الذين آمنوا بها ودعوا لها واليها، تتراىء له القضية كأنها مرت بادوار من حياتها مضطربة كاضطراب الداعين اليها. فقد كانت في دورها الاول في السنوات الاخيرة من القرن الماضي ومطلع القرن العشرين الامل الذي يدغدغ المتطلعين الى مستقبل جديد: مستقبل اساسه تجمع العرب الذين كانوا من اتباع الدولة العثمانية وعملهم في سبيل خلق جديد لشخصيتهم. هذا الخلق الجديد كان توجهه الاول نحو تنمية الشخصية العربية في اطار السلطنة العثمانية. لكن الحكام الاتراك انفسهم لم يدركوا هذه الفكرة ولم يفهموها. ومن ثم فقد حاربوها. لذلك تبدلت الزاوية التي نظر اليها العرب منها الى مستقبلهم، ورأوا الحل في الاستقلال عن الدولة العثمانية. انا واثق ان هذا لم يكن ينجر على جميع الداعين الى العروبة والقومية العربية، لكن لعل البعض منهم كان اقدر على نشر الفكرة. المهم ان القومية العربية كانت املاً يملأ النفوس والقلوب.

وجاءت الثورة العربية الكبرى (١٩١٦) تغذي هذه الآمال وتقويها. لكن النتيجة كانت دون الآمال بمراحل. بل ان الذي حدث في المشرق العربي كان مخيباً للآمال.

لكن الحديث عن العروبة والقومية العربية اصبح بعد ذلك خشبة الخلاص. فكلما اصيب الجسم العربي بجرح او كسر او انفكاك لجأ الى القومية العربية على انها العلاج. تحدث عنها الكتاب بين الحربين، ونظم فيها الشعر الحلال. كنا نقرأ هذه الأشياء فتسكرنا بسحرها وتحملنا على أجنحة الخيال ولا أقول الآمال.

ورغبة منا في أن نحتفظ بآمالنا حية منا كنا نبحث هنا وهناك عن قطر (أو زعيم) يجسد لنا هذه الآمال. والذي يمكنني أن أقوله، وقد عاصرت هذه الامور جميعها، هو اننا كنا نتحدث عن العراق انها بروسيا العرب. فبروسيا هي التي وحدت المانيا نهائياً. وكان العراق ملهمنا ومحط آمالنا.

وجاءت جامعة الدول العربية (١٩٤٥) فاملنا أن تكون الطريق الى الوحدة العربية على أساس القومية والعروبة. كانت آمالنا كبيرة، وكانت احلامنا أكبر.

لست أنوي التحدث هنا عن المشاريع التي وضعت - على الورق - للوحدة، ولا عن خيبة الآمال في جامعة الدول العربية. ولكن اود أن أشير الى أن بروسيا العرب انتقلت من العراق الى سوريا، مع فرق اساسي. الفكرة المتمثلة بالعراق كانت من صنعنا نحن - كتاباً وشعراء وشبابا نمثل آمالاً وندعو الى العمل. اما بالنسبة الى سورية في أواسط القرن الحالي فقد كان صاحب الفكرة اديب الشيشكلي الذي كان يصرخ في سبيل الوحدة نهاراً، ويعمل ضدها ليلاً. ألم يكن هو الذي حمل أعضاء مجلس النواب (البرلمان) السوري، في كانون الأول / ديسمبر ١٩٥١، على أن يقسموا في اجتماع ليلي بوجوب المحافظة على الجمهورية السورية؟

ومع ذلك فقد صرخنا، بأعلى أصواتنا، بأننا مع الوحدة.

وهنا - في أواسط القرن - ظهرت حول القومية العربية فكرة جديدة - هي احتكار الدعوة اليها والعمل في سبيلها. فالعراق خائن، ومصر لا تفهم القومية العربية، واذن فسورية هي المكان الوحيد الذي يفهم ويفسر ويوضح العروبة وما يدور حولها من اراء مرتبطة بالقومية العربية.

في سنة ١٩٥٢ قامت ثورة عارمة في مصر، وتزعمها، بعد تبادل في السلطة، جمال عبد الناصر. وتكلم عبد الناصر عن دوائر ثلاث: عربية وافريقية واسلامية. لكنه كان متحيراً اذ ليس لأي منها فلسفة واضحة او اطار محدد. وقد انشئت في سنة ١٩٥٥ جماعة عدم الانحياز. فانضاف بذلك بعد رابع لمحاو ر عبد الناصر. فأيها يمكن أن يتبع، وأيها يمكن أن يكون الاصلح والأنفع؟ ولمن؟

في سنة ١٩٥٤ انعقد في بيروت مؤتمر الخريجين. كان عملاً ممتازاً. كانت فيه هنات. لكنه عبر عن آمال الناس. كان المتخرجون المجتمعون في المؤتمر، وكان اميل البستاني المحرك الكهربائي له، هم خريجو الجامعات الموجودن في بلاد الشام والعراق، بقطع النظر عن الجامعات التي درسوا فيها.

والمهم في المؤتمر، في رأيي، لا يكمن في مقرراته التي نشرتها الصحف وحملها البرق الى انحاء العالم. المهم فيه انه كان احياء وتجسيماً لفكرة القومية العربية. لا يحسبن احد ان القومية العربية قد ماتت وان المؤتمر احياها. لا، لقد كانت حية وكانت لها مؤسسات ترعاها. العروة الوثقى في الجامعة الأميركية، وحركة القوميين العرب التي كانت ترضع او ما يقرب من ذلك، وكان يرضعها ويسندها جماعات وافراد هنا وهناك. يحضرني من الاسماء الآن علي ناصر الدين وجورج حبش عملياً وتنظيماً، وقسطنطين زريق وكاتب هذه السطور بشكل اقل صراخاً.

استقطب المؤتمر عدداً لا يستهان به. وكان ناجحاً بحيث ان قضية اقتناصه لم تغب عن العيون اليقظة.

كان قد تقرر أن يعقد مؤتمر الخريجين التالي (١٩٥٥) في القدس. قبل موعد الانعقاد ببضعة أشهر سرى في بيروت خبر خلاصته ان مصر تبرعت بمبلغ عشرة الآف جنيه لتغطية نفقات المؤتمر القادم، وانها ستساهم فيه.

كان الاسهام في المؤتمر سنة ١٩٥٤ شخصياً. لكن الأمر تبدل الآن. مصر لا تسمح بأن يشترك الناس في المؤتمرات بصفتهم الشخصية. اذكر انني لقيت اميل البستاني قبل انعقاد المؤتمر داخل البوابة الرئيسية للجامعة. اخبرني - او على الأصح أكد لي الخبر - ان مصر قدمت مبلغاً كبيراً من المال لتغطية نفقات المؤتمر، وان جماعة من الخريجين المصريين سيحضرون اجتماع القدس. كان جوابي، فيما أذكر، ليت التبرع لم يأت، وليت مصر تظل خارج اللعبة. يا اميل مؤتمر القدس سيكون آخر العهد بمؤتمر الخريجين على ما تم في العام الماضي. ابتسم ابتسامة صفراوية، كانت تميزه عندما يشعر بضرورة تحقير رأي أو على الأقل الاستهتار به.

عقد المؤتمر في القدس (١٩٥٥). وجاء من مصر وفد رسمي لحضور المؤتمر كان برئاسة الشيخ الباقوري، وزير الاوقاف. قيل ان العدد كان في حدود مئة وخمسين عضواً، توزعوا على اللجان المختلفة. وفي نهاية المؤتمر انتخب محمد جلال اميناً عاماً للمؤتمر. واذن فلتنقل مكاتبه الى الاسكندرية. وكان العمل الأول الذي قام به الأمين العام الجديد، لاثبات قوميته العربية، ان بعث الى الأردن وسورية مطالباً اياهما بأن يدخلا في صلب الدستور «ان الشعبين» هما جزء من الامة العربية. ولو كان الرجل قد قرأ دستوري البلدين لما جسم نفسه مشقة البرقيتين وارسالهما ونشرهما في الصحف. فالبلدان كانا قد ذكرا هذا في دستوريهما قبل سنوات.

والابتسامة الصفراء ظلت واقفة على وجه اميل البستاني لأن المؤتمر - مؤتمر الخريجين - ذاب على مهل.

والمهم، في رأيي، أن جماع ما دار في تلك السنوات (١٩٥٢-١٩٥٥) اظهر، لمن اراد ان يرى رؤية صحيحة، دون الحاجة حتى الى رؤيا، ان القومية العربية كانت حصاناً شارداً وكان الجواد بحاجة الى فارس يمتطيه ويقوده في السبيل الصحيح.

هنا تطلع عبد الناصر يمنة ويسرة: عروبة وافريقية واسلام وحياد ايجابي (عدم انحياز). حصان بحاجة

الى فارس. جاء الفارس وامتطى حصان القومية العربية الشارد، وطوعه. ومن هنا بدأ خط جديد في القومية العربية.

عبد الناصر اعتلى الجواد الشارد ولكنه استعمله لتقوية موقعه وتثبيت نفوذه وتقوية زعامته الشخصية ومكانته. (ومن هنا جاء فشل الوحدة بين مصر وسورية ١٩٥٨ - ١٩٦١).

انا لا أدون هذه الأمور للتاريخ. فانا هنا لا أؤرخ للعالم العربي. انا أدون هذه الاشياء لانها كانت سبباً في ازمة فكرية وروحية في حياتي. فانا عشت القومية العربية والعروبة فكرة واملاً نقيين يؤديان - او على الأقل قد يؤديان - الى قيام كيان يمثل الآمال والاماني التي كنا نحلم بها ونأمل في تحقيقها ونعمل، كل في مدى امكاناته، في سبيل ذلك.

ثم نرى (وقد اكون انا مخطئاً) زعيماً، كان في نظرنا املاً يجسم امانينا، يخضع هذا الذي حملناه بين ضلوعنا لتحقيق طموحاته الشخصية.

هذا هو الذي أصابني. لم أتنكر للقومية العربية ولم اكفر بالعروبة، لكنني ضممت ضلوعي على الفكرتين وصمت عن الدعوة لهما. وقد ظن بعض معارفي ولا اقول اصدقائي انني تركت العروبة جانباً، وانني جحدت القومية العربية. لا. صمت احتجاجاً على الزمن، واحتجاجاً على امتهان المثل وتسخيرها لأمور شخصية.

ولما تمت الوحدة بين سوريا ومصر كنت أشك في نجاحها. وقد قلت هذا لأصدقاء جمعتني بهم المصادفة في شباط وآذار / فبراير ومارس ١٩٥٨ في القاهرة. ولم تكن خشيتي من الفشل خشية من الفشل فقط، ولكن كانت خوفاً من أن الفكرة كلها قد يصيبها شيء من الوهن. ولما انفصمت عرى الوحدة بين القطرين وكنت يومها في فزان في ليبيا - شعرت كان شيئاً عزيزاً علي قد دفن.

تسترت على المي وتوقفت عن الدعوة الى العروبة والقومية العربية لانني كنت اربأ بنفسي عن أن اطبل والزمر في ما شعرت انه ماتم. ولكن كتاباتي تشهد انني لم اقبر الفكرة. اقول هذا لا دفاعاً عن نفسي، فأنا لست بحاجة الى الدفاع، ولكنني اغتنم الفرصة الساعة لأعبر عن شعور اقلقني أعواماً.

وكان أن تصدرت قضية فلسطين المحافل العربية - مؤتمرات واجتماعات وتصريحات وقرارات. وكانت القومية العربية والعروبة خشبة الخلاص التي يتمسك بها الفلسطينيون آملين، ويتشدق بها غيرهم مؤملين. وبين هذا وذاك تتآكل القضية وتتضاءل. فيما يقسم كل بانه سيصلي يوم جمعة - واي جمعة - في المسجد الأقصى، ويستجير بالعروبة لتحقيق ذلك.

انا ظللت قومياً عربياً. صمت، ولكن بعض الوقت، وعدت الى دندني اي التحدث عن عقيدتي. لكن انا لم أكن في حياتي عالي الصوت في هذه الأمور. كنت دوماً خفيضه، لذلك قلما يستشهد بي. لا في القضية العروبية ولا في قضية فلسطين.

قبل انعقاد مؤتمر الخريجين الثاني (والأخير) في القدس كان قد تم امران في الجامعة كان لهما، على المستوى الشخصي اثر في نفسي. الاول هو ان مؤتمر الدراسات العربية لتلك السنة ١٩٥٥ كان قد قرر ان يكون موضوعه الجامعة في العالم العربي. واختير كامل عياد (سوريا) ليتحدث عن فكرة الجامعة، وفؤاد افرام البستاني (لبنان) كي يستعرض تاريخ الجامعات في العالم العربي، وعبد الحميد كاظم (العراق) كي يبحث في وضع الجامعة الحالي في العالم العربي، وطه حسين كي يعرض للمؤتمرين مستقبل الجامعة في وطننا.

قبل انعقاد مؤتمر الدراسات بنحو اسبوعين اتضح بناء على استفسار برقي منا - ان عبد الحميد كاظم لن يحضر لانه سيرافق وفد بلاده الرسمي الى باندونغ (ليصنع مع غيره صف عدم الانحياز او جبهته) الذي

سموه (الحياد الايجابي) وانه لم يُعدَّ البحث. هو يعتذر لكن في حشرة من الزمن. اجتمعنا قسطنطين زريق ونبيه فارس وأنا. كان زريق المؤهل للقيام بالعمل لكن قسطنطين زريق كان رئيساً للجامعة بالنيابة (بعد وفاة بنروز المفاجئة). اصر الصديقان على إيكال المهمة لي. قبلت التحدي، ووضعت بحثاً لا ازال اراه جيداً حتى اليوم (ولست الوحيد الذي يراه كذلك).

اما الأمر الثاني فهو ان زين نور الدين زين زميلنا ورئيس دائرة التاريخ قرر هو، وسمح له، ان يتغيب سنة في انكلترا كي يتم عمله في رسالة الدكتوراه. وقد قررت الدائرة ان تعهد الي بادارتها في غيابه. (ويبدو ان الزملاء ندموا على ذلك اذ لم يختاروني رئيساً للدائرة الا سنة ١٩٦٥ فقد لجأوا الى عدد من الحيل كي يتخطوني. وحتى سنة ١٩٦٥-١٩٦٦ عادوا وندموا وطلبوا مني أن اعتزل والا فان العميد سيفصلني. واتضح لي من أقوال العميد بروثرو ان أحد الفريقين كان كاذباً - أما الزملاء او العميد. ولم اعن بتقصي هذه القضية، بل طلبت أن اعفى من الرئاسة.

كنت مع اسرتي (مرغريت ورائد وباسم) في القدس في شهر ايلول / سبتمبر ١٩٥٥، لما انعقد مؤتمر الخريجين (الثاني) فيها. وقد راقبت تطوراته عن كثب، من الفندق الذي نزلنا فيه (الفندق الوطني في باب الزاهرة) ومن الأحاديث مع الأصدقاء. ولم اشترك فيه، لانني لم أؤمن به، ولو انني كنت متحمساً - دون المساهمة - للمؤتمر الأول.

ومن قاعة الفندق الوطني والطرقات القريبة منه راقبت هذا الذي ذكرته عن ذوبان مؤتمر الخريجين، بعد انتقال مكتبه الى مصر.

لست أذكر ان السنة التي ادرت فيها دائرة التاريخ نيابة كانت ذات أهمية خاصة. فأنا منظم في أعمالي - وان كانت اوراقي الشخصية ليست منظمة ولذلك فان الأمور تجري في طريقها العادي. اظن ان الشيء الذي اتفق عليها فيما بيننا - نبيه فارس وانا - هو ان ندعو البرت حوراني ليحل محلي للسنة التالية (١٩٥٦-١٩٥٧) اذ تقرر ان اعطى السباعية تلك السنة. فانا الذي وجهت الدعوة له، ونبيه كان سيدفع نفقاته من برنامج الدراسات العربية (هبة روكفلر).

الا ان الوقت كان قد اقترب كي ارقى الى رتبة الاستاذية. وقد تحدثت الى العميد (فريد حنانيا) حول الموضوع في وقت مبكر من سنة ١٩٥٦. فأخذ فريد ورقة وكتب عليها اسم زين واسمي. وقال انتما تستحقان الترقية. هات لنرى انجازات كل منكما. كنت انا قد حصلت على الدكتوراة سنة ١٩٥٠ وكان زين يقضي تلك السنة في انكلترا ليحصل عليها (١٩٥٦). وانا كنت قد وضعت بضعة كتب ولم يكن زين قد ألف من الكتب شيئاً قط. وكانت لي مقالات علمية باللغة العربية والانكليزية وبحوث قدمتها لمؤتمرات (مؤتمر المستشرقين في استانبول ١٩٥١، ومؤتمر الدراسات العربية عندنا ١٩٥٥ وغيرهما). وكان كل ما كتبه زين بضع مقالات صحفية نشرت في بيروت. قال عندها فريد انت يجب ان ترقى حالا، لكن يا نقولا لا يمكن ان ترقى انت قبل زين. ولما ابديت استغرابي قال علاقته بالجامعة أطول (فقد دخلها تلميذاً ١٩٢٥ واستمر فيها تليمذاً ومدرساً الخ) وهناك اعتبارات اخرى. لم ارد ان احشر العميد حول الاعتبارات الاخرى، فقد كان بعضها يتردد على افواه العارفين والعارفات! ولما اقترحت ترقية الاثنين قال فريد هذا صعب!

ولنستبق الأحداث. ففي أثناء غيابي (١٩٥٦-١٩٥٧) في سباعيتي الأولى رقي زين. وعاد الى رئاسة الدائرة طبعاً. وكان المفروض أن أرقى انا سنة ١٩٥٨ (والتوصية ترسل عادة في اواخر السنة السابقة اي ١٩٥٧). وقد وثقت انا من ان الأمور تسير في طبيعتها لكنني فوجئت بين عيد الميلاد ١٩٥٧ ويوم رأس السنة

(١٩٥٨) برسالة من العميد الى زين جاء فيها ان اللجنة الاستشارية لم تر من المناسب ان يرقى نقولا زيادة الى درجة الاستاذية.

وكان هذا كافياً لأن أرفع صوتي. رفعته امام فريد وانذرته (الانذار كان موجهاً للجامعة طبعاً) بانني سأرفع شكوى لرئيس الجامعة فان لم ينصفني فالى مجلس الامناء (في نيويورك) فاذا خذلني هذا رفعت قضية امام المحاكم اللبنانية، وسأطلب من المحكمة ان تفحص جميع الترقيات الى رتبة الاستاذية خلال السنوات العشر السابقة كي يتضح لها الغبن الذي لحق بي في مقابل الترقيات غير الحقة التي تمت (ومنها ترقية فريد حنانيا نفسه!).

اعددت ملفاً كاملاً للقضية وحملته الى الرئيس بالوكالة يومها (سام ادجكومب)، عميد الزراعة. ويبدو ان سام رأى الحق الى جانبي، وذلك رآه الرئيس بول ليونارد لما عاد. وكان ان اشير الى اللجنة الاستشارية ان تلحس تواقيعها وتوصي بترقيتي. وكان فريد نفسه ينبئني عن كل خطوة. توصية اللجنة، موافقة مجلس العمداء على ذلك، موافقة الرئيس ثم موافقة مجلس الامناء.

كانت السنة السباعية (١٩٥٦-١٩٥٧) سنة اختبار وتجربة وتوسيع افق لنا كلنا. غادرنا بيروت في الاسبوع الاخير من شهر آب / اغسطس (١٩٥٦) بحراً الى البندقية مع شركة الادرياتيكا الايطالية. وكنا قد حجزنا في البندقية غرفتين في بنسيون ارشدنا اليه واحد زملائنا الاميركان في الجامعة الاميركية. كان مكاناً هادئاً مريحاً له حديقة كان يقدم فيها طعام الافطار. وكانت صاحبة البنسيون موظفة في مصنع لصنع الزجاج فأخذتنا يوماً لزيارة المصنع. وكم كان سرور مرغريت ورائد وباسم بذلك (كان رائد يومها جاوز في مطلع السنة الحادية عشرة وكان باسم يقترب من نهاية السنة السادسة)

زرنا في البندقية ما يزوره الناس من كنيسة القديس مرقس والمتاحف والساحات الجميلة.

وانتقلنا بعد اسبوع الى ميونخ بالقطار حيث رافقت افراد الاسرة في زيارة لمدينة اعرفها جيداً. واخذتهم لزيارة مدينة نورمبورغ ذات الأسوار الجميلة والأسواق القديمة. (في نورمبورغ عقدت جلسات المحكمة التي حاكمت مجرمي الحرب العالمية الثانية). وقضينا ليلة في ضيافة غودرون واسرتها.

كانت باريس المحطة الثالثة في رحلتنا. كانت حصة ميونخ اسبوعاً اما حصة باريس فقد امتدت الى عشرة ايام. كان يومها المرحوم الدكتور يوسف هيكل سفيراً للاردن في فرنسا. لكنه كان مشغولاً يومها فلم يتسع وقته لنا.

واخيراً هبطنا لندن. وأقمنا في مونت هوتل في غولدرز غرين وكانت مسز وايلمان قد حجزت لنا مكاناً فيه، كما سجلت رائد وباسم في مدرسة كرست في هندن. وكان من أول ما يجب ان نعنى به تسجيل الولدين في المدرسة وشراء الثياب المدرسية اللازمة للمحافظة على الزي الرسمي. فكان لكل منهما بدلة من الصوف رمادية اللون: بنطلون قصير وجاكته وقميص وربطة رقبة وطاقية وكلسات. وكان من الضروري، بعد ذلك، شراء بالطو لكل منهما فالشتاء على الأبواب.

كانت اقامتنا في الفندق مريحة. كنا نتناول طعام الفطور فيه، وكان كل منا يتناول طعام الغداء حيث يكون. رائد وباسم في المدرسة، مرغريت في مكان من الدنيا وانا في الجامعة او على مقربة من مكتب القيود العام، حيث كنت أراجع بعض الوثائق المتعلقة بالشمال الافريقي. اما العشاء فقد كنا نتدبر امره في المنزل او في مطعم قريب.

مرغريت، التي كانت قد عرفت لندن من قبل في أحوال مزعجة، استطاعت أن تتعرف اليها بشكل أدعى الى الفائدة والسرور. رائد وباسم سرا كثيراً في المدرسة. وسرا اكثر بالبرنامج الذي حددته لهما. ففي كل يوم سبت

كنت آخذهما الى جزء من لندن لزيارته. بعد الزيارة التي كانت تستغرق وقتاً طويلاً كنا نذهب لتناول الغداء في كورنر هاوس. وكان من هذه اربعة في لندن، وكل منها كان له اربعة طوابق وواحد تحت الارض. كان رائد وباسم يحبان هذا لأنهما كان يختاران اكلهما بنفسيهما وكانا يحملان الصينيتين كذلك. بعد الغداء كانت هناك زيارة لدار سينما تعرض افلام مكي ماوس. هما كانا يتفرجان، وكنت أنا، في الغالب، استريح بأن اغفو قليلاً. ونعود الى البيت بين الرابعة والخامسة مساءً. وتكون مرغريت قد ذرعت الشوارع وزارت المخازن الكبيرة وعادت لتسمع من الصغيرين تقريراً عن مشاهدتهما.

وعادت مرغريت الى ما فعلته في الزيارة الأولى من الانضمام الى رحلات المجلس الثقافي البريطاني في أنحاء لندن التي لم تزرها من قبل.

وآن لنا أن نغادر لندن. وكنا قد حجزنا من بيروت أماكن لنا على السفينة الملكة اليزابيت، التي كانت أكبر عابرات المحيط الأطلسي يومها.

ركبنا الباخرة في مطلع كانون الثاني / يناير ١٩٥٧ من ميناء ساوثهامبتون، واتجهت نحو شربورغ في فرنسا، وكان البحر عاصفاً، واستمر ذلك حتى بعد مغادرتنا المياه الفرنسية. ويبدو أن مرغريت والصغيرين اخذوا اقراص الدرمامين متأخرين. فاصيبوا جميعهم بدوار البحر. وأقاموا ليلتين ويوماً واحداً في الفراش، ولم يتناولا سوى الجنجرايل. لكن بعد ذلك هدأ البحر واشرقت الشمس وزال اثر الدوار فسر الجميع في سفرة دامت كلها خمسة ايام ونصف اليوم، الى أن وصلنا نيويورك.

الباخرة الضخمة كان وزنها ٨٣,٠٠٠ طن. سافرنا - طبعاً - بالدرجة السياحية. فكان لنا - نحن الأربعة - كابين خاص بنا. اما أماكن السرور فمنها قاعات ثلاث لركاب هذه الدرجة، وداران للسينما تعرضان افلاماً مختلفة، وأحواض للسباحة وأماكن للجلوس والقراءة والكتابة. واذ مر بنا يوم احد ونحن في عرض البحر، فقد ذهبنا لحضور القداس الالهي، وهو يقام في مكان للعبادة في جناح الدرجة الاولى، فاتيح لنا أن نرى قاعات واثاثاً ورياشاً من النوع الذي يراه الواحد في القصور الملكية او الاقطاعية في بريطانيا. وقد استضيف الجميع، بعد الفراغ من الصلاة، في قاعة استقبال فخمة حيث قدمت القهوة والشاي والحلويات للمصلين.

وحري بالذكر اننا عدنا ايضاً على ظهر الباخرة نفسها في صيف ١٩٥٧، وكانت الرحلة امتع. ولما ذهبت لسنتي السباعية الثانية (١٩٦٢-١٩٦٣) قطعنا المحيط الأطلسي ايضاً على ظهر كوين اليزابيت. اما في طريق العودة فقد انتقلنا يومها من نيويورك الى الدار البيضاء (المغرب) ثم جبل طارق فمسينا فنابولي. ومن نابولي عدنا بحراً الى بيروت.

كان الاتفاق للتعليم في هارفارد مع وليام لانغر، الذي كان يدير مركز دراسات الشرق الأوسط في تلك الجامعة. لكن لما وصلت هارفارد، واجتمعت الى سكرتير المركز النبيل تد لوكارد عرفت ان غب كان قد تولى العمل. فنحن كنا نعرف ان غب قبل ان يتخلى عن منصب استاذ العربية في اكسفورد ليقبل كرسي العربية في هارفارد مع ادارة المركز. وغب كانت لي به معرفة من قبل. تتلمذت عليه في معهد العلوم الشرقية (جامعة لندن) ١٩٣٥-١٩٣٦، وكان احد مناقشي في رسالة الدكتوراه (آذار / مارس ١٩٤٩) فضلاً عن اجتماعات معه كانت قد تمت في بيروت اذ كانت زياراته لها تتكرر. لذلك كانت زيارتي الاولى له للسلام وتجديد المعرفة. عدا هذا فقد كان تد هو الذي يدير الأمور.

هناك تعرفت يومها الى جورج مقدسي الذي اعتبر غب ان الحصول عليه كان انجازاً كبيراً. لكن بعد مدة اختلفا الى حد ان جورج مقدسي لم يمتنع ان يترك هافارد ويذهب الى فيلادلفيا (جامعة بنسلفانيا) كي يتخلص

من غب. وكان حول غب في المركز الزا لختنشتاين وشو (للتركية) و سنجيان (ارمني) وكان الى جانبه ا.ج. ماير الذي كان استاذاً مساعداً (في الاقتصاد) في الجامعة الاميركية في بيروت واحد مساعدي بنروز.

غب كان صاحب تسلط واستبداد في رأيه. كان يقول انه عندما يترأس لجنة يحضر الى الاجتماع وعنده القرارات، لذلك فهو ينتظر من اللجنة الموافقة. وهذا كان موقفه في ادارة المركز. وماير كان خادماً مطيعاً للسر هاملتون غب (فقد كان الرجل منح اللقب قبل الانتقال الى هارفارد) وكانت الزا كما كان شو يريدان خاطره. انا لم يكن دوري كبيراً. فأنا هناك لفصل واحد (اي نصف سنة) وانا كنت ادرس مساقاً واحداً. وكنت مسروراً مع طلابي، خاصة اولئك الذين كانوا في الدراسات العليا. كانوا يقبلون علي اقبالاً شديداً.

وصلنا الى نيويورك واخذنا القطار الى بوسطن. كان صالح احمد العلي ينتظرنا على المحطة مع رفيق له. كان منح خوري يستعد لامتحان في اليوم التالي لذلك لم يستطع أن يأتي الى المحطة.

كنا قد أستأجرنا بيتاً مفروشاً في ارلنغتون. لما وصلنا سررنا به كثيراً. كان بيتاً نظيفاً مرتباً غير معد للايجار. لكن صاحبته تذهب لقضاء فصل الشتاء في ميامي، فتؤجره في ذلك الوقت. وفي اليوم التالي جاءت ابنتها لترى فيما اذا كان كل شيء على ما نريد، ولتتم النقص ان كان هناك شيء من هذا.

كان الثلج يكسو الأرض. لذلك كانت مرغريت تطل - في صباح اليوم التالي - من الشباك لما عدت انا من ايداع رائد وباسم في مدرسة سيروس الجديدة القريبة منا - فلما دخلت قالت هذا ليس بيتاً واشجاراً وطريقاً - هذه لوحة فنية. وهذا كان هو الواقع.

الحي كان حي سكن. في الطريق الى ساحة هارفارد حيث كان مركز دراسات الشرق الأوسط، وعلى مسافة معقولة من البيت كان هناك سوبر ماركت معقول. وكان يبعث لنا بالاغراض التي نبتاعها. وفي الجهة الأخرى، على مسافة ابعد قليلاً، كان هناك سوبر ماركت اكبر. كنا نمشي له ونبتاع ونحمل نحن الأربعة اغراضنا.

ولما انتهى فصل الشتاء، وانتهى موسم سقوط الثلج، قامت بلدية ارلنغتون بكنس الشوارع من الرمل الذي يرش على الثلج. عندها ظهرت بهجة الربيع ومعنى الربيع في مكان كان مغنى من مغاني الجمال.

لقيت في هارفارد يوسف ايبش الذي كان يعد رسالة الدكتوراه هناك. وقد تتلمذ علي هناك كم كان قد تتلمذ علي في الجامعة الاميركية. وتعرفت على محمد عبد الحي شعبان. كان يعد للدكتوراه ايضاً، مع الاهتمام باللغة الفارسية وآدابها، لكنه كان أصلاً قد اهتم باللغة العربية في جامعة القاهرة حيث نال أول شهادتين جامعيتين (توفي سنة ١٩٩٢).

ذهبنا في شهر نيسان الى واشنطن العاصمة الاميركية. هذا موسم ازهار الشري التي اهدتها اليابان الى العاصمة الاميركية. تزهر هذه الاشجار في اوائل نيسان. ويعتبر هذا الوقت من الاوقات المناسبة لزيارة تلك المدينة. وقد سررنا فيها. وذهبنا، مرغريت وانا، الى البنتاغون حيث تغدينا بدعوة من أحد طلابنا السابقين في الجامعة الاميركية. ولكن سرورنا لم يتم. فقد شعرت بشيء من الضعف، ولم أعرف الا بعد عودتنا الى كمبردج (ارلنغتون) الى بيتنا انني اصبت بنزيف حاد في المعدة. فقد كنت أقاسي ألم القرحة، وانفجرت المعدة. ولم انتبه الى ذلك. لما عدنا الى بيتنا وقعت ارضاً.

وجاء الطبيب المحلي الدكتور داود - وامر بادخالي المستشفى حالاً. فجاءت سيارة اسعاف اخذتني وكان الدكتور افيديس دونابديان قد جاء فرافق الموكب. وجاء منح خوري واخذ رائد وباسم الى بيته حيث قضيا الليلة هناك.

في اليوم التالي نقلت الى مستشفى تابع لجامعة هارفارد، بناء على ترتيب قام به دونابديان. وقضيت في

المستشفى نحو ثلاثة اسابيع.

ليس المهم انني مرضت او انني قضيت في المستشفى ثلاثة اسابيع، ولم يكن وقتها قد ادخلت جامعة هارفارد نظام التأمين الصحي للاساتذة. المهم هو انني ادركت كيف يعمل الناس - افراداً، مواطنين، جيراناً - في الاهتمام ببعضهم البعض. اولاً اتصل تد بمرغريت وسألها فيما إذا كانت تملك من النقود لتسديد الفاتورة (اسبوعياً). ثانياً طلب من غب أن يمنحني ٤٠٠ دولار (مساعدة مرضية) ثالثاً طلب من عميد كلية الاداب والعلوم مساعدة لي ٤٠٠ دولار اخرى.

ابنة صاحبة البيت كانت تذهب الى مرغريت لتنقلها الى المستشفى لتزورني. احد زواري في الجامعة الأميركية، الذي كان قد عرف بوصولنا والذي ارتبطت معه بموعد للزيارة كان يذهب ليحمل مرغريت والاولاد الى المستشفى. السيدة ريتش التي كنا قد اتفقنا معها ان نبعث برائد وباسم الى مخيم صيفي (لها ولزوجها) لما اعتذرنا بسبب النفقات دعت الصبيين ليكونا ضيفين عليها في المخيم.

رئيس جامعة وزليان، على مقربة من ييل، لما اعتذرت له عن موعد مرتبط به، جاء لزيارتي في المستشفى، واستفرد مرغريت وسألها فيما اذا كنا بحاجة الى نقود، فقد نكون اتينا وليس ثمة مثل هذا الامر في حسابنا.

وكان ثمة شيء آخر يتعلق بالمرض. لقد احتجت الى ست وحدات من الدم. كان ثمن الوحدة الواحدة خمسين دولاراً. لكن ادارة المستشفى انبأت مرغريت انها تفضل الحصول على وحدات دم. ولما عرف الطلاب بذلك ذهب جون ميخايل ومعه ستة طلاب او تبرعوا بسبع وحدات دم بل الست.

في طريقنا للعودة توقفنا في نيويورك بضعة ايام كي نزورها ونتفرج على معالمها. درنا فيها، وتمتعنا بالزيارة. لكن المهم ان اميركا لم تأسرنا. كنت احسب ان سحرها سيكون كبيراً على الأولاد وعلى مرغريت. لكن تبين لنا فيما بعد انه لم يكن لها سحر قط.

ومع اننا ذهبنا ثانية الى هارفارد (١٩٦٢-١٩٦٣) واستأجرنا شقة جميلة، وكان لنا أصدقاء نعمنا بصحبتهم وعشرتهم كثيراً، وكان الايراد جيداً ومن الممكن الانفاق دون حذر؛ مع ذلك فان الولايات المتحدة لم تأسرنا. ليس لدى اي منا مانع من أن يقوم بزيارة لها. ولكن ذلك لا يعني ان الواحد منا يزورها بالرغبة نفسها التي يزور بها بلاد الانكليز او المانية او غيرها من البلاد الاوروبية.

لست أدري تماماً ما الذي يقف حاجزاً بيني وبين الولايات المتحدة: هل هو الركض الظاهر خلف المادة؟ الجميع، هناك وفي غيرها، يركضون وراء المادة، اذ ان الحياة، بمتطلباتها، ترغم الناس على ذلك. هل ضخامة البلاد واتساعها والتصور انك ستكون هناك واحداً من مئتين وخمسين مليوناً، ومن ثم تكون كمية ضئيلة في الحياة؟ لست واثقاً من ذلك. فانت ايضاً في بريطانيا واحد من نحو ستين مليوناً. ومن يهتم بك هنا او هناك؟ واذا كنت في المانية فانت واحد من ثمانين مليونا. هل أصبحت اعتقد، كما يرى كثير من ابناء بلادي الكبيرة لا الصغيرة - ان الغرب مادي ونحن روحانيون؟ اولا انا لا ارى هذا. لا أرى اننا روحانيون اخلاقيون وغيرنا مادي بلا أخلاق. ان مثل هذه الاراء هي ستارة نلقي بها على تأخرنا. نحن متأخرون ولكن حياتنا الروحية غنية. ان مثل هذا القول صحيح اوله. فنحن متأخرون مادياً علمياً تكنولوجياً فكرياً، ولكن يجب أن نعترف اننا متأخرون روحياً أيضاً. فالحياة الروحية لا يمكن ان تكون متقدمة ناجحة ممتلئة اذا كان الرأس خالياً من العلم ومن الفكر. والتكنولوجيا هي آلية الفكر. نحن تعشش في رؤوسنا اشياء عفنة نسميها افكاراً غروراً منا. هي ليست افكاراً وليست اراء هي عناصر حياة قط. هي بقايا موت فكري او هي على الأقل تحنط فكري. ولكن هل هاتان الكلمتان يمكن ان يستعملا معاً؟ هل من الممكن ان نقول عن شيء، كائناً ما كان هذا الشيء، انه تحنط فكري؟ لا! انه تحنط، اسن، تحجر بقطع النظر عن الشكل الذي يتخذه.

ومع هذا ففي الولايات المتحدة فكر عظيم. فيها ادباء ومفكرون وشعراء وكتاب وعلماء، وكل يقوم بدوره. والمهم ان الجو الذي يعيش فيه هؤلاء يتيح لهم ان يفكروا كما يشاؤون وان يقولوا ما يريدون، دون ان تنزل يد الجلاد او الجزار او العبيط عليهم فتحرمهم نعم الحياة.

لا لست ادري لماذا ما كنت احب ان انتقل الى الولايات المتحدة للعيش فيها. صحيح ان الفكرة راودتني مرة. ولكنها كانت شطحة فيها الكثير من العشق الصوفي لمكان واحد. قضيت بضعة ايام في برنستون. زرت الجامعة، وكان لي فيها أصدقاء. أعجبتني البلدة الصغيرة (نسبياً). لا سحرتني. ولما تحدث الي الاستاذ كايلر يونغ، وكان رئيس دائرة الدراسات العربية والاسلامية الشرق اوسطية عن رغبتي في الانتقال الى برنستون كنت تحت تأثير هذا السحر، فاظهرت استعدادا للتفكير الجدي في الموضوع. ثم هدأ كل شيء. فلا يونغ كتب، ولا أنا سألت. ولما زارني في بيروت بعد بضعة اشهر قال ان ادارة الجامعة كانت تفضل ان يكون القادم اليها من الشباب كي يمكنه ان يعمل لمدة أطول. أكثر العاملين فيها يومها كانوا متقدمين في السن.

كان جوابي، وكنت مخلصاً لانني كنت قد تفلت من السحر والساحر، هز الكتف، الأمر الذي لا يعني شيئاً. والحق انني لم أعن شيئاً في اجابتي.

ولنعد الى قصتنا. اثناء اقامتنا في لندن في خريف ١٩٥٦ وقعت حرب السويس. وقد سرنا مع المتظاهرين في لندن احتجاجاً على الهجوم البريطاني الاسرائيلي على مصر. كانت المظاهرات التي سارت في لندن على المشاركة البريطانية بشكل خاص. فقد اتضح انه كان هناك اتفاق مفصل الاسلوب والطريقة. والمهم ان الحملة فشلت. ولست معنياً الساعة بالحادثة لا تعليلاً ولا تفسيراً ولا لوماً ولا ذماً. ولكنني اذكر اننا لما وصلنا نيويورك في مطلع ١٩٥٧ واستقلينا القطار الى بوسطن لقيت ريتشارد سكوت. وقد قلت له حتى الذين لا يحبون جمال عبد الناصر لا يمكن ان يقبلوا بان يغلب او يخلع عن طريق الاجنبي.

وبعد أن عدنا الى لبنان، وبعد بضعة شهور، قامت في البلاد حرب صغيرة محلية لبنانية في ربيع ١٩٥٨. هي، كما كان البعض يسميها، ثورة - ثورة الاحرار ضد كميل شمعون وصحبه. ولكن عندما ينظر الواحد منا الى هذه القضايا نظرة فاحصة صادقة مخلصة بعيدة عن زوايا الاثرة والمنفعة، يرى انها لم تكن ثورة. كانت قتلاً محلياً بالنسبة للأفراد المتقاتلين، كانت حرباً مصلحية الصبغة، ومحلية الصورة. لكن لبنان كان، منذ الاستقلال، مسرحاً لتقاتل ظاهره لبناني، وباطنه مع كل من له مصلحة اما لنيل مغنم في لبنان، أو لتهديم شيء في لبنان. لبنان كان شوكة في عيون الكثيرين وجوانبهم. بلد فيه حرية (لعلها أقرب الى الفوضى) ومن ثم فقد كان فيه فكر وحركة شعر ومجالات ادب. وهذا أمر لا يرضى به من يحارب هذه كلها او من يرى فيها خطراً على كيانه. هو يقول ان هذا خطر على الكيان العربي بكامله. وهو خطر على الحياة الروحية الصحيحة. ولكن هل هذا صحيح؟

ولبنان كان فيه اقتصاد حر. وهذه صورة للعيش لا تعجب اجيال التأميم. واذن فعمل لبنان خيانة اقتصادية والخيانة يجب أن تعاقب. والعقاب سبيله اضعاف لبنان.

ولبنان يقدم خدمات للجميع - خدمات مالية وسياحية يأتيه المتعب فيستريح، ويقصده المريض فيشفى، ويأتيه الراغب في العلم فيجد العلم الذي يريد - خيار واسع. ولكن هذا العلم فيه ضرر وخطر على مجتمعنا. واذن فلا بد من تكبيله.

ولبنان البلد العربي الوحيد الذي قد يتمكن من منافسة جيرانه الجنوبيين. واذن فمن واجب هؤلاء ان يوقفوه عند حده.

ولكن لبنان فيه تجار كثيرون، وبعضهم لم يكن من التجار الامناء على المصلحة العامة، فزلت بهم القدم،

وانزلقوا فاصبحوا ادوات في ايدي اعداء لبنان - على اختلاف اهوائهم وغاياتهم . وهنا ناحية ضعف استغلت الى اقصى أحد.

ذكرت هذه الأشياء بالنسبة الى سنة ١٩٥٨. وهي عندما تكبرها كثيراً وتضخمها تجد انها تكفي لتكون لبوساً لما اصاب البلاد بين سنتي ١٩٧٥ و ١٩٩١ (والذي لا يزال لبنان يعاني منه).

صحيح ان مثل هذا القول الذي سقته هو تبسيط اكثر من اللازم لازمات عصفت بالبلاد. لكن بعد أن تفكر وتحلل وتقيم وتضع وتشيل وتحط ستجد ان اساس المشكلة يكمن في هذا التبسيط.

بعد عودتنا من الولايات المتحدة في صيف ١٩٦٣، دخل رائد الجامعة، وكان باسم يتقدم سنا ويكبر حجماً، اصبح بامكاني ان اقنع مرغريت بامكان مرافقتي للتعرف على الأماكن التي زرتها التي احببتها والتي احببت لها ان تتعرف عليها. كانت قد رافقتني، وبحيلة لطيفة، في زيارة للكويت سنة ١٩٦٢. لكن في الدور الثاني كانت الزيارات اوسع مدى. وكانت الاولى ان قبلت ان ترافقني في زيارة لليبيا في مطلع صيف ١٩٦٨. كنا ضيفي وزارة الثقافة والاعلام وكان الوزير الاستاذ احمد الهوني، رئيس تحرير جريدة العرب، التي تصدر في لندن حالياً. وقد لقينا من الاخوان كل تعزيز واكرام. زرنا طرابلس ومنها انطلقنا الى صبراتة والخمس (لبدة) والأجزاء الداخلية المصاقبة للساحل. وانتقلنا الى بنغازي وزرنا المناطق المحيطة بها. ثم كانت لنا زيارة لدرنه وابولونيا والشحات (قيريني) والبيضا. وعادت مرغريت قبلي لانني انا ذهبت الى مرسى بريقة. القيت في طرابلس محاضرة بعنوان «ابعاد التاريخ الليبي» وكانت محاضرة بنغازي عن تطور التعليم في ليبيا في عهد الاستقلال. وقد اشرت الى انني كنت انا موظفا في التعليم - مساعداً للمدير - في ايام الادارة البريطانية . اما في درنة فتحدثت عن «معالم في تاريخ ليبيا» مع الاهتمام بالحركة السنوسية. كانت جميعها بالعربية. اما في مرسى بريقة فقد تحدثت بالانكليزية للاميركان والعاملين معهم في حقل النفط. وكان الحديث عن ابعاد التاريخ الليبي.

ورافقتني الى بلدان الخليج في ربيع سنة ١٩٦٩. جاءت الدعوة من شركات النفط هناك وكانت المحاضرات بالانكليزية الا في البحرين. فقد جيرت شركة النفط الدعوة، بناء على اتفاق سابق، فتحدثت في نادي الخريجين. وكانت المحاضرة في الهواء الطلق. وأصر أهل دوخان في قطر ان يخصوا بزيارة لذلك كانت المحاضرات خمساً.

وفي سنة ١٩٧٠ رافقتني مرغريت في زيارة لتونس والجزائر والمغرب. كانت هذه زيارة خاصة لا ارتباط فيها بحكومة ولا بشركة. والارتباطات الوحيدة كانت مع الأصدقاء الذين غمرونا بلطفهم - في بيوتهم وفي المطاعم وفي النزهات.

ومن المغرب اتجهنا الى لندن، حيث قضينا معاً نحو ثلاثة اسابيع، لأن مرغريت عادت قبلي ببضعة أيام اذ كنت قد ارتبطت باعطاء محاضرات في كلية العلوم الشرقية والافريقية (لندن) وفي جامعة مانشستر.

وفي سنة ١٩٧١ رافقتني مرغريت في زيارة لالمانية شملت فرنكفورت وكولون وبون وهامبورغ وبرلين (وكانت غربية وشرقية فقضينا اياماً في الاولى وقمنا بزيارة للثانية). وقد خطفنا رجلنا فزرنا لوكسمبورغ كما قضينا اياماً لطيفة في سويسرا (بازل / بال وجنيف وبرن وزوريخ) متنقلين بسيارة الفرد سكران. عادت يومها مرغريت من سويسرا الى لبنان وعدت انا الى المانيا فزرت فرايبوغ (الالمانية) وتوبنغن.

وكانت آخر زيارة لنا معاً الى الاندلس ١٩٧٢. كانت الزيارة الأولى لتلك البلاد لكلينا. لذلك فقد اكتشفناها معاً - مدريد وغرناطة وطليطله. كانت سفرة ماتعة. خاصة وانها جاءت في فترة نقاهة لمرغريت. ذلك بانه في شهر كانون الثاني / يناير سنة ١٩٧٢ اكتشف الدكتور بهيج عازوري ان مرغريت مصابة بسرطان المثانة،

ودلت الفحوص المخبرية المتعددة انها كانت في حالة متقدمة بحيث ان العملية الجراحية لن تفيد (كما افادت الدكتور قسطنطين زريق الذي اكتشف معه المرض نفسه وفي العضو نفسه، لكنه كان في أول الأمر. اجريت له عملية جراحية، ولا يزال - مد الله في عمره - معنا). ففي اواخر الصيف، وكانت صحتها جيدة نسبياً، ذهبنا الى الاندلس معاً. سرت مرغريت بالرحلة كثيراً. خاصة واننا كما ذكرت، اكتشفناها - كما اكتشفنا لوكسومبورغ من قبل - معا.

بعد هذا ساءت صحة مرغريت. وكنا قد انتقلنا من جهة شارع جاندارك الى قرب فندق البريستول (ملك ابي المنى شارع خالد بن الوليد المتفرع من شارع رشيد كرامي - شارع فردان سابقاً). كان ذلك في شهر ايار / مايو ١٩٧٣.

في ١ حزيران / يونيو ١٩٧٣ لجأت مرغريت الى الفراش ولعلها لم تغادر البيت بعدها (باستثناء انتقالها المستمر الى المستشفى) الا يوم السادس من تموز / يوليو ١٩٧٣ لما أقام الزملاء حفلة عشاء في فندق الكارلتون لمناسبة انتهاء عملنا في الجامعة الاميركية انا وزين نور الدين زين. يومها جاءت مي (زوجة اخيها جوزف) وساعدتها على اللبس والزينة. وقد أرهقتها الأمسية لكنها لم ترض ألا أن تودعني رسمياً.

الفصل التاسع والعشرون

لم تكن مرغريت أول من نحره السرطان، ولن تكون آخر ضحاياه. ولست أنا أول من فقد عزيزاً عليه بالسرطان، ولن أكون آخر القوم. لكن عندما تكون السكين الحادة تغرز في الجسم بعنف، فتقطع الأوصال وتفتت العضل ثم يصل نصلها القلب فينغرز فيه، يصبح الألم منقطع النظير، لا يحس به إلا من يكون في موقع الألم، ولا يشعر به إلا من تنال منه السكين منالاً. وقد يتألم مشاهد لذلك، لكنه ألم خارجي: فهو بعيد عن ذلك الذي يصيب القلب فينخره ويحز فيه دون أن يفقده الحياة.

هذا بعض ما كان يعتريني وأنا أراقب مرغريت، وخاصة بدءاً من صيف ١٩٧٣ تذوي تدريجا، وتتألم في مرضها عميقاً وتنطوي على نفسها فلا تنبس ببنت شفة عن ألمها إلا عندما كانت النفس تعجز عن كبح جماح هذا الشعور المضني. وقد كان هذا يتزايد كلما اقتربت من النهاية.

كانت مرغريت زهرة يانعة، وكانت نموذج النشاط، وكانت جميلة بطبيعتها. وهل يصدق أحد أن مرغريت الأنيقة الجميلة لم تكن تستعمل من معاجين التجميل وعدته سوى أحمر الشفاه! وهذه الزهرة اليانعة هي التي كان تذبل وتذوي، في أناة أكثر من اللازم، أمام ناظري يوماً بعد يوم.

وكانت مع ذلك تتحمل ألمها بكل ما يمكن من الصبر والشجاعة.

لم يذكر أي منا كلمة سرطان أمامها وعلى مسمع منها. وكنت حريصاً على الاتصال بكل طبيب أو ممرضة قد تعنى بها في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت، قبل أن تصل الى ايديهم، وعلى توصيتهم بأن لا يستعملوا اسم المرض أمامها. لكن مرغريت لم تكن غبية. أنا خادعتها بالصمت، وخادعتني هي بالتغابي. لكنها كانت تعرف عن المرض وتطوره ما أكد لها ما هي فيه.

وبقدر ما حاولت أنا أن أخفف عن مرغريت بالحديث، كانت هي تجهد بأن تخفف عني وعن ابنينا، رائد وباسم، التألم من أجلها. كان رائد يعمل يومها في طيران الشرق الأوسط / الطيران اللبناني، وكان قد تعرف على ريما (زوجته فيما بعد)، فكانت مرغريت تتحدث اليه عنها. ورائد وباسم قليلا الكلام لكنهما كانا يعطيان مرغريت الكثير من وقتهما. كان باسم في الفترة النهائية من دراسته الهندسية المعمارية (في الجامعة الاميركية)، وكان يقضي وقتاً طويلاً، حتى في الليل، في الاعداد للمشاريع المختلفة، شأن طلاب الهندسة المعمارية. فكانت عندما يصل في ساعة متأخرة من الليل (أو مبكرة من الصباح) تدعوه الى جانبها لتسأله عن دروسه.

كانت مرغريت شمعة تحترق ببطء متناه. ومع ذلك فقد جَهِدَت في أن لا يكون هذا الاحتراق متعباً لنا، مجهداً لأيٍ منا. كانت مرغريت، عندما تأنس من نفسها قوة على الكلام - وقد أخذ حتى هذا يصعب عليها أحياناً - تتحدث اليّ عن مشاريعي المستقبلية في الكتابة وعن المشروع العلمي الذي كنت أشرف عليه لمكتبة لبنان وشركة لونغمان. هذا الى أحاديث شخصية خاصة لعلّ وقت التحدث عنها بتفصيل لم يحن - وقد يحين.

وأخيراً جاءت الساعة وكم وددت، وأيم الحق، لو أن هذه الساعة جاءت قبل ذلك كي تخفف عن المريضة ما

كان ينتابها من آلام وأوجاع؛ كنا نحن نتألم لها ونتألم لأنفسنا.

جاءت الساعة. في ٢٦ آب (١٩٧٤). كانت في احدى زياراتها في المستشفى (للعلاج طبعاً). وفي المساء المبكر جاء باسم ليزور أمه وليقول لها انه نجح في الامتحان النهائي للشهادة. وقالت له: «أنت مصاب برشح. لا تقبلني الآن سأقبلك عندما تشفى». ولم تقبله!

وكان رائد قد ذهب الى القاهرة قبل يوم واحد، إذ أن عمله اضطره الى ذلك. وكان قد ودّع أمه على أمل، من جهتها، أن تراه قريباً. ولم تره ثانية.

وكنت أنا قد شعرت ان الساعة اقتربت فرتبت مع أحد الكهنة ان يأتي المستشفى «ليمشحها». كنت أعرف ان مرغريت كانت تريد ذلك. وقد دبرت الأمر بحيث ان الكاهن دخل الغرفة وقام بواجبه، دون ان يتنبه لذلك جوزيف، أخو مرغريت، الذي كان في القاعة.

وأخيراً تفرق الجمع. ذهب الكل. وبقيت أنا. وأشارت الى أن أقترب منها. وقالت لي بصوت كأنه خارج من أعماق الأبدية لضعفه. «أذهب أنت واسترح وتعال زرني في الصباح». وتظاهرت أنني قبلت طلبها. قبلتها وخرجت الى الصالة.

وجاءت الممرضة لتقول لي أن الطبيب زارها وحسب انك ذهبت فلم يبحث عنك، ولكنه ترك لك رسالة بسيطة: قد لا تتم الليلة. ولم تتم الليلة. فقد توفيت حول الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء. وعملت الممرضات على تهيئتها كي توضع - جسماً هامداً - في محفظة الموتى في المستشفى. ولما أعد الجسم ذهبت أنا مع الشخص المسؤول وأعنته على وضعها هناك. ساعتها أحسست أن جزءاً مني قد انفصل عني. ولكن الشعور الذي انتابني كان مزيجاً من الألم والسرور. الألم القوي الشديد لفقدها، والسرور لأن آلامها انتهت.

لم أبك. لكن لما وصلت الى البيت، وكنت وحيداً. نزل الدمع من عيني غزيراً، لكنني لم أجهش بالبكاء. كانت المناسبة تقضي حزناً هادئاً. وجاء باسم فوجدني واجماً والدمع على وجهي وغليوني بيدي لكنه كان خامداً. قبلني وقال: «بابا، استراحت!».

في صباح اليوم التالي أرسلت برقية الى رائد فجاء في المساء. ولما وصل حول الساعة الحادية عشرة مساءً، كان في البيت أخوا مرغريت وابن خالتها وزوج أختي. لما وصل رائد استأذنت انا الموجودين وأخذت رائد وباسم الى الداخل - الى غرفة من غرف النوم. ولما أراد ابن خالتها أن ينضم الينا للتشاور قلت بشيء من الحزم. «القضية تخصنا نحن الثلاثة فقط». وفي نحو ربع ساعة اتفقنا على جميع الاجراءات اللازمة. وكنت أنا وباسم قد بدأنا الاعداد.

يوم جنازة مرغريت عرفت مدى ما يحبنا اصدقاؤنا - الكبار والشباب. كانت كنيسة مار الياس (مدخل وادي ابو جميل) مكتظة. نزل الاصدقاء المصطافون من الجبل.

بعد الصلاة على روحها ذهبنا - ورافقنا خمس عشرة سيارة تقل الأصدقاء - الى غوسطا حيث دفنت.

أمي (التي توفيت سنة ١٩٢٥ وأنا بعد في شرخ الشباب الأول) ومرغريت (التي تركتني وأنا في السابعة والستين من عمري) كانتا لي منارتين في حياتي. الأولى تربية، والثانية مؤازرة واشعاعاً لطريقي. ولست أنوي الساعة أن أقول أكثر من هذا. واعتقد ان هذا يكفي.

أشرت قبلاً الى مشروع كنت أنفذه لمكتبة لبنان ولونغمان في لندن. المشروع كان المقصود منه ان تؤلف كتب بالانكليزية تتناول قضايا العالم العربي الحديث بحيث تعطي القارىء خلفية صحيحة. واسم السلسلة، مترجماً الى العربية، هو سلسلة الخلفية العربية. بدأت الفكرة باقتراح تقدمت به الى مكتبة لبنان. ثم ارتؤي أن يكون

لشركة لونغمان البريطانية دور في العمل. وهكذا تم الاتفاق (سنة ١٩٦٨) على أن تنشر المؤسستان السلسلة وان اكون انا محررها. كان من رأيي أن يكون على الأقل نصف الكتاب والمؤلفين من العرب والمشارقة. كانت حجتي أننا نحن نريد ان نقدم انفسنا الى قارىء اللغة الانكليزية المثقف. فقد كفانا أن يكتب الأجانب عنا. والمهم هو أن مندوبيٌ لونغمان كانا يريدان ان يكون أكثر من النصف من المؤلفين والكتاب العرب والمشارقة. وبدأنا نسعى على هذا الاساس واتصلت بالأشخاص الذين أعرف مقدرتهم من العرب والمشارقة. ولكن الذي حدث هو أن كل بريطاني اتفق معنا أعد الكتاب المطلوب منه، ولكن شخصاً واحداً فقط، هو هندي، وفى بوعده من الكتاب العرب والمشارقة. وكان ثمة باكستاني عنده كتاب جاهز اتصل بنا فقبلناه. وفي نهاية المطاف كان بين ايدي القراء عشرة كتب ثمانية منها وضعها مؤلفون بريطانيون. وبعد ان انسحبت شركة لونغمان من المشروع، وعاد الى مكتبة لبنان، صدر كتاب ثالث مؤلفته عربية لبنانية.

على أننا مستمرون في العمل، وأنا بعد آمل أن «أصطاد» كتّاباً ومؤلفين عرباً ومشارقة قادرين على الوصف والشرح والتحليل كي يكتبوا لتعريف الغرب بنا.

ومما ساعدتني مرغريت على الاضطلاع به التعليم في الجامعة اللبنانية بعد ان استغنت عني الجامعة الاميركية بسبب بلوغي سن الخامسة والستين. عملت سنتين الواحدة ومرغريت مريضة والثانية بعد وفاتها. ثم كان هناك عرض من جامعة القديس يوسف بان أشرف على رسائل الدكتوراة في التاريخ العربي. وكانت مرغريت المريضة وراء فكرة القبول. وأنا لا أزال الى الآن (١٩٩٢) أكلف بالاشراف على مثل هذه الرسائل بين الحين والحين.

كان بين التجارب التي مرت بي التدريس في الجامعة الاردنية (١٩٧٦-١٩٧٨). السنتان اللتان قضيتهما في عمان كانتا ممتعتين حقاً. بدأت لي صداقات مع أشخاص تعرفت اليهم هناك لا أزال أعتبر نفسي عزيزاً عليهم: منهم الدكتور علي محافظة (رئيس جامعة اليرموك اليوم) ومحمود الكايد (رئيس تحرير الرأي الأردنية) والدكتورة فدوى التي بعد ما يقرب من أربع عشرة سنة أعتبر ان تعرفي اليها وقبولها بصداقتي كانت من أغنى التجارب الشخصية التي حصلت عليها خلال العشرين سنة الماضية. هذا فضلاً عن تجديد صلات مع أصدقاء قدماء هم اما طلاب قدامى مثل محمود السمرة وناصر الدين الأسد وعدنان البخيت أو زملاء في القدس مثل أحمد سعيدان وعبدالرحمن بشناق. فضلاً عن توثيق عرى القربى مع اخوالي الريحانيين غسان ريحاني وعائلته وآخرين منهم سليمان ريحاني من الجامعة الاردنية.

صلتي بمحمود الكايد رئيس تحرير الرأي تعود الى سنة ١٩٧٨. كنت أزوره في جريدته صحبة بعض الأصدقاء. وكان قد طلب مني ان أكتب للرأي. لكنني اسمهلته لأسباب خاصة. فلما زالت كتبت له ونشر الذي أعددت في العدد ٢٨٨٦ بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٣٩٨ وفق ٢٢ شباط / فبراير ١٩٧٨. وأنا أسمح لنفسي بنشره هنا لسبب بسيط. أود من القراء أن يجيبوا عن هذا السؤال: هل تساؤلي سنة ١٩٧٨ لا يزال قائماً أم أنه فسد بمرور الزمن لأن التفكير عندنا تخطاه.

والكلمة هي: لما انخسف القمر

قبل سنوات طويلة، وطويلة جداً، ذهبت لزيارة جدي لأمي في الناصرة. وفي أمسية بعد العشاء استأذنته في أن أذهب مع صحبة لي لنتمشى في شارع (ولا أقول شوارع، إذ لم يوجد ثمة سوى شارع واحد) المدينة - القرية، أو القرية - المدينة. ولم يبخل جدي بالإذن. فقد كانت ليلة قمراء، اقتعد فيها البدر وسط السماء وألقى بضوئه وروائه على الأبنية وأشجار التين والمشمش وغيرها، فبدت على أجمل ما يمكن ان تبدو. وفعلاً مشينا

الشارع أكثر من مرة، وكنا، إذا تعبنا، استرحنا على صخرة جانبية أو على سلسلة بستان. كنا نتحدث وملء بردينا السرور والمتعة.

وانتبهنا فجأة الى أن نور القمر أخذ بالضعف. فنظرنا اليه فاذا بالخسوف يصيبه. وشحبت الدنيا بعض الشيء، فقد كان الخسوف جزئياً. وصمتنا. لكن الأمر لم يطل. وبعد ان عاد الى القمر بهاؤه، عدنا ادراجنا الى بيوتنا.

لما وصلت البيت وجدت جدي صاحياً قلقاً، وهو ممن اعتاد النوم المبكر. فلما رآني حمد الله وشكره على سلامتي. وسألته معنى ذلك. فقال لي - ألا تعرف ان خسوف القمر دليل على حدوث مكروه؟ وقد خشيت عليك ان يصيبك بالسوء. فلما عدت سالماً حمدت الله - وجلست الى جانبه، وأنا المتبحر في العلم والمعرفة (كنت قد أنهيت الصف الثاني في دار المعلمين بالقدس) وأخذت أفسر له معنى الخسوف. بل تعديت الكلام الى أن أخذت ورقة وقلماً ورسمت رسماً بسيطاً لتفسير معنى الخسوف ولما انتهيت نظر الي وقال - يمكن ان يكون هذا صحيحاً، ولكن الله يسترنا.. وآوى الى فراشه، وأويت أنا الى الفراش.

تذكرت هذه الحادثة لمناسبة انعقاد مؤتمر العلوم والتكنولوجيا في عمان هذا الاسبوع. ان هذا المؤتمر يمثل، في رأيي، قمة من القمم التي تمثل ما قطعه العالم العربي خلال الخمس والخمسين من السنين - منذ حادثة خسوف القمر - من أشواط واسعة في نواحي العلوم المختلفة، البحتة منها والتطبيقية. وتذكرت لهذه المناسبة المؤتمرات العلمية المختلفة التي عقدت في اطار جامعة الدول العربية وخارجها، وفي الجامعات والمعاهد الكبرى في عالمنا العربي. ومرت أمامي قوافل المشتغلين بالعلم - ويعدون بأكثر من المئات - الذين ضمتهم، ولا تزال تضمهم، الجامعات والمعاهد العليا ومراكز البحوث في مشرق العالم العربي ومغربه. وتذكرت أيضاً - والأسى يحز في نفسي - الالاف من العلماء العرب الذين هجروا بلادهم وهم يعملون الآن في بلاد الغرب والشرق.

وكل هؤلاء - المقيمون منهم والمغتربون - لم يبق شأن من شؤون العلم والتكنولوجيا أو ناحية من نواحيها لم يتعرفوا فيه الى الأسرار العميقة، بحيث اصبحوا يتقنون ذلك كأحسن ما يمكن ان يتقن، ويحذقونه على أفضل ما يمكن ان يحذق.

ولكن صوتاً داخلياً أخذ يهمس سؤالاً لم أستطع تجنبه، وهو الذي أريد أن أردده اليوم على القراء.

والسؤال هو: لماذا لا أجد أثراً جاداً - أو جدياً اذا كان هذا يرضي اللغويين - للعلوم والتكنولوجيا في الحياة اليومية في بلادي؟

لست أشك في أن كثيرين سيشيرون باصابعهم الى البرادات والسيارات والتلفون - أو الهاتف أو الارزيز - إذا كنت أيها القارىء الكريم تفضل أياً منها - والكهرباء والتلفزيون والتلكس وحتى الأقمار الصناعية. وسيقول هؤلاء أنني أكفر بنعمة هذه كلها. والواقع انني أعرف هذا واستمتع به يومياً كما يستمتع به الملايين غيري.

لكنني مع ذلك أسأل السؤال وأكرره.

لماذا تظل العلوم والتكنولوجيا بعيدة عن حياتنا اليومية؟ وأقصد بذلك عن حياة عشرات الملايين من المواطنين في العالم العربي. لماذا لا تهبط العلوم والتكنولوجيا الى الشارع - الى التلفون الذي لا يلبي من الطلبات الا أقلها، الى الماء الذي لا يروي إلا أقل من القليل، حتى حيث توجد الأنهار، الى الكهرباء التي تنقطع بين حين وآخر، الى توزيع البريد الذي لا ينتظم باستمرار، الى عشرات من الأمور الحياتية.

وهناك أمر آخر. ما هو المدى الذي وصلت اليه الثقافة العلمية والتكنولوجية بالنسبة الى عشرات ومئات القرى النائية البعيدة، والى الملايين من المواطنين؟ لست أقصد المعرفة فقط، ولكنني أقصد روح المعرفة التي تؤدي بالفرد الى إيقاظ حس التطلع فيه، والتي تحمله على التحرر من خلفياته المتراكمة فوق رأسه منذ مئات

السنين؟

كم من الناس العاديين، خارج المدن الكبرى في العالم العربي، تصلهم هذه الثقافة العلمية؟ أؤكد، وأنا أعرف العالم العربي لانني جواب أفاق فيه، ان قلة فقط هم الذين يصلهم ذلك.

واين يكمن التقصير؟ هل يكمن في المواطن الذي لا يريد ان يتعلم ويتثقف؟ أم هل يكمن في العالم الذي يقبع في برجه العاجي ولا يريد ان يعلم ويثقف؟ أم في انعدام الجهاز الذي ينقل ما عند هذا الى ما يحتاجه ذلك؟

أمور كثيرة تثيرها هذه الأسئلة!

فهناك عدد من أهل العلم الحقيقي يحبون ان ينقلوا الثقافة العلمية الى المواطنين. ولكن كيف يمكن ان يتم ذلك؟ الكتاب والمجلة والصحيفة اليومية لا تزال مقصرة في ذلك. فليس ثمة مجال فيها لمثل هذه الأمور. وان كتبت ونشرت فان اسلوبها بعيد عن التشويق.

ومع ذلك فالكلمة المكتوبة لا تصل إلا الى نسبة محدودة من المواطنين بسبب انتشار الأمية في العالم العربي، وخاصة خارج المدن الكبرى. واذن فلا بد من الاعتماد على الكلمة المنظورة أو المسموعة. والكلمة المنظورة - أي ما يأتي عن طريق التلفزيون - محدودة المجال أيضاً. فهي تعتمد أصلاً على وجود الكهرباء، وهذه ليست منتشرة كما يجب. وحتى البرامج التي تظهر في الموضوعات العلمية تغلب عليها الصفة الجامدة. والاغراء لمشاهدة البرامج العلمية يحتاج الى اثارة حتى يشاهدها المرء.

تظل الكلمة المسموعة - الاذاعة. وهذه أيسر الوسائل وأوسعها انتشاراً، خاصة بعد انتشار الراديو الصغير - الترانزستر. فهل نحن نفيد منه بالقدر اللازم؟

جوابي على هذا هو بالنفي المتحفظ. اقول المتحفظ لأن بعض البرامج تقدم معرفة وعلماً. لكن النفي يظل موجوداً أصلاً، لأن أكثر البرامج بعيدة عن أن تشوق المستمع بحيث يشد الى الراديو، فيسمع؛ المرة بعد المرّة، هذا النوع من الأحاديث الذي يكون في النهاية هذه الثقافة العلمية.

والثقافة العلمية في رأيي، من حيث روحها، تعني أن يكثر في العالم العربي عدد الناس - والأميون بشكل خاص - الذين يقبلون التفسير العلمي الصحيح للأشياء بدل التفسيرات الغيبية، والذين يخرجون في تفكيرهم - ولو كانوا أميين - من عالم الاسطورة الى عالم الادراك، والذين يرضون بالطبيب بدل المشعوذ.

فهل لي أن أطمع ان أرى، فيما تبقى من عمري، شيئاً من هذا ينتشر في العالم العربي وبين ابنائه؟

أشهد أنني متفائل بطبعي ولذلك فأنا آمل، وقد مرت بي عشرات السنين وأنا آمل وأتأمل، وأرجو أن يظل لي تفاؤلي.

وأنا لا أزال أكتب للرأي الى يوم الناس هذا، ولكن أكثر الكلمات أقصر من هذه. وقد كتبت للرأي من عمان وبيروت ولندن ونيجيريا والولايات المتحدة والهند والخليج العربي. فانا أكتب وأبعث ومحمود الكايد ينشر، ولم ينشر عرضي ولو مرة واحدة.

لكن مع ذلك فان عملي في الجامعة الاردنية لم يمر دون منغصات لم أكن أنتظرها. أراد أستاذ أن يرتب «صفا» (مساقا) لطلاب الدراسات العليا لبحث الناحية التقنية في اعداد رسالة الماجستير. وانا، بمنتهى البساطة وطيب النية، اقترحت ان يكون المساق مشتركاً. هو يكون بمثابة مدبر للحلقة. ونحن والطلاب نكون مشتركين في الرأي والتجربة. ورافقني أحد الزملاء. رحب الزميل بنا وبدأ حديثه بقوله أننا وصلنا في المرة الماضية (لم نكن نحن قد حضرناها) عند هذه النقطة والآن نستمر. ولما انتهى من محاضرته سأل فيما إذا كان هناك من عنده سؤال. أثرت أنا قضية، ولم أسأل سؤالاً، فأنا لم أذهب لاتعلم من الزميل الكريم بل لأسهم في توضيح الأمر.

ووجد الزميل ان القضية التي أثرتها ستبدل اسلوب المساق وطريقته، فأجاب هو عليها اجابة «مخطوفة» بعيدة عن الأساس.

ومع ذلك فقد ذهبت مع الزميل الرفيق في المرة التالية. ولكنني أدركت كأن الزميل يريد ان يقول «فكّوا عني، ما نحن كنا ماشيين منيح». و«فكّيت عنه». وقد عرفت انه كان قد بدأ هذا قبل نحو عشر سنوات، وانه استمر فيه نيفاً وعشراً أيضاً!

لكن الذي أدركته في نهاية الفصل الأول من السنة الدراسية الثانية هو ان وجودي غير مرغوب فيه. فلا رئيس الجامعة كان مرتاحاً لوجودي، ولا الزملاء الكبار كانوا مسرورين من ذلك. فقد كان اسلوبي في التعامل مع الطلاب مما يختلف مع آرائهم. أنا موجود لتدريب الطلاب وتعليمهم. هكذا كان رأيي دوماً في عملي التعليمي - الابتدائي أو الثانوي أو الجامعي. أما الزملاء الكرام فكانوا معنيين بأن يظلوا بعيدين عن الطلاب كي لا يكتشفوا. ولذلك فقد كتبت الى رئيس الجامعة راجياً منه ان لا يجدد العقد لي لسنة ثالثة. وبدون ان يستشير أحداً قبل اقتراحي آسفاً كما قال. (وما أحسب أنه كان صادقاً).

وعدت الى بيروت وعملت في الجامعة اللبنانية سنتين أو ثلاثاً وكنت فيها سعيداً.

وبين ١٩٨٤ و١٩٩٠ القيت محاضرات حول تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية في كلية اللاهوت للشرق الأدنى في بيروت. هذه المؤسسة تعد قسساً انجيليين للمنطقة الممتدة من نيجيريا عبر كينيا وجنوب السودان وفلسطين والأردن وسورية ولبنان. ومن هنا كان الطلاب يأتوننا من خلفيات متباينة ومجتمعات مختلفة. وكان تدريسهم متعة لي.

على أنني، على ما ذكرت قبلاً، دعيت للتدريس في عدد من الجامعات المتنوعة. وكل دعوة كان فيها درس وعبرة لي. كما انني حضرت مؤتمرات كثيرة، وكان كل منها يثير في نفسي قضايا ومشكلات. ومن هنا فانني اعتبر نفسي أنني، وأنا في سن الخامسة والثمانين، لا ازال أنمو وأنمو وأنمو.

وقد كنت دوماً على خلاف مع زملائي الجامعيين الكبار، في الجامعة الاميركية في بيروت وفي الجامعة الاردنية، حول دور الاستاذ الجامعي. كانوا يقولون ان عمل الاستاذ الجامعي الكبير هو أن يحاضر لطلابه في موضوعه، وينصرف الى البحث العلمي. أما الكتابة في الصحف فأمر متروك للصحافيين. ثم عندما نقرأ نحن مقالاً في احدى الصحف كتبه صحافي وتناول قضية تاريخية مثلاً، وكان في كتابته نقص اكتفينا بالقول: «هذا شغل صحافي». واذن فمن ذا الذي يثقف الناس ويعلمهم؟

كان من رأيي دائماً انه يتوجب علي، وأنا استاذ جامعي، كبيراً كنت أم صغيراً (وأنا الى الأول أميل وبذلك ألصق)، أن أكتب لمن يريد ان يتعلم أو من يجب ان نعلمه في الصحف للقراء، وعن طريق الاذاعة للأميين. ولذلك كنت أفعل هذا، وأنا اليوم أكثر بهذا احتفالاً. فأنا باحث عندما يجب أن أكون باحثاً. لكنني أساهم في تثقيف اولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لاتمام دراستهم، لكنهم يستطيعون ان يقرأوا ويحبون ان يقرأوا، أو أولئك الذين لا يقرأون البتة. وقد وسعت مجال عملي هذا مؤخراً. وأنا سعيد بذلك. سعيد لأنني أخدم وسعيد لأنني أحصل على مغنم ولو انه بسيط.

في ١ ايلول / سبتمبر ١٩٧٩ عقد قراني على السيدة هلدا حداد ميخائيل. بدأت أحس بأنني أتقدم بالسن، وأنني قد أُسعَد بالرفقة في أواخر عمري. وكذلك أحست - أو هكذا قالت - هلدا. لكن يبدو ان كلينا كان مخطئاً في آماله. فافترقنا. ولا أزال أذكر الى اليوم عبارة قالتها هلدا في حول الساعة العاشرة من صباح يوم ١٩ ايلول / سبتمبر ١٩٨٣. كنا نجلس في غرفة الاستقبال في مبنى أبي المنى. وفجاة قالت: «أنا ذهبت الى المانيا ولم يكن

في نيتي الرجوع الى بيروت أبداً. فلماذا رجعت؟ أظن انه الطمع!».

الكثير من المقالات، وفيها بعض العلم والراي، التي خططتها خلال العقدين الماضيين او اكثر، اخذت تظهر مؤخراً في مجلدات يتولى نشرها رياض الريس (صاحب دار رياض الريس للكتب، لندن). وقد نشر منها الى الآن «شاميات» (١٩٩٠) و«افريقيات» (١٩٩١) وقبل أيام صدر كتاب لبنانيات (١٩٩٢) وسيصدر عربيات ومشرقيات فيما بعد.

مقدمة «لبنانيات» وضعتها في خريف ١٩٩٠. وأنا أنقل هنا خاتمتها؛ ذلك بانها تتناسب مع هذا المقام.

«في سنة ١٩٤٩ التحقت بهيئة التدريس في الجامعة الاميركية ببيروت (دائرة التاريخ) وظللت فيها الى سنة ١٩٧٣ اذ استُغني عني بسبب بلوغي السن القانونية؛ ولكن بيروت لم تستغن عني ولم أستغن أنا عنها، ولا لأي سبب!

«وأود أن أقول إن الذي لم يعش في بيروت مدة تكفي للاستمتاع بالمدينة والتأسّف لما أصابها فيما بعد، لا يمكنه ان يدرك عمق المحبة التي أشعر بها نحو هذه المدينة. بيروت أعجوبة في دنيا العرب؛ كما ان لبنان واللبنانيين أعجوبة أيضاً. ولن أحاول تفسير هذه الظاهرة الآن، ولن أحاول وصفها بلهَ وصفَ الشعور الذي أحسّ به بسبب إيماني باجتماع عناصر الأعجوبة هنا. ولأكتف الساعة بتقرير الموقف؛ وأنا أعرف أن عيوناً كثيرة ستحمّر وأخرى ستزور عندما يمر بها هذا القول؛ ولكنني، وإن كان لا يبدو عليّ في كلامي وتصرفي أنني أحتضن في أعماقي نفساً ثائرة وعقلاً متحفزاً وقلباً خفاقاً، فإنني أعرف انني أؤمن بأمور معينة، وأعلن عنها دون ضجة وصخب، وأدافع عنها دون إعلان، وأقف عندها دون أن أحيد عن الخط الذي اخترته لنفسي.

«لذلك، فأنا أقول إن بيروت ولبنان واللبنانيين أعجوبة، وإنني أحبّ بيروت لمئة سبب وسبب، وإن كنت لا أستطيع أن أعدّ أكثر من عشرة أسباب.

«وعندي أن الحب - حب شخص أو مكان أو شيء - قد يأتي من أول نظرة؛ لكنه ان لم يتح له عنصر المعرفة الحقيقية (بمن تحب وما تحبُّ) فإنه يتلف بعد مدة. فهو قد يتخثّر ويحمّض فيؤذي؛ وقد يجمد وعندها يفقد عنصراً أساسياً من وجوده؛ وقد ترتفع فيه درجة الحرارة، تعويضاً عن المعرفة الحقيقية المفقودة، فيحرق؛ وقد يصل المتحابّان الى وضع ليس فيه تخثّر ولا جمود ولا ارتفاع في درجة الحرارة، لكنه وضع يتلخص في موقف العناد. ومثل هذا الموقف يجهد ويضني وتكون النتيجة الفناء - لا فناء المحب في محبوبه على طريقة الصوفية. بل الفناء الناتج عن جهد الخصومة والتشبث بالموقف - صحيحاً كان الموقف أم خطأ. والاعياء ثم الارتماء.

«وحبي لبيروت الذي بدأ لما قرأت، قبل سنوات كثيرة طويلة قول الامبراطور ولهلم (وليام) الأول قيصر المانيا: «إن بيروت درة في تاج آل عثمان»، والذي قوي إذ لمحت بيروت لأول مرة خلال ثلاثة أيام مع درويش المقدادي (١٩٢٥)، ونما وترعرع وقوي (لا في زيارتين بعد ذلك ولكن) لما جئت الى بيروت مستجيراً فأجارتني كما أجارت غيري. وهذا الحب قوي تدريجاً عبر أربعين سنة ونيف، لانني جربت أن أعرف بيروت الحقيقية وبيروت المظاهر.

«وبيروت المظاهر أيسر على المرء أن يتعرف عليها عندما يقيم مثل هذه المدة فيها. أنا أذكر اننا لما سكنّا في شارع جاندارك (١٩٥٠) كنا، في السنوات الأولى، نذهب صباحاً الى اصحاب البساتين من جيراننا لنشتري بعض أنواع الخضار والبقول «من الحقلة». لكنني رافقت اختفاء هذه البساتين تدريجاً في الخمسينات ثم بالجملة وبسرعة في الستينات. ولم تختف «الحقلة» من حيّنا فحسب، بل اختفت من جهات كثيرة. وفي أكثر الحالات قام مكانها مبان ضخمة.

«وأنا أذكر ان قراراً رسمياً صدر بان لا تقام اية أبنية بعد الطريق (الكورنيش) لجهة البحر، كي يظل الشاطىء طبيعياً جميلاً ومكان فسحة للعين والجسم. لكن نفوذ شخص لدى بعض الحكام سمح له ان ينشىء مقهى تحت الطريق فكرّت السبحة، وأفسد الشاطىء في بيروت (وفي كل لبنان تقريباً).

«اذكر انني في سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٠ كنت أذهب الى باب ادريس كي أتمكن من شراء قطعة من اللحم للروستو أو للبفتك. ولكن لم يمر علينا سوى وقت قصير حتى فتح تقلا وشريكاه (شارع الحمراء) سوبر ماركت من نوع ممتاز، وكانت أصناف اللحوم تباع فيه على ما يشتهي الزبون. والتقطيع كان بلدياً وافرنجياً.

«اذكر المظاهرات التي كان الطلاب يقومون بها في الخمسينات، يوم كانت هذه تنطلق من نواحي الجامعة الاميركية، حيث كان الطلاب من المدارس المختلفة يتجمعون هناك في وقت مبكر، ثم يبدأون في الاتجاه المعين لهم. ومن المظاهرات المبكّرة هذه تلك التي انطلقت سنة ١٩٥٣ احتجاجاً على عزل محمد بن يوسف سلطان المغرب عن العرش على أيدي الفرنسيين. ولكنني أذكر انه بعد انشاء الجامعة اللبنانية أصبح هناك مركزان لانطلاق التظاهرات؛ وجاءت جامعة بيروت العربية كي تعطي المتظاهرين مركزاً ثالثاً للانطلاق.

«اذكر بيروت في الستينات مثلاً وقد أحصيت عدد المناسبات الثقافية التي كان يعرفها رأس بيروت فكانت ثلاثاً ونصف المناسبة في اليوم الواحد بين محاضرات وندوات ومعارض فنية وأمسيات موسيقية وتمثيليات. فقد كانت الجامعة الاميركية وكلية في بيروت للبنات (كلية بيروت الجامعية اليوم) والمجلس الثقافي البريطاني ومعهد غوته الالماني والمركزان الثقافيان الايطالي والاسباني والملحقية الثقافية في السفارة السوفياتية، تعمل جاهدة لدعم الثقافة والفن والأدب بشكل من الأشكال. كان الراغب في نواحي التثقف، على اختلافها، يجد ضالته في رأس بيروت.

«وكلنا ـ ممن عرف بيروت ظاهراً ـ يذكر مقاهي الحمراء والروشة ومطعم فيصل ومقهى انكل سام مقابل الجامعة الاميركية، ويذكر ان هذه لم تكن مجرد مقاه يجلس الواحد فيها يحتسي فنجاناً من القهوة أو الشاي أو كوباً من البيرة فحسب، بل كان بعضها، إن لم تكن كلها، شبه اندية أدبية أو فنية تتحلق فيها «العصافير ذات الريش المتشابه» حول موائد صغيرة يتحدثون ـ أو يزقزقون ـ عن شؤون الأدب والسياسة والفن. وكم أوحت هذه الجلسات ـ مثل جلسات الهورس شو والدولتشي فيتا ـ الى أحدهم بقصيدة قد ينظمها فتفيد، أو يعطسها فتذهب هباء منثوراً، إلا إذا كان مصاباً بالزكام فقد يصيب سواه بأذى.

«وتدفق المال على لبنان من الخليج في الدرجة الأولى: أولاً لأن الكثيرين من اللبنانيين أفادوا من مجالات الأعمال المالية والتجارية التي هي واحدة من مهن الساحل اللبناني بشكل خاص. وثانياً لأن الكثيرين ممن كانوا يعملون في الخليج. ومن الفلسطينيين خاصة، كانوا يقضون بعض عطلهم في لبنان. وثالثاً لأن أهل الخليج انفسهم اعجبهم لبنان فقصدوه متنزّهين ومستروحين ومصطافين. وكم بنى هؤلاء من البيوت الفخمة ـ التي يصر الناس على تسميتها بالقصور ـ في جبال لبنان الأوسط!

«وهرع الكتّاب العرب من أهل البلد وغيره الى بيروت لنشر كتبهم، وذلك لأسباب كثيرة، فأصبحت بيروت مدينة النشر الأولى في دنيا العرب. قد لا يكون هذا صحيحاً بمعنى الكمية، ولكنه كان صحيحاً من حيث فن إخراج الكتب.

«كان هذا كله يسير الى الأمام، وكان يسير بخطى حثيثة، إلى أن جاءت سنة ١٩٧٥، وبدأت بيروت أولاً، ولبنان بعدها، «مسيرة العذاب الطويلة» (لا نزال فيها الآن وأنا أكتب سنة ١٩٩٠). وقد لقيت، كما لقي غيري، الكثير من النصب والخوف والتعب والنزول الى الملاجىء وانقطاع الماء والكهرباء وحتى الخبز. ولعل ما أصابني أقل بكثير جداً مما أصاب غيري. على كل ـ وقد كان بامكاني أن أترك بيروت ـ بقيت فيها.

«بقيت فيها لانني أحبّها، ولانني اشعر أن بيروت تحبني. لقد عرفت عن بيروت الكثير مما لم يتح لغيري لانه لم يُعنَ به، وأحسب أن بيروت عرفت عني الكثير بسبب موقفي أنا منها. ومن هنا جاء هذا الحب. والحب لبيروت لم يكن أقل من حبي للبنان.

«وهنا اقول أيضاً إنني أحب لبنان لانني أعرفه - أعرفه جبالاً وهضاباً وسهولاً وآثاراً وثقافة وشعباً وشعبياً. هذه المعرفة الحقيقية لهذا البلد وعاصمته هي أساس حبي.

وهذا الكتاب الذي أضعه اليوم بين يدي القارىء انما هو عربون لهذه المحبة ولهذه الصداقة».

على أن هذا الذي ذكرت لم يمنعني من التعرف على نواحي الضعف أو المرض في المجتمع اللبناني الذي أحببت، فرادى وثنى وجمعاً. فبعد اقامتي في هذا البلد بعض الوقت أدركت ان المجتمع اللبناني يتألف من مجموعات وتكتلات اجتماعية مغلقة - مغلقة الواحدة على الأخرى هنا. كل لها خصائصها، وليس في هذه الخصائص عيوب، لكنها هي تعتبرها أموراً يجب ان لا تمس. والمساس بها معناه محاولة لقص أظافرها، ثم تهذيب حواشيها، ثم تجريدها من عناصر القوة التي فيها. كل ذلك تمهيداً للقضاء عليها. ولذلك فقد تنفتح لها نوافذ أو حتى أبواب على أناس خارج البلاد أملاً في ان يحتضنوها ويدافعوا عنها. وما درى الذين في الداخل ان «الخارجي» مستعد للافادة مما يقدم له خدمة لمصالحه، لكن ذلك لن يمنعه من نسيان كل شيء أو تناسيه عندما تتغير الأحوال.

والخارج الذي تطلعت اليه هذه المجموعات أو التكتلات اللبنانية، والذي كان مستعداً لمد الخيوط والحبال وحتى الجسور خدمة لمصلحته، اختلفت مواقعه ومواضعه بين ان يكون بلداً أوروبياً قوياً أو ضعيفاً حسب السوق السياسي العالمي، أو أن يكون فئة محلية ما دامت تستطيع ان تطلق بندقية على الفريق الآخر، أو أن يكون بلداً شرقياً متوسط الحال بين ما ذكرت لكن له نفوذ بشكل من الأشكال، ولو لأنه يتولى الأمور وكالة أو نيابة عن اصحاب النفوذ الأقوى، قريبين هؤلاء كانوا أم بعيدين.

وهذا الوضع اللبناني لم يبدأ في الأمس القريب، ولو انه برز على نحو أوضح في العقود الأخيرة. ولست أنوي التأريخ لهذا الأمر ولكنني أذكّر قرائي بأن بريطانية اختارت، في العقود المتوسطة من القرن التاسع عشر، شاباً متعلماً ذكياً دمثاً، وكان كاثوليكياً، وارسلته الى لبنان ليتعلم العربية بوصفه موظفاً بسيطاً في القنصلية البريطانية. واذا كنت تصر ان تعرف اسمه فهو ريتشارد وود. وبدأ ريتشارد يتعلم اللغة العربية بين أحضان واحدة من الفئات (الجماعات أو التكتلات) اللبنانية، آملاً في ان يستميل ابناءها الى بلده. لكنه أدرك، وهو بعد في دور تعلم العربية، ان هذه الجماعة كانت قد شبكت خيوطها وحبالها مع دولة أوروبية أخرى الصق بها عن طريق أعلى من ريتشارد وود وقنصليته. لكن الشاب الذي بدأ العمل، أو لعله قوى الأمل، بمد خيوط مع فئة أخرى. وكان هناك نجاح كبير، وقد استمر وقتاً طويلاً. والذين يعرفون مواطن النفوذ في عشرينات القرن الحالي، يدركون معنى الأمرين (أو الأمرّين)!

وكانت احدى الفئات تجد في الدولة العثمانية سندها. فلما زالت هذه في نهاية الحرب العالمية الأولى، بدا على أفراد من تلك الفئة شيء من البلبلة بحيث طالب كثيرون منهم بالانضمام الى الجيران. ولم يتم ذلك لكن لا الجيران قطعوا الأمل ولا الجماعة اللبنانية اطمأنت الى الوضع. فتوقف الأمر عند الصفر مثل الميزان المعطل لا يستطيع اعطاء الوزن الصحيح ولا انكاره. وفي مناسبة لاحقة قيل عن جماعة طارئة على لبنان ان هذه الفئة هي جيشنا.

وبدّلت جماعة هنا اتجاه الخيوط والحبال بحيث تكون قريبة من الجيران أيضاً. وكان ما كان.

والذي نسيه الجميع ان كل مَنْ ياتي من الخارج وكل ما ياتي من الخارج سيوظف لمصلحة الخارج، لا لمصلحة لبنان. ولكن الأداة تكون محلية - فالعاملون والممثلون والخادمون والمصفقون والمطبلون والمساعدون جميعهم لبنانيون. وجميعهم يظنون انهم يخدمون لبنان. ولكن السنوات التي مرت على لبنان بين سنتي ١٩٧٥ و ١٩٩١ (ولا تزال آثارها قائمة) أظهرت لكل من يريد ان يرى ويتفهم ويتدبر ويدرك ان كل خارجي هو، في النهاية (ولنعد الى كلمة عربية تركية لكنها معبرة)، «مصلحجي»، - لبلده وجماعته. وليحترق لبنان.

ولقد احترق لبنان بفعل خارجي. لكن لولا ان اللبنانيين قبلوا بذلك لما كان احترق.

فهل آن للفئات اللبنانية ان تفتح كل منها كوة نحو الفئة المجاورة أملاً في دخول بصيص من النور أو خيط من الخيوط، لعلّ ذلك يصبح في المستقبل حبلاً أو جسراً داخلياً؟

أكتب هذه الكلمات ولبنان يستعد لما تبقى من الانتخابات النيابية. فقد تمت يوم الأحد الماضي (٢٣ آب / اغسطس ١٩٩٢) انتخابات محافظة الشمال ومحافظة البقاع. وقد قيل ان الانتخابات كان فيها تزوير، وقيل انها كانت نزيهة. وفي واقع الأمر لن نعرف مدى أي من التهمتين من الصحة والخطأ، فنحن لم نعتد على نشر الغسيل الوسخ رسمياً، وان كنا ننشره بشكل اعلامي كل ساعة. والحكومة - المستقيل منها خمسة وزراء (وهناك ثلاثة معتكفون) - من أصل ٢٤، يبدو انها قررت السير في الانتخابات الى النهاية. الأحد (٣٠/٨/١٩٩٢) في محافظة بيروت ومحافظة جبل لبنان، والأحد (٦/٩/١٩٩٢) في جنوب لبنان (بكل ما فيه من محاذير بسبب الجارة الجنوبية). وسينتج عن ذلك برلمان قاطعه ان لم نقل نصف السكان فجزء كبير منهم.

وليس المهم الانتخاب الذي (على ما يبدو من الصحف) فرض على البلاد فرضاً، وليس المهم المجلس الذي سيتمخض عنه مثل هذا الانتخاب الذي يعتبره وزير الداخلية خاصة وكأنه «شغله وعمله وتخطيطه وتنظيمه». ولكن المهم هو ما الذي ينتظر من هذا المجلس - بالنسبة للخارج. ولنربط قضية الانتخابات والمجلس الجديد بنوايا (مبيتة أو تظهر مع الوقت) مرتبطة بسورية وايران والولايات المتحدة (هذه تعمل على المكشوف وبقوة بسبب البركات غير الرسولية الممنوحة لها) كما انها مرتبطة بمفاوضات السلام في الشرق الأوسط (بين الدول العربية وفلسطين في الجهة الواحدة واسرائيل في الجهة الثانية) وهذه تتعهدها قوى لا تتمتع قطعاً بأي بركات، ولكنها تملك نوايا شيطانية وقدرات كبيرة لتنفيذ ما تريد. وعندها من هو مستعد للمساومة والمفاصلة - «براً وجواً».

ثلاث مناسبات

الفصل الثلاثون

مرت بي، في الفترة الأخيرة، مناسبات ثلاث أتيح لي فيها أن أعرض آرائي في بضعة أمور تمت أكثرها للتاريخ وأللفكر عامة. وقد رأيت، بدل أن ألخص ما جاء في الكلمات التي أعدت لهذه المناسبات، ان أنشرها كاملة.

المناسبة الأولى: حديث طويل تفضل باجرائه معي الياس لحود صاحب ورئيس تحرير «كتابات معاصرة»، ونشر في العدد السادس (المجلد الثاني) أيار / مايو ١٩٩٠ (ص ١٤ـ٢٨)، بعنوان «الكتابة التاريخية: سيرة ذاتية لاختراق التاريخ».

المناسبة الثانية: كلمة ألقيتها عند افتتاح العام الدراسي (١٩٩١ـ١٩٩٢) في جامعة البلمند (لبنان) وذلك في ١٩ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٩١، بعنوان «نحو حياة متميزة».

المناسبة الثالثة: تفضلت «الحركة الثقافية ـ انطلياس بتكريمي في ٢ اذار / مارس ١٩٩٢. فألقيت يومها كلمة عنوانها «أنا مؤرخ».

ا - الكتابة التاريخية
سيرة ذاتية لاختراق التاريخ

من السيرة الذاتية الى التاريخ. والكتابة التاريخية اختراق للكثير من الأرقام المصفوفة أعواماً وحقباً وتآريخ، والكتابة التاريخية، واقعاً، تنقيب في تراث، أو تراثات، بالمعول والرفش وقفة الآثاريين، وحصول على محصلات إنسانية يبرز فيها الانسان حاملاً في القلب والرأس، وعلى المنكبين أيضاً، «كرة» الحضارة البشرية سعياً الى قراءة / كتابة تاريخه. «كتابات معاصرة» حملت قفة كبيرة، قاسية أحياناً، من الاسئلة وفلشتها دفعة واحدة على طاولة الدكتور نقولا زيادة، وحاورته بما استبقته بين يديه من أسئلة أجيال ذاهبة وأجيال آتية عبر أعوامه التي نافت الثمانين، وجيل واحد ينتظر صفاته على شفرات تاريخه الحادة. وكان نقولا زيادة كما في «شامياته» الصادرة حديثاً و«قممه...» القديمة وأسمائه في كتبه الثمانية والعشرين عن تاريخنا العربي، وكما في حبِّه للحضارة والكتابة، كان يضع اسئلته على هذه الأسئلة وسواها فلا يوفر غوصاً في الأزمنة، بدءاً من ماضي الشرق وحتى حاضر الغرب مروراً بالاستشراق.

سيرة ذاتية / اقتحام التاريخ

* من حيث الأسرة، أنا ناصري الأصل لكني مولود في دمشق في الثاني من كانون الأول سنة ١٩٠٧. في جزء من دمشق القديمة يسمّى الميدان التحتاني، حي العراضات (المظاهرات الاجتماعية) التي كان يزخر بها

الحي لمناسبات زواج الاكابر وما الى ذلك. طفولتي الأولى، إذاً، دمشقية. تركت المدينة وأنا في الثامنة وعدت مع أمي واخوتي الثلاثة الى الناصرة بعد وفاة والدي. ذكرياتي الدمشقية تدور حول مدرستين تعلّمت فيهما، ووفاة اخ لي في الثالثة، واستغرابي كيف يموت الدكتور ملحم وهو المفروض ان يعالج المرضى ويشفيهم، وذهابي الى الحمّام العمومي مع أمي وأنا صغير جداً ثم مع أبي بعدما أصبحت على نحو ما قالت حارسة الحمّام لأمي يوماً: «هذا الولد صار يعرف الشرق من الغرب»، وأول سيارة رأيتها وهي سيارة جمال باشا، وجنينة الحليب التي كنا نتنزّه فيها.

عدنا الى الناصرة وتعهّد خالي الوحيد بالعناية بي، ووعدت خالتي بالعناية بأخي الفرد، وكانت أختي ماري حصّة الجدّين، وترك لأمي أمر الاهتمام بالأخ الأصغر المريض. ولكن، قبل ان تمرّ سنة على هذا كله توفيت خالتي بالكوليرا وقُتل خالي في انفجار قنبلة ألقتها طائرة بريطانية في «العفّولة»، وهي محطة لسكة الحديد على خط دمشق - حيفا، في الحرب العالمية الأولى. فترتب على والدتي عند ذلك ان تعمل في سبيل إعاشتنا وتربيتنا. من هنا كان انتقالنا عام ١٩١٧ الى جنين في شمال فلسطين حيث وجدت أمي عملاً مجزياً بثلاث ذهبيات عثمانية شهرياً. لكن في مقابل ذلك قضيت سنتين وبعض السنة في أزقة جنين وبساتينها إذ لم يكن في البلدة مدرسة أبداً، لأن بناء المدرسة أعطي لصف ضباط فرقة الطيران الالمانية التي كان مركزها جنين.

كنت تعلمت القراءة من قبل في دمشق والناصرة، لذلك كنت أقرأ أي كتاب تقع عليه يدي: قصة عنترة، تغريبة بني هلال، وسيرة سيف ابن ذي يزن وألف ليلة وليلة (في الطبعة الأصلية). وفي يوم، في غفلة من الزمن، حصلت على كتاب «ماجدولين»، أو «تحت ظلال الزيزفون» للمنفلوطي، فقرأته مرتين متواليتين (كان ذلك في ٣ و٤ تموز ١٩٢١). ومما قرأت أعداداً كثيرة من مجلة «المحبّة» التي كان قد أصدرها فضلو أبي حلقة الطرابلسي في حيفا. هذا كان زادي ومعادي. ثم فتحت المدرسة في مطلع ١٩١٩ وقضيت فيها سنتين، تقدمت في نهايتهما لامتحان دخول دار المعلمين. كنت في وسط الرابعة عشرة وكان من الضروري أن أكون قافزاً الخامسة عشرة حتى أتمكن من التقدم للامتحان المذكور، وكان في يديّ كوشان نفوس عثماني رسمي أنني مولود في ١٩٠٧ وهو ما يثبت أنني مقصر سنتين عن المطلوب. حاولت تزوير كوشاني العثماني ففش الحبر وأتلف المحاولة، فمزقته انتقاماً. ذهبت في اليوم التالي الى الحاج حسن مختار الحارة الغربية في جنين، وكان مقرّه الدائم في المقهى، وقصصت عليه حكايتي وطلبت منه تزويدي بشهادة ميلاد تقول بأنني ولدت سنة ١٩٠٥، ففعلها حالاً. وذهبت بعدها الى مساعد حاكم جنين عارف العارف (منحه الملك عبدالله فيما بعد لقب باشا) وطلبت اليه المصادقة على الشهادة تلك، ففعلها حالاً. عندها أصبح بيدي سلاحي واقتحمت التاريخ من الرابع الابتدائي في مدرسة جنين الى دار المعلمين في القدس.

قضيت مع هذه الدار بمعلميها ومديرها وطلابها ثلاث سنوات حافلات: درساً وصحبة وقراءة وزيارات «قدسية» ورحلات، فخرجت وقد تم لي من النضج فوق الأعوام الستة عشر والنصف التي بلغتها يوم تناولت الشهادة من يد السكرتير العام لحكومة فلسطين صيف ١٩٢٤. هذه الشهادة يسّرت لي عملاً في التعليم براتب تسعة جنيهات وخمسة عشر قرشاً مصرياً في الشهر. وكان أن عيّنت معلماً في المدرسة الابتدائية في الناصرة وكان في ذلك مدعاة سرور كبير لي، لكنه سرور لم يتم، إذ نقلت بعد اسابيع سبعة الى قرية ترشيحا في قضاء عكا. حسبت النقل الى ترشيحا بادىء ذي بدء نفياً... لكن، حين وصلت المكان وتعرّفت الى مجموعة من الشباب وجدتني قد استبدلت أهلاً بأهل. في السنة التالية نقلت الى مدرسة عكا الثانوية لأبقى عشر سنوات من شبابي (١٩٢٥-١٩٣٥) معلماً للتاريخ والجغرافيا ومدرساً لغيرهما من المواد. كنت أيام الطلب في دار المعلمين، وحتى في السنوات الثلاث الأولى بعد تخرجي منها، معنياً بالرياضيات ودرسها، وأملت ان تتاح لي فرصة للذهاب الى

جامعة للتخصص في هذه المادة، لكن الفرصة لم تتيّسر، وتعليمي للتاريخ حبّبني فيه فانصرفت اليه بكليتي معنياً بقديمه أصلاً وفصلاً. من هنا جاء اهتمامي بالآثار فزرت في هذه الفترة أكثر الأماكن التي تم فيها تنقيب أثري في فلسطين ولبنان حتى جبيل. وقضيت في عام ١٩٣٢ أربعة أيام أعمل مع السير فلندرز بتري في حفرياته الأثرية في تل العجول جنوبي غزة، لأتعرف الى الطريقة التي يستخدم بها الآثاريون الرفش والمعول للتنقيب، والقفّة لحمل الآثار الصغيرة من حيث توجد الى حيث تُفحص...

معرفيّات تاريخية ومختزنات

* اختزنتُ الكثير من المعرفيات التاريخية ولكن المهم هو أنني أقرأ منفرداً وأفكر منفرداً وأوازن القضايا التاريخية منفرداً، إلاّ عندما يتاح لي الذهاب الى القدس فأجتمع ببعض العلماء المشتغلين بالتاريخ والآثار، وكان هذا يأتي لماماً. وكان المستر فارل مساعد مدير المعارف المهتم بالتاريخ يجيبني عن أسئلتي إذا توجهت اليه!

هكذا كان من أول الأمور التي اهتممت بها حين ذهبت الى لندن طالباً في جامعتها (١٩٣٥-١٩٣٩) هو أن أخرج ما اختزنت من معرفيات لتهويتها والتخلّص من غبار ما علق فيها، وأهم من ذلك هو أنني، في جامعة لندن وفي جامعة ميونيخ حيث درست سنة ١٩٣٧، وجدت من يحاورني وأحاوره ويناقشني وأناقشه ويجادلني وأجادله من أساتذة ومدرّسين وطلاب، فاستعضت في هذه الفترة عما افتقدته من قبل. فضلاً عن ذلك عشت هذه السنوات في انكلترا حياة حرة اجتماعياً وسياسياً وفكرياً (على عكس ما خبرته في المانيا من كبت في كل شيء-أيام الهتلرية).

في فلسطين، أيام الانتداب الانكليزي، كنا مقيّدين في كل شيء، إذ لم يكن هناك حتى مجال لانتخاب مجلس تشريعي ولو مزوّر. وحتى لما كان من حقي أن أشارك في انتخاب المجلس البلدي في عكا، لبلوغي السن القانونية، وجد رئيس اللجنة الانتخابية أن المبلغ الذي أدفعه إيجاراً لبيتي كان دون الحد الأدنى الذي يسمح لي بالمشاركة في الانتخاب فحرمتُ من ذلك.

يمكن ان نتصور مدى الشعور الذي أحسست به في إنكلترا بعد وصولي بشهرين حين رأيت الناس يشتركون في انتخابات برلمانية عامة.

بنية المؤرخ / الكتابة التاريخية

* كانت رغبتي أولاً معرفية علمية حصلت بها على بكالوريوس (إجازة في التاريخ) من جامعة لندن سنة ١٩٣٩. وبعد ان عملت في التعليم بالكلية العربية في القدس ثماني سنوات، عدت الى جامعة لندن للعمل للدكتوراه. ثمة فرق مهم وهو ان الشهادة الأولى كانت في التاريخ الكلاسيكي بينما الدكتوراه كانت في التاريخ الاسلامي. أشعر أنني بدأت بوضع اللبنة الأساسية في صيرورتي مؤرخاً سنة ١٩٣٠ أي قبل أن أذهب الى الجامعة للمرة الأولى بخمس سنوات. كانت المناسبة أنني قرأت النصوص والوثائق عن معركة مجدّو التي انتصر فيها تحوطموس الثالث على الأمراء الشاميين الذين تجمّعوا فيها لصدّ هجومه (١٤٥٧ ق.م). أردت معرفة أرض المعركة فذهبت الى المكان وقضيت يومين في قرية قريبة اسمها تل المتسلّم. درت في أنحاء مجدّو وما اليها، وكانت بعثة المعهد الشرقي في شيكاغو تقوم بالحفر الأثري هناك فزرت القائمين على الأمر، وتجولت معهم في بقايا القلعة الكبيرة، وقرأت تقريراً مختصراً عن أعمالهم، ثم أعارني الدكتور ستابلز نسخة من تقرير آخر حملته معي الى عكا. لكن الأمر لم ينته بي عند هذا الحد، فسرت من مجدّو عبر وادي عارا الى السهل الساحلي في فلسطين لأتأكد من الطريق الذي عبره الفرعون وجنده. عندئذ كتبت مقالاً عن الموضوع نشر في

مجلة «المقتطف» عام ١٩٣٠. يومها أدركت أنني يمكن ان أكون مؤرخاً. وإقامتي الأولى في لندن أتاحت لي فرصاً كثيرة للتدريب والتدرّب على الكتابة التاريخية على أيدي اساتذة أمثال ماكس كيري (أستاذ التاريخ القديم في جامعة لندن) ومارغريت دراور وسواهما.

بعد عودتي الأولى من انكلترا الى القدس، وأثناء اشتغالي بتدريس التاريخ، وضعت الكتب التالية: «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى» (١٩٤٣) وكان هدية «المقتطف» الى قرائها وهو باكورتي؛ «صور من التاريخ العربي» (القاهرة ـ ١٩٤٦)، «العالم القديم» وهو في جزئين (يافا ـ ١٩٤٥ و١٩٤٧)، «عالم العصور الوسطى في أوروبا» (يافا ـ ١٩٤٦). ومع ان كتابيّ «العالم القديم» و«عالم العصور الوسطى في أوروبا» كانا مدرسيين غير انهما جاءا نتيجة بحث علمي دقيق وتصوّر للتاريخ صحيح.

قد يستغرب القارىء أنني حين عدت الى جامعة لندن للعمل للدكتوراه وخصّصت لي الدائرة في كلية الدراسات الشرقية والافريقية مشرفاً هو الدكتور رايس، وجدتني اكتب رسالتي باشراف نفسي على نفسي، فالمشرف اجتمع بي ثلاث مرات يتامى خلال السنتين ولم يقرأ حرفاً واحداً من رسالتي.

في عام ١٩٤٩، وفي تشرين الأول تحديداً، التحقت بالجامعة الاميركية في بيروت في دائرة التاريخ، وعملت فيها أربعاً وعشرين سنة (حتى ١٩٧٣).

التاريخ والتاريخ / حركة التاريخ

* في اللغة العربية كلمتان هما تأريخ وتاريخ. التأريخ (المهموزة) تدل على تدوين الأحداث كأن تقول ان الدولة الأموية انتهى أمرها سنة ١٣٢ هـ ـ ٧٥٠م وقامت الدولة العباسية في السنة نفسها. هذا تأريخ للحدث لا أكثر ولا أقل أي تدوين السنة التي وقع فيها، ولكن كلمة تاريخ (غير المهموزة) لها دلالة أخرى أكبر وأوسع واشمل وأعم. فإذا أخذنا ما أشرنا اليه، أي انتهاء الدولة الأموية وقيام العباسية، من حيث أن الأمر تاريخ لا تأريخ، وجدنا أن فيه حركة بدأت قبل وقت طويل وانتهت ـ إذا كان يجوز القول ـ بعد ذلك بوقت طويل أيضاً. والذي أريد قوله هو أن التاريخ حركة، حركة دائمة، وأنا استعمل كلمة حركة التاريخ عامداً ولا أقول سيْر التاريخ أو مسيرة التاريخ. فالسير أو المسيرة كلمتان تدلان من منظوري على اتجاه في خط واحد على العموم؛ لكن الحركة لا تتقيد باتجاه واحد، فقد تكون الى الأمام أو اليمين أو اليسار أو إلى فوق أو إلى تحت، وتراني لم أقل إلى الخلف، لأنها لا تتجه الى الخلف. إنها تتطلّب شيئاً فيه دفع وليس فيه رجوع.

فإذا كان التاريخ حركة، فلنأخذ نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مثلاً لتوضيح معنى حركة التاريخ كما أفهمها (وأنا لست مسؤولاً عن فهم غيري لهذا المصطلح)... الدولة الأموية التي أتمت خلق دولة الخلافة ووضع حدود هذا المجتمع الجديد وتعريب الادارة والمساعدة على نشر الاسلام واللغة العربية، وبعبارة أخرى هذه الدولة الكبيرة التي كانت تبدو وكأنها سيطرت على كل شيء، كان فيها شروخ كبيرة وأخرى صغيرة. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الخلاف القيسي اليمني، والخلاف حول قضية السلطة ومصدرها ومعناها، والخلاف حول ما استأثر به بنو أمية بالنسبة لمن تبقى من قريش. هذه الشروخ كانت تعمل في جسم الدولة تمزيقاً وتفتيتاً فيما كان خصوم الأمويين، أي العباسيون في دور القيادة، ينظّمون صفوفهم ويرتّبون أمورهم لكي ينتزعوا السلطة من الامويين. وتم لهم ذلك في ١٣٢ هـ ـ ٧٥٠ م. ولكنّ هذه الشروخ التي رأينا في جسم الدولة الأموية قد استمرت، فظل الخلاف القيسي اليمني قائماً وظل الخلاف حول السلطة، مصدراً وأسلوباً قائماً. وفي أيام العباسيين دخل شرخ آخر جديد هو عنصر الجنديّ الأجنبي، فارسياً كان أو تركياً، فانضاف بذلك نوع جديد من التوتر، وكان من أثره أن التفتّت الذي بدأ ينخر في جسد دولة الخلافة أيام

الامويين زاد قوة بسبب هذا العنصر الاجنبي. هذا ما اقصده بقولي حركة التاريخ. وليس من الضروري ان تستمر الفعاليات أو العوامل في سيرها على شكل واحد، لأن المهم ان يدرك أي كان ان هناك شيئاً اسمه الانسان قائداً أم زعيماً أم رجلاً عادياً في السوق والبيت، وأنه له دور أساسي في حركة التاريخ؛ قد يكبت وقد يسجن وقد يقتل أفراد منه، ولكن العنصر البشري لا بد ان يظهر في أحد الأوقات. وما أراه أن الكثيرين ممن كتبوا عن الدولة الأموية انتهاء والعباسية ابتداءً نظروا الى القضية نظرة سطحية، فدارت أحاديثهم حول شخصيات كانت مركز القيادة، ولكنهم نسوا أن هناك جموعاً غفيرة كانت تتحسس أموراً لا تعجبها، وأن هذه الجموع هي التي كانت في النهاية وقيد النار. كثير من المؤرخين يصرون على ثلاثة أمور في درسهم التاريخ؛ الأول: الأسباب البعيدة والقريبة. والثاني: مسيرة الأحداث. والثالث: النتائج. وهم بذلك يضيقون على أنفسهم أولاً و«يحشرون» طلابهم في زاوية أضيق.

ومن هنا في رأيي كان هذا التعثر الذي منيت به كتابة تاريخنا على أيدينا.

إنسان التاريخ

* السؤال وإعادته عن أمور في التاريخ كثيرة وآمل التحدث عن هذه كلها هنا، ولكن أرجو الحرية في ترتيب هذه الأمور والتعامل معها. لنبدأ مثلاً بفكرة تبدو بسيطة بقدر ما تظهر معقدة وهي الغاية من التاريخ. لماذا ندرس التاريخ ونكتبه ونتغنى ونستشهد به ليلاً ونهاراً. ليس من اليسير استعراض مثل هذه المشكليات عبر عصور طويلة[1]. ولكن أتوقّف عند رأي أبداه الانكليزي فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٢) عن هذا الموضوع بالذات. كان الرجل يدعو الى توسيع آفاق المعرفة في سبيل إتقان أساليب البحث عن الحقيقة، ويرى أن التاريخ أداة طيّبة وإن لم تكن طيّعة للبحث عن الحقيقة في مظانها المختلفة؛ ويرى أيضاً أن التاريخ (غير المهموز) هو عملية مستمرة تطورية معقدة. وجاء هردر الالماني (١٧٤٤ـ١٨٠٣) فأضاف الى رأي بيكون أن هذه العملية المستمرة هي مسيرة تقدمية بمعنى أن البشرية تسير الى الأمام وتضيف كل فئة شيئاً جديداً لجمّاع ما ينتجه البشر.

إلى جانب هذه الغاية التي تبدو فكرية بحتة هناك الأشياء التي قال بها الناس ولا يزالون: إن التاريخ يعلمنا الأمثولة، وبذلك نتجنب أخطاء الماضي عندما نعرفها في سيرنا المستقبلي. وأنا، مع احترامي لجميع الذين يقولون بذلك، أراني مضطراً الى القول بعكس ذلك تماماً. فلو أن البشرية، مجتمعة أو متفرقة أمماً وشعوباً، تعلمت فعلاً من دروس التاريخ لما تكررت أخطاؤها في شؤون الحرب والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي نعانيها اليوم، ولبنان خير مثل أو شرّ مثل على ذلك. ولكن، مع هذا، يجب ألا ننسى أن التاريخ يوضح لنا الماضي الذي قد يساعدنا على فهم الحاضر، وبذلك قد يتمكّن أدباؤنا من رسم صورة أنظف وأصحّ للمستقبل. والمهم في هذا كله أن يتذكر الناس الإنسان، فرداً ومجتمعاً، ودوره في حركة التاريخ.

فلسفة التاريخ / نظريات..

* السؤال عما هي الفلسفات التاريخية المختلفة، أي كيف فسّر القوم حركة التاريخ، يقودني بوصفي بعيداً عن الفلسفة الى تفضيل استعمال نظريات وآراء بدل فلسفات. لعل اقدم ما قبله المفكرون في إطار الديانات التوحيدية هو أن كل شيء يسير بارادة الله. هذا التفسير الديني شاع مدة طويلة ولا يزال مقبولاً لدى عدد من أهل الفكر المرتبطين بشكل خاص بالتفسيرات الغيبية للكون. على سبيل المثال، فالذي يؤمن بصحة ما جاء في سفر التكوين (العهد القديم) حول الخليقة مضطر بطبيعة الحال أن يقبل بالباقي. أما الذي أتيح له أن يرى في هذه

الأسفار المتعدّدة نوعاً من إعادة الكتابة وإعادة التحرير توصلاً الى تقرير امور خاصة، فلا يمكنه القبول بالأمور الباقية. فما يعرفه الباحثون في «العهد القديم» أن أسفاره لم تكتب وتعد كتابتها اكثر من مرة فقط، ولكن يعرفون أن أجزاء كبيرة من هذه الأسفار حُوِّرت الى حد يمكن القول فيه أنها زُوِّرت لإثبات أن الشعب اليهودي هو شعب الله المختار، وأن له أرض ميعاد هي فلسطين.

هذا التفسير الديني، أو الغيبي أو الماورائي (نسبة الى ما وراء الطبيعة)، يرى إصبع الله ويده في مآتي البشر. والغريب أنه يرى هذه اليد في الخير وفي الشرّ.

وقعت، في يوم، تحت تأثير التفسير البطولي للتاريخ، أي أن التاريخ إنما يضعه أفراد متميِّزون. ولهذا قصة: وقع في يدي كتاب «الأبطال وعبادة البطولة» تأليف توماس كارليل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) منقولاً الى العربية في ترجمة أنيقة. أعجبت بالكتاب لأن المؤلف كان وضعه على شكل يأخذ باللبّ. وبعد مدة قرأت الكتاب في أصله الانكليزي فخرجت مبهوراً برأي هذا الرجل الذي كان يمثل مدرسة في «فلسفة» التاريخ تقول بأن المهم في فهمنا للتطور البشري هو البحث عن البطل الذي قاد الجموع قائداً حربياً كان أم زعيماً روحياً أم ملكاً إدارياً كبيراً.. إلخ... فالإسكندر ويوليوس قيصر وفردريك الثاني ملك بروسية كانوا بالنسبة الى هذه المدرسة هم الذين صنعوا أقوامهم وأزمانهم وحضارتهم. ولعل مما زاد في تعلّقي بهذا الرأي هو أن كارليل أدخل في عداد الذين تمثل بهم أبطالاً وزعماً يحركون العالم: النبي محمداً. أنا عربي والنبي عربي وتاريخ العرب جزء من تاريخي، كما أنني واحد من هذه الجماعة التي تحركت فأحدثت ضجة روحية فكرية اجتماعية سياسية كبيرة على نحو لعل التاريخ لم يعرف لها مثيلاً من قبل.

لكن هذا الانبهار بالنظرية والرأي لم يطل أمده في نفسي أني وضعت هذا الرأي على ما كنت قرأته من التاريخ (وذلك قبل ذهابي الى جامعة لندن) فوجدت أن هذه النظرية تتجاهل وجود الناس العاديين وأنا واحد منهم، فكيف يمكن للتاريخ أن يتحرّك لمجرد أن يقف شخص ويأمر الجموع بالسَّير. أين تكمن هذه البذرة البشرية الانسانية حتى يأتي أي زعيم فيكبت هذه البذرة بحيث يتحرك الناس كأنهم تماثيل في هذا الهيكل الواسع للعمل البشري.

الأزمنة والتفسيرات / الكائن التاريخي

كان أول كتاب قرأته قراءة جدية في التاريخ هو «الأزمنة القديمة» لجيمز برستد الذي وضعه قبل منقلب القرن الحالي. قرأته بالانكليزية عام ١٩٢٢، وقبل أن ينقله دواد قربان الى العربية بسنوات طويلة. برستد كان قد أخذ بالرأي القائل بأن البشرية كانت تتطور باستمرار نحو الأفضل، وهو الرأي الذي قال به كل من بيكون وهردر كما أسلفنا. لكن هذا الرأي انساب على أكثر من مجال واحد وأثر على الفكر تأثيراً كبيراً بعدما أصدر داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) مؤلفه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩ الذي أوضح فيه نظرية التطور[٢] التي انتشرت بسرعة كبيرة في الغرب وأصبحت أداة فكرية لتفسير تطورات المجتمع المختلفة حضارياً وتاريخياً وعلمياً. وتأثر المؤرخون بذلك فوضع عدد كبير منهم مؤلفاتهم على أساس أن حركة التاريخ مستمرة قدماً وبتقدّم ـ من مجموعة من البشر الى أخرى ومن مكان الى سواه ومن فترة الى ما قد يتبعها. فكتاب برستد المذكور أخذ بهذه النظرية فكان عنده أن الحضارات الأولى التي قامت في مصر وبين النهرين نشأت عنها حضارات متقدمة في ما تلا. ثم جاء اليونان على مسرح التاريخ فساروا بالعالم خطوة أخرى أكبر. وكان للرومان دور حضاري يختلف في طبيعته عما سبق لكنه شكّل خطوة الى الأمام أيضاً. فأنا بين التفسير الديني الغيبي والتفسير البطولي وهذا التفسير التطوري اخترت مع الوقت شيئاً أرضاني فكرياً من حيث كونه قاعدة لا فلسفه. هذه القاعدة هي أن هذا

الانسان، الذي قضى حتى الآن على سطح الأرض كل القرون المتسلسلة وانتشرت أعماله في رقاع البسيطة وفيها خير وشر وتقدم وتخلّف، لا يمكن ان تكون أعماله نتيجة فاعل واحد يحركه. لا مفرّ من ان تكون ثمة مجموعة عوامل هي التي تستنهضه الى العمل أوتقعد به. اما ما هي هذه العوامل وكيف تؤثر ويتأثر بها الكائن فكان لا بد لي أن أقرأ أكثر وأتعلم أكثر قبل وصولي الى شيء يصحّ الوقوف عنده.

تعرفت في الثلاثينات الى شيء سمي التفسير المادي للتاريخ وهو ما قال به كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٦٦). ومع أن هذا الراي التاريخي كان أقدم من آراء داروين فإنه كان بحاجة الى ثورة أكتوبر ١٩١٧ الروسية ليتاح له من يشتغل على نشره في الداخل والخارج. وقد انتشر هذا الراي انتشاراً واسعاً في اوروبا وغيرها في سنوات ما بين الحربين بحيث انه أصبح زياً عند بعض المؤرخين. فالمهم فيه أنه اتخذ أشكالاً في شيء من الثبات بحيث فقد بعض البريق مع الوقت. وأقول إنني لم آخذ بهذه النظرية، ومن هنا قيل عني في مناسبات أنني مؤرخ محافظ رجعي.

دراسة التاريخ / شبنغلر وتوينبي

في السنوات التي قضيتها في جامعة لندن (١٩٣٥ / ١٩٣٩) شغل المفكرون في أوروبا بمؤلف وضعه شبنغلر الألماني بعنوان «سقوط الغرب» وخلاصة رأيه أن الدول تمر بأطوار ثلاثة: النشوء، والوصول الى القمة، فالزوال. وأراد تطبيق هذه النظرية على العالم الأوروبي الحديث يومذاك، لكن الذي سرق الأضواء من شبنغلر ومؤيديه كان أرنولد توينبي (١٨٨٩-١٩٧٣) الذي قال يومها بنظرية التحدي والاستجابة، التي وضع حولها مؤلفه الكبير بالانكليزية «دراسة التاريخ»[٣]. دراسة توينبي كانت نتيجة بحثه في تاريخ البشرية من حيث انه تاريخ حضارات لا دول، وقد اختار سبعاً وعشرين حضارة فاطّرها وحلّلها واستخرج منها الثابت والمتحول والمنتقل من الواحدة الى الأخرى، وعزل من هذه الحضارات تلك التي عجزت عن الاستجابة للتحدي فتحجّرت. يمكن تلخيص فكرة توينبي في أن الجماعات قابلها تحد في حياتها، فالتي استجابت لهذا التحدي خلقت / صنعت حضارة كانت هي الأصل. ومثله في ذلك ما قامت به جماعات أرض الرافدين ووادي النيل التي حين تحدّتها العوامل الطبيعية جفّفت المستنقعات وافترعت التربة وصنعت الحضارة الأولى. ثم توالت التحديات للشعوب المختلفة، فالتي استجابت سارت في الحضارة قدماً. وقد استهوى توينبي الكثيرين. لكن، أعود فأقول إن كلاً من هذه النظريات التي عرضنا لبعضا كانت تنظر الى الحركات التاريخية في زاوية محدودة وقد تكون ضيقة. ولعله من حسن الحظ أنني لم أبقَ أسيراً لأي من هذه النظريات فكنت أفيد من الكل، بحيث يكون للتفسير المأخوذ به أحياناً كثيرة زوايا أوسع وآفاق أبعد مدى[٤].

التاريخية والالتزام / كيف أكتب التاريخ

* من اليسير التحدث عن الفلسفات أو النظريات التاريخية شارحاً أو منتقداً، ولكن من العسير أن نحدد لنفسنا زاوية معيّنة نقبل بها لتفسير الحركة التاريخية. هذا ما يظنه الكثيرون وأما الواقع فهو أن الذين لا يحددون مواقفهم من أي من الفلسفات المشار اليها سابقاً وتلك التي تركناها جانباً، يسمحون لأنفسهم بحرية التعامل مع العوامل الفعالة المؤثرة في الحركة التاريخية، بحرية لا بتخوف من الالتزام. ولعل شرّ ما يمكن أن يصيب المؤرخ هو الالتزام المسبق بنظرية أو مدرسة معينة.

لعل الأمر الذي يجب الانتقال اليه الآن هو: كيف أكتب التاريخ، ولا أقول كيف يُكتب التاريخ. ثمة أمران حريان بالنظر وهما المادة التاريخية / المصدر، والأسلوب المتبع في تنظيم هذه المادة وترتيبها وتحليلها

وتركيبها وعرضها. أما من حيث المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ فهي على نوعين: المكتوبة أو المدوّنة، والمتناقلة أي التي يرويها الناس. والأصل في المدونة أن نصَّها لا يتبدل كثيراً إذ لا يخلو الأمر من أخطاء تأتي على أيدي النساخ، أو تصحيفات تأتي نتيجة خطأ في وضع النقاط على الحروف... أما المتناقلة فما أكثر ما تتعرّض للزيادة والنقصان وتبديل الكلم وحتى الأسماء، ومن ثم فهي أولى بالحيطة والحذر من المدونة، وهي تشمل الأساطير والخرافات والقصص والأمثال وغير ذلك مما يتناقل. من الغريب ان يهمل كثير من المؤرخين هذه الروايات معتبرين إياها من الكلام الفارغ. ولكن كيف يمكننا فهم حتى بعض المدوَّن من الأخبار إذا نحن نسينا أو تناسينا ما حمله الزمن لنا عبر فتراته من أساطير الآلهة القديمة وأبطال السماء والأرض، سواء في ذلك الذي جاءنا من أرض الرافدين أو وادي النيل أو جبيل أو جبل الأولمبوس. أعتقد جازماً أنه لا يمكن لاحد أن يفهم حتى بعض ما يجري في عام ١٩٩٠ في المشرق العربي إذا رفض أن يفهم ما جاءنا من الألف الثالث أو الرابع قبل الميلاد. عندي حادثة تعود الى اليوم الأخير من سنة ١٩٣٣. وصلت مع صديقين من بلدي الى مدينة الاقصر قادمين من القاهرة بالقطار. ودرنا في شوارع البلدة الحديثة قبل انتقالنا الى زيارة بقايا مدينة طيبة التي كانت عاصمة الامبراطورية المصرية الأولى في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. فلما وصلنا ميدان البلدة لفت نظرنا تمثال لأنوبيس يتوسّط المكان. ضحك صديقاي من سخف بلدية الأقصر إذ تقيم تمثالاً لهذا الحيوان؛ أما أنا فأدركت في تلك اللحظة من تاريخ مصر ما لم أدركه من قراءة كتاب حول الموضوع. فمع أن سكّان الأقصر كانوا في غالبيتهم مسلمين وكان بينهم أقباط كثيرون، ومع أن المسيحية عرفت في مصر منذ القرن الأول الميلادي، ومع ان الاسلام انتشر فيها بدءاً من القرن الأول للهجرة، فإن أنوبيس إله العالم السفلي في مصر القديمة كان لا يزال «يُعشّش» في ضمير القوم هناك.

كيف بنا إذا كنا نتعامل مع تاريخ هذه المنطقة عبر الآلاف من السنين المتتالية. أحسب أنه من المتوجب تعلّم قراءة هذه الأساطير والقصص كما نتدرب على قراءة المخطوطات تماماً. بل لعل الدربة اللازمة في هذه الحال أهم وأدق من الدربة على قراءة المخطوطات. لنعد الآن الى المصادر المدونة أي تلك التي وصلتنا إما منقوشة على الصخور أو جدران المعابد أو مسلأت الفراعنة أو أعمدة الأباطرة، والمادة التي خلّفها رجال الحكم ورواة الأخبار وخاصة عن أهل الحكم، والمؤرخون والرحالون وغير ذلك.. لست أنوي في هذه العجالة التحدّث عن الأساليب التي يُدرَّب عليها طلاب التاريخ للتأكد من صحة النقش أو المخطوطة ودقة الترجمة عندما يكون أي منهما بلغة غير لغة الطالب والأستاذ، فهذا أمر طويل جداً، إلا أنه لا يمكنني تجنب الإشارة الى بضعة أشياء تتعلّق بهذه القضية، وهي: ١ - ان القسم الأكبر من النقوش إنما دون بأمر الحكام على اختلاف درجاتهم، ومن ثم فهذه النقوش إنما تعبّر عن أمجاد الحكام وانتصاراتهم ورضى الآلهة عنهم. لكن، لا أذكر أنني قرأت نقشاً لملك بابلي أو فرعون أو حتى أمير لبلد صغير يذكر فيه أنه انهزم في معركة. هذا نقص يجدر بالمؤرخ أن يوليه عنايته. ٢ - هناك شيء نسميه وثائق وقد يختلف اثنان في معنى الوثيقة ولكنني لا أريد الآن الاختلاف مع أحد... وليقبل كل معنى الوثيقة كما يفهمه، إلا أن السؤال هو: الى أي حد يمكن للمؤلف اعتماد وثيقة صادرة عن مقام رسمي في القديم أو هيئة أو مؤسسة سياسية في الحديث. الا ينطبق ما نقشه الحاكم على جدار الهيكل مع هذا الذي يصدر في أيامنا أو حتى قبلها عن الهيئات الرسمية وشبهها. ٣ - ان الكثير من كتب التاريخ، وأودّ الاشارة بشكل خاص الى مصادر تاريخنا نحن، قد وضع إما في القصور والبلاطات أو في أمكنة قريبة منها. ولذلك، كان المؤرخون يهتمّون باستعمال نوعين من الموازين والمقاييس، نوع يرفع من قيمة المعاصرين وآخر يحطّ من قيمة السابقين، وكم أوذي خلفاء بني أمية على أيدي مؤرخي العصر العباسي. ٤ - عندما يكون المؤرخ ملتزماً مدرسة خاصة في تفسير التاريخ، وهذه ثالثة الأثافي، فإنه يفتش وينبّش منقباً عن الأشياء التي توافق مزاجه ورأيه تاركاً ما قد

يكون الأهم والأنسب لفهم القضية مدار البحث.

الأسلوبية والانثروبولوجيا

إخالني قلت الكفاية إذ أخشى الاسترسال هنا فلا يبقى لنا متسع لأمور لازمة للدراسة. وهكذا، انتقل الى كتابة التاريخ. لا أريد التحدث عن تقنية إعداد الموضوع أي المقارنة والمقابلة والمفاضلة بين مصدر ومصدر وما يترتب على ذلك. أفرض ان المؤرخ درس مصادره بعد نثر كنانته بين يديه وقلب الأمر على وجوهه وقبل ما قبل ورفض ما رفض وهيّأ المادة لوضعها أمام القارىء. فكيف يكتب التاريخ. وما لي أتحدث عن الغير. كيف أكتب أنا التاريخ. من الامور التي مرّت بي وتمر بغيري سؤال مهم جداً هو: هل التاريخ علم. ويتبع ذلك، إذا كان التاريخ علماً فبأي أسلوبية يكتب. العقل العربي في مسيرته الطويلة غلبت عليه «الأدبية». أساليب التعبير الأدبية. ومن ثم أصبح من المقبول - ولا أقول المتعارف - أن العِلمَ يجب أن يكتب بأسلوب جاف بعيد بقدر الامكان عن أي بريق في اللغة، أما الاسلوب الجذاب ذو اللمعة والبريق فمقصور استعماله على الأدباء والشعراء. أنا قبلت الفكرة القائلة بأن التاريخ علم لكنني لم أضعه في مرتبة الرياضيات مثلاً. هكذا، لم أقبل بالرأي القائل إن العلم يتطلب الاسلوب القاسي، فكتبت التاريخ علماً بأسلوب طري. وأقول، راجياً من الزملاء الناشئين قبول هذه الفكرة: صاحبوا كتب الأدب التراثية كي تقبسوا من نورها ما يضيء السبيل في الكتابة. والمهم في كل حال أن تتمكنوا من إيصال الفكرة الى القارىء.

لم تأت اشارتي الى كتب الأدب التراثي عبثاً، فالواقع هو أن المؤرخ، واقصد المؤرخ العربي بشكل خاص، بحاجة كبيرة الى توسيع دائرة اهتماماته ليتمكن من فهم التاريخ أولاً ونقله الى المتلقّين ثانياً. فهو، تالياً، مكلف بالغوص في كتب الأدب لعله يعثر على فائدة صغيرة هنا أو هناك، وليذكر الجميع المثل: حصوة تسند حجراً كبيراً. أرجو الا يظن القارىء الطامح في أن يكون مؤرخاً أن دراسة الأدب وحده تكفي. لا، هو بحاجة الى حصوات قد يعثر عليها في قراءات طويلة متنوعة متعددة. المؤرخ يحتاج الى معرفة قواعد جغرافية أساسية على أن يقرأها ويفهمها بمصاحبة الخارطة والأطلس. والمؤرخ بحاجة شديدة الى التعرف لما يتم على أيدي الآثاريين وهم يستعملون الرفش والمعول من كشف عن حقائق مهمة لفهم التاريخ. وعلى سبيل المثال: أنا فهمت معنى قيام مدينة الفسطاط في مصر ليس من القراءات الكثيرة فحسب ولكن، حين زرت منطقة الحفريات الأثرية والتنقيبية في الفسطاط العائدة الى القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي. والمؤرخ بحاجة لفهم مبادىء الاقتصاد في معرفة كيف يتكلم على الصناعة والتجارة والأسواق. وهو يجب ان يتعرف الى الأمور المتحكمة في تطور المجتمعات لكي يستطيع فهم تنقّل السكان من مكان الى مكان آخر وتجمّعهم في مراكز مدنية أو انتشارهم في الريف. وقبل كل ذلك، فالمؤرخ، كما أرى، معني بما مرَّ بالانسان فرداً وجماعات في العهود الطويلة من تطور وتقدم وانتكاسات. فإذا أراد فهم هذا التاريخ قبل أن يكتب فعليه التعرف الى ما اهتدى اليه الباحثون في ما يسمى الانثروبولوجيا، وهي دراسة الانسان أصلاً، من حيث انه كائن بشري له ما نعرفه عنه وما نكتشف تدريجياً من طبائع وصفات وأحلام وآمال وآلام ليست كلها بنت اليوم فيك وفيَّ، ولكنها هي بنت ذاك التطور الطويل الأمد في تاريخ البشرية.

الموقف والكتابة والاستشراق

* يبدو الإصرار أحياناً على معرفة موقفي من كتابة تاريخنا. أذكر أولاً أنني وضعت ثمانية وعشرين كتاباً فضلاً عن ستة بالانكليزية. ثانياً، هذه الكتب تناولت عصوراً متفاوتة واماكن تبدو متباعدة، فعندي ما يتعلّق

بتاريخ الأزمنة القديمة وما يرتبط بالقرن التاسع عشر، وثمة ما بين هذا وذاك. أما الرقعة التي تناولتها فيمكن القول عنها إجمالاً إنها تمتد من جنوب المغرب الى أواسط آسيا. ومع ان هذه الكتب جميعها تبحث في قضايا تاريخية فالرابط الأساسي بينها هو العناية الأصلية بالحضارة والمجتمعات اكثر منها بمن يتولى شؤون الحكم، أو قيادة الجيوش في المعارك. وكان من الطبيعي، أن يضعني مثل هذا العمل أمام عدد كبير ممن نطلق عليهم اسم مستشرقين وهم الذين عالجوا تاريخنا وأدبنا وحضارتنا وفلسفتنا. فما الذي يمكن قوله في مقاربة هؤلاء.

درج الكثيرون من كتابنا على تصنيف المستشرقين الى صنفين رئيسيين: دعاة الاستعمار وحملة التبشير بالمسيحية. وأولئك الذين قد يتساهل البعض من باحثينا معهم فيتهمونهم بالجهل والعجز عن فهم النصوص العربية. أرى أن تصنيفاً كهذا ضارٌ بنا اكثر مما هو ضارٌ بالمستشرقين. لأننا عندما نتهمهم بذلك نحول بيننا وبين الافادة مما عملوه. ولذلك، أرى أن أضع بين أيدي القراء بضع ملحوظات حول هذا الموضوع دون اللجوء الى تصنيف أساسه سكّين حادة تقطع وتمنع دون ان توصل. ليس من شك عندي أن ثمة عدداً منهم كتب وعلّم لمصلحة فئة من التجار. فإنشاء كرسي الاستاذية للغة العربية في جامعة كمبردج (إنكلترا) في مستهل القرن السادس عشر كان غرضه تعليم بعض الشباب اللغة العربية ليصبحوا تراجمة يساعدون كبار التجار (وفي مقدمة ذلك شركة الهند الشرقية التي كانت تتعامل مع المشرق العربي وصولاً الى الهند) في أعمالهم. ولكن هذا لم يعن أن جميع الذين درّسوا العربية في هذه الجامعة خلال القرون الأربعة الماضية كانوا يعلّمون العربية التجارية فقط. إن دائرة اللغة العربية في كمبردج (وقد درّست فيها ١٩٤٨-١٩٤٩) أدّت للأدب العربي والفكر العربي والتاريخ العربي والفلسفة العربية خدمات جلّى. وقد يكون بين أولئك الذين شغلوا منصب التدريس فيها من خدم الاستعمار البريطاني لكن إلصاق التهمة العامة موضوع لم يعد جائزاً في أيامنا. وليس من شك عندي في أن عدداً كبيراً من المستشرقين درسوا الاسلام لأنهم حسبوا أنهم قد يستطيعون الدخول الى ثغرة فيه، وهؤلاء قلة فيما أعرف، وعاد بعضهم الى صوابه إذ لم يجد هذه الثغرة، وبين هؤلاء جماعة انتهى بها الأمر حتى إلى اعتناق الاسلام نتيجة اكتشافهم حقائق جديدة فيه لم يعرفوها من قبل. ولكن الفضل يعرفه ذووه ومن واجبنا نحن، ومن حق المستشرقين علينا، أن نشير ولو بشكل عابر الآن الى أمرين هامين، الأول أنهم هم الذين سبقونا الى نشر كتب ذات قيمة تتعلّق بنا؛ فتاريخ الطبري ومعجم البلدان[٥] وكتب الجغرافيا العربية وكنوز أخرى كثيرة خرجت من الخزائن الى المطابع ثم الى المكتبات على أيدي هؤلاء الناس، وهذه خدمة جلّى حتى مهما كانت الغاية منها.

فضلاً عن ذلك وهو الأمر الثاني، فإن لعدد كبير من المستشرقين دراسات في تاريخنا وحضارتنا في غاية الدقة، وقد مرَّ على بعضها عقود من السنين ولا نزال نحن نستشهد بما جاء فيها. يحضرني الساعة مثال على ذلك كتاب آدم متز المسمى «نهضة الاسلام» أصلاً، ولكن مترجمه الى العربية أعطاه اسماً واقعياً هو «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري». وهناك ناحية حرية بالنظر وهي اننا نحن «العرب»، بسبب الضعف السياسي الذي منينا به مدى القرنين الأخيرين من الزمن، أصبحنا «ننقز» من مجرّد توجيه أي نقد لماضينا معتبرين ذلك مصدر خطر علينا في الماضي والحاضر. وهل أقول المستقبل. فالذي أعرفه ويعرفه الكثيرون أن العرب حين كان لهم سلطة وسلطان نقلوا الى لغتهم مما كان عند الوثنيين والمسيحيين واليهود الكثير من المعرفة، وقبلوا أو ناقشوا الآراء التي كانت تخالفهم. وهذا هو الفرق بين موقف القوي في الماضي والضعيف الآن[٦].

قد يكون لبعض مفكرينا الحق في اعتبار عمل المستشرق في تاريخهم وحضارتهم نوعاً من التدخل في ما لا يعنيه، وهذه نقطة يصح الوقوف عندها. ورأيي هنا بسيط يتلخّص في أن أي تراث مهما كان نوعه هو الآن ملك لكل من يستطيع قراءته. فكما يقرأ استاذ الفلسفة الأوروبية العربي نصوصاً لديكارت وستورت وفخته

ويفسّرها ويسلّط عليها أساليبه وطرقه، يجوز للمستشرق، كائناً من كان، أن يقرأ نصاً عربياً ويفسّره. موقفنا من هذه الإشكالية هو أن نفهم هذا التفسير على حقيقته أولاً ثم نقوم بدورنا إما مثاقفة أو مشاكلة أو حرباً. لكن الذي أخشاه أنا أن أكثر الذين يخاصمون المستشرقين حملوا السيف قبل القلم وضربوا في الهواء قبل إمعان النظر فيما قيل. وقد يكون هؤلاء «النقدة» من العرب وقعوا على فصل واحد فقط، وكان هذا الفصل بالمصادفة فيه أخطاء للمستشرق فيقيمون عليه القيامة دون التعرف الى بقية عمله. وقد أصاب المستشرق الانكليزي غب (Gibb) بعض هذا الرشاش إذ نسي هؤلاء النقدة، أو تناسوا، ما كتبه عن تاريخ العرب والاسلام وما فسره لطلابه (وكنت أحدهم) من نصوص، واتهموه بالزيغ والبهتان بسبب شيء صغير جاء في كتابه «الاسلام الحديث». وكان بين المستشرقين الانكليز اثنان هما ألفرد غيّوم ومونتغمري واط ممن وصلهم الكثير من التهم لمجرد أنهما كانا قسيسين أصلاً. ولا أقول إن أكثر منتقدي الأول لا يعرفون العمل العظيم الذي قام به خدمة لتاريخ العرب والاسلام لمّا ترجم سيرة ابن هشام الى الانكليزية وأضاف اليها من الحواشي والهوامش ما جعلها غنيّة بما فيه الكفاية من حيث توضيح النصوص وإثراء تفاصيلها. أما الثاني الذي كتب كثيراً حول الاسلام، تاريخاً وفكراً، فكان من خيرة ما وضع كتابه عن النبي في جزئين وهو مترجم الى العربية: «محمد في مكة» و«محمد في المدينة»، وكتاب آخر بعنوان «ما هو الاسلام»؛ والذي أخذه «النقدة» على هذين الرجلين هو أنهما في العرض وفي الهوامش نظرا الى المسألة نظرة موضوعية وتصرّفا على هذا الأساس.

ومن اليسير إضافة عشرات الأسماء التي عالج أصحابها الأمور بموضوعية يأبى العقل المتقيّد بالغيبية تقبلها، في الوقت الذي كان من الممكن ان يستفاد في مسائل ومشكلات عديدة فيما لو سمح هذا العقل الغيبي لنفسه إمعان النظر فيها لا أن يمرّ بأطرافها فقط خشية أن تؤذيه. ومن هذه الأسماء الفرنسيون: أندريه ميكال وإيف لاكوست ورودنسون، والألمان: شبولر ورويمر وديترش، والأميركان: سميث وروزنتال وكمرون، والروسي بارتولد...

العرب والغرب المعاصر.. والتراث

* يتحدث الناس، وعلى الأخص بعض المؤرخين وأشباههم، عن فضل العرب على المدنية العالمية وهو أمر لا شك فيه. ولكن المشكلة تبدو كبيرة عندما يبالغ هؤلاء في تضخيم الدور الذي قام به العرب. مدنية العصر الحاضر هي نتاج العمل الذي تم على أيدي الناس منذ أن اهتدى الإنسان الى ايقاد النار واخترع دولاب الخزّاف واكتشف الكتابة... وسارت البشرية قدماً وكان للعرب دور كبير، فهم الذين حفظوا قسماً عظيماً من التراث الكلاسيكي وشرحوه وفسّروه وأضافوا اليه واهتدوا الى أسس جديدة في الطب والعلوم، ووضعوا قواعد جديدة في الفلسفة إلخ.. هذا العمل كان دافعاً للبشرية الى التقدم والتقدم الكبير، لكن البشرية خطت منذ ذلك الحين خطوات واسعة في ميادين العلم والطب والاختراعات والفلسفة وسواها. وقد تكون بعض الآراء العلمية التي جاء بها العرب، أو التي اهتدى اليها الأوروبيون في مطلع العصور الحديثة ذات قيمة في نفسها يومئذ، لكن يجب ألا ننسى أن ثمة أموراً منها فقدت قيمتها إذ تخطّاها الزمن واكتشف العلم بديلاً عنها.

هذا يحملني على الإدلاء برأي حول التراث، ذلك ان مفهومنا للتراث هو، في غالب الحالات، مشوّش مشوّه مضطرب. إطرح هذا: «ما الذي نقصده بكلمة التراث» على عشرة من المشتغلين به وانا أؤكد أننا قد نحصل على أكثر من عشرة أجوبة. أما أنا فأعتقد ان كل ما دوّن على أيدي علماء العرب ومفكريهم وأدبائهم وشعرائهم هو جزء لا يتجزأ من التراث. وإذا يترتب علينا النظر في هذا كله لاستخلاص ما ينفع الناس. لكن لا يجوز أن نبدأ أصلاً فنقول هذا لا يُقرأ وهذا لا يُدرس وذاك خطأ أو سخف. قرأت اليوم في جريدة النهار البيروتية (بتاريخ ٥ –

٤ - ١٩٩٠) رأياً للدكتور ابراهيم السامرائي حرفيته: «على أن من العقل الا ننظر الى التراث بقدسية ونجعله مقصوراً على ما هو إيجابي، بل ان التراث واحد في ما هو إيجابي وما هو سلبي. فأدب المجون والخمر من التراث كما أن الزهد والأخلاق الحميدة من التراث أيضاً». إذا أخذنا بهذا القول استطعنا الإفادة من دراستنا المعاصرة الحديثة في الافادة من التراث على أنه ناحية هامة من نواحي شخصيتنا العربية.

الغرب / الشرق / الاسلام

* هنا تعرض لنا مشكلة أخرى تدور حول سؤال بشقّين: إما ماذا أخذنا نحن من الغرب أو ما الذي أعطانا إياه الغرب. نتيجة للاتصال الذي تم بين المشرق العربي وأوروبا أثناء المئتي سنة الأخيرة طرأ على مجتمعنا تبدّلات. هذه ولا شك قد ضخّمت بحيث أصبحت واحداً من أسباب غرورنا وتوقفنا عن التطلع الى «فوق». الفكرة هذه تحتاج الى شيء من الشرح أرجو أن يتسع له صدر «كتابات معاصرة». بين القرن الثالث عشر (السابع الهجري) والقرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري) مرَّ بالمشرق العربي دور من أدوار التوقف عن النمو، وكأن القوم أصبحوا يعدّون الأيام دون أن يتحرّكوا فكرياً. ويبدو كأن نوعاً من التوازن قام بين حاجات المجتمع الفكرية والمصادر التي استوحى منها ما يفي بحاجاته. وهذا سبب التوقف. واكتفى العلماء بقراءة النصوص القديمة والتعليق عليها بحواش ليست دوماً ذات قيمة، ثم بوضع خلاصات للقديم منها، ثم بالاعتماد على الخلاصات والحواشي دون الرجوع حتى الى الأصول، فكان العمل الفكري مقصوراً على أمور محدودة. ويرى المفكرون ان القرن الثامن عشر بالذات هو زمن تقوقع فكري بالنسبة للعالم الاسلامي، وأخص القسم العربي منه. ولكن هذا التقوقع له سبب لا أحسب أن الكثيرين تنبهوا إليه؛ ففي الثامن عشر بدأ الغرب يهتم بالأسواق الخارجية ويتطلّع الى السيطرة عليها. وكان من الطبيعي ان يرنو الى المشرق العربي والشمال الافريقي لأنهما يقتعدان الطرق التجارية نحو مشارق الأرض. وكان من سوء حظ هاتين المنطقتين أن الدولة العثمانية، وهي المفروض أنها صاحبة القول الفصل فيهما، قد بدأت شؤونها تهتز وأمورها تضطرب، فاتجهت الدول الأوروبية نحوها مغازلة حيناً ومهاجمة حيناً، ومدافعة مرة ومحاصرة مرة أخرى. والذي أرى أن المفكرين المسلمين الذين أدركوا ضعف الدولة العثمانية وعجزها عن الدفاع عنهم رأوا في الاسلام الدرع الوحيد الواقي لهم فحاولوا الاعتصام به جهدهم وأخذوا انفسهم بتوضيحه من الداخل والكشف عن نواحي القوة فيه كي يدرأوا بذلك عن ذواتهم هذا الخطر القادم عليهم بشيء كثير من القوة والزخم. ونحن إذا درسنا آراء الشوكاني اليمني والزبيدي نزيل مصر والنابلسي والمرادي الدمشقيين[٧] وجدنا أنهم عمدوا الى كشف هذه النواحي المشار اليها.

فما الذي حدث خلال المئتي سنة الأخيرة إذن. أولاً، وصل نابوليون الى مصر سنة ١٧٩٨، وقضى فيها بعض الوقت وعاد الى فرنسا مخلّفاً جيشه فيها، ثم انسحب الجيش الفرنسي من مصر نهائياً. ثمة مقولة تتردّد عند الكثيرين من الباحثين في تاريخنا وتاريخ أدبنا هي أن مجيء الفرنسيين الى مصر شكّل بداية «النهضة العربية الحديثة». لنترك مصطلح النهضة جانباً الآن، ولنحاول أن نقرأ معنى هذه المقولة. الجيش الفرنسي كان، مثل أكثر جيوش ذلك الوقت، مكوّناً من جماعات أمية أو شبه أميّة. ولعل كل الذي كان يعرفه الجنود من أخبار الثورة الفرنسية ومبادئها وأصولها هو تحيّة العلم المثلث الألوان. ولنفرض جدلاً أنه كان بين أفراد هذا الجيش بعض المتعلمين، فهل كانوا يستطيعون أن يتكلموا الى المصريين بالفرنسية أو هل كانوا يعرفون العربية. وأريد الذهاب بعيداً في فروضي فأقول إن هذا التفاهم كان ممكناً، فهل كان من اليسير على المصريين ان يقبلوا آراء جاء بها جيش محتلّ مسيحي غريب. لا شك أن الذي تعلمه البعض عن المصريين هو أن المدفع الفرنسي والتنظيم الفرنسي للجيش كانا أقوى من بارودة المملوك وفوضاه.. لكن هذا أفاد منه محمد علي باشا في ما بعد. ثانياً،

هناك أمر يجب ألا يغيب عن البال وهو أن الفرنسيين أنشأوا في مصر مجمعاً علمياً قام على أكتاف العلماء الذين حملهم نابوليون معه الى وادي النيل، وقد روي أن عددهم تجاوز المئة من الخبراء في مجالات العلم المختلفة. هذا المجمع زاره الشيخ عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ المصري المعاصر ووصفه بدقة.. ولعله تأثر شخصياً بما رآه. وكان هناك فئة من هؤلاء العلماء الفرنسيين أرادت تعلّم العربية، فتم لها ذلك على أيدي جماعة صغيرة من الأزهريين، فكان ثمة اتصال محدود بين الفئتين. والذي أراه أن الذي خلص اليه هؤلاء العلماء المصريون هو أنه هناك عالم آخر يختلف عن عالمهم موجود خارج مصر. ثالثاً، كان بين هؤلاء المصريين الشيخ حسن العطّار الذي تولى مشيخة الأزهر في ما بعد، فلما زاره رفاعة الطهطاوي مستنصحاً ومودعاً إذ عيّن إماماً ليرافق بعثة الأفندية الى باريس (وهم أبناء أسرة الوالي الكبيرة وحاشيته)، فكانت نصيحة الشيخ العطار أن تعلم الفرنسية وتعرف الى ما عند القوم من علم ومعرفة. ولذلك، حين عاد الطهطاوي الى مصر عام ١٨٣١، بعد غياب خمس سنوات في باريس، حمل في جعبته أشياء كثيرة فهمها صحيحاً وأموراً أخرى انبهر بها ولكن وقته لم يسمح له بالغوص في معانيها.

هذا هو، برأيي، مدى تأثير حملة نابوليون في مصر ومن ثم في النهضة العربية.

كان هناك، في الوقت نفسه أو حتى قبله بعقود، رقعة صغيرة تقوم على سواحل البحر المتوسط الشرقية اسمها جبل لبنان. هذه المنطقة كانت لها صلات ثقافية مع الغرب جاءتها من طريقين، الأول مدارس المبشرين اللعازاريين واليسوعيين التي فتحت في البلاد، والثاني، وهو الأهم في نظري، جاء عن طريق المدرسة المارونية في روما التي أنشأها البابا غريغريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٤، وكان القصد منها أصلاً تهيئة رعاة متعلمين مثقفين للاشراف على الطائفة المارونية في لبنان وحلب وقبرص. كان طلابها يؤخذون من هذه الأماكن وهم في سن بين العاشرة والثانية عشرة ويظلون هناك نحو عشر سنوات يتعلمون اللاهوت والفلسفة والتاريخ والطقوس الكنسية بالفرنسية، ويتقنون الايطالية بحكم سكناهم في روما، ويدربون على اللغات القديمة التي كان بينها العبرية واليونانية واللاتينية. فكانوا يعودون الى جماعاتهم رعاة متعلمين. وقد وصل بعضهم الى الكرسي البطريركي الماروني مثل أسطفان الدويهي. وأنشأ هؤلاء الكهنة المتعلمون مدرسة عين ورقة سنة ١٧٨٩ (سنة قيام الثورة الفرنسية).

ومن ثم، لعل تأثر لبنان ببعض الآراء الغربية التي وصلته كان أعمق وأوسع مما حدث في مصر في الفترة نفسها.

وتتابعت الأحداث فأقام محمد علي دولته في مصر وأرسل الى الغرب عدداً كبيراً من الطلاب عنوا بالشؤون العسكرية والزراعية والعلمية والطبية، إذ كان كل هذا ضرورياً له في سبيل خلق دولة حديثة. وهكذا تسربت آراء غربية عديدة في نواحي الحياة المصرية. وتم للبنان وسورية وفلسطين فتح مدارس كثيرة بعضها أجنبي والآخر وطني[8] فانتقلت عبر هذه كلها آراء غربية متنوعة الى المنطقة، وكان أن جاءتنا «النهضة العربية الحديثة».

لا شك في أن الذي تم في البلاد العربية، وفي المشرق العربي خاصة، أمر حري بالملاحظة والدرس كي نتمكن من الحكم له أو عليه، وحتى لا نبقى ندور في حلقات شبه مفرغة، وقد يؤدي بنا الأمر على ما هو عليه الآن الى تكبير القضية واعتبار ان ما حصل كان كافياً. اما البحث في المسألة فسيؤدي الى التعرف الى حقيقة ما كنا عليه وما وصلنا اليه علنا ندرك مدى الفرق بيننا وبين ما يجب ان نصل اليه. ولست أقصد بذلك أن نأخذ كل ما عند الغرب، بعجره وبجره، للوصول الى ما نريد ولكن ما أرمي اليه هو التعرّف الى حقيقة وضعنا وحاجتنا وموقفنا، إذ عندها نستطيع تلمّس الطريق الصحيح[9].

الكتابة التاريخية والتدوين

* لعله من المناسب التحدث ولو بمنتهى ما يمكن من الاختصار عن العرب والكتابة التاريخية[١٠]. بدأ اهتمام العرب بالرواية التاريخية في وقت مبكر نسبياً ذلك بأن حياة الرسول كان يجب ان تدوّن، فندب ابن اسحق نفسه لذلك ووضع السيرة النبوية في أواسط القرن الثاني للهجرة. وهذه هي ذاتها التي أخذها ابن هشام بعدئذ بنحو مئة سنة وأتم ما فيها من نقص، وحذف بعض ما لم يعجبه، وخلّف لنا السيرة المعروفة بـ«سيرة ابن هشام». فضلاً عن هذا فقد كانت ثمة حاجة الى معرفة طريق الاستيلاء على مدينة أو صقع في أيام الفتوح، إذ أن ما احتل عنوة كانت تختلف معاملته المالية مع ما وقع في أيدي الفاتحين صلحاً. وثمة أمر ثالث حمل العرب على العناية بالتاريخ، أو التراجم على الأصح، هو رواية الحديث. ذلك بانه لما أخذ علماء الحديث بجمع الآثار النبوية من الرواة في القرن الثاني الهجري كان عليهم ان يستوثقوا من الرواة والرواية على أساس الإسناد والتجريح.

لسنا في معرض التحدث مفصلاً عن تطور الكتابة التاريخية عند العرب. فذلك أمر يطول شرحه، ولا شك أنه بحاجة الى ملف خاص. لكن أود التوقف عند واحد من كبار مؤرّخينا القدامى وهو ابن جرير الطبري[١١] من أهل القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي. الطبري محدّث ومفسّر أصلاً، فلما همّ بكتابة التاريخ عالج الرواية التاريخية من حيث إسنادها معالجة عالم الحديث، فدقّق وحقّق واستصفى لكنه قلما كان يقطع برأي، وإن كان قد يرجح رواية. وعلى كل فلا أريد التحدث هنا عن تقنية المؤرخ ولكنني أود النفاذ من ذلك الى ما أراه الغاية من وضعه هذا التاريخ. يمثل الطبري أولاً فكرة الزمن عند المفكرين المسلمين إذ أن هذا يمتد من الخليقة الى يوم الدين، وفيه محطة رئيسة واحدة هي حياة الرسول وبعثته. هذا مع العلم ان الاسلام لا ينكر على من سبق من النبيين أنهم مرسلون من الله لارشاد الأمم والأقوام. فالطبري في كتابه يمثل هذه الفكرة. إنه يعرض تاريخ الأمم السابقة للاسلام، ولكن الفكرة الأصلية عنده فيما أرى كانت الاعتبار بوجود هذه الأمم التي لم تكن مؤمنة تماماً. ثم يبدو وكأن المؤلف يتناساها إذ ينتقل الى حياة الرسول وهي المحطة الرئيسية عنده. ويتناول بعدئذ تاريخ العرب والمسلمين الى قبيل وفاته (٣١٠ هـ / ٩٢٣ م). أترك الآن جانباً دوره كمؤرخ وأؤكد شيئاً بدا لي وهو أن الطبري أدرك تماماً أن رسالة الإسلام قد انتشرت في رقعة واسعة كما أريد لها، وأن مجتمعاً يقبل بالاسلام حكماً وقواعد سلوك وإيماناً قد وُجد، وهو ما يمكن ان يطلق عليه ولو تجوّزاً الأمة الاسلامية. وعى الطبري ذلك، وهذا الجزء من كتابه هو توضيح لوجود هذه الأمة. ومن الحري أن نذكر أن القرن الذي تلا قرن الطبري وهو القرن الرابع / العاشر ظهر فيه عدد من الجغرافيين[١٢] تحدثوا عن الأرض التي قامت فيها مملكة الاسلام وعن الشعوب التي قطنتها. فالطبري المؤرخ وابن حوقل والمقدسي الجغرافيان يتفقون - في ما أرى - على توضيح هذه الشخصية الجديدة التي هي نتاج الرسالة الاسلامية[١٣].

مؤرخو التاريخ العربي / ابن خلدون

لا يتيسّر لي هنا أن أتابع تطور الكتابة التاريخية عند العرب ولكنني أود الاشارة الى بعض نقاط هي.

١ - إن المؤرخين العرب شغلوا بأمورهم وأمور دولة الخلافة أولاً ثم الدول المتفرعة عنها في ما بعد، فكأنهم نظروا الى التاريخ نظرة من الداخل وتوقفوا في أغلب الحالات عند حدود هذه الدول. وجل ما اهتموا به من علاقات بالدول الأخرى كان في ما يتعلّق بالحروب والغزوات والغنائم والمعاهدات؛ ٢ - اهتم عدد من المؤرخين العرب، مثل مسكويه[١٣] بتقصّي أسباب التغير في حياة الدول الاسلامية المختلفة؛ ٣ - عُني المسعودي[١٤] بالعلاقة بين الأرض والناس والتطور التاريخي، ولعل ذلك جاءه من رحلاته الى الهند وشرق إفريقيا؛ ٤ - عُني البيروني[١٥] بالارتباط بين التاريخ والفكر الفلسفي كما فهمه الهنود لأنه تعلّم اللغة السنسكريتية في بلادهم

وقرأ أفكارهم بلغتهم؛ ٥ - ابن الأثير في نظري هو أول مؤرخ عربي أدرك معنى التاريخ العالمي ذلك لأنه عاصر الحروب الصليبية من جهة وشعر بالزحف السلجوقي من جهة ثانية...

الكتابة التاريخية الواسعة النطاق هي التي يمثلها مؤرخو القرنين الثامن والتاسع هـ / الرابع عشر والخامس عشر م. من أمثال المقريزي[١٦] وابن تغري بردي والسيوطي، وهي التي تتعامل مع التاريخ على أنه تاريخ العالم المعروف يومئذ.

وينتصب أمامنا بين المؤرخين من أهل القرن الثامن / الرابع عشر عملاق[١٧] هو ابن خلدون. إنه ينظر اليه من ناحيتين الواحدة أنه مؤرخ وضع كتابه الضخم «ديوان العبر». وميزة ابن خلدون الرئيسية في هذا المؤلف انه اعطى العجم والبربر والبدو والحضر حقهم في صنع التاريخ العربي الاسلامي. والثانية هي المقدمة المعروفة باسمه. هذه كما يعرف قراء «كتابات معاصرة» ليست تاريخاً وإنما هي دراسة في شؤون العمران والمجتمع البشري كما فهمه هذا العبقري. لا شك ان الدخول في متاهات المقدمة أمر لذيذ مفيد لكن مثل هذا يجب تركه الى فسحة أوسع من القراءة، أما ما يمكن قوله الآن فهو أن المؤلف وضع قواعد علمية لما يمكن تسميته علم الاجتماع، ولكن كان من سوء حظ كاتبنا والعرب أن الرجل لم يقرأ قط بعد وفاته ببضعة عقود. وكان أول من اهتم به مفكر تركي ترجم جزءاً من المقدمة في القرن السابع عشر، وقد اكتشف المستشرقون (دي ساسي.. وغيره) ابن خلدون ومقدمته في أوائل التاسع عشر، وعرفوا فضله، لكن أوغيست كونت كان قد وضع أسس علم الاجتماع الحديث قبل ان يعرف ابن خلدون. اما العرب فقد عرفوه مقدمة وتاريخاً في النصف الثاني من التاسع عشر.

هل صحيح ان مقدمة ابن خلدون فلسفة تاريخ؟ الإجابة تقتضي معرفة أمرين، الأول معنى فلسفة التاريخ، والثاني إدراك ابن خلدون لهذه الفلسفة. لا أظن أن كاتبنا صاحب فلسفة تاريخية خاصة. الرجل عنده آراء تاريخية تتعلق بقيام الدولة وبلوغها الرشد ثم انحطاطها. هذه الآراء حرية بالعناية لكن ابن خلدون اتخذ من هذه الآراء التي استخرجها من كتابته للتاريخ ركائز وأسساً لتحليل المجتمع والتعرّف الى العوامل المؤثرة فيه، ومن هنا نجده مثلاً يولي الصنائع المختلفة اهتماماً خاصاً بسبب قيمتها الاقتصادية والاجتماعية، ويعنى بالمدن نشوءاً وتقدماً وخراباً على اعتبارها مظاهر اجتماعية اقتصادية، ويلمح واحدنا عناية عنده بالتجارة وطرقها والأسواق وسلعها إذ يرى الارتباط بين هذه الأمور وحاجات المجتمعات القائمة يومها. ولعل أكبر ما لفت نظر هذا المؤرخ هو البداوة والحضارة وما يمكن ان يحدث عندما تتغلب الأولى على منشآت الثانية. ولعلني لا أحيد عن الصواب إذ ارتأيت ان ابن خلدون، الذي عاش في القرن الرابع عشر، أدرك تماماً مأساة المغرب العربي التي تمت على أيدي بني هلال لمّا انساحوا في أرجائه خارجين من مصر[١٩] فدمّروا بعض مدنه كالقيروان وهدموا الكثير من معالم عمرانه، وقطعوا الطريق التجاري الكبير بين النصف الغربي من المغرب العربي من جهة والمشرق العربي من جهة أخرى.

حداثة عربية في لا تاريخ

وصلنا الى آخر الفسحة المسموح بها وصار من الضروري أن نتوقف عن الكلام المباح وغير المباح، ولولا ذلك لانصرف الكلام الى ما لا نهاية. «كتابات معاصرة» تسأل عن حداثة عربية في التاريخ. وأنا، كما تساءلت عن معنى التراث، أتساءل عن معنى الحداثة (والتحديث). وأراني قد أسقط في يدي، فلا المعجم يسعفني (وليس ثمة معجم عربي يسعف) ولا ما قرأته عن الحداثة (وهو ليس قليلاً) ينير سبيلي. فهل «أسُك» أو «أقولب» عبارة خاصة بي تفسر ما أفهمه من الحداثة، كي أتحدث عنها. وهل أنا أحلّ المشكلة بذلك. أم تراني ألجأ الى العصرنة (أرجو أن لا تختلط بالعصرونة!) لعلها تكون أقرب منالاً.

لا. أظن سأقول ما يلي (تاركاً مستقبلي في يد أهل العلم ليحكموا عليّ): نعم سأقول إن الحداثة هي - في مفهومي لا في رأيي - قلب ثوب التراث على «قفاه»، وتنفيضه من الغبار، واستخراج الصالح منه (ولكن على أي مقاس أو أساس أو قاعدة؟) ثم صبُّ هذا في عبارات جديدة فيها جميع الكلمات التي «سكّها» الشعراء والالسنيون وأهل العلم، لمجرد أنهم يجب أن «يتحدثوا» (اي أن يصبحوا من أهل الحداثة)؛ هذا بقطع النظر عما إذا كانت القواعد والأسس التي حملوها من الغرب (أو ابتدعوها عن قرب) تصلح لما عندنا. وهذا ينجر بشكل خاص على «ألسنيينا» الذي درسوا هذا «العلم» الجديد في الغرب. وكان علماؤه هناك قد استخرجوا قواعده من دراسة دقيقة للغات الهندية - الأوروبية فحمل علماؤنا «الشباب» هذه القواعد وأسرعوا الى تطبيقها على اللغة العربية، وهي واحدة من اللغات السامية (أو الشامية كما اصطلحنا نحن على تسميتها)، «خبط، لزق»، فلصقت في المحال الخاطئة.

مالي أردت أن أتحدث عن الحداثة أو التحديث أو العصرنة، فإذا بي أشتطّ. فلنعد. ولأقل باختصار أننا قبل أن نطبق ما نعتبره «قواعد الحداثة»، يتوجب علينا أن نحلل هذه القواعد ونفككها ونعيد تركيبها ثم نقيس ما عندنا وما نحتاجه بها ونسير على هدى. ولا أقول فقط إن الله يهدي من يشاء، بل أقول إن الله يهدي العالمين المدركين لمعرفتهم وحدودهم وحاجاتهم بإخلاص أهل العلم وأمانة أهل المعرفة ودقة أهل البحث. وليس لغير هؤلاء لا مكانة ولا هداية عند الله.

هوامش ومراجع

(١) عند نقولا زيادة مخطوطة جاهزة للنشر بعنوان «التاريخ: ضروبه وأبعاده وفلسفته»، وقد رجع اليها أثناء كلامه هذا. راجع ايضاً: د. نقولا زيادة، «شاميّات»، (لندن ١٩٨٩)، منشورات «رياض نجيب الريّس»، ص ١٠.

(٢) كنا نسميها نظرية النشوء والارتقاء، وهو المصطلح الذي شاع في «المقتطف» على يدي شبلي الشميّل.

(٣) «دراسة التاريخ»، في عشر مجلدات، نشرت الثلاثة الاولى منها عام ١٩٣٤ والثلاثة الثانية في ١٩٣٩ والاربعة الأخيرة في ١٩٥٩.

(٤) تراجع المخطوطة المشار اليها: «التاريخ ضروبه وأبعاده»...

(٥) أنظر نقولا زيادة: «قمم من الفكر العربي الاسلامي» (بيروت، ١٩٨٧)، ص: ١٠٥-١١٠.

(٦) أنظر نقولا زيادة: «شاميّات»، (لندن ١٩٨٩)، ص: ٢٢١-٢٤٣.

(٧) والجبرتي المصري والزياني المغربي.

(٨) .. وانشئت في بيروت أول جامعتين: الجامعة الاميركية في بيروت (١٨٦٦) وجامعة القديس يوسف (١٨٧٥).

(٩) أنظر نقولا زيادة: «شاميّات»، (لندن ١٩٨٩)، ص: ١٩٩، ٢١٠، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٧٧، ٣٧٢.

(١٠) أنظر ايضاً نقولا زيادة: «العرب يكتبون التاريخ» في مجلة الاسبوع العربي / ٢ ايار - مايو ١٩٦٥.

(١١) أنظر نقولا زيادة: «قمم من الفكر العربي الاسلامي»، بيروت ١٩٨٧، ص: ٥٦ - ٦١.

(١٢) أنظر المرجع ذاته، ص: ٧٥-٨٠.

(١٣) المرجع ذاته.

(١٤) أنظر قمم... ص: ٦٢-٦٨.

(١٥) أنظر قمم... ص: ٦٩-٧٤.

(١٦) أنظر قمم... ص: ٩٣-٩٨.

(١٧) أنظر قمم... ص: ١٧٠-١٧٦.

(١٨) أنظر قمم... ص: ١٦٤-١٦٩.

(١٩) في القرن الخامس - الحادي عشر...

٢ - نحو حياة متميزة

ألقيت هذه الكلمة لمناسبة افتتاح السنة
الدراسية ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ في جامعة البلمند
(١٩ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٩١)

(١)

نحن أبناء هذه المنطقة الواسعة، ورثة حضارات تراكمت واحدتها فوق الأخرى، وتفاعلت واحدتها مع الأخرى فوقع لنا من ذلك كله خير كثير وشر كثير. وليس من اليسير أن نصنِّفَ عناصر هذه الحضارات الموروثة، بحيث يكون ثمة خط فاصل وحد واضح بين صنف وآخر. إذ أن الامر يختلف، من حيث أسس التصنيف، من زمن الى زمن، ومن فئة الى فئة، ومن رقعة الى رقعة. وقد يصل الأمر بالناس الى النظر الى أمر واحد نظرتين مختلفتين للأمور التي أشرت اليها.

وما لي أدور حول الأمر، وأنا أستطيع أن أنتقي شيئاً واحداً يبيّن ما أرمي اليه، ويوضح الذي أدير القضية حوله. كان بين ما تفتَّقتْ عنه قرائح السلف البعيد أسطورة العصر الذهبي. تقول هذه الأسطورة بأن الانسان عاش في الأزمنة الموغلة في القدم في جنة لعلها كانت على الأرض أو لعلها قامت بين السماء والأرض. فليس المكان هو المهم بل الفكرة. ثم تبدّل الأمر فضاعت هذه الجنة من يدي الانسان؛ وأصبح يقضي حياة مثقلة بالآلام والخوف والحاجة، بعد ان كان يعيش في بحبوحة من الحياة. ولعل الاهم فيما أصابه من هذا التبدل هو أن العدل والأمن اللذين كان يتمتع بهما هؤلاء الأجداد فقدا من العالم. لذلك فأن الانسان يجب ان ينتظر حتى يجيء من بيده القدرة على اعادة العدل والأمن الى العالم، فيمتلىء بهما كما هو محكوم عليه بالظلم والجور اليوم.

هذه الاسطورة ـ أسطورة العصر الذهبي تتحكم في حياتنا من حيث لا نشعر ولا نعرف. فنحن نغمض أعيننا على عصر ذهبي مضى، ونفتح هذه الأعين في الصباح على أمل أن يعود هذا العصر أو ما يشبهه. ولا نستطيع نحن أن نقرب عودة العصر الذهبي هذا. ذلك بأن هذا أمر يخرج عن طوقنا وارادتنا، ويجب ان ننتظر حتى مجيء المسيح الثاني أو ظهور المهدي ليتم ذلك.

وإذا كنّا لا نستطيع تبديل هذا الأمر، فمعنى هذا أننا نحن نحكم غيبياً. القوى التي تسيرنا هي قوى لا قبل لنا بتبديلها أو حتى تسريعها. وإذ كنا نحس بهذا ونتصرف على أساسه، فنحن لا حول لنا ولا طول، ولا بد من أن ننتظر إلى أن تتصدق علينا القوى السماوية بهذا الخير الذي سيهبط علينا متى رغبت هي في ذلك.

ونحن نعيش في ضبابية لا نستطيع تغييرها. وهذا الوضع هو الذي يسيرنا في أكثر شؤون الحياة. لذلك فقد تنازلنا ـ أو حملنا على التنازل ـ عن حق تقرير اي شيء في حياتنا. فنحن أسرى هذه الأسطورة، التي تشلّ إرادتنا.

ويترتب علينا ان نتقرب من هذه القوى الغيبية الخارقة. لذلك فاننا نتقدم نحوها بقلوب منكسرة وإيمان منسحق. فيزيد هذا في ضعفنا. أنا واثق من أن بعضكم هنا، وغيركم ممن قد تقع عينه على هذه الكلمات، سيقول

عني إنني مبالغ في هذا الذي ذهبت اليه. لكنني أنا أقول، وأنا واثق مما أقول، إن الاكثرية من جموعنا هي من هذا النوع، وتعاني من هذا الصنف من الاتكالية الغيبية.

(٢)

الى جانب هذا الذي يشلّ إرادتنا هناك شيء آخر يضعفنا: هو الجهل. عالمنا جاهل، واقصد عالمنا الذي نكون هنا نحن جزءاً منه. إنه، كما قلت عنه مرة، «يعيش في بحبوحة من الجهل» لا من حيث أن نحو سبعين في المئة في بعض الأقطار أمّيون، بل لأن الذين خرجوا عن طوق الامية لا يفيدون من معرفتهم القراءة، ولا يعودون على الافادة. وكيف يمكن لقوم «يقراون» أن يستمتعوا بالقراءة وليس في البلاد مكتبات عامة تضع الكتب أمام القراء؟ لست أقصد مكتبة واحدة في مدينة كبيرة؛ أقصد مكتبات الأحياء.

وإذا أتيح لهؤلاء المتعلمين ان يقعوا على مادة للقراءة فانها غالباً ما تكون أدباً رسمياً ينبع إما من فلسفة الحكم القائم أو يصدر عن مؤسسات ضيقة النظرة محدودة الفكرة، فيكون ضرُها اكبر من خيرها.

ويحار المرء منا عندما يدير ناظريه في دنيانا. فهناك جامعات ومدارس. وهذه تعلم الآلاف سنوياً. لكن هذه المؤسسات التعليمية لم تبلغ من النضج ما يجعل منها أداة خلق المواطن المتعلم حقاً.

ولعل أحد الأسباب الرئيسية لذلك هو أن هذه المؤسسات تخضع للتزمُت الرسمي الضيّق الأفق، فلم تستطع لذلك أن تخلق فينا عادة التفكير، ولو أنها أتاحت لنا كمية من العلم والمعرفة لا يستهان بها. فضلاً عن أن هذه المؤسسات لا توجد في كل مكان.

هذا فيما يتعلق بالمتعلمين. أما الأميون فهم فريسة لسلبية العجز عن القراءة، وفريسة لايجابية النهل من العناصر التي تزودهم بها الاذاعة والتلفزيون وهي تمثل في أغلب الحالات، شر ما يعرف عن الغباء الرسمي.

ونحن، من حيث التكوين الاجتماعي، قبائل وعشائر. لذلك فاننا قوم تغلب علينا الفردية في نظرتنا وتفسيرنا للأمور. فنحن نعيش أفراداً ولا نعيش جماعة.

ونحن في عالمنا الواسع نملأ الدنيا صراخاً وعويلاً. نحن نصرخ عالياً متحدثين عن تراث لنا ضخم فيه مدعاة للفخر. نرفع الصوت عالياً في التحدث عن ميزاته ومميزاته، ومجاليه وانجازاته. ثم نعول لأن هذا الزمن الذي كان لنا فيه قول قد زال، ولأن العالم ينكر علينا ما أتينا به وما حققناه. ومع ذلك فأن الذي يتحدث عنه أولئك الصارخون والمعولون هو إحياء هذا التراث والدوران فيه لاكتشاف زاوية ظلت مجهولة، أو بقعة لم يصلها النور بعد أو لم يسلط عليها بما فيه الكفاية. وينادي أولئك الصارخون المعولون بضرورة الاعتماد على هذا التراث أساساً للسير الى الأمام. ألا ترون معي أن هؤلاء هم أيضاً فريسة لأسطورة العصر الذهبي.

أنا لا أعارض قط في دراسة هذا الانجاز دراسة دقيقة. لكن الذي أريده لقومي هو السير الى الأمام، مواكبين للفكر العالمي؛ الأمر الذي قصّرنا فيه.

أرى أمامي من يتململ اعتراضاً على بعض ما قلته إن لم يكن عليه كله. بل أكاد أشعر برغبة البعض في أن يطلبوا مني أن أقف عند هذا الحد من القول الجزاف. وقد يكون بينكم وبين من قد يقرأون هذا - فيما إذا نشر - من يحتجّ على طريقتي في ما أقول. لكن الحديث عن هذا الموضوع طويل، وقد اسميته «عقدة التراث».

(٣)

ولنعد الى حيث نحن. نحن مجتمع فيه كل هذه الآفات، ومن غريب أن الكثيرين منا، حتى من المتعلمين، لا يحسون بها، ذلك لأنها توغلت في ضميرنا وتجذرت في نفوسنا، بحيث أنها أصبحت من أهل البيت، لا شيئاً غريباً عنا.

والذي نحن بحاجة اليه هو نزع هذا الفتيل الذي لا يلتهب عادة دفعة واحدة فيدمّر، لكنه يذوب تدريجاً، وهو

لذلك ينفث السم في نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا وعقولنا، بحيث أصبح هذا السم جزءاً من حياتنا، ونكاد نعتقد ان التخلص منه قد يؤذينا كثيراً.

لا - أيها الجمع الكريم! يجب أن نتخلص منه. ولكن كيف؟

والآن - يزعم البعضُ - يأتي دور نقولا زيادة الواعظ. انه سيطلع علينا الآن بوصايا؛ فاسمعوا له.

لا. ليس لديّ وعظٌ ولا وصايا. الحالة التي نحن فيها سببها أننا تعلمنا وجمعنا الكثير من أصناف المعرفة على جميع المستويات. ففينا الطبيب البارع، وعالم الفيزياء القدير، والباحث في الرياضيات الذي قد لا يكون له نظير، والمهندس الذي لا يشق له غبار، فضلاً عن كبار دارسي الفلسفة والمؤرخين الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة إلا نقّبوا عنها ودرسوها وفسروها.

ومع ذلك فأنا أدعو هؤلاء، وحتى من هم دونهم في سلّم المعرفة، الى أن يكون كلٌّ من هؤلاء عالماً. ولكن بأي معنى؟ لا من حيث كمية المعرفة أو عدد الاختراعات التي قد يسجّلها المهندس أو الطبيب أو الفيزيائي أو غيرهم، بل أن يكون كل من هؤلاء عالماً: أي أن يصبح العلم، من حيث روحه، جزءاً من نفسه، من تفكيره، من قلبه. عندها يمكن أن نتخلص من أسطورة العصر الذهبي. وأن نتخلص من التفسيرات الغيبية والنظرات الميتافيزيقية، وان نتخلص من الجهل الذي يقضي على الأفراد، وبذلك يضعف مجتمعنا. نحن بحاجة الى جماعات منكم يكون أفرادها علماء بالعلم روحاً، مهندسين بالعلم روحاً، أطباء بالعلم روحاً.

يخيل إليّ أن الكثيرين من أهل العلم فينا لو شطرنا أدمغتهم نصفين لوجدنا الشطر الواحد يحتوي المعرفة الكثيرة، لكن الشطر الآخر يقبل الآراء والتصرفات العادية التي تكتنفنا وتؤدي بنا الى ما نحن فيه.

نحن الآن نجد أنفسنا في وضع آسن. ونحن بحاجة لأن نخرج منه. ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا متى وجدت فكرة العلم والتوضيح العلمي للأمور طريقها الى حياتنا.

(٤)

جامعة البلمند نشأت في أحضان الكنيسة الارثوذكسية - تغذّت من تربتها الخصبة المعطاء، وارتوت من مائها العذب النَمير، ونعمت بدفئها، وتفيأت ظلها الوارف.

وهذه الكنيسة هي وعاء للارثوذكسية - الفكرة. والفكرة ووعاؤها شيء متميز. أقول «متميز» ولا أقول «مميز»؛ فالمميز هو الذي يضفي عليه البشر، عبر تشريعاتهم الميزة أو الميْزَة. أما التميز فهو شيء داخلي ينمو مع الزمن ويكتسب قوته ومتانته من تراكم الخبرات؛ عندها يصبح هذا كله متميزاً.

وتميز الارثوذكسية، فكرة ونظاماً، يبدو في أمور كثيرة، لكنني لن أطيل عليكم، بل انني اكتفي بأمثلة ثلاثة توضح هذا الذي ذهبت اليه.

الأول هو: إن الكنيسة الأخت البابوية أخذت نفسها بالنظام المركزي «المركَّز». فكان رئيسها النقطة الأعلى في الرئاسة والسلطة. وكانت الكنيسة تأتمر دوماً بأمره، وتخضع ابداً لتفسيره لشؤون العقيدة وطرق العبادة. ولما قامت حركة الاصلاح الديني انتهى الأمر بدعاتها الى الخروج على هذا التفرّد خروجاً تاماً. فنتج عن ذلك توزع في مراكز النفوذ، وانفلاش عقائدي على شكل غريب أحياناً. أما الكنيسة الارثوذكسية فقد كان خيارها من الأصل طريقاً سوياً، عززته تجارب القرون فقوّت اتزانه وتوازنه. فهناك نوع من التفاهم بين البطريركيات المتعددة ورجال الدين فيها من جهة، وبين العلمانيين من جهة أخرى. وإذا كانت بعض الكنائس الارثوذكسية أخلّ أفراد منها بهذا أو عجزوا عن السير قدماً في الحياة الروحية، فمرد ذلك الى أسباب كثيرة لا سبيل الى التحدث عنها الآن.

والمثل الثاني هو الاعتراف. هذا أمر ضروري في الكنيسة البابوية. أنا لا أنكر أهمية البوح في تخفيف

المصاب وآلامه مهما كان نوعه. لكن هذا الاعتراف شيء آخر. وقد كان الكثيرون من الآباء والأمهات يفخرون، وأحسب أنه يوجد حتى اليوم منهم من يفخرون، بأن الأبناء يعترفون يوم أحد ويتناولون القربان المقدس في يوم الأحد التالي. ولما ثارت فئات مختلفة في مطلع العصور الحديثة على البابوية، ألغي الاعتراف نهائياً في الكثير من مؤسساتها. أما الكنيسة الارثوذكسية فقد كان موقفها يقوم على إدراك أهمية البوح، فكان للمؤمن ان يجتمع براعي الطائفة ويبثه ما يضايقه ويحصل على رأيه أو نصحه، فتخف بلواه عليه. فالأرثوذكسية تميّزت بأنها أخذت بيد المؤمن رفيقة به مشفقة عليه، دون إكراه أو قسر. فلا هي فرضت ولا هي رفضت.

ولننتقل الآن الى المثل الثالث وهو الزواج بالنسبة لرجال الدين وغيرهم. أصرّت البابوية على التمسك بالعزوبة (أو العزوبية إن كنتم تفضلون ذلك بسبب الأغنية المعروفة) بالنسبة لرجال الدين. ومع ان الكنائس التي تغرّبت عن البابوية كانت، في غالب الحالات، تفضل الزواج للذين يقومون بخدمة الكنيسة والرعية، فان الارثوذكسية وقفت موقفاً عقلانياً بالنسبة الى هذه القضية. فالرجل الذي ينوي القيام بخدمة الكنيسة والمؤمنين له الخيار في ان ينتمي الى فئة الرهبان، وعندها ينذر العزوبة، أو أن يتزوج قبل رسامَته كاهناً.

أما فيما يتعلق بملحق الزواج وهو الطلاق، فالكنيسة البابوية لا تسمح بالطلاق، لكنها تلغي الزواج لحل المشكلة التي تنشأ عن حالة زواج صعبة. ولست أرى أنا في الغاء الزواج حلاً، بل أجد فيه تعقيداً من الناحية الاجتماعية. والكنائس الغربية الأخرى لها من القضية مواقف مختلفة. أما الكنيسة الارثوذكسية فقد سمحت بالطلاق في حالات خاصة محددة، وجعلت شروطه صعبة، لكنها لم تتزمت في الأمر تزمتاً يمنعه بالمرة.

فجامعة البلمند التي قامت أصلاً في هذا الجو من التميز، يؤمل لها أن تكون متميزة أيضاً. لكن هذا يقتضي أن تبحث عن أمور خاصة بها تميزها بنفسها، حتى عن الأم. فالعصر الحاضر يأمل من البنت ان تسبق الأم.

لذلك فانني أهيب بكم، طلاب جامعة البلمند، أن يكون منكم الجيل الذي سيكون في طليعة العلماء والمهندسين والأطباء، الجيل المؤمن بقيمة النظرة العلمية الى الأمور، وأهمية الفكر العلمي في الحكم على القضايا، والجيل المهتم بأثر هذين الشيئين في تنمية آرائنا وفلسفتنا ونظراتنا، وباختصار - حياتنا.

انا أطلب منكم ان تكونوا أنتم هذه الطليعة. ومع ذلك فانني أرجوكم ان لا تنتظروا أساتذتكم كي يقودوكم في هذا المضمار. هذا سبيل عليكم أنتم أن تخططوا له، وتشقوه، وتعبدّوه. أدعوا اساتذتكم كي يكونوا رفقاء درب لكم. وتعاونوا معهم، فأن هذا لا يضركم، ولكنه قد ينفعهم.

والى اللقاء في مناسبة تالية.

٣ ـ أنا مؤرخ

الكلمة التي ألقيت في يوم تكريمي بالحركة الثقافية
انطلياس في ٢ آذار / مارس ١٩٩٢

(١)

أنا مؤرخ. ففي السنوات الخمس والستين التي مرت بي، منذ ان علقت الموضوع، تعلمته وعلمته ودرسته ودرّسته: جمعت جزئياته وبنيت كلياته.

في السنوات الثماني الأولى كنت أقوم بالأمر منفرداً. كنت معلم نفسي وتلميذها. شاقتني الأسطورة وراقتني القصة، فقد وجدت فيها التفسير والتعليل البدائيين للأحداث: كبيرها وصغيرها. ففيما تتبع احداهما ـ الاسطورة أو القصة ـ الجُعَلَ في مساره في ظلام الأرض الرطبة، تكون الأخرى تمتطي صهوة جواد جامح لتلحق بالركب الهارب. ثم إذا بهما تتخذان من الريح مطية ومن الشمس عربة لاكتشاف السديم ونثر جواهرهما فيه ثم تقييدها في أمكنتها حتى تبدو للناس نجوماً تزين كبد السماء.

وسرت أفتش عن الآثار، ما بدا منها، مثل الأهرام وبقايا الهياكل وركام القصور، وما خفي. وهذا هو الأعظم. ذلك بأن هذا هو الذي طمرته الأيام والسنون، بعد ان هدمته يد الانسان أو هزة الطبيعة. فكان لا بد من رفش ومعول يحملهما علماء الآثار للكشف عن هذه المخبآت ـ الكنوز. فكان أن زرت الأماكن التي نقَّب فيها هؤلاء العلماء في فلسطين وفي جنوب لبنان وأواسطه. بل فعلت أكثر من ذلك ـ اشتركت مع العالم الأثري السير فلندرز بتري لمدة أربعة أيام في شتاء سنة ١٩٣٢ إذ كان يقوم بأعمال التنقيب في تل العجول في جنوب فلسطين.

وتتبعت جهدي النقوش التي خلفها ملوك العالم القديم وأباطرته مما نقل الى لغة مقروءة. وقد كانت، حتى تلك الأيام، لغات كثيرة لم تحل رموز كتابتها بعد منها الحثية والفينيقية ولغة أوغاريت وإبلا. بل ان هذين المكانين بالذات لم يكونا قد اكتشفا بعد.

في هذه السنوات الثماني كنت أحاور نفسي بنفسي، وأوازن ما أقرأه عند العارفين بالأسرار. وكانت عنايتي أصلاً بالتاريخ القديم، أي بالأصول والجذور. ولا يزال هذا مطلباً أساسياً في تعلمي وتفكيري وتعليمي.

وجاءت بعد ذلك سنوات أربع كنت فيها طالباً في جامعة لندن، في كليتها الجامعية. تلك أيام ركزت فيها على تاريخ اليونان والرومان.

كان هذا، بقطع النظر عما تعلمت وقرأت، مدرسة تدريب لي. أتيح لي أن أتتلمذ على أساتذة كبار. فلم تكن المحاضرات وحدها سبيل الاتصال. بل كان هناك المقالات التي تكتب وتناقش اما على انفراد أو أمام الزملاء. ولعل من حسنات الدراسات الكلاسيكية انها قد مر عليها نحو أربعة قرون وعلماؤها ولغويوها ومؤرخوها يقلبون الأمر فيها على وجهاته المتنوعة، فأصبحت لديهم قواعد وأسس ومناهج حرية بالعناية. وأنا، فضلاً عن انني غطست في التاريخ الكلاسيكي الى أذني، فقد أفدت، بشكل خاص من هذه القواعد والأسس، ومن خبرة اصدقائي الاساتذة.

(٢)

كنت قد تنبهت في وقت مبكر من اهتمامي بالتاريخ أن الاسطورة أو القصة يتغير ثوبها وتتبدل نكهتها عندما تنتقل من مكان الى آخر، يختلف الثاني منهما عن الأول. فالاسطورة التي بدأت في مكان ما في المحيط الهندي، حيث الرياح الموسمية العاتية هي الصفة الغالبة على المناخ في أجزاء معينة من السنة، إذا حملها القوم عبر زمن طويل، خفّت حدّتها عندما تصل بلاد الشام مثلاً. والقصة الآتية من الأصقاع الباردة لا بد ان يطالها شيء من دفء المناطق المعتدلة.

كنت قد قرأت، في أساطير الأولين، أن الله غضب على قوم سدوم وعمورة بسبب صنعهم الشر في عينيه. لذلك قرر إهلاكهم. ولأن لوط كان، فيما قيل، رجلاً باراً فقد استثني من هذا العقاب الجهنمي. وأنذرت أسرة لوط، لما غادرت منطقة الشر والفسق، ان الذي يتلفت من افرادها ليرى ما حل بسدوم وعموره، سيتحول الى عمود من الملح. ولم تتمالك امراة لوط نفسها، فتلفتت، فاذا بها تتحول الى عمود من الملح. بعد مدة طويلة، وكنت أتمتع بمناظر جبال لبنان وأنا اتنقل فيها مشياً بين العاقورة والأرز - أرز الرب - خطرت ببالي قصة امرأة لوط. عندها طرحت على نفسي سؤالاً فرضياً طبعاً: «لو أن سدوم عمورة كانتا بلدين في شمال لبنان، وكان الله قد قرر عقابهما على نحو ما عاقب سدوم وعمورة، فهل كان يحوّل امرأة لوط عموداً من الملح؟» وكان الجواب الآني الحالي هو: لا، كان يحولها شجرة من الأرز. فعمود الملح يخصُّ منطقة البحر الميت، وشجرة الأرز مرتبطة بهذه المنطقة. وأحسب أن الأسطورة كانت ستتكرم على هذه الشجرة بعينين تسيل دموعهما حزناً على أهلها. لكن كيف يمكن لعمود من الملح ان يمنح عينان، وأن تسحَّ دموعهما؟

ومن الأسطورة والقصة انتقلت في تفكيري الى الانسان: هذا الانسان الذي صنع على توالي الأزمان هذه الحضارات، لماذا اختلفت انجازاته من مكان الى مكان؟ لماذا تختلف العناصر الحضارية بين ما يتكون في جو نهري فيضاني منتظم، وبين ما يتكوّن في منطقة جبلية حرجية أو منطقة أخرى سهوبية رعائية رعوية؟ ولماذا نجد آثار المصريين القدامى في وادي النيل، ولا نعثر الا على النزر اليسير من مباني السومريين والاكديين والبابليين؟

هذا لفتني في وقت مبكر الى العلاقة المتينة العضوية القوية بين الأرض والانسان؛ الانسان فلاحاً وبدوياً ومدنياً، تاجراً وجندياً وصانعاً، عالماً ومفكراً وأديباً، سياسياً وحاكماً ونبياً. إن أهمية الوعاء الذي يتم فيه الخلق الحضاري لا تقل عن أهمية هذا الخلق نفسه.. ومن ثم فمن الضروري ان نتعرف على طبيعة المكان الذي ندرس تطور شعب ما، أو حضارة ما، فيه.

ومن هنا كان اهتمامي الشديد وعنايتي القصوى **بالتعرف** على جغرافية المكان تعرفاً تفصيلياً.

فلما رافقت انتقال الحضارة اليونانية الاصلية الى بلاد الشام كان من اليسير عليّ أن أدرك الفرق بين ما بدا فيها خلال القرون الثلاثة التي تلت قدوم الاسكندر الى بلادنا من تبدل وتطور. عما كانت عليه في ايونيا وأثينا.

ولم يقتصر الأمر، بالنسبة لي، على درس طبيعة المناخ والتربة واختلاف الليل والنهار. بل تعمقت في الأمر. فجربت أن أفهم من جديد طبيعة الحضارات التي عرفتها بلاد الشام خلال ما لا يقل عن اربعين قرناً كانت قد سبقت الاسكندر وحضارته اليونانية. إذا شئتم فقد عنيت، وباهتمام كلي، بالجيولوجية الاجتماعية للمنطقة. ذلك بأن عمل هذه القرون الطويلة لم يذهب مع الجماعات التي صنعته والشعوب التي خلقته، والآلهة التي باركته، لما تغلب قوم أقوياء عليهم.

ونقلت من عالم النبات شيئاً يسميه العلماء «الجاذبية الشّعرية» وهي آلية امتصاص جذور النبات الدقيقة لما تقدمه الأرض من ماء وغذاء للنبات. واتضح لي، بعد امعان النظر في الأمر، أن الطبقات الجيولوجية الاجتماعية

كانت تزود دوماً الطبقات الجديدة من الحضارة بغذاء أساسي: فلا يكون انقطاع تام بين انجاز قوم وانجاز قوم آخر تلاه زمناً واستقر في رقعته مكاناً.

(٣)

من المألوف في الجامعات أن يعطى طلاب التاريخ، في بدء دراستهم، مساقاً أو أكثر فيما يسمى فلسفة التاريخ تنطعاً أو تفسير التاريخ تواضعاً. ومن سيئات هذا النظام أن الطالب، الذي ينوي التخصص في التاريخ، يفرض عليه، في وقت مبكر، ودون أن يكون الامر مقصوداً، أن يختار واحداً من الآراء التي يمكن اعتمادها لتفسير التاريخ. وقد لا يكون للطالب الخيار إذا كان الاستاذ من المؤمنين بناحية معينة من فلسفة التاريخ هذه. فانه بحكم حماسه وإيمانه ونفوذه وشخصيته، إن وجدت، لا بد أن يؤثر في الطالب في بدء حياته.

أما أنا فلما جاء دوري لحضور المساقات المتعلقة بهذه الأمور، كنت قد صرفت نحو عشر سنوات وأنا أعمل في حقل التاريخ. فنظرت الى الآراء والفلسفات جميعها نظرتي الى شيء يجب ان «يُقَمَّش»، شأنه في ذلك شأن أية مادة تاريخية.

وما دمنا قد اشرنا الى فلسفة التاريخ فأن الأمر يقتضي منا ان نلم، ولو كمرور امرىء القيس بسقط اللوى، ببعض ما يساور نفوس مفسري التاريخ أو فلاسفته.

وقد اقتضى الأمر ان ينظر هؤلاء الى التاريخ من زوايا مختلفة، وأن يخضعوه الى اسئلة متنوعة: ما هي طبيعة التاريخ؟ ما هي ماهيته؟ ما هي مجالاته؟ هذا من حيث جوهره. أما من حيث الصورة أو اسلوب التعبير فالسؤال: ما هي هوية التاريخ؟ هل التاريخ علم؟ هل التاريخ أدب؟ هل التاريخ حركة أم انه هو الذي يحتوي الحركة؟ وبعد ـ فلماذا ندرس التاريخ؟ وهل في التاريخ عبرة؟ وهل التاريخ والتأريخ شيء واحد؟

هناك عدد آخر من الاسئلة رأيت أن أربأ بنفسي عن سردها لاهوّن عليكم. وبعد ان يعيد المتحدث في الموضوع هذه الاسئلة وسواها، وقد يجيب عنها وقد لا يجيب، ينتقل الى ما قد يعتبره المستوى الأعلى أي كيف نفسر هذا الذي نسميه تاريخاً. وهذه القضية شغلت المفكرين ولا تزال. والرأي الذي كان سيّد الموقف من قبل، ولا يزال سيد الموقف في انحاء كثيرة من عالمنا، هو أن القوة المسيرة للكون هي ارادة الله، وإذن فيد الله هي التي تفسر تطور الأمور: أحداثاً خيرة وشريرة، نيرة ومظلمة. فالانسان في هذه الحالة آلة. والفكرة على بساطتها وتسلطها تجرد الانسان من حقه في ان تكون له نظرة أو رأي في حياته.

وجاءت أفكار، منذ القرن السادس عشر، تقول بأن الانسان قادر بنفسه على تخطيط مصيره، ومن ثم فان الجماعة ـ حيثما قامت ـ هي التي يعود اليها التطوير. وفي عصر بناء الامبراطوريات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الذي جاء في أعقاب الثورة الفرنسية وحروب نابليون، برزت أهمية الفرد / القائد. فأصبح القوم، حيث كانوا، وأنى اتجهوا، بحاجة الى قائد فرد بطل يخطط لهم ويقودهم. ولعل توماس كارليل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) النموذج الأمثل لعرض مثل هذه الفلسفة في كتابه «الأبطال وعبادة البطولة». وكانت آراء أخرى تجد سبيلها الى الساحات على تعددها. منها أن الانسان وحده لا يستطيع العمل، اذ انه خاضع لعوامل طبيعية هي التي تدله على خطة السير، على ما كان يرى مونتسكيو. وقد كان تورغو يرى أن تطور البشرية هو تطور عضوي، بمعنى أن كل جيل يضيف الى ما سبق.

وفي القرن العشرين، كما في سابقه القرن التاسع عشر، قويت اتجاهات ثلاثة كان لها أثر كبير في توسيع الأفق في فلسفة التاريخ وتفسيره؛ وهي: التقدم العلمي الذي عرفه العالم على شكل لم يألفه في حياته الطويلة. فالأفراد الذين عندما يتعاملون مع العلم، ويسمحون له ان يصبح جزءاً من تفكيرهم وكيانهم، يتأثرون به في نظراتهم المختلفة للمسائل التي تجابههم ويواجهونها. ومن هنا فقد اتجه البعض، مثل بيوري (١٨٦١ـ١٩٢٧)

الى اعتبار التاريخ علماً يتّبع قواعد العلم ويخضع لتجارب العلم ويفسر تفسير العلم.

والاتجاه الثاني هو التقدم الكبير في التاريخ الطبيعي للانسان، أي البيولوجيا البشرية، والآراء في التطور التي بذرها داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢)، والتي مست التاريخ في الصميم. فاذا كانت الحياة تطوراً عضوياً يسير نحو الكمال في درجات، فأن التاريخ هو أيضاً قصة تطور عضوي للحضارة في سيرها نحو النمو. وهذا هو الخط الطبيعي الذي ترفد فيه كل جماعة «نهر الحضارة الكبير الواسع المستمر في مسيرته».

اما الاتجاه الثالث فهو التفسير المادي للتاريخ الذي دعا اليه كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٦٦) وفردريك إنغلز (١٨٣٠ - ١٨٩٥) خاصة في البيان الشيوعي (١٨٤٨). وهذه النظرية كانت بحاجة الى ثورة اكتوبر (١٩١٧) في روسيا كي تأخذ سبيلها الى نواح مختلفة في العالم. وبسبب انتشار الانظمة والمؤسسات والأحزاب الشيوعية اصبح للتفسير المادي للتاريخ دولة لها أتباع من المؤمنين بالعقيدة، أو دارسيها، أو «المتطرّفين» بها.

وفي أواسط القرن الحالي طلع علينا أرنولد توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٣) بكتابه «دراسة التاريخ» وفيه درس توينبي الحضارات التي ظهرت في العالم بأجمعها وحللها ونقّب عن تواصلها وتنابذها وخرج بنظريته التي يمكن أن تلخص بنظرية «التحدي والاستجابة».

ومع ما في هذه الآراء التي أشرت اليها، وغيرها مما تركته تخفيفاً عنكم وعني، من جاذب أو لاقط أو منفر، فهي قبلت ان تظل متجاورة متحابة متنافرة شأن الانسان الذي «ولّدها» ورباها. وقد تنتشر فكرة أحياناً كأنها زيٌ يقبلُ عليه ثم يهمَل.

(٤)

لم أقبل أنا بأيٍّ من هذه النظريات، ولكنني لم أضف اليها واحدة. كل ما عملته هو أنني تقرّيت أحداث التاريخ في مسارها، وتتبعت تطور الحضارات في مساقها، وسرت مع البشرية في شعابها؛ وكنت أتوقف بين الفينة والفينة محاولاً استقراء السبب في التقدم أو التأخر؛ في النهضة أو في الأسن؛ في الانفتاح أو في التقوقع.

وكنت قد نقلت اهتمامي من الأزمنة الكلاسيكية الى التاريخ العربي الاسلامي. وهنا جابهتني قضية خاصة. إن الباحثين الذين أشرت الى فلسفتهم التاريخية كانوا في أكثرهم من أهل الغرب. وكانت دراساتهم، باستثناء توينبي، تقوم على تتبع التاريخ الكلاسيكي أو التاريخ الأوروبي. ورأيت ان الكثير من المقاييس التي استعملت هناك لا تصلح لقياس التاريخ العربي الاسلامي.

ولأشر الى بعض أوجه الخلاف. من حيث الدعوة الاسلامية أصلاً فقد قامت في مناطق تختلف اختلافاً بيّناً عن أي من الدعوات التي عرفتها أوروبة، وثنية كانت أم مسيحية. والدولة العربية الاسلامية التي قامت بعد وفاة الرسول (ص) تمت خلال مئة سنة، مع أن أياً من الامبراطوريات الأخرى احتاجت مدة أطول بكثير. ودولة الخلافة، مع الزمن، جعلت من المجتمع الذي احتضنها واحتضنته فئة من الناس قبل أكثر افرادها ديناً واحداً هو الاسلام، وعبروا عن آرائهم بلغة واحدة هي العربية. والى هذا كله فان الحضارة العربية الاسلامية قامت على سُوقها وتطورت وأتت كلها في منطقة عرفت من الحضارات الكثير العميق الجذور.

هذه وغيرها كثير كان يختلف عما خبرهُ الباحثون، وإذن فنحن بحاجة الى منهاج خاص يصح أن نلجأ إليه لدرس هذا التاريخ - سياسة وحضارة وأدباً ولغة وفكراً.

من هنا كان عليّ أن أتدبَّر الأمر بحيث استطيع ان افهم موضوعي أولاً، وان انقله الى الذين يحبون ان يفهموه ثانياً. واذن فلنجرب مناهج تناسب عملنا.

قرأت أخبار الناس متنقلين تجاراً وجنوداً، ومقيمين في الأسواق والمزارع، ومعلمين في الجوامع والمدارس، وعمّال دولة قضاة وكتاباً وولاة وحكاماً، ومتجمعين حول السلطان مداحين وطالبي صلته؛ قرأت أخبار الناس

في التواريخ وكتب التراجم وكتب الأدب ودواوين الشعر والقصة والأسطورة. رأيت القوم يعملون مجتمعين ومنفردين في سبيل هذه المجموعة الكبيرة من البشر التي ارتضت، أو ارتُضيَ لها، أن تقيم في حدود دولة الخلافة على سعتها. وكانت الأخبار كثيرة متنوعة - متناقضة - متنافرة.

وفيما كنت أقرأ الأخبار كنت ألصق أذني بالأرض كي اسمع نبض الحياة فيها. نبض خفيف دقيق على غرار الجاذبية الشعرية في النبات. ومع كل نبضة كانت ذرة من ذرات الجيولوجية الاجتماعية تنتقل من طبقة سفلى الى أخرى عليا. وهذه الطبقات الجيولوجية الاجتماعية الحضارية قديمة العهد على ما نعرف. فالرقعة التي نمت فيها الحضارة العربية أصلاً، وهي أرض الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل، عرفت حضارات كانت قد اجتازت من تاريخها نحو أربعة آلاف من السنين لما بدأت الدعوة الاسلامية. فهل من الممكن ان تكون الحضارات التي قامت هنا وهناك، قد انتهى أمر الواحدة منها لمجرد أن جاء قوم بلغة جديدة أو نظم جديدة؟ المرجح هو أن تظل لهذه آثار تدخل، على مهل، في بناء الجماعة الجديدة وتعينها على التكوّن ثم على التطور.

ولنأخذ على ذلك مثلاً واحداً. في القرن الثامن عشر قبل الميلاد كان حمورابي سيد بابل وما تبعها. وقد خلف حمورابي قانونه المعروف. فهل هذا الشيء المنقوش بالكتابة المسمارية وباللغة البابلية هو البدء والنهاية؟ لا. حمورابي ورثَ قوانين متعددة تعود الى الذين كانوا يقيمون في المنطقة قبله. وقد نسَّق هذه، مع ما استطاع ان يضيفه، ونقشه؛ فثبت في أعين الناس. لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد. فقد انتقلت محتويات هذا القانون مع حكامه الى ما افتتح من البلاد، ومع غيرهم الى من مر ببابل أو أقام فيها أو نفي اليها مثل اليهود. فقانون حمورابي بالذات حجر كبير في بناء بدىء به قبل أيامه بقرون، وظل أثره ماثلاً عند الجيران بعد أيامه بقرون.

هذا مثل واحد من أمثلة لا عداد لها يمكن أن يتابع المؤرخ فيها هذه الأهمية التراكمية للانجازات الحضارية في المنطقة، وللامتصاص الذي كان يتم بين حضارة سابقة وحضارة لاحقة.

فضلاً عن ذلك فأن هذه المنطقة بالذات تقع على تقاطع طرق قد لا يكون له مثيل في عالمنا. ومن ثم فان كل انسان، تاجراً كان أم جندياً، سائحاً أم مهاجراً، رحّالة أم باحثاً عن مكان يضع فيه رأسه، كان ينقل معه الى سكان هذه المنطقة إذا ما وصلها شيئاً من بلاده. قصة أو رواية أو سلعة أو زياً أو علماً. كما ان مثل هذا الانسان اذا انتقل من هذه المنطقة متجهاً شمالاً أو جنوباً وشرقاً أو غرباً، كان يحمل معه بعض ما يجده الى حيث يذهب.

ليس الذي أقوله الآن شيئاً جديداً. فطالما قال لنا معلمونا منذ الصغر ان الجغرافية والتاريخ توءمان لا ينفصلان، وأنه لا بد من اتقان الأولى لفهم الثاني. لكنني وجدت، خلال تجربتي الطويلة في التعامل مع الكتابات التاريخية التي ولدتها أقلام العاملين في حقل التاريخ في بلادي أن الاحتفال بالجغرافية هو احتفال محدود، هذا إذا وجد.

من هنا كانت عنايتي الدقيقة بتفهم الأحوال الجغرافية المفصّلة للمنطقة أولا وللرقعة الواسعة التي انتشرت فيها الحضارة العربية الاسلامية فيما بعد.

هذه الرقعة التي تمتد من أواسط آسية وحوض السند شرقاً الى جبال البرانيز غرباً، كانت تحتوي على جميع أنواع الأرضين والأجواء. فالصحارى تقتطع منها رقاعاً مختلفة في أواسط آسية وإيران والجزيرة العربية فضلاً عن الأجزاء الشمالية من الصحراء الكبرى في افريقية. وتزيّنها من الشرق الى الغرب أحواض انهار من جيحون وسيحون والسند الى دجلة والفرات وأنهار بلاد الشام الخجولة والنيل المتدفق، وأنهار متنوعة الروحات والغدوات تقطع المناطق الشمالية من افريقية. وبين الصحارى وأودية الانهار تمتد السهوب التي تحار بين الجفاف الشديد أحياناً وشبه الجفاف أحياناً أخرى. وهناك سلاسل الجبال المتباينة ارتفاعاً من ألبرز في شمال ايران وزغروس في غربها الى طوروس وسلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية. ومع ان

السهول الساحلية تغلب على مصر وليبيا وتونس، فأن جبال الاطلس ترقى في الجزائر والمغرب الى أجواز الفضاء. وعلى سفوح هذه الجبال وفي أطراف السهوب وفي حمى التلال تقوم مراع جيدة. ومن ثم فهذه الرقعة الواسعة، في مجملها، غنية بالنتاج الزراعي والحيواني. فاذا انتظمت أمورها وحفظ الأمن فيها ونظمت شؤونها، كانت لها صناعات تعتمد موادها الخام، وتجارات يقوم التبادل فيها على ما ينتج قطر دون قطر آخر.

وحري بالذكر أنه في العقود التي سبقت الفتوح العربية كانت اجزاء مختلفة من هذه الرقعة الواسعة تتبع دولاً مختلفة، منها القوي الواسع المدى مثل دولة الساسانيين ودولة البيزنطيين، ومنها الدويلات التي تحشر بين هاتين أو تقوم على جانبهما، كامارات آسية الصغرى الغربية ودول اليمن ودويلات الشمال الافريقي وأماراته. فلما سار العرب فاتحين، واستقروا حيث كانت هذه كلها، أصبحت هناك دولة واحدة، فزالت الحواجز التجارية السابقة وأصبحت السوق الواحدة، أياً كان موقعها، قد تكون سوقاً «عالمية» بمعنى السعة.

وهذا الاتساع كله يحملنا على التفكير في أمور عديدة منها علاقة الحكومة المركزية بحكومات الأطراف، وتطور هذه العلاقة خلال القرون الثلاثة الاسلامية الأولى؛ ومنها موقع امارات الأطراف في مثل هذه الحالات؛ ومنها الطرق التجارية الرئيسية والتبدل الذي كان يصيبها بسبب حرب أهلية أو حرب دفاعية في الجهات النائية؛ ومنها هذه المدن العديدة التي عرفتها الرقعة إما بناء جديداً، أو إصلاحاً لمدينة قديمة أو تطويراً لمدينة قائمة. فمن النوع الأول البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة والقيروان والمهدية وسجلماسة وتاهرت وفاس؛ ومن النوع الثاني - أي المجدّد - صور وعكا والموصل. اما من أهم المدن التي كانت قائمة ولكنها طورت نيسابور ودمشق في المشرق وقرطبة في المغرب. والواقع أن هذه المدن المتنوعة تبلغ العشرات عداً.

ولا يمكن ان ننسى أن هذه الحضارة العربية الاسلامية التي غُرِسَتْ بذورها في دمشق وبغداد والفسطاط والمدينة والكوفة والبصرة لم تلبث بعد أن اينعت ان انتقلت غراس منها شرقاً حتى بخارى في أواسط آسية، وغرباً حتى قرطبة وفاس. وهذه الغراس استوت هناك أشجاراً مثمرة. وهكذا أصبح في كل ربع وصل اليه القوم حضارة تتصل أجزاؤها فتكون ديناميكية الحركة، عالمية النظرة، منفتحة على القضايا والمشكلات، تأخذ القليل وتعطي الكثير. وكان لا بد للمؤرخ الحديث من أن يحيط علماً بهذه الأجواء الطبيعية لهذه الرقعة.

تعرفت الى الرقعة قراءة وكانت مفصلة دقيقة. ولن أطيل عليكم في سرد التفاصيل. لكن الذي كان أكبر أثراً في تفهّمي للتطور الذي مرّ بالعرب والاسلام منذ ان كانت الفتوح والانتشار، هو تعرفي الشخصي على تلك الأماكن.

كنت قد عرفت بلاد الشام معرفة دقيقة في العشرينات والثلاثينات. فقد سرت على الأقدام في المنطقة الممتدة من القدس الى اللاذقية، عبر لبنان من جنوبه الى شماله. وتسلّقت جبل الشيخ وجبل صنين والقرنة السوداء وجبال اللاذقية. ومشيت في انحاء انطاكية. أما ما تبقى فقد تنقلت فيه على دابة، بما في ذلك الجمل، أو في كارة أو عربة أو سيارة أو سكة الحديد. ومنذ أواسط الثلاثينات، وخلال الأربعينات أضفت مصر الى مناطق التعرف الشخصي. ومنذ سنة ١٩٥١، وحتى قبل مدة قصيرة، توسعت أسفاري وتنقلاتي بحيث أنني أعرف أرض الرافدين والمغرب العربي معرفة دقيقة وعرفت الخليج العربي ودوله والمملكة العربية السعودية. وخلال هذه الفترة زرت الهند مرتين وتنقلت في أرجائها وزرت العديد من الأماكن الاسلامية الحضارة فيها، كما زرت الباكستان وسمرقند وطشقند وبخارى وخوارزم.

هذه الرحلات، وتفاصيلها كثيرة، وأنواع التنقل فيها مختلفة، أتاحت لي، لأنني بحثت عن ذلك بحثاً جدياً، أن أكوِّنَ صورة للتطور الحضاري الذي عرفته دول الخلافة والدول التي تفرعت منها أو خرجت عنها.

وأزعم غير مبالغ، أن مثل هذا الاهتمام وهذه العناية كان لهما أثر بالغ في تكوين معرفتي للتاريخ وفهمي إياه.

(٥)

في هذا التطور الحضاري كله كان العامل الأول الفعال هو الاسلام. فالاسلام هو أصلاً نظام اجتماعي محيط بنواحي الحياة - روحية كانت أم شرعية أم اجتماعية. كان هذا شيئاً جديداً بالنسبة للمنطقة. وكان الاسلام، منذ البدء، إمامة ورئاسة - إمامة في الدين ورياسة في الحكم: لكنهما كانتا مجتمعتين أصلاً في شخص واحد. بدأ هذا في أيام الرسول (ص) في المدينة، وسار مع الخلفاء (باستثناء الوحي طبعاً)، حرباً وسلماً، فتحاً وإدارة، وحضارة. فدولة الخلافة لم تكن دولة ثيوقراطية بمعنى ما حاول الكثيرون القيام به في دنيا المسيحية. دولة الخلافة أولاً ودول الخلافة ثانياً والدول الأخرى فيما بعد كانت تقوم على هذا الأساس.

والحضارة العربية الاسلامية نشأت وأينعت وانتشرت بدفع من الاسلام وقوة منه، هذا مع العلم ان بين الذين عملوا فيها كان هناك جماعات مسيحية كبيرة. ومن هنا فقد ارتبطت نواحي هذه الحضارة - فكراً وسياسة وأدباً وفناً - بالاسلام.

والمجتمع الذي ظهر وتطور في هذه الدول التي قامت مع الاسلام وفي ظلاله، كانت تسيّره القواعد المستمدة من الاسلام.

هذه أمور بدهية بالنسبة لكم ولغيركم كثيرين. لكن معرفتها شيء، والتعامل معها كي تصور مكتوبة شيء آخر. خاصة ونحن نجدُ، في دراستنا لتاريخ انتشار الاسلام في رقاع نائية، أن الاسلام الذي يعود مصدره الى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، يظل صحيحاً واضحاً. لكن الاسلام الذي يمارسه الكثيرون من المسلمين في بقاع نائية، دخلت فيه، بحكم تأثير الطبقات الجيولوجية الاجتماعية القائمة هناك، أمور كثيرة لم يكن باستطاعة الناس التخلّص منها، لأسباب يتعذر التحدث عنها هنا.

دراسة مثل هذه الحضارة والحكومة المرتبطة ارتباطاً عضوياً بالدين - بالاسلام - كانت تقتضي منهاجاً خاصاً. والذي أراه أن عدداً من مؤرخي العرب المحدثين، الذين تصدّوا لمثل هذه الدراسة، كانت لهم مناهج مختلفة. فنحن بعد في دور «الكشف عن الأنسب من المناهج». أما أنا فقد وجدت أنني يجب أن أتعرف، مثلاً، على ما كان يؤمن به اجتماعياً ودينياً أهل السودان الغربي، على اختلاف قبائلهم، كي أفهم تطور الاسلام - بما حمل من قيم روحية ونظم اجتماعية - في تلك الجهات. وبعبارة أخرى لا نستطيع أن نكتفي بدرس الاسلام على ما شرحه الفقهاء والعلماء إذا كنّا نريد ان نفهم الحضارة العربية الاسلامية نشوءاً وتطوراً وانجازات وانتشاراً. وكما قررت أن أتعرف الى الجو الطبيعي الذي حدث فيه كل هذا، أخذت نفسي بالتعرف الى الجو الاجتماعي الذي وصل اليه كل هذا.

(٦)

هذا الذي تم على أيدي القوم من أهل العلم، وضع باللغة العربية. واللغة العربية لم تكن معرفتها، قبل الاسلام، مقصورة على الجزيرة، بل كانت معروفة في انحاء كثيرة من بلاد الشام وأرض الرافدين. ومع ذلك فان هذه اللغة لما خرجت من مهدها الأصلي مع القوم الفاتحين وتحت راية القرآن، انتشرت لغة للادارة، ولغة لشرح الاسلام، ولغة هي آلية الحضارة العربية الاسلامية في جميع مجالاتها وانجازاتها.

وكان العبء الأول الذي ألقي على عاتق هذه اللغة هو شرح الاسلام وتفسيره وتوضيحه. وقد تم هذا على مستويات ثلاثة، ولو أنها لم تكن بالضرورة مراحل ثلاثاً متتابعة. أما المستوى الأول، ولعله كان الأقرب منالاً، هو تفسير الاسلام للعرب الذين اسلموا، سواء في ذلك الذين ظلوا في الجزيرة أم الذين انتشروا مع الفتوح والهجرة الى الأقطار الجديدة.

اما المستوى الثاني فهو توضيح الاسلام لمعتنقيه من غير العرب الذين تعلموا العربية أو الذين كانوا

يعرفونها. هنا كان على العربية - لغة وعاملين فيها ولها - أن تسبر أغوار معتقدات هؤلاء القوم وآرائهم، كي توضح الاسلام لهم من الزاوية التي يمكن ان يفهموها. وهو أمر تمَّ على يد الأجيال التي تلت جيل الفتوح. إذ كان على القوم أن يدركوا أولاً هذه الجماعة التي يخاطبون ونفسيتها.

أما المستوى الثالث فهو الأكثر تعقيداً والأكبر أثراً في تطور الفكر الاسلامي. إن الاسلام لما خرج من الجزيرة واتخذ له مواقع في البلاد المفتوحة واجه جماعات من المسيحيين والصابئة والمجوس وغيرهم. وبعض هذه، مثل الفئات المسيحية، كان الخلاف العقائدي والفكري قد دبَّ فيما بينها، وأخذت تقارع الحجة بالحجة. وكانت قد وجدت في فلسفة اليونان ومنطقهم الآلة الصالحة لهذه المقارعة. فنقلت ما استطاعت نقله الى لغاتها، والسريانية بشكل خاص. فلما جاء الاسلام ووجهَ بها، ووُجهَت هي به، كان لا بد له من أن يُتْقِنَ الاداة نفسها كي يقارعها الحجة بالحجة. ومن هنا كانت عناية العرب المسلمين بالفلسفة - وأسموها الحكمة - والمنطق. وكان على اللغة العربية، التي وسعت كتاب الله لفظاً وغاية، أن تتسع لتوضيح هذا الكتاب بالذات الى قوم أتقنوا عدة الجدل، وذلك بأن تتقن هي عدة الجدل هذه. وأنا أرى أن العناية المبكرة بالفلسفة والمنطق كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا الموقف الجديد. قد نسمي هذا الموقف الجديد تحدياً؛ وعندها نقول إن اللغة العربية استجابت لهذا التحدي المبكر بما عرف عنها من عبقرية.

واللغة العربية سارت مع الاسلام وتحت راية القرآن من منطقة الى منطقة. لكن انتشارها عبر القرون الطويلة، ولو اننا نقتصر هنا على الأزمنة الأولى، جعل منها لغة المعرفة على مدى الرقعة على تباين مساقاتها. فكانت هي الأداة التي دوَّن بها الناس نتاجهم في مناطق تمتد من ايران وجوارها الى الاندلس وجنوب المغرب. وقد تعمدت الاشارة الى ايران لأن هذه البلاد كانت لها، قبل الاسلام، لغة علم وفلسفة وأدب وتشريع، ومع ذلك فقد كتبت بالعربية حتى القرن الرابع للهجرة / القرن العاشر للميلاد. عندها انتعشت لغتها من جديد وأصبحت لغة الأدب والشعر، لكن ظل للعربية فيها مجال كبير. وذكرت جنوب المغرب عامداً متعمداً لأن القوم هناك لم تكن لهم لغة علم مكتوبة، فكان من الطبيعي أن يعبروا عن الجديد عندهم بالعربية.

لكن اللغة العربية أصبحت لغة التخاطب، فضلاً عن الكتابة، في كل شأن من شؤون الحياة، في مناطق معينة. انتشرت في أرض الرافدين وبلاد الشام ومصر والساحل الافريقي الشمالي. ولهذا سببان: الواحد لغوي والآخر جغرافي. اما السبب اللغوي فيعود الى أن المنطقة الشرقية من هذه الرقعة كان أهلها قد تكلموا واستعملوا خلال قرون طويلة لغات سامية - كان أحدثها السريانية وريثة الأرامية؛ ومثل ذلك يقال عن منطقة تونس وما اليها. لذلك وقعت اللغة العربية هنا على قوم ألفوا التركيب اللغوي المماثل لما عندها. فكان أن تعمقت وترسخت أقدامها هنا. وأما العامل الجغرافي فيعود الى انتشار اعداد كبيرة من العرب في هذه الأجزاء من دولة الخلافة. فالعرب لم يتحملوا مناخ الجبال المرتفعة، لذلك قطنوا السهول. واللغة لا تنتشر الا باصحابها. ومن هنا فقد عصت المناطق الجبلية على اللغة العربية، ووقفت حاجزاً في سبيلها - من زغروس الى طوروس الى الاطلس.

مثل هذا الأمر - أي اللغة العربية وانتشارها وحتى انحسارها اخيراً عن ايران وما والاها شرقاً - يجب ان يدرك بدقائقه وتفاصيله لأنه يضع بين ايدينا - عندما نتمثله تماماً - خارطة أدق وأوضح للحضارة العربية، وتحول دوننا وإصدار الأحكام العامة، البعيدة عن الواقع.

(٧)

وبعد فلماذا ندرس التاريخ؟

قيل لنا إن في التاريخ عبرة، وإننا نتعلم من التاريخ دروساً تمكننا من تجنب الزلل وتنكب الخطل. ولكن الذي تعلمته أنا من إمعاني في درس التاريخ: تعليماً وكتابة ومناقشة هو أن هذا شيء فيه من خداع النفس

الكثير. ولو أن في الامر صحة، لكان العالم تجنب الأخطاء التي يرتكبها قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وسنة بعد سنة وحتى يوماً بعد يوم. وأنا لا أريد أن أدلل على ذلك بسوق المثل تلو المثل. ولكنني أود أن أعود الى العهد القديم من الكتاب المقدس لأذكركم بعبارة ما أكثر ما ترد فيه، وهي: وعاد بنو اسرائيل وصنعوا الشر في عين الرب، فسلط عليهم أصناف العقاب لعلهم يرعون. ولكن لا يكادون يعودون الى صوابهم فيغفر الله لهم، حتى يرجعوا الى صنع الشر في عين الرب. فاذا كنا نجد في درس التاريخ عبرة، فهذه عبرة «سلبية».

وقيل الكثير حول التاريخ وفوائده. وقد قلبت الأمر على وجوهه، وجلت مع المتفلسفين حول التاريخ والمفسرين له. فرأيتني، بعد طول الرحلة، قد وصلت الى نتيجة - وقد تكون مؤقتة - وهي أن التاريخ هو ضمير الأمة الواعي، وأن دراسة تاريخ أية أمة إنما ينتهي بالدارس الى كشف الغطاء عن محتويات هذا الضمير. فاذا تيسّر له ذلك اتضح له من الماضي ما قد يفسر الحاضر تفسيراً كلياً، أو قد يقتصر التفسير على شيء جزئي. وفي الحالين يلقي درس الماضي اضواء على الماضي. ولنذكر، على سبيل المثال، أمراً واحداً اتضح لي بسبب هذا الكشف الجزئي عن تاريخنا، وهو أننا لا نزال أسرى ميتافيزيقية غيبية تلف حياتنا وتفكيرنا.

والمهم هو أن تاريخنا - تاريخ العرب في ديارهم الأولى وفي الرقعة الواسعة التي تربعوا فيها عرش السلطة، واقاموا فيها للحضارة - بكل أنواعها وأصنافها ومؤسساتها - صروحاً عالية: هذا التاريخ لم يكتب بعد كتابة علمية. هناك كتب قليلة ودراسات جدية أقل. ولكن اكثر ما كتب يتصف بأمرين: الأول انه أرَّخ للأحداث سرداً، وتناول القضايا سطحياً. والأمر الثاني هو أن اكثر الذين تناولوا الموضوعات التاريخية ظلّوا أسرى اعتبارات وتقاليد قيدتهم وربطت السنتهم، وعقلت أقلامهم؛ هذا على افتراض انهم نجحوا، ولو بعض النجاح، في سبر الأغوار وكشف الأسرار التي تحيط بتاريخنا.

يتحدث المؤرخون عن المصادر ويعدون الوثائق من أهمها. وكان من الطبيعي ان نعود نحن الى مصادر تاريخنا والوثائق التي يمكن الاهتداء اليها. وهذا، بطبيعة الحال، هو جزء من التراث. والتراث هو جماع مآتي الجماعة في تاريخها. ونحن لما عدنا الى التراث لم نتعامل معه التعامل الصحيح. فهناك خطأ في الاختيار، ونقص في التحقيق، وعجز عن الافادة منه، حتى عندما يكون الاختيار صحيحاً والتحقيق جيداً. ذلك باننا وقفنا من هذا التراث موقف التقديس لا موقف التفهم. فقيدنا ذلك بدل ان يكون عوناً لنا لاطلاق الفكر التاريخي والكتابة التاريخية من العقال. فلا التحليل يجوز، ولا التفسير يسمح به، ولا النقد يعطى حقه. وإذن، فالكثيرون من الذين كتبوا التاريخ، طبّلوا وزمروا. وكان القراء المساكين يرقصون على أصوات الطبول التي تقرع وعلى الأبواق التي يُنفخ فيها. وأي خروج عن الخط التقليدي، والقصد منه اخضاع تاريخنا للتجريح والتفسير والتحليل والنقد، فأمر يعاقب عليه الكاتب - وعلى أيدي التاريخ والتراث. ولعل شر ما لقي تاريخنا أن عرضه مفسرو التاريخ مادياً في سوق النخاسة الفكرية، فخرجوا به وكأنه قَدْ قُدَّ من أضلاع ماركس وانغلز على نحو ما فعل بندلي جوزي وراشد البراوي، وعلى نحو ما يفعل ناشئة المؤرخين اليوم في عالمنا.

وأنا من هذا كله، وغيره مما يقوقع ويحد، براء. فتاريخ العرب عندي يجب أن يوضع بعد ان يعرض على نار النقد العلمي اللاذعة، كي يصفو. والا فنحن نكتب قصصاً لا تاريخاً. وليكن! لكن لنقل ذلك ولا ندعي العلم والبحث العلمي والتحرر.

ومن هنا فان الأمر في الكتابة التاريخية، وأنا معني بتاريخنا أصلاً، هو أن يتصف المؤرخ بالاخلاص لبحثه إخلاصاً عقلياً صريحاً.

يجب ان يحب المؤرخ موضوعه، بل لعلي أقول يجب ان يعشقه. ولكن العشق الذي يربط بين اثنين - ذكراً وأنثى مثلاً - هو عشق فيه اندفاع وهبوط، وهو عشق ينتظر مكافأة على هذا العشق. أما العشق الذي أدعو اليه،

والاخلاص الذي أطلبه فيمن يتصدى لكتابة التاريخ فهو أخلاص عقلي للعلم، للبحث، للتفكير، للنقد، للكتابة - كي تكون النتيجة لا تميل مع الهوى.

أنا كتبت في التاريخ كثيراً، ولا ازال اكتب، وآمل أن استمر في ذلك مدة طويلة. وقد أخطىء وقد أسيء فهم نص أو وثيقة. ولكنني لا أتجنى، وأعرف في قرارة نفسي انني مخلص لعملي إخلاصاً عقلياً فكرياً صادقاً.

اعتاد القارئ في العالم العربي على سياسيين
وقياديين يكتبون مذكراتهم،
وظل رجال الفكر اقلية في هذا المضمار.

الدكتور نقولا زيادة يخرق هذا التقليد ويطل
بمذكرات وذكريات
لا تتحدث عن السياسة والحروب
بل عن رجال الفكر والتاريخ والتقدم العلمي والفكري
والاجتماعي من خلال علاقات مميزة
مع شرائح كبيرة من الرجال - القادة
ومن الرجال العاديين الذين عايشهم وعاصرهم
وامتزج معهم علميًا وعمليًا.

فهو لم يعش في برج عاجي بل عاش واحدا من الناس
يحاول ان ينقل اليهم،
كما نشهد من هذه «الايام»،
ما ملك عقله من معرفة ورؤية.

ولعل الدكتور زيادة هو اول كاتب يعري نفسه هذه
التعرية التامة التي نشاهدها على صفحات
«أيامي» في جزئيه الاول والثاني.